سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (٥٣)

شرح

رياض الصالحين

من كلام سيد المرسلين

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
عنيزة - ص.ب : ١٩٢٩
هاتف : ٣٦٤٢١٠٧/ ٠٦ - ٣٦٤٢٠٠٩/ ٠٦
www.binothaimeen.com
info@binothaimeen.com

بعون الله وتوفيقه
طبع هذا الكتاب عدة طبعات منذ نشره عام ١٤١٥ هـ
نفع الله به وأجزل المثوبة والأجر لمؤلفه

طبعة عام ١٤٢٦هـ

مدار الوطن للنشر - الرياض

هاتف : ٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط) فاكس : ٤٧٢٣٩٤١ - ص.ب : ٣٣١٠

فرع السويدي : هاتف : ٤٢٦٧١٧٧ - فاكس : ٤٢٦٧٣٧٧
المنطقة الغربية : ٠٥٠٤١٤٣١٩٨ . المنطقة الشرقية والرياض : ٠٥٠٣١٩٣٢٦٨
المنطقة الشمالية والقصيم : ٠٥٠٤١٣٠٧٢٨ المنطقة الجنوبية : ٠٥٠٤١٣٠٧٢٧
التوزيع الخيري : ٠٥٠٦٤٣٦٨٠٤ - ٢٨٣١٤٥٣ التسويق والمعارض الخارجية : ٠٥٠٦٤٩٥٦٢٥

البريد الإلكتروني : Pop@dar-alwatan.com
موقعنا على الإنترنت : www.madar-alwatan.com

مقدّمة الإمام النووي رحمه الله

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد القهار، العزيز الغفار، مكور الليل على النهار، تذكرة لأولي القلوب والأبصار، وتبصرة لذوي الألباب والاعتبار، الذي أيقظ من خلقه من اصطفاه فزهدهم في هذه الدار، وشغلهم بمراقبته وإدامة الأفكار، وملازمة الاتعاظ والادكار، ووفقهم للدؤوب في طاعته والتأهب لدار القرار، والحذر مما يسخطه ويوجب دار البوار، والمحافظة على ذلك مع تغاير الأحوال والأطوار.

أحمده أبلغ حمدٍ وأزكاه، وأشمله وأنماه.

وأشهد أن لا إله إلا الله البر الكريم، الرؤوف الرحيم، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وحبيبه وخليله، الهادي إلى صراط مستقيم، والداعي إلى دين قويم، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين، وآل كلٍّ وسائر الصالحين.

أما بعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧]، وهذا تصريح بأنهم خلقوا للعبادة، فحق عليهم الاعتناء بما خلقوا له، والإعراض عن حظوظ الدنيا بالزهادة؛ فإنها دار نفاد لا محل إخلاد، ومركبُ عبور لا منزل حبور، ومشرع انفصام لا موطن دوام.

فلهذا كان الأيقاظ من أهلها هم العُبَّاد، وأعقل الناس فيها هم الزهاد؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ولقد أحسن القائل:

إنَّ للهِ عِبَادًا فُطَنَا ... طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتَنَا
نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا ... أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنَا
جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا ... صَالِحَ الأَعْمَالِ فِيهَا سُفُنَا

فإذا كان حالها ما وصفتُه، وحالُنا وما خلقنا له ما قدمتُه؛ فحقٌ على المكلف أن يذهب بنفسه مذهب الأخيار، ويسلك مسلك أولي النهى والأبصار، ويتأهب لما أشرتُ إليه، ويهتم بما نبَّهتُ عليه.

وأصوب طريق له في ذلك، وأرشد ما يسلكه من المسالك: التأدب بما صح عن نبينا سيد الأولين والآخرين، وأكرم السابقين واللاحقين، صلوات الله وسلامُه عليه وعلى سائر النبيِّين، وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**والله فِي عونِ العَبْدِ مَا كانَ العَبْدُ في عَوْنِ أخِيهِ**»[(١)]، وأنه قال: «مَن

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى =

دَلَّ عَلى خَيرٍ، فَلَهُ مثل أجْر فَاعِلِه»[١]، وأنه قال: «**مَنْ دَعَا إلى هُدى كَانَ لَهُ مِنَ الأجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبعَهُ، لا يَنْقُصُ ذلكَ مِنْ أُجورِهِمْ شيئًا**»[٢]، وأنه قال لعلي رضي الله عنه: «**فَوَالله لأنْ يَهْديَ الله بِك رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**»[٣].

فرأيتُ أن أجمع مختصرًا من الأحاديث الصحيحة، مشتملاً على ما يكون طريقًا لصاحبه إلى الآخرة، ومحصلاً لآدابه الباطنة والظاهرة، جامعًا للترغيب والترهيب وسائر أنواع آداب السالكين: من أحاديث الزهد، ورياضات النفوس، وتهذيب الأخلاق، وطهارات القلوب وعلاجها، وصيانة الجوارح وإزالة اعوجاجها، وغير ذلك من مقاصد العارفين.

وألتزمُ فيه أن لا أذكر إلا حديثاً صحيحًا من الواضحات، مضافًا إلى الكتب الصحيحة المشهورات، وأصدِّر الأبواب من القرآن العزيز بآيات كريمات، وأوشح ما يحتاجُ إلى ضبط أو شرح معنًى خفيٍّ بنفائس من التنبيهات.

= الذكر، رقم (٢٦٩٩).

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، رقم (١٨٩٣).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب العلم، باب من سنَّ سنة حسنة أو سيئة، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة رقم (٢٦٧٤).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم (٤٢١٠)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه رقم(٢٤٠٦).

وإذا قلت في آخر حديث: «متفق عليه»، فمعناه: رواه البخاري ومسلم.

وأرجو إنْ تمَّ هذا الكتاب أن يكون سائقًا للمعتني به إلى الخيرات، حاجزًا له عن أنواع القبائح والمهلكات.

وأنا سائلٌ أخًا انتفع بشيء منه أن يدعو لي، ولوالديّ، ومشايخي، وسائر أحبابنا، والمسلمين أجمعين، وعلى الله الكريم اعتمادي، وإليه تفويضي واستنادي، وحسبي الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

مقدمة الشارح

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا؛ من يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتابُ الله، وأحسن الهدي هديُ محمد ﷺ، وشرّ الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعة ضلالة.

فهذه الخطبة الطويلة المفيدة «لكتاب رياض الصالحين»، الذي ألفه الشيخ الحافظ النووي - رحمه الله - وهو كتابٌ جيد ولم يسبق لنا قراءته.

ورأيت أن نبدأ فيه ونسأل الله تعالى أن نتمه على خير؛ لأنه كتاب نافع للقلوب، وللأعمال الظاهرة والمتعلقة بالجوارح؛ لذلك ينبغي أن يعتنى

بهذا الكتاب.

وقد طلب ـ رحمه الله ـ ممن انتفع به أن يدعو له ولوالديه ولسائر المسلمين؛ فنسأل الله أن يغفر له ولوالدَيْهِ ولسائر المسلمين، وأن يجمعنا وإياه وإخواننا المؤمنين في دار كرامته؛ إنه جواد كريم، وأسأل الله أن يوفقنا لإتمامه، وأن ينفعنا به، وأن يغفر لمؤلفه وأن يجزيه عن الإسلام والمسلمين خيرًا، والله الموفِّق.

الشارح

محمد بن صالح العثيمين

بسم الله الرحمن الرحيم

١- باب الإخلاص وإحضار النيّة
في جميع الأعمال والأقوال البارزة والخفية

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾ [الحج: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران: ٢٩].

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى: «باب الإخلاص وإحضار النية، في جميع الأعمال والأقوال البارزة والخفية»:

«النيّة» محلها القلب، ولا محل لها في اللِّسان في جميع الأعمال؛ ولهذا كان من نَطَق بالنِّية عند إرادة الصَّلاة، أو الصوم، أو الحج، أو الوضوء، أو غير ذلك من الأعمال: كان مُبتدعًا قائلاً في دين الله ما ليس منه؛ لأن النبي ﷺ كان يتوضأ، ويُصلِّي، ويتصدق، ويصوم، ويحج، ولم يكن ينطق بالنية؛ فلم يكن يقول: اللهم إني نويت أن أتوضأ، اللهم إني نويت أن أصلي، اللهم إني نويت أن أتصدق، اللهم إني نويت أن أصوم، اللهم إني نويت أن أحج، لم يكن يقول هذا؛ وذلك لأن النيّة مَحلُّها القلب، والله عز وجل يعلم ما في القلب، ولا يخفى عليه شيء؛ كما قال الله تعالى في الآية التي ساقها المؤلف: ﴿ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ

تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ ﴾ [آل عمران: ٢٩].

ويجب على الإنسان أن يُخْلصَ النيّة لله سبحانه وتعالى في جميع عباداته، وأن لا ينوي بعبادته إلا وجه الله والدار الآخرة.

وهذا هو الذي أمر الله به في قوله: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾، أي مخلصين له العمل، ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥]، وينبغي أن يستحضر النية، أي: نية الإخلاص في جميع العبادات.

فينوي مثلاً الوضوء، وأنّه توضأ لله، وأنه توضأ امتثالاً لأمر الله.

فهذه ثلاثة أشياء:

١ ـ نية العبادة.

٢ ـ ونيّة أن تكون لله.

٣ ـ ونيّة أنه قام بها امتثالاً لأمر الله.

فهذا أكمل شيء في النيّة.

كذلك في الصَّلاة: **تنوي أولاً**: الصلاة، وأنها الظهر، أو العصر، أو المغرب، أو العشاء، أو الفجر، أو ما أشبه ذلك، **وتنوي ثانيًا**: أنك إنما تصلِّي لله عز وجل لا لغيره؛ لا تصلي رياءً ولا سمعة، ولا لتمدح على صلاتك، ولا لتنال شيئًا من المال أو الدنيا، **ثالثًا**: تستحضر أنك تصلي امتثالاً لأمر ربك حيث قال: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ﴿ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ ﴾ ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ إلى غير ذلك من الأوامر.

وذكر المؤلِّف ـ رحمه الله ـ عدة آيات كلُّها تدل على أن النية محلُّها

القلب، وأن الله - سبحانه وتعالى - عالمٌ بنية العبد، ربَّما يعمل العبد عملاً يظهر أمام الناس أنه عملٌ صالحٌ، وهو عملٌ فاسدٌ أفسدتْهُ النية؛ لأن الله - تعالى- يعلم ما في القلب، ولا يُجازَى الإنسانُ يوم القيامة إلا على ما في قلبه، لقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٨ - ١٠]، يعني: يوم تختبر السرائر - القلوب - كقوله: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩، ١٠].

ففي الآخرة: يكون الثواب والعقاب، والعملُ والاعتبار بما في القلب.

أمَّا في الدنيا: فالعبرة بما ظهر، فيعامل الناس بظواهر أحوالهم، ولكن هذه الظواهر: إنْ وافقَتْ ما في البواطن، صَلُحَ ظاهره وباطنه، وسريرته وعلانيته، وإن خالفتْ وصار القلبُ منطويًا على نيَّة فاسدةٍ - نعوذ بالله - فما أعظم خسارته!! يعملُ ويَتْعَبُ ولكنْ لا حظَّ له في هذا العمل؛ كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: **«قال الله تعالى: أنا أغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»**[1].

فالله الله!! أيها الإخوةُ بإخلاصِ النية لله سبحانه وتعالى!!

واعلم: أن الشيطان قد يأتيك عند إرادة عَمَلِ الخَيْرِ، فيقول لك: إنَّك

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم(٢٩٨٥).

إنما تعمل هذا رياءً، فيُحْبِطُ همتك ويثبِّطك ولكنْ لا تلتفتْ إلى هذا، ولا تطعه، بل اعمل ولو قال لك: إنك إنما تعمل رياءً أو سمعة؛ لأنك لو سئلتَ: هل أنتَ الآن تعمَلُ هذا رياءً وسمعة؟ لقلت: لا!!

إذَنْ فهذا الوسواس الذي أدْخَلَهُ الشَّيطان في قلبك، لا تلتفتْ له، وافعل الخير، ولا تقل: إني أرائي وما أشبه ذلك.

* * *

١ - وعن أميرِ المُؤْمِنِينَ أبي حفص عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ بنِ نُفَيْلِ بنِ عبد العزَّى بن رِيَاحِ بنِ عبدِ اللهِ بْنِ قُرْطِ بنِ رَزَاحِ بنِ عَدِيِّ بنِ كَعْبِ بن لُؤَيِّ بن غالبِ القرشيِّ العدويِّ - رضي الله عنه - قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إنَّمَا الأعْمَالُ بالنِّيَّاتِ، وإنَّمَا لِكلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ، فَمَنْ كانتْ هِجْرَتُهُ إلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امْرَأَةٍ يَنكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إلَىٰ مَا هَاجَرَ إلَيْهِ»؛ متفقٌ على صحَّته[1]؛ رواه إماما المحدِّثين: أبو عبدالله محمدُ بنُ إسماعيلَ بْنِ إبراهيمَ ابنِ المُغِيرَةِ بنِ بَرْدِزْبَة الجُعْفِيُّ البخاريُّ، وأبو الحُسَيْنِ مسلمُ بنُ الحَجَّاجِ ابنِ مسلمِ القُشَيْرِيُّ النَّيسابُورِيُّ - رضي الله عنهما - في صَحِيْحَيْهما اللذَيْنِ هما أصحُّ الكتب المصنَّفة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ رقم(١)، ومسلم، كتاب الجهاد، باب قوله ﷺ: **«إنما الأعمال بالنية»** رقم (١٩٠٧).

الشرح

لما كان هذا الباب في الإخلاص، إخلاصِ النية لله عز وجل، وأنه ينبغي أن تكون النية مخلصةً لله في كل قول، وفي كل فعل، وعلى كُلِّ حال: ذكر المؤلِّف من الآيات ما يتعلَّق بهذا المعنى، وذكر ـ رحمه الله ـ من الأحاديث ما يتعلَّق به أيضًا، وصدَّر هذا بحديث عمر بن الخطاب الذي قال فيه: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَىٰ**»:

هاتان الجملتان اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ فيهما:

فقال بعض العلماء: إنهما جملتان بمعنىً واحدٍ، وإنَّ الجملة الثَّانية تأكيدٌ للجملة الأولىٰ.

ولكن هذا ليس بصحيح؛ وذلك لأنَّ الأصل في الكلام أن يكون تأسيسًا لا توكيدًا، ثم إنهما عند التأمُّل يتبيَّن أنَّ بينهما فرقًا عظيمًا؛ فالأولى سببٌ، والثانية نتيجةٌ:

الأولى: سبب يُبيِّن فيها النبي ﷺ أن كُلّ عمل لابد فيه من نيّة؛ فكلُّ عمل يعمله الإنسان وهو عاقل مختار، فلابدَّ فيه من نية، ولا يمكن لأي عاقل مختار أن يعمل عملاً إلا بنيّة؛ حتى قال بعض العلماء: «لو كلَّفنا الله عملاً بلا نية، لكان من تكليف ما لا يُطاق!».

وهذا صحيح؛ كيف تعملُ وأنتَ في عقلك، وأنتَ مختارٌ غير مكره، كيف تعمل عملاً بلا نيّة؟! هذا مستحيل؛ لأن العمل ناتج عن إرادة

وقدرة، والإرادة هي النية.

إذنْ: فالجملة الأولى معناها أنه ما من عامل إلا وله نيّة، ولكنَّ النيات تختلف اختلافًا عظيمًا، وتتباين تباينًا بعيدًا كما بين السماء والأرض.

من الناس من نيّته في القمة في أعلى شيء، **ومن الناس** من نيته في القمامة في أخسِّ شيء وأدنى شيء؛ حتى إنك لترى الرَّجُلَيْن يعملان عملاً واحدًا يتفقان في ابتدائه وانتهائه وفي أثنائه، وفي الحركات والسكنات، والأقوال والأفعال، وبينهما كما بين السَّماء والأرض، وكلُّ ذلك باختلافِ النية.

إذن: الأساسُ أنه ما من عمل إلا بنية، ولكن النيات تختلف وتتباين.

نتيجة ذلك قال: «وإنَّما لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نوى»؛ فكل امرىء له ما نوى: إنْ نوى الله والدار الآخرة في أعماله الشرعية، حصَلَ له ذلك، وإن نوى الدُّنيا، فقد تحصُلُ وقد لا تحصل.

قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]، ما قال: عجَّلنا له ما يُريد؛ بل قال: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾، لا ما يشاء هو؛ ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ لا لكلِّ إنسان، فقيَّد المُعَجَّلَ والمُعجَّل له؛ فمن الناس: من يُعْطَىٰ ما يريد من الدنيا، ومنهم: من يعطى شيئًا منه، ومنهم: من لا يعطى شيئًا أبدًا.

أمَّا: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]، لابدَّ أن يجني ثمراتِ هذا العمل الَّذي أراد به وَجْهَ الله والدار الآخرة.

إذَنْ «**إنَّما لكلِّ امرئ ما نوى**».

وقوله: «إنَّما الأعْمَالُ بالنِّيات...إلخ» هذه الجملةُ والتي قبلها ميزانٌ لكلِّ عمل؛ لكنه ميزان الباطن، وقوله ﷺ فيما أخرجه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها: «**مَنْ عمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ**»[1] ميزانٌ للأعمال الظاهرة.

ولهذا قال أهل العلم: «هذان الحديثان يجمعان الدِّينَ كُلَّهُ» حديث عمر: «**إنما الأعمال بالنيات**» ميزانٌ للباطن، وحديثُ عائشة: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا**» ميزانٌ للظاهر.

ثم ضرَبَ النبي ﷺ مثلاً يطبِّق هذا الحديثَ عليه، قال: «**فَمَنْ كانَتْ هِجْرَتُهُ إلى الله وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إلى الله وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كانتْ هِجْرَتُهُ لِدُنيا يُصِيبُهَا أو امْرأةٍ يَنْكِحُها، فَهِجْرَتُه إلى مَا هَاجَر إليه**»:

«الهجرة»: أن ينتقل الإنسانُ من دار الكفر إلى دار الإسلام. مثلُ أن يكون رجلٌ في أمريكا ـ وأمريكا دار كفر ـ فيُسْلم، ولا يتمكن من إظهارِ دينه هناك، فينتقلُ منها إلى البلاد الإسلامية، هذه هي الهجرة.

وإذا هاجر النَّاس، فهم يختلفون في الهجرة:

الأول: منهم من يهاجر، وَيَدعُ بلده إلى الله ورسوله؛ يعني إلى شريعة

---

(١) الحديث بهذا اللفظ أخرجه مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨)، ورواه البخاري بلفظ: «**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد**» كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧).

الله التي شرعها الله على لسان رسوله ﷺ هذا هو الذي ينال الخير، وينال مقصوده؛ ولهذا قال: «فَهِجْرَتُه إلى الله وَرَسُوله»؛ أي فقد أدركَ ما نَوى.

الثاني من المهاجرين: هاجرَ لدنيا يُصيبها، يعني: رجلٌ يحبُّ جمعَ المال، فسمع أنَّ في بلاد الإسلام مَرتعًا خصبًا لاكتساب الأموال، فهاجر من بلد الكفر إلى بلد الإسلام؛ من أجل المال فقط، لا يقصد أن يستقيم دينه، ولا يهتمُّ بدينه، ولكن همُّه المال.

الثالث: رجلٌ هاجر من بلد الكفر إلى بلد الإسلام؛ يريد امرأة يتزوجها، قيل له: لا نزوِّجك إلاَّ في بلاد الإسلام، ولا تسافر بها إلى بلد الكفر، فهاجر من بلده ـ بلدِ الكفرِ ـ إلى بلاد الإسلام؛ من أجل أن يتزوَّج هذه المرأة.

فمريدُ الدنيا ومريد المرأة، لم يهاجر إلى الله ورسوله، ولهذا قال النبي ﷺ «**فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»، وهنا قال «**إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيه**» ولم يقل «فَهِجْرَتُهُ إلى دُنيا يُصِيبُها أَوْ امرأة يَنْكِحُهَا» فلماذا؟

قيل: لطولِ الكلام؛ لأنه إذا قال: فهجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها؛ صار الكلام طويلاً، فقال: «**هِجْرَتَهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيه**»

وقيل: بل لم يُنصّ عليهما؛ احتقارًا لهما، وإعراضًا عن ذكرهما؛ فلأنهما حقيران؛ أي: الدنيا، والزوجة. ونية الهجرة ـ التي هي من أفضل الأعمال ـ لإرادة الدنيا والمرأة؛ نية منحطَّةٌ سافلةٌ، قال: «**فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**» فلم يذكر ذلك احتقارًا، لأنها نية فاسدة مُنْحَطَّة.

وعلى كلِّ حال، سواء هذا أو هذا أو الجميع؛ فإن هذا الذي نوى بهجرته الدُّنيا، أو المرأة التي ينكحها، لا شكَّ أن نيته سافلةٌ مُنْحَطَّةٌ هابِطةٌ، بخلاف الأوَّلِ الذي هاجرَ إلى الله ورسوله ﷺ.

أقسام الهجرة:

الهجرةُ تكون للعمل، وتكون للعامل، وتكون للمكان.

القسم الأول: هجرةُ المكان: فأن ينتقل الإنسان من مكان تكثر فيه المعاصي، ويكثر فيه الفُسوق، وربَّما يكون بلدَ كفرٍ إلى بلدٍ لا يوجد فيه ذلك.

وأعْظمهُ الهجرة من بلدِ الكفر إلى بلد الإسلام، وقد ذكر أهل العلمِ أنَّه يجب على الإنسان أن يهاجرَ من بلدِ الكفر إلى بلد الإسلام إذا كان غيرَ قادرٍ على إظهارِ دينه.

وأمَّا إذا كان قادرًا على إظهار دينه، ولا يُعارَضُ إذا أقامَ شعائر الإسلام؛ فإنَّ الهجرة لا تجب عليه، ولكنها تستحبُّ، وبناءً على ذلك يكونُ السَّفر إلى بلد الكفر أعظمَ من البقاء فيه، فإذا كان بلد الكفر الذي كان وطنَ الإنسان؛ إذا لم يستطع إقامةَ دينه فيه؛ وَجَبَ عليه مغادرته، والهجرةُ منه.

فكذلك إذا كان الإنسانُ من أهل الإسلام، ومن بلادِ المسلمين؛ فإنَّه لا يجوز له أن يُسافر إلى بلد الكفر؛ لِما في ذلك من الخطر على دينه، وعلى أخلاقه، ولما في ذلك من إضاعة ماله، ولما في ذلك من تقوية اقتصاد الكفار. ونحن مأمورون بأن نغيظ الكفارَ بكلِّ ما نستطيع، كما قال

الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٠].

فالكافر أيًّا كان، سواء كانَ من النصارى، أو من اليهود، أو من الملحدين، وسواء تسمى بالإسلام أم لم يَتَسمَّ بالإسلام، الكافر عدوٌّ لله ولكتابه ولرسوله وللمؤمنين جميعًا، مهما تلبَّس بما يتلبس به؛ فإنَّه عدو!!

فلا يجوز للإنسان أن يُسافر إلى بلد الكفر إلاَّ بشروطٍ ثلاثة:

الشرط الأول: أن يكون عنده علمٌ يدفع به الشُّبهات؛ لأنَّ الكفار يوردون على المسلمين شُبهًا في دينهم، وشُبهًا في رسولهم، وشُبهًا في كتابِهم، وشُبهًا في أخلاقِهم، وفي كلِّ شيءٍ يُورِدُونَ الشُّبهةَ؛ ليبقى الإنسانُ شاكًّا متذبذبًا، ومن المعلوم أنَّ الإنسانَ إذا شكَّ في الأمور التي يجب فيها اليقين؛ فإنَّه لم يقُم بالواجب، فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورُسله واليوم الآخر والقدر خيرِهِ وشرِّه ـ الإيمانُ بهذه ـ يجب أن يكون يقينًا؛ فإنْ شكَّ الإنسانُ في شيء من ذلك فهو كافر.

فالكفار يُدْخِلون على المسلمين الشكَّ، حتى إنَّ بعض زعمائهم صرَّح قائلاً: لا تحاولوا أن تُخرجوا المسلم من دينه إلى دين النصارى، ولكن يكفي أن تشكِّكوهُ في دينه؛ لأنَّكم إذا شكَّكْتموه في دينه سَلَبْتُموه الدِّين، وهذا كاف، أنتم أخرجوه من هذه الحظيرة التي فيها الغلبة والعزة والكرامة ويكفي. أما أن تحاولوا أن تدخلوه في دين النصارى ـ المبني

على الضلال والسفاهة ـ فهذا لا يمكن، لأنَّ النصارى ضالون، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ[1]، وإن كان دين المسيح عليه الصلاة والسلام دينَ حق، لكنَّهُ دينُ الحقِّ في وقته قبل أن ينسخ برسالة النبي ﷺ فإن الهدى والحق فيما جاء به الرسول ﷺ.

الشرطُ الثاني: أن يكون عنده دينٌ يَحْمِيه من الشَّهوات؛ لأنَّ الإنسان يدفع به الشبهات. الذي ليس عنده دين إذا ذهب إلى بلاد الكفر انغمس؛ لأنَّه يجد زهرة الدنيا، هناك شهوات، من خمر، وزنىٰ، ولِواط. كلُّ إجرام موجود في بلادِ الكفر. فإذا ذهب إلى هذه البلاد يُخشى عليه أن ينزلقَ في هذه الأوحال، إلاَّ إذا كان عنده دين يحميه. فلابد أن يكون عند الإنسان دينٌ يحميه من الشهوات.

الشرطُ الثالثُ: أن يكون مُحتاجًا إلى ذلك؛ مثل أن يكون مريضًا؛ يحتاج إلى السفر إلى بلاد الكفر للاستشفاء، أو يكون مُحتاجًا إلى علمٍ لا يوجد في بلد الإسلام تَخَصُّصٌ فيه؛ فيذهبُ إلى هناك ويتعلم، أو يكون الإنسان محتاجًا إلى تجارة، يذهب ويتَّجرُ ويرجع. المهم أنه لابد أن يكون هناك حاجة، ولهذا أرى أنَّ الذين يُسافرون إلى بلد الكفرِ من أجل السّياحة فقط، أرى أنهم آثمون، وأنَّ كُلَّ قِرشٍ يَصْرفُونه لهذا السفرِ فإنَّهُ

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة فاتحة الكتاب، رقم(٢٩٥٣، ٢٩٥٤) بلفظ: «**اليهود مغضوبٌ عليهم، والنصارى ضُلاّل**»، وأحمد (٤/ ٣٧٨) بلفظ: «**إنَّ المغضوب عليهم اليهود، وإنَّ الضالين النصارى**». وقال الترمذي: حسن غريب، وهو في صحيح الجامع آخِر حديث.

حرام عليهم، وإضاعةٌ لمالهم، وسيُحاسبون عنه يوم القيامة؛ حين لا يجدون مكانًا يتفسَّحون فيه أو يتنزهون فيه، حين لا يجدون إلاَّ أعمالهم، لأن هؤلاء يُضَيِّعون أوقاتهم، ويُتلِفُون أموالهم، ويُفسدون أخلاقهم، وكذلك ربَّما يكون معهم عوائلهم، ومِن عَجَبٍ أنَّ هؤلاء يذهبون إلى بلاد الكفر التي لا يُسمع فيها صوت مؤذن، ولا ذِكْرُ ذاكر، وإنما يُسمع فيها أبواق اليهودِ، ونواقيس النصارىٰ، ثم يبقون فيها مدَّةً هم وأهلوهم وبنوهم وبناتهم، فيحصلُ في هذا شرٌّ كثيرٌ، نسأل الله العافية والسلامة.

وهذا من البلاء الذي يحلُّ الله به النكبات، والنكباتُ التي تأتينا، والتي نحن الآن نعيشها كلُّها بسبب الذنوب والمعاصي، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

نحن غافلون، نحن آمنون في بلادنا. كأنَّ ربنا غافل عنَّا، كأنَّه لا يعلم، كأنه لا يُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته.

والناس يعصرون في هذه الحوادث، ولكنَّ قلوبَهُم قاسيةٌ والعياذ بالله! وقد قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

أخذناهم بالعذاب، ونزل بهم، ومع ذلك ما استكانوا إلى الله، ومَا تضرَّعوا إليه بالدُّعاء، وما خافوا من سَطْوتِه، ولكن قست القلوب ـ نسألُ الله العافية ـ وماتت؛ حتى أصبحت الحوادث المصيريَّةُ تمرُّ على القلب وكأنها ماءٌ بارد، نعوذُ بالله من موْت القلب وقسوته، وإلاَّ لو كان الناس في

عقلٍ، وفي صحوة، وفي قلوب حية، ما صاروا على هذا الوضع الذي نحن عليه الآن، مع أننا في وضع نُعتبَرُ أنَّنا في حال حرب مدمِّرة مُهلكة، حرب غازات الأعصاب والجنود وغير ذلك، ومع هذا لا تجد أحدًا حرَّك ساكنًا إلا أن يشاء الله، هذا لا شكَّ أنه خطأ، إنَّ أُناسًا في هذه الظروف العصيبة ذهبوا بأهليهم يتنزَّهون في بلاد الكفر، وفي بلاد الفسق، وفي بلاد المجون والعياذُ بالله!

والسَّفر إلى بلادِ الكُفر للدعوة يجوز؛ إذا كان له أثر وتأثير هناك فإنه جائز؛ لأنَّه سفرٌ لمصلحة، وبلادُ الكُفرِ كثيرٌ من عوامهم قد عُمِّيَ عليهم الإسلامُ، لا يدرون عن الإسلام شيئًا، بل قد ضُلِّلوا، وقيل لهم إنَّ الإسلام دينُ وحْشِيَّةٍ وهمجيَّةٍ ورعاع، ولاسيما إذا سمع الغرب بمثل هذه الحوادث التي حصلت على أيدي من يقولون إنهم مسلمون، سيقولون أين الإسلام؟! هذه وَحْشِيَّةٌ!! وحوشٌ ضاريةٌ يعدو بعضها على بعض، ويأكل بَعْضُها بعضا، فينفرُ الناس من الإسلام بسبب أفعالِ المسلمين، نسأل الله أن يهدينا جميعًا صراطَهُ المستقيم.

القسم الثَّاني: هجرةُ العملِ، وهي أن يهجر الإنسان ما نَهاهُ الله عنه من المعاصي والفُسُوق كما قال النبي ﷺ: «**المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِن لِسَانِهِ ويَدِهِ، والمُهَاجِرُ منْ هَجَر ما نَهى الله عَنْهُ**»[1] فتهجُرُ كل ما حرَّم الله

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي، رقم (٦٤٨٤) ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأيِّ أموره أفضل، رقم (٤١).

عليك، سواء كان مما يتعلَّق بحقوق الله، أو مما يتعلَّق بحقوق عباد الله؛ فتهجر السَّبّ والشَّتم والقتل والغش وأكل المال بالباطل وعقوق الوالدين وقطيعة الأرحام وكلَّ شيء حرَّم الله تهجره، حتى لو أنَّ نفسك دَعَتْكَ إلى هذا وألحّت عليك، فاذكر أنَّ الله حرَّم ذلك حتى تهجره وتبعد عنه.

القسم الثالث: هجرة العامل، فإنَّ العامل قد تجب هجرته أحيانًا، قال أهل العلم: مثل الرَّجل المجاهر بالمعصية؛ الذي لا يُبالي بها؛ فإنَّهُ يُشْرَعُ هَجْره إذا كان في هَجْرِه فائدةٌ ومصلحة.

والمصلحة والفائدة أنَّه إذا هُجِر عَرَفَ قدْر نفسه، ورجع عن المعصية.

ومثالُ ذلك: رجلٌ معروفٌ بالغشِّ بالبيع والشراء؛ فيهجره النَّاس، فإذا هجروه تَابَ من هذا وَرَجَع ونَدِمَ، ورجلٌ ثانٍ يتعامل بالرِّبا؛ فيهجره الناس، ولا يُسلِّمون عليه، ولا يكلِّمونه؛ فإذا عرف هذا خجلَ من نفسه وعاد إلى صوابه، ورجل ثالث ـ وهو أعظمهم ـ لا يصلِّي؛ فهذا مرتدٌّ كافرٌ ـ والعياذ بالله ـ، يجب أن يُهجر؛ فلا يُردُّ عليه السلام، ولا يُسلَّمُ عليه، ولا تجاب دعوته حتى إذا عرف نفسه ورجع إلى الله وعادَ إلى الإسلام انتفعَ بذلك.

أما إذا كان الهَجرُ لا يُفيد ولا ينفع، وهو من أجل معصية؛ لا من أجل كفر، لأنَّ الهَجرَ إذا كان للكفر فإنَّه يُهجر. والكافر المرتد يُهجر على كل حال ـ أفاد أم لم يفد ـ لكنَّ صاحب المعصية التي دون الكفر إذا لم يكن في هَجْرِهِ مصلحةٌ فإنه لا يحلُّ هجره؛ لأن النبي ﷺ قال: **«لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ ليالٍ، يَلْتَقِيانِ فَيُعْرِضُ هَذا وَيُعرِضُ هَذا، وخَيْرُهُمَا**

الَّذي يَبْدأُ بِالسَّلامِ»[١].

ومن المعلوم أنَّ المعاصي التي دون الكفر عند أهل السنة والجماعة لا تُخرِجُ من الإيمان.

فيبقى النظر بعد ذلك؛ هل الهجر مفيد أو لا؟ فإن أفادَ، وأَوْجَبَ أن يدع الإنسان معصيته فإنه يُهجر، ودَليل ذلك قِصَّةُ كعبِ بنِ مالكٍ ـ رضي الله عنه ـ، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع ـ رضي الله عنهم ـ الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فهَجَرَهُم النبيُّ ﷺ[٢]، وأمَر المسلمين بَهجرِهِم، لكنَّهم انتفعوا في ذلك انتفاعًا عظيمًا، ولجأوا إلى الله، وضَاقت عليهم الأرض بما رَحُبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وأيقنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه فتابوا وتاب الله عليهم.

هذه أنواع الهجرة: هجرة المكان، وهجرة العَمَل، وهجرةُ العامِل.

* * *

٢ ـ وعَن أمِّ المؤمِنِينَ أمِّ عَبْدِ الله عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يَغْزُو جَيْشٌ الكَعْبَةَ، فَإذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأرْضِ يُخْسَفُ بأوَّلِهِمْ وآخِرِهِمْ» قالَت: يا رسولَ اللهِ، كيفَ يُخْسَفُ بأوَّلهم وآخرهم

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الهجرة رقم (٦٠٧٧)، ومسلم كتاب البر والصلة، باب تحريم الهجر فوق ثلاث بلا عذر شرعي، رقم (٢٥٦٠).

(٢) إشارة إلى حديث كعبِ بن مالكٍ في قصَّةِ تخلُّفِهِ عن غزوة تبوك أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، رقم (٤٤١٨)، ومسلم، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالكٍ وصاحِبَيهِ، رقم (٢٧٦٩).

وفِيهم أسواقُهُم، ومن ليس منهم؟ قال: «يُخْسَفُ بأوَّلِهِمْ وآخرِهِمْ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ»(١) **[متفق عليه]، هذا لفظُ البخاريِّ.**

الشرح

ذكر المؤلِّفُ حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنَّ النبي ﷺ أخبرَ أنَّه يغزو جيشٌ الكعبة، الكعبة المُشرَّفة حماها الله وأنقذها من كل شر.

هذه الكعبةُ هي بيتُ الله؛ بناه إبراهيم، وابنه إسماعيل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وكانا يرفعانِ القَواعدَ مِنَ البيتِ ويقولان ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

هذا البيت أراد أبرهة أن يغزُوَه من اليَمَنِ، فغزاهُ بجيشٍ عظيمٍ في مقدّمته فيلٌ عظيمٌ؛ يُريد أن يهدم به الكعبة ـ بيت الله ـ فلمَّا قرب من الكعبة ووصل إلى مكانٍ يُقالُ له المُغَمَّس حَرَنَ الفيلُ، وأبى أن يتقدَّم، فجعلوا ينهرونه ليتقدَّم إلى الكعبة فأبى، فإذا صرفوه نحو اليَمن هَرْوَلَ وأسرعَ؛ ولهذا قال الرَّسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في غزوة الحديبية لمَّا أنَّ ناقَتَهُ حَرَنَتْ وأبتْ أن تمشيَ، فقال الصحابة: خَلأَتِ القَصْوَاءُ، خَلأَتِ القَصْوَاءُ ـ يعني حرنت، وبركت من غيرِ علَّةٍ ـ قال الرسول ﷺ: **«ما خَلأَتِ القَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلق!»**(٢)، فالنبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ يُدافع عن بهيمة،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب ما ذُكر في الأسواق، رقم (٢١١٨)، ومسلم، كتاب الفتن، باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت، رقم (٢٨٨٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، رقم (٢٧٣١).

لأنَّ الظُّلم لا ينبغي، ولو على البهائم.

«مَا خَلأَتِ القَصْوَاءُ، وَمَا ذاكَ لَهَا بِخُلُقٍ - أي عادة - **وَلكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيْلِ»** وحابِسُ الفيل: هُو الربُّ سُبحانَهُ وتَعالَى، **«وَالَّذِيْ نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُون فِيهَا حُرُمَاتِ الله إلاَّ أَعْطَيْتُهُم إيَّاهَا»**

المُهمُّ أَنَّ الكعبة غُزِيت مِنَ قِبَل اليَمن، في جيشٍ عظيمٍ، يقوده هذا الفيل العظيم؛ لِيهدم الكعبة، فلما وصلوا إلى المغمس أَبَى الفيل أن يَمشي، وحَرَن، فانتهروه، ولكن لا فائدة، فبقوا هناك وانحبسوا، فأرسلَ الله عليهم طيرًا أبابيلَ، والأبابيلُ: يعني الجماعات الكثيرة من الطيور، وكلُّ طيرٍ يحمِل حَجَرًا قد أمسكه برجله، ثُمَّ يرسِلُه على الواحد منهم، حتى يضربه مع هامته ويخرج إلى دبره ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل: ٥]، كأنهم زرع أَكَلَتْهُ البهائم، واندكُّوا في الأرض، وفي هذا يقول أميَّةُ بنُ الصَّلت:

حبسَ الفِيلُ في المُغَمَّس حتَّى ... ظَلَّ يَحْبُو كَأَنَّه معقورُ

فحمى الله عزَّ وجلَّ بيته مِنْ كيد هذا الملك الظالم الذي جاء ليهدم بيت الله، وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج: ٢٥].

في آخر الزَّمان يغزو قومٌ الكعبة، جيش عظيم.

وقوله: «حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ»؛ أي بأرضٍ واسعةٍ متَّسِعةٍ، خَسفَ الله بأوَّلهم وآخرهم.

خسفت بهمُ الأرض، وساخوا فيها هم وأسواقهم، وكلُّ من معهم.

وفي هذا دَليلٌ على أنَّهم جيشٌ عظيم؛ لأنَّ معهم أسواقهم؛ للبيعِ

والشراءِ وغيرِ ذلكَ.

فيَخسِفُ الله بأوَّلهم وآخرهم. لما قال الرسول ﷺ هذا، وَرَدَ على خاطِرِ عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ سؤال، فقالت: يا رسول الله «كَيفَ يُخْسَفُ بأوَّلِهِمْ وآخِرِهِمْ وفِيهِمْ أَسواقُهُمْ، وَمَنْ لَيسَ مِنْهُم؟» **أسواقهم**: الذين جاؤوا للبيع والشِّراء؛ ليس لهم قصد سيء في غزو الكعبة، وفيهم أُناسٌ ليسوا منهم تَبِعُوهُم من غير أن يعلموا بِخُطَّتِهم، فقال الرسول ﷺ: «**يُخْسَفُ بِأوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَأَسْوَاقِهِمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهم، ثُمَّ يُبْعَثُون يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى نِيَّاتِهِم**» كُلٌّ له ما نوىٰ.

هذا فرد من أفراد قول الرسول-عليه الصلاة والسلام ـ: «**إنَّما الأعْمَالُ بالنِّياتِ وإنَّما لِكُلِّ امرئ مَا نَوىٰ**».

وفي هذا الحديث عِبرةٌ: أنَّ من شارك أهل الباطل وأهل البغي والعدوان، فإنَّه يكون معهم في العقوبة؛ الصَّالح والطَّالح، العقوبةُ إذا وقعت تعمُّ الصالح والطالح، والبرّ والفاجر، والمؤمن والكافر، والمصلِّي والمستكبر، ولا تترك أحدًا، ثُمَّ يومَ القيامة يُبعثون على نِيَّاتهم.

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

والشَّاهدُ من هذا الحديثِ قول الرسول ﷺ: «**ثُمَّ يُبْعَثُون عَلَى نِيَّاتِهِم**» فهو كقوله: «**إنَّمَا الأعْمَالُ بالنِّيَّاتِ، وإنَّما لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوىٰ**».

* * *

٣ ـ وَعَنْ عائِشَةَ ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال النبي ﷺ: «لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلٰكِن جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوْا[1]» [مُتفقٌ عليه].

ومَعناهُ: لا هِجرةَ مِن مكَّةَ؛ لأنَّها صارَتْ دارَ إسلامٍ.

الشرح

في هذا الحديث نفى رسول الله ﷺ الهجرة بعد الفتح، فقال: «لاَ هِجْرَةَ» وهذا النَّفيُ ليسَ على عمومه، يعني أن الهجرة لم تبطل بالفتح، بل إنه «**لاَ تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوبَةُ، وَلاَ تَنْقَطِعُ التَّوبَةُ حَتَّى تَخرُجَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»[2] ـ كما جاء ذلك في الحديث عن رسول الله ﷺ ـ لكنَّ المُرادَ بالنَّفي هُنا نفيُ الهجرة من مكةَ كما قاله المؤلف ـ رحمه الله ـ؛ لأنَّ مكَّة بعد الفتح صارت بلاد إسلام، ولن تَعود بعد ذلك بلادَ كُفرٍ، ولذلك نفى النبي ﷺ أن تكون هجرة بعد الفتح.

وكانت مَكة تحت سيطرة المشركين، وأخرجوا منها رسول الله ﷺ، فهاجر ﷺ بإذن ربِّه إلى المدينة، وبعد ثمانِ سنواتٍ رجع النبيُّ ﷺ إلى مكةَ فاتحًا مُظَفَّرًا منصورًا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

فصارت مكّةُ بدل كونها بلدَ كفر، صارت بلد إيمان، وبلد إسلام، ولم يكن منها هجرة بعد ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير، رقم (٢٧٨٣)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد، رقم (١٨٦٤).

(٢) أخرجه أبوداود، كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت، رقم (٢٤٧٩)، وأحمد في المسند (٤/ ٩٩) وهو في صحيح الجامع رقم (٧٤٦٩).

وفي هذا دليلٌ على أنَّ مكة لن تعود لتكون بلاد كفر، بل ستبقىٰ بلاد إسلام إلى أن تقوم السَّاعة، أو إلى أن يشاء الله.

ثمَّ قال عليه الصلاة والسلام: «وَلكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ»؛ أي الأمرُ بعد هذا جهادٌ؛ أي يخرُجُ أهل مكة من مكة إلى الجهاد.

و«النِّـيَّة» أي النية الصالحة للجهاد في سبيل الله، وذلك بأن ينوي الإنسان بجهاده، أن تكون كلمة الله هي العليا.

ثم قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «وَإِذَا اسْتُنْفِرتُم فَانْفِرُوا» يعني: إذا استَنْفَركم وليُّ أمركم للجهاد في سبيل الله، فانفروا وجوبًا، وحينئذ يكونُ الجهاد فرضَ عين. إذا استُنْفِرَ الناس للجهاد؛ وجب عليهم أن ينفروا، وألاَّ يتخلَّف أَحدٌ إلاَّ من عذره الله، لقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ ﴾ [التوبة: ٣٨، ٣٩]، وهذا أحدُ المواضعِ التي يكون فيها الجهاد فَرْضَ عَيْنٍ.

الموضِعُ الثَّاني: إذا حَصرَ بَلْدَةَ العَدُوُّ؛ أي جاء العدوّ حتى وصل إلى البلد وحصر البلد، صار الجهاد فَرْض عينٍ، ووجَبَ على كلِّ أحدٍ أن يقاتلَ، حتى على النِّساء والشُّيُوخ القادرين في هذه الحال؛ لأنَّ هذا قتال دفاع.

وفرق بَين قِتال الدِّفاع وقِتال الطَّلب.

فيجب في هذه الحال أن ينفر الناس كلُّهم للدِّفاع عن بلدهم.

الموضِعُ الثَّالث: إذا حضر الصفّ، والتقىٰ الصفَّان؛ صفُّ الكفارِ وصفُّ المسلمين؛ صار الجهاد حينئذٍ فرض عَينٍ، ولا يجوز لأحدٍ أن ينصرف كما قال الله تعالـــى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦].

وقد جعل النبي ﷺ التَّوليَ يومَ الزَّحفِ من السَّبع المُوبِقات[(١)].

الموضع الرابع: إذا احتِيْجَ إلى الإنسان؛ بأن يكون السِّلاح لا يعرِفُهُ إلاَّ فردٌ من الأفراد، وكان النَّاس يحتاجون إلى هذا الرجل؛ لاستعمال هذا السلاح الجديد مثلاً؛ فإنَّه يتعيَّن عليه أن يُجاهد وإن لم يستنفره الإمام وذلك لأنَّه مُحتاجٌ إليه.

ففي هذه المواطنِ الأربعةِ، يكونُ الجهاد فرض عين.

وما سِوى ذلك فإنَّه يكون فرض كفاية.

قال أهلُ العلمِ: ويجبُ على المسلمين أن يكون منهم جهاد في العام مرة واحدة، يجاهد أعداء الله؛ لتكون كلمةُ اللهِ هي العُليا، لا لأجل أن يدافعوا عن الوطن مِن حيثُ إنَّه وطنٌ، لأنَّ الدِّفاع عن الوطن مِنْ حيثُ هو وطنٌ يكونُ من المؤمن والكافر، حتى الكُفَّارُ يُدافِعُونَ عن أوطانهم، لكنَّ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا...﴾ رقم (٢٧٦٦). ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم (٨٨).

المسلم يدافع عن دين الله، فيدافِعُ عن وطنه؛ لا لأنَّه وطنه مثلاً، ولكن لأنَّه بَلدٌ إسلاميٌّ؛ فيدافِعْ عنه حماية للإسلام الذي حلَّ في هذه البلد.

ولذلك يجب علينا في مثلِ هذه الظُّروف التي نعيشها اليوم، يجب علينا أن نُذَكِّرَ جميع العَامَّة بأن الدعوةَ إلى تحرير الوطن، وما أشبه ذلكَ دعوةٌ غيرُ مناسبة، وأنَّه يجبُ أن يُعبَّأَ النَّاسُ تعبئةً دينية، ويُقال إنَّنا ندافع عن ديننا قبل كل شيء؛ لأنَّ بلدنا بلدُ دين، بلدُ إسلامٍ يحتاجَ إلى حمايةٍ ودفاعٍ، فلابدَّ أن ندافع عنها بهذه النيّة. أمَّا الدِّفاع بنية الوطنيَّة، أو بنيّة القوميّة؛ فهذا يكون من المؤمن والكافر، ولا ينفع صاحبه يوم القيامة، وإذا قُتِلَ وهو يدافع بهذه النية فليس بشهيد؛ لأن الرسول ﷺ سُئِل عن الرجل يُقاتل حميّة، ويُقاتل شَجَاعةً، ويُقاتِل ليُرِيَ مكانَه أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُوْنَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيْلِ الله**»[1].

انتبه إلى هذا القيدِ «**مَنْ قاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا**» لا لأنَّه وطنُهُ وإذا كُنت تُقاتِلُ لوطِنِكَ؛ فأنت والكافر سواء، لكن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ممثلةً في بلدك؛ لأنَّ بلدك بلد إسلام؛ ففي هذه الحال يكونُ القتالُ قتالاً في سبيل الله.

وثبت عنه ﷺ أنَّه قال: «**لاَ يُكْلَمُ أَحَدٌ فِيْ سَبِيلِ الله - وَاللهُ أعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ - أَيْ يُجْرَح - إلاَّ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ؛ اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّم،**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، رقم (٢٨١٠). ومسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، رقم (١٩٠٤).

والرِّيحُ رِيْحُ المِسْكِ»(١).

فانظُر كيف اشترطَ النبيُّ ﷺ للشهادة أن يكون الإنسان يُقاتِلُ في سبيل الله، والقتال في سبيل الله؛ أن يُقاتِلَ لتكون كلمة الله هي العليا.

فيجب على طلبة العلم أن يبيِّنُوا للنَّاسِ أن القتال للوطن ليس قتالاً صحيحًا، وإنما يُقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وأُقاتِلُ عن وطني؛ لأنَّه وطنٌ إسلاميٌّ، فأحميه من أعدائه وأعداء الإسلام؛ فبهذه النيَّة تكونُ النية صحيحةً. والله الموفِّق.

* * *

٤ ـ وَعَن أَبي عبد الله جَابِر بْنِ عبدِالله الأنصاريِّ ـ رضي الله عنهما ـ قال: كُنَّا مَعَ النَّبي ﷺ فِي غَزَاةٍ فَقَالَ: «إنَّ بِالمَدِيْنَةِ لَرِجَالاً ما سِرْتُم مَسِيرًا، ولاَ قَطَعْتُمْ وَادِيًا إلاَّ كانُوا مَعَكُم؛ حَبَسهُم المَرَضُ». وفي رِوايةٍ: «إلاَّ شَرَكُوكُمْ فِي الأَجْرِ»(٢). **[رواه مُسلِمٌ].**

ورواهُ البخاريُّ عن أنَسٍ ـ رضي الله عَنْه ـ قال: «رَجَعْنَا مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ مَعَ النَّبيِّ ﷺ فقال: إنَّ أقوامًا بالمَدِينةِ خَلْفَنا، ما سَلَكْنا شِعْبًا، وَلا وَادِيًا إلاَّ وَهُمْ مَعَنا، حَبَسَهُمُ العُذْرُ».

---

(١) أخرجه البخاريّ، كتاب الجهاد، باب من يخرج في سبيل الله، رقم(٢٨٠٣). ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، رقم(١٨٧٦).

(٢) الرِّواية الأولى أخرجها مسلم، كتاب الإمارة، باب ثواب من حَبَسَهُ عن الغَزوِ مرضٌ أو عذر آخر، رقم (١٩١١)، والرواية الثانية أخرجها البخاري، كتاب الجهاد والسِّير، باب من حبسه العذر عن الغزو، رقم (٢٨٣٩).

الشرح

قوله: «فِي غَزَاةٍ» أي في غزوة.

فمعنى الحديث أن الإنسان إذا نَوَى العمل الصالح، ولكنه حَبَسه عنه حابس فإنه يُكتب له أجرُ ما نوى.

أما إذا كان يعمله في حال عدم العذر؛ أي: لمَّا كان قادرًا كان يعمله، ثمَّ عجز عنه فيما بعد؛ فإنَّه يُكتبُ له أجرُ العمل كاملاً، لأن النبي ﷺ قال: «**إِذَا مَرِضَ العَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْل ما كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**»(١).

فالمُتمنِّي للخير، الحريصُ عليه؛ إن كان من عادته أنه كان يعمله، ولكنَّه حَبَسه عنهُ حابسٌ، كُتِبَ لَهُ أجره كاملاً.

فمثلاً: إذا كان الإنسان من عادته أن يصلِّي مع الجماعة في المسجد، ولكنَّه حبسه حابس؛ كنومٍ أو مرضٍ، أو ما أشبهه فإنَّه يُكْتب له أجر المصَلِّي مع الجماعة تمامًا من غير نقص.

وكذلك إذا كان من عادته أن يصلي تطوُّعًا، ولكنَّهُ مَنَعهُ مِنْهُ مانع، ولم يتمكَّن منه؛ فإنَّهُ يُكتبُ له أجرُهُ كاملاً، وكذلك إن كان من عادته أن يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، ثمَّ عجز عن ذلك، ومنعه مانع؛ فإنَّه يُكْتبُ له الأجر كاملاً.

وغيرُهُ من الأمثلة الكثيرة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة، رقم (٢٩٩٦).

أما إذا كان ليس من عادته أن يفعله؛ فإنه يُكتب له أجر النيَّة فقط، دون أجر العمل.

ودليلُ ذلك: أنَّ فقراء الصحابة رضي الله عنهم قالوا: يا رَسُول الله سَبَقَنا أهْلُ الدُّثور بالدَّرجات العلى، والنَّعيم المقيم - يعني: إن أهل الأموال سبقوهم بالصَّدقة والعتقِ - فقال النبي ﷺ: «**أفَلاَ أُخْبِرُكم بِشَيءٍ إذا فَعَلْتُمُوهُ أدْرَكْتُم مَنْ سَبَقكم، ولَم يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ إلاَّ مَنْ عَمِلَ مِثْلَ ما عَمِلْتُم!! فَقَالَ: تُسبِّحُوْنَ وتُكَبِّرُوْنَ وتَحْمدُوْنَ دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ ثلاثًا وثَلاثين**» ففعلوا، فعلِمَ الأَغنياءُ بذلك؛ ففعلوا مثلما فعلوا، فجاء الفقراء إلى الرسول ﷺ وقالوا: يا رسول الله سَمِعَ إخْواننا أهلُ الأموالِ بما فعلنا؛ ففعلوا مثله، فقال النبي ﷺ: «**ذَلِك فَضْلُ الله يُؤتِيهِ مَنْ يَشَاء**»[(١)] والله ذو الفضلِ العظيم. ولم يقل لهم: إنَّكم أدركتم أجر عملهم، ولكن لا شك أنَّ لهم أجر نيَّة العمل.

ولهذا ذكر النبيُّ عليه الصلاة والسلام فيمن آتاه الله مالاً؛ فجعل ينفقُهُ في سُبُل الخيرِ، وكانَ رجلٌ فقيرٌ يقولُ: لو أنَّ لي مالَ فُلان لعمِلتُ فيه مِثلَ عَمَلِ فُلانٍ، قال النبي ﷺ: «**فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فأجرُهُمَا سَواءٌ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٣). ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم(٥٩٥).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، رقم (٢٣٢٥)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب النية، رقم (٤٢٢٨)، وقال =

أي سواءٌ في أجر النيَّة، أمَّا العملُ فإنَّهُ لا يُكتب له أجره إلا إن كان من عادته أن يعمله.

● **وفي هذا الحديث**: إشارة إلى أنَّ مَنْ خرج في سبيل الله، في الغزو، والجهاد في سبيل الله، فإنَّ له أجرَ ممشاه، ولهذا قال النبي ﷺ: «مَا سِرْتُم مَسِيرًا ولا قَطَعْتُمْ وَادِيًا ولا شِعْبًا إلاَّ وهُمْ مَعَكُم».

ويدلُّ لهذا قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١].

ونَظيرُ هذا: أنَّ الرجل إذا توضَّأ في بيته فأسبغَ الوُضوءَ، ثمَّ خرج إلى المسجد؛ لا يُخرجه إلاَّ الصلاة؛ فإنَّه لا يخطو خُطوةً إلاَّ رفع الله له بها درجة، وحطَّ عنه بها خطيئة.

وهذا من فضل الله ـ عز وجل ـ أن تكون وسائلُ العملِ فِيها هَذَا الأجرُ الَّذي بيَّنهُ الرَّسولُ ﷺ. والله الموفق. اهـ.

* * *

= الترمذي: حسنٌ صحيح.

٥ ـ وعَنْ أبي يَزيدَ مَعْن بن يزيد بن الأخنَسِ ـ رضي الله عنهم ـ، وهُو وأبُوه وجدُّه صحابيُّون، قالَ: كانَ أبي ـ يزيدُ ـ أخْرَجَ دنانيرَ يتصدَّقُ بها، فوضَعَها عِندَ رجُلٍ في المسجد، فجِئتُ فأخذتُها، فأتيتُهُ بِها، فقال: والله ما إيَّاكَ أردْتُ، فخاصَمْتُهُ إلى رسولِ الله ﷺ فقال: «لَكَ مَا نَوَيْتَ يَا يَزِيْدُ، وَلَكَ مَا أَخَذْتَ يَا مَعْنُ»[1]. [رواه البخاري].

الشرح

هذا الحديث الذي ذكره المؤلِّف ـ رحمه الله ـ في قصة معن بن يزيد وأبيه ـ رضي الله عنهما ـ، أنَّ أباه يزيد أخرج دراهمَ عندَ رجل في المسجد ليتصدّق بها على الفقراء، فجاء ابنه معن فأخذها، وربَّما يكون ذلك الرَّجل الذي وكِّل فيها لم يعلم أنّه ابن يزيد. ويُحتَمَلُ أنّه أعطاهُ لأنّه من المستحقِّين.

فبلغ ذلك أباه يزيد، فقال له: «ما إيَّاكَ أردْتُ ـ أي ماأردت أن أتصدق بهذه الدراهم عليك ـ فذهب إلى رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: **«لَكَ يَا يَزِيدُ ما نَويْتَ، ولَكَ يَا مَعْنُ مَا أَخَذْتَ»**.

فقوله عليه الصلاة والسلام: **«لَكَ يَا يَزِيدُ مَا نَوَيْتَ»** يدلُّ على أنَّ الأعمال بالنّيات، وأنَّ الإنسان إذا نوىٰ الخير حصل له. وإنْ كان يزيدُ لم ينوِ أن يأخذَ هذه الدراهمَ ابنهُ، لكنَّهُ أخذها؛ وابنهُ من المستحقِّين؛

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب إذا تصدق على ابنه وهو لا يشعر، رقم (١٤٢٢).

فصارت له، ولهذا قال النبي ﷺ: «**لَكَ يا مَعْنُ ما أَخَذْتَ**».

ففي هذا الحديث: دليل لِما ساقهُ المؤلفُ مِن أجله أن الأعمال بالنيَّات، وأنَّ الإنسان يُكتب له أجر ما نَوىٰ؛ وإنْ وقع الأمر على خِلاف ما نَوىٰ، وهذه القاعدة لها فروع كثيرة:

منها: ما ذكره العلماء رحمهم الله أنَّ الرَّجلَ لو أعطى زكاته شخصًا يظنُّ أنَّه من أهل الزكاة، فتبيَّن أنه غنيٌّ وليس من أهل الزكاة فإن زكاته تُجزىءُ، وتكونُ مقبولة تبرأُ بها ذمَّته؛ لأنَّه نوى أن يعطيها مَن هو أهلٌ لها، فإذا نوىٰ فله نيته.

ومنها: أن الإنسان لو أراد أن يوقف ـ مثلاً ـ بيتًا صغيرًا، فقالَ: وَقَفْتُ بيتيَ الفلانيَّ، وأَشَار إلى الكبير، لكنَّهُ خِلافُ ما نواه بقلبه، فإنَّهُ على ما نَوى وليس على ما سَبَقَ بِهِ لسانُه.

ومنها: لو أنَّ إنسانًا جاهلاً لا يعرف الفرق بين العُمرة والحج، فحجَّ مع الناس، فقال لبَّيك حَجًّا، وهو يريد عمرة يتمتع بها إلى الحجِّ؛ فإنَّ لَهُ ما نوىٰ، ما دام أنَّ قصده يريدُ العُمرة، لكن قال لبيك حجًّا مع هؤلاء الناس، فلَهُ ما نَوىٰ، ولا يضرُّ سَبْقُ لسانه بشيءٍ.

ومنها أيضًا: لو قال الإنسان لزوجته: أنت طالق؛ ويريد أنت طالِقٌ من قيدٍ لا من نكاح، فله ما نوى، ولا تُطَلَّق بذلك زوجته.

فهذا الحديث له فوائد كثيرة وفروع منتشرة في أبواب الفقه.

ومن فوائد هذا الحديث: أنَّه يجوز للإنسان أن يتصدَّق على ابنه؛ والدليل على هذا أنَّ النبي ﷺ أمر بالصدقة وحثَّ عليها، فأرادت زينب ـ

زوجة عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنها ـ أن تتصدَّق بشيءٍ من مالها، فقال لها زوجها أنا وولدك أحق من تصدقت عليهِ ـ لأنَّه كان فقيرًا ـ رضي الله عنه ـ فقالت: لا. حتى أسألَ النبيَّ ﷺ فسألت النبي ﷺ فقال: «**صَدَقَ ابْنُ مَسْعُوْدٍ، زَوْجُكِ وَوَلَدُكِ أَحَقُّ مَنْ تصدَّقْتِ به عَلَيهِمْ**»[1].

ومِن فوائدِ الحديث: أنَّه يجوز أن يعطي الإنسان ولده من الزكاة، بشرط أن لا يكون في ذلك إسقاطٌ لواجبٍ عليه.

يعني مثلاً: لو كان الإنسان عنده زكاةٌ وأراد أن يعطيها ابنه؛ من أجل أن لا يُطالبه بالنفقة؛ فهذا لا يجزىءُ؛ لأنَّه أراد بإعطائه أن يُسقِطَ واجِبَ نفقته.

أمَّا لو أعطاه ليقضِيَ دَينًا كان عليه؛ مِثل أن يكون على الابن حادث، ويعطيه أبوه من الزَّكاة ما يُسدِّد به هذه الغرامة؛ فإنَّ ذلك لا بأس به، وتجزئه من الزكاة، لأنَّ وَلَدهُ أقربُ النَّاس إليه؛ وهو الآن لم يقصد بهذا إسقاط واجب عليه، إنما قصد بذلك إبراء ذمَّةِ وَلَده؛ لا الإنفاق عليه، فإذا كان هذا قصدَه فإن الزكاة تحلُّ له. والله الموفق ا. هـ.

* * *

٦ ـ وعنْ أَبي إسْحَاقَ سَعْد بنِ أَبِي وقَّاص مَالِك بن أهَيْب بن عَبْد مَنَافِ ابن زُهْرةَ بن كِلابِ بن مُرَّة بن كَعْب بن لُؤيٍّ القُرَشيِّ الزُّهْريِّ رضي الله عنه، أحدِ العَشَرَةِ المَشْهُودِ لَهُم بالجَنَّةِ، رَضِيَ الله عنهم، قال: «جَاءَني رَسُوْلُ اللهِ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، رقم: (١٤٦٢).

ﷺ يَعُودُنِي عام حَجَّةِ الوَدَاعِ مِنْ وَجَعٍ اشتَدَّ بي، فقُلْتُ: يَا رَسُوْلَ اللهِ إنِّي قَدْ بَلَغَ بِيْ مِنَ الوَجَعِ مَا تَرَى، وأَنَا ذُو مَالٍ ولاَ يَرِثُنِي إلاَّ ابنةٌ لي، أفأتَصَدَّقُ بثُلُثَيْ مَالِي؟ قَالَ: لاَ، قُلتُ: فالشَّطْرُ يا رَسُولَ اللهِ؟ قالَ: لا، قُلْتُ: فَالثُّلُثُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قال: الثُّلُثُ والثُّلُثُ كَثيْرٌ ـ أو كَبِيْرٌ ـ إنَّكَ أَنْ تَذَرْ وَرَثَتَك أغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذرَهُمْ عَالةً يَتَكَفَّفُوْن النَّاسَ، وإنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفقَةً تَبْتغِي بِهَا وَجْه الله إلاَّ أُجِرْتَ عَلَيها، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِيْ امْرَأتِكَ. قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أُخَلَّفُ بَعْد أصحابي؟ قالَ: إنَّكَ لَن تُخَلَّفَ فَتَعْمَلَ عَمَلاً تَبْتَغِي بهِ وجْهَ الله؛ إلاَّ ازْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً، ولَعَلَّكَ أنْ تُخَلَّفَ حَتَّى ينْتَفِعَ بِكَ أقْوامٌ ويُضرَّ بكَ آخرُون. اللَّهُمَّ أمْضِ لأصْحَابي هِجْرَتَهم، ولاَ تَرُدَّهُمْ عَلى أعْقَابِهِم، لكنِ الْبائسُ سَعْدُ بنُ خَوْلَةَ» يَرْثِي لهُ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ ماتَ بمكَّةَ.[1] [متَّفقٌ عليه].

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقلَهُ عن سعد بن أبي وقَّاص ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النبي ﷺ جاءه يعوده في مرض ألَمَّ به، وذلك في مكّة، وكان سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ من المهاجرين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، فتركوا بلدهم لله عزَّ وجلَّ، وكان من عادة النَّبي ﷺ أنه يعُودُ المَرضىٰ مِن أصحابه، كما أنَّه يزورُ مَنْ يَزُورُ مِنهم؛ لأنَّه ﷺ كان

(١) أخرجه البخاري، كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس، رقم (٢٧٤٢). ومسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم (١٦٢٨).

أحسن الناس خُلُقًا؛ على أنه الإمامُ المتبوعُ. صلواتُ الله وسلامُه عليه، كان من أحسن الناس خلقًا، وألينهم بأصحابه، وأشدّهم تحبُّبًا إليهم.

فجاءه يعوده، فقال: يا رسول الله: «**إنّي قَدْ بَلَغَ بِي مِنَ الوَجَعِ مَا تَرى**» أي: أصابه الوجَع العظيم الكبير.

«**وَأنا ذُو مَالٍ كَثيرٍ ـ أَو كَبِيْرٍ ـ**» أي: أن عنده مالاً كبيرًا.

«**وَلاَ يَرِثُنِي إلاَّ ابنَةٌ لِي**» أي: ليس له ورثة بالفرض إلا هذه البنت.

«**أفَأتَصَدَّقُ بِثُلُثَي مَالِي**» يعني بثلثيه: اثنين من ثلاثة!

«**قال: لا. قُلْتُ: الشَّطرُ يَا رَسُولَ الله**» أي: بالنِّصف.

«**قَال: لاَ. قُلْتُ: بالثُّلُثِ. قال: الثُّلُثُ والثُّلُثُ كَثِيْرٌ**».

فقوله: «**أفأتصدَّق**» أي أعطيه صدقةً؟ فمَنع النبيّ ﷺ من ذلك؛ لأنَّ سعدًا في تلك الحال كان مريضًا مرضًا يخشىٰ مِنه الموت، فلذلك منعه الرّسول ﷺ أن يتصدق بأكثر من الثلث.

لأنَّ المريض مرض الموت المخوف لا يجوز أن يتصدق بأكثر من الثلث، لأنَّ ماله قد تعلّق به حق الغير؛ وهم الورثة. أمّا من كان صحيحًا ليس فيه مرض، أو فيه مرض يسير لا يُخشى منه الموت، فلَهُ أن يتصدَّق بما شاء؛ بالثلث، أو بالنصف، أو بالثلثين، أو بماله كله، لا حرج عليه.

لكن لا ينبغي أن يتصدَّق بماله كلِّه؛ إلاَّ إنْ كان عنده شيء يعرف أنه سوف يستغني به عن عباد الله.

المهمُّ أنَّ الرسول ﷺ منعه أن يتصدَّق بما زاد عن الثلث.

وقال: «**الثُّلُثُ، والثُّلُثُ كَثِيْرٌ ـ أو كبير ـ**» وفي هذا دليلٌ على أنَّه إذا

نقص عن الثلث فهو أحسن وأكمل؛ ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لو أنَّ الناس غَضُّوا من الثُّلث إلى الرُّبع»؛ لأن النبي ﷺ قال: «الثُّلُث والثُّلثُ كَثِيْر».

وقال أبو بكر رضي الله عنه: «أرضَىٰ ما رَضِيَهُ الله لِنَفْسِه» يعني: الخُمُس، فأَوصَى بالخُمُسِ رضي الله عنه.

وبهذا نعرف أنَّ عمل الناس اليوم؛ وكونهم يُوصون بالثلث؛ خلافُ الأولى، وإن كان هو جائزًا. لكنَّ الأفضَلَ أن يكون أدنى من الثُّلث؛ إمَّا الربع أو الخمس.

قال فقهاؤنا رحمهم الله والأفضلُ أن يُوصِيَ بالخُمس، لا يزيد عليه؛ اقتداءً بأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ثم قال الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام: «إنَّك إنْ تَذَرْ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِن أنْ تَذَرَهُم عَالَةً يَتَكَفَّفُون النَّاس».

أي: كونُك تُبقي المال ولا تتصدق به؛ حتى إذا مُتَّ وَوَرِثَه الوَرَثَةُ صاروا أغنياء به، هذا خيرٌ من أن تذَرهم عالةً؛ لا تترك لهم شيئًا «يتكفَّفون النَّاس» أي: يسألون الناس بأكُفِّهم؛ أعطونا أعطونا.

وفي هذا دليلٌ على أنَّ الميِّت إذا خلَّف مالاً للورثة فإنِ ذلك خيرٌ له.

لا يظنُّ الإنسان أنه إذا خلف المال، وَوُرِثَ منه قهرًا عليه، أنَّه لا أجر له في ذلك! لا بل له أجر، حتى إن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «إنَّك إنْ تَذَر وَرَثَتَك أغنياء خيرٌ من أن تذرهم عَالَة...إلخ» لأنَّك إذا تركت المال للورثة انتفعوا به، وهم أقارب، وإن تصدَّقت به انتفع به الأباعد،

والصدقةُ على القريب أفضل من الصدقة على البعيد؛ لأنَّ الصدقة على القريب صدقةٌ وصلةٌ.

ثم قال: «إنَّك لَنْ تُنفِق نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إلاَّ أُجِرْتَ عليها، حتَّى ما تجْعَلُهُ فِي فِي امْرَأَتِكَ» يقول: لن تنفق نفقة؛ أي: لن تنفق مالاً؛ دراهمَ أو دنانيرَ أو ثيابًا، أو فرشًا أو طعامًا أو غير ذلك تبتغي به وجه الله إلاَّ أُجِرْتَ عليه.

الشاهد من هذا قوله: «تَبْتَغِيْ بِهِ وَجْهَ اللهِ» أي: تقصد به وجه الله عز وجل، يعني تقصد به أن تصل إلى الجنَّة؛ حتى ترى وجه الله عز وجل.

لأنَّ أهل الجنَّة ـ جعلني الله وإياكم منهم ـ يرون الله سبحانه وتعالى، وينظرون إليه عيانًا بأبصارهم، كما يرون الشَّمس صحْوًا ليس دُونها سحاب، وكما يرون القمر ليلة البدر. يعني أنَّهم يرون ذلك حقًّا.

«حَتَّى مَا تَجْعَلُهُ فِي فِيْ امْرَأَتِكَ» أي: حتى اللُّقمة التي تُطعِمُها امرأتك تُؤجَرُ عليها إذا قصدت بها وجْه الله، مع أنَّ الإنفاق على الزَّوجةِ أمرٌ واجبٌ، لو لم تنفق لقالت أنفق أو طلِّق، ومع هذا إذا أنفقت على زوجتك تُريد به وجه الله آجرك الله على ذلك.

وكذلك إذا أنفقت على أولادك، أو أنفقت على أمّكِ، وعلى أبيك، بل إذا أنفقت على نفسك تبتغي بذلك وجه الله؛ فإنَّ الله يُثيبك على هذا.

ثم قال رضي الله عنه: «أخلَّفُ بَعْدَ أصحابي» يعني أؤُ خَلَّف بعدَ أصحابي، أي: هل أتأخَّرُ بعد أصحابي فأموت بمكة. فبيَّن النبيُّ ﷺ أنه لن يُخلَّفَ فقال: «إنَّك لَنْ تُخلَّفَ» وبيَّن له أنَّه لو خلّف ثم عَمِلَ عملاً يبتغي به

وجه الله إلا ازداد به عند الله دَرجة ورِفْعة .

يعني : لو فُرِض أنّك خُلّفت ولم تتمكّن من الخروج من مكة، وعملت عملاً تبتغي به وجه الله ؛ فإنَّ الله تعالى يزيدُكَ به رِفْعةً ودرجة ؛ رِفْعة في المقام والمرتبة، ودَرَجة في المكان .

فيرفعُك الله عز وجل في جنَّات النعيم درجات . حتى لو عملت بمكة وأنت قد هاجرت منها .

ثم قال النبي ﷺ : «وَلَعلَّكَ أنْ تُخَلَّف» أن تُخَلَّفَ : هنا غيرُ أن تخلَّف الأولى «لَعلَّكَ أن تُخَلَّف»: **أي تُعَمَّر في الدنيا؛ وهذا هو الذي وَقَعَ. فإنَّ سعد ابن أبي وقاص عُمِّر زمانًا طويلاً، حتى إنَّه ـ رضي الله عنه ـ كما ذكر العلماء، خلف سَبْعَةَ عَشَرَ ذَكَراً واثنتي عشرة بنتًا.**

وكان في الأول ليس عنده إلا بنت واحدة، ولكن بقيَ وعُمِّر ورُزق أولادًا، سبعة عشر ابنا واثنتي عشرة ابنة.

قال: «وَلَعَلَّكَ أَنْ تُخَلَّف» **«حتى ينتفعَ بِكَ أقوامٌ ويُضَرَّ بِكَ آخَرون»** وهذا الذي حصل ، فإنَّ سعدًا ـ رضي الله عنه ـ خُلِّف وصار له أثر كبير في الفتوحات الإسلامية، وفتح فتوحات عظيمة كبيرة، فانتفع به أقوام وهم المسلمون، وضُرَّ به آخرون وهم الكفار .

ثمَّ قال النبي ﷺ : «اللَّهُمَّ أَمْضِ لأصْحَابِي هِجْرَتهم» سأل الله أن يمضي لأصحابه هجرَتَهُم وذلك بأمْرَيْن :

الأمر الأوَّل : ثباتهم على الإيمان ؛ لأنه إذا ثبت الإنسان على الإيمان ثبت على الهجرة .

والأمرُ الثاني: أن لا يرجع أحدهم منهم إلى مكة بعد أن خرج منها؛ مهاجرًا إلى الله ورسوله.

لأنَّك إذا خرجت من البلد مُهاجرًا إلى الله ورسوله؛ فهُو كالمال الذي تتصدَّقُ به. يكون البلد مثل المال الذي تتصدق به لا يمكن أن ترجع فيه.

وهكذا كلُّ شيء تركه الإنسان لله لا يرجع فيه.

ومِن ذلك: ما وُفِّق فيه كثير من النَّاس من إخراج التليفزيون من بيوتهم؛ توبةً إلى الله، وابتعادًا عنه، وعمَّا فيه من الشرور. فهؤلاء قالوا هل يمكن أن نُعيده الآن إلى البيت؟

نقول: لا، بعد أن أخرجتموه لله لا تعيدوه؛ لأنَّ الإنسان إذا ترك شيئًا لله، وهجر شيئًا لله؛ فلا يعود فيه. ولهذا سأل النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ربَّه أن يُمضي لأصحابه هجرتهم.

وقوله: «وَلاَ تَرُدَّهُم عَلَى أعْقابِهِم» أي لا تجعلهم ينتكسون عن الإيمان فيرتدُّون على أعقابهم؛ لأنَّ الكُفرَ تأخُّرٌ، والإيمان تقدُّم، وهذا على عكس ما يقوله الملحدون اليوم؛ حيثُ يَصِفُون الإسلام بالرَّجعيَّة، ويقولون إنَّ التَّقدمية: أن ينسلخ الإنسانُ من الإسلام، وأن يكون عِلمانيًا؛ يعنى أنه لا يفرِّقُ بين الإيمان والكفر ـ والعياذ بالله ـ ولا بين الفسوق والطاعة، فالإيمان هو التَّقدُّم في الحقيقة.

المتقدِّمون هم المؤمنون، والتقدم يكون بالإيمان، والرِّدة تكون نكوصًا على العقبين؛ كما قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ هنا: «ولا تَرُدَّهُمْ علَى أَعْقَابِهِم».

وفي هذا الحديث من الفوائد فوائدُ عظيمةٌ كثيرة!!

مِنها: أنَّ مِن هدي الرَّسول ﷺ عيادةَ المرضى؛ لأنَّه عَادَ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وفي عيادة المَرْضى فوائد للعائد وفوائد للمَعُود:

أما العائد فإنه يؤدّي حق أخيه المسلم؛ لأنَّ من حق أخيك المسلم أن تعوده إذا مرض.

ومنها: أن الإنسان إذا عاد المريض فإنه لا يزال في مَخْرفَة الجنة، يعني يجني ثمار الجنة حتى يعود.

ومنها: أنَّ في ذلك تذكيرًا للعائد بنعمة الله عليه بالصِّحة، لأنَّه إذا رأى هذا المريضَ، ورأى ما هو فيه من المرض، ثم رجع إلى نفسه، ورأى ما فيها من الصحة والعافية عرف قدر نعمة الله عليه بهذه العافية؛ لأن الشيء إنما يعرف بضدّه.

ومنها: أنَّ فيها جَلْبًا للمودة والمحبة، فإنَّ الإنسان إذا عاد المريض صارت هذه العيادة في قلب المريض دائمًا، يتذكرها، وكُلَّما ذَكَرها أحبَّ الذي يعوده، وهذا يظهر كثيرًا فيما إذا برأ المريض، وحصُلت منه ملاقاةٌ لك تجده يتشكّر منك، وتجد أنَّ قلبه ينشرح بهذا الشيء.

أما المَعُودُ: فإنَّ له فيها فائدة أيضًا؛ لأنها تُؤنِسُه، وتَشرح صدره، ويزول عنه ما فيه من الهمِّ والغمِّ والمرضِ. وربَّما يكون العائد موفَّقًا يذكره بالخير والتوبة والوصية؛ إذا كان يريد أن يُوصي بشيء عليه من الدّيون وغيرها، فيكون في ذلك فائدة كبيرة للمعود.

ولِهذا قال العُلماء: ينبغي لمن عَاد المريض أن يُنفِّس له في أجله؛ أي

يفرحه. يقولُ: ما شاء الله، أنت اليوم في خير وما أشبهه، وليس لازمًا أن يقول له: أنت طيب مثلاً؛ لأنَّه قد يكون اليوم أشد مرضًا من أمس، لكن يقول أنت اليوم في خير، لأنَّ المؤمن كلّ أمره خير، إن أصابه ضراء فهو في خير، وإن أصابه سرَّاء فهو في خير، فيقول: اليومَ أنتَ بخيرٍ والحمد لله، وما أشبه ذلك مما يدخل عليه السرور.

والأَجَلُ محتومٌ، إن كان هذا المرض أجله ماتَ، وإن كان بقي له شيء من الدنيا بقي.

وينبغي أيضًا أن يذكّره التوبة، لكن لا يقول له ذلك بصفة مباشرة؛ لأنّه ربّما ينزعج، ويقولُ في نفسه لو أنَّ مرضي غير خطير ما ذكَّرني بالتوبة.

لكن يبدأُ بذكر الآياتِ والأحاديث التي فيها الثَّناء على التَّائبين ما يتذكر به المريض، وينبغي كذلك أن يَذكِّره الوصية، لا يقول له: أوصِ فإنَّ أجلك قريبٌ، لو قال هكذا انزعج. بل مثلاً: يذكِّرُهُ بِقصَصٍ واردةٍ عليه، يقول مثلاً: فلان كان عليه دين، وكان رجلاً حازمًا، وكان يوصي أهله بقضاء دينه، وما أشبه ذلك... من الكلمات التي لا ينزعج بها.

قال أهلُ العلمِ: وينبغي أيضاً إذا رأى منه تشوفًا إلى أن يقرأ عليه؛ فينبغي أن يقرأ عليه، ينفثُ عليه بما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام.

مثلَ قولِهِ: **«أَذْهِبِ البَاس رَبَّ النَّاس، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لا شِفَاء إلاَّ شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لا يُغَادِر سقمًا»**[1] **ومِثل قوله**: **«رَبّنا الله الَّذي في السَّمَاء،**

(١) أخرجه البخاري، كتاب المرضى، باب دعاء العائد للمريض، رقم (٥٦٧٥). =

تقدَّسَ اسمُكَ، أَمرُكَ في السَّمَاء والأرض كَما رحْمَتُك في السَّماء، فاجْعَل رَحْمَتَكَ في الأرضِ، اغْفر لنَا حَوْبَنا وخطايانا أنت رَبُّ الطَّيِّبين، أنزل رَحْمةً مِن رَحْمَتِكَ، وشِفاءً من شِفائِكَ عَلى هذا الوَجع، فَيَبرأُ»[1] أو يقرأ عليه بسورة الفاتحة؛ لأن سورة الفاتحة رُقية يُقرأ بها على المرضى، وعلى الذين لدغتهم العقرب، أو الحية، وما أشبه ذلك[2]، فمتى رأى العائد من المريض أنَّه يحب أن يقرأ عليه فليقرأ عليه لئَلا يُلجِيء المريض إلى طلب القراءة؛ لأن النبي ﷺ قال: «**رأيتُ معَ أمَّتي سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حِسَاب ولاَ عذاب**. وقال: **هُم الذين لا يسترقُونَ ولا يكتَوُوْن ولا يتَطيَّرُون وعلى ربِّهم يتوكلون**»[3].

فقوله: «**لا يسْترقون**» أي: لا يطلبون أحدًا يقرأُ عليهم، فأنت إذا رأيته يتشوَّقُ لتقرأَ عليه، اقرأ عليه، لئلا تُحرجَهُ إلى طلب القراءة.

= ومسلم، كتاب الطب، باب استحباب رقية المريض، رقم (٢١٩١).

(١) أخرجه أبوداود، كتاب الطب، باب كيف الرقى. رقم (٣٨٩٢)، والحاكم في المستدرك (١/٣٤٣، ٣٤٤)، وقال: قد احتج الشيخان بجميع رواة هذا الحديث غير زيادة بن محمد؛ وهو شيخ من أهل مصر قليل الحديث. وقال الذهبي في التلخيص: قال البخاري وغيره: منكر الحديث.

(٢) لأن النبي ﷺ أقرَّ من رقى بها. أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب النفث في الرقية، رقم (٥٧٤٩). ومسلم، كتاب الطب، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار، رقم (٢٢٠١).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب من لم يرق، رقم (٥٧٥٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم (٢٢٠).

كذلك أيضًا إذا رأيت أن المريض يحب أن تُطيل المقام عنده، فأطل المقام؛ فأنت على خير وعلى أجر، فأطل المقام عنده، وأدخل عليه السُّرور، ربما يكون في دخول السُّرور على قلبه سببًا لشفائه؛ لأن سرور المريض وانشراح صدره من أكبر أسباب الشفاء، فإذا رأيت أنَّه يحبُّك تبقى فابق عنده، وأطِلِ الجلوس عنده حتى تعرف أنَّه قد مَلَّ.

أمَّا إذا رأيت أن المريض متكلّف ولا يحب أنك تبقى، أو يحب أن تذهب عنه حتى يحضرَ أهله ويأنَسَ بهم فلا تتأخر، اسأل عن حاله ثم انصرف.

ومن فوائده: حُسنُ خلق النبي ﷺ، ولا شك أن النبي ﷺ أحسن الناس خُلُقًا؛ لأن الله تعالى: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم: ١ ـ ٤]، فأعظم الناس خُلُقًا وأحْسن الناس خَلقًا رسول الله ﷺ.

ولهذا كان يعُود أصحابه، ويزُورهم، ويسلم عليهم، حتى إنه يمر بالصبيان الصّغار فيُسلم عليهم، صلوات الله وسلامه عليه.

ومن فوائد هذا الحديث: أنَّه ينبغي للإنسان مشاورةُ أهل العلم، لأنَّ سعدَ بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ استشار النبي ﷺ حينما أراد أن يتصدَّق بشيء من ماله، فقال: يا رسول الله: «إنِّي ذو مالٍ كثير، ولا يرثني إلا ابنةٌ لي أفأتصدق بثُلثَي مالي؟ قال: لا...» الحديث.

ففيه استشارةُ أهل العلم والرأي، وكلُّ إنسان بحسبه، فمثلاً إذا كنت تُريد أن تُقْدم على شيء من أمور الدين؛ فشاوِر أهل العلم؛ لأنَّهم أعلم بأمور الدِّين من غيرهم، إذا أردت أن تشتريَ بيتًا فشاور أصحاب المكاتب

العقارية، إذا أردت أن تشتريَ سيَّارة فاستشر المهندسِينَ في السيارات وهكذا.

ولهذا يُقال: «ما خابَ من استَخَار، ولا ندِم من استشار».

والإنسانُ بلا شك لا ينبغي له أن يكمِّل نفسه. من ادَّعى الكمال لنفسه فهو النَّاقصُ، بل لابُدَّ أن يُراجِع خُصوصًا في الأمور الهامة التي تتعلق بمسائل الأمة؛ فإنَّ الإنسانَ قد يحمله الحماس والعاطفة على فعل شيء هو في نفسه حق ولا بأس به، لكنَّ التحدث عنه قد يكون غير مصيب إما في الزمان، أو في المكان، أو في الحال.

ولهذا ترك النبي ﷺ بناء الكعبة على قواعد إبراهيم؛ خوفًا من الفتنة. فقال لعائشةَ رضي الله عنها: «**لَوْلا أنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِكُفْرٍ لَبنيتُ الكعْبةَ عَلى قَواعدِ إبْراهيم، ولَجعلتُ لَها بَابيْن، بَابًا يَدْخُلُ مِنْه النَّاس، وبَابًا يَخْرُجُونَ مِنْه**»[1].

من أجل أن يتمكَّن الناس من دُخول بيت الله عزَّ وجل، لكن تَركَ ذلك خوف الفتنة مع كونه مَصلَحةً!!

بل أعظمُ من ذلك أنَّ الله تعالى نهى أن نَسُبَّ آلهة المشركين، مع أن آلهة المشركين جديرةٌ بأن تُسبَّ وتُعاب ويُنفَّر منها، لكن لما كان سبُّها يؤدِّي إلى سَبِّ الرَّب العظيم المنزّه عن كل عيب ونقص، قال الله عز

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب من ترك بعد الاختيار مخافة أن يقصُر فهم بعض الناس عنه، فيقعوا في أشد منه، رقم (١٢٦). ومسلم، كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها، رقم (١٣٣٣).

وجل: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فالمهمّ أنَّه ينبغي أن نعلم أن الشّيء قد يكون حسنًا في حد ذاته وفي موضوعه، لكن لا يكون حَسَنًا، ولا يكون من الحكمة، ولا من العقل، ولا من النُّصح، ولا من الأمانة أن يُذكر في وقتٍ من الأوقات، أو في مكانٍ من الأماكن، أو في حال من الأحوال، وإن كان هو في نفسه حقًّا وصدقًا وحقيقة واقعة، ومن ثم كان ينبغي للإنسان أن يستشير ذوي العلم والرأي والنُّصح في الأمر قبل أن يُقْدم عليه، حتى يكون لديه برهان؛ لأن الله قال لأشرف خَلْقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأسدِّهِم رأيًا، وأبلغهم نصحًا محمد ﷺ قال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

هذا وهو رسول الله ﷺ أسدُّ النَّاس رأيًا، وأرجَحُهم عقلاً، وأبلغهم نُصحًا. صلوات الله وسلامه عليه.

والإنسان ربَّما تأخذُه العاطفة فيندفع، ويقول: هذا لله، هذا أنا أفعله، سأصدع بالحقِّ، سأقول: سوف لا تأخُذني في الله لومة لائم وما أشبه ذلك من الكلام، ثم تكون العاقبةُ وخيمةٌ، ثمَّ إنَّ الغالب أنَّ الذي يحكِّم العاطفة، ويتبع العاطفة، ولا ينظر للعواقب، ولا للنتائج، ولا يقارن بين الأمور؛ الغالبُ أنه يحصل على يديه من المفاسد ما لا يعلمه إلاّ الله عز وجل، مع أنَّ نيَّته طيبة، وقَصْده حسنٌ، لكن لم يحسن أن يتصرّف، لأن هناك فرقًا بين حُسن النية وحُسن التصرّف، قد يكون الإنسان حَسَنَ

النية لكنَّه سيّء التصرف، وقد يكون سيِّء النية، والغالب أن سيِّء النية يكون سيِّء التصرف، لكن مع ذلك قد يُحسن التصرف لينال غَرَضَهُ السيّء.

فالإنسان يُحمد على حُسن نيته، لكن قد لا يُحمد على سوءِ فعله، إلاّ أنَّه إذا علِم منه أنَّه معروف بالنصح والإرشاد، فإنَّه يُعذَرُ بسُوء تصرُّفه، ويُلْتَمَس له العذر، ولا ينبغي أيضًا أن يتخذ من فعله هذا؛ الذي لم يكن موافِقًا للحكمة - لا ينبغي، بل لا يجوز - أن يتخذ منه قدح في هذا المتصرّف، وأن يُحمل ما لا يَتَحمَّله، ولكن يُعذر ويبين له ويُنصح ويُرشد، ويُقال: يا أخي هذا كلامك، أو فعلك حَسَنٌ طيِّبٌ وَصَوابٌ في نفسه، لكنَّه غيرُ صوابٍ في محلِّه أو في زمانه، أو في مكانه.

المهمُّ أنَّ في حديث سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - إشارةً إلى أنَّه ينبغي للإنسان أن يستشير من هو أكمل منه رأيًا، وأكثرُ منه علمًا.

وفيه أيضًا من الفوائد: أنَّه ينبغي للمستشير أنْ يذكر الأمر على ما هو عليه حقيقة، وأسبابه، وموانعه وجميع ما يتعلق به؛ حتى يتبين للمستشار حقيقة الأمر، ويبني مشورته على هذه الحقيقة؛ ولهذا قال سعد: «إنِّي ذُو مالٍ ولا يرثُنِي إلاّ ابنَةٌ»، فقوله: «إنِّي ذُو مالٍ» بيانٌ لسبب العطيَّة التي يريد أن يعطيها «وَلاَ يَرِثُنِي إلاَّ ابنَةٌ لِي» بيانٌ لانتفاء المانع، يعني لا مانع من أن أُعطيَ كثيرًا لانتفاءِ الوارث.

والمستشارُ، عليه أن يتَّقي الله - عزَّ وجل - فيما أشار فيه، وأن لا تأْخُذَهُ العاطفة في مراعاة المستشير؛ لأنَّ بعض الناس إذا استشاره

الشَّخص؛ ورأى أنه يميل إلى أحد الأمرين، أو أحد الرأيين ذهب يُشير عليه به.

ويقول: أنا أحب أن أُوافِق الَّذي يرى أنَّه يناسبه؛ وهذا خطأٌ عظيم، بل خيانة. والواجبُ إذا استشارك أن تقول له ما ترى أنَّه حقٌّ، وأنه نافع، سواءٌ أرضاه أم لم يرضه، وأنتَ إذا فعلت هذا كنت ناصحًا وأدَّيت ما عليك، ثم إن أخذ به، ورأى أنَّه صواب فَذَاكَ، وإن لم يأخذ به فقد برِئَتْ ذمتك. أما أن تستنتج من كلامه أنَّه يريد كذا، ثم تشير عليه به فهذا خطأ عظيم، بل خيانة، مع أنك ربما تستنتج شيئًا خطأً، قد تستنتجُ أنَّه يريد كذا، وهو لا يريده فتكون خسرانًا من وجهين:

الوجه الأوّل: من جهة الفهم السيِّ.

الوجه الثّاني: من جهة القصد السَّيء.

وفي قول الرسول عليه الصلاة والسلام «لا» دليل على أنه لا حرج أن يستعمل الإنسان كلمة «لا»، وليس فيها شيء.

فالنبي عليه الصلاة والسلام استعمل كلمة «لا»، وأصحابه رضي الله عنهم استعملوا معه كلمة «لا». ومن ذلك أنَّ جابراً ـ رضي الله عنه ـ لمَّا أعيا جملُهُ ولحِقه النبي عليه الصلاة والسلام، لأنَّ مِن عادة الرسول عليه الصلاة والسلام ـ لأنه راعي أمته ـ أنَّه يمشي في الآخر، لا يمشي قُدّامهم؛ بل يمشي وراءهم، لأجل أنَّه إذا احتاج أحدٌ إلى شيء؛ يساعدُهُ عليه الصّلاة والسلام، فانظر إلى التَّواضع وحُسْن الرِّعاية.

«لحق جابرًا ـ وكان جَمَلُهُ قد أعيا ـ لا يمشي ـ فضرب النبي ﷺ

الجمل، ودعا له، وقال: «بِعْنِيْهِ بِأَوْقِيَّةٍ» فقال جابر: لا»[١]. ولم يُنكر عليه الرسول عليه الصلاة والسلام قولَهُ «لا»، والنبي عليه الصلاة والسلام هنا عند ما قال له سعد: أتصدق بثلثي مالي؟ قال: لا. إذن: فلا مانع من كلمة «لا» فإنَّها ليست سوءَ أدب وخُلُق، وكثير من الناس الآن يأنف أن يقول «لا»، ويقول بدلاً عنها سلامتك، وهذا طيِّبٌ أن تدعو له بالسَّلامة، لكن إذا قلت «لا» فلا عيب عليك.

ومن فوائد الحديث: أنَّه لا يجوز للمريض مرضًا مخوفًا أن يُعطيَ أكثر من الثُّلثِ إلا إذا أجازه الورثة؛ لأنَّ الورثة تعلَّق حَقُّهم بالمال لمَّا مَرِضَ الرَّجل، فلا يجوز أن يعطي أكثر من الثُّلث، لقول النبي ﷺ في الثلثين: لا، وفي النصف: لا، وقال: «الثُّلث والثُّلث كَثِيْر».

وفيه: دليل على أنَّه ينبغي أن يكون عطاؤه أقلّ من الثُّلث، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ النَّاس غضُّوا من الثُّلث إلى الرّبع لأنَّ النبي ﷺ قال: «الثُّلث والثُّلث كثير».

ومن فوائد الحديث: أنَّه لا يجوز للإنسان إذا كان مريضًا مرضًا يُخشى منه الموت أن يتبرع بأكثر من الثُّلث من ماله، لا صدقة، ولا مشاركةً في بناء مساجد، ولا هبةً، ولا غير ذلك. لا يزيد على الثلث لأنَّ النبي ﷺ منع سعد بن أبي وقاص أن يتصدق بما زاد عن الثلث.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الشروط، باب إذا اشترط البائع ظهر الدابة إلى مكان مسمى جاز، رقم (٢٧١٨). ومسلم، كتاب المساقاة، باب بيع البعير واستثناء ركوبه، رقم (٧١٥).

ومن فوائده: أنَّه ينبغي أن يغضَّ من الثلث؛ يعني: الربع، الخمس، دون ذلك. . لأنَّ الرسول ﷺ أشار إلى استحباب الغضّ من الثلث في قوله «والثُّلُثُ كَثِير»؛ وبهذا استدلَّ عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ حيثُ قال: لو أنَّ الناس غضوا من الثلث إلى الربع؛ لأنَّ النَّبي ﷺ قال: «**الثُّلُثُ والثُّلُثُ كثير**».

والوصيَّة كالعطيَّةِ، فلا يجوز أن يُوصيَ الإنسان بشيء من ماله بعد موته زائدًا على الثُّلث، فليكنْ من الثلث فأقل.

والأفضلُ في الوصيَّة أن تكون بخُمس المال؛ لأن أبابكر ـ رضي الله عنه ـ قال: أرضى بما رضِيَهُ الله لنفسه: الخُمس، فأوصى بالخمس ـ رضي الله عنه ـ ومن ثُمَّ قال فقهاؤنا ـ رحمهم الله ـ: يسنُّ أن يوصي بالخُمس إن ترك مالاً كثيرًا.

ومن **فوائد هذا الحديث أنَّه**: إذا كان مال الإنسان قليلاً، وكان ورثَته فقراء؛ فالأفضل أن لا يُوصي بشيء، لا قليل، ولا كثير؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «**إنَّك إنْ تَذَرْ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً**» خِلافًا لِما يظنُّه بعض العوام أنَّه لابدَّ من الوصيّة، فهذا خطأ، والإنسانُ الذي مَالُه قليل وورثته فقراء ليس عندهم مال، لا ينبغي له أن يُوصي، الأفضلُ أن لا يُوصي.

ويظن بعض العامَّة أنه إذا لم يُوصِ لم يكُن له أجر، وليس كذلك، بل إذا تركَ المالَ لورثَتِهِ فهو مأجور في هذا، وإنْ كان الورثة سوف يرِثونه قهرًا، لكن إذا كان مسترشِدًا بهدي النبي ﷺ، لقوله: «**إنَّك إنْ تَذَرْ وَرَثَتَكَ**

أغْنِيَاء خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُم عَالَةً» فإنَّ أَجْرَهُ في ذلك أفضلُ مِن أن يتصدَّق عنه بشيء من ماله.

ومن فوائد هذا الحديث: خوفُ الصحابة المهاجرين من مكة أن يموتوا فيها؛ لأن سعدًا رضي الله عنه قال: «أُخلَّف بعد أصحابي» وهذه الجملة استفهامية والمعنى «أَأُخَلَّفُ؟» وهذا استفهام توقعي مكروه؛ يعني أنّه لا يحبُّ أن يتخلَّفَ فيموتَ في مكّة وقد خرج منها مهاجرًا إلى الله ورسوله، وهكذا كلُّ شيء تركه الإنسان لله لا ينبغي أن يرجِعَ فيه، وقد سَبقَ لنا في شرح الحديث أنَّ مِن ذلك ما فعله بعض الناس؛ حيثُ تخلصوا من جهاز التلفزيون لمَّا رأَوا من مضارِّه ومفاسده ما يربو على مصالحه ومنافعه، تركوه لله فكسروه، ثمَّ جاؤوا يسألون: هل يعيدوهُ مرَّةً ثانية؟ نقول: لا تُعده مرَّة أخرى ما دُمت قد تخلَّصت منه ابتغاءَ وجه الله فلا تَرجع فيما تركْتَهُ لله.

ومن فوائدِ الحديث: ظهورُ معجزةٍ لِرسول الله ﷺ؛ وهو أنَّ الرسول ﷺ قال له: «**إنَّك لن تُخلَّف وسوف تُخلف حتى يَضُرَّ بِك أقوام وينتفع بك آخرون**» فإنَّ الأمر وقع كما توقَّعه النبيُّ ﷺ، فإنَّ سعدًا ـ رضي الله عنه ـ بقيَ إلى خلافة معاوية وَعمرَ طويلاً بعد قول الرسول ﷺ لَهُ، وهذا مِن آيات النبي ﷺ؛ أن يُخبِرَ عن شيء مستقبلٍ فَيَقَعَ كما أخبرَ به عليه الصلاة والسلام، ولكن هذا ليس خبرًا محضًا، بل توقُّع، لقوله: «**لَعلَّك أن تُخلَّف**» فلم يجزِمْ، ولكن كان الأمر كما توقَّعه النبي ﷺ.

ومن فوائد هذا الحديث: أنّه ما من إنسان يعمل عملاً يبتغي به وجه الله

إلا ازداد به رِفْعة ودرجةً، حتى وإن كان في مكانٍ لا يحل له البقاء فيه، لأنَّ العمل شيء والبقاء شيء آخر.

ولهذا كان القول الرَّاجحُ مِن أقوال أهل العلم: أنَّ الإنسانَ إذا صلّى في أرضٍ مغصوبةٍ فإنَّ صلاته صحيحةٌ؛ لأن النّهي ليس عن الصَّلاة بل النهيُ عن الغَصْب.

فالنَّهي مُنصبٌّ على شيء غير الصلاة، فتكون صلاته صحيحة في هذا المكان المغصوب، لكنَّهُ آثمٌ ببقائه في هذ المكان المغصوب. نعم لو وَرَد عن الرَّسول ﷺ أنّه قال: «لا تُصلِّ في أرضٍ مَغْصوبَةٍ» لقُلنا: إذا صلَّيتَ في الأرض المغصوبة فصلاتُك باطلة، كما نقول: إنك إن صليت في المقبرة فصلاتك باطلة؛ لأن النبي ﷺ قال: **«الأرضُ كُلُّها مَسْجِد إلاَّ المَقْبرة وَالحَمَّام»**[1] هذا غيرُ صلاة الجنازة؛ لأنها تجوز حتى في المقبرة.

ومن فوائد هذا الحديث: أن الإنسان إذا أنفق نفقة يبتغي وجْه الله فإنَّه يُثاب عليها، حتى النفقات على أهله وعلى زوجته، بل وعلى نفسه؛ إذا ابتغى بها وجه الله أثابه الله عليها.

وفيه إشارة إلى أنّه ينبغي للإنسان أن يستحضر نيّة التَّقرُّب إلى الله في

---

(١) أخرجه أبوداود، كتاب الصلاة، باب في المواضع التي لا تجوز فيها الصلاة، رقم (٤٩٢)، والترمذي، كتاب الصلاة، باب ما جاء أنَّ الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام، رقم (٣١٧). وابن ماجه، كتاب المساجد، باب المواضع التي تكره فيها الصلاة، رقم (٧٤٥). وأحمد في المسند (٣/ ٨٣). وصحّحه الألباني في الإرواء رقم (٢٨٧). والشيخ أحمد شاكر في حاشيته على الترمذي (٢/ ١٣٣، ١٣٤).

كل ما ينفق حتى يكون له في ذلك أجر. كلُّ شيءٍ تنفقه صغيرًا كان أم كبيرًا، على نفسك أو على أهلك أو على أصحابك أو على أي واحد من الناس؛ إذا ابتغيت به وجه الله أثابك الله على ذلك. وقوله: «لكنَّ البائس سعْد بن خولة...»، سعد بن خولة ـ رضي الله عنه ـ من المهاجرين الذين هاجروا من مكة ولكن الله قدَّر أن يموت فيها؛ فمات فيها، فرثَى له النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ أي: توجَّعَ له أن مات بمكة؛ وقد كانوا يكرهون للمهاجر أن يَمُوت في الأرض التي هاجر منها.

هذا ما تيسَّر من الكلام على هذا الحديث، والمؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ ذكره في باب النيّة؛ لأنَّ النبي ﷺ قال لسعد: «**إنَّكَ لن تعمَلَ عَمَلاً تبتَغِي به وَجْهَ اللهِ إلاَّ ازدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَة**» وقال له: «**إنَّك لَن تُنْفِقَ نَفقةً تَبْتَغِي بِها وجهَ الله إلاَّ أُجِرْتَ عليها**» فأشار في هذا الحديث إلى الإخلاص في كون الإنسانِ يبتغي بعمله وبإنفاق ماله وجهَ الله؛ حتى ينال على ذلك الأجر وزيادة الدَّرجات والرَّفعة عند الله عزَّ وجل. والله الموفق.

* * *

٧ ـ وعَن أبي هُريرَةَ عَبْد الرَّحمن بن صَخْر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لا يَنْظُرُ إلَى أجسَادِكُم، وَلاَ إلى صُوَرِكُم، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُم»[١]. [رواه مسلم].

(١) أخرجه مسلم، كتاب البرّ والصِّلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره..، رقم (٢٥٦٤).

الشرح

هذا الحديث يدلُّ على ما يدلُّ عليه قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فالله سُبحانه وتعالى لا ينظر إلى العباد إلى أجسامهم هل هي كبيرة أو صغيرة، أو صحيحة أو سقيمة، ولا ينظر إلى الصُّور؛ هل هي جميلة أو ذميمة، كل هذا ليس بشيء عند الله، وكذلك لا ينظر إلى الأنسَاب؛ هل هي رفيعة أو دنيئة، ولا يَنظُرُ إلى الأموال، ولا ينظر إلى شيءٍ من هذا أبدًا، فليس بين الله وبين خلْقه صلة إلا بالتقوى، فمن كان لله أتْقى كان من الله أقرب، وكان عند الله أكرم؛ إذًا لا تفتخر بمالك، ولا بجمالك، ولا ببدنك، ولا بأولادك، ولا بقصورك، ولا بسياراتك، ولا بشيء من هذه الدنيا أبدًا. إنَّما إذا وفَّقك الله للتقوى فهذا من فضل الله عليك فاحمدِ الله عليه. قوله عليه الصلاة والسلام: «ولكن ينظر إلى قلوبكم»، فالقلوبُ هي التي عليها المدارُ، وهذا يؤيِّدُ الحديثَ الذي صدَّرَ المؤلِّفُ به الكتاب؛ «**إنَّما الأعمالُ بالنِّياتِ...**».

القلوب هي التي عليها المدار، كم من إنسان ظاهرُ عمله أنَّه صحيحٌ وجيِّد وصالح، لكن لما بُني على خَرابٍ صارَ خَرابًا، فالنيَّة هي الأصل، تجد رجلين يُصلِّيان في صَفٍّ واحد، مقتدينَ بإمام واحد، يكون بين صلاتيهما كما بين المشرق والمغرب؛ لأنَّ القلبَ مُختلفٌ، أحدُهُما قلبه غافل، بل ربَّما يكون مُرائيًا في صلاته ـ والعياذُ بالله ـ يُريد بها الدُّنيا.

والآخر قلْبه حاضر يريد بصلاته وجه الله واتِّباع سنة رسول الله ﷺ.

فبينهما فَرق عظيم، فالعملُ على ما في القلب، وعلى ما في القلبِ يكون الجزاء يوم القيامة؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٨، ٩]، أي: تُختبَرُ السَّرائِرُ لا الظواهر. في الدُّنيا الحُكم بين الناس على الظاهر؛ لقول النبي ﷺ: «**إنَّما أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُوْنَ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُوْنَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ من بَعْض، وأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مِمَّا أسمَع**»(١) لكن في الآخرة العلم على ما في السَّرائر، نسألُ الله أن يُطهِّر سرائرنا جميعًا.

العلم على ما في السرائر: فإذا كانت السريرة جيّدةً صحيحة فأبشِر بالخير، وإن كانت الأُخرى فَقَدْتَ الخيرَ كُلَّه، وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩، ١٠]، فالعِلمُ على ما في القلب.

وإذا كان الله تعالى في كتابه، وكان رسوله ﷺ في سُنَّتِهِ يؤكِّدان على إصلاح النيَّة؛ فالواجب على الإنسان أن يُصلح نيته، يُصلح قلبه، ينظُرَ ما في قلبه من الشّكِّ فيزيلَ هذا الشكَّ إلى اليقين. كيف؟ وذلك بنظره في الآيات: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقال: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحِيَل، باب رقم (١٠) رقم (٦٩٦٧)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر، واللحن بالحجة، رقم (١٧١٣).

وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤]، إذا ألقىٰ الشَّيطانُ في قلبِكَ الشَّكَّ فانظر في آيات الله. انظر إلى هذا الكون من يُدبِّره، انظر كيف تتغير الأحوال، كيف يُداول الله الأيام بين الناس؛ حتى تعلم أنَّ لهذا الكون مدبِّرًا حكيمًا عزَّ وجلَّ.

الشِّركُ؛ طهِّر قلبكَ منه. كيف أطهِّر قلبي من الشرك؟.

أطهِّر قلبي؛ بأن أقول لنفسي: إنَّ الناس لا ينفعونني إن عصيتُ الله ولا ينقذونني من العقاب، وإن أطعتُ الله لم يجلبوا إليَّ الثواب.

فالذي يجلب الثَّواب ويدفع العقاب هو الله. إذا كان الأمر كذلك فلماذا تشرك بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ، لماذا تنوي بعبادتك أن تتقرب إلى الخلق. ولهذا من تقرَّب إلى الخلق بما يتقرَّب به إلى الله ابتعد الله عنه، وابتعد عنه الخلق.

يعني لا يزيده تقرُّبه إلى الخلق بما يقربه إلى الله؛ إلا بُعدًا من الله ومن الخلق؛ لأنَّ الله إذا رضي عنك أرضى عنك الناس، وإذا سخط عليك أسخط عليك الناس، نعوذ بالله من سَخَطه وعِقابه.

المهمُّ يا أخي: عالج القلب دائمًا، كن دائمًا في غسيلٍ للقلب حتى يطهر؛ كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، فتطهير القلب أمر مهمٌ جدًّا، أسأل الله أن يُطهِّر قلبي وقلوبكم، وأن يجعلنا له مخلصين ولرَسُوله متَّبعين.

* * *

٨ ـ وعن أبي موسَى عَبدِ اللهِ بن قَيسٍ الأشعريِّ ـ رضي الله عنه ـ قالَ: سُئلَ رسولُ الله ﷺ عن الرَّجلِ يُقاتل شجاعةً، ويُقاتِل حَمِيَّةً، ويُقاتِل رياءً؛ أيُّ ذلكَ فِي سَبيْل الله؟ فَقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لِتكُوْنَ كَلِمَةُ اللهِ هِي العُلْيَا فَهُوَ فِيْ سَبِيْلِ الله»[1] [مُتَّفَقٌ عَلَيه].

الشرح

وفي لفظٍ للحديث: «ويُقَاتِلُ ليَرَى مَكَانَهُ؛ أيُّ ذلِكَ فِيْ سَبِيْلِ الله؟ قَالَ: مَنْ قَاتَلَ لِتَكُوْنَ كَلِمَةُ اللهِ هي العُلْيا فهو في سبيل الله».

قوله: «مَنْ قَاْتَلَ لِتَكُوْنَ» في هذا إخلاصُ النيَّة لله ـ عز وجل ـ وهذا الذي ساق المؤلِّفُ الحديث من أجله؛ إخلاص النية.

فقد سئل الرسول ﷺ عن الذي يقاتل على أحدِ الوجوهِ الثَّلاثَةِ! شجاعة، وحميّة، وليرى مكانه.

أمَّا الذي يقاتِلُ شجاعة: فمعناه أنَّهُ رجُل شجاع، يحب القتال؛ لأنَّ الرَّجل الشجاع متَّصفٌ بالشجاعة، والشجاعةُ لابد لها من ميدان تظهرُ فيه، فتجد الشجاع يحبُّ أنَّ الله يُيَسِّر لهُ قتالاً ويُظهر شجاعته، فهو يقاتل لأنَّهُ شجاعٌ يحبُّ القتال.

الثاني: يقاتل حَمِيَّةً: حَمِيَّةً على قوميته، حميّة على قبيلته، حمية على وطنه، حمية لأيِّ عصبيةٍ كانت.

الثالث: يُقاتل ليُرى مكانُه: أي ليراه الناسُ ويعرفوا أنه شجاعٌ، فعدل

---

(١) تقدم تخريجه ص(٣٤).

النبي ﷺ عن ذلك، وقال كلمةً موجزةً ميزانًا للقتال فقال: «**مَنْ قاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هيَ العُلْيا فَهُوَ فِي سَبِيْلِ اللهِ**»

وعَدَلَ النبي عليه الصلاة والسلام عن ذكر هذه الثّلاثة؛ ليكون أعم وأشمل؛ لأنَّ الرجل ربَّما يقاتل من أجل الاستيلاءِ على الأوطان والبلدان، يُقاتلُ من أجل أن يَحصل على امرأةٍ يَسبِيها من هؤلاء القوم، والنيَّات لا حدَّ لها، لكنَّ هذا الميزان الذي ذكره النبي عليه الصلاة والسلام ميزانٌ تامٌ عدل، ومن هنا نعلمُ أنّه يجب أن تُعدَّل اللهجةُ التي يتفوّه بها اليوم كثير من الناس:

لهجةُ قومٍ يقاتلون للقومية، القومية العربية، والقتال للقومية العربية قتال جاهلي، من قُتِلَ فيه فليس شهيدًا، فَقَدَ الدُّنيا وخسر الآخرة، لأنَّ ذلك ليس في سبيل الله، القتال لأجلِ القوميّة العربية هو قتالٌ جاهليٌّ لا يفيد الإنسان شيئًا.

ولذلك؛ على الرّغم من قوة الدّعاية للقوميّة العربيّة لم نستفد منها شيئًا، فاليهود استوَلَوا على بِلادنا، ونحن تفكّكْنا، دخل في ميزان هذه القومية قوم كفّارٌ؛ من النّصارى وغيرِ النصارى، وخرج منها قوم مسلمون من غير العرب، فخسرنا ملايين العالم، ملايين الناس؛ من أجل هذه القومية، ودخل فيها قومٌ لا خير فيهم، قومٌ إذا دَخَلوا في شيء كُتِب عليه الخُذلان والخَسارة.

واللَّهجةُ الثانية: قومٌ يُقاتلون للوطن، ونحن إذا قاتلنا من أجل

الوطن؛ لم يكن هُناك فرق بين قتالنا وبين قتال الكافر عن وطنه. حتى الكافر يقاتل عن وطنه ويدافع عن وطنه.

والذي يُقتل من أجلِ الدفاع عن الوطن ـ فقط ـ ليس بشهيد. ولكن الواجبُ علينا ونحن مسلمون وفي بَلد إسلامي ـ ولله الحمد ـ ونسأل الله أن يثبتنا على ذلك، الواجبُ أن نُقاتل من أجل الإسلام في بلادنا، وانتبه للفرق؛ نقاتلُ من أجل الإسلام في بلادنا، فنحمي الإسلام الذي في بلادنا، ونحمي الإسلام لو كُنَّا في أقصى الشَّرق أو الغرب. لو كانت بلادنا في أقصى الشَّرق أو الغرب قاتلنا للإسلام وليسَ لِوطِننا فَقَطْ، فيجبُ أن تُصحَّحَ هذه اللهجة، فيقالَ: نحنُ نقاتل من أجلِ الإسلام في وطننا أو من أجل وطننا لأنَّه إسلاميٌّ؛ ندافع عن الإسلام الذي فيه.

أمَّا مجرَّد الوطنية فإنها نيّة باطلة لا تُفيد الإنسان شيئًا، ولا فَرْقَ بين الإنسان الذي يقول إنَّه مسلم والإنسان الذي يقول إنَّه كافر؛ إذا كان القتال من أجل الوطن لأنَّهُ وطن.

وما يُذكر من أنَّ «حُبُّ الوَطَنِ مِنَ الإِيْمَانِ» وأنَّ ذلك حديثٌ عن رسول الله ﷺ كذب[1].

حبُّ الوطن إن كان لأنَّه وطنٌ إسلاميّ فهذا تحبه لأنَّه إسلاميّ. ولا فرق بين وطنكَ الذي هو مسقطُ رأسكَ، أو الوطن البعيد من بلاد المسلمين؛ كلُّها وطنُ الإسلامِ يجب أن نحميه.

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء رقم (١١٠٢)، وقال: قال الصغاني: موضوع.

على كلِّ حالٍ يجبُ أن نعلم أن النية الصحيحة هي أن نُقاتل من أجل الدفاع عن الإسلام في بلدنا، أو من أجل وطنِنا لأنَّه وطن إسلاميّ، لا لمجرد الوطنية.

أمَّا قِتالُ الدِّفاع أي: لو أنَّ أحدًا صَالَ عليك في بيتك، يريد أخذ مالك، أو يريد أن ينتهك عرض أهلك ـ مثلاً ـ فإنَّك تُقاتله كما أمرك بذلك النبي عليه الصلاة والسلام، فقد سُئِل عن الرَّجل يأتيه الإنسان ويقول له: أعطِني مالك؟ قال: «**لا تُعطه مالك. قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: قَاتِلْه. قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِيْ؟ قَالَ: فأَنْتَ شَهيدٌ. قال: أرأيتَ إن قَتَلْتُهُ؟ قال: هو في النَّار!!**»[1]؛ لأنَّهُ معتدٍ ظالم؛ حتى وإن كان مسلمًا، إذا جاءَكَ المسلمُ يريد أن يقاتلك من أجل أن يُخرجَكَ من بلدك، أو من بيتك فقاتِلْهُ، فإن قتلْتهُ فَهو في النَّار، وإن قَتلَكَ فأنت شهيد، ولا تَقُل كيفَ أقتُلُ مُسلمًا؟ فهو المعتدي، ولو كتَّفنا أيدينا أمام المعتدين الظالمين الذين لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمةً ولا دينًا؛ لكان المعتدون لهم السُّلطة، ولأفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، ولذلك نقول: هذه المسألة ليست من باب قتال الطَّلَبْ.

قتال الطَّلَبْ: معلومٌ أنني لا أذهب أقاتل مسلمًا أطلبه، ولكن أدفع عن نفسي، ومالي، وأهلي، ولو كان مؤمنًا؛ مع أنَّه لا يُمكن أبدًا أن يكون

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أنَّ من قصد أَخْذَ مال غيره بغير حق...، رقم (١٤٠).

شخص معه إيمان يُقدم على مسلمٍ يقاتله ليستوليَ على أهله وماله أبدًا.

ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**سِبَابُ المُسلِمِ فُسُوقٌ وقِتَالُه كُفر**»[1] لا إيمانَ لإنسانٍ يُقاتل المسلمين إطلاقًا، فإذا كان الرجل فاقدًا الإيمانَ، أو ناقص الإيمان؛ فإنَّه يجب أن نقاتلَهُ دِفاعًا عن النفس وجوبًا؛ لأنَّ النبي ﷺ قال: «**قَاتِلْه**» وقال: «**إنْ قَتَلْتَهُ فَهُو في النَّار**» وقال: «**وإنْ قَتَلَكَ فَأَنْتَ شَهِيْدٌ**». لأنك تُقاتل دون مالك، ودون أهلك، ودون نفسك.

والحاصلُ أن هناك قتالين: قِتالاً للطَّلب؛ أذهبُ أنا أُقاتلُ الناسَ مثلاً في بلادِهِم، هذا لا يجوز إلاّ بشروطٍ معيَّنة.

مثلاً: قال العُلماء: إذا ترك أهلُ قريةٍ الأذان؛ وهو ليس من أركان الإسلام، وجب على وليِّ الأمرِ أن يُقاتلهم حتى يؤذنوا؛ لأنَّهم تركوا شعيرة من شعائر الإسلام.

وإذا تَركوا صلاة العيد، وقالوا لا نُصَلِّيها لا في بيوتنا، ولا في الصحراء؛ يجبُ أن نَقاتِلَهُم، حتى لو فُرِضَ أن قومًا قالوا: هل الأذانُ من أركانِ الإسلام؟ قُلنا: لا، ولكنَّهُ من شعائر الإسلام؛ فنُقاتلكُم حتَّى تؤذِّنُوا. وإذا اقتتلَتْ طائفتان من المؤمنين، مثلَ: قبيلتان بينهما عصبيَّةٌ،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمنِ من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، رقم (٤٨). ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق...»، رقم (٦٤).

تقاتلا؛ وجَبَ علينا أن نُصلح بينهما، فإن بَغَتْ إحداهُما على الأخرى وجب أن نقاتِلها، حتى تفيءَ إلى أمر الله؛ مع أنها مؤمِنة، ولكن هناك فرقٌ بينَ قتال الدِّفاع وقِتال الطلب، الطلبُ: مَا نطلُبُ، إلاّ مَن أباحَ الشارعُ قِتاله، وأمَّا الدِّفاعُ فلابدَّ أن نُدافع.

ونرجو منكم أن تنتبهُوا علىٰ هذه المسألة؛ لأنَّنا نرى في الجرائد والصُّحف: الوطن! الوطن! الوطن! وليس فيها ذكرٌ للإسلام، وهذا نقصٌ عظيمٌ، يجب أن توجّه الأمّة إلى النهج والمسلك الصحيح، ونسأل الله لنا ولكم التوفيق لما يحب ويرضى.

* * *

٩ ـ وعن أبي بَكرَة نُفَيْع بن الحارثِ الثَّقفِيِّ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النبي ﷺ قال: «إذا التَقَىٰ المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ والمَقْتُولُ فِي النَّارِ» قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذا القَاتِلُ فَمَا بَالُ المَقْتُولِ؟ قالَ: «إنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلى قَتْلِ صَاحِبِهِ»[1]. [متفق عليه].

الشرح

قوله: «**إذَا التَقَىٰ المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا**» أي: يريد كلُّ واحد منهما أن يقتل الآخر، فَسَلَّ عليه السَّيف، وكذلك لو أشهر عليه السِّلاح؛ كالبندقيّة، أو غيرها مما يقتل؛ كحجر ونحوه!

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الديات، باب: ﴿ومن أحياها﴾ رقم (٦٨٧٥). ومسلم، كتاب الفِتن، باب إذا تواجَهَ المُسلِمان بسَيفَيهِما، رقم (٢٨٨٨).

فذِكْرُ السَّيف هنا على سبيل التمثيل، وليس على سبيل التعيين. بل إذا التقى المسلمان بأيِّ وسيلةٍ يكونُ بها القتل، فقتل أحدهما الآخر فالقاتل والمقتول في النار ـ والعياذ بالله فقال أبوبكرة للنبي ﷺ: «**هذا القاتل؟**» يعني أن كونه في النار واضح؛ لأنه قتل نفسًا مؤمنة متعمِّدًا؛ والذي يقتل نفسًا مؤمنة متعمدًا بغير حق فإنه في نار جهنم.

قال الله تعالى: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ٩٣]، فأبوبكرة ـ رضي الله عنه ـ قالَ للنبيِّ ﷺ: «**هَذا القَاتِلُ**» وهذه الجملة هي ما يُعرف في باب المناظرة بالتسليم، يعني: سلَّمنا أَنَّ القاتِل في النَّار، فما بال المقتول؟ كيف يكون في النار وهو المقتول؟.

فقال النبي ﷺ: «**لأنَّه كَانَ حَرِيْصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ**» فهو حريص على قتل صاحبه؛ ولهذا جاء بآلة القتل ليقتُلَهُ، ولكن تفوّق عليه الآخر فقتله. فيكون هذا ـ والعياذ بالله ـ بنيَّتِهِ القتلُ، وعمله السبب الموصل للقتل يكون كأنه قاتل؛ ولهذا قالَ: «**لأنَّه كان حريصًا على قَتْلِ صاحبِهِ**».

ففي هذا الحديث: دليلٌ على أن الأعمال بالنيات، وأنَّ هذا لمَّا نوىٰ قتل صاحبه؛ صار كأنه فاعلٌ ذلك؛ أي كأنه قاتل. وبهذا نعرف الفرق بين هذا الحديث وبين قوله ﷺ: «**مَنْ قُتِلَ دُوْنَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيْدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُوْنَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيْدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُوْنَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيْدٌ**»[1]. وقوله فيمن أتى ليأخذ

---

(١) أخرجه أبوداود، كتاب السنة، باب في قتال اللّصوص، رقم (٤٧٧٢). =

مالك: «إن قَتَلْتَهُ فَهُوَ فِيْ النَّارِ، وإنْ قَتَلَكَ فَأَنْتَ شَهِيْدٌ».

وذلك أن الإنسان الذي يُدافِعُ عن ماله، وأهله، ونفسه، وعِرضه إنَّما دافع رجلاً معتديًا صائلاً؛ لا يندفع إلا بالقتل، فهنا إذا قتل الصائلُ كان في النار، وإن قُتل المُدافع كان شهيدًا في الجنة، فهذا هو الفرق بينهما.

فبهذا عُلِمَ أنَّ مَنْ قتل أخاه مريدًا لقتله فإنه في النار، ومن قتله أخوه؛ وهو يُريد قتل أخيه، لكن عجز، فالمقتول أيضاً في النّار. القاتل والمقتول في النار.

وفي هذا الحديث: دليلٌ على عِظَمِ القتل، وأنّه من أسباب دخول النار والعياذ بالله.

وفيه: دليلٌ على أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كانوا يوردون على الرسول ﷺ الشُّبَهَ فيُجيبُ عنها.

ولهذا لا نجد شيئًا من الكتاب والسُّنة فيه شُبهةٌ حقيقيةٌ إلا وقد وجد حلُّها، إمّا أن يكون حلُّها بنفس الكتاب والسُّنة من غير إيراد سؤال، وإما أن يكون بإيرادِ سؤالٍ يُجاب عنه.

ومن ذلك أيضًا: أنَّ الرسول ﷺ لمَّا أخبر بأنَّ الدَّجال يمكثُ في الأرض أربَعينَ يومًا؛ اليومُ الأوَّل كَسَنَةٍ، والثاني كَشَهرٍ، والثالث كالأُسبوع،

= والترمذي، كتاب الديات، باب ما جاء فيمن قتل دون ماله فهو شهيد، رقم (١٤٢١)، وقال: حديث حَسَنٌ صحيح. وابن ماجه مختصرًا، كتاب الحدود، باب من قُتل دون ماله فهو شهيد، رقم (٢٥٨٠). وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٦٤٤٥) والإرواء رقم (٧٠٨).

وبقية الأيام كأيامنا، سأله الصحابة فقالوا: يا رسول الله، هذا اليوم الذي كَسَنَةٍ هل تكفينا فيه صلاةُ يومٍ واحد؟ قال: «**لا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَه**»[1]، ففي هذا أَبْيَنُ دليل على أنه لا يوجد ـ ولله الحمد ـ في الكتاب والسنة شيء مشتبه ليس له حلٌّ، لكن الذي يوجد: قصور في الأفهام تعجز عن معرفة الحل، أو يقصر الإنسانُ؛ فلا يطلب، ولا يتأمّل، ولا يُراجع؛ فَيَشْتَبِهُ عليه الأمر.

أمَّا الواقعُ: فليس في القرآن والسُّنَّة ـ ولله الحمد ـ شيء مُشْتبه إلاَّ وجد حلُّه في الكتاب أو السّنة؛ إمَّا ابتداءً، وإمَّا جوابًا عن سؤالٍ يقع من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ والله الموفِّق.

* * *

١٠ ـ وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «صَلاةُ الرَّجُلِ فِيْ جَماعةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلاتِهِ في بَيْتِهِ وصلاتِهِ في سُوقِه بضْعًا وعِشْرينَ دَرجةً، وَذَلِكَ أنَّ أحَدَهُمْ إذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوْءَ، ثُمَّ أتَى المَسْجِدَ لا يَنْهَزُهُ إلاَّ الصَّلاَةُ، لاَ يُرِيْدُ إلاَّ الصَّلاَةَ، فَلَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إلاَّ رُفِعَ لَهُ بِهَا دَرجةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ حتَّى يَدْخُلَ المَسْجِدَ، فَإِذَا دَخَلَ المَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلاةِ، مَا كَانَتِ الصَّلاةُ هِيَ تَحْبِسُه، والمَلاَئِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أحَدِكُمْ ما دامَ في مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فيهِ يَقُوْلُوْنَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، اللَّهُمَّ اِغْفِرْ لهُ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيْهِ، ما لَمْ يُحْدِثْ فيه»[2]. [مُتَّفقٌ عليه]،

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، رقم (٢٩٣٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب فضل صلاة الجماعة، رقم (٦٤٧). ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وانتظار =

وهذا لفظُ مُسلِم. وقوله ﷺ: «يَنْهَزُهُ» هُوَ بِفَتْحِ الياء والهاء، وبالزَّاي: أي يُخرِجُهُ ويُنْهِضُهُ.

الشرح

إذا صلَّى الإنسان في المسجد مع الجماعة كانت هذه الصلاة أفضل من الصَّلاة في بيته أو في سوقه سبعًا وعشرين مرة؛ لأن الصلاة مع الجماعة قيامٌ بما أوجبَ الله من صلاة الجماعة.

فإنَّ القول الرّاجح من أقوال أهل العلم أنَّ صلاة الجماعة فرضُ عين؛ وأنه يجب على الإنسان أن يصلّي مع الجماعة في المسجد، لأحاديث وردت في ذلك، ولِما أشار الله إليه ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه حين قال: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ. . .﴾ الآية. [النساء: ١٠٢].

فأوجب الله الجماعةَ في حال الخوفِ، فإذا أوجبها في حال الخوفِ؛ ففي حال الأَمْنِ مِنْ باب أولى وأحرىٰ.

ثُمَّ ذكر السبب في ذلك: «**بأن الرَّجُلَ إِذَا تَوضَّأَ فِيْ بَيْتِهِ فأسبغَ الوُضُوْءَ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ إِلىٰ المسجدِ لا ينهزُهُ، أو لا يخرجه إلاَّ الصَّلاة، لمْ يَخْطُ خطوَةً إلاَّ رفعَ اللهُ لَهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَة**»، سواء أقرب مكانه من المسجد أم بعد، كل خطوة يحصل بها فائدتان:

الفائدةُ الأولى: أن الله يرفعه بها درجة.

= الصلاة، رقم (٦٤٩).

والفائدة الثانية: أنَّ الله يحطُّ عنه بها خطيئةً، وهذا فضل عظيم. حتى يدخل المسجد؛ فإذا دخل المسجد فصلَّى ما كتب له، ثم جلس ينتظر الصلاة؛ «فإنَّهُ فِي صَلاةٍ ما انتَظَرَ الصَّلاةَ»؛ وهذه أيضًا نعمة عظيمةٌ؛ لو بَقِيْتَ مُنتظرًا للصَّلاةِ مدة طويلة، وأنت جالس لا تصلِّي - بعد أن صلَّيت تحية المسجد، وما شاء الله - فإنَّه يُحسب لك أجْر الصلاة.

وهناك أيضًا شيء رابع: أنَّ الملائكة تُصلِّي عليه مادام في مجلسه الذي صلّى فيه، تقولُ: «اللّهُمَّ صَلِّ علَيه، اللَّهمَّ اغفِر له، اللَّهم ارحَمْه، اللَّهمَّ تُبْ عليه» وهذا أيضًا فضلٌ عظيمٌ لمن حضر بهذه النيَّة وبهذه الأفعال.

والشَّاهِدُ من هذا الحديث قولُهُ: «ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بيْتِهِ إِلَىٰ المَسْجِدِ لاَ يُخْرِجُهُ إلاَّ الصَّلاَة» فإنَّهُ يدلُّ على اعتبار النيّة في حصول هذا الأجر العظيم.

أما لو خرج من بيته لا يُريد الصلاة، فإنَّه لا يكتب له هذا الأجر؛ مثلَ أنْ يخرج من بيته إلى دكَّانه؛ ولمَّا أذَّن ذَهَبَ يُصلِّي؛ فإنَّه لا يَحصلُ على هذا الأجر؛ لأن الأجر إنما يحصل لِمن خرج من البيت لا يخرجه إلا الصلاة.

لكن ربَّما يُكتب له الأجر من حين أن ينطلقَ من دُكّانه، أو من مكان بيعه وشرائه إلى أن يصل إلى المسجد؛ ما دام انطلق من هذا المكانِ وهو على طهارةٍ. والله الموَفق.

* * *

١١ ـ وعَن أَبِي العَبَّاسِ عَبْدِاللهِ بنِ عَبَّاس بن عَبْدُالمُطَّلب ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ فيما يَرْوِيْ عنْ رَبِّه ـ تبارك وتعالى ـ، قال: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ: فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فلمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ ـ تبَارَك وَتَعَالَى ـ عِنْدهُ حَسَنَةً كاملَةً، وَإنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عَشْرَ حَسَنَات، إلَى سَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ، إلى أضعَافٍ كثيرةٍ، وإنْ هَمَّ بسَيِّئةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»[1]. [متفقٌ عليه].

الشرح

قوله: «إنَّ الله كتب الحَسنات والسَّيئات»؛ كتابتُهُ للحسنات والسيئات تشمل مَعْنَيَيْن:

المعنى الأوَّل: كتابةُ ذلك في اللَّوح المحفوظ، فإنَّ الله ـ تعالى ـ كَتَب في اللّوح المحفوظ؛ كلّ شيء كما قال الله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣]، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ كتب السيئات والحسنات في اللوح المحفوظ، إذا عمِلها العبدُ فإن الله ـ تعالى ـ يكتبها حسب ما تقتضيه حكمته، وحسب ما يقتضيه عدْلُه وفضله.

فهاتَانِ كِتابتان:

كِتابةٌ سابقة: لا يَعلمها إلاَّ الله ـ عز وجل ـ فكلّ واحد منا لا يعلم

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب من همَّ بحسنة أو سيئة، رقم (٦٤٩١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إذا همّ العبد بحسنة كتبت. . .، رقم (١٣١).

ماذا كَتَبَ الله له من خير أو شرٍّ حتى يقع ذلك الشيء .

وكِتابةٌ لاحِقة: إذا عَمِل الإنسانُ العمل كُتِب له حسب ما تقتضيه الحِكمة، والعدل، و«الفظ **ثُمَّ بَيَّنَ ذلك**»، أي: ثم بيَّن النبيّ ﷺ ذلكَ كيف يكتب؛ فبيّن أن الإنسان إذا همَّ بحسنة فلم يعْملها كتبها الله ـ تعالى ـ حسنة كاملة .

مثاله: رجل همَّ أن يتوضأ ليقرأ القرآن، ثم لم يفعل ذلك وعدل عنه، فإنه يكتب له بذلك حسنة كاملة .

مثالٌ آخر: رجل همَّ أن يتصدَّق، وعيَّن المال الذي يُريد أن يتصدق به، ثم أمسك ولم يتصدّق، فيُكْتَبُ له بذلك حسنة كاملة . همَّ أن يُصلِّي ركعتين، فأمسك ولم يُصلِّ، فإنه يُكتب له بذلك حسنة كاملة .

فإنْ قال قائل: كيف يُكتب له حسنة وهو لم يفعلها؟

فالجواب على ذلك: أنْ يُقال إنَّ فضل الله واسع، هذا الهَمُّ الذي حدث منه يعتبر حسنةً؛ لأن القلب همّامٌ؛ إمّا بخير أو بشر، فإذا همَّ بالخير فهذه حسنة تكتب له، فإنْ عمِلها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة .

وهذا التَّفاوت مبنيٌّ على الإخلاص والمتابعةِ؛ فكُلَّما كان الإنسان في عبادته أَخْلَصَ لله كان أجره أكثر، وكلما كان الإنسان في عبادته أتبع للرسول ﷺ كانت عبادته أكمل، وثوابه أكثر، فالتفاوت هذا يكون بحسب الإخلاص لله والمتابعة لرسول الله ﷺ .

أما السيئة فقال: «**وإنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ حَسَنَةً كامِلةً**»

كرجل همَّ أن يسرق، ولكن ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فأدركه خوف الله فترك السرقة، فإنه يكتب له بذلك حسنة كاملة؛ لأنه ترك فعل المعصية لله فأُثيب على ذلك كما جاء ذلك مفسَّرًا في لفظٍ آخر: «**إنَّمَا تَرَكَها مِنْ جَرَّاي**»[1] أيْ مِن أجلي، همَّ أن يفعل مُنكرًا كالغيبة مثلاً، ولكنَّه ذكر أن هذا محرمٌ فتركه لله؛ فإنه يُعطى على ذلك حسنةً كاملة.

فإن عَمِل السيِّئة كتبت سيئة واحدة فقط، لا تزيد؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿**مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وهذا الحديث فيه: دليلٌ على اعتبار النيَّة؛ وأنَّ النية قد تُوصل صاحبها إلى الخير.

وَسبَقَ لنا أنَّ الإنسان إذا نوى الشرَّ، وعمل العمل الذي يوصِل إلى الشر، ولكنَّه عجِز عنه؛ فإنَّه يكتب عليه إثمُ الفاعل؛ كما سبق فيمن التقيا بسَيْفَيْهما من المسلمين: «**إذَا التقَىٰ المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقتُوْلُ في النَّار**» قالُوا: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «**لأنَّهُ كان حريصاً عَلى قَتْلِ صاحِبِه**»[2]. والله الموفق.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب إذا همَّ العبد بحسنة كُتِبت...، رقم (١٢٩).

(٢) تقدم تخريجه ص (٦٩).

١٢ ـ وعن أَبِي عبدِالرَّحمن عبدِالله بن عُمَر بن الخَطَّاب ـ رضِيَ الله عنهُما ـ قال: سَمِعت رسول الله ﷺ يقول: «انْطَلَقَ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كانَ قَبْلَكمْ حتَّى آواهُمُ المَبِيْتُ إلى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبلِ، فسَدَّتْ عليْهِمُ الغَارَ؛ فقالُوا: إنَّهُ لا يُنْجيكُم مِنْ هذِهِ الصَّخرةِ إلاَّ أنْ تَدْعُوا الله ـ تعالى ـ بصالحِ أعْمالِكُمْ.

قَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيْرَانِ، وكُنْتُ لاَ أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلاً وَلاَ مَالاً. فَنَأى بِيْ طَلَبُ الشَّجَرِ يَوْمًا، فَلَمْ أرِحْ عَلَيهِمَا حَتَّى نَامَا، فحلَبْتُ لهُمَا غَبُوقَهُمَا، فَوَجَدْتُهُمَا نائِمَيْنِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوْقِظَهُمَا وأَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلاً أَو مَالاً، فَلَبِثْتُ ـ وَالقَدَحُ عَلَى يَدِي ـ أنتِظرُ استِيْقَاظَهُمَا حتى بَرِقَ الفَجْرُ ـ والصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمِي ـ فَاسْتَيْقَظَا، فَشَرِبَا غَبُوْقَهُمَا. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلكَ ابتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذهِ الصَّخرةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لاَ يَسْتَطِيْعُونَ الخُرُوْجَ مِنْهُ.

قَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِي ابْنَةُ عَمٍّ، كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ – وَفِي رِوَايَةٍ: «كُنْتُ أُحِبُّهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ»– فَأَرَدْتُهَا عَلَى نَفْسِهَا، فامْتَنَعَتْ مِنِّي، حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِيْنُ، فَجَاءَتْنِيْ، فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِيْنَ وَمائَةَ دِيْنَارٍ؛ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِيْ وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا – وَفِيْ رِوَايَةٍ: «فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا»– قَالَتْ: اتَّقِ الله، وَلاَ تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّه، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِيْ أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيْهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيْعُوْنَ الخُرُوْجَ مِنْهَا.

وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ وَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ، غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِيْ لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّىٰ كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوَالُ، فَجَاْءَنِيْ بَعْدَ حِيْنٍ، فَقَالَ: يَا عَبْدَاللهِ، أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِيْ، فَقُلْتُ: كُلُّ مَا تَرَىٰ مِنْ أَجْرِكَ: مِنَ الإِبِلِ وَالبَقَرِ وَالغَنَمِ وَالرَّقِيْقِ. فَقَالَ: يَا عَبْدَاللهِ لاَ تَسْتَهْزِئ بِيْ! فَقُلْتُ: لاَ أَسْتَهْزِىءُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ، فَاسْتَاْقَهُ، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيه، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، فَخَرَجُوا يَمْشُوْنَ»[1].[مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

الشرح

قولُه: «انْطَلَقَ ثَلاَثَةُ نَفَر» أي: ثلاثةُ رجال.

«فَآوَاهُمُ المَبِيْتُ فَدَخَلُوا فِي غَار» يعني: لِيَبِيْتُوا فيه، والغارُ: هو ما يكون في الجبل مما يدخله الناس يبيتون فيه، أو يتظلَّلُون فيه عن الشمس، وما أشبه ذلك. فهم دخلوا حين آواهم المبيت إلى هذا الغار، فتَدَحْرجت عليهم صخرةٌ من الجبل حتى سدَّت عليهم باب الغار، ولم يستطيعوا أن يُزَحْزِحُوها؛ لأنَّها صخرة كبيرة. فرأوا أن يتوسَّلوا إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بصالح أعمالهم.

فذكَر أحدُهم بِرَّه التَّام بوالديه، وذكر الثاني عِفَّته التَّامة، وذكر الثالث وَرَعَهُ ونُصحه.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار رقم(٣٤٦٥)، ومسلم، كتاب التوبة، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة...، رقم (٢٧٤٣).

أما الأول: يقول إنه كان له أبوان شيخان كبيران «**وَكُنْتُ لاَ أَغْبِقُ**[1] **قَبْلَهُمَا أَهْلاً وَلاَ مَالاً**» الأهلُ: مثل الزوجة والأولاد، والمال: مثل الأرِقَّاء وشبهه.

وكان له غنم، فكان يَسْرَحُ فيها ثمَّ يرجع في آخر النهار، ويَحْلِبُ الغنم، ويعطي أبويه - الشَّيخين الكبيرين - ثمَّ يُعطي بقية أهله ومَاله.

يقولُ: «**فَنَأَى بِهِ طَلَبُ الشَّجَرِ ذاتَ يومٍ**» أي: أبعد بي طلب الشجر الذي يرعاه. فرجع، فوجد أبويه قد ناما، فنظر، هل يسقي أهله وما له قبل أبويه، أو ينتظر حتى يستيقظ الأبوان، فرجَّح الثاني؛ يعني أنَّه بقي، فأمسك الإناء بيده حتى برق الفجر؛ أي حتى طلع الفجر - وهو ينتظر استيقاظ أبويه -، فلمَّا استيقظا وشرِبا اللبن أسْقَىٰ أهله وما له.

قال: «**اللَّهمَّ إنْ كُنْت فَعَلْتُ ذلِكَ ابتِغَاءَ وَجْهِكَ ففرِّجْ عنَّا ما نحن فيه**».

ومعناهُ: اللهم إن كنت مخلصًا في عملي هذا - فعلْتُه من أجلك - فافرج عنَّا ما نحن فيه.

وفي هذا دليلٌ على الإخلاص لله - عزَّ وجلَّ - في العمل، وأن الإخلاصَ عليه مدارٌ كبيرٌ في قبول العمل، فتقبَّل الله منه هذه الوسيلة وانفرجت الصَّخرة؛ لكن انفِراجًا لا يستطيعون الخروج منه.

أما الثاني: فتوسَّل إلى الله عز وجل - بالعِفَّة التامَّة؛ وذلك أنه كان له ابنةُ عمٍّ، وكان يحبها حبًّا شديدًا كأشدِّ ما يُحب الرجال النساء «**فَأَرَادَهَا**

---

(1) **الغَبُوق**: هو الشرب بالعَشِيِّ، والمُراد: أنه كان لا يقدّم على أبويه أحدًا في طعام ولا شراب.

عَلَى نَفْسِهَا» أي أرادها ـ والعياذُ بالله ـ بالزنا؛ ليزني بها، ولكنَّها لم توافق وأَبَتْ، فألمَّتْ بها سنة من السِّنين، أي: أصابها فقرٌ وحاجة، فاضطرَّت إلى أن تجود بنفسها في الزِّنا من أجل الضَّرورة، وهذا لا يجوز، ولكن على كل حال؛ هذا الذي حصل، فجاءت إليه، فأَعطاها مائة وعشرين ديناراً؛ أي: مائة وعشرين جُنيهًا؛ من أجلِ أن تُمكِّنه مِن نفسها، ففعلت من أجل الحاجة والضَّرورةِ، فلمَّا جلس منها مجلِسَ الرَّجل من امرأتِه على أنَّه يُريد أن يفعل بها، قالت له هذه الكلمة العجيبة العظيمة: «اتَّقِ الله، ولا تَفُضَّ الخَاتَم إلاّ بِحَقِّه».

فخوَّفته بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأشارت إليه إلى أنه إن أراد هذا بالحق فلا مانع عندها، لكن كونه يفضُّ الخاتم بغير حق، هي لا تريده، ترى أن هذا من المعاصي؛ ولهذا قالت له: اتَّق الله، فلمَّا قالت له هذه الكلمة ـ التي خرجت من أعماق قلبها ـ دَخَلَتْ في أعماق قلبه، وقام عنها وهي أحب الناس إليه، يعني مَا زالت رغبته عنها، ولا كرِهَهَا، بل حُبُّها باقٍ في قلبه، لكن أدركه خوف الله ـ عز وجل ـ فقام عنها وهي أحب الناس إليه، وترك لها الذَّهب الذي أعطاها ـ مائة وعشرين ديناراً، ثمَّ قالَ: «اللهُمَّ إنْ كُنْتُ فَعَلْتُ هَذَا لأجلِكَ فافرج عنَّا مَا نحن فيه، فَانفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، إلاَّ أَنَّهم لا يستطِيعون الخُروج» وهذا من آيات الله؛ لأنَّ الله َعلى كلِّ شيء قدير، لو شاء الله تعالى لانفرجت عنهم بأول مرة.

ولكنه ـ سبحانه وتعالى ـ أرادَ أن يُبقي هذه الصخرة؛ حتى يتم لكلِّ واحد منهم ما أراد أن يتوسَّل به من صالح الأعمال.

وأما الثالث: فتوسَّل إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالأمانة والإصلاح والإخلاص في العمل، فإنه يذكُر أنه استأجر أجراء على عمل من الأعمال؛ فأعطاهم أجورهم، إلاّ رجلاً واحدًا تركَ أجره فلم يأخُذه. فقَام هذا المستأجر فثمَّر المال، فصار يتكسَّب به بالبيع والشراء وغير ذلك، حتى نما وصار منه إبلٌ وبقرٌ وغنمٌ ورقيقٌ وأموالٌ عظيمة.

فجاءه بعد حين، فقال له: يا عبد الله أعطني أجري. فقال له: كلّ ما ترى فهو لك؛ من الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال: لا تستهزىء بي، الأُجرة التي لي عندك قليلة، كيف لي كلُّ ما أرى من الإبل والبقر والغنم والرقيق؟ لا تَستهزىء بي. فقلت: هو لك، فأخذه واستاقه كله ولم يترك له شيئًا.

اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلكَ مِن أجْلِكَ فافْرج عَنَّا مَا نَحْنُ فِيه، فانفَرجَت الصخرة، وانفتح الباب، فخرجوا يَمْشون» لأنهم توسلوا إلى الله بصالح أعمالهم التي فعلوها إخلاصًا لله عزَّ وجلَّ.

ففي هذا الحديث من الفوائد والعِبر: فضيلةُ بِرِّ الوالدين؛ وأنه من الأعمال الصالحة التي تفرَّج بها الكربات، وتزال بها الظلمات.

وفيه: فضيلة العِفَّة عن الزِّنا، وأنَّ الإنسان إذا عفَّ عن الزنا ـ مع قدرته عليه ـ فإنَّ ذلك من أفضل الأعمال، وقد ثبت عن النبيّ ﷺ أن هذا من السبعة الذين يُظلُّهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: **«رَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إنِّيْ أَخَافُ الله»**[1].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم =

فهذا الرجل مكَّنَتْهُ هذه المرأة التي يحبها من نفسها، فقام خوفًا من الله عز وجل، فحصل عنده كمالُ العِفَّة، فيُرجى أن يكون مِمَّن يُظلُّهم الله في ظِله يوم لا ظل إلا ظله.

وفي هذا الحديث أيضاً: دليلٌ على فضل الأمانة وإصلاح العمل للغير، فإنَّ هذا الرجل بإمكانه ـ لمَّا جاءه الأجيرُ ـ أنْ يُعطِيه أُجرته، ويبقي هذا المال له، ولكنْ لأمانته وثِقتِه وإخلاصه لأخيه ونُصْحه له؛ أعطاه كل ما أثمر أَجْرُه.

ومن فوائد هذا الحديث: بيان قدرة الله ـ عز وجل ـ حيث إنه تعالى أزاح عنهماالصخرة بإذنه، لم تأتِ آلةٌ تزيلها، ولم يأت رجال يُزَحْزِحُونَها، وإنما هو أمر الله عز وجل، أَمَرَ هذه الصَّخرة أن تنحدر فتنطبق عليهم، ثم أمرها أن تنفرج عنهم، والله ـ سبحانه ـ على كلِّ شيء قدير.

وفيه مِنَ العِبر: أن الله تعالى سميع الدُّعاء؛ فإنه سمع دُعاء هؤلاء واستجاب لهم.

وفيه مِنَ العِبر: أنَّ الإخلاص من أسباب تفريج الكربات؛ لأنَّ كلَّ واحد منهم يقول: «**اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيْهِ**».

أمَّا الرِّياءَ ـ والعياذ بالله ـ، وَالَّذي لا يفعل الأعمال إلا رياءً وسُمعة، حتى يُمدح عند الناس؛ فإن هذا كالزّبد يذهب جُفَاءً، لا ينتفع منه صاحبه،

= (٦٦٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١).

نسأل الله أن يرزقنا وإيَّاكم الإخلاص له؛ فالإخلاصُ هو كلُّ شيءٍ. لا تجعل لأحد من عبادتك نصيبًا، اجعلها كُلَّها لله وحده ـ عزَّ وجلَّ ـ حتى تكون مقبولة عند الله؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ فيما يرويه عن الله تعالى أنه قال: **«أَنَا أَغْنَىٰ الشُّركَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيْهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وشِرْكَه»**[1] والله الموفِّق.

* * *

(١) تقدم تخريجه ص (١٥).

٢ـ بَابُ التَّوبة

قال العلماءُ: التَّوبةُ واجِبةٌ من كلِّ ذنب، فإنْ كانت المعصِيَةُ بينَ العبد وبين الله تعالى، لا تَتَعَلَّقُ بحقِّ آدميٍّ؛ فلها ثلاثةُ شروط:

أحدُها: أنْ يُقلِعَ عن المعصية.

والثاني: أنْ يندم على فعلها.

والثالث: أن يعزم أن لا يعود إليها أبدًا. فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته.

وإن كانت المعصية تتعلق بآدميٍّ فشُرُوطُها أربعةٌ: هذه الثلاثة، وأنْ يَبرأ من حقِّ صاحبها؛ فإن كانت مالاً أو نحوه ردَّهُ إليه، وإن كانت حدَّ قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة استحلَّه مِنها. ويجب أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضِها صحَّت توبته ـ عند أهل الحقِّ ـ من ذلك الذنب، وبقي عليه الباقي. وقد تَظَاهَرَتْ دَلاَئِلُ الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة:

قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

الشرح

قال المؤلف -رحمه الله تعالى- باب التوبة:

التوبة لغة: من تاب يتوب، إذا رَجع.

وشرعًا: الرُّجوع من معصية الله تعالى إلى طاعته.

وأعظمُها وأوجبُها التوبةُ من الكفر إلى الإيمان، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، ثم يليها التوبة من الكبائر؛ كبائرِ الذُّنوب.

ثمَّ المرتبة الثالثة: التَّوبة من صغائر الذنوب.

والواجب على المرء، أن يتوب إلى الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ مِنْ كلِّ ذنب.

وللتوبة شروطٌ ثلاثة: كما قال المؤلف ـ رحمه الله ـ، ولكنَّها بالتتبُّعِ تبلُغُ إلى خمسةٍ:

الشَّرط الأول: الإخلاص لله، بأن يكون قصدُ الإنسان بتوبته وجه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأن يتوب الله عليه، ويتجاوز عمَّا فعل من المعصية. لا يقصدُ بذلك مُراءاةُ الناس والتقرُّبَ إليهم، ولا يقصِدُ بذلك دَفعَ الأذيَّةِ من السُّلُطاتِ ووَليِّ الأمرِ.

وإنما يقصد بذلك وجه الله والدارَ الآخرة، وأن يعفو الله عن ذنوبه.

الشَّرط الثاني: الندمُ على ما فعل من المعصية؛ لأنَّ شعور الإنسان بالندم هو الذي يدل على أنه صادق في التوبة؛ بمعنى أنْ يتحسَّر على ما سبق منه، وينكسر من أجله، ولا يرى أنه في حِلٍّ منه حتى يتوب منه إلى الله.

الشرط الثالث: أن يُقلع عن الذَّنب الذي هو فيه، وهذا من أهمِّ شروطه. والإقلاعُ عن الذَّنب: إنْ كان الذَّنبُ تَرْك واجبٍ؛ فالإقلاع عنه بفعله؛ مثل أن يكون شخصٌ لا يُزَكّي، فأراد أن يتوب إلى الله، فلابُدَّ من أن

يُخرِجَ الزكاة التي مضت ولم يُؤدِّها، وإذا كان الإنسان مقصِّرًا في برِّ الوالدين؛ فإنَّه يجبُ عليه أن يقومَ بِبِرِّهِما، وإذا كان مُقصِّرًا في صلة الرّحِم؛ فإنه يجب عليه أن يصل الرحم.

وإن كانت المعصية بفعل محرَّم، فالواجب أن يُقلع عنه فورًا، ولا يبقى فيه ولا لحظة.

فإذا كانت من أكل الربا مثلاً، فالواجبُ أن يتخلَّص من الرِّبا فورًا، بتركه والبُعد عنه، وإخراجِ ما اكتسبه عن طريق الرِّبا، إذا كانت المعصيةُ بالغِشِّ والكذب على النَّاس وخيانة الأمانة؛ فالواجب عليه أن يُقلع عن ذلك، وإذا كان قد اكتسب مالاً من هذا الطريق المحرَّم؛ فالواجب عليه أن يَرُدّه إلى صاحبه أو يستحله منه، وإذا كانت غِيبةً؛ فالواجب أن يُقلع عن غيبةِ النَّاس والتكلُّم في أعراضهم، أما أن يقول إنَّه تائب إلى الله وهو مُصِرٌّ على ترك الواجب، أو مصرٌّ على فعل المحرَّم، فإنَّ هذه التوبة غيرُ مقبولة. بل إنَّ هذه التوبة كالاستهزاء بالله عزَّ وجلَّ، كيف تتوب إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأنت مُصرٌّ على معصيته؟!

لو أنك تُعامل بشرًا من الناس، تقول أنا تُبت إليك وأنا نادِمٌ لا أعود، ثمَّ في نيَّتك وفي قلبكَ أنكَ ستعود، وعُدْتَ، فإن هذه سخرية بالرَّجل، فكيف بالله ربِّ العالمين؟!

فالإنسانُ التائبُ حقيقة هو الذي يُقلع عن الذَّنب.

ومن الغريب أنَّ بعض الناس تجلس إليه، وتجدُهُ يتأوّه من وجود الرِّبا؛ وهو في نفسه يُرابي والعياذ بالله، أو يتأوّه من الغيبة وأكل لحوم

الناس؛ وهو من أكثر الناس غيبة ـ نسأل الله العافية ـ، أو يتأوّهُ من الكذِبِ وضياع الأمانة في الناس؛ وهو من أكذب النَّاس وأضيعِهم للأمانة!!

على كلِّ حال، الإنسان لابد أن يُقلع عن الذَّنب الذي تاب منه، فإنْ لم يُقلع فتوبته مردودة ولا تنفعه عند الله عزّ وجل. والإقلاع عن الذَّنب إما أن يكون إقلاعًا عن ذنب يتعلّق في حق الله ـ عز وجل ـ، فهذا يكفي أن تتوب بينك وبين ربك، ولا ينبغي ـ بل قد نقول: لا يجوزـ أن تحدث النَّاس بما صَنَعت من المحرَّم أو تركِ الواجبِ. لأن هذا بينك وبين الله، فإذا كان اللهُ قد منَّ عليك بالسَّتر، وسترك عن العباد فلا تحدث أحدًا بما صنَعْت إذا تُبت إلى الله.

وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَى إِلاَّ المُجَاهِرِينَ**»[1].

ومن المجاهرة، كما جاء في الحديث: «**أن يعمل الرجل بالليلِ عملاً، ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ، فَيَقُوْلُ: يا فلان، عَمِلْتُ البارِحَة كَذَا وكَذا... إلى آخره**»[2].

إلاَّ أنَّ بعض العلماء قال: إذا فعل الإنسانُ ذنبًا فيه حَدٌّ، فإنه لا بأس أن يذهب إلى الإمام الذي يُقيم الحدود ـ مثلَ الأمير ـ ويقولَ إنَّه فعل الذنب الفلاني ويريد أن يُطَهِّره منه، ومع ذلك فالأفضلُ أنْ يستُر على نفسه، هذا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه، رقم (٦٠٦٩)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه، رقم (٢٩٩٠).

(٢) الحديث السابق.

هو الأفضل .

يعني يُباح له أن يذهب إلى ولي الأمر إذا فعل معصية فيها حدٌّ كالزِّنا مثلاً ، فيقولُ إنَّه فعل كذا وكذا ؛ يطلب إقامة الحدِّ عليه ؛ لأنَّ الحدَّ كفَّارة للذَّنب .

أما المعاصي الأُخرى فاسترها على نفسك كما سترها الله ، وكذلك الزِّنا وشبهه ، استره على نفسك ـ بالنسبة لغَيْرِ وليّ الأمر ـ لا تفضح نفسك .

ما دمت أنك قد تبت فيما بينك وبين الله تعالى ، فإنَّ الله تعالى يقبل التَّوبة عن عباده ويعفو عن السيئات .

أمَّا إذا كان الذنب بينك وبين الخلق ، فإنْ كان مالاً فلابُدَّ أن تؤدِّيه إلى صاحبه ، ولا تُقبل التوبة إلا بأدائه . مثل أن تكون قد سرقت مالاً من شخص وتبت من هذا ، فلابُدَّ أن توصل المسروق إلى المسروق منه .

أو جحدت حقًّا لشخص ؛ كأن يكون في ذِمَّتِك دَين لإنسان وأنكرته ، ثم تبت ، فلابدَّ أن تذهب إلى صاحب الدَّين الذي أنكرته ، وتقرَّ عندَهُ وتعترِفَ حتى يأخُذَ حقَّه . فإن كان قد مات ، فإنك تعطيه وَرَثَتَهُ ، فإن لم تعرفهُم ، أو غاب عنك هذا الرجل ولم تعرف له مكانًا ، فتصدق بِهِ عنهُ تخلصًا منه ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلمه ويعطيه إياه .

أما إذا كانت المعصية التي فعلتها مع البشر ضَرْبًا وما أشْبهه ، فاذهب إليه ومَكِّنه من أن يَضْرِبَكَ مثل مَا ضربته ؛ إن كان على الظَّهر فَعلى الظهر ، وإن كان على الرأس فعلى الرَّأس ، أو في أيِّ مكان ضربته فليقتصَّ منك ؛ لقول الله تعالى سبحانه : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾ [الشورى : ٤٠]، ولقوله : ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾ [البقرة : ١٩٤] .

وإن كان بقولٍ؛ أي: أذيَّةٌ بالقول، مثلَ أن تكونَ قد سَبَبْته أمام الناس ووبَّخته وعيَّرته، فلابد أن تذهب إليه وتستحِلَّ منه بما تتفقان عليه. حتى لو قال لا أسمح لك إلاَّ بكذا وكذا من الدَّراهم، فأعطه.

الرابع: أن يكون الحق غِيْبَةً، يعني أنك تكلَّمت به في غيبته، وقدحت فيه عند الناس وهو غائب.

فهذه اختلف فيها العلماء؛ فمنهم من قال: لابدَّ أن تذهب إليه، وتقول له يا فلان إني تكلَّمت فيك عند الناس، فأرجوك أن تسمح عني وتُحلّلني.

وقال بعض العلماء: لا تذهب إليه، بل فيه تفصيل! فإن كان قد عِلم بهذه الغيبة فلابد أن تذهب إليه وتستحِلَّهُ. وإن لم يكن عِلم فلا تذهب إليه، واستغفر له، وتحدث بمحاسنه في المجالس التي كنت تغتابه فيها؛ فإنَّ الحسنات يُذهبن السيئات. وهذا القول أصح؛ وهو أنَّ الغيبة إذا كان صاحبها لم يعلم بأنك اغتبته، فإنَّه يكفي أن تذكُرَهُ بمحاسنه في المجالس التي اغتبته فيها، وأن تستغفر له، تقول: «**اللَّهُمَّ اغفِرْ له**» كما جاء في الحديث: «**كَفَّارةُ مَنْ اغْتَبْتَهُ أنْ تَستَغْفِرَ لَه**»[1]. فلابد في التوبة من أنْ تصل الحقوقُ إلى أهلها.

أما الشرط الرابع: فهو العزم على أن لا تعود في المستقبل؛ بأنك لن

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم (٢٩١)، وأبو الشيخ في التوبيخ والتنبيه رقم (٢١١)، والخرائطي في مساوىء الأخلاق رقم (٢١١)، وضعَّفه الحافظ العراقي في المغني، انظر الإحياء (٣/ ١٣٣). وانظر طرق هذا الحديث في كشف الخفاء (٢/ ١١١). وضعَّفه الألباني أيضًا كما في السلسلة الضعيفة رقم (١٥١٩).

تعودَ إلى هذا العمل في المستقبل، فإنْ كُنت تنوي أن تعود إليه عندما تسمح لك الفرصة فإنَّ التوبة لا تصحُّ؛ مثلَ: رَجُلٍ كان ـ والعياذ بالله ـ يستعين بالمال على معصية الله، يشتري بِه المُسْكِرَات، يذهب إلى البلاد يَزني ـ والعياذ بالله ـ ويسكر. فأُصِيْبَ بفقرٍ وقال: اللَّهم إني تبت إليك، وهو كاذب، يقول: تبت إليك، وهو في نيَّته أنَّه إذا عادت الأمور إلى مجاريها الأُولى فَعل فِعله الأوَّل.

فهذه توبةُ عاجزٍ، تُبْتَ أم لم تَتُبْ لست بقادرٍ على فعل المعصية، لأنه يوجد بعض الناس يُصابُ بفقرٍ، فيقولُ: تركتُ الذُّنُوب، لكن يُحدِّث قلبه أنَّه لو عاد إليه ما افتقده لعاد إلى المعصية مرة ثانية، فهذه توبةٌ غيرُ مقبولة؛ لأنَّها توبةُ عاجِزٍ، وتوبة العاجِزِ لا تنفعه.

الشرط الخامس: أن تكون في زمن تقبل فيه التوبة، فإن تاب في زمن لا تقبل فيه التوبة لم تنفعه التوبة. وذلك على نوعين:

النوع الأول: باعتبار كلِّ إنسانٍ بحسبه.

والنوع الثاني: باعتبار العموم.

أما الأول: فلابُدَّ أن تكون التوبة قبل حُلول الأجل ـ يعني الموت ـ، فإن كانت بعد حُلول الأجل فإنها لا تنفعُ التائبَ؛ لقول الله تعالى ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء: ١٨]، هؤلاء ليس لهم توبة!

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى

﴿عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

فالإنسان إذا عاينَ الموت وحضره الأجل؛ فهذا يعني أنه أَيِسَ من الحياة، فتكون توبته في غير محلِّها! بعد أن أَيِسَ من الحياة، وعرف أنه لا بقاء له يذهب فيتوب! هذه توبة اضطرارٍ، فلا تنفعه ولا تُقْبَلُ منه، لابد أن تكون التوبة سابقة.

أما النوع الثاني: وهو العموم؛ فإن الرسول - عليه الصلاة والسلام- أخبر بأن: «**الهِجْرَةَ لا تَنْقَطِع حتَّى تَنْقَطع التَّوبة، وَلاَ تنقطِع التَّوبة حتى تطلُع الشَّمس مِن مَغْرِبها**»[1].

فإذا طلعت الشَّمس من مغربها لم ينفع أحدًا توبة. قال الله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وهذا البعضُ: هو طلوع الشمس من مَغْربها كما فسّر ذلك النبي ﷺ.

إذًا فلابدَّ أن تكون التوبة في وقتٍ تُقبل فيه التوبة، فإن لم تكن كذلك فلا توبة للإنسان.

ثُمَّ اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ هل تقبل التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره أو لا، في هذا ثلاثة أقوال لأهل العلم!!

١ ـ **منهم من قال**: إنها تصِحُّ التَّوبة مِنَ الذَّنب وإن كان مُصِرًّا على ذنب آخر، فتقبل توبته من هذا الذنب، ويبقى الإثم عليه في الذَّنب الآخر بكلِّ حال.

---

(١) تقدم تخريجه ص (٣١).

٢ ـ **ومنهم من قال**: لا تُقبل التَّوبةُ من الذَّنب مع الإصرار على ذنب آخر.

٣ ـ **ومنهم مَن فصَّل فقال**: إن كان الذَّنب الذي أصرَّ عليه مِنْ جِنس الذَّنب الذي تاب منه فإنها لا تُقبل، وإلا قُبلت.

مثالُ ذلك: رجل تاب من الرِّبا ولكنه ـ والعياذ بالله ـ يشرب الخمر ومُصرٌّ على شرب الخمر.

فهنا، من العلماء مَن قال: إنَّ توبته من الرِّبا لا تُقبل، كيف يكون تائبًا إلى الله وهو مُصِرٌّ على معصيته؟.

وقال بعض العلماء: بل تُقبل؛ لأنَّ الرِّبا شيءٌ وشرب الخمر شيء آخر، وهذا هو الذي مشى عليه المؤلف ـ رحمه الله ـ وقال: إنها تقبل التوبةُ من ذنب مع الإصرار على غيره عند أهل الحق.

فهذا فيه الخلاف: بعضهم يقول: تقبل، وبعضهم يقول: لا تقبل. أما إذا كان من الجِنس؛ مثلَ أن يكون الإنسان ـ والعياذ بالله ـ مُبْتلىً بالزنا، ومبتلىً أيضاً بالاطلاع على النِّساء والنظر إليهنَّ بشهوة وما أشبه ذلك، فهل تُقبل توبته من الزنا وهو مُصِرٌّ على النظر إلى النِّساء لشهوة؟ أو بالعكس؟

هذا فيه أيضًا خلافٌ؛ فمنهم من يقول: تَصِحُّ.

ومنهم من يقول: لا تصحّ التَّوبة.

ولكنَّ الصحيح في هذه المسألة أنَّ التوبة تَصِحُّ من ذنبٍ مع الإصرار على غيره، لكن لا يُعطىٰ الإنسان اسم التائب على سبيل الإطلاق، ولا يستحقُّ المدحَ الذي يُمدح به التائبون؛ لأنَّ هذا لم يَتُب توبة تامّة بل تاب توبة ناقصة، تاب من هذا الذَّنب فيرتفع عنه إثم هذا الذنب لكنه لا يستحق

أن يُوصف بالتوبة على سبيل الإطلاق، بل يقال: هذا توبتُهُ ناقصةٌ وقاصرة، فهذا هو القول الذي تطمئن إليه النَّفس؛ أنَّه لا يُعطى الوصف على سبيل الإطلاق، ولا يحرم من التوبة التي تابها من هذا الذنب.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: إنَّ النصوص من الكتاب والسنة تظاهرت وتضافرت على وجوب التَّوبة من جميع المعاصي، وصدق ـ رحمه الله ـ فإنَّ الآيات كثيرةٌ في الحث على التوبة وبيان فضلها وأجرها، وكذلك الأحاديث عن النبي ﷺ.

وقد بيَّن الله تعالى في كتابه أنه ـ سبحانه ـ يحبُّ التَّوابين ويحبُّ المتطهرين، التوابون: الذين يُكثرون التوبة إلى اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ؛ كُلَّما أذنبوا ذنبًا تابوا إلى الله.

ثم ذكر المؤلف من الآيات قول الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، هذه الجملة خَتَم الله بها آيتي وجوب غض البصر، وهي قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا﴾ إلى قوله: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

ففي هذه الآية دليلٌ على وجوب التوبة من عدم غض البصر وحفظ الفرج؛ لأن غضّ البصر يعني: قصره وعدم إطلاقه، ولأنَّ ترك غضّ البصر

وحفظ الفرج؛ كل ذلك من أسباب الهلاك، وأسباب الشقاء، وأسباب البلاء. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتنة أضرَّ عَلَى الرِّجالِ مِن النِّساءِ»[١]، «وإنَّ أول فِتْنة بَنِي إسْرَائِيْل كَانَتْ فِي النِّسَاء»[٢].

ولهذا كان أعداؤنا ـ أعداء الإسلام ـ بل أعداء الله ورسوله مِن اليهود والنَّصارى والمشركين والشيوعيين وأشباههم وأذنابهم وأتباعهم كل هؤلاء ـ يحرصون غاية الحرص على أن يفتنوا المسلمين بالنساء، يَدْعون إلى التَّبرج، يدعون إلى اختلاط المرأة بالرَّجل، يدعون إلى التفسُّخِ في الأخلاق، يدعون إلى ذلك بألسنتهم، وأقلامهم، وأعمالهم ـ والعياذ باللهِ ـ؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ الفِتنة العظيمة التي ينسى بها الإنسانُ ربه ودينه إنَّما تكون في النساء.

النساء اللاَّتي يفتنَّ أصحابَ العقول، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «مَا رَأيْتُ مِن نَاقِصَاتِ عقْلٍ ودينٍ أذْهَبَ للُبِّ الرَّجُل الحَازِم مِنْ إحْداكُنَّ»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة، رقم (٥٠٩٦)، ومسلم، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء رقم (٢٧٤٠، ٢٧٤١).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء، رقم (٢٧٤٢).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم (٣٠٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب نقصان الإيمان بنقص الطاعات...، رقم (٧٩).

هل تُريدُ شيئًا أبيَنَ مِن هذا.

أذهَب للُبِّ الرَّجل ـ لعقله ـ الحازم، فما بالُكَ بالرَّجُلِ المهين؛ الذي ليس عنده حَزْمٌ، ولا عزْمٌ، ولا دينٌ، ولا رُجولة؛ يكون أشد وأشد والعياذ بالله.

لكنَّ الرجل الحازم تُذهِبُ النِّساءُ عقْله - نسأل الله العافية ـ، وهذا هُو الواقع؛ لذلك قال الله تعالى عقب الأمر بغضِّ البصر، قالَ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]؛ وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ يدلُّ على أنه ينبغي لنا - بل يجبُ علينا- أن نتواصَى بالتَّوبة، وأن يتفقَّد بَعْضُنا بعضًا، هل الإنسان تاب من ذنبه أو بقي مُصرًّا عليه؛ لأنه وجَّه الخطاب للجميع: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]، وفي قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ التوبة من أسباب الفلاح، والفلاحُ - كما قال أهل العلم بالتفسير وباللغة - الفلاحُ: كلمة جامعةٌ يَحْصلُ بها المطلوب ويَزول بها المَرْهوب، فهي كلمة جامعة لخير الدنيا والآخرة.

وكلُّ إنسان يَطْلب خير الدُّنيا والآخرة. ما تجد إنسانًا ـ حتى الكافر ـ يريد الخير. لكنْ من الناس من يوفَّق ومنهم من لا يُوفَّق.

الكافر يُريد الخير؛ لكنَّه يريد خير الدنيا؛ لأنه رجلٌ بَهِيْمِيٌّ؛ هو شرُّ الدَّواب عندالله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: ٥٥]، شرٌّ من كلِّ دابة تدبُّ على الأرضِ؛ ومع ذلك هو يُريد الخير، ويريد الرَّفاهية، ويريد التَّنعُّم بهذه الدنيا، لكنَّها ـ أي الدُّنيا ـ جنَّته، والآخرة ـ والعياذ بالله ـ

عذابُهُ ونَاره.

المهمُّ أنَّ كل إنسانٍ يُريد الفلاح، لكن على حسب الهِمَّة، المؤمن يريد الفلاح في الدنيا والآخرة، والكافر لا يؤمن بالآخرة؛ فهو يريد الفلاح في الدنيا.

من أسباب الفلاح التّوبة إلى الله ـ عز وجل ـ؛ كما في الآية: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، أي لِتنالوا الفلاح؛ وذلك بحصول المطلوب وزوال المرهوب. والله الموفق.

* * *

١٣ ـ وعَنْ أبِيْ هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْه قال: سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقُوْل: «وَاللهِ إنِّي لأسْتَغْفِرُ الله وأتُوبُ إليْهِ في اليَومِ أكْثَر مِنْ سَبْعِينَ مرَّةً»[1]. [رواه البخاري].

١٤ ـ وعن الأغَرِّ بنِ يَسَارٍ المُزَنِيِّ رَضِيَ اللهُ عنهُ قَال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا أيُّها النَّاسُ، تُوبُوا إلَى اللهِ واسْتَغْفِروهُ، فإنِّي أتُوبُ فِي اليَوْمِ مائَةَ مَرَّةٍ»[2]. [رواه مسلم]

الشرح

تقدَّم الكلام على ما ذكره المؤلِّف ـ رحمه الله ـ من وجوب التَّوبة

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة، رقم (٦٣٠٧).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم (٢٧٠٢).

وشروطها، وما ساقه من الآيات الدَّالة على وجوبها.

وهذان الحديثان ذكرهما المؤلف ـ رحمه الله ـ ليستدلَّ على ذلك بالسُّنة.

لأنه كلما تضافرت الأدِلَّة على الشيء قَوِيَ، وصار أَوْكَدَ، وصار أوجب، فَذَكرَ حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ أقسم بأنَّه يَسْتغفر الله ويتوبُ إليه أكثرَ من سبعين مرّة.

وهذا وهو الرسول عليه الصلاة والسلام ـ الذي غفر الله لهُ ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر ـ يستغفِرُ الله في اليوم أكثر من سبعين مرَّة.

وفي حديث الأَغَرِّ بنِ يَسَارِ المُزَنِيِّ أنَّه ﷺ قال: «**يَا أيُّها النَّاس تُوبُوا إلى اللهِ واسْتَغْفِروهُ فإنِّي أتُوبُ إلَى الله في اليَوْمِ مائةَ مَرَّةٍ**».

ففي هذين الحديثين دليلٌ على وجوب التَّوبة؛ لأن النبي ﷺ أمر بها فقال: «**يَا أيُّها النَّاس تُوبُوا إلى الله**» فإذا تاب الإنسان إلى ربِّه حَصّل بذلك فائدتين:

الفائدة الأولى: امتثال أمر الله ورسوله؛ وفي امتثال أمر الله ورسولِه كل الخير. فعلى امتثال أمر الله ورسوله تدور السَّعادة في الدُّنيا والآخرة.

والفائدة الثانية: الاقتداء برسول الله ﷺ. حيثُ كان ﷺ يَتُوب إلى الله في اليوم مائة مرّة؛ يعني: يقولُ: أَتُوبُ إلى الله، أتوبُ إلى الله. . . .

والتوبة لابدَّ فيها من صِدْق، بحيث إذا تاب الإنسان إلى الله أقلع عن الذَّنب. أمَّا الإنسان الذي يتوب بلسانه وقلبُهُ مُنطوٍ على فِعل المعصية، أو على تركِ الواجب. أو يتُوب إلى الله بلسانه، وجَوارحه مُصِرَّة على فعل

المعصية؛ فإنَّ توبته لا تنفعه، بل إنَّها أشبه ما تكون بالاستهزاء بالله عز وجل!

كيف تقول أتوب إلى الله من معصية وأنت مُصرٌّ عليها، أو تقول أتوب إلى الله من معصية وأنت عازم على فعلها؟

الإنسان لو عامل بشرًا مِثلَهُ بهذه المعاملة لقال هذا يسخر بي، ويستهزىء بي!! كيف يتنصَّل من أمر عندي وهو مُتَلبِّس به؟ ما هذا إلاَّ هزؤٌ ولعب، فكيف بربِّ العالمين؟!

إنَّ من الناس من يقول إنَّه تائب من الرِّبا، ولكنه ـ والعياذ بالله ـ مُصِرٌّ عليه!! يُمارِسُ الرِّبا صريحًا، ويمارس الرِّبا مخادعةً، وقد مرَّ بنا كثيرًا أنَّ الذي يمارس الرِّبا مخادعةً أعظمُ إثمًا وجُرمًا من الذي يمارس الرِّبا بالصراحة. لأنَّ الذي يمارس الرِّبا بالمخادعة جَنَىٰ على نفسه مرتين:

أولاً: الوقوع في الرِّبا.

وثانيًا: مخادعةُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وكأنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يعلم.

وهذا يوجد كثيرًا في الناس اليوم الذين يتعاملون في الرِّبا صريحًا، أمرُهُم واضح، لكن من الناس من يتعامل في الرِّبا خيانة ومخادعة؛ تجد عنده أموالاً لها سنوات عديدة في الدكان، فيأتي الغنيُّ بشخص فقيرٍ يقوده للمذبحة والعياذ بالله!! فيأتي إلى صاحب الدكَّان الذي عنده هذه البضاعة، ويبيعها على الفقير بالدَّين بيعًا صُوريًا. وكلٌّ يعلم أنه ليس بيعًا حقيقيًا؛ لأنَّ هذا المشتري ـ المدين ـ لا يقلب المال، ولا ينظر إليه، ولا يهمه، بل لو كان أكياسًا من الرَّمل ويبعث عليه على أنها رزٌّ أو سكّرٌ أَخَذَها؛ لأنَّه لا يهمه؛ الذي يهمُّه أن يقضي حاجة فيبيعها عليه ـ مثلاً ـ

بعشرة آلاف لمدة سنة، وينصرف بدون أن ينقلها من مكانها، ثم يبيعها هذا المدين على صاحب الدكان بتسعة آلاف ـ مثلاً ـ، فَيُؤكَلُ هذا الفقير من وَجْهين: مِن جهة هذا الذي ديَّنه، ومن جهة صاحب الدَّكان، ويقولون: إن هذا صحيح. بل يسمونه التصحيح، يقول قائلهم: تعالَ أُصحِّح عليك، أو أصحح لك كذا وكذا. سبحان الله، هل هذا تصحيح؟ هذا تلطيخ بالذُّنوب والعياذ بالله!!

ولهذا يجب علينا ـ إذا كنا صادقين مع الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ في التوبة ـ أن نُقلع عن الذنوب والمعاصي إقلاعًا حقيقيًا، ونكرَهَها، ونندم على فِعلها؛ حتى تكون التوبة توبةً نصوحًا.

وفي هذين الحديثَين: دليلٌ على أن نبينا محمدًا ﷺ أشدُّ الناس عبادة لله، وهو كذلك، فإنَّه أخشانا لله، وأتقانا لله، وأعلمنا بالله صلوات الله وسلامه عليه.

وفيه دليلٌ على أنه عليه الصلاة والسَّلام مُعَلِّمُ الخير بمقاله وفعاله.

فكان يستغفر الله، ويأمر الناس بالاستغفار؛ حتى يتأسّوا به امتثالاً للأمر واتِّباعًا للفعل.

وهذا من كمال نُصْحِه صلوات الله وسلامه عليه لأمَّته. فينبغي لنا نحن أيضًا أن نتأسّى به، إذا أَمَرْنَا النَّاس بأمرٍ أن نكون أوَّل من يمتَثِل هذا الأمر، وإذا نَهَينَاهُم عن شيء أن نكون أوَّل من ينتهي عنه؛ لأن هذا هو حقيقة الداعي إلى الله، بل هذا حقيقة الدعوة إلى الله عز وجل؛ أن تفعل ما تؤمر به، وتترك ما تنهىٰ عنه. كما كان الرسول ﷺ يأمرنا بالتوبة وهو – عليه

الصلاة والسلام ـ يتوب أكثر منَّا، نسألُ الله أن يتوب علينا وعليكم، وأن يهدينا وإيَّاكم صِراطًا مستقيمًا. والله الموفق.

* * *

١٥ ـ وَعَنْ أَبِي حَمْزَةَ أَنَس بن مالِك الأنْصَارِيِّ ـ خادم رسول الله ﷺ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «للهُ أفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أحَدِكُمْ؛ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ، وقد أضَلَّهُ في أرضٍ فَلاةٍ»[1]. [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسلِمٍ: «لله أشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حينَ يَتُوبُ إليْه مِنْ أحَدِكُم كَان على رَاحِلتِهِ بأرْضٍ فلاةٍ، فانْفَلَتَتْ مِنهُ وعَليْهَا طَعامُهُ وشَرابُهُ فأيسَ مِنها، فأتَى شَجرةً فاضْطجَعَ في ظلِّها، وقد أَيسَ منْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُو كذَلكَ إذا هُوَ بِها قائِمَةً عِندَهُ، فأخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قالَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبدِي وأنا ربُّك، أخْطَأ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ».

الشرح

قوله ـ رحمه الله ـ «خَادِمُ النبيِّ ﷺ» وذلكِ أن أنساً ـ رضي الله عنه ـ حين قدم النبي ﷺ المدينة أتت به أمه إلى رسول الله ﷺ وقالت له: هذا أنس ابن مالك يخدمك، فَقَبِلَ النبيُّ ﷺ ذلك، وصار أنس من خُدَّام النبي ﷺ.

ذكر أنس ـ رضي الله عنه ـ أنَّ الرسول ﷺ قال: «**للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بتوبةِ عبدِهِ إِذَا تَابَ إليه**» من هذا الرَّجلِ الذي سقط على راحِلَتِهِ بعد أن أضلَّها،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة، رقم (٦٣٠٩)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في الحثّ على التوبة والفرح بها رقم (٢٧٤٧).

وذَكَرَ القِصَّة: رجل كان في أرضٍ فلاةٍ، ليس حوله أحد، لا ماء ولا طعام ولا أناس.. ضلَّ بعيره: أي ضاع، فجعل يطلبُهُ فلم يجده، فذهب إلى شجرة ونام تحتها ينتظر الموت! قد أيسَ من بعيره، وأيس من حياته؛ لأنَّ طعامه وشرابه على بَعِيره، والبعير قد ضاع، فبينما هو كذلك إذا بناقته عنده قد تعلَّقَ خِطامُها بالشجرة التي هو نائمٌ تحتها. فبأي شيء يُقدَّر هذا الفرح؟ هذا الفرح لا يمكنُ أن يتصوَّره أحد إلاَّ من وقع في مثل هذه الحال!! لأنَّه فرحٌ عظيم، فَرَحٌ بالحياة بعد الموت، ولهذا أخذ بالخِطَامِ فقال: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وأنا رَبُّكَ**»!! أراد أن يُثني على الله فيقول: «اللهم أنت ربي وأنا عبدُك» لكن من شدة فرحه أخطأ.. فقَلَبَ القضية.. وقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك.

في هذا الحديث من الفوائد: دليلٌ على فرح الله ـ عز وجل ـ بالتَّوبة من عبده إذا تاب إليه، وأنَّه يحب ذلك ـ سبحانه وتعالى ـ محبَّةً عظيمة، ولكن لا لأجل حاجته إلى أعمالنا وتوبتنا؛ فالله غنيٌّ عنَّا؛ ولكن لمحبَّتِهِ سبحانه للكَرَم؛ فإنَّه يحب ـ سبحانه وتعالى ـ أن يعفوَ وأن يغفر، أحبُّ إليه من أن ينتقم ويؤاخذ. ولهذا يفرح بتوبة الإنسان.

ففي هذا الحديث حثٌّ على التوبة؛ لأنَّ الله يُحِبُّها، وهي من مصلحة العبد.

وفيهِ: إثبات الفرح لله عزَّ وجلَّ، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ يفرحُ، ويغضبُ، ويكرهُ، ويحبُّ، لكن هذه الصفات ليست كصفاتنا؛ لأنَّ الله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، بل هو

فَرَحٌ يليق بعظمته وجلاله ولا يشبه فرح المخلوقين.

وفيه: دليلٌ على أنَّ الإنسان إذا أخطأ في قول من الأقوال ولو كان كفرًا سبق لسانُهُ إليه؛ فإنَّه لا يُؤاخذ به! فهذا الرجل قال كلمة كفر؛ لأن قول الإنسان لربه: أنت عبدي وأنا ربَّك هذا كفر لا شك، لكن لما صدر عن خطأ من شدَّة الفرح ـ أخطأ ولم يعرف أن يتكلَّم ـ صار غير مُؤَاخذٍ به، فإذا أخطأ الإنسان في كلمةٍ؛ كلمةِ كفرٍ؛ فإنَّه لا يُؤاخذ بها، وكذلك غيرها من الكلمات؛ لو سبَّ أحدًا على وجه الخطأ بدون قصد، أو طلَّق زوجته على وجهِ الخطأ بدون قصد، أو أعتق عبده على وجه الخطأ بدون قصد، فكلُّ هذا لا يترتَّب عليه شيءٌ؛ لأنَّ الإنسانَ لم يقصِده، فهو كاللَّغْوِ في اليمين، وقد قال الله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، بخلاف المُستهزىء فإن المستهزىء يَكفُر إذا قال كلمة الكفر، ولَوْ كَانَ مُسْتهزِئًا؛ لقولِ الله سبحانه ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]، فالمُستهزىء قصد الكلام، وقَصد معناه؛ لكن على سبيل السُّخرية والهزءِ؛ فلذلك كان كافرًا، بخلاف الإنسان الذي لم يَقْصِدْه؛ فإنه لا يُعتبر قوله شيئًا.

وهذا من رحمة الله ـ عز وجل ـ والله الموفِّق.

* * *

١٦ ـ وعَنْ أَبِي مُوسى عبدِ الله بنِ قَيسِ الأَشْعَرِيِّ ـ رضي الله عنه ـ عنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى يَبْسُط يَدَهُ بِاللَّيلِ لِيتُوبَ مُسيءُ النَّهارِ،

وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[١]. [رواه مسلم].

١٧ ـ وَعَنْ أَبِي هُرِيرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمسُ مِنْ مَغْرِبها تَابَ الله عَلَيْهِ»[٢]. [رواه مسلم].

١٨ ـ وعَنْ أَبِيْ عَبدِ الرَّحمٰن عبدِالله بن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ـ رَضِيَ اللهُ عنهُمَا ـ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يَقْبلُ توبةَ العبدِ ما لَمْ يُغَرْغِر»[٣]. [رواه الترمذي] وقال: حديث حسن.

الشرح

هذه الأحاديث الثلاثة التي ذكرها المؤلِّفُ ـ رحمه الله ـ كلها تتعلق بالتَّوبة.

أما حديث أبي موسى فقد قال الرسول ﷺ: «إنَّ الله يَبْسُطُ يَدَهُ بالليْلِ لِيَتُوْبَ مُسِيءُ النَّهارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوْبَ مُسِيءُ الليل، حتى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِن مَغْرِبِها».

وهذا من كرمه ـ عز وجل ـ أنه يقبل التَّوبة حتى وإن تأخَّرت. فإذا أذنب الإنسان ذنبًا في النهار، فإنَّ الله ـ تعالى ـ يقبل توبته ولو تاب في

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب، رقم (٢٧٥٩).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم (٢٧٠٣).

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، باب (٩٨) رقم (٣٥٣٧) وقال: حسن غريب، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، رقم (٤٢٥٣)، والإمام أحمد في المسند (٢/ ١٣٢)، وحسَّنه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (١٩٠٣).

اللَّيل. وكذلك إذا أذنب في اللَّيل وتاب في النَّهار فإن الله ـ تعالى ـ يقبل توبته بل إنه ـ تعالى ـ يَبْسط يده حتى يتلقى هذه التوبة التي تصدر من عبده المؤمن.

وفي هذا الحديث: دليلٌ على محبة الله ـ سبحانه وتعالى ـ للتوبة، وقد سبق في الحديث السَّابق ـ في قصة الرجل الذي أضل راحلته حتى وجدها ـ: أنَّ الله يفرح بتوبة عبده المؤمن إذا تاب إليه أشد فرحًا من هذا بِراحِلَتِهِ.

ومن فوائد حديث أبي موسى: إثباتُ أنَّ الله ـ تعالى ـ لَهُ يد، وهو كذلك، بل له يدان ـ جلَّ وعلا ـ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وهذه اليد التي أثبتها الله لنفسه ـ بل اليدان ـ يجب علينا أن نؤمن بهما؛ وأنهما ثابتتان لله.

ولكن لا يجوز أن نتوهم أنها مثل أيدينا؛ لأنَّ الله يقول في كتابه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وهكذا كلُّ ما مرَّ بِكَ من صفات الله فأثبِتْهَا لله ـ عز وجل ـ لكن بدون أن تُمَثِّلها بصفات المخلوقين؛ لأنَّ الله ليس كمثله شيء؛ لا في ذاته، ولا في صفاته عزَّ وجلَّ.

وفي هذا الحديث: أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقبل توبة العبد وإن تأخَّرت، لكنَّ المبادرة بالتوبة هي الواجب؛ لأنَّ الإنسان لا يدري، فقد يفجأهُ الموت فيموت قبل أن يتوب. فالواجب المبادرة، لكن مع ذلك، لو تأخَّرْتَ تاب اللهُ على العبد.

وفي هذا الحديث دليلٌ على أن الشمس إذا طلعت من مغربها، انتهى قبول التوبة. ولكن قد يسألُ السائل، يقولُ: هل الشَّمس تطلع من مغربها؟ المعروفُ أنَّ الشمس تطلع من المشرِق؟!

فنقولُ: نعم هذا هو المعروف، وهذا هو المُطَّرِدُ منذُ خلق الله الشمس إلى يومِنا هذا. لكن في آخر الزمان يأمرُ الله الشَّمسَ أن ترجع من حيثُ جاءت فتنعِكسُ الدَّوْرة، وتطلع من مغربها، فإذا رآها الناس آمنوا كلُّهم، حتى الكفار اليهود، والنَّصارى، والبوذيون، والشيوعيون، وغيرهم؛ كلهم يؤمنون. ولكنَّ الذِي لم يؤمن قبل أن تطلُعَ الشَّمْسُ من مغرِبِها لا ينفعُهُ إيمانه.

كلٌّ يتوب أيضًا، لكن الذي لم يَتُب قبل أن تطلُع الشَّمس من مغربها لا تُقْبَلُ توبته؛ لأنَّ هذه آية يشهدها كل أحد، وإذا جاءت الآيات المُنذِرَةُ لم تَنْفَعِ التوبة ولَم يَنْفَعِ الإيمان!

أما حديث أبي هريرة رضي الله عنه في أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقبل التَّوبة ما لم تطلع الشمس من مغربها فهو كحديث أبي موسى.

وأما حديث عبدالله بن عمر: «إنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ عَبْدِه ما لَم يُغرْغِر» أيْ: ما لم تصل الرُّوحُ الحُلْقومَ، فإذا وصلت الروح الحلقوم فلا توبة، وقد بيَّنت النصوص الأُخرى أنَّه إذا حضر الموت فلا توبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء: ١٨].

فعلَيكَ يا أخي المسلم أنْ تُبادر بالتوبة إلى الله ـ عز وجل ـ مِنَ الذّنوب، وأن تُقلع عمَّا كنت مُتَلَبِّسًا به من المعاصي، وأن تقوم بما فرَّطت به من الواجبات، وتسألَ اللهَ قبول توبتك. والله الموفق.

* * *

١٩ ـ وَعْن زِرِّ بنِ حُبَيْشٍ قَالَ: أَتَيْتُ صَفْوَانَ بْنَ عَسَّالٍ ـ رَضِيَ اللهُ عنهُ ـ أَسأَلُه عَنِ المَسْحِ عَلَى الخُفَّيْنِ، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكَ يَا زِرُّ؟ فَقُلْتُ: ابْتِغَاءَ العِلْمِ، فَقَالَ: إِنَّ المَلائِكَةَ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رضًا بِمَا يَطْلُبُ، فَقُلْتُ: إِنَّهُ قَدْ حَكَّ فِي صَدْرِي المَسْحُ عَلى الخُفَّيْنِ بَعْدَ الغَائِطِ وَالبَوْلِ، وَكُنْتَ امرَءًا مِن أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَجِئْتُ أَسْأَلُكَ: هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ فِيْ ذَلِكَ شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ، كَانَ يَأْمُرُنَا إِذَا كُنَّا سَفْرًا ـ أَو مُسَافِرِينَ ـ أَن لا نَنْزِعَ خِفَافَنَا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيْهِنَّ إلاَّ مِنْ جَنَابَةٍ، لَكِنْ مِنْ غَائِطٍ وَبَوْلٍ وَنَوْمٍ. فَقُلْتُ: هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ فِي الهَوَى شَيْئًا؟ قالَ: نَعَمْ: كُنَّا مَعَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ فِيْ سَفَرٍ، فَبَيْنَا نَحْنُ عِنْدَهُ إذ نَادَاهُ أَعْرَابِيٌّ بِصَوْتٍ لَهُ جَهْوَرِيٍّ: يَا مُحَمَّد، فَأَجَابَهُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ نَحْوًا مِنْ صَوْتِهِ: «هاؤُم» فَقُلْتُ لَهُ: وَيْحَكَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ فَإِنَّكَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ نُهِيْتَ عَنْ هَذا!! فَقَالَ: وَاللهِ لاَ أَغْضُضُ. قَالَ الأَعْرَابِيُّ: المَرْءُ يُحِبُّ القَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ يَوْمَ القِيامة» فَمَا زَالَ يُحَدِّثُنَا حَتَّى ذَكَرَ بَابًا مِنَ المَغْرِبِ مَسِيْرَةُ عَرْضِهِ ـ أَوْ يَسِيْرُ الرَّاكِبُ فِيْ عَرْضِهِ ـ أَرْبَعِيْنَ، أَوْ سَبْعِيْنَ عَامًا. قَالَ سُفْيَانُ ـ أَحَدُ الرُّوَاةِ ـ: قِبَلَ الشَّامِ، خَلَقَهُ اللهُ ـ تَعَالَىٰ ـ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَفْتُوْحًا لِلتَّوْبَةِ، لا يُغْلَقُ حتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْه»[1]. [رواه الترمذي وغيره وقال: حديث حسن صحيح].

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار، رقم (٣٥٣٥)، وقال: حسن صحيح. والإمام أحمد في المسند(٤/ ٢٣٩).

الشرح

هذا الحديث من أحاديث التوبة التي ساقها المؤلف ـ رحمه الله ـ في بيان متى تنقطع التوبة. لكنه يشتمل على فوائد:

منها: أنَّ زِرّ بن حُبَيْشٍ أتى إلى صفوان بن عسَّال ـ رضي الله عنه ـ من أجل العلم ـ يبتغي العلم ـ فقال له صفوان بن عسَّال: «**إنَّ الملائِكَةَ لَتَضَعُ أجْنِحَتهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضًى بِمَا يطْلُبُ**».

وهذه فائدة عظيمة تدلُّ على فضيلة العلم وطلبِ العلم؛ والمرادُ به العلم الشرعيُّ، أي: عِلمُ ما جاء به النبي ﷺ، أما علم الدُّنيا فلِلدنيا، لكن طلب العلم الذي جاء به النبي ﷺ هو الذي فيه الثَّناء والمدح، والحثّ عليه في القرآن والسنة. وَهُو نَوعٌ من الجهاد في سبيل الله، لأنَّ هذا الدِّين قام بأمرين:

قام بالعلم والبيان، وبالسِّلاح: بالسيف والسّنان.

حتى إنَّ بعض العلماء قال: «إنَّ طَلَبَ العِلْمِ أفضلُ مِنَ الجِهَادِ في سبيل الله بالسِّلاح» لأن حفظ الشريعة إنما يكون بالعلم، والجهاد بالسلاح في سبيل الله مبني على العلم، لا يَسيرُ المجاهدُ، ولا يُقاتل، ولا يحجم، ولا يقسم الغنيمة، ولا يحكم بالأسرى؛ إلا عن طريق العلم، فالعِلمُ هو كلُّ شيء.

ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وَوَضْعُ الملائكة أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يطلب، واحترامًا له، وتعظيمًا له، ولا يُرَدُّ على هذا أن يقول القائل: أنا لا

أحس بذلك؟ لأنَّه إذا صحَّ الخبر عن الرسول ﷺ فإنَّه كالمشاهد عيانًا.

أرأيت قوله ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا - تبارَكَ وتَعَالَى - كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيا حِيْنَ يَبْقَى ثُلُث اللَّيْلِ الآخِر، فَيَقُوْلُ: مَنْ يَدْعُوْنِي فَأَسْتَجِيْبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَه؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ له»[1].

نحن لا نسمع هذا الكلام من الله - عزَّ وجلَّ - لكنْ لمَّا صحَّ عن نبينا ﷺ صار كأننا نسْمعه، ولذلك يجب علينا أن نؤمن بما قال الرسول ﷺ، وبما صحَّ عنه مما يذكر في أمور الغيب، وأن نكون مُتيقِّنين لها كأنما نشاهدُها بأعيننا ونسمعُها بآذاننا.

ثمَّ ذكر زِرُّ بنُ حبيشٍ لِصَفْوَانَ بن عَسَّالٍ أنَّه حك في صدره المسح على الخفين بعد البول والغائط.

يعني أن الله تعالى ذكر في القرآن قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]، فيقول إنه حك في صدري؛ أي: صار عندي توقف وشك في المسح على الخُفَّين بعد البول أو الغائط هل هذا جائز أو لا؟

فبيَّن له صفوان بن عسَّال - رضي الله عنه - أنَّ ذلك جائزٌ لأنَّ النبي ﷺ أمَرَهُم إذا كانوا سَفْرًا أو مُسافِرين أن لا ينزعوا خِفَافهم إلا من جنابة ولكن

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذِّكر في آخر الليل، رقم (٧٥٨).

من غائط وبول ونوم، فدلَّ هذا على جواز المسح على الخُفَّين، بَلْ إنَّ المسح على الخفين أفضل إذا كان الإنسان لابسًا لهما.

وقد ثَبَتَ في الصَّحيحين من حديث المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ أنَّه كان مع النبي ﷺ في سَفَرٍ، فتوضَّأَ النبي ﷺ فأهوى المغيرة لينزع خفيه فقال: **«دَعْهُمَا فإنِّي أَدْخَلْتُهُمَا طَاهِرَتَيْنِ، وَمَسَحَ عَلَيْهِمَا»**[١].

ففي هذا دليلٌ واضحٌ على أنَّ الإنسان الذي عليه جوارب، أو عليه خفان؛ أَنَّ الأفضَلَ أن يمسح عليهما ولا يغسل رِجْليه.

ومنها: أنَّه ينبغي إذا أشكل على الإنسان شيءٌ أن يسألَ ويبحث عمَّن هو أعلم بهذا الشيء؛ حتى لا يبقى في قلبه حَرَجٌ مما سمع؛ لأنَّ بعض الناس يسمع الشيء مِن الأحكام الشرعية ويكون في نفسه حَرَجٌ، ويبقى مَتَشكِّكًا متردِّدًا؛ لا يسأل أحدًا يزيل عنه هذه الشبهة، وهذا خطأٌ، بلِ الإنسانُ ينبغي له أن يسألَ حتى يصل إلى أمر يطمئن إليه ولا يبقى عنده قلق.

فهذا زِرُّ بنُ حُبَيْشٍ ـ رحمه الله ـ سأل صفوان بن عسَّالٍ ـ رضي الله عنه ـ عن المسح على الخُفَّين؛ وهل عنده شيء عن رسول الله ﷺ في ذلك، فقال: نعم، كان يأمُرُنا إذا كُنَّا سفرًا أو مسافرين ألاَّ نَنْزِعَ خِفَافَنَا إلاَّ مِن جنابة، ولكن من غائط وبولٍ ونومٍ.

فهذا الحديث فيه دليل على ثبوت المسح على الخفين، وقد تواترت الأحاديث عن الرسول ﷺ في ذلك، وأخذ بهذا أهل السنة، حتى إن بعض

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب المسح على الخفين، رقم (٢٧٤).

أهل العلم الذين صنَّفوا في كتب العقائد، ذَكَرُوا المسح على الخفين في كتاب العقائد؛ وذلك لأنَّ الرَّافضة خالفوا في ذلك؛ فلَمْ يُثْبِتُوا المسح على الخفين وأنكروه. والعجب أن ممن روى المسح على الخفين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ومع ذلك هم ينكرونه ولا يقولون به، فكان المسح على الخفين من شعار أهل السنة ومن الأمور المتواترة عندهم؛ التي ليس عندهم فيها شك عن رسول الله ﷺ.

قال الإمام أحمد: «لَيْسَ في قلبي من المسح شك»، أو قال: «شيء فيه أربعون حديثاً عن النبي ﷺ وأصحابه». ولكن لابد من شروط لجواز المسح على الخُفَّين:

الشَّرط الأول: أن يلبسهما على طهارة؛ لأنَّ النبي ﷺ قال للمغيرة بن شعبة رضي الله عنه حينما أراد أن ينزع خفي النَّبي ﷺ قال: «**دَعْهُمَا فإنِّي أَدْخَلْتُهُمَا طاهِرتين، ومسح عليهما**».

ولا فرق بين أن تكون هذه الطهارة قد غَسل فيها الرِّجل، أو مسح فيها على خفٍّ سابق.

فمثلاً: لو توضَّأ وُضوءًا كاملاً، وغسل رجليه، ثم لبس الجوارب؛ يعني الشرَّاب أو الخفين، فهنا لَبِسَهُما على طهارة.

كذلك لو كان قد لبس جوارب من قبل ومسح عليهما، ثمَّ احتاج إلى

زيادة جوربٍ ولبسه على الجورب الأول الذي مسحه ـ وهو على طهارة ـ، فإنه يمسح على الثاني، لكنْ يكونُ ابتداءُ المُدَّة من المسح على الأوّل لا من المسح على الثاني؛ هذا هو القول الصحيح؛ أنه إذا لبس خفًّا على خفٍّ ممسوح فإنه يمسح على الأعلى، لكن يَبني على مُدَّة المسح على الأول.

ولابدَّ أن تكون الطَّهارة بالماء، فلو لَبِسَهُما على طهارةِ تيمُّمٍ فإنه لا يمسح عليهما؛ مثل رجل مسافر ليس معه ماء، فتيمَّم ولبس الخفين على طهارةِ تيمُّمٍ، ثُمَّ بعد ذلك وجد الماءَ، وأراد أن يتوضأ؛ ففي هذه الحالِ لابدَّ أن يخلع الخفَّين ويغسل قدميه عند الوضوء، ولا يجوز المسح عليهما في هذه الحال؛ لأنَّه لم يلبسهما على طهارةٍ غَسَلَ فِيْهَا الرِّجل؛ فإنَّ التيمم يتعلَّق بعضوين فقط؛ وهما الوجه والكفان.

الشرط الثاني: أن يكونَ المسحُ عليهما في الحدث الأصغر؛ ولهذا قال صفوان بن عسَّال: «**إلاَّ مِنْ جَنَابَةٍ ولَكن مِنْ غَائِطٍ وَبَوْلٍ وَنَوْم**» فإذا صار على الإنسان جَنَابَة؛ فإنَّهُ لا يجزىء أن يمسح على الجَوْرَبَيْن أو الخفين، بل لابدَّ من نزعهما وغَسْل القدمين؛ وذلك لأنَّ الطهارة الكبرى ليس فيها مسح إلاَّ للضرورة في الجبيرة، ولهذا لا يمسح فيها الرأس، بلْ لابُدَّ مِنْ غَسْلِ الرأس ـ مع أنه في الحدثِ الأصغر يمسحُ ـ؛ لكن الجنابة طهارتُها أَوْكَدُ وحدثها أكبر، فلابُدَّ مِنَ الغسل، ولا يَمْسَحُ فيها على الخف؛ لهذا الحديث، ولأنَّ المعنى والقياس يقتضي ذلك.

الشرط الثالث: أن يكون المسح في المدة التي حدَّدها النبي ﷺ وهي يوم وليلة للمقيم، وثلاثة أيام بلياليها للمسافر، كما صحَّ ذلك أيضًا من

حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في صحيح مسلم قال: «جَعَلَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيْهِنَّ للمُسافِرِ، وَيُومًا وَلَيْلَةً لِلْمُقِيم»[١]. يعني: في المسح على الخفين:

فإذا انتهت المدة فلا مَسْحَ، لابُدَّ أن يخلع الجوربين أو الخفين، ثمَّ يغسل القدمين، ولكن إذا انتهت المدة وأنت على طهارة فاستمرَّ على طهارتك، لا تَنْتَقِضُ الطَّهارة، ولكن إذا أردت أن تتوضأ بعد انتهاء المدة فلابدَّ من غسل القدمين.

ثم إن زِرَّ بنَ حُبَيْش سأل صفوانَ بنَ عسَّالٍ: هل سمع من النبي ﷺ يقول في الهوى شيئًا؟

الهوىٰ: المحبَّةُ والمَيْلُ، فقال: نعم، ثمَّ ذكر قصة الأعرابي الذي كان جهوريَّ الصَّوت فجاء ينادي: يا محمدُ؛ بصوت مرتفع.

فقيل له: ويْحك! تُنادي رَسوُل الله ﷺ بصوتٍ مُرتفع؟ والله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢]، ولكنَّ الأعراب لا يعرفون الآداب كثيرًا؛ لأنهم بَعيدون عن المُدُن وبَعيدون عن العلم.

فأجابه النبي ﷺ بصوت مرتفع كما سأل الأعرابيُّ، لأنَّ رسول الله ﷺ أكملُ النَّاسِ هدياً؛ يُعطِي كُلَّ إنسان بقدر ما يتحمله عقله، فخاطبه النبيُّ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب التوقيت في المسح على الخفين، رقم (٢٧٦).

ﷺ بمثل ما خاطَبَهُ به، قال له الأعرابيُّ: «المرءُ يُحِبُّ القَومَ ولَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ» يعني: يحبُّ القومَ ولكن عمله دون عملهم؛ لا يُساويهم في العمل. مع من يكون؟ أيكُونُ معهم أوْ لا؟

فقال النبي ﷺ: «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ يَوْمَ القِيَامَةِ» نعمة عظيمةٌ ـ ولله الحمد ـ وقد روى أنس بن مالكٍ ـ رضي الله عنه ـ هذه القطعة من الحديث، أنَّ الرسول ﷺ قالَ لِرجُلٍ يُحبُّ الله ورسوله: «إنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ». قالَ أنس: «فأنا أحبُّ رسول الله ﷺ وأبا بكر وعُمر وأرْجو أن أكون معهم»[(١)].

وهكذا أيضًا نحن نُشهد الله ـ عز وجل ـ على محبة رسول الله ﷺ، وخلفائِهِ الراشدين، وصحابته، وأئمة الهدى من بعدهم، ونسألُ الله أن يجعلنا معهم.

هذه بشرى للإنسان؛ أنَّه إذا أحبَّ قومًا صار معهم وإنْ قَصُرَ بِهِ عَمَلُه؛ يكون معهم في الجنة ويجمَعُهُ الله معهم في الحشر، ويشربون من حوض الرسول ﷺ جميعًا، وهكذا.. كما أنَّ من أحب الكَفَرَةَ فإنَّه ربما يكون معهم ـ والعياذ بالله ـ لأنَّ محبة الكافرين حرام، بل قد تكون من كبائر الذنوب.

فالواجب على المسلم أن يكره الكُفَّار، وأن يعلم أنهم أعداءٌ له مهما أبدَوا من الصَّداقةِ والمودةِ والمحبة؛ فإنهم لن يتقرَّبوا إليك إلا لمصلحة أنفسهم ومضرتك أيضاً، أمَّا أن يتقرّبوا إليك لمصلحتك فهذا شيء بعيد. إن كان

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عمر بن الخطاب رقم (٣٦٨٨)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب المرء مع من أحب رقم (٢٦٣٩).

يمكن أن نجمع بين الماء والنار؛ فيمكن أن نجمع بين محبة الكفار لنا وعداوتهم لنا؛ لأن الله تعالى سمَّاهم أعداءً قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال عز وجل: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة: ٩٨].

فكلُّ كافر فإن الله عدوٌّ له، وكل كافر فإنه عدوٌّ لنا، وكل كافر فإنه لا يُضْمر لنا إلاَّ الشَّر.

ولهذا يجب عليك أن تكره من قلبك كلَّ كافر مهما كان جنسه، ومهما كان تقرُّبه إليك فاعلم أنَّه عدوُّك. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الممتحنة: ١]، إذًا نأخذ من هذه قاعدةً أصَّلها النبي- عليه الصلاة والسلام - ألا وهي: «المرءُ معَ مَنْ أحبَّ»[١] فعليك يا أخي أن تَشُدَّ قلبك على محبة الله تعالى، ورسوله، وخُلفائه الرَّاشدين، وصحابته الكرام، وأئمة الهدى من بعدهم؛ لتكون معهم.

نسأل الله أن يحقِّق لنا ذلك بمنِّه وكَرَمِه. والله الموفِّق.

* * *

٢٠ ـ وَعَنْ أَبِي سَعِيْدٍ سَعْدِ بنِ مَالك بنِ سِنَانٍ الْخُدْرِيِّ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ فِيْمَنْ كانَ قَبْلَكُم رجُلٌ قَتَل تِسْعةً وتِسْعينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أعْلَمِ أهْلِ الأرْضِ، فَدُلَّ علَى رَاهِبٍ، فأتَاهُ فقال: إنَّهُ قتَلَ تِسْعَةً وتسْعينَ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله، رقم (٦١٦٨)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب المرء مع من أحب، رقم (٢٦٤٠).

نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبةٍ؟ فقال: لا، فَقَتلَه فكَمَّلَ بِهِ مائَةً، ثُمَّ سألَ عَنْ أعْلَمِ أهْلِ الأرْضِ، فَدُلَّ علَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ: إنَّهُ قتل مائَةَ نفْسٍ، فهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبةٍ؟ فقالَ: نَعَمْ، ومَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وبيْنَ التَّوبة؟ انْطلِقْ إلى أرْضِ كَذَا وَكَذَا، فإنَّ بِها أناسًا يَعْبُدُون الله ـ تَعَالَى ـ فاعْبُدِ الله مَعَهُم، وَلاَ تَرْجِعْ إلَى أرْضِكَ فإنَّهَا أرْضُ سُوءٍ، فانْطَلَق حَتَّى إذا نَصَفَ الطَّرِيقُ أتَاهُ المَوْتُ، فاخْتَصَمَتْ فيهِ مَلائكَةُ الرَّحْمَةِ ومَلائكَةُ العَذَابِ. فقالتْ ملائكَةُ الرَّحْمةِ: جاءَ تَائِبًا مُقْبلاً بقلْبِهِ إلَى الله تعالى، وقالَتْ ملائكَةُ العذابِ: إنَّه لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فأتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلوهُ بَيْنَهُمْ ـ أي حَكَمًا ـ فقالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الأرْضَيْنِ فإلَى أيَّتِهمَا كانَ أدْنَى فَهو لَهُ، فَقَاسُوا فَوَجَدُوهُ أدْنَىٰ إلَى الأرْضِ الَّتي أَرَادَ، فَقَبضتْهُ ملائكةُ الرَّحْمة»[1]. [متفق عليه].

وفي رواية في الصحيح: «فكانَ إلَى القَرْيَةِ الصَّالِحَة أقْربَ بِشِبْرٍ، فَجُعِلَ مِنْ أهْلِهَا» وفي رواية في الصحيح: «فَأوحَىٰ اللهُ تَعَالَى إلَى هذِهِ أنْ تَباعَدِي، وإلَى هذه أنْ تَقَرَّبي، وقالَ: قيسُوا مَا بَيْنَهُما، فوجَدُوهُ إلَى هذِهِ أقْربَ بِشِبْرٍ فَغُفِرَ لهُ». وفِي روايةٍ: «فَنَأى بِصَدْرِه نَحْوهَا».

الشرح

نقل المؤلف ـ رحمه الله ـ عن أبي سعيدٍ سعد بن مالك بن سنان الخدريِّ ـ رضي الله تعالى عنه ـ أنَّ النبي ﷺ قال: كان فيمن كان قبلكم رَجلٌ قتل تسعة وتسعين نفسًا، ثم إنه ندم وسأل عن أعلم أهل الأرض

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب رقم (٥٤)، رقم (٣٤٧٠)، ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٦).

يسأله: هل له من تَوْبَةٍ؟ فدُلَّ على رَجُلٍ، فإذا هو راهب ـ يعني عابدًا ـ ولكن ليس عنده علمٌ، فلما سأله قال إنَّه قتل تسعة وتسعين نَفْسًا، فهل له من توبة؟ فاستعظم الرَّاهب هذا الذَّنب وقال: ليس لك توبة! فغضب الرَّجل وانزعج وقتل الرَّاهب؛ فأتم به مائة نفس، ثم إنه سأل عن أعلم أهل الأرضِ، فدُلَّ على رجُلٍ عالم فقال له: إنَّهُ قتل مائة نفس فَهَلْ له من توبة؟ قال: نعم!، ومن الذي يَحُول بينه وبين التوبة؟! باب التوبة مفتوح، ولكن اذهب إلى القرية الفلانيّة؛ فإن فيها قومًا يعبدون الله. والأرض التي كان فيها كأنها ـ والله أعلم - دار كفر فأمره هذا العالم أن يهاجر بدينه إلى هذه القرية التي يعبد فيها الله ـ سبحانه وتعالى ـ، فخرج تائبًا نادمًا مهاجرًا بدينه إلى الأرض التي فيها القوم الذين يعبدون الله عز وجل. وفي مُنْتَصَفِ الطَّريق أتاهُ المَوْتُ، فاخْتَصَمَتْ فيه مَلَائِكَةُ الرَّحْمة وملائكة العذاب؛ لأن الكافر ـ والعياذ بالله ـ تقبض رُوحه ملائكة العذاب، والمؤمن تقبض روحه ملائكة الرَّحمة، فاختصموا؛ ملائكة العذاب تقول: إنه لم يعمل خيرًا قطُّ؛ أي: بعد توبته مَا عمل خيرًا. وملائكة الرَّحمة تقول: إنَّه تاب وجاء نادمًا تائبًا، فحصل بينهما خصومة، فبعث الله إليهمْ ملكًا ليحكم بينهم، فقال: قِيْسُوا مَا بَيْنَ الأرضينِ فإلى أيتِهِما كان أقرب فهو له؛ يعني فهو من أهلها. إن كانت أرض الكفر أقرب إليه فملائكة العذاب تقبض روحه، وإنْ كان إلى بلدِ الإيمان أقرب فملائكة الرَّحمة تقبض روحه.

فقاسوا مَا بينهما؛ فإذا البلد التي اتَّجه إليها -وهي بلد الإيمان -أقربُ من البلد التي هاجر منها بنحو شبر ـ مسافة قريبة ـ فَقَبَضَتْهُ ملائكة الرَّحمة.

ففي هذا دليلٌ على فوائد كثيرة:

منها: أن القاتل إذا قتل إنسانًا عمدًا ثم تاب فإن الله ـ تعالى ـ يقبل توبته، ودليلُ ذلك في كتاب الله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، يعني ما دون الشِّرك؛ فإن الله تعالى يغفره إذا شاء.

وهذا الذي عليه جُمهور أهل العلم.

وذكر عن عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن القاتل ليس له توبةٌ؛ لأنَّ الله يقول: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣].

ولكن ما ذهب إليه الجمهور هو الحق، وما رُوِي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فإنه يمكن أن يُحمل على أنَّه ليس له توبة بالنسبة للمقتول؛ وذلك لأنَّ القاتل إذا قتل تعلقَ فيه ثلاثة حقوق:

الحقُّ الأوَّل: لله، والثاني: للمقتول، والثالث: لأولياء المقتول.

أما حقُّ الله؛ فلا شكَّ أنَّ الله تعالى يغفره بالتَّوبةِ، لِقول الله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ ﴾ [الزمر: ٥٣].

ولقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ ﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

وأما حقُّ المقتول؛ فإنَّ توبة القاتل لا تنفعُه ولا تؤدي إليه حقه؛ لأنه مات، ولا يمكن الوصول إلى استحلاله، أو التَّبرؤ من دمه؛ فهذا هو الذي يبقى مُطالَبًا به القاتل وَلَوْ تَابَ، وإذا كان يوم القيامة فالله يفْصِلُ بينهما.

وأما حقُّ أولياء المقتول؛ فإنَّها لا تَصِحُّ توبة القاتل؛ حتى يُسلِّم نفسه إلى أولياء المقتول، وَيُقِرَّ بالقتل، ويقولَ: أنا القاتل، وأنا بين أيديكم، إن شئتم اقتُلُوني وإن شئتم خذو الدِّية، وإنْ شئتم اسمحُوا، فإذا تاب إلى الله، وسلَّم نَفْسَهُ لأولياء المقتول ـ يعني لورثته ـ فإنَّ توبته تَصِحُّ، وما بينه وبين المقتول يكون الحكم فيه إلى الله يوم القيامة.

* * *

٢١ ـ وعَنْ عَبدِ اللهِ بنِ كَعْبِ بنِ مَالِكٍ، وكانَ قائِدَ كَعْبٍ ـ رضي الله عنه ـ مِن بَنِيْهِ حِيْنَ عَمِيَ، قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ بنَ مَالِكٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ يُحَدِّثُ بِحَدِيْثِهِ حِيْنَ تَخَلَّفَ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ فِيْ غَزْوَةِ تَبُوْكَ. قَالَ كَعْبٌ: لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ فِيْ غَزْوَةٍ غَزَاهَا قَطُّ إلاَّ فِي غَزْوَةِ تَبُوْكَ، غَيْرَ أَنِّي قَدْ تَخَلَّفْتُ فِيْ غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَلَمْ يُعَاتَبْ أَحَدٌ تَخَلَّفَ عَنْهُ، إنَّمَا خَرَجَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ وَالمُسْلِمُوْنَ يُرِيْدُوْنَ عِيْرَ قُرَيْشٍ حَتَّىٰ جَمَعَ اللهُ ـ تَعَالَى ـ بَيْنَهُم وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيْعَادٍ. وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ العَقَبَةِ حِيْنَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإسْلاَمِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِيْ بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا.

وَكَانَ مِنْ خَبَرِيْ حِيْنَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فِيْ غَزْوَةِ تَبُوْكَ أَنِّيْ لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَىٰ وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّيْ حِيْنَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِيْ تِلْكَ الغَزْوَةِ، وَاللهِ مَا جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ حَتَّىٰ جَمَعْتُهُمَا فِيْ تِلْكَ الغَزْوَةِ، وَلَمْ يَكُنْ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ

يُرِيْدُ غَزْوَةً إلاَّ وَرَّىٰ بِغَيْرِهَا حَتَّىٰ كَانَتْ تِلْكَ الغَزْوَةُ، فَغَزَاهَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فِيْ حَرٍّ شَدِيْدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيْدًا وَمَفَازًا، وَاسْتَقْبَلَ عَدَدًا كَثِيْرًا، فَجَلَّىٰ لِلْمُسْلِمِيْنَ أَمْرَهُم لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِمُ الَّذِيْ يُرِيْدُ، وَالمُسْلِمُوْنَ مَعَ رَسُوْلِ اللهِ كَثِيْرٌ وَلاَ يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حافِظٌ (يُرِيْدُ بِذَلِكَ الدِّيْوَانَ) قَالَ كَعْبٌ: فَقَلَّ رجُلٌ يُرِيْدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إلاَّ ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ سَيَخْفَىٰ بِهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيْهِ وَحْيٌ مِنَ اللهِ، وَغزَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ تِلْكَ الغَزْوَةَ حِيْنَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلاَلُ فَأَنَا إِلَيْهَا أَصْعَرُ[1]، فَتَجَهَّزَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ والمُسْلِمُوْنَ مَعَهُ، وَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُ، فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، وَأَقُوْلُ فِيْ نَفْسِيْ: أَنَا قَادِرٌ عَلَىٰ ذَلِكَ إِذَا أَرَدْتُ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَىٰ بِيْ حَتَّىٰ اسْتَمَرَّ بِالنَّاسِ الجِدُّ، فَأَصْبَحَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ غَادِيًا وَالمُسْلِمُوْنَ مَعَهُ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازِيْ شَيْئًا. ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شيئًا، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَىٰ بِيْ حَتَّىٰ أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الغَزْوُ[2]، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُم، فَيَا لَيْتَنِيْ فَعَلْتُ، ثُمَّ لَمْ يُقَدَّرْ ذَلِكَ لِيْ، فَطَفِقْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوْجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَحْزُنُنِيْ أَنِّي لاَ أَرَىٰ لِيْ أُسْوَةً، إلاَّ رَجُلاً مَغْمُوْصًا عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ، أَوْ رَجُلاً مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ تَعَالَى مِنَ الضُّعَفَاءِ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُوْلُ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ بَلَغَ تَبُوْكَ، فَقَالَ وَهُوَ جالسٌ في القوم بتبوكَ: ما فعل كَعبُ بنُ مالكٍ؟ فَقَالَ رجُلٌ من بَنِي سَلمَةَ: يَا رَسُوْلَ اللهِ ﷺ حَبَسَهُ

---

(١) أصْعر: أي أميل.
(٢) تفارَطَ الغَزْوُ: أي تقدَّمَ الغُزَاةُ وسَبَقُوا.

بُرْدَاهُ، والنَّظرُ فِيْ عِطْفَيْه[١]. فَقَاْلَ لَهُ مُعاذُ بْنُ جَبَلٍ - رضي الله عنه -: بِئْسَ مَاْ قُلْتَ! وَاللهِ يَاْ رَسُوْلَ اللهِ مَاْ عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلاَّ خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ. فَبَيْنَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ رَأَى رَجُلاً مُبْيِّضًا[٢]، يَزُوْلُ بِهِ السَّرَابُ. فَقَاْلَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ، فَإِذَا هُوَ أَبُو خَيْثَمَةَ الأَنْصَارِيُّ - وَهُوَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمرِ حِيْنَ لَمَزَهُ المُنَافِقُوْنَ، قَاْلَ كَعْبٌ: فَلَمَّا بَلَغَنِيْ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلاً مِنْ تَبُوْكَ حَضَرَنِيْ بَثِّي[٣]، فَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الكَذِبَ وأَقولُ: بِمَ أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا، وَأَسْتَعِيْنُ عَلَىٰ ذَلِكَ بِكُلِّ ذِيْ رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيْلَ: إِنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاْحَ عَنِّي البَاْطِلُ، حَتَّى عَرَفْتُ أنِّي لَمْ أَنْجُ مِنْهُ بِشَيءٍ أَبَدًا، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وَأَصْبَحَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ قادمًا، وَكَاْنَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيْهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ المُخَلَّفُوْنَ يَعْتَذِرُوْنَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُوْنَ لَهُ، وَكَانُوا بِضْعًا وَثَمَانِيْنَ رَجُلاً، فَقَبِلَ مِنْهُمْ عَلاَنِيَتَهُمْ، وبَأْيَعَهُمْ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَوَكَلَ سَرَاْئِرَهُمْ إِلَى اللهِ تعالى حتَّىٰ جِئْتُ. فَلَمَّا سَلَّمْتُ تَبَسَّمَ تَبسُّمَ المُغْضَبِ، ثُمَّ قَاْلَ: تَعَالَ، فَجِئْتُ أَمْشِيْ حَتَّىٰ جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَاْلَ لِيْ: مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابتعتَ ظَهْرَكَ! قَاْلَ: قُلْتُ: يَا رَسُوْلَ الله، إِنِّيْ وَاللهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنِّيْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ؛ لَقَدْ أُعْطِيْتُ جَدَلاً، لَكِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ اليَوْمَ حَدِيْثَ كَذِبٍ تَرْضَىٰ بِهِ عَنِّيْ لَيُوْشِكَنَّ اللهُ

---

(١) عِطفيه: جانبيه. وفي الكلام إشارة إلى إعجابه بنفسه ولباسه.
(٢) رجلاً مبيضًا: لابس البياض.
(٣) بثي: حزني.

يُسْخِطُكَ عَلَيَّ، وَإِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيْثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيْهِ إِنِّيْ لأَرْجُوْ فِيْهِ عُقْبَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَاللهِ مَا كَانَ لِيْ مِنْ عُذْرٍ، وَاللهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَىٰ وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّي حِيْنَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ.

قَالَ: فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيْكَ» وَسَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ، فَقَالُوا لِيْ: وَاللهِ مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، لَقَدْ عَجَزْتَ فِيْ أَنْ لاَ تَكُوْنَ اعتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَا اعتَذَرَ إِلَيْهِ المُخَلَّفُوْن، فَقَد كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ استِغْفَارُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ لَكَ. قَالَ: فَوَاللهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونَنِيْ حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى رَسُوْلِ الله ﷺ فَأُكذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُم: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِيَ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ؛ لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلاَنِ قَالاَ مِثْلَ مَا قُلْتَ، وَقِيْلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قِيْلَ لَكَ، قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بنُ الرَّبِيْعِ العَمْرِيُّ، وَهِلاَلُ بنُ أُمَيَّةَ الوَاقِفِيُّ؟ قَالَ: فَذَكَرُوا لِيْ رَجُلَيْنِ قَدْ شَهِدَا بدرًا فيهما أسوةٌ. قَالَ: حِيْنَ ذَكَرُوْهُمَا لِيْ. وَنَهَىٰ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ عَنْ كَلاَمِنَا أَيُّهَا الثَّلاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، قَالَ: فَاجْتَنَبْنَا النَّاسَ - أَوْ قَالَ: تَغَيَّرُوا لَنَا - حَتَّى تَنَكَّرَتْ لِيْ فِيْ نَفْسِيَ الأَرْضُ، فَمَا هِيَ بِالأَرْضِ الَّتِي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَىٰ ذَلِكَ خَمْسِيْنَ لَيْلَةً. فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِيْ بُيُوْتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ القَوْمِ وَأَجْلَدَهُم، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلاَةَ مَعَ المُسْلِمِيْنَ وَأَطُوْفُ فِي الأَسْوَاقِ وَلاَ يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وآتِيْ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِيْ مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاةِ، فَأَقُوْلُ فِيْ نَفْسِيْ: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلامِ أَمْ لاَ؟ ثُمَّ أُصَلِّيْ قَرِيْبًا مِنْهُ وَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلاَتِيْ نَظَرَ إِلَيَّ، وَإِذَا التَفَتُّ

نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّى إذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ المُسْلِمِيْنَ مَشَيْتُ حَتَّىٰ تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ[1] أَبِي قَتَادَةَ؛ وَهُوَ ابنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلاَمَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَاقَتَادَةَ أَنْشُدُكَ بِاللهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُوْلَهُ ﷺ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللهُ وَرَسُوْلُهُ أَعْلَمُ. فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الجِدَارَ، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِيْ فِيْ سُوْقِ المَدِيْنَةِ؛ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ نَبَطِ أَهْلِ الشَّامِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيْعُهُ بِالمَدِيْنَةِ يَقُوْلُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيْرُوْنَ لَهُ إِلَيَّ حَتَّى جَاءَنِي، فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، وَكُنْتُ كَاتِبًا. فَقَرَأْتُهُ فَإِذَا فِيْهِ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلاَ مَضْيَعَةٍ، فَالحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ، فَقُلْتُ حِيْنَ قَرَأْتُهَا: وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ البَلاَءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّوْرَ فَسَجَرْتُهَا[2] حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُوْنَ مِنَ الخَمْسِيْنَ واسْتَلْبَثَ الوَحْيُ[3] إِذَا رَسُوْلُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ يَاتِيْنِيْ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ، فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا، أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لاَ، بَلْ اِعْتَزِلْهَا فَلاَ تَقْرَبَنَّهَا، وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ بِمِثْلِ ذَلِكَ. فَقُلْتُ لاِمْرَأَتِي: الحَقِيْ بِأَهْلِكِ فَكُوْنِيْ عِنْدَهُمْ حَتَّىٰ يَقْضِيَ اللهُ فِيْ هَذَا الأَمْرِ، فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ لَهُ: يَا رَسُوْلَ اللهِ إِنَّ هِلاَلَ ابْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: لاَ، وَلَكِنْ لاَ

---

(١) الحائط: البستان.
(٢) فسجرتها: أحرقتها.
(٣) استلبث الوحي: أبطأ.

يَقْرَبَنَّكِ. فَقَالَتْ: إِنَّهُ واللهِ مَا به مِن حَرَكَةٍ إلى شَيء، وَوَاللهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذا. فَقَالَ لِيْ بَعْضُ أَهْلِي: لَوْ استَأْذَنْتَ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ فِي امْرأَتِك، فَقَدْ أَذِنَ لامْرَأَةِ هِلالِ بنِ أُميَّةَ أَنْ تَخْدِمَهُ؟ فَقُلْتُ: لاَ أَسْتَأْذِنُ فِيْهَا رَسُوْلَ الله ﷺ، وَمَا يُدْرِيْنِي مَاذَا يَقُوْلُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ إذا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيْهَا وَأَنا رَجُلٌ شَابٌّ! فَلَبِثْ بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ، فَكَمُلَ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِيْنِ نَهَىٰ عَنْ كَلامِنَا.

ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلاةَ الفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِيْنَ لَيْلَةٍ عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوْتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى مِنَّا، قَدْ ضَاقَتْ عَليَّ نَفْسِيْ وَضَاقَتْ عَلَيّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَىٰ عَلَى سَلْعٍ[1] يَقُوْلُ بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ: يَا كَعْبَ بنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ، فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ. فَآذَنَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ النَّاسَ بِتَوْبَةِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ علَيْنا حِيْنَ صَلَّى صَلاَةَ الفَجْرِ فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُوْنَنَا، فَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُوْن، وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَسًا، وَسَعَىٰ سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِيْ وَأَوْفَىٰ عَلَى الجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِيْ سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِيْ نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ، وَاللهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَومَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا وَانْطَلَقْتُ أَتَامَّمُ[2] رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهنِّئونَنِي بِالتَّوْبَةِ وَيَقُوْلُوْنَ لِي: لِتَهْنَكَ تَوْبَةُ اللهِ عَلَيْكَ، حَتَّى

---

(١) أوفى على سلع: صعد على جبل سلْع.
(٢) أتامم: أقصد.

دَخَلْتُ المَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ يُهَرْوِلُ حَتَّىٰ صَافَحَنِي وَهَنَّأَنِي، وَاللهِ مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِيْنَ غَيْرُهُ، فَكَانَ كَعْبٌ لاَ يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ. قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ: أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُذْ وَلَدَتْكَ أُمكَ، فَقُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُوْلَ اللهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ؟ قَالَ: لاَ. بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ وَكَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ. وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُوْلَ اللهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِيْ صَدَقَةً إِلَى اللهِ وَإِلىٰ رَسُوْلِه. فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَقُلْتُ: إِنِّي أَمْسِكُ سَهْمِيَ الَّذِي بِخَيْبَرْ. وَقُلْتُ: يَا رَسُوْلَ اللهِ إِنَّ اللهَ تَعَالى إِنَّمَا أَنْجَانِي بِالصِّدقِ، وإِنَّ تَوْبَتِيَ أَنْ لاَ أُحَدِّثَ إِلاَّ صِدْقًا مَا بَقِيت، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ أَحَدًا مِنَ المُسْلِمِيْنَ أَبْلاهُ[1] اللهُ ـ تَعَالَى ـ فِيْ صِدْقِ الحَدِيْثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذا، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِيَ اللهُ ـ تَعَالَى ـ فِيْمَا بَقِيَ، قَالَ: فأنزلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ حَتَّىٰ بَلَغَ: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ حَتَّىٰ بَلَغَ: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧ ـ ١١٩]، قال كعبٌ: وَالله مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعدَ إِذْ هَدَانِي اللهُ لِلإِسْلاَمِ أَعْظَم فِيْ نَفْسِيْ مِنْ صِدْقِيْ رَسُوْلَ اللهِ

---

(١) أبلاه الله: هنا بمعنى: أنعم عليه.

ﷺ أَنْ لاَ أَكُوْنَ كَذَبْتُهُ، فَأَهْلَكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِيْنَ كَذَبُوا؛ إِنَّ الله تَعَالَى قَالَ لِلَّذِيْنَ كَذَبُوا حِيْنَ أَنْزَلَ الوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لأَحَدٍ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦].

قَالَ كَعْبٌ: كُنَّا خُلِّفْنَا أَيُّها الثَّلاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُوْلَئِكَ الَّذِيْنَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ حِيْنَ حَلَفُوا لَهُ، فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَىٰ اللهُ - تعالى - فِيْهِ بِذَلِكَ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ وَلَيْسَ الَّذِيْ ذَكَرَ مِمَّا خُلِّفْنَا تَخَلُّفَنَا عَنِ الغَزْوِ، وَإِنَّمَا هُوَ تَخْلِيْفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّن حَلَفَ لَهُ وَاعتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ. مُتَّفقٌ عَلَيه[1].

وَفِيْ رِوَايَةٍ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ فِيْ غَزْوَةِ تَبُوك يَوْمَ الخَمِيْسِ، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يَخْرُجَ يَوْمَ الخَمِيْسِ.

وَفِيْ رِوَايَةٍ: وَكَانَ لاَ يَقْدُمُ مِنْ سَفَرٍ إِلاَّ نَهَارًا فِي الضُّحَى، فَإِذَا قَدِمَ بَدَأَ بِالمَسْجِدِ فَصَلَّى فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ فِيْهِ.

الشرح

هذا حديثُ كعب بن مالك، في قصَّةِ تَخَلُّفِهِ عن غزوةِ تبوك، وكانت غزوةُ تبوكَ في السَّنة التاسعة من الهجرة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، رقم (٤٤١٨)، ومسلم، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه رقم (٢٧٦٩).

غزا النبيُّ ﷺ الرومَ وهم على دين النَّصارى حين بَلَغَهُ أنهم يجمعونَ له، فغزاهمُ النبيُّ عليه الصلاة والسلام، وقام بتبوك عشرين ليلة، ولكنَّه لم يَر كيدًا ولم يَرَ عَدُوًّا فرجع. وكانت هذه الغزوةُ في أيام الحرِّ حين طابتِ الثِّمار وصارَ المنافقون يحبُّون الدنيا على الآخرة، فتخلَّفَ المنافقونَ عن هذه الغزوة ولجأوا إلى الظِّل والرطبِ والتمر، وبعدتْ عليهم الشُّقَّة والعياذ بالله.

أما المؤمنونَ الخُلَّص، فإنهم خرجوا مع النبيِّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولم يُثْنِ عزمهم بُعْدُ الشقَّةِ ولا طيبُ الثمار.

إلا أن كعب بن مالك - رضي الله عنه - تخلَّف عن غزوة تبوك بلا عُذر، وهو من المؤمنين الخُلَّص، ولهذا قال: «إنه ما تخلَّف عَنْ رسولِ الله ﷺ عن غزوةٍ غزاهَا قط» كلُّ غزواتِ الرسولِ ﷺ قد شارك فيها كعب ـ رضي الله عنه ـ فهو من المجاهدين في سبيل الله، «إلاَّ في غزوةِ بَدْر»، فقد تخلَّف فيها كعبٌ وغيره، لأنَّ النبيَّ ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ خرجَ من المدينةِ لا يريدُ القتال، ولذلك لم يخرجْ معه إلا ثلاثمائةٍ وبضعةَ عَشرَ رجلاً فقط؛ لأنهم كانوا يريدون أن يأخذوا عِيرًا لقريش، أي إبلٌ محمَّلةٌ قدمتْ من الشام تُريد مكة وتَمُرُّ بالمدينة.

فخرج النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أجلِ أن يَستَقبل هذه العير ويأخذها، وذلك لأنَّ أهل مكة أخرجوا النبي ﷺ وأصحابه من ديارهم وأموالهم؛ فلهذا كانت أموالهم غنيمةً للنبيِّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويحلُّ له أن يخرجَ ليأخذها، وليس في ذلك عدوانٌ من رسولِ الله ﷺ وأصحابه،

بل هذا أخذٌ لبعضِ حقِّهم.

خرج الرسول ﷺ في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ليس معهم إلا سبعون بعيرًا وفَرَسان فقط؛ وليس معهم عُدَّةٌ والعَددُ قليل، ولكنَّ الله جمعَ بينهم وبين عدوِّهم على غير ميعاد لينفِّذَ الله ما أرادَ عزَّ وجلَّ.

فسمع أبو سفيان ـ وهو قائدُ العِيْر ـ أن النبيَّ ﷺ خرجَ إليه ليأخذَ العير؛ فعدَل عن سَيْره إلى السَّاحلَ وأرسل إلى قريشٍ صارخًا يستنجدهم ـ أي يستغيثهم ـ ويقول: هلمُّوا أنقذوا العِيْر.

فاجتمعتْ قريشٌ، وخَرَجَ كبراؤها وزُعماؤها وشُرفاؤها فيما بين تسعمائةٍ إلى ألفِ رَجُل.

خرجوا كما قال الله عنهم، خرجوا من ديارهم ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧].

ولمّا كانوا في أثناء الطَّريقِ وعلموا أن العِيْرَ نَجَت تراجعوا فيما بينهم وقالوا: العير نجتْ، فما لنا وللقتال؟ فقال أبوجهل: والله لا نرجعُ حتى نقدمَ بدرًا فنقيمَ فيها ثلاثًا ننحرُ الجزور، ونسقى الخمور، ونَطعمُ الطعام، وتسمع بنا العربُ فلا يزالون يهابوننا أبدًا!

هكذا قالوا، بَطَرًا واستكبارًا وفخرًا، ولكن - الحمد لله - صارت العربُ تتحدَّثُ بهم بالهزيمةِ النَّكراء التي لم يَذُقِ العربُ مثلَها، لما التقوا بالنبيِّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكان ذلك في رمضان في السَّنة الثَّانية من الهجرة، في اليومِ السَّابع عشر منه، التقوا فأوحى الله عزَّ وجلَّ إلى الملائكة: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

﴿ٱلرُّعۡبَ﴾ [الأنفال: ١٢]، انظر! في الآية تثبيتٌ للمؤمنين وإلقاءُ الرُّعبِ في قلوبِ الذين كفروا، فما أقربَ النَّصر في هذه الحال؟! رعب في قلوب الأعداء، وثبات في قلوبِ المؤمنين.

فثبَّتَ الله المؤمنين ثباتًا عظيمًا، وأنزَلَ في قلوبِ الذين كفروا الرُّعب.

قال الله سبحانه ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ [الأنفال: ١٢]، أي: كل مفْصَل، اضربوا فالأمرُ مُيَسَّرٌ لكم.

فجعلَ المسلمون ـ ولله الحمد ـ يجلدون فيهم، فقتلوا سبعين رجلاً وأسروا سبعين رجلاً، والذين قتلوا ليسوا من أطرافهم، الذين قُتلوا كلُّهم من صناديدهم وكبرائهم، وأُخِذَ منهم أربعةٌ وعشرون رجلاً يُسْحَبُون سَحْبًا وأُلْقُوا في قليبٍ من قُلُبِ بدر، سُحبُوا حتى أُلقوا في القليبِ جثثاً هامدة، ووقف عليهم النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقال لهم: يا فُلان ابن فُلان، يُناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، هلْ وَجَدتم ما وَعَدَ ربكُم حَقًّا؟ فإني وجدتُ ما وعدني ربِّي حقًّا. فقالوا: يا رسولَ الله، كيف تُكلِّم أناساً قد جيّفوا؟ قال: «**والله مَا أنتُم بأَسمعَ لما أقولُ منهم، ولكنهم لا يُجيبون**»[1]؛ لأنهم موْتى، وهذه ـ ولله الحمد ـ نعمة، علينا أن نشكرَ الله عزَّ وجلَّ عليها كلَّما ذكرناها.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، رقم (١٣٧٠)، وكتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، رقم (٣٩٧٦، ٣٩٧٩، ٣٩٨٠، ٣٩٨١)، ومسلم، كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، رقم(٣٨٧٣، ٢٨٧٤، ٢٨٧٥).

نَصَر الله نبيَّه، وسمَّى الله هذا اليوم ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١].

هذا اليوم فرَّقَ الله فيه الحقَّ والباطلَ تفريقًا عظيمًا. وانظر إلى قدرةِ الله عزَّ وجلَّ في هذا اليوم، انتصرَ ثلاثمائة رجل وبضعةَ عشرَ رجلاً على نحو ألف رجل أكمل منهم عُدَّةً وأقوى، وهؤلاء ليس معهم إلاَّ عددٌ قليلٌ من الإبلِ والخيل، لكنَّ نصر الله عزَّ وجلَّ إذا نزل لقومٍ لم يقم أمامهم أحد، وإلى هذا أشار الله بقوله ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ ليس عندكم شيء ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، ولمّا كان المسلمونَ حين فتحوا مكّة وخرجوا باثني عَشَرَ ألفًا وأمامهم هوازن وثقيف؛ فأعجب المسلمون بكثرتهم وقالوا: لن نُغْلَبَ اليومَ عن قلَّة، فغلبهم ثلاثةُ آلافٍ وخمسُ مائةِ رجل. غلبوا اثني عشر ألفَ رجلٍ بقيادة النبيِّ ﷺ؛ لأنهم أعجبوا بكثرتهم، قالوا: لن نُغلَب اليوم عن قِلَّة، فأراهم الله عزَّ وجلَّ أن كثرتهم لن تنفعهم.

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

أتدرون ماذا حَصَلَ لأهلِ بدر؟

اطَّلعَ الله عليهم وقال لهم: اعمَلُوا ما شئتُم فقد غَفرتُ لكم.

كلُّ معصيةٍ تقعُ منهم فإنها مغفورة، لأن الثَّمن مقدَّم.

فهذه الغزوةُ صارت سببًا لكلِّ خير، حتى إن حاطبَ بن أبي بلتعة ـ

رضي الله عنه ـ لما حصلَ منه مَا حَصَل في كتابه لأهل مكة عندما أراد النبيُّ عليه الصلاة والسلام أن يغزوهم غزوة الفتح كتب هو ـ رضي الله عنه ـ إلى أهلِ مكةَ يخبرهم، ولكنَّ الله أَطْلَعَ نبيَّهُ على ذلك. أرسلَ حاطبُ بن أبي بلتعة الكتابَ مع امرأةٍ فأُخْبِر النَّبيُّ ﷺ بذلك عن طريق الوحي، فأرسل عليَّ بن أبي طالب وواحدًا معه حتى لحقوها في روضةٍ تسمَّى روضة خاخ، فأمسكوها وقالوا لها: أين الكتاب؟ فقالت: ما معي كتاب، فقالوا لها: أين الكتاب؟ والله ما كَذَبْنا ولا كُذِبْنا، أين الكتاب؟ لتخرجَنَّهُ أو لننْزِعنَّ ثيابك؟! فلمّا رأتْ ذلك أخرجته، فإذا هو من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش، فأَخَذُوه.

والحمدُ لله أنه لم يصلْ إلى قريش، فصَار في هذا نعمةٌ من الله على المسلمينَ وعلى حاطب، لأن الذي أرادَ ما حصلَ من نعمة الله.

فلما ردوا الكتابَ إلى النبيِّ ﷺ قال له: «**يا حاطب، ما هذا**»؟ فاعتذر.

فقال عمر: يا رَسُول الله، دعني أضرب عُنُقَ هذا المنافقِ، قال له النبي عليه الصلاة والسلام: «**إنه قد شهدَ بدرًا، وما يدريك، لعلَّ الله اطَّلع على أهْلِ بَدْر فقال: اعمَلُوا مَا شِئتُم، فَقد غَفَرتُ لكُم**»[1].

وكان حاطب من أهل بدر رضي الله عنه.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح، رقم(٤٢٧٤)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم وقصة حاطب ابن أبي بلتعة، رقم(٢٤٩٤).

فالمهمُّ أن هذه تخلَّف عنها كعب، لكنها ليست في أوَّل الأمر، إلا في ثاني الحال؛ لأن النبيَّ ﷺ لم يخرجْ لقتال، وإنما خرج للعير، ولكن الله جمع بينه وبين عدوِّهِ على غيرِ ميعاد، وكانت غَزاةً مُباركةً ولله الحمد. ثم ذكر بَيعته النبيَّ ﷺ ليلةَ العقبةِ في منى، حيث بايعوا النبيَّ ﷺ على الإسلام وقال: إنني لا أحبُّ أن يكون لي بدلها بدر.

يعني هي أحبُّ إليه من غزوة؛ لأنها بيعةٌ عظيمة.

لكن يقول: كانت بدر أَذْكَرَ في الناس منها، أي أكثرَ ذكرًا؛ لأن الغزوةَ اشتُهرتْ بخلافِ البيعة.

على كلِّ حال ـ رضي الله عنه ـ يُسلِّي نفسه بأنَّه إن فاتتهُ بدر فقد حَصلتْ له بيعةُ العقبة، فرضي الله عن كعب وعن جميع الصحابة.

يقول رضي الله عنه: «إنِّي لَمْ أكُن قَطُّ أقْوى ولا أيسَرَ مِنِّي حِينَ تخلَّفت عنه في تلك الغزْوة» ـ أي: غزوة تبوك ـ كان قويَّ البدن، ياسرَ الحال، حتى إنه كان عنده راحلتان في تلك الغَزوة، وما جمع راحلتين في غزوة قبلها أبدًا، وقد استعَدَّ وتجهَّزَ ـ رضي الله عنه ـ وكان من عادةِ النبيِّ ﷺ أنه إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها، أي: أظهر خلاف ما يريد، وهذا من حكمتهِ وحنكته في الحرب، لأنه لو أظهر وجهه تبيّن ذلك لعدوِّه، فربَّما يستعدُّ له أكثر، وربَّما يذهبُ عن مكانه الذي قصده النبي ﷺ فيه.

فكان مثلاً إذا أرادَ أن يخرج إلى الجنوب ورَّى وكأنَّه يريدُ أن يخرجَ إلى الشِّمال، أو أراد أن يخرجَ إلى الشَّرقِ وَرَّى وكأنه يريدُ أن يخرجَ إلى الغرب حتى لا يطَّلعَ العدوُّ على أسراره. إلاَّ في غزوة تبوك، فإن النبيَّ ﷺ

بيَّن أمرها وَوَضَّحها وجلاَّها لأصحابه؛ وذلك لأُمور:

أولاً: أنها كانت في شِدَّة الحرِّ حين طابتِ الثِّمار، والنُّفوسُ مجبولةٌ على الرّكونِ إلى الكسلِ وإلى الرخاء.

ثانيًا: أنَّ المدى بعيدٌ من المدينةِ إلى تبوك، ففيها مَفَاوِز وَرِمَالٌ وعَطَشٌ وشَمْس.

ثالثًا: أن العدوَّ كثيرٌ وهم الروم، اجتمعوا في عددٍ هائلٍ حسب ما بلغ النبي ﷺ، فلذلك جلَّى أمرها وأوضح أمر الغَزْوَة، وأخبر أنَّه خارجٌ إلى تبوك إلى عدوٍّ كثير، وإلى مكان بعيدٍ حتى يتأهَّب الناس. فخرج المسلمون مع رسول الله ﷺ ولم يتخلَّفْ إلا من خَذَله الله بالنفاق، وثلاثة رجال فقط هم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، رضي الله عنهم. هؤلاء من المؤمنين الخُلَّص، لكن تخلَّفوا لأمرٍ أراده الله عزَّ وجلَّ. أمَّا غيرهم ممن تخلَّفَ فإنهم مُنافقون مُنْغمسُونَ في النِّفاق، نسأل الله العافيةَ. فخرجَ النبيُّ ـ عليه الصلاة والسَّلام ـ بأصحابه ـ وهم كثير ـ إلى جهةِ تبوكَ حتى نزل بها، ولكنَّ الله تعالى لم يجمعْ بينه وبين عدوِّه، بل بقي عشرين يومًا في ذلك المكان، ثم انصرفَ على غير حرب.

يقول كعب بن مالك رضي الله عنه: «**إن الرَّسول ﷺ تجهَّز هو والمُسلِمُونَ وَخَرجُوا مِنَ المدينة**».

أما هو ـ رضي الله عنه ـ فتأخَّر وجَعَل يغدو كلَّ صباح يرحِّلُ راحلته ويقول: أَلْحَق بهم، ولكنَّه لا يفعلُ شيئًا، ثم يفعلُ كلَّ يومٍ، حتى تمادى به الأمرُ ولم يدرك.

وفي هذا دليلٌ على أن الإنسان إذا لم يُبادرْ بالعملِ الصَّالح فإنَّه حَرِيٌّ أن يُحرمَ إيَّاه، كما قال الله سبحانه ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فالإنسانُ إذا علم الحق ولم يقبله ويذعنْ له من أوَّلِ وهلة، فإنَّ ذلك قد يَفُوته ويحرمُ إيَّاه - والعياذ بالله - كما أن الإنسانَ إذا لم يَصبرْ على المصيبةِ من أوَّل الأمر فإنه يُحْرَمُ أجرها، لقولِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام: «**إنما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى**»(١).

فعليك - يا أخي - أن تبادرَ بالأعمالِ الصَّالحة، ولا تتأخرْ فَتَتمادى بك الأيامُ ثم تعجزُ وتكسلُ ويغلبُ عَليك الشَّيطان والهَوَى فتتأخر، فها هو - رضي الله عنه - كلَّ يوم يقول: أخرُج، ولكن تمادى به الأمرُ ولم يخرج.

يقول: فكان يَحِزُّ في نفسه أنَّه إذا خرجَ إلى سوقِ المدينة وإذا المدينة لَيْس فيها رسولُ الله ﷺ ولا أبوبكر، ولا عمر، ولا عثمان، ولا عليّ، ولا السَّابقونَ الأوَّلون من المهاجرين والأنصار، إلا رجلٌ مغموسٌ في النِّفاق - والعياذُ بالله - قد غمسَهُ نفاقهُ فلم يخرج، أوْ رَجُلٌ معذور عذره الله عزَّ وجلَّ. فكان يَعتبُ على نفسه: كيف لا يبقى في المدينة إلاَّ هؤلاء وأقعد معهم. ورسول الله ﷺ لم يذكره ولم يسأل عنه حتى وَصَلَ إلى تبوك.

فبينما هو جالسٌ وأصحابه في تَبُوك سأل عنه، فقال رسول الله أين

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، رقم(١٢٨٣)، ومسلم، كتاب الجنائز، باب في الصبر على المصيبة عند أول الصدمة، رقم (٩٢٦).

كعب بن مالك؟ فتكلم فيه رجلٌ من بني سَلمة وغمزه، ولكن دافع عنه معاذ ابن جبل ـ رضي الله عنه ـ فسكت النبيُّ ﷺ ولم يجب بشيء، لا على الذي غَمزَه ولا على الذي ردَّ.

فبينما هو كذلك إذ رأى رجلاً مبيِّضًا، يعني بياضًا يزول به السَّرابُ من بعيد، فقال النبي ﷺ: «**كُن أبا خيثمةَ الأنصاري**» فكان أبا خيثمة.

وهذا إمَّا من فراسةِ النبيِّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإمَّا من قوَّةِ نظره ﷺ.

ولا شكَّ أنه من أقوى الرِّجال نظرًا وسمْعًا ونُطقًا وفي كلِّ شيء. وأعطي قُوَّةَ ثلاثينَ رجلاً بالنِّسبة للنِّساء ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ وكذلك أُعطيَ قوَّةً في غيرِ ذلك، صلوات ربِّي وسلامهُ عليه.

وأبوخيثمة هذا هو الذي تصدَّق بِصَاعٍ عندما حثَّ النبي ﷺ على الصَّدقة، فتصدَّق النَّاسُ كلٌّ بحسبِ حاله. فكان الرَّجلُ إذا جاء بالصَّدقة الكثيرةِ قال المنافقون: هذا مُراءٍ ما أكثرَ الصَّدقة ابتغاءَ وجهِ الله، وإذا جاء الرجل الفقير بالصَّدقة اليَسيرة قالوا: إن الله غَنيٌّ عن صاعِ هذا.

انظر ـ والعياذُ بالله ـ يَلْمزونَ المؤمنينَ من هُنا ومن هنا، كما قال الله ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ ﴾ [التوبة: ٧٩]، أي: إذا تصدَّقوا بما يستطيعون قالوا: إن الله غني عن صَاعِك.

وهكذا المنافق شرٌّ على المسلمين، فإن رأى أهل الخير لمزهم، وإن رأى المقصِّرين لمزهم، وهو أخبثُ عباد الله، فهو في الدَّرْكِ الأسفلِ من النار. والمنافقونَ في زمننا هذا إذا رأوا أهلَ الخيرِ وأهلَ الدعوةِ وأهلَ

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قالوا: هؤلاء متزمِّتون، وهؤلاء متشدِّدون، وهؤلاء أصوليون، هؤلاء رجعيون، وما أشبه ذلك من الكلام.

فكلٌّ هذا مَوْرُوثٌ عن المنافقين في عهد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى يومنا هذا.

لا تقولوا ليس عندنا مُنافقون! بل عندنا منافقون ولهم علاماتٌ كثيرة!!

وقد ذكر ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ في كتابه «مدارج السَّالكين» في الجزء الأول صفاتٍ كثيرة من صفات المنافقين، كلُّها مبيَّنةٌ في كتابِ الله عزَّ وجلّ، فإذا رأيتَ الإنسانَ إذا تكلَّمَ الناسُ عنده في أهل الخير قال: هذا متزمِّت، هذا متشدِّد، وإذا رأى الإنسانَ المحسنَ الذي بقدر ما عنده يُحسن قال: هذا بخيل، الله غنيٌّ عن صدقته. وإذا رأيتَ رجلاً يَلْمِزُ المؤمنين من هنا ومن هنا، فاعلمْ أنه مُنافقٌ والعياذُ بالله ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩]، فاستفدنا من الحديث فائدتين عظيمتين:

الفائدة الأولى: أن الإنسان لا يَنْبغي له أن يتأخَّر عن فعل الخير، بل لابدَّ أن يتقدَّم ولا يتهاون أو يتكاسل.

وأذكرُ حديثاً قاله النبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الذين يتقدَّمون إلى المسجدِ ولكن لا يتقدَّمون إلى الصفِّ الأوَّل، بل يكونون في مؤخَّره. قال: «**لا يزالُ قومٌ يتأخَّرُون حَتَّى يُؤَخِّرَهُم**

الله»[١].

إذا عوَّد الإنسان نفسه على التأخيرِ أخَّره الله عزَّ وجلَّ. فبادر بالأعمال الصَّالحة من حين أن يأتي طلبُها من عند الله عزَّ وجلّ.

الفائدة الثانية: أن المنافقين يلمزون المؤمنين، إن تصدَّقَ المسلمونَ بكثيرٍ قالوا: هؤلاء مراؤون، وإن قلَّلوا بحسب طاقتهم قالوا: إن الله غنيٌّ عن عملك وغنيٌّ عن صاعك، كما سبق.

وقد ثبتَ عن النبيِّ عليه الصلاة والسلام: **«مَنْ تصدَّقَ بعَدْلِ تمرةٍ من كسبٍ طيِّبٍ، ولا يقبلُ الله إلا الطيِّب، فإنَّ اللهَ يتقبَّلها بيمينه، ثم يربِّيها لصاحبه** - أي: بما يعادل تمرة - **كما يربِّي أحدكم فَلُوَّه** - أي مُهره: الحصان الصَّغير - **حتى تكونَ مِثْلَ الجبلِ»**[٢] وهي تمرة أو ما يعادلها.

بل قال الرسول عليه الصلاة والسلام: **«اتَّقُوا النَّار ولَوْ بِشِقِّ تَمْرة»**[٣]، أي: نصفِ تمرة، بل قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، والله سبحانه وتعالى لا يُضيعُ أجرَ المحسنين.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول. . .، رقم (٤٣٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب الصدقة من كسب طيب، رقم (١٤١٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب وتربيتها، رقم (١٠١٤).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب طيب الكلام، رقم (٦٠٢٣)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، رقم (١٠١٦).

يقول رضي الله عنه: إنَّه لمَّا بلغه أنَّ النبي ﷺ رجعَ قافلاً من الغزو، بدأ يفكرُ ماذا يقولُ لرسولِ الله ﷺ إذا رجع؟ يريدُ أن يتحدَّثَ بحديثٍ وإن كان كذبًا، من أجل أن يعذرَهُ النبيُّ ﷺ فيه، وجعل يُشَاورُ ذوي الرأي من أهله ماذا يقول، ولكن يقول رضي الله عنه: فلما بَلَغ النبيُّ - عليه الصلاة والسلام - المدينة، ذهبَ عنه كلُّ ما جمعه من الباطلِ، وعزم على أن يُبيِّنَ للنبيِّ ﷺ الحقّ، يقول: فقدمَ النبيُّ ﷺ المدينة ودخل المسجد، وكان من عادتهِ وسنَّته أنه إذا قدمَ بلده فأول ما يفعل أن يصلي في المسجد عليه الصلاةُ والسَّلام، وهكذا أمرَ جابرًا - رضي الله عنه - كما سأذكرهُ إنْ شاء الله. فدخل المسجد وصَلَّى وجَلَسَ للناس فجاءه المخلَّفونَ الذين تخلَّفوا من غير عُذرٍ من المنافقين، وجعلوا يحلفون له إنهم معذورون، فيبايعهم ويستغفرُ لهم، ولكنَّ ذلك لا يفيدهم والعياذ بالله؛ لأن الله قال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، فيقول: أما أنا فعزمتُ أن أصْدُقَ النبي - عليه الصلاة والسلام - وأخبرَهُ بالصدق، فدخلتُ المسجدَ فسلَّمتُ عليه، فتبسَّمَ تبسُّمَ المغضب - أي: الذي غير راضٍ عني - ثم قال: «تعالَ». فلمّا دَنَوْتُ منه قال لي: «ما خلَّفك؟».

فقال رضي الله عنه: يا رسول الله إني لم أتخلَّفْ لعذر، وما جمعتُ راحلتين قبل غزوتي هذه، وإني لو جلستُ عند أحدٍ من مُلوكِ الدُّنيا لخرجتُ منه بعذر، فلقد أوتيتُ جدلاً - يعني لو أني جلستُ عند شخصٍ من الملوكِ لعرفتُ كيف أتخلَّص منه لأن الله قد أعطاني جدلاً - ولكني لا

أحدِّثُكَ اليومَ حديثًا ترضَى به عني فيوشكُ أن يسخطَ الله عليَّ في ذلك. رضي الله عنه.

انظر إلى الإيمان! قال: لا يمكنُ أن أحدِّثكَ بالكذب، ولو حدثتُكَ بالكذب، ورضيتَ عني اليوم، فإنه يوشكُ أن يسخطَ الله عليَّ.

فأخبر النبيَّ ﷺ بالصِّدق، فأجَّله.

وفي هذا من الفوائد:

أولاً: أن الله سبحانه وتعالى قد يَمُنُّ على العبد فيعصمهُ من المعصيةِ إذا علم من قلبه حُسْن النيّة.

فإنَّ كعبًا ـ رضي الله عنه ـ لمّا هم أن يُزَوِّر على الرسول ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ جلّى الله ذلك عن قلبهِ وأزاحه عن قلبه، وعزم على أن يصدقَ النبيَّ عليه الصلاة والسلام.

ثانيًا: أنه ينبغي للإنسانِ إذا قَدِمَ بلده، أن يَعْمِدَ إلى المسجدِ قبل أن يدخلَ إلى بيتهِ فيصليَ فيه ركعتين، لأن هذه سُنَّةُ النبيِّ ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ القوليّةُ والفعليّة.

أما الفعليّة: فكما في حديثِ كعب بن مالك.

وأما القوليّة: فإن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ حين باع على النبيِّ ﷺ جَمَله في أثناء الطريق واستثنى أن يركبه إلى المدينة وأعطاهُ النبيُّ ﷺ شرطه، فقدمَ جابرٌ المدينةَ وقد قدم النبيُّ ﷺ قبله فجاء إلى رسولِ الله

ﷺ فأمره أن يدخلَ المسجد ويصلي ركعتين[١].

وما أظنُّ أحدًا من الناسِ اليومَ - إلا قليلاً - يعملُ هذه السُّنة، وهذا لِجَهْلِ النَّاس بهذا، وإلا فهو سَهْلٌ والحمد لله.

وسَواءٌ صليتَ في مَسْجدِكَ الذي كنت تصلي فيه القريب من بيتك، أو صليت في أدنى مَسْجد من مَسَاجد البلد الذي أنت فيه حصلت السنَّة.

ثالثًا: أن كعب بن مالك - رضي الله عنه - رجلٌ قويُّ الحجَّة فصيح، ولكنْ لتقواه وخوفهِ من الله امتنع أن يكذب، وأخبرَ النبيَّ ﷺ بالحقّ.

رابعًا: أن الإنسان المغضب قد يتبسَّم، فإذا قال قائل: كيف أعرفُ أن هذا تَبَسُّمَ رضا أو تَبَسُّمَ سُخْط؟

قلنا: إن هذا يُعرفُ بالقرائن، كتلوُّن الوجهِ وتغيُّره.

فالإنسانُ يعرفُ أن هذا الرَّجل تَبَسَّمَ رضًا بما صنعَ أو تبسَّمَ سخطًا عليه.

خامسًا: أنه يجوزُ للإنسان أن يُسلِّمَ قائمًا على القاعد؛ لأن كعبًا سَلَّم وهو قائم، فقال له النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «**تعال**».

سادسًا: أن الكلامَ عن قُرْبٍ أبْلَغُ من الكلامِ عن بُعْد، فإنه كان بإمكانِ الرسولِ ﷺ أن يكلِّمَ كعب بن مالك ولو كان بعيدًا عنه، لكنه أمرَهُ أن يدْنُوَ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب شراء الدواب والحمير، رقم (٢٠٩٧)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب الركعتين في المسجد لمن قدم من سفر أول قدومه، رقم (٧١٥).

منه؛ لأنَّ هذا أبْلَغ في الأخْذِ والرَّدِّ والمُعاتَبة، فلذلك قال له الرسول عليه الصلاة والسلام: «ادْنُ».

سابعًا: كمالُ يقينِ كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ حيث إنَّه قال: إنني أستطيعُ أن أخْرُجَ بِعُذْرٍ من الرسولِ ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولكنْ لا يمكنُ أن أخرج منه بعذر يعذرني فيه اليومَ ثم يغضبُ الله عليَّ فيه غدًا.

ثامنًا: إنَّ الله يعلمُ السِّرَّ وأخْفَى، فإنَّ كعبًا خافَ أن يسمعَ الله قوله ومحاورتَهُ للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيُنزلُ الله فيه قرآنًا، كما أنزلَ في قصَّةِ المرأةِ المجادلةِ التي جاءتْ إلى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ تشكو زوجَها حين ظاهرَ منها، فأنزلَ الله فيها آيةً من القرآن: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

يقول كعب: إنه أتى إلى الرسولِ ﷺ وصدَقَهُ القولَ وأخبره أنَّه لا عُذرَ له لا في بدنه ولا في ماله، بل إنه لم يجمعْ راحِلتين في غزوةٍ قبل هذه.

فقال النبيُّ ﷺ: «أَمَّا هَذَا فَقَد صَدَق» ويكْفي له فخرًا أن وصَفَهُ النبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالصِّدق: «أمّا هذا فقد صدق، فاذهبْ حتى يَقْضيَ الله فيكَ ما شاء». فذهبَ الرَّجُل مُسْتَسلمًا لأمرِ الله عزَّ وجلَّ مؤمنًا بالله، وأنَّه ما شاءَ الله كان، وما لم يَشأ لم يَكُن.

فَلَحِقهُ قومٌ من بني سلمة من قومه وجعلوا يزيِّنون له أن يرجعَ عن إقراره، وقالوا له: إنك لم تُذنبْ ذنبًا قبل هذا، يعني مما تخلَّفتَ به عن رسولِ الله ﷺ ويكفيكَ أن يستغفرَ لكَ رسولُ الله ﷺ وإذا استغفرَ لكَ

الرسولُ ﷺ غفرَ الله لك، فارجعْ كذِّبْ نفسك، قل: إني مَعْذُور، حتى يستغفرَ لك الرسولُ ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ فيمن استغفرَ لهم ممن جاؤوا يعتذرون إليه. فهمَّ أن يفعل رضي الله عنه، ولكنَّ الله سبحانه أنقذه وكتب له هذه المَنْقَبَة العظيمة التي تُتْلَى في كتاب الله إلى يوم القيامة.

فسأل قومه: هل أحدٌ صَنَع مِثْلَمَا صَنَعْتُ؟ قالوا: نعم، هلال بن أمية ومُرارة بن الربيع، قالا مثلما قلت، وقيل لهما مثلما قيل لك.

يقول: «فذكروا لي رَجُلين صالحين شَهِدا بدْرًا لي فيهما أُسوة».

أحيانًا يُقيِّضُ الله للإنسانِ ما يجعله يَدَعُ الشَّر اقْتداءً بغيره وتأَسِّيًا به.

فهو ـ رضي الله عنه ـ لمّا ذُكِرَ له هذان الرَّجلان ـ وهما من خيار عباد الله من الذين شَهِدُوا بدرًا ـ فقال: «لي فيهما أسْوة. فَمَضَيْتُ» أي: لم يرجعْ إلى النبيِّ عليه الصلاة والسلام.

فأمر النبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ الناسَ أن يهجروهم فلا يُكَلِّمُوهم.

فهجرهم المسلمون، ولكنهم بعد ذلك صاروا يمشون وكأنهم بلا عقول، قد ذُهلوا، وتَنَكَّرت لهم الأرضُ فما هي بالأرضِ التي كانوا يَعْرِفُونها؛ لأنهم يمشون إن سلَّموا لا يُرَدُّ عليهم السَّلام، وإن قابلهم أحد لم يبْدأهم بالسَّلام. وحتى النبيُّ ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ وهو أحْسَنُ النَّاس خُلُقًا ـ لا يُسَلِّم عليهم السَّلامَ العَاديّ.

يقول كعب: كنتُ أحضرُ وأسَلِّم على النبي ﷺ فلا أدري: أحَرَّكَ شفتيهِ بردِّ السلام أم لا.

هذا وهو النبيُّ عليه الصلاة والسلام، وما ظنُّك برجلٍ يُهْجَر في هذا

المجتمع الإسلامي الذي هو خير القرون؟ إنها ستضيق عليه الأرض، وفعلاً ضاقتْ عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وبقُوا على هذه الحالِ مدَّةَ خمسين يومًا، أي: شهرًا كاملاً وعشرين يومًا. والناسُ قد هجروهم فلا يُسلِّمون عليهم، ولا يردُّون السَّلام إذا سلَّموا، وكأنهم في الناسِ إبلٌ جُرْبٌ لا يَقْربهم أحد.

فضاقتْ عليهم الأمورُ، وصعبتْ عليهم الأحوال، وفرُّوا إلى الله عزَّ وجلّ، ولكن مع ذلك لم يكن كعب بن مالك يَدَعُ الصَّلاة مع الجماعة.

فكان يحضرُ ويُسَلِّم على النبيِّ ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ ولكن في آخرِ الأمرِ ربَّما يتخلفُ عن الصلوات لما يجد في نفسه من الضِّيْقِ والحرج؛ لأنه يخجلُ أن يأتيَ إلى قومٍ يصلي معهم وهم لا يكلمونَهُ أبدًا، لا بكلمةٍ طيِّبةٍ ولا بكلمةِ تأنيب، فتركوهم بالكليَّة، فضاقتْ عليهم الأرضُ، وبقوا على هذه الحالة خمسين ليلة تامَّة، ولما تمَّتْ لهم أربعون ليلة أرْسَل إليهم النبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يَعْتَزِلوا نِساءهم. إلى هذا الحد، فرَّق بينهم وبين نسائهم.

وما ظنُّك برجلٍ مثل كعب بن مالك وهو شابٌّ يُعْزَل عن امرأته؟ أمْرٌ عظيم، ولكن مع ذلك لمّا جاءهم رسولُ الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقال: «إن النبي ﷺ يأمُركَ أن تعتزلَ امرأتك». قال: أطلقها أم ماذا؟؛ لأنه لو قال له طلِّقْها لطلَّقَها بِكُلِّ سُهولة؛ طاعةً لله ورَسُوله، فسأل قال: أطلِّقها أم ماذا؟ فقال له رسولُ الرسول: إنَّ الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يأمُرك أن تعتزلَ أهلك. وبَقِي على ظاهر اللَّفظ، حتى الصحابيُّ الذي أُرسِلَ ما

حرَّف النَّص، لا مَعْنىً ولا لَفْظًا، قال هكذا، قال: ولا أدري.

وهذا من أدب الصَّحابة رضي الله عنهم، ما قال: أظُنُّ أنه يُريد أن تُطَلِّقها، ولا: أظنُّ أنه يريدُ أن لا تُطَلِّقها! ما قال شيئًا، بل قال: إن النبيَّ ﷺ قال هذا. فقال كعب لزوجته الحقي بأهلك. فلحقت بأهلها.

«فأمّا صَاحِبَاي فاسْتكَانا في بيوتهما يبكيان» لأنَّهما لا يستطيعان أن يمشيا في الأسواق، والناسُ قد هجروهم لا يلتفتُ إليهم أحد، ولا يسلِّمُ عليهم أحد، وإذا سلَّموا لا يُرَدُّ عليهم السلام، فعجزوا عن تحمُّلِ هذه الحال، فبقيا في بيوتهما يبكيان.

يقول: «وأمَّا أنا فكُنْتُ أشَبَّ القَوْمِ وأجْلدَهُم» أشبُّهم: أقواهم وأجْلدهم: أصبرهم. لأنه أشبُّ منهم أصغرُ منهم سِنًّا، فكان يشْهدُ صلاةَ الجماعةِ مع المسلمين، ويطوف بأسواق المدينة لا يكلمه أحد، لا يكلمه أحد؛ لأن النبيَّ ﷺ أمر بهجرهم، وكان الصحابةُ ـ رضي الله عنهم ـ أطوعَ الناسِ لرسولِ الله ﷺ.

يقول: «وكنتُ آتي المسجدَ فأصلي وأسلِّمُ على النبيِّ ﷺ وهو جالسٌ للنَّاس بعد الصلاة فأقول: هَل حَرَّكَ شفَتَيه بِرَدِّ السَّلامِ أم لا».

أي: ما يردُّ عليه ردًّا يُسمع، هذا مع أن النبي ﷺ أحْسن النَّاس خُلُقًا، ولكن امتثالاً لما أوْحىٰ الله إليه أن يُهجر هؤلاء القومِ هَجَرهم.

ويقول: كنت أُصَلِّي وأُسارِقُ النبيَّ ﷺ النَّظر، يعني: أنظرُ إليه أحيانًا وأنا أُصلي، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليَّ وإذا التفتُّ إليه أعْرَضَ عني.

كل هذا من شِدَّة الهجر.

يقول: «فبينما أنا أمشي ذات يوم في أسواق المدينة وطال عليَّ جفوةُ الناس، تسَوَّرْتُ حَائطًا لأبي قتادة رضي الله عنه» تسوَّره: دخله من فوق الجدارِ من دون الباب، وكأنَّ البابَ مُغْلَق. والعلمُ عند الله.

يقول: «فسلَّمت عليه، فوالله ما ردَّ عليَّ السَّلام» وهو ابن عمِّهِ وأحبُّ الناس إليه، ومع ذلك لم يردَّ عليه السلام، مع أن الرجل كان مجفيًّا من الناس مَنْبُوذًا، لا يُكَلَّم ولا يُسَلَّم عليه ولا يُرَدُّ عليه السَّلام، ومع ذلك لم يَعْطفْ عليه ابنُ عمِّه أبو قتادة.

كلُّ هذا طاعةً لله ورَسُوله؛ لأن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لا تأخذهم في الله لوْمةُ لائم ولا يُحَابُون أحدًا في دينِ الله ولو كان أقربَ الناسِ إليهم، فقال له: أنشدكَ الله، هل تعلمُ أني أحبُّ الله ورسوله؟ فلم يَرُدَّ عليه.

فقال: أنْشُدكَ الله، هل تعلم أني أحبُّ الله ورسوله؟ فلم يَرُدَّ عليه.

مرتين يُناشدهُ مناشدَة هل يعلم أنه يحب الله ورسوله أم لا؟ وأبو قتادة يدري، ويعلمُ أنَّ كعب بن مالك يحبُّ الله ورسوله.

فلما ردَّ عليه الثَالثة وقال: أنْشُدك الله هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ فقال: الله ورسوله أعلم.

لم يُكَلّمه، فلم يقل: نعم؟ ولا قال: لا.

قال كلمةً لا تُعَدُّ خطابًا، قال: الله ورسولهُ أعلم.

يقول: ففاضت عَيْناي، أي: بكى ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رَجُلاً -ابن عمِّهِ- أحبُّ الناس إليه لا يُكَلِّمه مع هذه المُنَاشَدة العظيمة.

مع أنها ـ أيضاً ـ مسْألة تعبُّدية، لأن قوله أنْشُدكَ الله هل تعلمُ أني أحبُّ

الله ورسوله؟ طلبُ شهادة، ومع ذلك لم يشهدْ له، مع أنه يعلمُ أنَّه يُحِبُّ الله ورسوله؛ ففاضتْ عيناه.

وتسوَّر البستان أي: خرج إلى السُّوق، فبينما هو يمشي إذا برجل نَبَطي من أنباط الشام ـ والنبطيُّ الذي ليس بعربيٍّ ولا بعجميّ، وسُمُّوا بذلك لأنهم كانوا يخرجون في البراري يستنبطون الماء ـ يقول: من يَدُلُّني على كعب بن مالك!

انظر إلى أهل الشرِّ ينتهزون الفُرَص!

فعندما قال: من يدلُّني على كعب بن مالك؟ قلت: أنا هو، فأعطاني الورقة، وكنت كاتبًا؛ لأن الكُتَّاب في ذلك العهد قَليلون جدًّا.

يقول: «فقرأت الكتاب، فإذا فيه: أمَّا بعد، فقد بلغنا أن صاحبك جفاك ـ يعني الرسولَ عليه الصلاةُ والسلام، وكان هذا الملكُ: ملكُ غسَّان كافرًا ـ وإنَّك لستَ بدار هَوان ولا مَضْعية، يعني: لا تبقى في الدَّار في ذُلٍّ وضَياع وهوان فتعالَ إلينا ـ الْحق بنا نُواسِك ـ يعني: تعالَ إلينا نُواسِكَ بأموالنا، وربما نواسيكَ بملكنا.

ولكن الرَّجل رَجُلٌ مؤمنٌ بالله تعالى ورسولِهِ، ومحبٌّ لله ورسوله ﷺ.

قال: وهذه من البلاء، يعني: هذا من الامتحان. وصدق رضي الله عنه، رجل مجفوٌّ لا يُكَلَّم، مهجورٌ منبوذٌ حتى من أقرب الناس إليه، لو كان في قلبهِ ضعفُ إيمان لانتهزَ الفرصةَ بدعوةِ هذا الملك وذهب إليه، لكن عنده إيمانٌ راسخ.

يقول: قلت: هذه من البلاء. ثم ذهب إلى التَّنور فسَجَرَهُ فيه: يعني أوْقَدَها بالتنور.

وإنَّما أوقدها في التَّنور ولم يجعلها معه لئلا تُوسوسَ له نفسه بعد ذلك أنْ يذْهَبَ إلى هذا الملك، فأتلفها حتى ييأسَ منها ولا يُحَاول أن يجعلها حجَّةً يذهبُ بها إلى هذا الملك. ثم بقي على ذلك مُدّة.

ففي هذه القطعة من الحديث: دليلٌ على جوازِ التخلُّفِ عن الجماعةِ إذا كان الإنسانُ مهجورًا منبوذًا وعجزتْ نفسهُ أن تتحمَّل هذا كما فعلَ صاحبا كعب بن مالك رضي الله عنهم.

لأنَّه لا شكَّ أنه من الضيقِ والحرجِ أن يأتي الإنسان إلى المسجد مع الجماعة لا يسلَّم عليه ولا يُردُّ سلامه، ومَهْجُورٌ ومَنْبُوذ، هذا تضيقُ به نفسهُ ذرعًا ولا يستطيع، وهذا عذرٌ كما قاله العلماء.

ومن فوائد هذا الحديث: شدَّةُ امتثالِ الصحابةِ لأمر النبيِّ ﷺ ودَليل ذلك ما جَرَىٰ لأبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ مع كعب بن مالك رضي الله عنه.

ومن فوائد هذا الحديث: أنَّه يجبُ التَّحرزُ من أصحاب الشرِّ وأهلِ السُّوءِ الذين ينتهزونَ الضَّعفَ في الإنسان والفُرص في إضاعتهِ وهَلاَكه.

فإن هذا الملكَ ـ ملكَ غسَّان ـ انتهزَ الفرصةَ في كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ يدعوهُ إلى الضَّلالِ لعلَّه يرجعُ عن دينه إلى دينِ هذا الملكِ بسببِ هذا الضيق.

ومن فوائدِ هذا الحديث: قوَّةُ كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ في دين الله وأنَّه من المؤمنين الخُلَّص، وليس ممن قال الله فيهم ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ

ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]، فبعضُ الناس ـ والعياذ بالله ـ يقول: آمنا بالله، ولكن إيمانه ضعيف، إذا أوذيَ في الله ارتدَّ ـ والعِياذُ بالله ـ وفَسَقَ وتركَ الطاعة، وكعبُ بن مالك رضي الله عنه أُوذِيَ في الله إيذاءً أيَّما إيذاء، لكنه صَبَر واحتسبَ وانتظرَ الفرج، ففرَّجَ الله له تفريجًا لم يكنْ لأحدٍ غيره وصاحبيهِ، أنزل الله فيهم ثناءً عليهم آياتٍ تُتلى إلى يومِ القيامة.

نحن نقرأ قصَّتهم في القرآن في صلاتنا! وهذا فضل عظيم، قصَّتهم تُقرأ في الصلاة، في الصلوات الخمس، في صلاةِ النافلة، سرًّا وعلنًا.

ومن فوائد هذا الحديث أيضًا: أنَّه ينبغي للإنسانِ إذا رأى فتنةً أو خوفَ فتنة أن يُتْلِفَ هذا الذي يكونُ سببًا لِفِتْنتِه.

فإنَّ كعبًا لما خاف على نفسه أن تميلَ فيما بعدُ إلى هذا الملك ويتَّخذَ هذه الورقة وَثيقةً، حَرقها رضي الله عنه.

ومن ذلك: ـ أيضًا ـ ما جرى لسليمانَ بنِ داودَ ـ عليهما الصلاة والسلام ـ حينما عُرضتْ عليه الخيلُ الصَّافنات الجياد في وقت العصر، فغفل وذهلَ ـ بما عُرض عليه ـ عن الصلاة حتى غابتِ الشمس، فلما غابت الشمس وهو لم يصلِّ العصر دَعَا بهذه الخيل الصافنات الجياد فجعل يَضرب أعناقها وسُوقها، يعني: جعلَ يقتلها ويعقرها انتقامًا من نفسه لنفسه؛ لأنَّه انتقم من نفسه التي لَهتْ بهذه الصَّافناتِ الجياد عن ذكرِ الله ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٢، ٣٣]. فالمهمُّ أنك إذا رأيت شيئًا من

مالك يَصُدُّك عن ذكر الله فأبْعِدْهُ عنك بأيِّ وسيلةٍ تكون، حتى لا يكون سببًا لإلْهائكَ عن ذكرِ الله.

فإنَّ الذي يُلهي عن ذكر الله خسارة، كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩].

يقول رضي الله عنه: «فلما تمَّتْ لنا أربعونَ ليلة» يعني شهر وعشرة أيام. وكان الوحي قد استلبث فلم ينزلْ كلَّ هذه المدَّة، وهذا من حكمةِ الله عزَّ وجلَّ في الأمور الكبيرة العظيمة، يَسْتَلْبث الوحي ولا ينزل، كما في هذه القصَّة، وكما في قِصَّةِ الإفكِ حين انقطعَ الوحيُ عن رسول الله ﷺ.

وهذا من حكمة الله عزَّ وجلَّ حتى يتَشوَّفَ الناسُ إلى الوحي ويَتشوَّقوا إليه: ماذا سيُنزل ربُّ العالمين عزَّ وجلّ؟ فبقي الوحي أربعين ليلة ما نزل، فلما تمَّتْ أربعون ليلة أرسل النبيُّ ﷺ إلى كعب وصَاحبِيه هلال بن أمية ومرارة بن الربيع ـ رضي الله عنهم ـ أنْ يَعْتزلوا نساءهم.

وجاءتْ زوجةُ هلال بن أُميَّة إلى رسولِ الله ﷺ وأخبرته بأنَّه في حاجةٍ إليها لتَخْدمه؛ لأنَّه ليس له خادم، فأذنَ لها النبيُّ ﷺ بشرطِ أن لا يقربها، فقالت: «إنه والله ما به من حركةٍ إلى شيء» يعني أنه ليس له شهوةٌ في النِّساء، وأنه ما زال يبكي ـ رضي الله عنه ـ منذ أمرَ النبيُّ ﷺ بهجرهم إلى يومه هذا، أربعونَ يومًا يبكي؛ لأنه ما يدري ماذا تكونُ النهاية.

يقول رضي الله عنه: «فلمَّا مَضَى عشْرُ ليالٍ بعد هذا، وكنت ذاتَ يومٍ أصَلِّي الصُّبحَ على سطحِ بَيْتٍ من بُيوتنا» لأنه كما مرَّ كانوا ـ رضي الله عنهم ـ

قد ضاقتْ عليهم الأرضُ بما رَحبُت، وضاقت عليهم أنفسهم، واستنكروا الأرضَ، واستنكروا الناس، يأتون إلى المسجدِ لا يكلمهم أحد، وإن سلَّموا لم يردَّ عليهم، وإن مرَّ بهم أحدٌ لم يسلِّمْ عليهم، ضاقتْ عليهم الأرض. فصار ذات يوم يصلي الصبح في بيته على سطحه. يقول: «فسمعتُ صَارخًا يقول وهو على سلْعٍ ـ وهو جبل معروف في المدينة ـ أوفى عليه وصاحَ بأعلى صوته يقول: «يا كعب بن مالك أبشر يا كعب بن مالك أبشر»!

يقول: «فخررتُ ساجدًا، وعرفتُ أنه قد جاء فرج»، وركب فارس من المسجد يؤمُّ بيت كعب بن مالك ليُبشِّره، وذهب مُبَشِّرون إلى هلال بن أمية ومرارةَ بنِ الربيع يُبَشِّرونهما بتوبة الله عليهما. فانظرْ إلى فرح المسلمين بعضِهم مع بعض، كلٌّ يذهبُ يَسْعىٰ ويركضُ من جهة.

يقول: فجاء الصَّارخ، وجاء صاحبُ الفرس، فكانت البُشْرىٰ للصَّارخ؛ لأن الصَّوتَ أسْرَعُ من الفرس، يقول: فأعطيتهُ ثَوْبَيَّ الإزارَ والرِّداء، وليس يملك غيرهما، لكن استعار من أهله أو من جيرانه ثوبين فلبسهما، وأعطى ثوبيه هذا الذي بَشَّره.

أعطاهُ كُلَّ ما يَمْلك، لا يملكُ غيرَ الثوبين. لكنها والله بُشْرَىٰ عظيمة، بشرى من الله سبحانه وتعالى عظيمة، أن ينزل الله توبتهم ويُمَنَّ عليهم بالتوبة.

ثم نزلَ مُتوجِّهًا إلى الرسول ﷺ في المسجد، وإذا رسولُ الله ﷺ وجزاهُ الله عن أمَّتهِ خيرًا ـ قد بشَّر النَّاسَ بعد صلاةِ الصبحِ بأنَّ الله أنْزل توبته

على هؤلاء الثَّلاثة؛ لأنه يُحِبُّ من أصحابهِ وأمَّتهِ أن يتوبوا ويرجعوا إلى الله.

يقول: فذهبتُ أتأمَّمُ رسول الله ﷺ يعني أقصده، فجعلَ الناسُ يُلاقونني أفواجًا، يعني جماعات، يهنِّئونه بتوبةِ الله عليه، رضي الله عنه.

هؤلاء القومُ يُحبُّون لإخوانهم ما يُحبُّونَ لأنفسهم، فلم يَحْسُدوهم على ما أنعم الله به عليهم من إنزالِ القرآنِ العظيمِ بتوبتهم، بل جعلوا يُهنِّئونهم حتى دخلَ المسجد.

وفي هذه القطعةِ من الحديثِ فوائد:

أولاً: شِدَّةُ هجر النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لهؤلاء الثَّلاثة، حتى إنه أمرهم أن يعتزلوا نساءهم، والتَّفريق بين الرَّجل وامرأته أمره عظيم.

ثانيًا: وفيه أنَّ قول الرَّجل لامرأته: الحقي بأهْلك؛ لَيْس بطلاق، لأنَّ كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ فرَّق بين قوله: الحقي بأهلك، وبين الطلاق، فإذا قال الرَّجل لامرأته الحقي بأهلكِ ولم ينوِ الطلاق، فليس بطلاق.

أما إذا نوى الطلاق فإن النبيَّ ﷺ قال: «**إنما الأعْمالُ بالنِّيات وإنَّما لِكُلِّ امْرِىء مَا نَوَىٰ**...» الحديث[1].

فإذا نوىٰ الإنسان بهذه الكلمة وأمثالها الطلاقَ فله ما نوىٰ.

ثالثًا: شدَّة امتثال الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ لأمر النبي ﷺ؛ لأنه ـ رضي الله عنه ـ ما تردَّدَ، ولا قال: لعلي أراجعُ الرسولَ عليه الصلاة والسلام، أو قال للرَّسولِ الذي أرسله النبيُّ ﷺ: ارجعْ إليه لعله يَسْمَح،

---

(١) تقدم تخريجه ص (١٦).

بل وافقَ بكلِّ شيء.

رابعًا: أن النبيَّ ﷺ كان رحيمًا بأمَّته، فإنَّه بعد أن أمرهم باعتزالِ النِّساء رَخَّص لهلال بن أمية؛ لأنَّه يحتاجُ لخدمةِ امرأته.

خامسًا: جواز حكاية الحال عند الاستفتاء أو الشَّهادة أو ما أشبه ذلك، وإن كان المحكيُّ عنه قد لا يحبُّ أن يطَّلعَ عليه الناس، لأنَّ امرأة هلال بن أمية ذكرت من حَالِه أنَّه ليس فيه حاجةٍ إلى شيءٍ من النِّساء.

سادسًا: أن الإنسانَ إذا حَصلَ له مثل هذه الحال وهجرَهُ الناس، وصارَ يتأذَّى من مُشاهدتهم ولا يتحمَّل، فإنه له أن يتخلَّفَ عن صلاةِ الجماعة، وإن هذا عذر؛ لأنه إذا جاءَ إلى المسجد في هذه الحال سوف يكون مُتَشوِّشًا غير مطمئنّ في صلاته؛ ولهذا صلَّى كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ صلاةَ الفجر على ظهرِ بيتٍ من بيوته، وسبق لنا ذكرُ هذه الفائدة في قصَّةِ هلال بن أمية ومرارة بن الربيع.

سابعًا: حِرْصُ الصحابةِ ـ رضي الله عنهم ـ على التسابق إلى البُشْرىٰ؛ لأن البشرى فيها إدخال السُّرور على المسلم. وإدخال السُّرورِ على المسلمِ مما يقرِّب إلى الله عزَّ وجلَّ؛ لأنه إحسان، والله ـ سبحانه وتعالى ـ يحبُّ المحسنينَ ولا يُضيعُ أجرهم.

فلذلك ينبغي لك إذا رأيت من أخيك شيئًا يَسُرُّه، كأن يكونَ خبرًا سارًا أو رؤيا سَارَّة أو ما أشبه ذلك، أن تُبشِّرَهُ بذلك، لأنك تُدخلُ السُّرورَ عليه.

ثامنًا: أنه ينبغي مُكافأةُ من بَشَّركَ بهديَّةٍ تكونُ مناسبةً للحال، لأنَّ كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أعطى الذي بَشَّره ثَوبَيْه، وهذا نظير ما صحَّ

به الخبر عن عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وكان يأمر النَّاسَ إذا حجُّوا أن يتمَتَّعوا بالعمرة إلى الحجّ، يعني أن يأتوا بالعمرة ويحلُّوا منها ثم يُحرموا بالحجِّ في يومِ التروية، وكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ينهى عن المُتْعة؛ لأنه يحبُّ أن يعتمر الناس في وقت، وأن يحجُّوا في وقت، حتَّى يكون البيت دائمًا مَعْمُورًا بالزُّوَّار، ما بين معتمرينَ وحجَّاج، فعلَ هذا اجتهادًا منه ـ رضي الله عنه ـ وهو من الاجتهاد المغفور، وإلا فلا شكَّ أن سُنَّة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أوْلى.

المهمُّ أن رجلاً استفتى عبدالله بن عباس في هذه المسألةِ، فأمرَهُ أن يتمتَّعَ وأن يُحْرِمَ بالعمرة ويُحِلَّ منها.

فرأى هذا الرَّجل في المنام شخصًا يقول له: حَجٌّ مبرورٌ وعُمْرةٌ مُتَقَبَّلة، فأخبر بذلك عبدالله بن عباس الذي أفتاه، ففرحَ بذلك ابن عباس وأمره أن يَبْقى حتى يعطيَهُ من عطائه، يعني يُعْطيه هديَّةً على ما بَشَّرهُ به من هذه الرؤيا التي تدلُّ على صوابِ ما أفتاهُ به عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

والمهمُّ أن من بَشَّرك بشيءٍ فأقلُّ الأحوال أن تدعو له بالبشارة، أو تُهْدي له ما تيسَّر، وكلُّ إنسانٍ بقدرِ حاله.

يقولُ رضي الله عنه: حتى دخلت المسجد وإذا رسول الله ﷺ جَالِسٌ وحوله أصْحابه، فقامَ إلى كعبٍ طلحةُ بن عبيدالله ـ رضي الله عنه ـ فصافحه وهنَّأه بتوبةِ الله عليه.

يقول: والله ما قامَ إليَّ أحدٌ من المهاجرينْ رَجُلٌ غيرُ طلحة، فكان لا

يَنْسَاها له، حيث قامَ ولاَقاهُ وصَافَحه وهنَّأه، حتى وقفَ على النبيِّ ﷺ وإذا وجههُ تبرقُ أسَاريره؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ سَرَّه أن يَتُوبَ الله على هؤلاء الثَّلاثةِ الذين صَدَقوا الله ورسوله، وأخبروا بالصِّدقِ عن إيمان، وحَصَل عليهم مَا جَرىٰ من الأمر العظيم، من هجر النَّاس لهم خمسين يومًا، حتى نسائهم بعد الأربعين أمر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يعتزلوهنّ.

ثم قال له النبيُّ ﷺ: «أبْشِر بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيكَ مُذْ وَلَدتْكَ أمُّك».

وصدق النبيُّ ﷺ خيرُ يوم مرَّ على كعب منذ ولدته أمُّهُ هو ذلك اليوم؛ لأن الله أَنْزلَ توبته عليه وعلى صاحبيهِ في قرآن يُتْلى، تكلَّم به ربُّ العالمينَ عزَّ وجلَّ وأنزلَهُ على محمَّدٍ ﷺ محفوظًا بواسطةِ جبريل، ومحفوظًا إلى يوم القيامة، ولا يوجد أحد سِوى الأنبياء أو من ذَكَرَهم الله في القرآن حُفِظتْ قصَّتهُ كما حُفظتْ قصَّةُ كعب بن مالك وصَاحِبيْه رضي الله عنهم.

بقيتْ هذه القِصَّةُ تُتلىٰ في كتابِ الله في المحاريبِ وعلى المنابر وفي كلِّ مكان، ومن قرأ هذه القصَّةَ فله بكل حرفٍ عشرُ حسنات، فهذا اليوم لا شكَّ أنه خيرُ يومٍ مرَّ على كعبٍ منذ وَلَدَتْهُ أمُّه.

«فقلتُ له: أمِنْ عِنْدكَ يا رسول الله أو من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله عزَّ وجلَّ»؛ لأنه إذا كان من عند الله كان أشْرَفَ وأفضلَ وأعظم.

فقال كعب: إنَّ من توبتي أن أنخلعَ من مالي صَدقةً إلى الله وإلى رسوله، أي: يتخلَّى عنه ويجعله صَدَقةً إلى الله ورسوله شأنه وتدبيره.

فقال النبي ﷺ: «أمْسِكْ عليْك بعْضَ مالِكَ فهو خَيْرٌ لك». فأمسكهُ رضي

الله عنه.

ففي هذه القطعة من الحديث فوائد:

أولاً: فيها دليلٌ على أن من السُنَّةِ إذا أتى الإنسانَ ما يَسُرُّه أن يهنأ به ويُبشَّرَ به، سواء كان خيرَ دينٍ أو خيرَ دنيا.

ولهذا بَشَّرتِ الملائكةُ إبراهيم عليه السلام بِغُلَامٍ حليمٍ وبغلامٍ عليم، الغلامُ الحليم: إسماعيل. والغلامُ العليم: إسحاق. بشَّرتِ الملائكةُ إبراهيمَ بهذين الغلامين.

ثانيًا: إنَّه لا بأسَ بالقيام إلى الرَّجلِ لمصافحتهِ وتهنئتهِ بما يَسُرُّه.

والقيامُ إلى الرجل لا بأسَ به قد جاءتْ به السُّنَّة، وكذلك القيامُ للرَّجلِ وأنت باقٍ في مكانك لا تتحرَّكُ إليه، فهذا أيضًا لا بأس به إذا اعتادَهُ الناس، لأنه لم يردِ النهيُ عنه؛ وإنما النهيُ والتحذيرُ من الذي يَقامُ له لا من القائم، فإنَّ مَنْ يُقامُ له قال فيه النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ أحبَّ أنْ يَتمثَّلَ لهُ الرِّجالُ قيامًا فلْيتبوَّأ مقعدهُ من النار**»(١).

قال أهلُ العلم: والقيامُ ثلاثةُ أقسام:

الأول: قِيامٌ إلى الرَّجُل.

الثاني: قِيَامٌ للرَّجل.

---

(١) أخرجه أبوداود، كتاب الأدب، باب في قيام الرجل للرجل، رقم(٥٢٢٩)، والترمذي، كتاب الأدب، باب ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل، رقم(٢٧٥٥)، وقال: حديث حسن. وأحمد في المسند (٤/ ٩٣، ١٠٠). وصححه الألباني وهو في صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري رقم(٧٤٨).

والثالث: قِيامٌ على الرَّجل.

فالقيام إلى الرَّجل: لا بأس به، وقد جاءتْ به السُّنةُ أمرًا وإقرارًا وفعلاً أيضاً.

أما الأمر: فإن النبيَّ ﷺ لمّا أقبلَ سعد بن معاذ رضي الله عنه عند تحكيمهِ في بني قريظةَ، قال النبيُّ عليه الصلاةُ والسلام: «**قُوموا إلى سَيِّدكُم**»(١) وكان سعد بن معاذ رضي الله عنه قد أُصيبَ في غزوة الأحزابِ في أكحله، والأكحلُ عِرْقٌ في الإبهام إذا انفجرَ ماتَ الإنسان، أُصيبَ به ـ رضي الله عنه ـ فدعا الله أن لا يُميتهُ حتى يَقَرّ عينهُ في بني قُريظة، وكانوا حُلفاء للأوس، وخانوا عهدَ النبيِّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ وصاروا مع الأحزابِ على رسولِ الله ﷺ. فلمَّا طُعِنَ سعدٌ قال: اللَّهم لا تُمتني حتى تقرَّ عيني ببني قُريظة، وكان من عُلُوِّ منزلته عند رسول الله ﷺ أن أمر النبيُّ ﷺ أن يُضْربَ له خِباءٌ في المسجد ـ أي خيمةٌ صغيرة ـ لأجْل أن يَعُودَهُ من قريب، فكان يَعُودهُ من قريب.

ولمَّا حصَلَتْ غزوة بني قريظة ورَضُوا أن يحكمَ فيهم سعد بن معاذ، أمر النبي ﷺ أن يَحْضُرَ سعْدٌ إلى بني قريظة، فجاءَ راكبًا على حِمَار؛ لأنه قد أنْهَكَه الجرح، فلمّا أقبلَ قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «**قُومُوا إلى سيِّدكُم**» فقاموا فأنزلوه، فقال النبيُّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ له: إنَّ هؤلاء ـ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة، رقم(٤١٢١)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد، رقم(١٧٦٨).

يعني اليَهُودَ ـ من بني قُرَيْظَةَ حَكَّموك. فقال رضي الله عنه: حُكْمي نافذٌ فيهم؟

قال نعم! وأقَرُّوا هم بِهِ، وقالوا: نعم حُكمُكَ نَافِذ، قال: وفيمن ها هنا ـ يشيرُ إلى الرسولِ ـ عليه الصلاة والسلام ـ والصحابة ـ قالوا: نعم، فقال: أحْكُم فيهم أنْ تُقتل مقاتلتهم، وتُسْبىٰ ذرِّيتهم ونِساؤهم، وتغنمَ أموالهم. حُكْمُ صَارِم، قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «**لقد حَكَمتَ فيهم بِحُكمِ الله مِن فَوقِ سَبْعِ سماوات**» رضي الله عنه.

فنفَّذَ النبيّ ﷺ حكمه، وقتلَ منهم سبعمائةِ رجل، وسبىٰ نساءهم وذريَّاتهم، وغنم أموالهم.

الشاهدُ قوله: «**قُوموا إلى سَيِّدكم**». هذا فعلُ أمْر، ولمَّا دخلَ كعبُ ابن مالك المسجدَ قام إليه طلحةُ بن عبيدالله والنبيُّ ﷺ يُشَاهدُ ولم يُنكرْ عليه.

ولمّا قدمَ وَفْدُ ثقيف إلى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالجعرانةِ بعد الغزْوة قام لهم ـ أو قام إليهم ـ عليه الصلاة والسَّلام، فالقيامُ إلى الرجلِ لا بأس به.

الثاني: القيامُ للرَّجل: وهذا أيضًا لا بأس به، لاسيَّما إذا اعتادَ الناس ذلك وصارَ الدَّاخلُ إذا لم تَقُمْ له يعدُّ ذلك امْتهانًا له، فإنَّ ذلك لا بأس به، وإن كان الأوْلَى تَرْكه كما في السنَّة، لكنْ إذا عتادَهُ الناسُ فلا حَرَج فيه.

الثالث: القيامُ عليه: كأنْ يكونَ جالسًا، ويقومَ واحدٌ على رأسهِ تعظيمًا له، فهذا مَنْهيٌّ عنه.

قال النبيُّ عليه الصلاةُ والسلام: «**لا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الأعَاجِم يُعظِّمُ بعضُهم بعضًا**»[١].

حتى إنَّهُ في الصلاةِ إذا صارَ الإمامُ لا يستطيعُ القيامَ وصلَّى جالسًا فإن المأمومين يُصلُّون جُلُوسًا، ولو كانوا يَقْدِرُون على القيام؛ لئلا يشبهوا الأعاجمَ الذين يَقُومون على ملوكهم»[٢].

فالقيامُ على الرَّجل مَنهيٌّ عنه، اللَّهُمَّ إلا إذا دَعتِ الحاجة إلى ذلك، كأن يُخاف على الرَّجُلِ أن يَعتديَ عليه أحدٌ فلا بأس أن يقومَ عليه القائم، وكذلك إذا قام عليه الرَّجل إكْرامًا له في حال يقصد فيه إكْرامُه وإهانةُ العَدوّ، مِثْلُ مَا حَصل من المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ في صُلْحِ الحديبيَّةِ حينما كانت قريشٌ تُراسلُ النبيَّ ﷺ للمُفاوضَة فيما بينهم، كان المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ واقفًا على رأسِ رسولِ الله ﷺ وبيده السَّيف تعظيمًا لرسول الله ﷺ وإهانةً لِرُسُلِ الكفَّارِ الذين يأتونَ للمُفاوضَة.

---

(١) أخرجه أبوداود، كتاب الأدب، باب في قيام الرجل للرجل، رقم(٥٢٣٠)، وابن ماجه، كتاب الدعاء، باب دعاء رسول الله ﷺ رقم(٣٨٣٦)، والإمام أحمد في المسند (٥/٢٥٣). وهذا الحديث حسنه الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٤٣١).

(٢) إشارة إلى حديث جابر رضي الله عنه قال: اشتكى رسول الله ﷺ فصلينا وراءه وهو قاعد، وأبوبكر يُسمع الناسَ تكبيره، فالتفت إلينا فرآنا قيامًا، فأشار إلينا فقعدنا، فصلينا قعودًا. فلما سلَّم قال: «**إن كدتم آنفًا لتفعلون فعل فارس والروم، يقومون على ملوكهم وهم قعود، فلا تفعلوا..**» أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب ائتمام المأموم بالإمام، رقم(٤١٣).

وفي هذا دليلٌ على أنَّه ينبغي لنا ـ نحن المسلمين ـ أن نغيظَ الكفّار بالقولِ وبالفعل؛ لأنّا هكذا أمرنا، قال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠]، ومن المؤسفِ أن منّا من يُدخلُ عليهم السُّرورَ والفرح، وربما يشاركهم في أعيادهم الكُفْريةِ التي لا يرضاها الله بل يسخط عليها، والتي يُخشى أن يُنزلَ العذابَ عليهم وهم يلعبون بهذه الأعياد. يوجد من الناس ـ والعياذ بالله ـ من لا قَدْر لِلدِّينِ عنده، كما قال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ في كتابه «أحكام أهل الذِّمة»: «من ليس عنده قَدْرٌ للدِّين يشاركهم في الأعيادِ ويهنِّئهم». وكيف يُدخِلُ السرورَ على أعداء الله وأعدائك؟! أدْخلْ عليهم ما يحزنهم ويُغيظهم ويدخلُ عليهم أشدَّ ما يكونُ من الضِّيق، هكذا أُمرنا؛ لأنهم أعداءٌ لنا وأعداءٌ لله ولدينهِ وللملائكةِ والنَّبيِّينَ والصِّديقينَ والشُّهداءِ والصَّالحين.

المهمُّ أن المغيرة بن شعبة وقفَ على رأس رسول الله ﷺ وبيده السَّيف تعظيمًا له حتى إنه في أثناءِ تلك المراسلةِ فعلَ الصَّحابةُ شيئًا لا يفعلونه في العادة، كان عليه الصلاة والسلام إذا تنخَّمَ تلقَّوا نُخامَتَه بأيديهم بالراحة، ثم يمسحون بها وجوههم وصدروهم، مع أنهم ما كانوا يفعلون هذا، لكن لأجل إذا ذهبَ رسولُ الكفّارِ إلى الكفّارِ بيَّنَ لهم حال الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ مع نبيِّهم عليه الصلاةُ والسلام.

ولذلك لمّا رجع رسول قريشٍ إلى قُريشٍ قال: والله لقد دخلتُ على

الملوك وكِسْرَى وقيصرَ والنجاشيِّ فلم أرَ أحدًا يُعَظِّمهُ أصحابهُ مِثْلما يعظِّمُ أصحابُ محمَّدٍ محمدًا، رضيَ الله عنهم وأرضاهم، وجزاهم الله عنَّا خيرًا.

المهمُّ أن القيام على الرَّجل إذا كان المقصود به حفظَ الرَّجل، أو كان المقصودُ به إغَاظَةَ العَدوّ، فإن هذا لا بأسَ به ولا حرج فيه، وإلا فهو منهيٌّ عنه.

ثالثًا: أن مَنْ أنعم الله عليه بنعمةٍ فإن من السُّنةِ أن يتصدَّق بشيءٍ من ماله، فإن النبيَّ ﷺ أقرَّ كعب بن مالك على أن يتصدَّقَ بشيءٍ من مالهِ توبةً إلى الله عزَّ وجلَّ لما حصلَ له من هذا الأمرِ العظيمِ الذي كان فخرًا له إلى يوم القيامة.

ثم ذكرَ كعب بن مالك أن من توبته أن لا يحدِّثَ بحديثٍ كذبٍ بعد إذ نجَّاه الله تعالى بالصِّدق، وما زال كذلك مَا حَدَّث بحديثٍ كذبٍ أبدًا بعد أن تاب الله عليه، فكان ـ رضي الله عنه ـ مَضْرَبَ المثلِ في الصِّدق، حتى إن الله أنزل فيه وفي صاحبيه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]، أنزلَ الله تعالى الآيات في بيانِ مِنَّته عليهم بالتَّوبة من قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ [التوبة: ١١٧]، ففي هذه الآيةِ أَكَّدَ الله سبحانه وتعالى توبته على النبيِّ والمهاجرينَ والأنصار، أكدها بقوله: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ ﴾.

فأمَّا النبيُّ فهو محمَّدٌ رسولُ الله ﷺ خاتمُ النَّبيِّين الذي غفرَ الله له ما تقدَّمَ من ذنبه وما تأخَّر، وأمَّا المهاجرونَ فهم الذين هاجروا من بلادهم من

مكةَ إلى المدينةِ، هاجروا إلى الله ورسوله، فجمعوا في ذلك بين الهجرةِ ومُفارقةِ الوطن ومفارقة الدِّيارِ وبين نُصْرةِ النبيِّ ﷺ؛ لأنهم إنَّما هاجروا إلى الله ورسوله، فالمهاجرون جمعوا بين الهجرةِ والنصرة.

أمَّا الأنصارُ فهم الذين تبوَّأوا الدَّارَ والإيمان مِنْ قَبْلهم، أهلُ المدينة ـ رضي الله عنهم ـ الذين آوَوا النبيَّ ﷺ ونصروهُ ومَنَعُوهُ ممّا يمنعونَ منه نِساءهم وأبناءهم. وقدَّمَ الله المهاجرين لأنهم أفضلُ من الأنصار؛ لجمعهم بين الهجرةِ والنُّصرة.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ وذلك في الخروجِ معه إلى غزوةِ تبوك، إلى بلادٍ بعيدة، والناسُ في أشدِّ ما يكونون من الحرِّ، والناسُ في أطيبِ ما يَكُونون لو بَقُوا في ديارهم؛ لأن الوقتَ وقتُ قيظ، والوقتَ وقتُ طيبِ الثمار وحسنِ الظِّلال، ولكنهم ـ رضي الله عنهم ـ خرجوا في هذه السَّاعة الحَرِجَةِ في ساعةِ العُسرة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ فإن بعضهم كاد أن يتخلفَ بدون عذر فيزيغَ قلبه، ولكن الله عزَّ وجلَّ منَّ عليهم بالاستقامة حتى خرجوا مع النبيِّ ﷺ.

وقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أكد ذلك مرَّةً أخرى ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ شملهم بالرأفةِ والرحمةِ، والرأفةُ أرقُّ من الرحمة؛ لأنها رحمةٌ ألطفُ وأعظمُ من الرَّحمة العامة.

ثم قال: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾.

والثَّلاثة: هم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أميَّة، هؤلاء هم الثلاثةُ الذين خلِّفوا رضي الله عنهم، وخُلِّفوا: أي خُلِّفَ البتُّ

في أمْرِهم، وليس المرادُ تخلَّفوا عن الغزوة، بل خَلَّفهم الرسولُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ لكي ينظرَ في أمرهم ماذا يكونُ حكمُ الله تعالى فيهم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ ضاقتْ عليهم الأرضُ مع سَعَتها، والرَّحْبُ هو السَّعة، والمعنى أن الأرضَ على سعتها ضاقتْ بهم. حتى قال كعب بن مالك: «لقد تنكرتْ ليَ الأرضُ حتى قلت: لا أدري، هل أنا في المدينةِ أو غيرها» من شدَّةِ الضيقِ عليهم، رضي الله عنهم.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ نفسُ الإنسانِ ضاقتْ عليه فهي لا تتحمَّلُ أن تبقى، ولكنهم صبروا ـ رضي الله عنهم ـ حتى فرَّجَ الله عنهم.

وقوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ [البقرة: ١١٨]، الظَّنُّ هنا بمعنى اليقين، أي أيقنوا أنَّه لا ملجأ من الله، أي: أنه لا أحدَ ينفعهم، ولا ملجأ من الله إلاَّ إلى الله، فالله بيدهِ كلُّ شيءٍ عزَّ وجلَّ.

وقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تابَ عليهم لينالوا مراتب التوبة التي لا ينالها إلا من وُفِّق، لا ينالها إلا أحبابُ الله، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

أمَّا أولئك الذين اعتذروا من المنافقينَ إلى الرسولِ ـ عليه الصلاةُ والسَّلام ـ واستغفرَ لهم ووكَّلَ سرائرهم إلى الله؛ فإن الله أنزلَ فيهم شرَّ ما أُنْزِل في بَشر فقال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ فلا تلومونهم ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ نعوذُ بالله رجس، الخمرُ رجس، القذرُ الذي يخرجُ من دُبُرِ الإنسانِ رجس، روثُ الحمير رِجْسٌ، هؤلاء مثلهم. ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٩٥]،

بئس المأوى والعياذُ بالله، إنَّهم ينتقلون من الدنيا إلى جهنم، نسألُ الله العافية، نارٌ حاميةٌ تطَّلِعُ على الأفئدة، مؤصدةٌ عليهم في عَمَدٍ مُمَدَّدة.

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ﴾ لأنكم لا تعلمون سرائرهم ولا يبدو لكم إلا الظواهر ﴿ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ لو رضيَ الناسُ عنك كلُّهم والله لم يرض عنك فإنه لا ينفعك إلا رضا الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الله إذا رضِيَ عنك أرْضىٰ عنك الناسَ وأمَالَ قلوبهم إليك، كَما جاء في الحديث: **«إنَّ الله إذا أحَبَّ عبدًا دعا جبريلَ فقال: إنِّي أحِبُّ فُلانًا فأحبَّه»** يُعَيِّن الله الرَّجل له فيحبُّه جبريل، **«ثمّ ينادي في السماءِ فيقول: إن الله يحبّ فلانًا فأحبُّوه، فيُحِبُهُ أهْلُ السَّماء، قال: ثم يُوضعُ لهُ القَبُول في الأرض»**[(١)] فيكونُ مَقْبولاً لدى أهْل الأرض.

كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٩٦].

لكنْ إذا التمسَ الإنسانُ رضا الناس بسخطِ الله فالأمرُ بالعكس، يسخطُ الله عليه ويسخطُ عليه الناس.

ولهذا لما تولَّى مُعَاويةُ ـ رضي الله عنه ـ الخلافةَ كتبتْ له عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالتِ: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: **«مَن الْتمسَ رضا الله بسَخَطِ الناسِ كفاهُ الله مُؤنةَ الناس، ومن التمسَ رضا الناسِ بسخطِ الله وكَلَهُ**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم، رقم(٣٢٠٩)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب إذا أحب الله عبدًا حببه لعباده، رقم(٢٦٣٧).

الله إلى الناس»[١] وما أكْثر الذين يَطْلبون رضا النَّاس بسخط الخالق عزَّ وجلَّ ـ والعياذ بالله ـ.

هؤلاء هم في سَخَطِ الله ولو رَضي عنهم الناس، فلا ينفعهم رضا الناس قال الله تعالى هنا: ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦]، حتى لو رضيَ عنهم النبيُّ ﷺ ـ أشرفُ الخَلق ـ ما نفعهم؛ لأن الله لا يرضى عن القومِ الفاسقين.

وفي هذه الآيةِ تحذيرٌ من الفِسْقِ، وهو ارْتِكَابُ المَعاصي التي أعظمُها الكفر، وكُلُّ فِسْقٍ فإنه يُنْقِص مِن رضا الله عن الإنسان بحسبه؛ لأن الحكمَ المُعَلَّقَ بالوَصفِ يزدادُ بزيادتِه وينقصُ بنقصانه، ويقوى بقوّته ويضْعفُ بضعفه. والفِسقُ سببٌ من أسبابِ عدم رضا الله ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ والفسقُ أنْواع كثيرة ومَرَاتبُ عظيمة. فعقوقُ الوَالدين من الفُسُوق، وقطيعةُ الرَّحم من الفسوق، وغشُّ الناس من الفُسُوق، والغدرُ بالعَهدِ من الفُسُوق، والكَذِبُ من الفُسوق، فكلُّ معصيةٍ من الفُسوق.

لكنَّ صَغَائرَ الذُّنوبِ تكفِّرها حسناتُ الأعمال إذا أصلحَ الإنسانُ الحسنات، كما قال الله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب منه، رقم(٢٤١٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم(٢٣١١).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ١١٤]، فإذا فعل الإنسانُ حسنةً أذهبت السيِّئة إذا كانت صغيرة. أمَّا الكبائرُ فلا ينفعُ فيها إلا التوبة.

على كلِّ حال: الفِسْقُ من أسباب انتفاء رضا الله عن العبد، والطاعةُ من أسبابِ الرِّضا، فالتزمْ طاعةَ الله إن كنت تُريد رِضاه، وإن كنتَ تُريد رضا النَّاس فأرضِ الله، إذا رضيَ الله عنك كفاك مؤنة الناسِ وأرضى الناسَ عنك، وإن أسخطتَ الله برضا الناس فأبشر بسخطِ الناسِ مع سخطِ الله، والعياذُ بالله.

وذكر - رضي الله عنه - أن النبيَّ ﷺ خَرجَ من المدينةِ في يوم الخميس، وكان يحبُّ أن يخرج في يوم الخميس، ولكنَّ ذلك ليس بدائم، أحْيانًا يخرجُ يومَ السَّبت، كما خرجَ في آخر سفرةٍ سَافَرها في حَجَّةِ الوداع، وربما يَخرجُ في أيَّامٍ أُخر، لكنَّ غالبَ ما يخرجُ فيه هو يومُ الخميس.

وذكرَ أنَّ النبيَّ ﷺ عادَ إلى المدينةِ ضُحًى، وأنَّه دخلَ المسجدَ فصلَّى فيه ركعتين، وكان هذا من سنَّته ﷺ أنَّه إذا قدمَ بلدَهُ لم يبدأ بشيء قبل المسجد.

وهاتان الركعتان تشملُ كلَّ الوقت، حتى أوقات النَّهي؛ لأنها صلاة سَبَبيَّة، فليس عنها نَهْيٌ، في أيِّ وقتٍ وُجِدَ سَبَبُها حَلَّ فعْلُها.

فينبغي إذا قدمَ الإنسانُ إلى بلدِهِ أنْ يبدأَ قبل كلِّ شيءٍ بالمسجد. وقد تقدَّمَ ذكرُ ذلك.

* * *

٢٢ ـ وَعَنْ أَبِي نُجَيْدٍ ـ بِضَمِّ النُّونِ وَفَتْحِ الجِيْمِ ـ عِمْرَانَ بنَ الحُصَيْنِ الخُزَاعِيِّ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَاـ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ أَتَتْ نَبِيَّ اللهِ ﷺ وَهِيَ حُبْلَى مِنَ الزِّنَى، فَقَالَتْ: يَاْ نَبِيَّ اللهِ، أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ، فَدَعَا نَبِيُّ اللهِ ﷺ وَلِيَّها فَقَالَ: «أَحْسِنْ إليْهَا، فَإِذَا وضَعَتْ فَأْتِنِي» فَفَعَلَ، فَأَمَرَ بهَا نَبيُّ اللهِ ﷺ فَشُكَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: تُصَلِّيْ عَلَيْهَا يَا نَبِيَّ اللهِ وَقَدْ زَنَتْ؟ قَالَ: لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أهْلِ المدينةِ لَوسِعتْهُم، وهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لله تَعَالَى؟!»[١]. [رواه مسلم].

الشرح

قال المؤلِّف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه: إنَّ امرأة جاءت إلى النبي ﷺ «وهِيَ حُبْلى مِنَ الزِّنا» يعني حَامِلاً قد زنَت، رضي الله عنها.

«فقالت: يا رسول الله؛ إنّي قد أصبتُ حدًّا فاقِمْهُ عَليَّ» أي: أَصَبْتُ شيئًا يوجِبُ الحدَّ فأقمه عليَّ، فدعا النبيُّ ﷺ وَلِيَّها وأَمَرَهُ أن يُحسنَ إليها فإذا وَضَعَتْ فليأتِ بها إلى رسول الله ﷺ، فلما وضعتْ أتى بها وليُّها إلى النبيِّ ﷺ، «فَأَمَرَ بِهَا فَشُدَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا» أي: لُفَّت ثيابها ورُبِطت لِئَلا تنكشِفَ «ثُمَّ أَمَرَ بِها فَرُجِمَتْ» أي: بالحجارة: وهي ليست كبيرة ولا صغيرة، حتى ماتت، ثم صلَّى عليها النبي ﷺ، ودعا لها دُعاء الميِّت: «فقالَ لَهُ عُمَرُ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، رقم (١٦٩٦).

تَصَلِّي عَلَيْهَا يَا رَسُوْلَ اللهِ وَقَدْ زَنَتْ» أيْ: والزِّنى من كبائر الذنوب، فقال: «لقد تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِّمَتْ عَلَى سَبْعِيْنَ مِنْ أَهْلِ المَدِيْنَةِ لَوَسِعَتْهُمْ» يعني: توبةً واسعة لو قسِّمت على سبعين كلُّهم مُذنب لِوسِعتهم ونفعتهم، «وَهَلْ وَجَدْتَ أَفْضَلَ مِنَ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لله عَزَّ وَجَلَّ» أيْ: هل وَجَدْتَ أفضلَ مِن هذه الحال؛ امرأة جاءت فجادت بنفسها؛ يعني: سَلَّمَتْ نفسَهَا من أجل التقرُّب إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والخُلُوصِ مِنْ إثمِ الزِّنى. ما هناك أَفْضَلُ مِنْ هذا؟!

ففي هذا الحديث دليلٌ على فوائدَ كثيرة:

منها: أنَّ الزاني إذا زنى وهو مُحصَنٌ ـ يعني قد تزوَّج ـ فإنَّه يجب أن يُرجم وُجوبًا؛ وقد كان هذا في كِتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ آيةً قرأها المسلمون وحفظوها ووعوها ونفّذوها، رَجَمَ النبيُّ ﷺ ورَجَم الخُلَفاءُ من بعده، ولكنَّ اللهَ بحكمتهِ نَسخَها من القرآن لفظًا وأبقى حُكْمَهَا في هذه الأمة. فإذا زنى المُحصَنُ ـ وهو الذي قد تزوج ـ فإنه يُرجم حتى يموتَ. يُوقفُ في مكان واسع، ويجتمع الناس، ويأخذون من الحصى يَرْمونهُ بِهِ حتى يموتَ.

وهذه من حِكمة الله عزَّ وجلَّ، أي: أنَّه لم يأمر الشَّرْعُ بِأَنْ يُقْتَلَ بالسَّيف وينتهي أمرُه، بل يُرجم بهذه الحجارة حتى يتعذب ويذوق ألم العذاب في مقابِلِ ما وَجَدَهُ مِنْ لذّة الحرام؛ لأنَّ هذا الزّاني تلَذذ جميعُ جَسَدِهِ بالحرام، فكان من الحكمة أن ينال هذا الجسد من العذاب بقدر ما نال من اللذَّة.

ولهذا قال العلماء رحمهم الله: إنه لا يجوز أن يُرْجم بالحجارة الكبيرة؛ لأنَّ الحجارة الكبيرة تُجْهِزُ عليه ويموت سريعًا فيستريحُ، ولا

بالصَّغيرةِ جدًّا لأنَّ هذه تؤذيهِ وتُطِيلُ مَوْته. ولكن بِحَصًى متوسِّط حتى يذوق الألم ثم يموتَ.

فإذا قال قائل: أليس قد قال النبي ﷺ: «**إِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحسِنُوا القِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ**»[١]، والقِتْلَةُ بالسَّيْفِ أريَحُ للمَرْجُومِ مِنَ الرَّجْمِ بالحِجَارة؟

قُلْنا: بَلى قد قالَهُ الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، لكن إحسان القِتْلةِ يكون بموافقتها للشرع، فالرَّجْمُ إِحسانٌ لأنه موافق للشرع؛ ولذلك لو أنَّ رجلاً جانِيًا جنى على شخصٍ فقتلهُ عَمْدًا وَعَزَرَ بهِ قبل أنْ يَقْتُلَهُ فإنَّنا نُعزِّرُ بِهذا الجاني إذا أردنا قتله قبل أن نَقْتُله.

مثلاً: لَو أنَّ رجلاً جانيًا قتل شخصًا فقطَّع - مثلاً - يديهِ، ثم رجليه، ثم لسانه، ثم رأسه. فإننا لا نقتُل الجانيَ بالسيف!! بل نَقطعُ يديه، ثم رجليه، ثم لسانه، ثم نقطع رأسه مِثْلَمَا فَعَلَ، ويعتبر هذا إحسانًا في القِتلة؛ لأنَّ إحسانَ القتلة أنْ يكون موافقًا للشرع على أي وجهٍ كان.

وفي هذا الحديث دليل على جوازِ إقرار الإنسان على نفسه بالزنى؛ من أجل تطهيره بالحدِّ لا من أجل فضحه نفسه.

فالإنسان الذي يتحدث عن نفسه أنه زنى، عند الإمام أو نائبه؛ من أجل إقامة الحد عليه، هذا لا يُلام ولا يُذمُّ.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفر، رقم (١٩٥٥).

وأما الإنسان الذي يخبر عن نفسه بأنه زنى، يخبر بذلك عامة الناس؛ فهذا فاضح نفسه وهو من غير المعافين؛ لأنَّ الرسول ﷺ يقول: «**كلُّ أُمَّتي مُعافى إلاَّ المُجاهِرِين**. قالوا: مَنْ المُجَاهِرون؟ قال: **الَّذِيْ يَفْعَلُ الذَّنْبَ ثُمَّ يَسْتُرُهُ اللهُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصْبِحُ يَتَحَدَّثُ بِهِ**»[1].

إذا قال قائِلٌ هل الأفضل للإنسان إذا زنى أن يذهب إلى القاضي ليقر عنده، فيقام عليه الحدّ، أوِ الأَفْضَلُ أن يستُرَ نفسه؟، فالجواب عن هذا أن في ذلك تفصيلاً.

قد يكون الإنسان تاب توبة نصوحًا، وندم، وعرف من نفسه أنه لن يعود؛ فهذا الأفضل أن لا يذهب ولا يخبر عن نفسه، بل يجعل الأمرَ سرًّا بينه وبين الله، ومن تابَ تابَ اللهُ عليه.

وأما من خاف أن لا تكون توبته نَصُوحًا، وخاف أن يعود ويرجع إلى الذنب مرة أخرى؛ فهذا الأفضلُ في حقِّه أن يذهب إلى وليِّ الأمر، أو إلى القاضي أو غيره، ليُقرَّ عندَهُ فيقام عَليهِ الحدُّ.

* * *

٢٣ ـ وَعَنْ ابن عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَ لابنِ آدم مِلْء وَادٍ مالاً؛ لأحبَّ أنَّ لَهُ إلَيْهِ مِثْلَهُ ولا يَمْلأُ عينَ ابنِ آدَمَ، إلاَّ التُّرَابُ، ويَتُوبُ الله عَلَى مَنْ تابَ»[2]. [متفق عليه].

---

(١) تقدم تخريجه ص (٨٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يُتقى من فتنة المال، رقم (٦٤٣٦، ٦٤٣٧)، مسلم، كتاب الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديَين لابتغى ثالِثًا، رقم (١٠٤٩).

٢٤ ـ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ قال: «يَضْحَكُ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ وتعالَى ـ إلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أحَدُهُما الآخَرَ يَدْخُلانِ الجَنَّةَ، يُقاتِلُ هذا في سبيلِ الله فَيُقْتَلُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ عَلَى القاتِلِ. فيُسْلِمُ فَيُسْتَشْهَدُ»(١). [متفق عليه].

الشرح

هذان الحديثان في بيان التوبة، وأنَّ مَن تاب تاب الله عليه مهما عظُم ذنبه؛ لأنَّ الله تعالى قال في كتابه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

فالحديثُ الأولُ عن عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما ـ ومعناهُ: أنَّ ابن آدم لن يشبع من المال، ولو كانَ لَهُ وادٍ واحدٌ «لابْتَغَىٰ» أي: طلب أن يكون له واديان، ولا يملأُ جوفَهُ إلا التراب؛ وذلك إذا مات ودُفن وترك الدُّنيا وما فيها؛ حينئذٍ يقتنعُ؛ لأنَّها فاتته، ولكنْ مع ذلك حثَّ الرسول ﷺ على التوبة؛ لأنَّ الغالب أنَّ الذي يكون عنده طمع في المال؛ أنَّه لا يحترز من الأشياء المحرَّمة من الكسب المحرم.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسِّير، باب الكافر يقتلُ المُسْلِمَ ثُمَّ يُسْلِمُ، رقم (٢٨٢٦)، ومسلم، كتاب الجهاد، باب بيان الرجلين يقتل أحدُهما الآخر يدخلان الجنة، رقم (١٨٩٠).

ولكن دواء ذلك بالتوبة إلى الله ولهذا قال: «وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ» فمن تاب من سيئاته ـ ولو كانت هذه السيئات مما يتعلق بالمال ـ فإن الله يتوب عليه.

أما الحديث الثاني فهو عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النبي ﷺ قال: «يَضْحَكُ اللهُ إِلَى رَجُلَيْنِ . . . الحديث».

فضحك الله إلى هذين الرجلين؛ لأنه كان بينهما تمام العداوة في الدنيا؛ حتى إن أحدهما قَتَلَ الآخر، فَقَلَبَ الله هذه العداوة التي في قلب كل واحد منهم، وأزال ما في نفوسِهما من الغلِّ؛ لأنَّ أهل الجنة يطهرون من الغل والحقد؛ كما قال الله ـ تعالى ـ في وَصْفِهِمْ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

فهذا وجه العَجَبِ مِنَ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ لهذين الرجلين أنَّه كان بينَهُمَا تمامُ العداوة، ثم إنَّ الله ـ تعالى ـ مَنَّ على هذا القاتل الذي كان كافرًا فتابَ، فتابَ اللهُ عليه.

ففيه دليل: على أنَّ الكافر إذا تاب من كُفْره ـ ولو كان قد قتل أحدًا من المسلمين ـ فإنَّ الله ـ تعالى ـ يتوب عليه؛ لأنَّ الإسلام يَهْدِمُ ما قبله.

* * *

٣- باب الصَّبر

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [محمد: ٣١]، والآيات في الأمر بالصبر وبيانِ فضله كثيرةٌ معروفةٌ.

الشرح

الصبر في اللغة: الحبْسُ.

والمراد به في الشرع: حَبْسُ النفس على أمور ثلاثة:

الأول: على طاعة الله.

الثاني: عن محارم الله.

الثالث: على أقدار الله المؤلمة. هذه أنواع الصبر التي ذكرها أهل العلم.

الأمر الأول: أنْ يصبر الإنسان على طاعة الله لأنَّ الطاعة ثقيلة على النفس، وتصعب على الإنسان، وكذلك ربَّما تكون ثقيلة على البدن بحيثُ يكون مع الإنسان شيء من العجز والتَّعب، وكذلك أيضًا يكون فيها مشقَّة من الناحية المالية؛ كَمَسْألةِ الزكاة ومسألة الحج، فالطاعات فيها شيء من المشقَّة على النفس والبدن، فتحتاج إلى صبرٍ، وإلى معاناةٍ، قال الله

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

الأمر الثاني: الصبر عن محارم الله بحيث يكفُّ الإنسان نفسَهُ عمَّا حرَّم الله عليه. لأنَّ النفس الأمارة بالسُّوء تدعو إلى السوء، فَيُصَبِّر الإنسانُ نفسَهُ. مثل الكذبِ، والغشِّ في المعاملات، وأكلِ المال بالباطل بالرِّبا أو غيره، والزنا، وشرب الخمر، والسرقة، وما أشبه ذلك من المعاصي الكثيرة.

فَيَحْبِسُ الإنسانُ نفسه عنها حتى لا يفعلها، وهذا يحتاج أيضًا إلى معاناة، ويحتاج إلى كف النَّفس والهوى.

أما الأمرُ الثالث: فهو الصبر على أقدار الله المؤلمة؛ لأنَّ أقدار الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على الإنسان ملائمةٌ ومؤلمة.

الملاءَمةُ: تحتاج إلى الشُّكر، والشكر من الطاعات؛ فالصَّبر عليه من النوع الأول.

ومؤلِمَةٌ: بِحَيْثُ لا تُلائمُ الإنسانَ تكونُ مؤلمةً؛ فيُبْتلى الإنسان في بدنه، ويُبتلى في ماله بفقده. ويُبتلى في أهله، ويُبْتلى في مجتمعه، وأنواع البلايا كثيرةٌ تحتاج إلى صبر ومُعاناةٍ. فَيُصَبِّرُ الإنسانُ نفسَهُ عمَّا يحرُمُ عليه من إظهار الجزع باللِّسان، أو بالقلب، أو بالجوارح. لأنَّ الإنسان عند حلول المصيبةِ له أربعُ حالات:

الحالةُ الأولى: أن يتسخَّط.

والحالة الثانية: أن يصبر.

والحالة الثالثة: أن يرضى.

والحالة الرابعة: أن يشكر.

هذه أربعُ حالاتٍ تكون للإنسان عندما يُصاب بالمصيبة.

أما الحال الأولى: أن يتسخط إمَّا بقلبه، أو بلسانه، أو بجوارحه.

التسخط بالقلب: أن يكون في قلبه ـ والعياذُ بالله ـ شيءٌ على ربِّه من السخطِ والشرَه على الله ـ والعياذُ بالله ـ وما أشبهه. ويشعر وكأن الله قد ظلمه بهذه المصيبة.

ـ وأما السخط باللسان: فأنْ يدعُوَ بالوَيلِ والثُّبور؛ يا ويلاه يا ثبوراه، وأن يسُب الدَّهر فيؤذي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وما أشبه ذلك.

ـ وأما التسخط بالجوارح: مثل أن يلطِمَ خدّه، أو يَصفع رأسه، أو يَنْتِفَ شعره، أو يشقَّ ثوبه وما أشبه هذا.

هذا حال السخط؛ حالُ الهَلِعِيْنَ الَّذين حُرِمُوا الثَّواب، ولم ينجوا من المصيبة، بل الذين اكتسبوا الإثم. فصار عندهم مصيبتان؛ مُصيبةٌ في الدِّين بالسَّخط، ومصيبة في الدُّنيا بما أتاهم ممَّا يؤلمهم.

أما الحال الثانية: فالصبر على المصيبة بأن يحبِسَ نفسهُ، هو يكره المصيبة، ولا يحبها، ولا يحب أَنْ وقعت، لكن يُصَبِّرُ نفسهُ؛ لا يتحدث باللسان بما يُسْخِطُ الله، ولا يفعل بجوارحه ما يُغضبُ الله، ولا يكون في قلبه شيءٌ على الله أبدًا، فهو صابر لكنه كاره لها.

والحال الثالثة: الرِّضا؛ بأنْ يكون الإنسان منشرحًا صدرُهُ بهذه المصيبة، ويرضى بها رضاءً تامًا وكأنه لم يصب بها.

والحال الرابعة: الشُّكر؛ فيشكر الله عليها، وكان النبي عليه الصلاة والسلام إذا رأى ما يكرهُ قال: «**الحمد لله على كل**

حال»[١].

فيشكرُ الله من أجل أن الله يُرتِّب لهُ من الثواب على هذه المصيبة أكثرَ ممَّا أصابه.

ولهذا يُذكر عن بعض العَابدات أنَّها أُصيبت في أصبعها؛ فحمدت الله على ذلك، فقالوا لها: كيف تَحْمَدِينَ الله والأصبع قد أصابه ما أصابه، قالت: إنَّ حلاوةَ أجرِهَا أنستني مرارة صبرِهَا. والله الموفِّق.

ثمَّ ساق المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ الآيات التي فيها الحثُّ على الصَّبر والثناءُ على فاعليه، فقالَ: وَقول الله سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فأمرَ الله المؤمنين بمقتضى إيمانهم، وبشرف إيمانهم بهذه الأوامر الأربعة: ﴿ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فالصبر عن المعصية، والمصابرة على الطاعة، والمرابطةُ كثرةُ الخيرِ وتتابعُ الخير، والتقوى تَعُمُّ ذلك كله. ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

فاصبروا عن محارمِ الله: لا تفعلوها، تجنبوها ولا تقربوها.

ومِن المعلوم أنَّ الصبر عن المعصية لا يكون إلا حيث دعَتْ إليه النفس، أما الإنسان الذي لم تطرأ على باله المعصية فلا يقال إنه صبر عنها، ولكن إذا دَعَتْكَ نفسك إلى المعصية فاصبِر، واحبِسِ النَّفسَ.

وأما المُصابرةُ فهِي على الطَّاعة؛ لأنَّ الطاعة فيها أمران:

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم (٣٨٠٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٢٧).

الأمر الأول: فعل يتكلَّفُ به الإنسانُ ويُلزِمُ نفسه به.

والأمر الثاني: ثِقلٌ على النَّفس؛ لأنَّ فِعل الطاعةِ كتركِ المعصيةِ ثقيلٌ على النفوس الأمَّارة بالسوء.

فلهذا كان الصبر على الطاعة أفضلَ من الصَّبرِ عن المعصية؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿صَابِرُوا﴾ كأنَّ أحدًا يُصابرك كما يُصابر الإنسان عدوه في القتال والجهاد.

وأما المرابطة فهي كثرة الخير والاستمرار عليه، ولهذا جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِسْبَاغُ الوُضُوْءِ عَلَى المَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الخُطَا إلى المَسَاجِدِ، وانتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّباطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ**»(١). لأنَّ فيه استمرارًا في الطاعة وكثرة لِفعلها.

وأما التقوى فإنَّها تشمل ذلك كلَّه، لأنَّ التقوى اتخاذ ما يقيْ من عقاب الله، وهذا يكون بفعل الأوامر واجتناب النواهي.

وعلى هذا فعطفها على ما سَبَقَ من باب عطف العام على الخاص، ثم بيَّن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنَّ القيام بهذه الأوامر الأربعة سَببٌ للفلاح فقال ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

والفلاحُ كلمةٌ جامعة تدور على شيئين: على حُصُولِ المطلوبِ، وعلى النجاة من المَرْهوب. فمن اتَّقى اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ حَصَل له مطلوبُهُ ونَجَا مِنْ مَرْهوبه.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، رقم (٢٥١).

وأما الآية الثانية فقال ـ رحمه الله ـ: وقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥]، هذه الآية فيها قَسَمٌ من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ يَختَبِرَ العِباد بهذه الأمور.

فقولُه: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم ﴾ أي: لنختَبِرَنَّكُمْ.

﴿ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ ﴾ لا الخوفِ كلِّه بل بشيء منه؛ لأنَّ الخوف كله مُهلِكٌ ومدمر. لكن بشيء منه.

«**الخوف**» هُوَ فَقْدُ الأمن؛ وهو أعظم من الجوع، و لهذا قدَّمه الله عليه، لأنَّ الإنسانَ الجائِعَ ربما يتعلَّل ويذهَبُ يَطْلُبُ، وَلَوْ كان لِحَاءَ شجر. لكنَّ الخائف ـ والعياذُ بالله ـ لا يستقر لا في بيته ولا في سوقه، والخائف أعظمُ من الجائع؛ ولهذا بدأ الله به فقال ﴿ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ ﴾ وأَخْوَفُ ما نخاف منه ذُنوبُنا؛ لأنَّ الذُّنوب سبَبٌ لكل الويلات، وسببٌ للمخاطر، والمخاوف، والعقوبات الدِّينية، والعقوبات الدنيوية.

«**وَالْجُوْع**» يُبتلى بالجوع.

والجوعُ يحمل معنَيَيْنِ:

المعنى الأول: أن يُحدث الله ـ سبحانه ـ في العباد وباءً؛ هو وباء الجوع، بحيثُ يأكل الإنسان ولا يشبع، وهذا يمرُّ على الناس، وقد مرَّ بهذه البلاد سنة معروفة عند العامة تسمَّى سنةَ الجوع. يأكل الإنسان الشَّيءَ الكثير ولكنَّه لا يشبع ـ والعياذ بالله ـ أبدًا. نُحدَّثُ أنَّ الإنسان يأكُلُ من التمر مِخْفرًا كامِلاً في آنٍ واحد ولا يشبع ـ والعياذ بالله ـ ويأكل الخبز الكثير ولا

يشبع لِمرضٍ فيه. هَذا نوعٌ من الجوع.

النوع الثاني مِنَ الجوع: الجدب والسنون المُمحِلة التي لا يدر فيها ضرع ولا ينمو فيها زرعٌ، هذا من الجوع.

وقوله ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَالِ﴾ يعني: نقْص الاقتصاد، بحيثُ تُصاب الأمة بقلة المادة والفقر، ويتأخَّر اقتصادها، وتُرْهَقُ حكومتُها بالديون التي تأتي نتيجة لأسبابٍ يقدِّرها الله - عزَّ وجلَّ - ابتلاءً وامتحانًا.

وقوله ﴿وَالأَنْفُسِ﴾ أي: الموت؛ بحيثُ يحِلُّ في الناس أَوْبِئَةٌ تهُلكهم وتَقْضي عليهم. وهذا أيضًا يحدث كثيرًا، ولقد حُدِّثنا أنَّه حدث في هذه البلاد - أي البلاد النجديَّة - حدث فيها وباء عظيم تُسمَّى سنتُه عند العامَّة (سنة الرحمة) إذا دخل الوباء في البيت لم يبق منهم أحد إلا دُفن - والعياذ بالله -، يدخُلُ في البيت فيه عشرة أنفس أو أكثر، فيُصاب هذا بمرضٍ، ومِنْ غدٍ الثاني والثالث والرابع، حتى يموتوا عن آخِرهم وحُدِّثنا أنَّهُ قَدِمَ هذا المسجِدَ - مسجد الجامع الكبير بعنيزة - وكان الناس بالأول في قرية صغيرة، ليس فيها ناسٌ كثير كما هو الحال اليوم، يُقدَّمُ أحيانًا في فرْضِ الصلاة الواحد سبعٌ إلى ثمانِ جنائزَ، نعوذ بالله من الأوبئة. هذا أيضًا نقصٌ من الأنفس.

وقوله: ﴿الثَّمَرَاتِ﴾ أي: أن لا يكون هناك جُوعٌ، ولكن تنقص الثمرات، تُنزَعُ بركتُها في الزرُوع والنخيل وفي الأشجار الأخرى، والله - عزَّ وجلَّ - يبتَلِي العباد بهذِه الأمورِ ليذِيقهم بعض الذي عَمِلوا العلَّهم يرجعُون.

فيقابل الناسُ هذه المصائبَ بدرجات متنوعة؛ بالتسخط، أو بالصبر، أو بالرِّضا، أو بالشكر كما قلناه فيما سبق. والله الموفِّق.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[الزمر: ١٠].

﴿ يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ أي: يُعطى الصابرون ﴿ أَجْرَهُم ﴾ أي: ثوابهم.

وقوله: ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ وذلك أنَّ الأعمال الصالحة مضاعفةٌ؛ الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبع مائة ضعفٍ إلى أضعاف كثيرة.

أما الصَّبرُ فإنَّ مضاعفته تأتي بغير حساب من عند الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ وهذا يدلُّ على أنَّ أجره عظيم، وأنَّ الإنسان لا يُمكن أن يتصور هذا الأجر؛ لأنَّه لم يقابل بعدد، بل هو أمر معلوم عند الله ولا حساب فيه، لا يُقال مثلاً الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبع مائة ضعف، بل يُقال إنَّه يُوفَّى أجره بغير حساب. وفي هذه الآية من التَّرغيب في الصَّبر ما هو ظاهر. ثم قال المؤلف:

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣]، أي: أنَّ الذي يصبر على أذى النَّاس ويحتملهم ويغفر لهم سيئاتهم التي يُسيئون بها إليه؛ فإنَّ ذلك ﴿ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ أي: من مَعْزُوْماتها وشدائدها التي تحتاج إلى مُقابلة ومُصابرة. ولاسيَّما إذا كان الأذى الذي ينال الإنسانَ بسببِ جهادِهِ في الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وبسبب طاعته؛ لأنَّ أذية الناس لكَ لها أسباب متعددة متنوعة. فإذا كان سببها طاعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، والجهاد في سبيله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ فإن الإنسان يُثاب على ذلك من وجهين:

الوجه الأول: من الأذية التي تَحصُلُ له.

والوجه الثاني: صبرُهُ على هذه الطاعة التي أُوذيَ في الله مِن أجلها.

وفي هذه الآية حثٌّ على صبْر الإنسان على أذيَّةِ الناس، ومغفرتهِ لهم ما أساؤوا إليه فيه. ولكن ينبغي أن يعلم أنَّ المغفرة لِمنْ أساءَ إليكَ ليست محمودةً على الإطلاق؛ فإنَّ الله تعالى قيَّد هذا بأنْ يكون العفو مقرونًا بالإصلاح فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، أما إذا لم يكن في العفو والمغفرة إصلاحٌ فلا تعفُ ولا تغفر.

مثال ذلك: لو كان الذي أساءَ إليك شخصًا معروفًا بالشرِّ والفَساد، وأنك لو عفوت عنه لكان في ذلك زيادة في شرِّه.

ففي هذه الحال الأفضل أن لا تعفو عنه، بل تأخذ بحقك من أجل الإصلاح. أما إذا كان الشَّخص إذا عفوتَ عنه لم يترتَّب على العفو عنه مفسدة؛ فإن العفو أفضل وأحسن؛ لأنَّ الله يقول: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وإذا كان أجرك على الله لكان خيرًا لك من أن يكون ذلك بمُعاوَضَةٍ تأخذُ من أعمال صاحبك الصالحة.

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن نستعين على الأمور بالصبر عليها، لأنَّ الإنسان إذا صبر وانتظر الفرج من الله سهُلت عليه الأمور.

فأنت إذا أصبت بشيء يحتاج إلى الصبر فاصبر وتحمَّل «واعْلم أنَّ النصر مع الصبر، وأنَّ الفرج مع الكَرْبِ، وأنَّ مع العسر يسرًا»[١].

وأما الصلاة فإنها تعين على الأمور الدِّينية والدنيوية، حتى إنَّ الرسول ـ

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢٩٣).

عليه الصلاة والسلام - ذكر عنه: «أَنَّهَ إذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَزِعَ إلى الصَّلاة»[(١)].

وَبَيَّنَ الله في كتابه أنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فإذا استعان الإنسان بالصلاة على أموره يسر الله له ذلك، لأنَّ الصلاة صِلةٌ بين العبد وبين ربه، فيقف الإنسان فيها بين يدي الله، ويُناجيه، ويدْعوه، ويتقرَّب إليه بأنواع القُرُبات التي تكون في هذه الصلاة؛ فكانت سببًا للمعونة.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ يعني بذلك المعيَّة الخاصة، لأنَّ معية الله ـ سبحانه وتعالى ـ تنقسم إلى قسمين:

١ ـ معيَّة عامة شاملة لكل أحد، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤]، وفي قوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٧].

وهذه المعيَّة العامَّة شاملة لجميع الخلق، فما مِنْ مخلوق إلا والله ـ تعالى ـ معه يعلمه، ويحيط به سلطانًا وقدرة وسمعًا وبصرًا وغير ذلك.

٢ ـ أما المعيَّة الخاصة فهي المعية التي تقتضي النصر والتأييد؛ وهذه خاصة بالرسل وأتباعهم، ليستْ لكلِّ أحد، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ وما أشبه ذلك من

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره رقم (٨٤٩) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾، وأخرجه أبوداود، كتاب التطوع، باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل، رقم (١٣١٩)، وأحمد في المسند (٥/٣٨٨) بلفظ: «كان إذا حزبه أمر صلّى» وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٧٠٣).

الآيات الدالة على هذه المعيَّة الخاصَّة.

ولكن المعيتين كلتيهما لا تدلان على أنَّ الله ـ سبحانه ـ مع الناس في أمكنتهم، بل هو مع الناس، وهو ـ عزَّ وجلَّ ـ فوق سماواته على عرشه، ولا مانع من ذلك؛ فإنَّ الشيء يكون فوق وهو معك. والعرب يقولون: ما زِلنا نسيرُ والقمرُ معنا. وكلٌّ يعلم أنَّ القمر في السماء، ويقولون: ما زِلنا نسير وسُهَيلٌ معنا ـ وهو نجم معروف ـ وهو في السماء. فما بالُكَ بالخالق ـ عزَّ وجلَّ ـ، هو فوق كل شيءٍ اسْتوى على عرشه، ومع ذلك هو محيطٌ بكلِّ شيء مع كلِّ أحد. مهما انفردتَ فإنَّ الله ـ تعالى ـ محيطٌ بك؛ علمًا وقُدرة وسُلطانًا وسمعًا وبصرًا وغير ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ الله يُعين الصَّابر ويُؤيِّده ويكْلأه حتى يتم له الصبر على ما يحبُّه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾: لَنَخْتَبِرَنَّكُم: فالابتلاءُ بمعنى الاختبار، أو البلوى بمعنى الاختبار.

يعني: أنَّ الله اختبر العبادَ في فرض الجهاد عليهم؛ لِيعلَمَ من يصبر ومن لا يصبر؛ ولهذا قال الله ـ تعالى ـ في آية أخرى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ ـ ٦].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ قد يتوهَّم بعضُ من قَصُر علمه

أن الله ـ سبحانه ـ لا يعلمُ الشيء حتى يقع ؛ وهذا غير صحيح ؛ فالله ـ تعالى ـ يعلمُ الأشياء قبل وقوعها ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٠].

ومن ادَّعى أنَّ الله لا يعلمُ بالشيء إلا بعد وقوعه ؛ فإنَّه مكذِّب لهذه الآية وأمثالها من الآيات الدالة على أن الله ـ تعالى ـ قد علم الأشياء قبل أن تقع ! !

لكن العِلم الذي في هذه الآية ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ ﴾ هو العلم الذي يترتَّب عليه الثواب أو العقاب ؛ وذلك لأن علم الله بالشيء قبل أن يكونَ لا يترتبُ عليه شيء من جهةِ فعل العبد ؛ لأنَّ العبد لم يُبْلَ به حتى يتبين الأمر . فإذا بُلي به العبد واختبر به ؛ حينئذٍ يتبين أنَّه استحق الثواب أو العقاب ، فيكون المراد بقوله : ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ ﴾ أي : عِلْمًا يترتب عليه الجزاء .

وقال بعض أهل العلم : المراد بقوله ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ ﴾ أي : علم ظهور ، يعني حتى يظهر الشيء ؛ لأنَّ علم الله بالشيء قبل أن يكون علمٌ بأنه سيكون ، وعلمه بعد كونِهِ علمٌ بأنه كان . وفرقٌ بين العِلْمين .

فالعلمُ الأول علم بأنه سيكون ، والثاني علم بأنه كان .

ويظهر لك الفرق لو أنَّ شخصًا قال لك : سوف أفْعل كذا وكذا غدًا فالآن حصل عندك علمٌ بما أَخبر به ، ولكن إذا فعله غدًا صار عندك علم آخر ؛ أي : علم بأن الشيء الذي حدَّثك أنه سيفعله قد فعله فعلاً . فهذان وجهان في تخريج قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ﴾ .

الوجه الأول : أن المراد به العلم الذي يترتب عليه الثواب أو العقاب ، وهذا لا يكون إلا بعد البلوى ، بعد أنْ يبتلي الله العبد ويختبره .

الوجه الثاني: أنَّ المراد به علم الظهور؛ لأن علم الله بالشيء قبل أن يكون علمٌ بأنه سيكون، فإذا كان، صار علمه تعالى بهِ علمًا بما كان.

وقوله: ﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ المجاهد: هو الذي بذل جُهده لإعلاء كلمة الله، فيشمل المهجاهد بِعلْمه، والمجاهد بالسِّلاح، فكلاهما مجاهد في سبيل الله. فالمجاهد بعلمه: الذي يتعلَّم العلم ويُعلِّمه ويَنْشُره بين الناس، ويجعل هذا وسيلةً لتحكيم شريعة الله، هذا مجاهدٌ. والذي يحمل السِّلاح لقتال الأعداء هو أيضًا مُجاهد في سبيل الله، إذا كان المقصود في الجهادَين أن تكون كلمة الله هي العليا.

وقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: الَّذين يصبِرون على ما كُلِّفوا فيه من الجهاد ويتحملونه ويقومون به.

وقوله: ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي: نختبرها وتتبيَّن لنا وتظهر لنا ظهورًا يترتَّب عليه الثواب والعقاب.

لمَّا ذكر الله هذا الابتلاء قال ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، والخطاب للنبي ﷺ، ولكلِّ من يبلغه هذا الخطاب، يعني: بَشِّر يا محمد، وبَشِّر يا من يَبْلغُهُ هذا الكلامُ الصابرينَ الذين يصبرون على هذه البلوى فلا يقابلونها بالتَّسخط وإنما يقابلونها بالصَّبر. وأكملُ من ذلك أن يُقابلوها بالرِّضا، وأكمل من ذلك أن يقابلوها بالشكر. كما مرّ علينا أن المصاب بالمصائبِ مِن أقدار الله المؤلمة له أربع حالات: تسخُّطٌ، وصبرٌ، ورضاً، وشكر، وهنا قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦].

وقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ﴾ إذا أصابتهم مصيبة اعترفوا لله - عزَّ وجلَّ - بعموم ملكه، وأنهم مُلك لله، ولله أن يفعل في ملكه ما شاء؛ ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - لإحدى بناته، قال لها: «**إنَّ للهِ مَا أَخَذَ ولَهُ مَا أَعْطَى**»[1]، فأنت مُلكٌ لربِّك - عزَّ وجلَّ - يفعل بك ما يشاء حسب ما تقتضيه حكمته تبارك وتعالى.

ثم قال: ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ يعترفون بأنهم لابد أنْ يرجعوا إلى الله فيجازيهم. إنْ تسخَّطوا جازَاهم على سَخَطِهِمْ، وإن صبروا - كما هو شأن هؤلاء القوم - فإن الله تعالى يجازيهم على صبرهم على هذه المصائب. فيبتلي - عزَّ وجلَّ - بالبلاء ويثيب الصابر عليه.

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧]، أولئك: يعني الصابرين ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ والصلوات جمع صلاة وهي ثناء الله عليهم في الملأ الأعلى، يثني الله عليهم عند ملائكته.

وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ الذين هداهم الله - عزَّ وجلَّ - عند حلول المصائب فلم يتسخطوا وإنما صبروا على ما أصابهم. وفي هذه الآية دليل على أن صلاة الله - عزَّ وجلَّ - ليست هي رحمته، بل هي أخصُّ وأكمل وأفضل، ومَنْ فسَّرها من العلماء بأنَّ الصلاة من الله الرحمة، ومن

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ «**يُعذَّبُ الميتُ ببعضِ بكاءِ أهلهِ عليه**»، رقم (١٢٨٤)، ومسلم، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، رقم (٩٢٣).

الملائكة الدُّعاء، ومن الآدميين الاستغفار؛ فإنَّ هذا لا وجه له، بل الصلاة غيرُ الرَّحمة؛ لأنَّ الله تعالىٰ عطف الرحمة على الصلوات، والعطف يقتضي المغايرة. ولأنَّ العلماء مُجْمِعُونَ على أنك يجوز لك أن تقول لأي شخص من المؤمنين: اللهم ارحم فلانًا:

واختلفوا؛ هل يجوز أنْ تقول: اللهمَّ صلِّ عليه. أو لا يجوز؛ على أقوالٍ ثلاثةٍ:

- فمنهم من أجازها مُطْلقًا، ومنهم من منَعَهَا مُطلقًا، ومنهم من أجازها إذا كانت تبعًا.

والصحيح أنها تجوز إذا كانت تَبَعًا، كما في قوله «**اللهم صلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آل مُحَمَّد**»، أو لم تكن تبعًا ولكن لها سبب؛ كما قال الله ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، فإذا كان لها سبب، ولم تُتَّخَذْ شِعارًا؛ فإن ذلك لا بأس به. فلا بأس أن تقولَ: اللهم صلِّ على فلان، فلو جاءك رجل بزكاته وقالَ لك خذ زكاتي وفَرقها على الفقراء، فَلَكَ أنْ تقول: صلى الله عليك، تدعو له بأن يصلي الله عليه كما أمر الله نبيه بذلك.

* * *

٢٥ - وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الحَارِثِ بنِ عَاصِمٍ الأَشْعَرِيِّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيْمَان، والحَمْدُ للهِ تَمْلأُ المِيزَانَ، وسُبْحَانَ الله والحَمْدُ للهِ تَمْلآن - أوْ تَمْلأُ - مَا بَيْنَ السَّماواتِ والأرْضِ، والصَّلاةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، والصَّبْرُ ضِياءٌ، والقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أوْ عَلَيْكَ.

كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها، أوْ مُوبِقُها»[1]. [رواه مسلم].

الشرح

سبق لنا الكلام على الآيات التي ساقها المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ في الصَّبر وثوابه والحثِّ عليه، وبيانِ محلِّه، ثُمَّ شَرَعَ رحمه الله في بيان الأحاديث الواردة في ذلك.

فذكر حديث أبي مالك الأشعري ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النبي ﷺ قال: الطُّهُوْرُ شَطْرُ الإِيْمَانِ» الحديثُ، إلى قولِهِ «والصَّبْرُ ضِياءٌ» فبيَّن النبيُّ ﷺ في هذا الحديث أنَّ الصبر ضياء؛ يعني أنه يضيء للإنسان، عندما تَحْتَلِكُ الظُّلمات وتشتدُّ الكُرُبَات، فإذا صبر؛ فإنَّ هذا الصبر يكون له ضياءً يَهديه إلى الحق.

ولهذا ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنَّه من جملة الأشياء التي يُستعان بها، فهوَ ضياءٌ للإنسان في قلبه، وضياءٌ له في طريقه ومنْهاجه وعمله؛ لأنه كلَّما سار إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على طريق الصَّبر؛ فإنَّ الله ـ تعالى ـ يزيده هدىً وضياءً في قلبه ويبصِّره؛ فلهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «الصبر ضياء».

أمَّا بقيَّة الحديثِ؛ فقال عليه الصلاة والسلام: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيْمَانِ».

الطُّهُور: يعني بذلك طهارة الإنسان.

شَطْرُ الإيمان: أي نصف الإيمان.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣).

وذلك لأن الإيمان تَخْلِيَةٌ وتَحْلِيَة.

أي: تبرُّؤٌ من الشرك والفسوق، تبرؤٌ من المشركين والفُسَّاق بحسب ما معهم من الفسق، فهو تخلٍّ.

وهذا هو الطُّهور؛ أن يتطهر الإنسان طهارة حِسِّية ومعنوية من كل ما فيه أذىٰ. فلهذا جعله النبي عليه الصلاة والسلام شطر الإيمان، «وسبحان الله» معناها: تنزيه الله عزَّ وجلَّ عمَّا لا يليق به مِن العيوب ومماثلة المخلوقات.

فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ مُنزَّه عن كل عيب في أسمائه، وصفاته، وأفعاله، وأحكامه. لا تجد في أسمائه اسمًا يشتمل على نقص أو على عيب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ولا تجدُ في صفاته صفة تشتمل على عيبٍ أو نقصٍ؛ ولهذا قال الله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ بعد قوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ [النحل: ٦٠]، فالله عزَّ وجلَّ له الوصف الأكمل الأعلى من جميع الوجوه، وله أيضًا الكمال المنزه عن كلِّ عيبٍ في أفعاله، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨]، فليس في خَلْق الله لعبٌ ولهوٌ وإنما هو خلقٌ مبنيٌّ على الحكمة.

كذلك أحكامهُ لا تجدُ فيها عيبًا ولا نقصًا، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وقوله ﷺ: «سُبْحَانَ اللهِ والحَمْدُ للهِ تَمْلآنِ ـ أَوْ قَالَ تَمْلأُ ـ مَا بَيْنَ

السَمَاواتِ وَالأَرْضِ» شكٌّ من الراوي: هل قال النبي ﷺ: تملآن ما بين السمواتِ والأرض، أو قال تملأ ما بين السموات والأرض.

والمعنى لا يختلف. يعني أنَّ سبحان الله والحمد لله تملأ ما بين السماوات والأرض؛ وذلك لأنَّ هاتين الكلمتين مُشتملتان على تنزيه الله عن كلِّ نقْصٍ في قوله «**سُبْحَانَ اللهِ**» وعلىٰ وصف الله بكلِّ كمال في قوله: «**وَالحَمْدُ لِلَّهِ**».

فقد جمعت هاتان الكلمتان بين التَّخليةِ والتَّحْليةِ كما يقولون؛ أي بين نفي كل عيبٍ ونقصٍ، وإثباتِ كلِّ كمالٍ، فسبحان الله فيها نفي النقائص، والحمدُ لله فيها إثبات الكمالات.

فالتسبيح: تنزيهُ اللهِ عمَّا لاَ يليقُ بِهِ في أسمائِه، وصفاتِه، وأفعاله، وأحكامه.

والله - عز وجل - يُحمد على كل حالٍ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام إذا أصابه ما يُسرُّ به قال: «**الحَمْدُ للهِ الَّذي بِنعْمَتِهِ تَتمُّ الصَّالِحَات**» وإذا أصابهُ سِوى ذلك قال: «**الحمدُ للهِ علىٰ كُلِّ حَالٍ**»[1] ثم إن ها هنا كلمةً شاعت أخيرًا عند كثير من الناس؛ وهي قولهم: «الحمدُ لله الذي لا يُحمدُ على مكْرُوهٍ سِواه».

هذا الحمدُ ناقصٌ!!

لأنَّ قولَكَ على مَكْروهٍ سِواه تعبير يدل على قلَّة الصَّبر، أو - على

---

(١) تقدم تخريجه ص (١٧٤ - ١٧٥).

الأقلّ ـ على عدم كمال الصبر، وأنك كارهٌ لهذا الشيء، ولا ينبغي للإنسان أن يُعبِّر هذا التعبير، بل الذي ينبغي له أنْ يعبِّر بما كان النبي ﷺ يُعبِّر به؛ فيقول «**الحمدُ للهِ علىٰ كُلِّ حَالٍ**»، أو يقول: «**الحَمْدُ للهِ الذِي لا يُحْمدُ على كُلِّ حَالٍ سِوَاه**».

أما أن يقول: على مكروه سواه؛ فهذا تعبير واضح على مُضَادة ما أصابهُ مِن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأنه كاره له.

وأنا لا أقول: إنَّ الإنسان لا يَكْره ما أصابه من البلاء، فالإنسان بِطَبِيْعَتِهِ يكره ذلك، لكِنْ لا تُعْلن هذا بِلِسَانك في مقام الثَّنَاء على الله، بل عبِّر كما عبَّر النبي ﷺ «**الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ**».

قوله ﷺ: «والصلاة نُور».

فالصلاة نورٌ: نورٌ للعبد في قلبه، وفي وَجْهه، وفي قَبْرِه، وفي حَشْرِه، ولهذا تجد أكثر الناس نورًا في الوجوهِ أكثرَهُمْ صلاةً، وأخشعهم فيها لله عزَّ وجلَّ.

وكذلك تكون نورًا للإنسان في قلبه؛ تفتح عليه باب المعرفة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وباب المعرفة في أحكام الله، وأفعاله، وأسمائه، وصفاته، وهي نور في قبر الإنسان؛ لأنَّ الصلاة هي عَمُود الإسلام، إذا قام العمود قام البناء، وإذا لم يَقُم العمود فلا بناء.

كذلك نورٌ في حَشْره يوم القيامة؛ كما أخبر بذلك الرسول ﷺ «**أَنَّ مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهانًا وَنَجَاةً يومَ القِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ تَكُنْ لَهُ نُورًا وَلاَ بُرْهَانًا وَلاَ نَجاةً يوم القيامةِ، وَحُشِرَ مَعَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ**

وَقَارُوْنَ وَأُبَيِّ بنِ خَلَفٍ»[1].

فهي نورٌ للإنسان في جميع أحواله، وهذا يقْتضي أن يحافظ الإنسانُ عليها، وأن يحرِصَ عليها، وأن يُكْثِرَ مِنْها حتى يكثُرَ نوره وعلمه وإيمانه.

وأمَّا الصبرُ فقَالَ: «إنَّهُ ضِيَاءٌ». فيه نور؛ لكن نورٌ مع حرارةٍ، كما قال الله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

فالضَّوء لابدَّ فِيْهِ مِنْ حرارةٍ، وهكذا الصَّبر، لابدَّ فيه من حرارة وتعب؛ لأنَّ فيه مشقة كبيرة؛ ولهذا كان أجرُهُ بغير حِساب.

فالفرق بين النُّور في الصلاة والضِّياء في الصبر، أَنَّ الضِّياء في الصبر مصْحُوب بحرارة؛ لِمَا في ذلك من التَّعب القلبيِّ والبدنيِّ في بعض الأحيان.

وقوله «الصَّدَقَةُ بُرهَانٌ».

الصَّدقة: بذل المال تقرُّبًا إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فيبذل المال على هذا الوجه للأهل، والفقراء، والمصالح العامَّة؛ كبناء المساجد وغيرها؛ بُرهاناً على إيمان العَبْد؛ وذلك أن المال محبوب إلى النُّفوس، والنفوس شَحِيْحَةٌ بِهِ، فإذا بذلَه الإنسان لله؛ فإن الإنسان لا يبذل ما يحب إلا لما هو أحبُّ إليه منه. فيكون في بذل المال لله ـ عزَّ وجلَّ ـ دليلٌ على صدق الإيمان وصحته.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ١٦٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٢٩٧): رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط. ورجال أحمد ثقات.

ولهذا تجدُ أكثرَ الناس إيمانًا بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ وبإخلافه؛ تجدُهُم أكثرهم صدقة.

ثمَّ قالَ النبي عليه الصلاة والسلام: «**والقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ**» لأنَّ القرآن هو حبل الله المتين، وهو حجَّة الله على خلقه، فإمَّا أن يكون لكَ، وذلك فيما إذا تَوَصَّلْتَ به إلى الله، وقمت بواجب هذا القرآن العظيم من التصديق بالأخبار، وامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، وتعظيم هذا القرآن الكريم واحترامه. ففي هذه الحال يكون حُجَّة لك.

أما إن كان الأمر بالعكس؛ أهنْتَ القُرآن، وهَجرته لفظًا ومعنًى وعملاً، ولم تَقُم بواجبه؛ فإنه يكون شاهدًا عليكَ يوم القيامة.

ولم يذكر الرسول ﷺ مرتبةً بين هاتين المرتبتين!

يعني: لم يذْكر أن القرآن لا لك ولا عليك؛ لأنَّه لابدَّ أنْ يكون إمَّا لك وإمَّا عليك على كلِّ حالٍ. فنسأل الله أنْ يجعله لنا جميعًا حجةً نهتدي به في الدنيا وفي الآخرة؛ إنه جواد كريم.

قوله: «**كلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نفْسَهُ فمُعْتِقُهَا أو مُوبِقُهَا**».

أي: كلُّ الناس يبدأ يومه من الغدوة بالعمل، وهذا شيء مُشاهد. فإنَّ الله ـ تعالى ـ جعل الليل سكنًا وقال ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، فهذا النوم الذي يكون في اللَّيل هو وفاة صُغرىٰ، تهدأ فيه الأعصاب، ويَستريح فيه البدن، ويسْتَجدُّ نشاطه للعمل المُقبل، ويستريح من العمل الماضي.

فإذا كان الصَّباح ـ وهو الغُدوةُ ـ سارَ الناس واتَّجهُوا كلٌّ لِعَمَله.

فمنهم من يتَّجه إلى الخير؛ وهم المسلمون، ومنهم من يتجه إلى الشرِّ؛ وهم الكفار والعياذ بالله.

المسلم أوَّل ما يغدو يتوضَّأ ويتطهَّر «**والطُّهُورُ شَطْرُ الإِيْمَانْ**» كما في هذا الحديث، ثُمَّ يذهب فيصلي، فيبدأ يومه بعبادةِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ؛ بالطهارة، والنَّقاء، والصلاة؛ التي هي صلة بين العبد وبين ربه، فيفتتح يومه بهذا العمل الصالح، بل يفتتحه بالتوحيد؛ لأنه يُشرع للإنسان إذا استيقظ من نومه أن يذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأن يقرأ عشرَ آيات من آخر سورة آل عمران وهي قوله: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ إلى آخر السورة: ١٩٠ ـ ٢٠٠، هذا المسلم. هذا الذي يغدو في الحقيقة وهو بائعٌ نفسه، لكن هل باعها بيعًا يعتقها فيه؟!

نقولُ: المسلم باعها بَيْعًا يعْتِقُها فيه؛ ولهذا قال «**فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا**» هذا قسمٌ.

«أو موبقها» معناها: بائع نفسه فَمُوبقها. الكافر يغدو إلى العمل الذي فيه الهَلاك؛ لأنَّ معنى«**أَوْبَقَهَا**»: أهلكها. وذلك أن الكافر يبدأ يومه بمعصية الله، حتى لو بدأ بالأكل والشُّرب؛ فإن أكله وشربه يُعاقب عليه يوم القيامة، ويحاسب عليه.

كلُّ لُقمة يرفعها الكافر إلى فمه فإنَّهُ يُعاقب عليها، وكلُّ شربةٍ يبتلعها من الماء فإنَّه يُعاقَبُ عليها، وكلُّ لباس يلبسه فإنه يُعاقب عليه.

والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأعراف: ٣٢]، للذين

آمنوا لا غيرهم.

﴿ خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ يعني: ليس عليهم من شوائِبها شيءٌ يوم القيامة. فمفهوم الآية الكريمة ﴿ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أنَّها لغير المؤمنين حَرَامٌ، وأنَّها ليست خالصة لهم يوم القيامة، وأنهم سَيُعاقبون عليها.

وقال الله في سورة المائدة؛ وهي من آخر ما نزل: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ ﴾ [المائدة: ٩٣]، فمفهوم الآية الكريمة: أنَّ على غير المؤمنين جُناح فيما طَعِموه.

فالكافر من حين ما يُصبح ـ والعياذ بالله ـ وهو بائعٌ نفسَهُ فيما يُهلِكُها، أمَّا المؤمن فبائعٌ نفسه فيما يُعْتقها ويُنجِّيها من النار. نسأل الله أن يجعلنا جميعًا منهم.

في آخر هذا الحديث بيَّن رسول الله ﷺ أنَّ الناس ينقسمون إلى قسمين:

فسم يكون القرآن حُجَّةً لهم؛ كما قال: «والقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ».

وقسم يعتِقون أنفُسَهُم بأعمالهم الصالحة.

وقسم يُهلكونها بأعمالهم السيِّئة. والله المُوفِّق.

* * *

٢٦ ـ وَعَنْ أَبِيْ سَعِيْدٍ سَعْدِ بْنِ مَالِكِ بنِ سِنَانٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُوْلَ اللهِ ﷺ فأعْطَاهُم، ثُمَّ سَأَلُوْهُ فَأَعْطَاْهُم، حَتَّى نَفِدَ مَاْ عِنْدَه، فَقَالَ لَهُمْ حِيْنَ نَفِدَ كُلُّ شَيءٍ أَنْفَقَ بِيَدَيْهِ: «مَا

يَكُنْ عِنْدي مِن خَيْرٍ فلَنْ أدَّخِرَهُ عَنْكُم، ومَنْ يَسْتعْفِفْ يُعفَّهُ الله، ومَنْ يَسْتغْنِ يُغْنِهِ الله، ومَنْ يَتصبَّرْ يُصبِّرْهُ الله. ومَا أُعْطِيَ أحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وأوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»[1]. [متفق عليه].

الشرح

كان من خُلق الرسول الكريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنَّه لا يُسأل شيئًا يجده إلا أعطاه، وما عُهِد عنه أنه ﷺ مَنَعَ سائلاً، بل كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، ويعيش في بيته عَيْشَ الفقراء، وربما ربط على بطنه الحجر من الجوع.

فهو عليه الصلاة والسلام أكرمُ الناس وأشجعُ الناس.

فلما نفد ما في يده أخبرهم أنَّه ما من خير يكون عنده فلن يدخره عنهم؛ أي: لا يمكن أن يدَّخر شيئًا عنهم فيمنَعَهُمْ، ولكن ليس عنده شيء.

ثم حثَّ النبي ﷺ على الاستعفاف والاستغناء والصبر، فقال: «وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعفَّه اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهـ عَزَّ وجَلَّ».

هذه ثلاثة أمور:

أولاً: من يستغن يغنه الله؛ أي: من يستغن بما عند الله عما في أيدي الناس؛ يغنه الله عزّ وجلَّ. وأمَّا من يسأل الناس ويحتاج لما عندهم؛ فإنه

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، رقم (١٤٦٩)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل التعفف والصبر، رقم (١٠٥٣).

سيبقى قلبُهُ فقيرًا ـ والعياذ بالله ـ ولا يَسْتَغْني.

والغِنى غنى القلب، فإذا استغنىٰ الإنسان بما عند الله عمَّا في أيدي النَّاس؛ أغناهُ الله عن الناس، وجَعَلهُ عزيز النَّفس بعيدًا عن السُّؤال.

ثانيًا: مَنْ يَسْتعفِفْ يعفَّه الله؛ فمن يستعففْ عمَّا حرَّم الله عليه من النساء يُعفَّه الله عزَّ وجلَّ.

والإنسانُ الذي يُتْبعُ نفْسَهُ هواها فيما يتعلق بالعفة فإنه يهلكُ والعياذ بالله؛ لأنه إذا أتْبَع نفسه هواها وصار يَتَتَبَّع النِّساء؛ فإنه يهلك، تزني العين، تزني الأُذن، تزني اليد، تزني الرِّجل، ثم يزني الفرج؛ وهو الفاحشة والعياذ بالله.

فإذا استعفَّ الإنسان عن هذا المحرَّم أعفَّه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحَماهُ وحَمى أهْله أيضًا.

ثالثًا: من يتصبّر يصبِّره الله؛ أي يُعطيه الله الصَّبرَ.

فإذا تصبرت، وحبَسْت نفسك عمَّا حرم الله عليك، وصبرت على ما عندك من الحاجة والفقر ولم تلح على الناس بالسؤال؛ فإنَّ الله ـ تعالى ـ يُصبِّرك ويُعينُك على الصبر. وهذا هو الشاهد من الحديث؛ لأنه في باب الصبر.

ثم قال النبي ﷺ «**وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطاءً خَيْرًا وأوْسَع مِنَ الصَّبر**» أي: ما منَّ الله على أحدٍ بعطاء من رزق، أو غيرِه؛ خيرًا وأوسع من الصبر؛ لأنَّ الإنسان إذا كان صبورًا تحمّل كل شيء. إنْ أصابته الضرَّاء صبَر، وإنْ عرض له الشَّيطان بفعل المحرَّم صبر، وإنْ خذَّله الشيطان عن ما أمرَ اللهُ صبرَ.

فإذا كان الإنسان قد منَّ الله عليه بالصَّبر؛ فهذا خير ما يُعطاهُ الإنسان، وأوسعُ ما يُعطاه، ولذلكَ تجدُ الإنسانَ الصَّبور لَو أوذي من قِبل الناس، لو سمع منهم ما يكره، لو حصل منهم اعتداءٌ عليه، تجده هادئَ البال، لا يتصلَّب، ولا يغضب، لأنه صابر على ما ابتلاه الله به؛ فلذلك تجد قلبَهُ دائمًا مطمئنًا ونفسَهُ مستريحة.

ولهذا قال الرسول ﷺ «**ما أُعْطِيَ أَحَدٌ عطاءً خيرًا وأوسعَ من الصَّبر**» والله الموفِّق.

* * *

٢٧ - وَعَنْ أَبِي يَحْيَى صُهَيْبِ بن سِنَانٍ رضي الله عنه قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «عَجَبًا لأمْرِ المؤمنِ إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمُؤْمِنْ: إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فكانَ خيرًا لَهُ، وإنْ أصابَتْهُ ضرَّاء صبَرَ فكَانَ خيرًا له»[(١)]. [رواه مسلم].

الشرح

قال المؤلِّف ـ رحمه الله ـ فيما نقله عن صهيب الرومي: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «**عَجَبًا لأمْرِ المؤمِنِ إنَّ أَمْرَهُ كُلَّه لَهُ خَيْرٌ**» أي: إنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام أظْهَرَ العَجَبَ على وجه الاستحسان «**لأَمْرِ المُؤْمِنِ**» أيَ: لِشأنه. فإنَّ شأنه كلَّه خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩).

ثم فصَّل الرسول عليه الصلاة والسلام هذا الأمر الخير، فقال: «"إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صبرَ فكَانَ خَيْرًا لهُ» هذه حال المؤمن. وكلُّ إنسانٍ؛ فإنَّه في قضاء الله وقدره بين أمرين:

إِمَّا سَرَّاء، وإمَّا ضرَّاء، والناس في هذه الإصابة ـ السرَّاء أو الضرَّاء ـ ينقسمون إلى قِسمين:

مؤمنٌ وغير مؤمن، فالمؤمن على كُلِّ حال ما قدَّر اللهُ لهُ فهو خير له، إنْ أصابته الضرَّاءُ صَبرَ على أقدار الله، وانتظر الفَرَجَ من الله، واحتسب الأَجْرَ على الله؛ فكان ذلك خيرًا له، فنال بهذا أجرَ الصَّائمين.

وإنْ أصابته سرَّاء من نعمةٍ دينيةٍ؛ كالعلمِ والعمل الصَّالح، ونعمةٍ دنيوية؛ كالمال والبنين والأهل شَكَرَ الله، وذلك بالقيام بطاعة الله. لأنَّ الشُّكر ليس مجرّد قولِ الإنسانِ: أشْكُرُ اللهَ، بل هو القيام بطاعةِ الله ـ عزَّ وجلَّ.

فيشكرُ اللهَ فيكونُ خيرًا لهُ، ويكونُ عليه نعمتان: نعمةُ الدِّينِ، ونعمةُ الدُّنيا.

نعمةُ الدُّنيا بالسرَّاء، ونعمةُ الدِّين بالشُّكر، هذه حالُ المؤمنِ، فهوَ على خيرٍ، سواء أصيب بسراء، أو أصيب بضراء.

وأمَّا الكافر فهو على شرٍّ ـ والعياذ بالله ـ إنْ أصابته الضرَّاء لم يصبر، بل تضجر، ودَعَا بالويل والثُّبور، وسبَّ الدَّهر، وسَبَّ الزَّمن، بل وسبَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ ونعوذ بالله.

وإن أصابته سرَّاء لم يشكر الله، فكانت هذه السرَّاء عقابًا عليه في الآخرة؛ لأنَّ الكافرَ لا يأكل أكلةً، ولا يَشْرب شَرْبة إلاَّ كان عليه فيها إثم،

وإن كان ليسَ فيها إثمٌ بالنِّسْبة للمؤمن، لكن على الكافر إثمٌ، كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف: ٣٢]، هي للذين آمنوا خاصَّة، وهي خالِصة لهم يوم القيامة، أمَّا الذين لا يؤمنون فلَيْست لهم، ويأكلونها حرامًا عليهم، ويُعاقَبون عليها يوم القيامة.

فالكافر شَرٌّ، سواء أصابته الضرَّاء أم السرَّاء، بخلاف المؤمن فإنَّه على خير.

وفي هذا الحديثِ: الحثُّ على الإيمان، وأنَّ المؤمن دائمًا في خير ونعمة.

وفيه أيضًا: الحثُّ على الصَّبْرِ على الضرَّاء، وأنَّ ذلك من خصال المؤمنين. فإذا رأيتَ نفسك عند إصابة الضرَّاء صابرًا مُحتسبًا، تنتظِرُ الفرج من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتحتَسِبُ الأجر على الله؛ فذلك عنوان الإيمان، وإن رأيت العكس فلُمْ نفسك، وعدِّل مسيرك، وتُب إلى الله.

وفي هذا الحديث أيضاً: الحث على الشُّكر عند السراء؛ لأنَّهُ إذا شكر الإنسان ربَّه على نعمة فهذا من توفيق الله له، وهو من أسباب زيادة النِّعم، كما قال الله تعالى ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧]، وإذا وفَّق الله الإنسان للشُّكرِ؛ فهذه نعمة تحتاجُ إلى شُكرِهَا مرَّة ثانية، فإذا وُفِّقَ فهي نِعْمة تحتاج إلى شكرِها مرةً ثالثة... وهكذا؛ لأنَّ الشُّكر قَلَّ من يَقُوم به، فإذا مَنَّ الله عليك وأعانَك عليه فهذه نعمة.

ولهذا قال بعضهم:

إذَا كَـانَ شُكْـرِي نِعْمَـةَ الله نِعْمَـة عَليَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْـفَ بُلُـوغُ الشُّكْـرِ إلاَّ بِفَضْلِـه وإن طَالَتِ الأَيَّامُ واتَّصَلَ العمرُ

وصدقَ ـ رحمه الله ـ فإنَّ الله إذا وفقك للشُّكر فهذه نعمة تحتاج إلى شكر جديد، فإن شكرت فهي نعمة تحتاج إلى شكر ثانٍ، فإن شكرت فهي نعمة تحتاج إلى شكر ثالث. وهلم جرّا.

ولكننا - في الحقيقة - في غفلة عن هذا. نسأل الله أن يُوقظ قُلوبنا وقلوبكم، ويصْلح أعْمالنا وأعمالكم؛ إنَّه جواد كريم.

* * *

٢٨ ـ وَعَنْ أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَال: لمَّا ثَقُل النَّبِيُّ ﷺ جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ، فَقَالَتْ فاطِمَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: وَا كَرْبَ أَبَاه. فَقَالَ: «لَيْسَ عَلَى أَبِيْكِ كَرْبٌ بَعْدَ اليَوْمِ». فَلمَّا مَاتَ قالَتْ: يا أبْتَاهُ أجَابَ رَبًّا دَعاهُ، يَا أَبْتَاهُ مَنْ جنَّةُ الفِرْدَوْسِ مَأوَاه، يَا أبتاه إلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهُ، فَلَمَّا دُفِنَ قالَتْ فَاطِمَة عَلَيها السَّلام: يا أَنَسُ، أطَابَتْ أنْفُسُكُمْ أنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ التُّرابَ؟[1] [رواه البخاري].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، رقم (٤٤٦٢).

الشرح

قال المؤلِّفُ ـ رحمه الله تعالى ـ فيما رواهُ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنَّ فاطمة بنت محمد ﷺ لما ثقل رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه «جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ الكَرْبُ» أي: من شدَّة ما يُصِيبُهُ جعل يُغشىٰ عليه من الكرب؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام يُشدَّد عليه الوعك والمرض؛ كان يُوعك كما يوعكُ الرَّجُلان مِنَ النَّاس.

والحكمةُ في هذا؛ من أجل أن يَنَال ﷺ أعْلى درجات الصَّبر. فإن الصبر منزلة عالية، لا يُنال إلا بامتحان واختبار من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ؛ لأنه لا صبر إلاَّ على مكروه.

فإذا لم يُصب الإنسان بشيء يكره فكيف يعرفُ صبرهُ؛ ولهذا قال الله تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [محمد: ٣١]، فكان النبي ﷺ يُوعك كما يوعك الرجلان من الناس.

فجعل يتغشَّاه الكربُ، فتقول فاطمة ـ رضي الله عنها ـ «واكَرْبَ أَبَاه» تتوجع له من كربه؛ لأنَّها امرأة، والمرأة لا تطيق الصَّبر.

فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «لا كَرْبَ عَلَى أبيك بَعْد اليوم» لأنه ﷺ لما انتقل من الدنيا انتقَلَ إلى الرفيق الأعلى، كما كان ﷺ ـ وهو يغشاه الموت ـ يقولُ «اللَّهُمَّ في الرَّفيق الأعلى، اللَّهُمَّ في الرفيق الأعلى»[1] وينظر

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب آخر ما تكلم به النبي ﷺ، رقم (٤٤٦٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عائشة رضي الله عنها، =

إلى سقف البيت ﷺ.

تُوفي الرسول عليه الصلاة والسلام، فجعلت - رضيَ الله عنها - تَنْدبُه، لكنَّه نَدْبٌ خفيف، لا يدلُّ على التَّسخط من قضاء الله وقدره.

وقولها «أجاب ربًّا دعاهُ» لأنَّ الله - سبحانه وتعالى - هو الذي بيده ملكوت كل شيء، آجالُ الخلق بيده، تصريفُ الخلق بيده، كل شيء إلى الله، إلى الله المنتهى وإليه الرُّجعى.

فأجاب داعي الله؛ وهو أنَّه ﷺ إذا توفي صار كغيره من المؤمنين، يُصعد بِرُوحه حتَّى توقف بين يدي الله - عزَّ وجلَّ - فوق السَّماء السابعة. فقالت: وا أبتاهُ، أجابَ ربًّا دعاه.

وقولها: «وَا أَبَتَاهُ جَنَّةُ الفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُ» ﷺ لأنه عليه الصلاة والسلام أعلى الخلق منزلةً في الجنة، كما قال النبي ﷺ «اسْأَلُوا اللهَ لِيَ الوَسِيْلَةَ؛ فإنَّهَا مَنْزِلَةٌ في الجنَّةِ لاَ تَنْبَغِيْ إلاَّ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ»[1]. ولا شكَّ أن النبي ﷺ مأوَاهُ جنةُ الفردوس، وجنة الفردوس هي أعلى درجات الجنة، وسقفُها الذي فوقَها عرشُ الرَّبِّ جَلَّ جلاله، والنبيُّ عليه الصلاة والسلام في أعلى درجة منها.

قولها: «يَا أبتاهُ، إِلَىٰ جِبْرِيْلَ نَنْعاهُ» النَّعي: هوَ الإخبار بموت الميت،

= رقم (٢٤٤٤).

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب القول مثل قول المؤذن لِمن سمعه، رقم (٣٨٤).

وقالت: إننا ننعاه إلى جبريلَ؛ لأنَّ جبريل هو الذي كان يأتيه بالوحي صباحًا ومساءً.

فإذا فُقد النبي عليه الصلاة والسلام؛ فُقِدَ نزول جبريل عليه الصلاة والسلام إلى الأرض بالوحي؛ لأنَّ الوحي انقطع بموت النبي ﷺ.

ثمَّ لمَّا حُمِلَ ودُفن قالت رضي الله عنها: «**أَطَابَتْ أَنْفُسُكُم أنْ تحثوا عَلَى رسولِ اللهِ ﷺ التُّرابَ؟**» يعني مِنْ شِدَّةِ وجْدِها عليه، وحزنها، ومعرفتها بأنَّ الصحابة - رضي الله عنهم - قد ملأ قلوبهم محبَّة الرسول عليه الصلاة والسلام فهل طابت؟

والجواب: أنَّها طابت؛ لأنَّ هذا ما أراد الله - عزَّ وجلَّ -، وهو شرع الله، ولو كان النبي عليه الصلاة والسلام يُفْدىٰ بكل الأرض لَفَداهُ الصحابة رضي الله عنهم.

لكنَّ الله - سبحانه - هوَ الذي له الحكم، وإليه المرجع، وكما قال الله تعالى في كتابه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠، ٣١].

الفوائد:

في هذا الحديث بيانٌ أنَّ رسول الله ﷺ كغيرِهِ من البشر، يَمْرَضُ ويجوعُ، ويعطشُ، ويبرُد، ويحتر. وجميعُ الأمور البشريَّة تعتري النبي ﷺ، كما قال ﷺ «**إِنَّما أنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَنْسَىٰ كَمَا تَنْسَوْن**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، رقم =

وفيه: ردٌّ على هؤلاء القوم الذين يُشركون بالرسول ﷺ؛ يدْعُون الرسول عليه الصلاة والسلام، ويستغيثون به وهو في قبره، بل إنَّ بعضهم ـ والعياذ بالله ـ لا يسأل الله تعالى ويسألُ الرسول ﷺ؛ كأنَّ الذي يجيب هو الرسولُ عليه الصلاة والسلام، ولقد ضلُّوا في دينهم وسَفَهُوا في عقولهم. فإنَّ الرسول ﷺ لا يملِكُ لنفسه ضرًّا ولا نفعًا فكيف يملِكُ لغيره؟!

قال الله تعالى آمِرًا نبيه ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ بل هو عبدٌ من عباد الله؛ ولهذا قال: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقال الله ـ سبحانه ـ له أيضًا ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا ﴾ أي: هذه وظيفتي ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾ [الجن: ٢١ ـ ٢٣]، ولمَّا أنزل الله تعالى قوله: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، دعا قرابته ﷺ وجعل يُنادي إلى أن قال: «**يَا فَاطِمَةَ بنتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِيْ مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لاَ أُغني عَنْكِ مِنَ اللهِ شيئًا**»[1]، إلى هذا الحدِّ!! ابنته؛ التي هي بِضعةٌ منهُ والتي يَريبُه ما رَابه يقول لها: لا أغني عنكِ مِنَ الله شيئًا.

= (٤٠١)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة، رقم (٥٧٢).

(١) أخرجه البخاري، كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب، رقم (٢٧٥٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾، رقم (٢٠٤).

فهذا دليلٌ على أنَّ مَنْ سواها من باب أولى .

ففيه ضلالُ هؤلاء الذين يدعون الرسول ﷺ، تجدُهُم في المسجد النبوي عند الدعاء يتَّجهون إلى القبر، ويَصْمدُون أمام القبر كصُمودهم أمام الله في الصلاة أو أشدّ .

وفي هذا الحديث : دليلٌ على أنَّه لا بأس بالنَّدب اليَسير إذا لم يكن مؤذنًا بالتَّسخط على الله عز وجل ، لأنَّ فاطمة ندبت النبي عليه الصلاة والسلام ، لكنَّهُ نَدْبٌ يسير ، وليس يَنِمُّ عن اعتراضٍ على قدر الله عز وجل .

وفيه دليلٌ على أنَّ فاطمة بنت محمد ﷺ ورضي الله عنها بقيتْ بعد موته ، ولم يبق من أولاده بعده إلاَّ فاطمة ، كل أولاده من بنين وبنات ماتوا في حياته ﷺ. بقيت فاطمة ، ولكن ليس لها ميراث ، لا هيَ ، ولا زوجاته ، ولا عمُّه العباس ، ولا أحد من عصبتِهِ ؛ لأنَّ الأنبياء لا يُورثون ، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام : «**إنَّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ لاَ نُورَث ، ما تَرَكْنا صَدَقَةٌ**»[1] .

وهذا من حِكْمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ؛ لأنهم لو ورّثوا لقالَ مَنْ يقولُ : إنَّ هؤلاء جاءوا بالرسالة يطلبون مُلْكًا يُورث من بعدهم ؛ ولكنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ منع ذلك .

فالأنبياءُ لا يُورثون ، بل ما يتركونه يكون صدقة يصرف للمستحقين له والله الموفِّق .

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ الإمام أحمد في المسند (٢/ ٤٦٣) والحديث في الصحيحين بلفظ : «**لاَ نورّث، مَا تَرَكْنا صَدَقَةٌ**». أخرجه البخاري، كتاب الفرائض، باب قول النبي ﷺ: «**لا نورث، ما تركنا صدقة**» رقم (٦٧٢٧)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: «**لا نورَث، ما تَركْنا فهوَ صَدَقَةٌ**» رقم(١٧٥٩).

٢٩ - وَعَن أَبِي زَيْدٍ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ مَوْلَىٰ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وَحِبِّهِ وابنِ حِبِّه، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَرْسَلَتْ بِنْتُ النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ ابْنِي قَدْ احْتُضِرَ فاشْهَدْنَا، فَأَرْسَلَ يُقْرِئُ السَّلاَمَ وَيَقُوْلُ: «إِنَّ للهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَىٰ، وَكُلُّ شَيءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ» فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيْهِ لَيَأْتِيَنَّهَا. فَقَامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ، وَمُعَاذُ بنُ جَبَلٍ، وأُبَيُّ بنُ كَعْبٍ، وَزَيْدُ بنُ ثَابِتٍ، وَرِجَالٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، فَرُفِعَ إِلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ الصَّبِيُّ، فَأَقْعَدَهُ فِيْ حِجْرِهِ وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُوْلَ اللهِ مَا هَذَا؟ فَقَالَ: «هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَى فِيْ قُلُوْبِ عِبَادِهِ» وَفِيْ رِوَايةٍ: «فِيْ قُلوبِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ، وإِنَّما يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبادِهِ الرُّحماءَ»[١]. [متفق عليه].

ومعنى: «تَقَعْقَعُ» تتحرك وتضطرب.

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أبي زيد أسامة بن زيد بن حارثة ـ رضي الله عنهما ـ، وزيد بن حارثة كان مولًى لرسول الله ﷺ، وكان عبدًا، فأهدته إليه خديجةُ ـ رضي الله عنها ـ فأعْتَقه، فصار مَوْلىً له، وكان يُلقَّب بِحِبِّ رسول الله ﷺ؛ أي حبيبه، وابنه أيضًا حِبّ، فأسامةُ حِبُّهُ وابن حِبِّه رضي الله عنهما، ذكر أنَّ إِحْدىٰ بنات الرسول ﷺ أرسلت إليه رسولاً،

---

(١) تقدم تخريجه ص (١٨٥).

تقولُ له إنَّ ابنها قد احتضر؛ أي: حضره الموت. وأنها تطلب من النبي ﷺ أن يحضر، فَبَلَّغَ الرسولُ رسولَ الله ﷺ فقال له النبي ﷺ «مُرْها فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ، فإنَّ للهِ مَا أخَذَ ولَهُ مَا أعْطَى، وكُلُّ شيءٍ عِنْدَهُ بأجلٍ مُسَمَّى».

أمر النبي عليه الصلاة والسلامُ الرَّجلَ الذي أرسلتْهُ ابنتُهُ أن يأمرَ ابنتَهُ - أمَّ هذا الصبيِّ - بهذه الكلمات:

قال «فَلْتَصْبِرْ» أي: تحتسبِ الأجرَ على اللهِ بصبرِهَا؛ لأنَّ مِنَ الناس من يصبر ولا يحتسب، يصْبر على المعصية ولا يتضجَّرُ، لكنه ما يُؤَمِّل أجرَهَا على الله فيفوته بذلك خيرٌ كثير، لكن إذا صبرَ واحتسبَ الأجر على الله، يعني: أراد بصبْرِهِ أن يثيبه الله ويأجره، فهذا هو الاحتساب «مُرْهَا فَلْتَصْبِرْ» يعني على هذه المصيبةِ «وَلْتَحْتَسِبْ» أجرها على الله عز وجل.

قوله: «فإنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَىٰ» هذه الجملة عظيمةٌ! إذا كان الشَّيء كُلُّه لله، إن أخذ منك شيئًا فهو ملكه، وإن أعطاك شيئًا فهو ملكه، فكَيفَ تسخط إذا أخذ منك ما يَمْلكه هُوَ؟

عليك إذا أخذ الله منك شيئًا محبوبًا لك؛ أنْ تقول: هذا للهِ، له أن يأخذَ ما شاء، ولهُ أن يُعطي ما شاء.

ولهذا يُسَنُّ للإنسان إذا أُصيب بمصيبة أن يقولَ «إنَّا للهِ وَإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُوْنَ» يعني: نحنُ مُلكٌ للهِ يَفْعَلُ بنا مَا يشَاءُ، كذلك ما نحبه إذا أخذهُ من بين أيدينا فهو له - عزَّ وجلَّ - له ما أخذ وله ما أعطىٰ، حتى الذي يعطيك أنت لا تملكه، هو لله، ولهذا لا يمكن أن تتصرَّف فيما أعطاك الله إلاَّ على الوجه الذي أَذِنَ لك فيه؛ وهذا دليلٌ على أن ملكنا لما يعطينا الله ملك

قاصرٌ، ما نتصرف فيه تصرُّفًا مطلقًا، فلو أراد الإنسان أن يتَصرَّف في ماله تَصرُّفًا مُطْلقًا على وجه لم يأذن به الشَّرع قُلنا له أمْسك، لا يمكن؛ لأنَّ المال مال الله، كما قال سبحانه ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ ﴾ [النور: ٣٣]، المال مال الله، فلا تتصرَّفْ فيه إلا على الوجه الذي أُذِنَ لَكَ فيه.

ولهذا قال: «وللهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَىٰ» فإذا كان لله ما أخذ، فكيف نَجْزَعُ؟ كَيْفَ نتسخَّطُ أنْ يأخذ المالك ما ملكَ سبحانه وتعالى؟ هذا خلافُ المعقول وخلافُ المنقول!

قال: «وَكُلُّ شَيءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى» كلُّ شيءٍ عندَهُ بمقدار، كما قال الله تعالى في القرآن الكريم ﴿ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨]، بمقدار في زمانه، ومكانه، وذاته، وصفاته، وكُلُّ ما يتعلق بهِ فهو عند الله مُقَدَّر.

«بأجلٍ مُسمًّى» أيْ: مُعيَّن، فإذا أيْقنتَ بهذا؛ أَنَّ لله ما أخذ وله ما أعطى، وكلُّ شيءٍ عنده بأجل مسمى؛ اقتنعت. وهذه الجملة الأخيرة تعني أنَّ الإنسان لا يمكن أن يغيِّر المكتوب المؤجل لا بتقديم ولا بتأخير، كما قال الله ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٩]، فإذا كان الشَّيءُ مقدَّرًا لا يتقدم ولا يتأخر؛ فلا فائدة من الجزع والتسخط؛ لأنه وإن جزعت أو تسخطت لن تغيِّر شيئًا من المقدور.

ثمَّ إنَّ الرسول أبلغَ بِنتَ النبيِّ ﷺ ما أَمَرَهُ أن يُبَلِّغَهُ إيَّاها، ولكنَّها أرْسلت إليه تطلب أن يحضر، فقام عليه الصلاة والسلام هو وجماعة من أصحابه، فوصل إليها، فَرُفِعَ إليه الصبيُّ ونفسه تتقعْقَع؛ أي تضطرب، تصْعدُ وتنزل، فبكى الرسول عليه الصلاة والسلام، ودَمَعَتْ عيناه. فقال

سعد بن عبادة وكان معه -هو سيد الخزرج ـ ما هذا؟ ظنَّ أنَّ الرسول ﷺ بكى جزعًا، فقال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «هذِهِ رَحْمَةٌ». أي بكيت رحمة بالصَّبيِّ لا جزعًا بالمَقْدُور.

ثم قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّمَا يَرْحم اللهُ مِنْ عِبادِهِ الرُّحَماءَ» ففي هذا دليلٌ على جواز البكاء رحْمةً بالمُصاب.

إِذَا رأيت مُصابًا في عقله أو بدنه، فبكيت رحمةً بِهِ، فهذا دليلٌ على أنَّ الله تعالى جعل في قلبك رحمة، وإذا جعل الله في قلب الإنسان رحمةً كان من الرُّحماء الذين يرحمهم الله عزَّ وجل. نسأل الله أن يرحمَنا وإياكم برحمته.

ففي هذا الحديث دليلٌ على وجوب الصبر؛ لأنَّ الرسول ﷺ قال: «مُرْهَا فَلْتَصْبِر ولْتَحْتَسِبْ».

وفيه دليلٌ أيضًا على أن هذه الصيغة من العَزَاء أفضَلُ صيغة، أفضلُ مِنْ قول بعض الناس: «أعظمَ اللهُ أجْرَكَ، وأحْسَنَ عَزاءَكَ وَغفَرَ لِمَيتكَ» هذه صيغة اختارها بعض العلماء، لكنَّ الصيغة التي اختارها الرسول عليه الصلاة والسلام «اصبرْ واحْتَسِبْ؛ فإنَّ للهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى» أفضلُ؛ لأنَّ المصابَ إذا سمعها اقتنعَ أكثر.

والتعزية في الحقيقة ليست تهنئة كما ظنها بعض العوام، يحتفل بها، وتوضع لها الكراسي، وتُوقدُ لها الشموع، ويحضر لها القراء والأطعمة، بل هي تسلية وتقوية للمصاب أن يصبرَ، ولهذا لو أن أحدًا لم يُصَب بالمصيبة، كما لو مات له ابن عم ولم يهتمَّ به؛ فإنَّه لا يُعزَّى، ولهَذا قال

العلماء رحمهم الله «تُسنُّ تعزيةُ المُصابِ» ولم يقولوا تسن تعزية القريب. لأن القريبَ ربَّما لا يُصاب بموت قريبه، والبَعيدُ يُصابُ لقوَّةِ صَدَاقةٍ بينهما مثلاً.

فالتعزية للمصاب لا للقريب. أما الآن - مع الأسف - انقلبت الموازين، وصارت التَّعزية للقريب، حتى وإن كان قد فرح وضرب الطُّبول لموت قريبه فإنَّه يُعزَّى، ربَّما يكونُ بعض الناس فقيرًا، وبينه وبين ابن عمه مشاكل كثيرة، ومات ابن عمه وله ملايين الدَّراهم، هل يفرح إذا مات ابن عمه في هذه الحال أو يُصاب؟ غالبًا يفرح، ويقول: الحمد لله الذي خلَّصني من مشاكله ووَرَّثَني مَاله! فهذا لا يُعزَّىٰ، هذا يُهنَّأ لو أردنا أن نقول شيئًا.

والمهمُّ أنهُ يجب أن نعلم أن التعازي إنما هي لتقوية المصابِ على الصبر وتسليته، فيختار لها من الكلمات أفضلُ ما يكون وأقربُ ما يكون للتعزية، ولا أحسنَ مِنَ الكلمات التي صاغها نبينا ﷺ. والله الموفق.

* * *

٣٠ - وَعَنْ صُهَيْب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كان قَبْلَكُم، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قالَ لِلْمَلِكِ: إنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إلَيَّ غُلامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ؛ فَبَعَثَ إلَيْه غُلامًا يُعَلِّمُهُ، وَكَانَ في طَرِيْقِهِ إذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقعَدَ إلَيهِ وَسَمِعَ كَلاَمَهُ فاعْجَبَهُ، وَكَانَ إذَا أَتَى السَّاحِرَ مرَّ بالرَّاهبِ وَقَعَدَ إلَيه، فَإذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبهُ، فشَكَا ذِلِكَ إلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ: إذَا خَشِيْتَ السَّاحِرَ فقُلْ: حَبَسَنِيْ أَهْلِي، وإذا خَشيتَ أَهْلَكَ فقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ.

فَبَيْنَمَا هُوَ عَلى ذَلِكَ إذ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيْمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ فَقَالَ: اليَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَراً فَقَالَ: اللَّهُمَّ إنْ كَانَ أَمرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ اليَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَىٰ، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَىٰ، فَإِنْ ابْتُلِيْتَ فَلاَ تَدُلَّ عَلَيَّ؛ وَكَانَ الغُلاَمُ يُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، وَيُدَاوِيْ النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ. فَسَمِعَ جَلِيْسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيْرَةٍ فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِيْ، فَقَالَ: إِنِّيْ لاَ أَشْفِيْ أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ تَعَالَى، فَإِنْ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللهِ تَعَالَىٰ فَشَفَاهُ اللهُ. فَأَتَىٰ المَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: ربِّي. قَالَ: أَوَ لَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟! قَالَ: رَبِّيْ وَرَبُّكَ اللهُ، فَأَخَذَهُ، فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الغُلاَمِ، فَجِيءَ بِالغُلاَمِ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ، قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ، فَقَالَ: إِنِّيْ لاَ أَشْفِيْ أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِيْ اللهُ تَعَالَىٰ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ؛ فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيْلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِيْنِكَ، فَأَبَىٰ، فَدَعَا بِالمِنْشَارِ فَوُضِعَ المِنْشَار فِيْ مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ به حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ المَلِك، فَقيلَ لهُ: ارجِعْ عن دينك، فأبى، فوُضِعَ المِنشارُ في مَفْرِقِ رأسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حتى وقع شقّاه، ثُمَّ جِيءَ بِالغُلاَمِ فَقِيْلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِيْنِكَ فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إِلَىٰ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذِرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِيْنِهِ وَإِلاَّ فَاطرَحُوْهُ،

فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعدُوا بِهِ الجَبَلَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيْهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِيْ إِلَى المَلِكِ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَا فُعِلَ بِأَصْحَابِكَ؟ فَقَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ تَعَالَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوْهُ فِيْ قُرْقُوْرٍ وَتَوَسَّطُوا بِهِ البَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِيْنِهِ وَإِلاَّ فَاقْذِفُوْه، فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِيْنَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِيْ إِلَى المَلِكِ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَا فُعِلَ بِأَصْحَابِكَ؟ فَقَالَ: كَفَانِيْهِمُ اللهُ تَعَالَى. فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّىٰ تَفْعَلَ مَا آمُركَ بِهِ. قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِيْ صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلِبُنِي عَلَى جِذْعٍ؛ ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِيْ، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِيْ كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِسْمِ اللهِ رَبِّ الغُلاَمِ، ثُمَّ ارمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِيْ. فَجَمَعَ النَّاسَ فِيْ صَعِيْدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ في كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ رَبِّ الغُلاَمِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِيْ صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِيْ صُدْغِهِ فَمَاتَ. فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الغُلامِ، فَأُتِيَ المَلِكُ فَقِيْلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حِذْرُكَ. قَدْ آمَنَ النَّاس. فَأَمرَ بالأُخْدُوْدِ بِأَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ، وأُضْرِمَ فِيْهَا النِّيْرَانُ وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِيْنِهِ فَأَقْحِمُوْهُ فِيْهَا، أَوْ قِيْلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا، حَتَّى جَاءَتْ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيْهَا، فَقَالَ لَهَا الغُلاَمُ: يَا أُمَّاهُ اصْبِرِيْ فإنكِ على الحق»[1] [رواه مسلم].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب =

«ذِرْوَةُ الجَبَلِ»: أَعْلاهُ، وَهِيَ بِكَسْرِ الذَّالِ المُعْجَمَةِ وَضَمِّهَا وَ«القُرْقُوْرُ» بِضَمِّ القَافَيْنِ: نَوْعٌ مِنَ السُّفُنِ، وَ«الصَّعِيْدُ» هُنَا: الأَرْضُ البَارِزَةُ، وَ«الأُخْدُوْدُ» الشُّقُوْقُ فِيْ الأَرْضِ كَالنَّهْرِ الصَّغِيْرِ، وَ«أُضْرِمَ»: أُوْقِدَ، وَ«انكفأتْ» أَيْ: انْقَلَبَتْ، وَ«تَقَاعَسَتْ»: توقَّفتْ وَجَبُنَتْ».

الشرح

هذا الحديثُ الذي ذكره المؤلِّف ـ رحمه الله تعالى ـ في باب الصَّبر فيه قصّة عجيبة: وهي أنَّ رجُلاً من الملُوك فيمن سبق كان عنده ساحر اتخذه الملك بِطَانَةً؛ من أجل أن يستخدمه في مصالحه ولو على حساب الدِّين؛ لأنَّ هذا الملك لا يهتم إلا بما فيه مصلحته، وهو مَلِك مُستبِدٌّ قد عبَّد الناس لِنفسِهِ كما سيأتي إن شاء الله تعالى في آخر الحديث.

هذا الساحر لما كَبر قَال لِلمَلِك: إنِّي قد كَبِرْتُ فابعث إليَّ غُلامًا أعلِّمه السحرَ.

واختار الغلامَ لأن الغلامَ أقبلُ للتعليم، ولأن التعليم للغلامِ الشابِّ هو الذي يبقى، ولا ينسى؛ ولهذا كان التعلم في الصِّغر خيرًا بكثير من التعلم في الكبر، وفي كلٍّ خير، لكنَّ التعلمَ في الصغر فيه فائدتان عظيمتان بل أكثر:

الفائدة الأولى: أن الشابَّ في الغالب أسْرعُ حفظًا من الكبير، لأن الشابَّ فارغُ البال ليست عنده مشاكلُ توجبُ انشغاله.

= والغلام، رقم (٣٠٠٥).

وثانيًا: أن ما يحفظه الشَّاب يبقى، وما يحفظهُ الكبير ينسى، ولهذا كان من الحكمةِ الشَّائعة بين الناس: «إن العلم في الصِّغر كالنقش في الحجر» لا يزول.

وفيه فائدة ثالثة: وهي أن الشَّاب إذا ثُقِّفَ العلمَ من أوَّل الأمر صار العلم كالسجية له والطبيعة له، وصار كأنّه غريزةٌ قد شبَّ عليه فيَشيبُ عليه.

فهذا السَّاحر سَاحرٌ كبير قد تقدَّمتْ به السنُّ وجرَّبَ الحياة وعرف الأشياء. فطلب من الملكِ أن يختارَ له شابًا غلامًا يعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا، فعلَّمه ما علَّمه، ولكن الله تعالى قد أراد بهذا الغلام خَيرًا!

مَرَّ هذا الغلام يومًا من الأيام براهب، فسَمِع منه فأعجبه كلامُه، لأن هذا الراهب - يعني العابد - عابدٌ لله عزَّ وجلَّ، لا يتكلم إلا بالخير، وقد يكون راهبًا عالمًا لكن تغلب عليه العبادة فَسُمِّيَ بما يغلب عليه من الرَّهبانية، فصارَ هذا الغلامُ إذا خرج من أهله جلس عند الرَّاهبِ فتأخر على الساحر، فجعل الساحرُ يضربه، لماذا تتأخر؟ فشكا الغلامُ إلى الراهب ما يجدهُ من الساحرِ من الضربِ إذا تأخر، فلقَّنه الرَّاهب أمْرًا يتخلَّص به، قال: إذا ذهبت إلى الساحرِ وخشيتَ أن يُعاقبك فقل: إن أهلي حَبَسوني، يعني: تأخر عند أهله، وإذا أتيتَ إلى أهلك فقل: إن السَّاحر أخرني؛ حتى تنجو من هذا ومن هذا.

وكأن الرَّاهب - والله أعلم - أمره بذلك - مع أنه كذب - لعلَّه رأى أن المصلحةَ في هذا تَرْبُو على مفسدةِ الكذب، مع أنه يمكنُ أن يتأوَّل!!

ففعل، فصار الغلامُ يأتي إلى الرَّاهب ويسمعُ منه، ثم يذهبُ إلى الساحر، فإذا أراد أن يُعاقبه على تأخره قال: إن أهلي أخَّرُوني، وإذا رجع إلى أهْله وتأخرَ عند الراهب قال: إن السَّاحرَ أخرني. فمرَّ ذات يوم بدابّةٍ عظيمة، ولم يعيَّنْ في الحديثِ ما هذه الدابة، قد حبستِ الناسَ عن التجاوز، فلا يستطيعون أن يتجاوَزُوها، فأراد هذا الغلام أن يَخْتبر: هل الرَّاهبُ خيرٌ له أم السَّاحر، فأخذ حَجَرًا، ودَعا الله سبحانه وتعالى إنْ كان أمرُ الرَّاهبِ خيرًا أن يقتلَ هذا الحجرُ الدابَّة، فرمى بالحجر، فقتل الدَّابة، فمشى الناس.

فعَرف الغلامُ أنَّ أمْرَ الرَّاهب خير من أمر السَّاحر، وهذا أمرٌ لا شكَّ فيه؛ لأن الساحرَ إما مُعتدٍ ظالم، وإمَّا كافرٌ مُشرك، فإن كان يستعين على سِحره بالشياطين يتقرَّب إليهم ويَعْبُدهم ويدعوهم ويَسْتَغيث بهم فهو كافرٌ مشرك. وإن كان لا يفعلُ هذا لكن يعتدي على الناس بأدْوية فيها سحرٌ فهذا ظالمٌ معتد.

أما الرَّاهب، فإن كان يعبد الله على بصيرةٍ فهو مهتد، وإن كان عنده شيء من الجهلِ والضَّلالِ فنيته طيِّبة، وإن كان عمله سيِّئًا.

المهمُّ أن هذا الغلامَ أخبر الراهبَ بما جرى فقال له الراهب: أنت اليوم خيرٌ مني، وذلك لأن الغلامَ دَعَا الله فاستجابَ الله له.

وهذا من نعمةِ الله على العَبْد، أن الإنسان إذا شكَّ في الأمر ثم طلبَ من الله آيةً تبيِّن له شأن هذا الأمر فبيَّنه الله له، فإن هذا من نعمةِ الله عليه.

ومن ثم شُرعتِ الاستخارةُ، للإنسان إذا همَّ بالأمر وأشكلَ عليه: هل

في إقدامهِ خير أم في إحجامه خير، فإنه يستخيرُ الله، وإذا استخارَ الله بصدقٍ وإيمانٍ فإن الله تعالى يعطيه ما يستدلُّ به على أن الخير في الإقدام أو الإحجام. إمَّا بشيء يلقيه في قلبهِ يَنْشرحُ صدره لهذا أو لهذا، وإمَّا برؤيا يَرَاها في المنام، وإمَّا بمشورة أحدٍ من الناس، وإمَّا بغير ذلك.

وكان من كرامات هذا الغلامِ أنَّه يُبرىء الأكمه والأبرص، يعني أنه يدعو لهم فيبرأون، وهذا من كراماتِ الله له.

وليس كقصةِ عيسى بن مريمَ يمسحُ صاحبَ العاهةِ فيبرأ، بل هذا يدعو الله فيستجيبُ الله تعالى دعاءَهُ، فيُبرىء بدعائه الأكمه والأبرص.

وقد أخبر الرَّاهبُ هذا الغلام بأنه سيُبتلىٰ، يعني سيكونُ له محنةٌ واختبار، وطلب منه أن لا يخبرَ به إن هو ابتُلي بشيء.

وكأن هذا الغلامَ ـ والله أعلم ـ مُستجابُ الدَّعوة، إذا دعا الله تعالى قَبِلَ منه.

وكان للملك جليسٌ أعمى ـ لا يُبْصر ـ فأتى بهَدايا كثيرة لهذا الغلام حِينما سمع عنه ما سمع وقال: لك مَا هنا هنا أجمع ـ أي كله ـ إن أنت شَفَيْتَني، فقال: إنَّما يشفيك الله.

انظر إلى الإيمان! لم يَغْتَرَّ بِنَفْسه وادَّعىٰ أنه هو الذي يَشفي المرضىٰ، بل قال: إنما يشفيك الله عزَّ وجل، وهذا يُشبه من بعض الوجوه ما جرى لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمة الله عليه ـ، حينما جيء إليه برجل مَصروع قد صَرعَه الجنيّ، فقرأ عليه شيخ الإسلام ابن تيمية ولكنه لم يخرج، فجعل شيخُ الإسلام يضربه على رقبته ضربًا شديدًا، حتى إن يد شيخ

الإسلام أوجعته من الضرب. فتكلَّم الجني الذي في الرَّجل وقال له: أخرج كرامة للشيخ، فقال له الشيخ رحمه الله: لا تخرج كرامة لي ولكن اخرج طاعة لله ولرسوله. لا يريد أن يكون له فضل، بل الفضلُ لله عزَّ وجلَّ أوَّلاً وآخرًا. فخرج الجنيُّ. فلما خرج الجنيُّ استيقظ الرجل فقال: ما الذي جاء بي إلى حضرة الشيخ؟ لأنه حينما صُرِعَ يمكنُ أنه كان في بيته أو سوقه، قال: ما الذي جاء بي إلى حضرة الشيخ؟ فقالوا: سبحان الله! ألم تحسَّ بالضَّربِ الذي كان يضربك؟ قال: ما أحسستُ به ولا أوجعني. فأخبروه، فبرىء الرَّجل!.

الشاهد أن أهلَ العلمِ والإيمانِ لا ينسبون نعمةَ الله إليهم، وإنَّما ينسبونها إلى مُوليها عزَّ وجلَّ وهو الله.

وقال له: «فإن أنتَ آمنتَ دعوْتُ الله لك» فآمن الرَّجل، فدعا الغلامُ ربَّه أن يَشفيه، فشَفاهُ الله، فأصبح مُبْصرًا.

فجاء هذا الجليسُ إلى الملك وجلس عنده على العادة، فسأله الملك: من ردَّ عليك بصرك؟ قال: ربي. قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله. فأخذه، فلم يزلْ يعذبه حتى دلَّ على الغلام، وأتى بالغلام وأخبره بالخبر وعذَّبه تعذيبًا شديدًا، قال: من الذي علَّمك بهذا الشيء؟ وكان الرَّاهب قد قال له: إنك سَتُبتلَىٰ، فإن ابْتُلِيتَ فلا تخبر عنِّي. ولكن لعله عجز عن الصَّبر، فأخبر عن الراهب.

وكان هذا الملك الجبار ـ والعياذ بالله ـ لما دلّوا على الرّاهب، جيء بالرَّاهب فقيل له: ارجع عن دينك ولكنه أبىٰ أن يرجع عن دينه.

فأتوا بالمنشار فشذبوه من مفرقِ رأسه ـ من نصفِ الجسم ـ فبدأوا بالرأس، ثم الرقبة، ثم الظهر حتى انقسم قسمين ـ شقَّين: سقط شقٌّ هنا وشقٌّ هنا ـ ولكنه لم يُثْنِه ذلك عن دينه. أبَى أن يرجع، ورضِيَ أن يُقتل هذه القِتْلةَ ولا يرجعَ عن دينه ـ ما شاء الله ـ!! ثم جيء بالرّجل الأعْمىٰ الذي كان جليسًا عند الملك وآمنَ بالله، وكفر بالملك، فَدُعي أن يرجعَ عن دينه فأبَى، ففُعلَ به كما فُعلَ بالراهب، ولم يردَّهُ ذلك عن دينه. وهذا يدلُّ على أن الإنسان يجب عليه أن يصبر.

ولكن هل يجبُ على الإنسان أن يصبرَ على القتل، أو يجوزُ أن يقول كلمة الكفر ولا تضرّهُ إذا كان مُكرهًا؟

هذا فيه تفصيل: إن كانت المسألة تتعلَّق بنفسه فله الخيار: إن شاء قال كلمة الكفر دفعًا للإكراه مع طمأنينة القلب بالإيمان. وإن شاء أصرَّ وأبَى ولو قُتل، هذا إذا كان الأمرُ عائدًا إلى الإنسان بنفسه. يعني مثلاً قيل له: اسجد للصنم، فلم يسجد، فقتل، أو سجدَ دفعًا للإكراه ولم يُقتل.

أما إذا كان الأمْرُ يتعلق بالدِّين، بمعنى أنه لو كفر ولو ظاهرًا أمام الناس لكفر الناس، فإنه لا يجوز له أن يقول كلمة الكفر، بل يجب أن يصبرَ ولو قُتل، كالجهاد في سبيل الله. المجاهدُ يقدمُ على القتل ولو قتل؛ لأنه يريد أن تكون كلمة الله هي العليا، فإذا كان إمَامًا للناس وأُجبر على أن يقول كلمة الكفر فإنَّه لا يجوز أن يقول كلمة الكفر، لاسيما في زمن الفتنة، بل عليه أن يَصبر ولو قُتِل.

ومثل ذلك ما وقع للإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ حين امتُحن

المحنة العظيمة المشهورة، على أن يقول إن القرآن مخلوقٌ وليس كلامَ الله، فأَبَى، فأُوذي وعُزِّر، حتى إنه يجر بالبغلة بالأسواق - إمام أهل السنة - يجر بالبغلة بالأسواق ويضرب بالسوط حتى يغشى عليه، ولكنه كلما أفاق قال: القرآن كلامُ ربي غيرُ مخلوق.

وإنما لم يجز لنفسه أن يقول كلمة الكفر مع الإكراه، لأن الناس ينتظرون ماذا يقول الإمام أحمد، فلو قال: القرآن مخلوق، لصار كل الناسِ يقولون: القرآن مخلوق، وفسد الدين.

ولكنه - رضي الله عنه - جعل نفسه فداءً للدين ومع هذا صبر واحتسب، وكانت العاقبة له ولله الحمد. مات الخليفة، ومات الخليفةُ الثاني الذي بَعْده، وأتى الله بخليفةٍ صالحٍ أكرمَ الإمام أحمد إكرامًا عظيمًا، فما مات الإمام أحمد حتى أقرَّ الله عينه بأن يقولَ الحقّ عاليًا مُرتفعَ الصوت، ويقولَ الناسُ الحقَّ معه.

وخُذل أعداؤه الذين كانوا يحدثون الخلفاء عليه. ولله الحمد. وهذا دليلٌ على أن العاقبة للصابرين، وهو كذلك، والله الموفق.

لما قتلَ الملكُ الراهب، وقتلَ جليسه، جيء بالغلام فطُلب منه أن يرجع عن دينه إلى دينِ الملك، ودين الملك دين شرك؛ لأنه - والعياذ بالله - يدعو الناس إلى عبادته وتأليهه.

فأَبَى الغلام أن يرجع عن دينه، فدفعه الملك إلى نفر من أصحابه - أي جماعة من الناس - وقال لهم: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا - جبلٌ معروفٌ عندهم شاهقٌ رفيع - وقال لهم إذا بلغوا ذروته: فاطرحوه، يعني على

الأرض، ليقع من رأس الجبل فيموت، بعد أن تَعْرِضُوا عليه أن يرجعَ عن دينه، فإن رجع وإلا فاطرحوه.

فلما بلغوا به قمَّةَ الجبلِ طلبوا منه أن يَرْجع عن دينه فأبى؛ لأن الإيمان قد وقَر في قلبه، ولا يمكن أن يتحول أو يتزحزح، فلما همُّوا أن يطرحوه قال: «اللهم اكفنيهم بما شئت».

دعوةُ مضطر مؤمن: «اللهم اكْفنيهم بما شئت» أي: بالذي تشاء، ولم يُعيِّن. فرجَف الله بهم الجبل فسقطوا وهلكوا، وجاء الغلام إلى الملك فقال: ما الذي جاء بك؟ أين أصحابك؟ فقال: قد كفانيهم الله عزَّ وجلَّ.

ثم دفعه إلى جماعةٍ آخرين، وأمرهم أن يركبوا البحر في قرقور - أي سفينة - فإذا بلغوا لجَّةَ البحر عرضوا عليه أن يرجعَ عن دينه، فإن لم يفعل رَمَوه في البحر. فلما توسَّطوا من البحر عَرَضُوا عليه أن يرجع عن دينه - وهو الإيمان بالله - عزَّ وجلَّ - فقال: لا! أبى، ثم قال: «اللهم اكفنيهم بما شئت» فانقلبت السَّفينة وغرقوا وأنجاه الله. ثم جاء إلى الملك فقال له: أين أصحابك؟ فأخبره بالخبر.

ثم قال له: إنك لَسْتَ قاتلي حتى تفعل ما آمرك به! قال: وما هو؟ قال: تجمعُ الناس في صعيدٍ واحد، كل أهلِ البلد تجمعهم في مكان واحد، ثم تَصْلبني على جذع، ثم تأخذُ سهمًا من كنانتي فتضعه في كبد القوس، ثم ترميني به وتقول: بسم الله رب الغلام، فإنك إنْ فعلت ذلك قتلتني!

فجمعَ الملكُ الناسَ في صَعيدٍ واحد، وصَلَب الغُلام، وأخذ سهمًا

من كنَانَتِه فوضعها في كبدِ القوس، ثم رماه وقال: بسم الله رب الغلام، ثم رماهُ فأصابه السَّهم في صدغه، فوضع يده عليه ومات، فأصبح الناس يقولون: بسم الله ربِّ الغلام. وآمنوا بالله وكفروا بالملك. وهذا هو الذي كان يُريده هذا الغلام.

ففي هذه القطعة من الحديث دليلٌ على مسائل:

أولاً: قُوَّةُ إيمانِ هذا الغلام، وأنه لم يتزحزحْ عن إيمانه ولم يتحوَّل.

ثانيًا: فيه آيةٌ من آياتِ الله، حيث أكْرمَه الله عزَّ وجلَّ بقبول دعوته، فزلْزَلَ الجبلَ بالقوم الذين يُريدون أن يطرحوهُ من رأس الجبل حتى سقطوا.

ثالثًا: أن الله عزَّ وجلَّ يُجيبُ دعوةَ المضطرِّ إذا دعاه، فإذا دَعَا الإنسانُ ربَّه في حال ضرورة مُوقنًا أن الله يجيبه، فإن الله تعالى يُجيبه، حتى الكفار إذا دَعَوا الله في حال الضرورة أجابهم الله، مع أنه يعلمُ أنهم سيرجعون إلى الكفر، إذا غشيهم موجٌ كالظُّلل في البحر دعوا الله مُخلصين له الدِّين، فإذا نجَّاهم أشركوا، فينجيهم لأنهم صدقوا في الرجوع إلى الله عند دعائهم، وهو سبحانه يجيب المضطر ولو كان كافرًا.

رابعًا: أن الإنسانَ يجوزُ أن يغرِّرَ بنفسه في مصلحةٍ عامَّة للمسلمين، فإن هذا الغلامَ دلَّ الملك على أمر يقتلهُ به ويهلكُ به نفسه، وهو أن يأخذ سهمًا من كنانته ويضعه في كبد القوس ويقول: باسم الله ربِّ الغلام.

قال شيخ الإسلام: «لأنَّ هذا جهاد في سبيل الله، آمَنت أمَّةٌ وهو لم يفتقدْ شيئًا، لأنه مات وسيموتُ إنْ آجلاً أو عاجلاً».

فأمَّا ما يفعله بعض الناس من الانتحار، بحيث يحملُ آلاتٍ متفجرةً ويتقدَّم بها إلى الكفار ثم يفجرِّها إذا كان بينهم، فإن هذا من قتلِ النفس والعياذُ بالله.

ومن قتل نفسه فهو خالد مخلد في نار جهنم أبد الآبدين، كما جاء في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام[1].

لأن هذا قتل نفسه لا في مَصْلحة الإسلام، لأنه إذا قتل نفسه وقتل عشرةً أو مائةً أو مائتين، لم ينتفع الإسلام بذلك، فلم يُسْلم الناس، بخلاف قصّة الغلام، فإن فيها إسلامُ كثير من الناس، فكل من حضر في هذا الصعيد أسلموا، أما أن يموت عشرةٌ أو عشرون أو مائة أو مائتان من العدو، فهذا لا يقتضي أن يُسلمَ الناس، بل ربما يتعنَّتُ العدوُّ أكثر ويُوغرُ صَدره هذا العملُ حتى يَفْتِكَ بالمسلمين أشدَّ فتك، كما يوجدُ من صنع اليهودِ مع أهلِ فلسطين، فإن أهلَ فلسطين إذا مات الواحدُ منهم بهذه المتفجرات وقتل ستة أو سبعة أخذوا من جراء ذلك ستين نفرًا أو أكثر، فلم يحصل في ذلك نفع للمسلمين، ولا انتفاعٌ للذين فُجِّرتْ هذه المتفجِّراتُ في صفوفهم.

ولهذا نرى أنَّ ما يفعله بعض الناس من هذا الانتحار، نرى أنه قتلٌ

---

(١) وهو قوله ﷺ: «... ومن قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده، يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلَّدًا فيها أبدًا». أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب شرب السمّ والدواء به، رقم (٥٧٧٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم (١٠٩).

للنفس بغير حقّ، وأنَّه مُوجبٌ لدخولِ النارِ والعياذُ بالله، وأن صاحبه ليس بشهيد. لكن إذا فعل الإنسان هذا متأولاً ظانًا أنه جائز، فإننا نرجو أن يَسْلَم من الإثم، وأما أن تكتب له الشهادة فلا؛ لأنه لم يسلك طريقة الشهادة، لكنه يسلمُ من الإثمِ لأنه متأوِّل، ومن اجتهد وأخْطأ فَلَه أجْر.

في خاتمة هذا الحديثِ العظيمِ الذي فيه العبرةُ لمن اعتبر، فيها أن الملكَ الكافرَ الذي يدعو الناس إلى عبادته، لمَّا آمن الناس وقالوا آمنا بالله ربِّ الغلام، جاءه أهل الشرِّ وأهلُ الحقدِ على الإيمانِ وأهله، وقالوا له: أيها الملك إنه وقعَ ما كنتَ تحذر منه، وهو الإيمان بالله، وكان يحذر ذلك؛ لأنه ـ والعياذ بالله ـ قد جعل نفسه إلهًا كما فعل فرعون، وكان ملكًا طاغيًا ظالمًا، فأمر بالأخدود على أفواهِ السكك فخدَّت، الأخدود يعني حَفْرٌ عميقٌ مثل السواقي على أفواه السكك، يعني على أطرافِ الأزقَّة والشوارع، وقال لجنوده: من جاء ولم يرجع عن دينه فأقحموه فيها؛ لأنه أضرمَ فيها النيرانَ ـ والعياذ بالله ـ فكان الناس يأتون ولكنهم لا يرتدون عن دينهم وإيمانهم، فيقحمونهم في النار، فكلُّ مَنْ لم يرجعْ عن دينِهِ الحقيقي ـ وهو الإيمان بالله ـ قذفوه في النار، ولكنهم إذا قذفُوهم في النار واحترقوا بها فإنهم ينتقلون من دار الغرورِ والبوار إلى دار النعيم والاستقرار، لأن الملائكة تتوفاهم طيبين يقولون: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢]، ولا أعظمَ من هذا الصبر، أنْ يرى الإنسان النار تتأجج فيقتحم فيها خوفًا على إيمانٍ وصبرًا عليه. فجاءت امرأةٌ ومعها صبيٌّ رضيع، فلما رأتِ النيران كأنها تقاعست أن تقتحم النار هي وطفلها،

فقال لها الطفل: يا أمَّاهُ اصبري فإنكِ على الحق، يقوله وهو صغير لا يتكلم، لكن أنطقَهُ الله الذي أنطق كل شيء، وهو كرامة لهذه الأمّ، أن الله أنطقَ ابنها من أجل أن تقوى على أن تقتحم النار وتبقى على إيمانها، لأن تكلُّمَ هذا الصبيِّ في المهد آيةٌ عظيمة، وقد شهد هذا الصبي بأن أمه على الحق، فصبرتْ واقتحمت النار، وهذا من آيات الله، وهو دليلٌ على أن الله تعالى ﴿يُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: ٦١].

ومريم بنت عمران ـ رضي الله عنها ـ خرجتْ من أهلها وذهبتْ مكانًا قصيًّا وهي حاملٌ بابنها عيسى الذي خلقه الله تعالى بكلمةِ كُنْ فكان ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٣]، يعني الطلق، فوضعت تحت جذع النخلة، وجعل الله تحتها نهرًا يمشي، فقيل لها: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥]، رطبٌ يقع من فرع النخلة، جنيًا لم يتأثَّرْ بسقوطهِ على الأرض، وهذا من آيات الله، لأن من المعروف أن الرطب لو سقطت من يد الإنسان ـ ولو كان واقفًا فقط ـ تمزَّقت، لكن هذه الرطب لم تتمزَّق، مع أنها تسقط من فرع النخلة. ثم إن هذه المرأة امرأةٌ ضعيفةٌ ماخض، لم تلدْ إلا الآن، ومع ذلك تهزُّ النخلةَ من جذعها فتهتزُّ النخلة، فهذا أيضًا من آيات الله، لأن العادةَ أن النخلةَ لا تهتزُّ من الجذع إلا إذا هزَّها أحد قويٌّ من فرعها، فقيل لها ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٦]، ثم أتتْ به قومها تحمله، هذا الطفل، فصاحوا بها ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧]، يعني شيئًا عظيمًا، لأنهم أيقنوا بأنها زنت ـ

والعياذُ بالله ـ كيف يأتيها ولدٌ من دون زوج؟ ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم: ٢٨]، يعني أن أباك ليس امرأ سوء، وكذلك أمك ليست بغيًا، ليست زانية، فمن أين جاءك هذا؟ وهذا تعريض لها بالقذف، فأشارتْ إليه؟ يعني: اسألوه. قالوا: ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ [مريم: ٢٩]، فظنوا أنها تسخرُ بهم، فأنطق الله هذا الصبي ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ - كلام فصيح - ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣٠ـ٣٣].

عشر جمل تكلم بها هذا الصبيُّ الذي في المهدِ بأبلغِ ما يكونُ من الفصاحة. فانظرْ إلى قدرةِ الله عزَّ وجلَّ، حيث ينطقُ هؤلاء الصبيان بكلام من أفصحِ الكلام، بكلام يصدرُ من ذي عقل، كلُّ ذلك دلالةٌ على قدرة الله، وفيه أيضًا إنقاذُ لمريم ـ رضي الله عنها ـ من التهمةِ التي قد تلحقها بسببِ هذا الحمل بدون زوج. وهكذا أيضًا هذا الطفلُ مع المرأة التي تقاعستْ أن تقتحمَ النار، أكرمها الله بإنطاق هذا الطفلِ من أجل أن تقتحم النار وتبقى على إيمانها. وفي هذه القصص وأمثالها دليلٌ على أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ برحمته ينجي كلَّ مؤمن في مفازته، وكلَّ متق في مفازته، يعني في موطنٍ يكون فيه هلاكه، ولكن الله تعالى ينقذهُ لما سبق له من التقوى، وشاهد ذلك قوله ﷺ «**تعرَّفْ إلى الله في الرخاء يعرفْكَ في الشدة**» والله الموفِّق.

* * *

٣١ ـ وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: مرَّ النبيُّ ﷺ بامرأةٍ تَبْكي عند قَبْرٍ فقال: «اتَّقي الله واصْبِري» فقالتْ: إليكَ عنِّي، فإنَّكَ لم تُصَبْ بمُصيبتي! ولم تَعْرِفْه، فقيلَ لها: إنَّهُ النبيُّ ﷺ، فأتَتْ بابَ النبيِّ ﷺ فلم تَجِدْ عندَهُ بَوَّابين، فقالتْ: لمْ أعْرِفْكَ، فقال: «إنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدمَةِ الأولَى»[1]. [متفق عليه].

وفي روايةٍ لمسلم: «تَبْكي عَلَى صَبيٍّ لَهَا».

الشرح

قال المؤلفُ ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ مرَّ بامرأة وهي عند قبرِ صَبيٍّ لها قد مات، وكانت تحبُّه حبًّا شديدًا، فلم تملكْ نفسها أن تخرجَ إلى قبره لتبكي عنده. فلما رآها النبي ﷺ أمرها بتقوى الله والصبر.

قال لها: «**اتَّقي الله واصْبري، فقالت له: إليكَ عنِّي فإنَّكَ لم تُصَبْ بمصيبتي**» إليك عنِّي أي: ابعدْ عنِّي فإنكَ لم تُصَبْ بمثلِ مصيبتي.

وهذا يدلُّ على أن المصيبةَ قد بلغت منها مبلغًا عظيمًا، فانصرفَ النبي ﷺ عنها.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، رقم (١٢٨٣)، ومسلم، كتاب الجنائز، باب في الصبر على المصيبة عند أول الصدمة، رقم (٩٢٦).

ثم قيل لها: إن هذا رسولُ الله ﷺ فندمت وجاءت إلى رسولِ الله، إلى بابه، وليس على الباب بوّابون أي: ليس عنده أحدٌ يمنعُ الناسَ من الدّخول عليه. فأخبرته وقالت: إنني لم أعرفك، فقال النبي ﷺ: «**إنَّما الصَّبر عند الصَّدْمةِ الأولَى**».

الصبر الذي يُثاب عليه الإنسان هو أن يصبر عند الصدمةِ الأولى أول ما تصيبهُ المصيبة، هذا هو الصبر.

أما الصبرُ فيما بعد ذلك، فإن هذا قد يكون تسلِّيًا كما تتسلَّى البهائم. فالصبرُ حقيقةً أن الإنسانَ إذا صُدم أولَ ما يُصدَمُ يصبرُ ويَحتسب، ويَحْسُن أن يقول: «إنّا لله وإنَّا إليه راجعون، اللهمَّ أجرني في مصيبتي واخْلفْ لي خيرًا منها».

ففي هذا الحديث عدّة فوائد:

أولاً: حُسْنُ خُلُق النبيِّ عليه الصلاة والسلام ودعوتهِ إلى الحقِّ وإلى الخير، فإنه لمَّا رأى هذه المرأة تبكي عند القبر أمرها بتقوى الله والصَّبر.

ولما قالت: «إليكَ عَنِّي» لم ينتقمْ لنفسه، ولم يضربها، ولم يُقِمْها بالقوَّة؛ لأنه عرف أنه أصابها من الحزن ما لا تستطيعُ أن تملكَ نفسها، ولهذا خرجتْ من بيتها لتبكي عند هذا القبر.

فإنْ قال قائل: أليستْ زيارةُ القبورِ حرامًا على النِّساء؟ قلنا: بلى هي حرامٌ على النساء، بل هي من كبائر الذنوب!! لأن النبيَّ عليه الصلاة

والسلام: «لعنَ زائراتِ القبورِ والمُتَّخذينَ عليها المساجدَ والسُّرج»[١].

لكن هذه لم تخرجْ للزيارة، وإنما خرجتْ لما في قلبها من لَوْعة فِرَاق هذا الصبي والحزنِ الشديد، لم تملك نفسها أن تأتي؛ ولهذا عذرها النبي عليه الصلاة والسلام ولم يُقمها بالقوّة، ولم يجبرها على أن ترْجعَ إلى بيتها.

ومن فوائد هذا الحديث: أن الإنسانَ يُعْذَر بالجهل، سواء أكانَ جهلاً بالحكم الشرعيِّ أم جهلاً بالحال، فإن هذه المرأة قالت للنبي ﷺ: إليكَ عني، أي: ابعد عني، مع أنه يأمرها بالخير والتقوى والصبر. ولكنها لم تعرف أنه رسول الله ﷺ فلهذا عَذَرَها النبي عليه الصلاة والسلام.

ومنها: أنه لا ينبغي للإنسان المسؤولِ عن حوائجِ المسلمينَ أن يجعلَ على بيته بوّابًا يمنعُ الناس إذا كان الناس يحتاجون إليه. إلاّ إذا كان الإنسانُ يخشى من كثرة الناس وإرهاق الناس وإشغال النّاس عن شيء يمكنهم أن يتداركوا شغلهم في وقت آخر، فهذا لا بأس به.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الصلاة، باب ما جاء في كراهية أن يتخذ على القبر مسجدًا، رقم (٣٢٠)، والنسائي، كتاب الجنائز، باب التغليظ في اتخاذ السرج على القبور رقم (٢٠٤٣)، وأبوداود، كتاب الجنائز، باب في زيارة النساء القبور، رقم (٣٢٣٦) وهذا الحديث حسَّنه الترمذي، وحسَّنه أيضًا لشواهده العلامة أحمد شاكر في حاشيته على الترمذي (٢/ ١٣٧)، وحسَّنه أيضًا لشواهده الشيخ الألباني إلا قوله: «والسُّرج» انظر الإرواء (٣/ ٢١٣).

وما جُعِلَ الاستئذانُ إلا من أجلِ النَّظر، ومن أجلِ أن الإنسان يتصرَّف في بيته في إدخالِ من شاء ومنع من شاء.

ومن فوائده: أن الصبرَ الذي يُحْمَدُ فاعله هو الصبرُ الذي يكونُ عند الصدمة الأولى. يصبرُ الإنسانُ ويحتسب، ويعلمُ أن لله ما أخذ وله ما أعطى، وأن كلَّ شيء عنده بأجل مسمّى.

ومن فوائد هذا الحديث: أن البكاء عند القبر ينافي الصَّبر؛ ولهذا قال لها الرسول ﷺ: «**اتقي الله واصبري**».

ويوجد من الناس من يُبتلى، فإذا مات له ميِّتٌ صار يتردد على قبره ويبكي عنده، وهذا ينافي الصبر، بل نقول: إذا شئت أن تنفع الميت فادع الله وأنت في بيتك، ولا حاجة أن تتردد على القبر، لأن التردد على القبر يجعلُ الإنسان يتخيَّلُ هذا الميت دائمًا في ذهنه ولا يغيب عنه، وحينئذ لا ينسى المصيبة أبدًا، مع أن الأفضل للإنسان أن يتلهَّى وأن ينسىٰ المصيبةَ بقدر ما يستطيع. والله الموفِّق.

* * *

٣٢ ـ وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «يَقُولُ الله تعالى: ما لِعَبْدِي المُؤمِنِ عِندِي جَزَاءٌ إذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ من أهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إلاَّ الجنَّة»(١) [رواه البخاري].

الشرح

هذا الحديثُ يرويه النبي ﷺ عن الله، ويسمي العلماء ـ رحمهم الله ـ هذا القسمَ من الحديث: الحديث القدسيّ؛ لأن الرسول ﷺ رواه عن الله.

قوله: «صَفِيَّهُ»: الصَّفي: من يصطفيه الإنسانُ ويختارهُ ويرى أنه ذو صلةٍ منه قوية، من ولد، أو أخ، أو عم، أو أب، أو أم، أو صديق، إذا أخذه الله عزَّ وجلَّ ثم احتسبه الإنسان فليس له جزاءٌ إلاَّ الجنَّة.

ففي هذا دليلٌ على فضيلةِ الصبر على قبضِ الصَّفيِّ من الدنيا، وأن الله عزَّ وجلَّ يُجازي الإنسان إذا احتسب، يُجازيه الجنّة.

وفيه: دليلٌ على فضلِ الله سبحانه وتعالى وكرمه على عباده، فإن المُلْكَ ملكه، والأمرَ أمره، وأنت وصَفِيُّك كلاكما لله عزَّ وجلَّ، ومع ذلك فإذا قبض الله صَفِيَّ الإنسان واحتَسَب، فإنَّ له هذا الجزاءَ العظيم.

وفي هذا الحديث أيضًا من الفوائد: الإشارةُ إلى أفعال الله، من قوله: «إذا قبضْت صَفيه» ولا شكَّ أنَّ الله سبحانه وتعالى فعَّالٌ لما يُريد، ولكن يجبُ علينا أن نعلمَ أن فعلَ الله تعالى كلَّهُ خير، لا يُنْسَبُ الشرّ إلى الله أبدًا،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب العمل الذي يبتغى به وجه الله تعالى، رقم (٦٤٢٤).

والشرُّ إذا وقع فإنما يقعُ في المفعولات ولا يقعُ في الفعل.

فمثلاً إذا قدَّرَ الله على الإنسان ما يكره، فلا شكَّ أن ما يكرههُ الإنسان بالنسبة إليه شرٌّ. لكن الشرَّ في هذا المقدَّرِ لا في تقدير الله، لأن الله تعالى لا يُقدِّرهُ إلا لحكمةٍ عظيمة، إما للمُقَدَّر عليه وإما لعامَّةِ الخلق.

أحيانًا تكون الحكمةُ خاصَّةً في المقدَّر عليه، وأحيانًا في الخلقِ على سبيلِ العموم.

المقدَّرُ عليه إذا قدَّر الله عليه شَرًّا وصَبَرَ واحتسبَ نال بذلك خيرًا، وإذا قدَّرَ الله عليه شَرًّا ورجع إلى ربِّه بسبب هذا الأمر، لأن الإنسان إذا كان في نعمة دائمًا قد يَنْسَى شكرَ المُنعِمِ عزَّ وجلَّ ولا يلتفتُ إلى الله، فإذا أُصيبَ بالضرَّاء تذكَّرَ ورجَع إلى ربِّه سبحانه وتعالى، ويكونُ في ذلك فائدةٌ عظيمة له.

أما بالنسبة للآخرين، فإن هذا المقدَّر على الشَّخص إذا ضرَّه قد ينتفع به الآخرون.

ولنضربْ لذلك مثلاً برجل عنده بيت من الطِّين، أرسل الله مطرًا غزيرًا دائمًا، فإنَّ صاحب هذا البيت يتضرَّر، لكن المصلحة العامَّة للنَّاس مصلحةٌ ينتفعون بها، فصار هذا شرًّا على شخصٍ وخيرًا للآخرين، ومع ذلك فكونُه شرًّا لهذا الشخص أمرٌ نسبيٌّ، إذ إنَّه شرٌّ من وجه لكنَّه خير له من وجه آخر. فيتَّعِظُ به ويَعْلمُ أن الملجأ هو الله عزَّ وجلَّ، لا ملجأ إلا إليه، فيستفيد من هذا فائدة أكبر مما حَصَلَ له من المضرَّة.

المهمُّ أن هذا الحديث ذكره المؤلف رحمه الله في باب الصبر؛ لأن

فيه فائدةً عظيمةً فيما إذا صبرَ الإنسان على قبضِ صفيِّه، أنه ليس له جزاء إلاَّ الجنة. والله الموفِّق.

* * *

٣٣ ـ وعن عائشةَ رضيَ الله عنها أنَّها سألتْ رسولَ الله ﷺ عن الطَّاعون، فأخْبَرَها أنَّهُ كانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ الله تعالى عَلَى مَنْ يَشَاءُ، فجَعلَه الله تعالى رَحْمَةً لِلمُؤمِنِين، فَلَيْس مِنْ عَبْدٍ يَقعُ في الطَّاعُونِ، فيَمْكُثُ فِي بَلَدِه صَابِرًا مُحْتَسِبًا، يَعْلَمُ أنَّهُ لا يُصِيبُهُ إلاَّ مَا كَتَبَ الله لهُ، إلاَّ كانَ لهُ مِثْلُ أجْرِ الشَّهيدِ»[1] [رواه البخاري].

الشرح

نقلَ المؤلفُ رحمه الله تعالى فيما نقله من الأحاديث الواردة في الصبر حديث عائشة -رضي الله عنها ـ أنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون، فأخبرها أن الطاعونَ عذابٌ أرسله الله سبحانه وتعالى على من يشاءُ من عباده.

والطَّاعون: قيل: إنه وبَاءٌ مُعَيَّن. وقيل: إنَّه كلُّ وبَاءٍ عامٍّ يَحِلُّ بالأرض فيصيبُ أهلها ويموتُ الناس منه.

وسواءٌ كان معينًا أم كلَّ وباءٍ عامٍّ مثل الكوليرا وغيرها؛ فإن هذا الطاعونَ عذابٌ أرسله الله عزَّ وجلَّ. ولكنه رحمةٌ للمؤمنِ إذا نزل بأرضه وبقي فيها صابرًا مُحْتسبًا، يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، فإن الله تعالى يكتب له

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب أجر الصابر في الطاعون، رقم (٥٧٣٤).

مثل أجْر الشَّهيد، ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا سمعتمْ به بأرضٍ فلا تقدموا عليه، وإذا وقعَ بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه»**(١).

إذا وقعَ الطاعونُ بأرضٍ فإننا لا نقدم عليها، لأن الإقدام عليها إلقاءٌ بالنفس إلى التهلكة. ولكنه إذا وقع في أرض فإننا لا نخرج منها فِرارًا منه، لأنك مهما فررت من قدرِ الله إذا نزل بالأرض فإن هذا الفرارَ لن يُغني عنك من الله شيئًا، واذكرِ القصةَ التي قصَّها الله علينا في الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حَذَر الموت. قال بعض العلماء في تفسير الآية: إنه نزل في الأرض وباء فخرجوا منها، فقال الله لهم مُوتوا ثُمَّ أحْيَاهُم، ليُبيِّن لهم أنه لا مَفَرَّ من قضاء الله إلا إلى الله.

ففي حديثِ عائشة ـ رضي الله عنها ـ دليلٌ على فضل الصَّبر والاحتساب، وأن الإنسان إذا صبَّرَ نفسَهُ في الأرض التي نزلَ فيها الطاعون ثم مات به، كتب الله له مثل أجر الشهيد.

وذلك أن الإنسانَ إذا نزل الطَّاعون في أرضه فإن الحياة غالية عند الإنسان، سوف يَهْرب، يخاف من الطاعون. فإذا صَبَر وبقي واحتسبَ الأجر وعلم أنه لن يُصيبه إلاَّ ما كتب الله له، ثُمَّ مات به، فإنَّهُ يُكتب له مثل أجر الشهيد. وهذا من نعمة الله عزَّ وجلَّ.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، رقم (٥٧٣٠).

٣٤ ـ وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الله عَزَّ وجَلَّ قالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عبدِي بحَبِيبتَيهِ فصَبَرَ، عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الجَنَّةَ» يريدُ عينيه[1]، [رواه البخاري].

في هذا الحديث أخبر النبيُّ ﷺ عن ربِّه تبارك وتعالى أنه قال: «**إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه**» يعني عَيْنيه فيعمى، ثمَّ يصبر، إلا عوَّضه الله بهما الجنة. لأن العينَ محبوبةٌ للإنسان، فإذا أخذهما الله سبحانه وتعالى وصبر الإنسانُ واحتسب، فإن الله يعوِّضهُ بهما الجنة، والجنة تساوي كلَّ الدّنيا، بل قد قال النبي ﷺ: «**لَمَوْضِعُ سَوْطِ أحدكُم في الجَنَّةِ خيرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا**»[2] أي مقدارُ مترٍ في الجنةِ خيرٌ من الدنيا وما فيها؛ لأنَّ ما في الآخرة باقٍ لا يفنى ولا يزول، والدُّنيا كلُّها فانية زائلة؛ فلهذا كانت هذه المساحة القليلةُ من الجنةِ خيرًا من الدنيا وما فيها.

واعلمْ أن الله سبحانه وتعالى إذا قبضَ من الإنسانِ حاسَّةً من حواسِّه، فإنَّ الغالبَ أن الله يُعوِّضه في الحواسِّ الأخرى ما يُخَفِّف عليه ألمَ فَقْدِ هذه الحاسَّةِ التي فقدها.

فالأعمى يَمُنُّ الله عليه بقوَّةِ الإحساسِ والإدراك، حتى إن بعضَ الناس إذا كان أعمى تجدهُ في السوقِ يمشي وكأنه مُبْصر يحِسُّ بالمنعطفاتِ في الأسواق، ويحِسُّ بالمنحدراتِ وبالمرتفعات، حتى إن بعضهم يَتَّفق

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المرضىٰ، باب فضل من ذهب بصره، رقم (٥٦٥٣).
(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢).

مع صاحب السيارة ـ سيارة الأجرة ـ يرْكب معه من أقصى البلد إلى بيته وهو يقولُ لصاحبِ السيَّارة: خذْ ذات اليمين، وهكذا حتى يُوقفه عند بابه، وصاحب السيارة لا يعرف البيت، لكن هذا يعرف البيت وهو راكب، سبحان الله! فالله عزَّ وجلَّ إذا اقتضتْ حكمته أن يُفْقِدَ أحدًا من عباده حاسّةً من الحواسّ، فالغالبُ أن الله تعالى يخلفُ عليه حاسَّةً قويَّةً وإدراكًا قويًّا يعوِّضُ بعضَ ما فاته ممَّا أخذه الله منه. والله الموفِّق.

* * *

٣٥ ـ وعن عطاء بن أبي رَباح قال: قال لي ابنُ عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ: ألا أُريكَ امْرأةً من أهلِ الجنَّة؟ فقلت: بلىٰ، قال: هذه المرأةُ السَّوداءُ. أتتِ النبيَّ ﷺ فقالت: إني أُصْرَعُ، وإني أَتكَشَّفُ، فادْعُ الله تعالى لي. قال: «إنْ شئتِ صَبَرْتِ ولَكِ الجَنَّةُ، وإنء شِئْتِ دَعَوْتُ الله تعالى أن يُعافيَكِ» فقالت: أصبرُ، فقالت: إني أتكشف، فادْعُ الله أنْ لا أتكشَّفَ، فدعا لها[1]. [متفق عليه].

قوله: «**ألا أُريكَ امْرأةً من أهل الجنة**»: يعرضُ عليه أن يريَهُ امرأةً من أهل الجنة. وذلك لأنَّ أهلَ الجنَّةِ ينقسمون إلى قسمين: قسمٌ نشهدُ لهم بالجنَّة بأوصافهم، وقسمٌ نشهد لهم بالجنة بأعْيانهم.

١ ـ أما الذين نشهدُ لهم بالجنَّة بأوصافهم فكلُّ مؤمن، كل مُتَّق، فإننا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المرضىٰ، باب فضل من يصرع من الريح رقم (٥٦٥٢). ومسلم، كتاب البرِّ والصِّلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض...، رقم (٢٥٧٦).

نشهد له بأنه من أهلِ الجنَّة. كما قال الله سبحانه وتعالى في الجنة ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [البينة: ٧، ٨]، فكلُّ مؤمنٍ متَّقٍ يعملُ الصالحاتِ فإننا نشهدُ بأنه من أهلِ الجنَّة. ولكنْ لا نقولُ هو فلان وفلان، لأننا لا ندري ما يُختمُ له، ولا ندري هل بَاطنُه كظاهره، فلذلك لا نشهد له بِعَيْنه. فإذا مات رجلٌ مَشْهودٌ له بالخير قلنا: نَرْجُو أن يكون من أهل الجنة، لكن لا نشهد أنه من أهل الجنة.

٢ ـ قسمٌ آخر نشهدُ له بعيْنه، وهم الذين شَهِدَ لهم النبيُّ ﷺ بأنهم في الجنَّة، مثلُ العشرةِ المُبشَّرين بالجنَّة، وهم أبوبكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، وسعيد بن زيد، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمٰن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة عامر بن الجراح، والزُّبير بن العوام، رضي الله عنهم.

ومثلُ ثابت بن قيس بن شماس، ومثلُ سعد بن معاذ، ومثلُ عبدالله بن سلام، ومثلُ بلال بن رباح وغيرهم، رضي الله عنهم، ممَّن عيَّنهم الرسول عليه الصلاة والسلام، فهؤلاء نشهد لهم بأعيانهم، نقول: نشهد بأن أبابكر في الجنَّة، ونشهد بأنَّ عمرَ في الجنَّة، ونشهد بأن عثمان في الجنة، نشهد بأن عليًّا في الجنة، وهكذا.

ومن ذلك هذه المرأة التي قال ابن عباس لتلميذه عطاء بن أبي رباح: «ألا أُريك امْرأةً من أهْل الجنة؟ قلتُ: بلى! قال: هذه المرأة السَّوداء».

امرأةٌ سوداءُ لا يؤبه لها في المجتمع، كانت تُصْرَعُ وتنكشف،

فأخبرتِ النبيَّ عليه الصلاة والسلام وسألتُه أن يدعوَ الله لها، فقال لها «إن شئتِ دَعَوْتُ الله لَكِ، وإنْ شئت صَبَرْتِ ولك الجنة. قالت: أَصْبر، وإن كانتْ تتألَّم وتتأذَّى من الصَّرع، لكنها صبرتْ من أجل أن تكون من أهل الجنة. ولكنها قالت: يا رسول الله إني أتكشَّفْ، فادْعُ الله أن لا أتكشَّف. فدعا الله أن لا تتكشف، فصارت تُصْرَعُ ولا تتكَشَّف.

والصَّرع ـ نعوذ بالله منه ـ نوعان:

١ ـ **صرْعٌ بسببِ تشنُّج الأعصاب**: وهذا مرض عضوي يمكن أن يُعالج من قِبَل الأطباء الماديين، بإعطاء العقاقير التي تُسَكِّنه أو تُزيله تمامًا.

٢ ـ **وقسمٌ آخر بسببِ الشياطين والجنّ**، يتسلَّط الجنِّيُّ على الإنسيِّ فيصرعهُ ويدخلُ فيه، ويضرب به على الأرض، ويغمى عليه من شدَّة الصرع ولا يحسّ، ويتلبَّسُ الشيطان أو الجنيُّ بنفسِ الإنسانِ ويبدأ يتكلم على لسانه، الذي يسمعُ الكلام يقول إن الذي يتكلّم الإنسيُّ، ولكنه الجنيّ، ولهذا تجدُ في بعض كلامه الاختلاف، لا يكون ككلامه وهو مُستيقظ؛ لأنه يتغيَّرُ بسبب نطق الجني.

هذا النوع من الصَّرع ـ نسألُ الله أن يُعيذنا وإيَّاكم منه ومن غيره من الآفات ـ هذا النوعُ علاجهُ بالقراءةِ من أهلِ العلم والخير، يقرأون على هذا المصروع.

فأحيانًا يُخاطبهم الجنيُّ ويتكلَّم معهم، ويُبيِّنُ السَّبب الذي جعله يصْرعُ هذا الإنسيّ، وأحيانًا لا يتكلم.

وقد ثبت صَرعُ الجنِّيِّ للإنسيِّ بالقرآن، والسُّنة، والواقع.

ففي القرآن قال الله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وهذا دليلٌ على أن الشيطانَ يتخبَّطُ الإنسانَ من المَسِّ وهو الصرع.

وفي السنة: روى الإمام أحمد في مسنده «أن النبي ﷺ كان في سفرٍ من أسفاره، فمرَّ بامرأة معها صبيّ يُصْرعُ، فأتتْ به إلى النبيِّ عليه الصلاة والسلام، وخاطب الجنِّي وتكلَّم معهُ وخرج الجنِّي. فأعطتْ أمُّ الصبيِّ الرسول ﷺ هديةً على ذلك»[١].

وكذلك أيضًا كان أهلُ العلم يخاطبون الجنِّي في المصروعِ ويتكلمون معه، ومنهم شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ذكر ابن القيم[٢] ـ وهو تلميذُ شيخِ الإسلام ابن تيمية ـ أنه جيء إلى شيخ الإسلام برجل مَصْروع، فجعل يقرأ عليه ويُخاطبهُ ويقول لها: اتقي الله اخْرُجي ـ لأنها امرأة ـ فتقول له: إني أريدُ هذا الرجلَ وأحبُّه، فقال لها شيخ الإسلام: لكنَّه لا يحبُّك اخرجي، قالت إني أُريد أن أحج به. قال هو لا يريدُ أن تحجِّي به اخرجي. فأبت، فجعل يقرأ عليها ويضربُ الرجل ضربًا عظيمًا، حتى إن يدَ شيخِ الإسلام أوجَعَتْهُ من شدَّةِ الضَّرب.

فقالت الجنيّة: أنا أخرجُ كَرَامةً للشيخ، قال: لا تخرجي كرامةً لي، اخرجي طاعةً لله ورسوله. فما زال بها حتى خرجت، ولما خرجت

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، (٤/ ١٧٠، ١٧١، ١٧٢). وصحَّح الألباني إسناده في تعليقه على أحاديث المشكاة رقم (٥٩٢٢).

(٢) زاد المعاد (٤/ ٦٨، ٦٩).

استيقظ الرَّجل فقال: ما الذي جاء بي إلى حضرة الشيخ؟ قالوا: سبحان الله! أما أَحْسَسْتَ بالضَّرب الذي كان يضربك أشدَّ ما يكون؟ قال ما أَحْسسْتُ بالضَّرب ولا أَحْسستُ بشيء. والأمثلة على هذا كثيرة.

هذا النَّوع من الصرعِ له علاجٌ يدفعه، وله علاجٌ يَرْفَعه.

فهو نوعان:

١ ـ **أمَّا دفْعُه**: فبأن يحرصَ الإنسان على الأوْرَاد الشِّرعية الصباحية والمسائية. وهي معروفة في كتب أهل العلم، منها: آيةُ الكرسيّ، فإن من قرأها في ليلهِ لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يَقْربُه شَيْطانٌ حتى يُصْبح.

ومنها سورةُ الإخلاصِ والفلقِ والناس، ومنها أحاديثُ وردتْ عن النبيِّ عليه الصلاة والسلام. فليحرص الإنسانُ عليها صباحًا ومساءً، فإن ذلك من أسبابِ دفع أذيّةِ الجنّ.

وأمَّا الرَّفع: فهو إذا وقع بالإنسان فإنه يقرأ عليه آياتٌ من القرآنِ فيها تخويفٌ وتحذيرٌ وتذكيرٌ واستعاذةٌ بالله عزَّ وجلَّ حتى يخرج.

الشَّاهدُ من هذا الحديث قول النبيِّ ﷺ لهذه المرأة: «**إن شئتِ صَبرْتِ ولكِ الجنَّة، فقالت: أصبر**» ففي هذا دليلٌ على فضيلةِ الصبر، وأنه سببٌ لدخول الجنَّة. والله الموفِّق.

* * *

٣٦ ـ وعن أبي عبدالرحمن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: كأنِّي أنظُرُ إلى رسولِ الله ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء، صلواتُ الله وسلامهُ عليهم، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فأدْمَوْهُ، فجَعَلَ يَمْسَحُ الدَّمَ عن وجهه، وهو يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ

لِقَوْمي فإنَّهُمْ لا يَعْلمُون»[١] [متفق عليه].

الشرح

هذا الحديثُ يحكي النبيُّ ﷺ فيه شيئًا مما جَرىٰ للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والأنبياء كلَّفهم الله تعالى بالرِّسالة لأنهم أهل لها، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فهم أهلٌ لها في التحمُّلِ والتَّبليغِ والدَّعوةِ والأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر والصَّبر على ذلك، وكان الرُّسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يُؤذَوْنَ بالقولِ وبالفعل، وربما بلغَ الأمر إلى قتلهم، وقد بيَّن الله ذلك في كتابه حيث قال لنبيه ﷺ ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٌ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٤ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ﴾ أي: إن استطعتَ ذلك فافعل ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ﴾ ولكن لحكمةٍ اقتضتْ أن يكذِّبوك، حتى يتبيّن الحقُّ من الباطل بعد المصارعة والمجادلة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤، ٣٥].

حكى نبيُّنا ﷺ عن نبيٍّ من الأنبياءِ أنَّ قومَهُ ضربوه، ولم يضربوهُ إلاَّ حيث كذَّبوهُ حتى أدْمَوا وجهه، فجعل يمسحُ الدمَ عن وجهه ويقول: اللهم اغْفرْ لقومي فإنهم لا يعلمون، وهذا غايةُ ما يكون من الصبر، لأن الإنسانَ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب رقم (٥٤) رقم(٣٤٧٧)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أُحد، رقم (١٧٩٢).

لو ضُرِبَ على شيءٍ من الدنيا لاستشاطَ غضبًا، وانتقم ممن ضربه، وهذا يدعو إلى الله، ولا يتَّخذُ على دعوتهِ أجرًا، مع هذا يضربونه حتى يدموا وجهه، وهو يمسحُ الدَّم عن وجهه ويقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُون».

وهذا الذي حدَّثنا به رسولُ الله ﷺ لم يُحَدِّثْنا به عَبثًا أو لأجلِ أن يقطعَ الوَقت علينا بالحديث، وإنما حدَّثنا بذلك من أجلِ أن نتخذ منه عبرة نَسيرُ عليها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]، والعبرةُ من هذا أن نصبرَ على ما نُؤذَىٰ به من قولٍ أو فعلٍ في سبيلِ الدَّعوة إلى الله، وأن نقول مُتَمَثِّلين:

هــل أنــتِ إلاَّ إصْبــعٌ دَميْــتِ ... وفِــي سَبِيــل الله مَــا لَقِيــتِ[1]

وأن نصبرَ على ما يُصيبنا مما نسمعه أو يُنقل إلينا مما يُقال فينا بسببِ الدعوةِ إلى الله، وأن نرىٰ أن هذا رِفْعَةٌ لدرجاتنا وتكفيرٌ لسيئاتنا، فعسىٰ أن يكون في دعوتنا خلل مِنْ نَقْصٍ في الإخلاص أو من كيفيَّةِ الدَّعوة وطريقها، فيكونُ هذا الأذىٰ الذي نسمع، يكونُ كفَّارةً لما وقع منَّا، لأنَّ الإنسان مهما عملَ فهو ناقصٌ لا يمكنُ أن يكملَ عمَله أبدًا، إلا أن يشاء الله، فإذا أُصيبَ وأُوذي في سبيل الدَّعوةِ إلى الله فإن هذا من بابِ تكميلِ دَعْوته ورفعةِ درجته، فليصبرْ ولْيَحْتَسِبْ ولا ينكصْ على عقبيه، لا يقول

---

(١) قال ذلك النبي ﷺ وقد دميت أصبعه في بعض المشاهد. أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب من ينكب أو يطعن في سبيل الله، رقم (٢٨٠٢)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٦).

لستُ بمُلْزَم، أنا أصابني الأذى، أنا أوذيت، أنا تعبت، بل الواجب الصبر، والدنيا ليستْ طويلة! أيامٌ ثم تزول، فاصبرْ حتى يأتيَ الله بأمره.

وفي قول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «كأنِّي أنظرُ إلى النبي ﷺ وهو يحكي لنا» فيه دليلٌ على أن المحدِّثَ أو المُخْبِرَ يخبر بما يؤيِّد ضبطه للخبر والحديث. وهذا أمر شائع عند الناس، يقول: كأني أنظر إلى فلان وهو يقول لنا كذا وكذا، أي: كأني أنظر إليه الآن، وكأني أسمعُ كلامه الآن.

فإذا استعملَ الإنسانُ مثل هذا الأسلوبِ لتثبيتِ ما يحدِّث به فلَهُ في ذلك أسوةٌ من السَّلفِ الصالحِ رضي الله عنهم. والله الموفِّق.

* * *

٣٧ ـ وعن أبي سعيد وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ عن النبيِّ ﷺ قال: «ما يُصيبُ المُسلِمَ مِنْ نَصَب ولاَ وَصَبٍ، ولاَ هَمٍّ ولا حَزَنٍ، ولاَ أذىً ولا غمٍّ، حتى الشوكةُ يُشاكُها، إلا كفَّرَ الله بها من خطاياه»(١) [متفق عليه]، **و«الوَصَبُ»: المرضُ.**

٣٨ ـ وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: دخلْتُ على النبيِّ ﷺ وهو يُوْعَكُ، فقلتُ: يا رسولَ الله، إنَّكَ تُوْعَكُ وعْكًا شَديدًا، قال: «أجَلْ إنِّي أوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلانِ مِنْكُمْ» قلتُ: ذلكَ أنَّ لكَ أَجْرَيْن؟ قال: «أجلْ، ذلِكَ كَذلكَ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصيبُهُ أذى؛ شَوْكةٌ فما فوقَهَا، إلاَّ كفَّرَ الله بِهَا سيِّئاتِه،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفَّارة المرض، رقم (٥٦٤١)، ومسلم، كتاب البرِّ والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض...، رقم (٢٥٧٣).

وحُطَّتْ عنْهُ ذُنوبُهُ كَما تَحُطُّ الشجرةُ وَرَقَها»(١) [متفق عليه].

و «الوَعْكُ»: مَغْثُ الحُمَّىٰ، وقيل: الحمى.

الشرح

هذان الحديثان: حديث أبي سعيد وأبي هريرة وابن مسعود ـ رضي الله عنهم ـ فيهما دليلٌ على أن الإنسان يُكَفَّرُ عنه بما يُصيبه من الهمِّ والنَّصب والغَمِّ وغيرِ ذلك، وهذا من نعمة الله سبحانه وتعالىٰ، يَبْتَلي سبحانه وتَعالىٰ عبده بالمَصائب وتكون تكفيرًا لِسَيِّئاته وحطًّا لذنوبه.

والإنسانُ في هذه الدُّنيا لا يمكنُ أن يبقىٰ مَسْرُورًا دائمًا، بل هو يومًا يُسَرُّ ويومًا يحزن، ويومًا يأتيهِ شيء ويومًا لا يأتيه، فهو مُصَابٌ بمصائبَ في نفسه ومصائب في بدنه. ومصائبَ في مجتمعه ومصائبَ في أهله، ولا تحصىٰ المصائبُ التي تُصيب الإنسان، ولكن المؤمن أمْرُه كُلُّه خير، إن أصابته ضرَّاء صبرَ فكان خيرًا له، وإن أصابته سَرَّاء شكرَ فكان خيرًا له.

فإذا أُصبتَ بالمصيبةِ فلا تظنَّ أن هذا الهمَّ الذي يأتيك أو هذا الألمَ الذي يأتيك ولو كان شَوْكة، لا تظنَّ أنَّه يذهبُ سُدىً، بل ستُعوَّضُ عنه خيرًا منه، ستُحَطُّ عنك الذنوب كما تحطُّ الشجرةُ ورقَها، وهذا من نعمة الله.

وإذا زاد الإنسانُ على ذلك الصبرَ والاحتساب، يعني: احتسابَ

(١) أخرجه البخاري، كتاب المرضىٰ، باب أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء، رقم (٥٦٤٨)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض... رقم (٢٥٧١).

الأجر، كان له مع هذا أجر.

فالمصائب تكون على وجهين:

١ ـ تارةً إذا أُصيبَ الإنسان تذكر الأجر واحْتَسَبَ هذه المصيبة على الله، فيكون فيها فائدتان: تكفير الذُّنوب؛ وزيادة الحسنات.

٢ ـ وتارةً يغفلُ عن هذا فيضيقُ صدره، ويصيبه ضجرٌ أو ما أشبه ذلك، ويغفلُ عن نية احتسابِ الأجرِ والثوابِ على الله، فيكون في ذلك تكفيرٌ لسيئاته، إذًا هو رابِحٌ على كُلِّ حَالٍ في هذه المصائب التي تأتيه.

فإمَّا أن يَرْبح تكفيرَ السَّيئاتِ وحطَّ الذُّنوبِ بدون أن يحصل له أجر؛ لأنه لم يَنْوِ شيئًا ولم يَصْبرْ ولم يحتسب الأجر. وإمَّا أن يربَح شيئين: تكفيرَ السيئات، وحصول الثواب من الله عزَّ وجلَّ كما تقدم.

ولهذا ينبغي للإنسان إذا أُصيب ولو بشوكة، فليتذكر احتساب الأجر من الله على هذه المصيبة، حتى يؤجر عليها، مع تكفيرها للذنوب.

وهذا من نعمةِ الله سبحانه وتعالىٰ وجُوده وكَرَمه، حيث يبتلي المؤمنَ ثمَّ يُثيبه على هذه البَلوى أو يُكفِّرُ عنه سيئاته.

فالحمد لله رب العالمين.

* * *

٣٩ ـ وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ يُرِدِ الله به خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ»(١) [رواه البخاري].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المرضىٰ، باب ما جاء في كفارة المرض، رقم (٥٦٤٥).

الشرح

قوله: «يُصب» قُرئتْ بوجهين: بفتح الصاد (يُصَب) وكسرها (يُصِب) وكلاهما صحيح.

أما «يُصِبْ منه» فالمعنى أن الله يُقَدِّر عليه المصائبَ حتى يبْتليه بها: أيصبر أم يضجر. وأما «يُصَبْ منه» فهي أعَمُّ، أي: يُصابُ من الله ومن غيره.

ولكن هذا الحديثَ المطلقَ مُقيَّدٌ بالأحاديث الأخرى التي تدلُّ على أن المراد: من يُرِدِ الله به خيرًا فيصبر ويحتسب، فيصيبُ الله منه حتى يَبْلوَهُ.

أما إذا لَم يَصْبرْ فإنه قد يُصَابُ الإنسانُ ببلايا كثيرةٍ وليس فيه خير، ولم يُردِ الله به خيرًا.

فالكفار يُصابون بمصائبَ كثيرة، ومع هذا يبقون على كفرهم حتى يموتوا عليه، وهؤلاء بلا شك لم يرد الله بهم خيرًا.

لكن المراد: من يُرِدِ الله به خيرًا فيصيبُ منه فيصبر على هذه المصائب، فإن ذلك من الخير له، لأنه سبق أن المصائبَ يكفِّرُ الله بها الذُّنوب ويحطُّ بها الخطايا، ومن المعلومِ أن تكفيرَ الذُنوب والسيئاتِ وحَطَّ الخطايا لا شكَّ أنه خيرٌ للإنسان، لأَنَّ المصائب غاية ما فيها أنَّها مصائب دنيويةٌ تزُول بالأيام، كلَّما مضتِ الأيام خفَّت عليك المصيبة، لكن عذاب الآخرة باقٍ - والعياذ بالله! - فإذا كفَّر الله عنك بهذه المصائب صار ذلك خيرًا لك.

* * *

٤٠ ـ وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يَتَمنَّينَّ أحَدُكُمُ الموْتَ لضُرٍّ أصابَهُ، فإنْ كانَ لابُدَّ فَاعلاً فلْيَقُل: اللَّهُمَّ أحْيني مَا كَانَت الحَياةُ خَيْرًا لِي، وتَوَفَّني إذا كَانتْ الوَفَاةُ خَيْرًا لِي»[1] [متفق عليه].

في هذا الحديث نهى النبيُّ ﷺ الإنسانَ أن يتمنىٰ الموتَ لضُرٍّ نَزَل به. وذلك أنَّ الإنسان ربَّما ينْزِل به ضُرٌّ يَعْجزُ عن التَّحمُّلِ ويتْعَب؛ فيتمنىَ الموت، يقول: يا رب أمِتْنِي، سواء قال ذلك بلسانه أوْ بقلبه. فنهى النبيُّ ﷺ عن ذلك، فقال: «**لا يتمنينَّ أحدكم الموتَ لضُرٍّ نزل به**» فقد يكونُ هذا خيرًا له.

ولكن إذا أُصِبْتَ بِضُرٍّ فقل: اللَّهُمَّ أعنِّي على الصبرِ عليه، حتَّى يُعِيْنَكَ الله فتصبر، ويكون ذلك لك خيرًا.

أما أن تتمنَّى الموتَ فأنت لا تدْري، ربما يكون الموت شرًّا عليك لا يَحْصلُ به راحة، ليس كلُّ موتٍ راحة، كما قال الشاعر:

ليْس من ماتَ فاسْتَراحَ بِمَيْت إنَّمــا المَيْــتُ مَيِّــتُ الأحيــاءِ

الإنسانُ ربما يموت فيموت إلى عُقُوبةٍ ـ والعياذُ بالله ـ وإلى عذابِ قبر، وإذا بقي في الدنيا فربما يستعْتبُ ويتوبُ ويرجعُ إلى الله فيكون خيرًا له؛ فإذا نزل بك ضرٌّ فلا تتمنَّ الموت، وإذا كان الرَّسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ نهى أن يتمنَّى الإنسان الموتَ للضرِّ الذي نزل به، فكيف بمن

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المرضىٰ، باب تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧١)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب كراهة تمني الموت لضرٍ نزل به، رقم (٢٦٨٠).

يقتلُ نفسه إذا نزل به الضرّ، كما يوجدُ من بعض الحَمْقىٰ الذين إذا نزلتْ بهم المضَائقُ خَنَقُوا أنفسهم أو نحرُوها أو أكلوا سُمًّا أو ما أشبه ذلك، فإن هؤلاء ارتحلوا من عذاب إلى أشدَّ منه، فلم يستريحوا، لكن ـ والعياذُ بالله ـ انتقلوا من عذابٍ إلى أشدّ. لأن الذي يقتلُ نفسَهُ يُعذَّبُ بما قَتل به نفسه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، كما جاء ذلك عن النبيِّ ﷺ[1]، إن قتل نفسه بحديدة ـ خَنْجر أو سكين أو مسمار أو غير ذلك ـ فإنّه يوم القيامة في جهنم يَطعن نفسه بهذه الحديدة التي قتلَ بها نفسه.

وإن قتلَ نفسه بِسُمٍّ فإنّه يتحسَّاهُ في نار جهنّم، وإن قتلَ نفسه بالتردِّي من جبلٍ فإنه يُنصَبُ له جبل في جهنَّم يتردَّى منه أبد الآبدين وهلمَّ جرّا!

فأقول: إذا كان النبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ نهى أن يتمنَّى الإنسانُ الموت للضرِّ الذي نزل به، فإن أعظم من ذلك أن يقتلَ الإنسانُ نفسه ويبادر الله بنفسه، نسأل الله العافية.

ولكن الرَّسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لمَّا نهى عن شيء، كان من عادته إذا كان له بديل من المباح أن يذكر بديله من المباح كما هي طريقة القرآن، قال الله سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا ﴾ [البقرة: ١٠٤]، فلما نَهى الله عن كلمة «راعِنا» بيَّن لنا الكلمة المباحة، قال: ﴿ وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا ﴾.

ولمَّا جيءَ للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بتمرٍ جيِّدٍ استنْكرَهُ وقال: ما

---

(١) تقدم تخريجه ص (٢٢٢).

هذا؟ «أكلُّ تمرِ خيبرَ هكذا؟» قالوا: لا، والله يا رسول الله، إنا لنشتري الصَّاع من هذا بالصَّاعين، والصَّاعين بالثلاثة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تفعل، لكن بعِ الجمعَ بالدَّراهم، ثم ابتعْ بالدَّراهم جنيباً»[1] يعني تمرًا طيبًا. فلمَّا منعهُ بيَّن له الوَجْه المباح.

هنا قال: «لا يَتَمنَّينَّ أحدكُم الموتَ لضُرٍّ نَزَلَ به، فإن كانَ لابُدَّ فاعلاً فليقل: «اللَّهُمَّ أحْيِني ما علمتَ الحياةَ خيرًا لي، وتوفَّني إذا علمْتَ الوفاة خيرًا لي».

فتح لك الباب لكنه بابٌ سليم، لأنَّ تمني الموتِ يدلُّ على ضجر الإنسان وعدم صبره على قضاء الله، لكن هذا الدعاء «اللهم أحيني ما كانت الحياةُ خيرًا لي وتوفَّني إذا علمتَ الوفاةَ خيرًا لي» هذا الدعاء وكَّلَ الإنسان فيه أمره إلى الله، لأن الإنسان لا يعلمُ الغيب، فيَكِلُ الأمرَ إلى عالمهِ عزَّ وجلَّ «أحيني ما علمتَ الحياةَ خيرًا لي، وتوفَّني إذا علمتَ الوفاةُ خيرًا لي».

تَمَني الموت اسْتِعْجالٌ من الإنسانِ بأن يَقْطعَ الله حياته، وربما يَحْرِمه من خيرٍ كثير، ربما يحرمهُ من التَّوبةِ وزيادةِ الأعمال الصَّالحة، ولهذا جاء في الحديث: «ما من ميِّتٍ يموتُ إلا نَدِم، فإن كان مُحسناً ندِمَ أنْ لا يكونَ ازْدَاد، وإن كان مُسيئًا نَدِمَ أن لا يكون استَعْتَب»[2] أي: استعتبَ من ذنبه

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه، رقم (٢٢٠١، ٢٢٠٢)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلاً بمثل، رقم (١٥٩٣[٩٥]).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب (٥٩)، رقم (٢٤٠٣)، والبغوي في شرح السنة رقم (٤٣٠٩) قال الأرناؤوط: فيه يحيى بن عبيد الله وهو ابن عبدالله بن موهب =

وطلبَ العتبى، وهي المعذرة.

فإنْ قال قائل: كيف يقول: «اللهمَّ أحيني ما كانتِ الحياةُ خيرًا لي، وتوفَّني ما علمتَ الوفاةَ خيرًا لي؟».

نقول: نعم؛ لأن الله سبحانه يعلم ما سيكون، أمَّا الإنسانُ فلا يعلم، كما قال الله ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، فأنت لا تدري قد تكونُ الحياة خيرًا لك، وقد تكونُ الوفاةُ خيرًا لك.

ولهذا ينبغي للإنسانِ إذا دعا لشخصٍ بطولِ العُمر أن يُقيِّدَ هذا فيقول: أطال الله بقاءك على طاعته، حتى يكون في طولِ بقائه خير.

فإن قال قائل: إنَّه قد جاء تمني الموتِ من مريم ابنة عمرانَ حيث قالت: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]، فكيف وقعت فيما فيه النَّهي؟

فالجواب عن ذلك أن نقول:

أولاً: يجبُ أن نعلمَ أن شرعَ مَنْ قبلنا إذا وردَ شرْعُنا بخلافه فليس بحُجَّة، لأن شرعنا نسخ كل ما سبقه من الأديان.

ثانيًا: أن مريم لم تتمنَّ الموت، لكنها تمنَّتِ الموت قبل هذه الفتنةَ ولو بقيت ألف سنة، المُهمّ أن تموت بلا فتنة، ومثلهُ قولُ يوسفَ عليه الصلاة والسلام ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى

= المدني: متروك، والحديث في ضعيف الجامع رقم (٥١٤٨).

بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، ليس معناه سُؤالَ الله أن يتوفَّاه، بل هو يسأل أن يتوفَّاه الله على الإسلام، وهذا لا بأس به، كأن تقول: اللهم توفَّني على الإسلام وعلى الإيمانِ وعلى التوحيدِ والإخلاص، أو توفَّني وأنت راضٍ عني وما أشْبَه ذلك.

فيجبُ معرفةُ الفَرق بين شخص يتمنَّى الموت من ضيقٍ نزل به، وبين شخصٍ يتمنى الموتَ على صفةٍ مُعَيَّنةٍ يرضاها الله عزَّ وجلَّ!.

فالأول: هو الذي نهى عنه الرسول عليه الصلاة والسلام.

والثاني: جائز.

وإنما نهىٰ النبيُّ - عليه الصلاة والسلام - عن تمني الموت لِضُرٍّ نزل به؛ لأن من تمنى الموت لضُرٍّ نزل به ليس عنده صبر، الواجبُ أن يصبر الإنسان على الضُّرِّ، وأن يحتسبَ الأجرَ من الله عزَّ وجلَّ، فإن الضَّررَ الذي يُصيبك من همّ أو غمٍّ أو مَرَضٍ أو أي شيء مُكَفِّرٌ لسيئاتك، فإن احتسبت الأجر كان رفعةً لدرجاتك. وهذا الذي ينالُ الإنسانَ من الأذى والمرضِ وغيره لا يدُوم، لابُدَّ أن ينتهي، فإذا انتهى وأنت تكسبُ حَسنات باحتسابِ الأجرِ على الله عزَّ وجلَّ ويُكَفَّرُ عنك من سيئاتك بسببه؛ صار خيرًا لك، كما ثبت عن النبيِّ - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: «**عجبًا لأمرِ المؤمن، إنَّ أمره كلَّه خير، وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمن، إنْ أصابتْهُ ضرَّاءُ صبرَ فكان خيرًا له، وإنْ أصابتْهُ سرَّاءُ شكر فكان خيرًا له**»[1]، فالمؤمن على كلِّ حال

---

(١) تقدم تخريجه ص (١٩٧).

هو في خير، في ضرَّاء أو في سَرَّاء.

* * *

٤١ ـ وعن أبي عبد الله خبَّاب بن الأرتِّ ـ رضي الله عنه ـ قال: شَكونا إلى رسولِ الله ﷺ وهو متوسِّدٌ بُرْدَةً له في ظلِّ الكعبة، فقلنا: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا، ألا تَدْعُو لنا؟ فقال: قدْ كانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفرُ لهُ في الأرضِ فَيُجْعَلُ فيهَا، ثُمَّ يُؤتَىٰ بالمنْشَارِ فيُوضعُ عَلَى رأسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، ويُمْشَطُ بأمْشَاطِ الحَديدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وعَظْمِهِ، مَا يَصُدُّهُ ذلكَ عنْ دِينِهِ، واللهِ ليُتِمَّنَّ الله هذَا الأمْرَ حَتَّى يَسيرَ الرَّاكبُ مِنْ صَنْعاءَ إلى حَضْرَموتَ لا يَخَافُ إلاَّ الله والذِّئبَ على غَنَمِهِ، ولٰكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[١]

[رواه البخاري].

وفي رواية: «وهُوَ مُتَوسِّدٌ بُرْدَةً، وقَدْ لَقِينا مِنَ المُشْرِكينَ شِدَّةً».

الشرح

حديث أبي عبدالله خبّاب بن الأرتّ ـ رضي الله عنه ـ يحكي ما وجده المسلمونَ من الأذيّةِ من كفارِ قريش في مكة، فجاؤوا يشكون إلى النبي ﷺ: **«وهو متوسِّدٌ بُرْدَةً له في ظل الكعبة»** صلواتُ الله وسلامه عليه. فبيَّن النبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنَّ من كان قبلنا ابتُلي في دينه أعظمَ ممَّا ابتُلي به هؤلاء، يُحْفَرُ له حُفْرةٌ ثم يُلقى فيها، ثم يؤتى بالمِنْشَار على مفرقِ رأسه ويشقّ، يُمَشَّطُ بأمشاط الحديد ما بين جِلْدِه وعظمه، بأمشاط الحديد

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦١٢).

يمشَّط، وهذا تعزيرٌ عظيمٌ وأذِيَّة عظيمة.

ثم أقسم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنَّ الله سبحانه سيتمُّ هذا الأمر، يعني سيتمُّ ما جاء به الرَّسول عليه الصلاة والسلام من دعوة الإسلام، حتى يَسيرَ الرَّاكب من صنعاءَ إلى حضرموت لا يخشىٰ إلاَّ الله والذّئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون. أي: فاصبروا وانتظروا الفرَج من الله، فإنَّ الله سيتمُّ هذا الأمر. وقد صار الأمر كما أقسم عليه النبيُّ عليه الصلاة والسلام.

ففي هذا الحديثِ آيةٌ من آياتِ الله، حيث وقع الأمر مُطابقًا لما أخبرَ به النبيُّ عليه الصلاةُ والسلام.

وآية من آياتِ الرسول ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ حيث صدَّقه الله بما أخبر به، وهذه شهادة له من الله بالرسالة، كما قال الله ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

وفيه أيضًا دليلٌ على وجوب الصَّبر على أذيَّةِ أعداءِ المسلمين. وإذا صبرَ الإنسان ظفر!!

فالواجبُ على الإنسان أن يُقابل ما يَحصلُ من أذيَّة الكفار بالصبرِ والاحتسابِ وانتظارِ الفرج، ولا يظُنَّ أن الأمرَ ينتهي بسرعة وينتهي بِسُهولة، قد يبتلي الله عزَّ وجلَّ المؤمنين بالكُفَّار يُؤذُونهم وربما يقتلونهم، كما قتلَ اليهودُ الأنبياءَ الذين هم أعظمُ من الدُّعاةِ وأعْظمُ من المسلمين. فليصبرْ ولينتظرِ الفرج ولا يملَّ ولا يضجرْ، بل يبقىٰ راسِيًا كالصخرة، والعاقبةُ للمتقين، والله تعالى مع الصابرين.

فإذا صبرَ وثابر وسَلك الطُّرقَ التي توصلُ إلى المقصود ولكن بدون

فوضى وبدون استنفار وبدون إثارة، ولكن بطريق مُنَظَّمة، لأن أعداء المُسْلمين من المنافقين والكفار يمشون على خطى ثابتة منظَّمة ويحصلون مَقْصُودهم.

أما السَّطحيون الذين تأخذهم العواطف حتى يَثُوروا ويستنفروا، فإنَّه قد يفوتهم شيءٌ كثيرٌ، وربما حَصَل منهم زلَّة تفسدُ كُلَّ ما بنوا، إن كانوا قد بنوا شيئًا.

لكنَّ المؤمن يصبرُ ويتَّئد، ويعملُ بتؤدة ويوطِّنُ نفسه، ويخطِّطُ تخطيطًا منظَّمًا يقضي به على أعداءِ الله من المنافقين والكفار، ويفوِّتُ عليهم الفُرص؛ لأنهم يَتَربَّصون الدَّوائرَ بأهل الخير، يُريدون أن يُثِيرُوهم، حتى إن حصلَ من بعضهم ما يحصلُ حينئذ استعلوا عليهم وقالوا: هذا الَّذي نُريد، وحصل بذلك شرٌّ كبير.

فالرسول ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ قال لأصحابه اصبروا، فمن كان قبلكم ـ وأنتم أحقُّ بالصبر منه ـ كان يُعْمَلُ به هذا العملُ ويصبر، فأنتم يا أمَّة محمَّدٍ أمَّةُ الصَّبر والإحسان، اصبروا حتى يأتيَ الله بأمْره، والعاقبة للمتقين.

فأنت أيُّها الإنسان لا تسكتْ عن الشرِّ، ولكن اعملْ بنظام وبتخطيطٍ وبحسنِ تصرُّفٍ وانتظرِ الفرجَ من الله، ولا تملّ، فالدربُ طويلٌ، لاسيَّما إذا كنت في أوَّلِ الفتنة، فإن القائمين بها سوف يحاولون ـ ما استطاعوا ـ أن يصلوا إلى قِمَّة ما يريدون، فاقطعْ عليهم السَّبيل، وكنْ أطْولَ منهم نفسًا وأشَدَّ منهم مكرًا، فإن هؤلاء الأعداءَ يمكرون، ويمكرُ الله، والله خيرُ

الماكرين، والله الموفق.

* * *

٤٢ ـ وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: لمَّا كان يومُ حُنَيْنٍ، آثرَ رسولُ الله ﷺ ناسًا في القِسْمة، فأعْطَى الأقْرَعَ بنَ حابسٍ مائةً من الإبل، وأعْطَى عُيَيْنَةَ بنَ حِصْنٍ مثلَ ذلك، وأعطى نَاسًا منْ أشْرافِ العَربِ وآثرهم يؤمئذٍ في القِسْمة. فقال رجلٌ: واللهِ إنَّ هذهِ قِسْمةٌ ما عُدِلَ فيها، وَمَا أُرِيْدَ فِيْهَا وجهُ الله، فقلت: والله لأُخْبِرنَّ رسولَ الله ﷺ، فاتيتُهُ، فأخْبرتهُ بما قال، فتغيَّرَ وجههُ حتى كان كالصِّرْف. ثم قال: «فمَنْ يَعْدِلُ إذَا لَمْ يَعْدِلِ الله ورَسُولُه؟ ثُمَّ قال: يَرْحَمُ الله مُوسَى، قَدْ أُوذِي بأكْثرَ مِنْ هٰذا فَصَبرَ». فقلت: لا جَرَمَ لا أرْفَعُ إليه بعدها حديثًا[1]. [متفق عليه].

وقوله: «كالصِّرْف» هو بكسرِ الصاد المهملة: وهو صِبْغٌ أحْمَرُ.

الشرح

هذا الحديثُ الذي نقله المؤلفُ ـ رحمه الله ـ عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه «لمَّا كان غزوةُ حُنين» وهي غزوةُ الطَّائف التي كانت بعد فتحِ مكة، غزاهم الرَّسول ﷺ، وغنمَ منهم غنائمَ كثيرة جدًّا من إبل، وغنم، ودَرَاهِم ودنانير، ثم إن النبي ﷺ نزلَ بالجِعرَّانة، وهي محلٌّ عند

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، رقم (٣١٥٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، رقم (١٠٦٢).

منتهى الحرمِ من جهة الطَّائف، نزلَ بها وصار ﷺ يقسمُ الغنائم، وقسمَ في المؤلفة قلوبهم - أي: في كبار القبائل - يؤلِّفهم على الإسلام، وأعطاهم عطاءً كثيرًا، حتى كان يُعطي الواحدَ منهم مائة من الإبل.

فقال رجلٌ من القوم: «والله إنَّ هذه قسمةٌ ما عُدِلَ فيها ومَا أُريد فيها وجْهُ الله» - نعوذ بالله - يقولُ هذا القولَ في قسمةٍ قَسمَهَا رسولُ الله ﷺ لكن حُبَّ الدُّنيا والشَّيطان يوقعُ الإنسانَ في الهَلَكة. نسأل الله العافية. هذه الكلمة كلمةُ كفر، أن يَنْسبَ الله ورسوله إلى عدم العَدل، وإلى أن النبيَّ ﷺ لم يُرِدْ بها وجْهَ الله، ولا شكَّ أن النبيَّ ﷺ أرادَ بهذه القسمة وجه الله، أراد أن يؤلِّفَ كبارَ القبائل والعشائرِ من أجلِ أن يتقوَّىٰ الإسلام، لأن أسيادَ القوم إذا ألفوا الإسلامَ وقوي إيمانهم بذلك حصل منهم خير كثير، وتبعهم على ذلك قبائلُ وعشائر، واعتزَّ الإسلامُ بهذا. ولكنَّ الجهلَ - والعِياذُ بالله - يُوقع صاحبه في الهَلَكة.

عبدالله بن مسعود رضي الله عنه لمَّا سمع هذه الكلمةَ تُقالُ في رسول الله ﷺ أخبر بها النبيّ ﷺ ورفعها إليه. أخبره بأن هذا الرجلَ يقولُ كذا وكذا، فتغيَّرَ وجهُ الرسول ﷺ حتى كان كالصِّرْف - أي كالذهب - من صُفرته وتغيُّره، ثم قال: «**فمنْ يَعْدِلُ إذَا لَمْ يَعْدِلِ الله ورَسُوله**» وصدق النبيُّ عليه الصلاة والسلام! إذا كانت قسمةُ الله ليستْ عدلاً، وقسمةُ رسوله ليستْ عدلاً، فمن يعدلُ إذًا! ثم قال «**يرْحَمُ الله مُوسىٰ، لقد أوذِيَ بأكثر مِنْ هَذَا فَصَبرَ**».

والشاهدُ من الحديثِ هذه الكلمة، وهي أنَّ الأنبياء - عليهم الصلاة

والسلام ـ يُؤذَوْنَ ويصْبِرُون، فهذا نبيُّنا ﷺ قيل له هذا الكلامُ بعد ثماني سنين من هجرته. يعني ليس في أول الدَّعوة، بل بعدما مكَّنَ الله له، وبعدما عُرِفَ صدقه وبعدما أظهرَ الله آياتِ الرسولِ في الآفاق وفي أنفسهم، ومع ذلك يُقال: هذه القِسْمة لم يَعْدِل فيها ولم يُرِدْ بها وجهَ الله.

فإذا كان هذا قولَ رجلٍ في صحابة النبيِّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ للنبيِّ ﷺ فلا تستغربْ أن يقول النَّاس في عالمٍ من العلماء: إن هذا العالم فيه كذا وفيه كذا ويصِفُونه بالعُيوب، لأن الشَّيطان هو الذي يَؤزُّ هؤلاء على أنْ يقدحوا في العلماء، لأنهم إذا قدحوا في العلماء وسقطتْ أقوالهم عند الناس ما بقي للنَّاس أحدٌ يَقُودُهم بكتاب الله. من يقودهم بكتاب الله إذا لم يثقوا بالعلماء وأقوالهم؟ تقودهم الشَّياطين وحزب الشيطان، ولذلك كانت غِيْبَةُ العلماء أعظمَ بكثيرٍ من غِيْبَةِ غيرِ العلماء، لأن غِيْبَةَ غير العلماء غِيْبةٌ شخصيَّة، إنْ ضرَّتْ فإنها لا تضرُّ إلا الذي اغتاب والذي قِيلتْ فيه الغيبة، لكنَّ غيبةَ العلماء تَضُرُّ الإسلامَ كُلَّه؛ لأنَّ العلماء حَمَلَةُ لواءِ الإسلام، فإذا سقطتِ الثِّقة بأقوالهم؛ سقط لِواءُ الإسلام، وصار في هذا ضَرَرٌ على الأمَّة الإسلامية.

فإذا كانت لحومُ الناس بالغيبة لحومَ ميتة، فإنَّ لحومَ العلماءِ مَيِّتةٌ مَسْمومة، لما فيها من الضَّرر العظيم، فلا تستغربْ إذا سمعتَ أحدًا يَسُبُّ العلماء! وهذا رسولُ الله ﷺ قيل فيه ما قيل، فاصبر، واحتسبِ الأجرَ من الله عزَّ وجلَّ، واعلمْ أن العاقبةَ للتَّقوىٰ، فما دام الإنسان في تقوىٰ وعلى نور من الله عزَّ وجلَّ فإنَّ العاقبةَ له.

وكذلك يوجدُ بعض الناس يكونُ له صَديق أو قريبٌ يخطيء مرة واحدة فيصفه بالعيبِ والسَّبِّ والشَّتم ـ والعياذُ بالله ـ في خطيئةٍ واحدة.

على هذا الذي وُصِفَ بالعيبِ أن يصبر، وأن يعلمَ أن الأنبياءَ قد سُبُّوا وأُوذُوا وكُذِّبوا، وقيل إنَّهم مجانين، وإنهم شعراء، وإنهم كهنة، وإنهم سحرة ﴿فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤]، هكذا يقول الله عزَّ وجلَّ.

ففي هذا الحديث: دليل على أن للإمام أن يُعْطِي من يَرَى في عطيَّته المصلحة ولو أكثرَ من غيره، إذا رأى في ذلك مصلحةً للإسلام، ليستْ مصلحةً شخصيَّةً يُحَابِي من يُحِب ويمنعُ من لا يحبّ، ولكن إذا رأى في ذلك مصلحةً للإسلام وزاد في العطاء، فإن ذلك إليه وهو مسؤولٌ أمام الله، ولا يحلُّ لأحد أن يعترضَ عليه، فإن اعترضَ عليه فقد ظلمَ نفسه.

وفيه: أن النبيَّ ـ عليه الصلاة والسَّلام ـ يعتبر بمن مضى من الرسل، ولهذا قال: لقد أُوذِيَ مُوسَى بأكثر من هذا فصبر، لأن الله تعالى يقول ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]، ويقول: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فأمَرَ الله نبيَّهُ ﷺ أن يقتدي بهدي الأنبياءِ قبله.

وهكذا ينبغي لنا نحن أن نقتدي بالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ في الصَّبرِ عَلَى الأذىٰ، وأن نحتسبَ الأجرَ على الله، وأن نعلم أن هذا زيادةٌ في درجاتنا مع الاحتساب، وتكفيرٌ لسيئاتنا. والله الموفِّق.

* * *

٤٣ ـ وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذَا أرادَ الله بِعَبدِهِ خَيْرًا عَجَّلَ لَهُ العُقُوبةَ في الدُّنيَا، وإذَا أرادَ الله بِعبْدِه الشَّرَّ أمْسَكَ عنْهُ بذَنْبِهِ حتَّى يُوافِيَ بِهِ يوْمَ القِيَامةِ».

وقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ عِظَمَ الجزاءِ معَ عِظَمِ البَلاءِ، وإنَّ الله تعالى إذا أحَبَّ قومًا ابْتلاهُمْ، فمَنْ رَضِيَ فَلهُ الرِّضى، ومَنْ سَخِطَ فلَهُ السُّخْطُ»(١) رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ.

الشرح

الأمور كلُّها بيد الله عزَّ وجلَّ وبإرادته، لأنَّ الله تعالى يقول عن نفسه ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، ويقول ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ [الحج: ١٨]، فكلُّ الأمورِ بيد الله.

والإنسانُ لا يخلو من خطأ ومَعْصيةٍ وتقصيرٍ في الواجب؛ فإذا أرادَ الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدُّنيا: إمَّا بماله، أو بأهله، أو بنفسه، أو بأحدٍ ممن يتَّصل به؛ لأنَّ العقوباتِ تُكفِّرُ السَّيِّئات، فإذا تعجَّلتِ العقوبةُ وكفَّرَ الله بها عن العبد، فإنه يُوافي الله وليس عليه ذنْب، قد طَهَّرَتْهُ المَصائبُ والبلايا، حتى إنَّه لَيُشدَّدُ على الإنسانِ موته لبقاءِ سيِّئةٍ أو سيئتين عليه، حتى يخرجَ من الدُّنيا نقيًّا من الذُّنوب، وهذه نعمة؛ لأنَّ عذابَ الدُّنيا أهونُ من عذابِ الآخرة.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم (٢٣٩٦)، وقال: حسن غريب. وهو في صحيح الجامع رقم (٣٠٨).

لكن إذا أرادَ الله بعبدِهِ الشرَّ أمهلَ له واستدرجه وأدرَّ عليه النعم ودفعَ عنه النّقم حتى يبطر ـ والعياذُ بالله ـ ويفرحَ فرحًا مذمومًا بما أنعم الله به عليه، وحينئذٍ يُلاَقي ربَّه وهو مَغْمُور بسيئاته فيُعاقب بها في الآخرة، نسألُ الله العافية. فإذا رأيتَ شخصًا يُبارزُ الله بالعصيان وقد وقاهُ الله البلاء وأدرَّ عليه النِّعم، فاعلمْ أن الله إنما أرادَ به شرًّا؛ لأنَّ الله أخَّرَ عنه العقوبةَ حتى يُوافَى بها يوم القيامة.

ثم ذكرَ في هذا الحديث: «إنَّ عِظَم الجَزَاء من عِظَم البَلاَء» يعني أنه كلَّما عَظُمَ البلاءُ عَظُمَ الجزاء. فالبلاءُ السَّهل له أجْرٌ يسير، والبلاء الشَّديد له أجرٌ كبير؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ ذُو فضلٍ على الناس، إذا ابتلاهم بالشَّدائدِ أعطاهم عليها من الأجرِ الكبير، وإذا هانت المصائبُ هانَ الأجر.

«وإن الله إذا أَحَبَّ قوْمًا ابتَلاهم، فمَن رَضِي فلَهُ الرِّضىٰ ومَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخط».

وهذه ـ أيضاً ـ بُشرىٰ للمؤمن، إذا ابتُلي بالمصيبةِ فلا يظنَّ أن الله سُبحانه يُبْغِضهُ، بل قد يكون هذا من علامة محبَّةِ الله للعبد، يبتليه سبحانه بالمصائب، فإذا رضيَ الإنسانُ وصبرَ واحتسبَ فله الرِّضىٰ، وإن سخط فله السُّخط.

وفي هذا حثٌّ على أنَّ الإنسان يصبرُ على المصائبِ حتى يُكتب له الرِّضىٰ من الله عزَّ وجلَّ. واللهِ الموفِّق.

* * *

٤٤ ـ وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: كان ابنٌ لأبي طَلْحَةَ ـ رضي الله عنه ـ يَشتكي، فخَرجَ أبو طلحة، فقُبِضَ الصبيُّ، فلما رَجَعَ أبو طلحة قال: ما فعلَ ابْني؟ قالتْ أمُّ سُلَيْم ـ وهِيَ أمُّ الصَّبيِّ ـ: هُوَ أسْكَنُ ما كانَ. فقَرَّبَتْ إليه العَشاءَ فتعَشّى، ثُمَّ أصابَ مِنْها، فلمَّا فَرَغَ قالتْ: وارُوا الصَّبيَّ، فلما أصْبَحَ أبو طلحةَ أتى رسولَ الله ﷺ فأخبَرَهُ، فقال «أعرَسْتُمُ اللَّيلةَ؟» قال: نَعَمْ، قال: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمَا؛ فوَلَدَتْ غُلامًا، فقالَ لِي أبُو طَلْحَةَ: احْمِلْهُ حَتَّى تأتِيَ بِهِ النبيَّ ﷺ، وبَعَثَ مَعَهُ بتَمَراتٍ، فقالَ: «أمَعَهُ شَيْءٌ؟» قالَ: نَعَمْ، تَمَرات، فأخَذهَا النبيُّ ﷺ فمَضَغَها، ثُمَّ أخَذَهَا مِنْ فِيهِ فجَعَلَها فِي في الصَّبيِّ، ثُمَّ حَنَّكَهُ وسَمَّاهُ عبْدالله[1]. [متفق عليه].

وفي رواية للبخاري[2]: قال ابن عُيَيْنَة: فقال رجُلٌ من الأنصار، فرأيتُ تسعةَ أولادٍ كُلُّهم قدْ قرأوا القُرْآن، يَعْني مِنْ أوْلادِ عبدِ الله المَوْلُودِ.

وفي رواية لمسلم[3]: مَاتَ ابْنٌ لأبي طَلْحَةَ مِنْ أمِّ سُلَيْمٍ، فقالَتْ لأهْلِها: لا تُحَدِّثُوا أبَا طَلْحَةَ بابنِهِ حَتَّى أكُونَ أنَا أحَدِّثُهُ، فجاءَ، فقَرَّبَتْ إليْه عَشَاءً فأكَلَ وشَرِبَ، ثُمَّ تصنَّعَتْ لهُ أحْسَنَ ما كانَتْ تَصَنَّعُ قبلَ ذلك، فوقَعَ بِهَا، فَلَمَّا أنْ رأتْ أنَّه قَدْ شَبعَ وأصابَ مِنْها قالتْ: يا أبَاطَلْحةَ، أرأيْتَ لَوْ أنَّ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب العقيقة، باب تسمية المولود غداة يولد لمن لم يعق عنه وتحنيكه، رقم (٥٤٧٠)، ومسلم، كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته...، رقم(٢١٤٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب من لم يظهر حزنه عند المصيبة، رقم(١٣٠١).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي طلحة رضي الله تعالى عنه، رقم(٢١٤٤م).

قومًا أعارُوا عَارِيَتَهُم أهلَ بيْتٍ فطَلبُوا عَارِيَتَهُم، ألَهُم أن يَمْنَعُوهُم؟ قالَ: لا، فقالَتْ: فاحْتَسِب ابْنَكَ. قالَ: فَغَضِبَ، ثُمَّ قال: تَرَكْتِني حَتَّى إذَا تَلطَّخْتُ ثُمَّ أخْبَرْتِنِي بابْني؟! فانْطَلَق حَتَّى أتى رسولَ الله ﷺ فاخْبرَهُ بِمَا كانَ، فقالَ رسولُ الله: «بَارَكَ الله في لَيْلَتِكُمَا» قال: فحملتْ، قال: وكان رسول الله ﷺ في سفرٍ وهي معه، وكان رسولُ الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفرٍ لا يَطْرُقُهَا طُرُوقًا، فدَنَوْا من المدينة، فضَرَبها المَخَاض، فاحتبسَ عليها أبو طلحة، وانْطلق رسولُ الله ﷺ. قال: يقولُ أبوطلحة: إنَّكَ لَتَعْلَمُ يا ربِّ انه يُعجبُني أن أخرُجَ مع رسولِ الله ﷺ إذا خَرَج، وأَدْخُلَ معه إذا دَخَل، وقد احْتُبِسْتُ بما ترى. تقولُ أمُّ سُلَيْم؟ يا أبا طَلْحة، ما أجدُ الذي كنتُ أجدُ، انطلقْ، فانطلقنا، وَضَرَبَها المَخَاضُ حين قدما فوَلَدَتْ غُلامًا، فقالت لي أمِّي: يا أنس، لا يُرْضِعُهُ أحدٌ حتى تَغْدُوَ به على رسولِ الله ﷺ، فلما أصبحَ احتَمَلَتْهُ، فانطلقتْ به إلى رسولِ الله ﷺ. وذكرَ تمامَ الحديث.

الشرح

حديث أنس بن مالك عن أبي طلحة أنه كان له ابنٌ يشتكي، يعني مريضًا، وأبوطلحة كان زوجَ أمِّ أنس بن مالك رضي الله عنهم. وكان هذا الصبيُّ يشتكي، فخرجَ أبو طلحة لبعضِ حاجاته، فقُبِضَ الصبيّ. يعني مات، فلمّا رجعَ سألَ أمَّهُ عنه فقال: كيف ابني؟ قالت: «هو أسكنُ ما يكون» وصدقتْ في قولها، هو أسْكَن ما يكون؛ لأنه مات، ولا سكونَ أعظمَ من الموت. وأبو طلحة ـ رضي الله عنه ـ فهِمَ أنه أسكنُ ما يكونُ من

المرض، وأنه في عافية، فقدَّمتْ له العَشاءَ فتعشَّىٰ على أن ابنه بريءٌ وطيِّب. ثم أصابَ منها، يعني جَامَعَها، فلما انتهىٰ قالت له: «وَارُوا الصبيّ» أي: ادفنوا الصبيَّ؛ فإنه قد مات، فلما أصبحَ أبوطلحةَ رضي الله عنه وَوَارَى الصبيّ وعلم بذلك النبيُّ ﷺ، سأل: «هل أعرستم اللَّيلة؟». قال: نعم. فدعا لهما بالبركة: «اللهم بارك لهما في ليلتهما» فولَدتْ غلامًا سمَّاه عبدالله، وكان لهذا الولدِ تسعةٌ من الولد كلُّهم يقرأون القرآن ببركة دعاء النبيِّ ﷺ.

ففي هذا الحديث: دليلٌ على قوَّةِ صبرِ أم سُليم ـ رضي الله عنها ـ وأن ابنها الذي مات بلغَ بها الحالُ إلى أن تقول لزوجها هذا القول وتوريَ هذه التَّورية، وقدَّمتْ له العَشَاء، ونال منها، ثم قالت: ادْفنوا الولد.

وفي هذا دليلٌ على جوازِ التَّورية، يعني أن يتكلَّم الإنسانُ بكلامٍ تخالفُ نيَّته ما في ظاهرِ هذا الكلام. فله ظاهرٌ هو المُتَبادرُ إلى ذهنِ المخاطَب، وله معْنَى آخر مَرْجُوح، لكن هو المراد في نيَّةِ المتكلِّم، فيظهر خلافَ ما يريد.

وهذا جائز، ولكنه لا ينبغي إلا للحاجة، إذا احتاجَ الإنسانُ إليه لمصلحةٍ أو دفع مضرَّةٍ فَلْيُوَرِّ، وأما مع عدمِ الحاجةِ فلا ينبغي أن يورِّي؛ لأنه إذا ورَّى وظهرَ الأمرُ على خلافِ ما يَظُنُّه المخاطَبُ نَسَبَ هذا المورِّي إلى الكَذب وأسَاء الظنَّ به، لكنْ إذا دعتِ الحاجةُ فلا بأس.

ومن التَّوريةِ المفيدةِ التي يحتاجُ إليها الإنسان: لو أنَّ شخصًا ظالِمًا يأخذ أموالَ الناسِ بغير حقٍّ، وأودعَ إنسان عندك مَالاً قال: هذا مَالِي عندك

وديعة، أخشى أن يَطَّلعَ عليه هذا الظَّالمُ فيأخذه، فجاء الظَّالمُ إليكَ وسألك: هل عندك مالٌ لفلان؟ فقلت: واللهِ ما لَه عندي شيء.

المُخَاطَب يَظُنُّ أن هذا نفي، وأن المعنى: ما عندي له شيء. لكن أنت تنوي بـ(ما) الذي، أي: الذي عندي له شيء، فيكون هذا الكلام مُثبتًا لا منفيًّا. هذا من التَّوريةِ المباحة، بل قد تكونُ مطلوبةً إذا دعتِ الحاجةُ إليها، وإلاَّ ففيما عدا ذلك فلا.

وفي هذا الحديث: أن النبيَّ ﷺ لما جاء أنسُ بن مالك بأخيه من أمِّه ابن أبي طلحة جاء به إلى النبيِّ - عليه الصلاة والسلام - ومعه تمرات، فأخذه النبيُّ ﷺ ومضغَ التَّمرات، ثم جعلها في فِي الصبيِّ، يعني أدخلها في فمه وحنَّكه، أي: أدْخَل أصبعه ودارَهُ في حَنَكه؛ وذلك تَبرُّكاً بِريقِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام، ليكونَ أوَّلَ ما يَصِلُ إلى بطْن هذا الصبيِّ ريقُ الرسولِ عليه الصلاة والسلام. وكان الصحابة يفعلون هذا إذا وُلِدَ لهم أولاد - بنونَ أو بنات - جاءوا بهم إلى رسول الله ﷺ وجاءوا بالتمرات معهم من أجلِ أن يُحنِّكه.

وهذا التَّحنيك هل هو لبركةِ ريقِ النبيِّ ﷺ؟ أو من أجل أن يصلَ طعمُ التَّمرِ إلى معدةِ الصَّبيِّ قبل كلِّ شيء؟

إن قلنا بالأول صارَ التَّحنيكُ من خصائصِ الرسول - عليه الصلاة والسلام - فلا يُحنِّكُ أحدٌ صبيًّا؛ لأنه لا أحدَ يُتَبرَّك بِرِيقه وَعَرقِه إلاَّ رسول الله ﷺ.

وإن قلنا بالثاني: إنه من أجلِ التمرات ليكونَ هو أولَ ما يصلُ إلى

معدة الصَّبي؛ لأنه يكونُ لها بمنزلة الدباغ، فإننا نقول: كلُّ مولودٍ يُحنَّك.

وفي هذا الحديث: آيةٌ من آياتِ النبيِّ ﷺ حيث دَعَا لهذا الصبيِّ فبارك الله فيه وفي عقبه، وكان له كما ذكرنا تسعةٌ من الولد، كلهم يقرأون القرآن ببركة دعاء النبيِّ عليه الصلاةُ والسلام.

وفيه: أنه يستحبُّ التَّسمية بعبدالله، فإن التسميةَ بهذا وبعبدالرحمن أفضلُ ما يكون، قال النبي ﷺ «**إن أحبَّ أسمائكم إلى الله عبدُالله وعبدُالرحمن**»[1].

وأما مَا يُروى أنَّ «**خيرَ الأسماءِ مَا حُمِّد وعُبِّد**»[2] فلا أصل له، وليس حديثًا عن رسول الله ﷺ، الحديث الصحيح: «**أحبُّ الأسماءِ إلى الله عبدالله، وعبدالرحمن، وأصْدقُها حَارثٌ وهَمَّام**»[3]. وحارث وهمام أصدقُ الأسماء لأنها مُطَابِقة للوَاقع، فكلُّ واحدٍ من بني آدم فهو حارثٌ يعمل، وكلُّ واحد من بني آدم فهو هَمَّام يهمُّ وينوي ويقصدُ وله إرادة.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، كلُّ إنسان يعمل، فأصدق الأسماءِ حارث وهمّام؛ لأنه مطابقٌ للواقع، وأحبُّها إلى الله عبدالله، وعبدالرحمن.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم، وبيان ما يستحب من الأسماء، رقم(٢١٣٢).

(٢) قال محمد بن أحمد الصَّغْدي في «النوافح العطرة» رقم (٧٠٨): لا يعرف.

(٣) أخرجه أبوداود، كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، رقم (٤٩٥٠)، والنسائي، كتاب الخيل، باب ما يستحب من شية الخيل، رقم (٣٥٦٥)، والإمام أحمد في المسند (٣/ ٣٤٥).

ولهذا ينبغي للإنسانِ أن يختارَ لأبنائهِ وبناتهِ أحْسنَ الأسماء؛ لينال بذلك الأجر، وليكونَ محسنًا إلى أبنائه وبناته.

أما أن تأتيَ بأسماء غريبةٍ على المجتمع، فإن هذا قد يوجبُ مضايقاتٍ نفسيَّةً للأبناء والبنات في المستقبل، ويكون كلُّ همٍّ ينالُ الولدَ أو الابن أو البنت من هذا الاسم فعليك إثمه ووباله؛ لأنك أنت المتسبِّبُ لمضايقتهِ بهذا الاسمِ الغريبِ الذي يُشارُ إليه، ويقال: انظر إلى هذا الاسم، انظر إلى هذا الاسم!!.

ولهذا ينبغي للإنسان أن يختار أحسن الأسماء.

ويحرمُ أن يسمي الإنسانُ بأسماء من خصائص أسماءِ الكفَّار، مثل جورج وما أشبهَ ذلك من الأسماء التي يتلقب بها الكفار؛ لأن هذا من باب التشبُّه بهم، وقد قال النبي ﷺ: «من تشبهَ بقومٍ فهو منهم»[1].

ويجبُ علينا ـ نحن المسلمين ـ أن نكره الكفّار كُرْهًا عظيمًا، وأن نعادِيهم، وأن نعلمَ أنهم أعداءٌ لنا مهما تزيَّنوا لنا وتقرَّبوا لنا، فهم أعداؤنا حقًّا، وأعداءُ الله عزَّ وجلَّ، وأعداءُ الملائكةِ، وأعداءُ الأنبياء، وأعداءُ الصالحين، فهم أعداءٌ ولو تلبَّسوا بالصداقةِ أو زعموا أنهم أصدقاء، فإنهم والله هم الأعداء، فيجبُ أن نعادِيَهم، ولا فرق بين الكفار الذين لهم شأنٌ وقيمةٌ في العالم أو الكفارِ الذين ليس لهم شأن، حتى الخدمُ والخادماتُ،

---

(١) أخرجه أبوداود، كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة، رقم (٤٠٣١)، والإمام أحمد في المسند (٢/ ٥٠). وهو في صحيح الجامع رقم (٦٠٢٥).

يجب أن نكرهَ أن يكون في بلدنا خادمٌ أو خادمةٌ من غيرِ المسلمين، لاسيما وأن نبيَّنا محمدًا ﷺ يقول: «**أخرجوا اليهودَ والنصارى من جزيرةِ العرب**» ويقول: «**لأُخرجنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أَدَعَ إلاَّ مسلِمًا**»[١]، ويقول في مرضِ موته، في آخر حياته وهو يودِّعُ الأمة: «**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب**»[٢].

وبعض الناس الآن ـ نسألُ الله العافية ـ يخيَّرُ بين عاملٍ مسلمٍ وعاملٍ كافرٍ فيختارُ الكافر! قلوب زائغة ضالَّة، ليستْ إلى الحقِّ مائلة، يختارون الكفار!!، يزيِّنُ لهم الشيطانُ أعمالهم، يقولون كذبًا وزورًا وبهتانًا: إن الكافر أخلصُ في عمله من المسلم! أعوذ بالله!.

يقولون: إن الكافرَ لا يصلِّي، بل يستغلُّ وقتَ الصلاة في العمل، ولا يطلبُ الذهابَ إلى العمرة أو الحجِّ، ولا يصوم، هو دائمًا في عمل.

ولا يهمُّهم هذا الشيء مع أن خالق الأرض والسموات يقول: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢١]، فيجبُ عليكم أيها الإخوة أن تناصحوا إخوانكم الذين اغترُّوا وزيَّنَ لهم الشيطانُ جَلْبَ الكفارِ إلى بلادنا خَدَمًا وعمَّالاً وما أشبه ذلك، يجب أن يعلموا أن في ذلك إعانةً للكفّار

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إجلاء اليهود من الحجاز، رقم(١٧٦٧).
(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب هل يستشفع إلى أهل الذمة ومعاملتهم، رقم (٣٠٥٣)، ومسلم، كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه، رقم(١٦٣٧).

على المسلمين؛ لأنَّ هؤلاء الكفارَ يؤدُّون ضرائبَ لحكوماتهم لتقويتها على المسلمين.

والشواهدُ على هذا كثيرة، فالواجبُ علينا أن نتجنَّبَ الكفار، بقدر ما نستطيع، فلا نتسمى بأسمائهم، ولا نوادُّهم، ولا نحترمهم، ولا نبدأهم بالسلام، ولا نفسح لهم الطريق، لأن النبيَّ ﷺ يقول: **«لا تبدؤوا اليهودَ ولا النصارى بالسَّلام، فإذا لقيتمْ أحدهم في طريق فاضطرُّوهم إلى أضيقه»**[(١)].

أين نحن من هذه التعليمات!؟ أين نحن من كلام الرسول ﷺ الذي لا ينطقُ عن الهوى؟ لماذا لا نَحْذَرُ إذا كَثُرَ فينا الخَبَثُ من الهلاك؟ استيقظَ النبيُّ ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ ذات ليلة محمرًّا وجهه فقال: **«لا إله إلا الله، ويلٌ للعربِ من شرٍّ قد اقترب»** إنذار وتحذير، ويل للعرب حَمَلةِ لواء الإسلام من شرٍّ قد اقترب **«فُتح اليوم من رَدْمِ يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذه وحلَّقَ بأُصبعهِ الإبهام والتي تليها**، قالت زينب: يا رسولَ الله، **أَنَهْلِكُ** وفينا الصالحون؟ قال: **نعم إذا كثُرَ الخَبَث»**[(٢)].

الخَبَثُ العمليُّ والخَبَثُ البشريّ، فإذا كَثُرَ الخَبَثُ في أعمالنا فنحن عُرْضَةٌ للهلاك، وإذا كَثُرَ البشرُ النجسُ في بلادنا فنحن عرضةٌ للهلاك، والواقعُ شاهدٌ بهذا، نسأل الله أن يحمي بلادنا من أعدائنا الظاهرين

---

(١) أخرج مسلم، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم، رقم (٢١٦٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم (٣٣٤٦)، ومسلم، كتاب الفتن، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، رقم (٢٨٨٠).

والباطنين، وأن يكبت المنافقينَ والكفّار، ويجعلَ كيدهم في نحورهم، إنه جواد كريم.

قولُ أمِّ سُليم ـ رضي الله عنها ـ «أرأيتَ لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهلَ بيت ثم طلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا، فقالت: فاحتسب ابنك»، يعني أن الأولادَ عندنا عارية، وهم مُلكٌ لله - عزَّ وجلَّ - متى شاءَ أخذهم، فضَربَتْ له هذا المَثَلَ من أجلِ أن يقتنعَ ويحتسبَ الأجرَ على الله سبحانه وتعالى.

وهذا يدلُّ على ذكائها ـ رضي الله عنها ـ وعلى أنها امرأةٌ عاقلةٌ صابرةٌ محتسبة، وإلا فإنَّ الأمَّ كالأبِ ينالُها من الحزن على ولدها مثلُ ما ينالُ الأب، وربما تكونُ أشدَّ حزنًا؛ لضعفها وعدمِ صبرها.

وفي هذا الحديث بركةُ دعاءِ النبيِّ ﷺ حيث كان له تسعةٌ من الولد كلهم يقرأون القرآن، ببركة دعاء النبيِّ ﷺ.

وفيه ـ أيضًا ـ كرامة لأبي طلحة رضي الله عنه؛ لأن أبا طلحة كان قد خرج مع النبي ﷺ في سفر وكانت معه أُمُّ سُليم بعد أن حملت، فلما رجعَ النبي ﷺ من السفرِ أتاها المخاض، أي: جاءها الطَّلْقُ قبل أن يصلوا إلى المدينة، وكان النبيُّ ﷺ: «لا يُحِبُّ أن يطرقَ أهله طروقًا» أي: لا يحبُّ أن يدخلَ عليهم ليلاً دون أن يُخبرهم بالقُدوم. فدعا أبو طلحة ـ رضي الله عنه ـ ربَّه وقال: اللهم إنك تعلم أنني أُحبُّ أن لا يخرجَ النبيُّ ﷺ مخرجًا إلا وأنا معه ولا يرجعَ مرجعًا إلا وأنا معه، وقد أصابني ما ترى ـ يناجي ربَّه سبحانه وتعالى ـ تقول أم سُليم: «فما وجدتُ الذي كنت أجده من قبل» يعني هان

عليها الطَّلْق، ولا كأنها تطلق.

قالتْ أمُّ سُليم لزوجها أبي طلحة: انطلق، فانطلق، ودخل المدينة مع رسول الله ﷺ، ولما وصلوا إلى المدينة وضعت. ففي هذا كرامةٌ لأبي طلحة - رضي الله عنه - حيث خفَّف الله الطلقَ على امرأته بدعائه، ثمَّ لمَّا وضعتْ قالت أمُّ سُليم لابنها أنس بن مالك - وهو أخو هذا الحملِ الذي ولد، أخوه من أمه - قالت: احتملْهُ إلى رسولِ الله ﷺ أي: اذهب به، كما هي عادة أهلِ المدينة إذا وُلدَ لهم ولد؛ يأتون به إلى رسولِ الله ﷺ ومعهم تمر، فيأخذُ النبيُّ ﷺ التمرة فيمضغها بفمه ثم يحنِّكُ بها الصبيّ، لأن في ذلك فائدتين:

الفائدةُ الأولى: بركة ريق النبيِّ ﷺ وكان الصحابة - رضي الله عنهم - يتبرَّكون بريقِ النبي ﷺ وبعَرَقه، حتى كان من عادتهم أنه إذا كان في الصباح وصلَّى الفجر أتوا بآنية فيها ماء فغمسَ النبيُّ ﷺ يديه في الماء، وعركَ يديه في الماء، فيأتي الصبيان بهذا الماء ثم ينطلقون به إلى أهليهم، يتبرَّكون بأثرِ النبيِّ ﷺ.

وكان الصحابة - رضي الله عنهم - إذا توضأ النبي عليه الصلاة والسلام كادوا يقتتلونَ على وَضوئه، أي: فضلِ الماء، يتبرَّكون به، وكذلكَ من عَرَقهِ وشَعْره.

حتى كان عند أمِّ سلمة - إحدى زوجاتِ الرسول عليه الصلاة والسلام وإحدى أمَّهات المؤمنين - عندها جُلْجُلٌ من فضَّة، أي مثل (الطابوق) فيه شَعَراتٌ من شعرات النبيِّ ﷺ يستشفون بها، أي: يأتون بشعرتين أو ثلاثِ

فيضعونها في الماء ثم يحرِّكونها من أجل أن يتبرَّكوا بهذا الماء[١]، لكن هذا خاص بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام.

الفائدة الثانية من التمر الذي كان الرسولُ ﷺ يحنِّكه الصبيان: أن التمرَ فيه خيرٌ وبركة، وفيه فائدةٌ للمعدة، فإذا كان أول ما يصلُ إلى معدتِهِ من التمرِ كان ذلك خيرًا للمعدة.

فحنَّكهُ الرسولُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ ودعا له بالبركة.

والشاهدُ من هذا الحديث: أن أُم سُليم قالت لأبي طلحة: احتسبْ ابنك، يعني: اصبرْ على ما أصابكَ من فقده، واحتسبِ الأجرَ على الله. والله الموفِّق.

* * *

٤٥ ـ وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ليس الشَّديدُ بالصُّرَعَة، إنَّما الشَّديدُ الَّذي يَمْلِكُ نفسَهُ عندَ الغضب»[٢] [متفق عليه].

«والصُّرَعَة» بضمِّ الصادِ وفتح الراء، وأصلهُ عند العرب: مَنْ يَصْرَعُ الناسَ كثيرًا.

٤٦ ـ وعن سليمان بن صُرَد ـ رضي الله عنه ـ قال: كنتُ جالسًا مع النبيِّ ﷺ، ورجُلانِ يَسْتَبَّان، وأحدُهُما قد احْمَرَّ وجْهُهُ، وانتفَخَتْ أَوْداجُه. فقال رسولُ الله ﷺ: «إنِّي لأَعْلَمُ كَلمةً لوْ قالَها لذهبَ عنْه ما يَجِد، لوْ قال: أعوذُ بالله منَ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب ما يذكر في الشيب، رقم (٥٨٩٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم (٦١١٤)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، رقم (٢٦٠٩).

الشِّيطانِ الرجيم، ذهبَ منهُ ما يَجِد» فقالوا له: إنَّ النبيَّ ﷺ قال: «تَعَوَّذْ بالله مِنَ الشيطانِ الرجيم»[1] [متفق عليه].

الشرح

هذان الحديثانِ اللذانِ ذكرهما المؤلف في الغضب، والغضبُ جَمْرَةٌ يُلقيها الشيطان في قلبِ ابنِ آدم، فيستشيطُ غضبًا، ويحتمي جسده، وتنتفخُ أوداجه، ويحمرُّ وجهه، ويتكلمُ بكلامٍ لا يعقلهُ أحيانًا، ويتصرَّفُ تصرُّفًا لا يعقلهُ أيضًا.

ولهذا جاء رجلٌ إلى رسولِ الله ﷺ فقال: أوصني، قال: «**لا تغضب**» قال: فردَّدَ مرارًا، قال: «**لا تغضب**»[2].

وبيَّنَ النبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ في حديثِ أبي هريرة هذا الذي ذكرهُ المؤلفُ ـ رحمه الله ـ أن الشديد ليس بالصُّرَعة فقال: «ليس الشديدُ بالصُّرَعَة» أي: ليس القويُّ في الصُّرَعَة الذي يُكْثِرُ صَرْعَ الناس فيطرحهم ويغلبهم في المصارعة، هذا يقالُ عنه عند الناس إنه شديدٌ وقويّ، لكنَّ النبيَّ ﷺ يقول: ليس هذا هو الشديد حقيقةً، «إنما الشديدُ الذي يَمْلِكُ نفسَهُ عند الغضب» أي: القويُّ حقيقةً هو الذي يَصرَعُ نفسهُ إذا صارعتْهُ وغضبَ مَلَكها وتحكَّمَ فيها، لأنَّ هذه هي القوَّةُ الحقيقيَّة، قوَّةٌ داخليَّةٌ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم (٦١١٥)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، رقم (٢٦١٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم (٦١١٦).

معنويَّةٌ يتغلَّبُ بها الإنسانُ على الشيطان، لأن الشيطانَ هو الذي يُلقي الجَمْرةَ في قلبِكَ من أجلِ أن تغضب.

ففي هذا الحديث الحثُّ على أن يملكَ الإنسانُ نفسه عند الغضب، وأن لا يسترسلَ فيه، لأنه يندم بعده، كثيرًا ما يغضبُ الإنسانُ فيطلِّقُ امرأته، وربما تكونُ هذه الطلقةُ آخرَ تطليقة!

كثيرًا ما يغضبُ الإنسانُ فيتلفُ ماله، إما بالحرقِ أو بالتكسير. كثيرًا ما يغضبُ على ابنهِ حتى يضربه، وربما مات بضربه. وكذلك يغضبُ على زوجته مثلاً فيضربها ضربًا مبرحًا، وما أشبه ذلك من الأشياءِ الكثيرةِ التي تحدث للإنسانِ عند الغضب؛ ولهذا نهى النبيُّ ﷺ أن يقضيَ القاضي بين اثنينِ وهو غضبان[1] لأنَّ الغضبَ يمنعُ القاضي من تصوُّرِ المسألة، ثمَّ من تطبيقِ الحكمِ الشرعيِّ عليها، فيهلكُ ويحكمُ بين الناسِ بغيرِ الحق.

وكذلك ذكرَ المؤلف ـ رحمه الله ـ حديثَ سليمانَ بن صُرَد ـ رضي الله عنه ـ في رجلين استبَّا عند الرسول ﷺ، فغضبَ أحدهما حتى انتفختْ أوداجه واحمرَّ وجهه، فقال النبيُّ ﷺ: «إنِّي لأعلم كلمةً لو قالها لذهبَ عنه ما يجد، لو قال: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم» أعوذ بالله أي: أعتصمُ به.

من الشيطان الرجيم: لأنَّ ما أصابه من الشيطان، وعلى هذا فنقول: المشروعُ للإنسان إذا غضبَ أن يحبسَ نفسه وأن يصبر، وأن يتعوَّذَ بالله من

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب هل يقضي القاضي أو يفتي وهو غضبان، رقم (٧١٥٨)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب كراهة قضاء القاضي وهو غضبان، رقم (١٧١٧).

الشيطان الرجيم، يقول: أعوذُ بالله من الشيطانِ الرجيم، وأن يتوضأ، فإن الوضوءَ يطفىءُ الغضب، وإن كان قائمًا فليقعد، وإن كان قاعدًا فليضطجع، وإن خاف خرجَ من المكانِ الذي هو فيه، حتى لا ينفذ غضبه فيندم بعد ذلك. والله الموفِّق.

*   *   *

٤٧ ـ وعن معاذ بن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ كَظَمَ غيظًا، وهُو قادرٌ على أن يُنْفِذَه، دعاهُ الله سُبحانه وتعالَى على رؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ حتى يُخيِّرَهُ منَ الحُوْرِ العِيْنِ ما شاءَ»[(١)] رواهُ أبوداود، والترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ.

٤٨ ـ وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً قال للنبيِّ ﷺ: أوصِني، قال: «لا تَغْضَبْ» فردَّد مِرارًا، قال: «لا تغضب»[(٢)] [رواه البخاري].

٤٩ ـ وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما يَزالُ البَلاءُ بالمُؤمنِ والمُؤمنةِ في نَفْسِهِ وَوِلَدِهِ حتَّى يَلْقى الله تعالَى وما عليه خطيئةٌ»[(٣)] [رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ].

---

(١) أخرجه أبوداود، كتاب الأدب، باب من كظم غيظًا، رقم (٤٧٧٧)، والترمذي، كتاب البر والصلة، باب في كظم الغيظ، رقم (٢٠٢١)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب في العلم، رقم (٤١٨٦)، والإمام أحمد في المسند (٣/ ٤٤٠). وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٥١٨).

(٢) تقدم تخريجه ص (٢٧١).

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم (٢٣٩٩)، والإمام أحمد (٢/ ٢٨٧ ـ ٤٥٠) وقال الترمذي: حسن صحيح.

الشرح

هذه الأحاديثُ في باب الصبر تدلُّ على فضيلة الصبر .

أما الحديثُ الأوَّل : حديثُ معاذ بن أنس - رضي الله عنه - أن النبيَّ ﷺ قال : «من كظمَ غيظًا وهو قادرٌ على أن يُنْفِذَهُ دعاهُ الله سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة» .

الغيظ : هو الغضب الشديد ، والإنسانُ الغاضبُ هو الذي يتصوَّرُ نفسَهُ أنه قادرٌ على أن ينفذ ؛ لأن مَنْ لا يستطيعُ لا يغضب ، ولكنَّه يحزن ، ولهذا يوصَفُ الله بالغضبِ ولا يوصَفُ بالحزن ؛ لأن الحزنَ نقص ، والغضب في محلِّه كمال ؛ فإذا اغتاظَ الإنسانُ من شخصٍ وهو قادرٌ على أن يفتكَ به ، ولكنه تركَ ذلك ابتغاءَ وجهِ الله ، وصبرًا على ما حصل له من أسباب الغيظ ؛ فله هذا الثوابُ العظيمُ أنه يُدعىٰ على رؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامة ويخيَّر من أيِّ الحورِ شاء .

وأما حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رجلاً قال : يا رسولَ الله ، أوصني . قال : «**لا تغضب**» ، فردَّدَ مرارًا فقال : «**لا تغضب**» فقد سبقَ الكلام عليه .

والحديثُ الثالثُ فهو أيضًا دليلٌ على أن الإنسان إذا صبرَ واحتسبَ الأجرَ عند الله كفَّرَ الله عنه سيِّئاته ، وإذا أُصيبَ الإنسان ببلاءٍ في نفسه أو ولده أو مالهِ ، ثمَّ صبر على ذلك ، فإن الله - سبحانه وتعالى - لا يزالُ يبتليه بهذا حتى لا يكونَ عليه خطيئة . ففيه دليلٌ على أن المصائب في النَّفس والولد والمالِ تكونُ كفَّارةً للإنسان ، حتى يمشيَ على الأرضِ وليس عليه

خطيئة، ولكن هذا إذا صبر.

أما إذا تسخَّط فإنَّ من تَسخَّط فله السُّخط. والله الموفِّق.

*　*　*

٥٠ ـ وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بنُ حِصْنٍ فنَزَلَ على ابنِ أخيهِ الحُرِّ بنِ قَيْسٍ، وكان من النَّفَرِ الذين يُدْنِيهم عُمرُ رضي الله عنه، وكان القُرَّاءُ أصحابَ مَجْلسِ عمر ـ رضي الله عنه ـ ومُشاورَتِهِ، كُهُولاً كانوا أو شبَّانًا، فقال عُيَيْنَةُ لابنِ أخيه: يا ابنَ أخي، لكَ وجهٌ عند هذا الأميرِ فاستأذِنْ لي عليه، فاستأذنَ، فأذِنَ لهُ عُمَرُ. فلمَّا دخل قال: هيه يا ابنَ الخطَّاب، فوالله ما تُعطِيْنا الجَزْلَ، ولا تَحْكُمُ فينا بالعدل، فغَضِبَ عُمرُ ـ رضي الله عنه ـ حتى همَّ أن يُوْقِعَ به، فقال لهُ الحُرُّ: يا أميرَ المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، **وإنَّ هذا من الجاهلين، والله ما جاوَزها عُمَرُ حين تلاها، وكان وَقَّافًا عِندَ كتاب الله تعالى»[1] [رواه البخاري].**

الشرح

مازال المؤلِّفُ ـ رحمه الله ـ يأتي بالأحاديثِ الدالَّةِ على الصبرِ وكظمِ الغيظ، فذكرَ هذا الحديثَ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن عمر بنِ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أميرِ المؤمنين، وثالثِ رجلٍ في هذه الأمَّةِ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾، رقم (٤٦٤٢).

الإسلاميَّة، بعد نبيِّها ﷺ وبعد أبي بكر الخليفةِ الأوَّل، فعمرُ هو الخليفةُ الثاني.

وكان قد اشتُهِرَ بالعدل بين الرَّعية، وبالتَّواضعِ للحقّ، حتى إنَّ المرأةَ ربَّما تذكِّرهُ بالآية في كتابِ الله فيقف عندها ولا يتجاوزها، فقد قدم عليه عيينة بن حصن - وكان من كبارِ قومه - فقال له: هيه يا ابن الخطاب. هذه كلمةُ استنكارٍ وتلوُّم. وقال له: إنك لا تعطينا الجَزْل، ولا تحكمُ فينا بالعدل.

انظر إلى هذا الرَّجل يتكلَّمُ على هذا الخليفةِ المشهورِ بالعدلِ بهذا الكلام، مع أنَّ عمرَ كما قال ابنُ عباس رضي الله عنه «كان جُلساؤُه القُرَّاء» القُرَّاء من أصحاب رسول الله ﷺ هم جلساؤُه، سواء كانوا شيوخًا أو كهولاً أو شبابًا، يشاورهم ويدنيهم، وهكذا ينبغي لكل أميرٍ أو خليفةٍ أن يكونَ جلساؤه الصَّالحين؛ لأنه إن قُيِّضَ له جلساءُ غير صالحين؛ هَلَكَ وأهلَكَ الأمة، وإن يسَّر الله له جلساءَ صالحين نَفَعَ الله به الأمَّة. فالواجبُ على وليِّ الأمر أن يختارَ من الجُلساءِ أهل العلم والإيمان. وكان الصَّحابةُ - رضي الله عنهم - القُرَّاءُ منهم هم أهل العلم، لأنهم لا يتجاوزون عَشْرَ آياتٍ حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل.

لمَّا قال الرجلُ هذا الكلامَ لعمر: إنك لا تعطينا الجَزْلَ ولا تحكمُ فينا بالعدل، غضبَ - رضي الله عنه - غضبًا حتى كادَ أن يهمَّ به، أي: يضربَهُ أو يبطشَ به.

ولكن ابنَ أخي عيينة بن حصن الحرَّ بن قيس قال له: يا أميرَ

المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وإن هذا من الجاهلين.

فوقفَ عندها عمر ولم يتجاوزها؛ لأنه كان وقَّافًا عند كتابِ الله - رضي الله عنه وأرضاه - فوقفَ، وما ضربَ الرَّجل وما بطشَ به؛ لأجلِ الآيةِ التي تُليت عليه.

وانظرْ إلى أدبِ الصحابة - رضي الله عنهم - عند كتاب الله؛ لا يتجاوزونه، إذا قيل لهم هذا قولُ الله وَقَفُوا، مهما كان.

فقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي: خذ ما عفا من الناس وما تيسَّر، ولا تطلبْ حَقَّك كُلَّه؛ لأنه لا يحصُل لك، فخذ منهم ما عفا وسهل.

وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي: أأمُرْ بما عرفه الشَّرعُ وعرفه الناس، ولا تأمرْ بمنكر، ولا بغير العُرْف، لأن الأمورَ ثلاثةُ أقسام:

١ - منكرٌ يجبُ النهي عنه.

٢ - وعُرْفٌ يؤمرُ به.

٣ - وما ليس بهذا ولا بهذا فإنَّه يسكتُ عنه.

ولكن على سبيلِ النَّصيحة ينبغي للإنسانِ ألا يقول إلا قولاً فيه الخير، لقول النبيِّ ﷺ «**مَنْ كانَ يؤمنُ بالله واليومِ الآخر فلْيَقُل خيْرًا أوْ لِيَصْمُتْ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، رقم (٦١٠٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير، رقم (٤٧).

وأما قوله: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ فالمعنى: أن من جهلَ عليك وتطاولَ عليك فأعرض عنه لا سيَّما إذا كان إعراضُكَ ليس ذُلاً وخُنُوعًا.

مثلُ عمرَ بنِ الخطَّابِ إعراضهُ ليس ذُلاً وخُنوعًا، فهو قادرٌ على أن يبطشَ بالرَّجلِ الذي تكلم، لكن امتثلَ هذا الأمرَ وأعرضَ عن الجاهلين.

والجهل له معنيان:

أحدهما: عدمُ العلم بالشيء.

والثاني: السَّفهُ والتَّطاول، ومنه قولُ الشاعرِ الجاهلي:

ألاَ لا يَجْهَلَــنْ أحــدٌ عَلَيْنــا فَنَجْهَـلَ فـوْقَ جَهْلِ الجَـاهِلينا

أي لا يَسْفَهْ علينا أحدٌ ويتطاولْ علينا فنكونَ أشدَّ منه، لكنَّ هذا شعرٌ جاهليّ!! أما الأدبُ الإسلامي فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤]، سبحان الله!! إنسانٌ بينكَ وبينه عداوةٌ أساءَ إليك، ادفع بالتي هي أحسن، فإذا دفعتَ بالتي هي أحسن ففوراً يأتيكَ الثَّوابُ والجزاء: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤]، وقوله: ﴿ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ أي قريبٌ صديقٌ في غاية ما يكون من الصَّداقة والقرب، والذي يقوله هو الله عزَّ وجلَّ مُقلِّبُ القُلوب، ما من قلبٍ من قلوبِ بني آدم إلاَّ بين إصبعينِ من أصابعِ الرحمنِ عزَّ وجلَّ يُصرِّفه كيف يشاء.

فهذا الذي كان عدوًّا لك ودافعتَهُ بالتي هي أحسن، فإنه ينقلبُ بدل العداوةِ صداقةً ﴿ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾.

فالحاصل أن هذه الآية الكريمة ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، لمَّا تُليَت على أميرِ المؤمنينَ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وقفَ ولم يبطشْ بالرجل، ولم يأخذه على جهله.

فينبغي لنا إذا حصلتْ مثلُ هذه الأمور، كالغضبِ والغيظ، أن نتذكر كتابَ الله وسنَّةَ رسولهِ ﷺ من أجلِ أن نسيرَ على هديهما، حتى لا نضلَّ، فإن من تمسَّكَ بهدي الله فإن الله يقول: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، والله الموفِّق.

* * *

٥١ ـ وعن ابن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّها سَتَكونُ بَعدي أَثَرَةٌ وأُمورٌ تُنكِرونَها! قالوا: يا رسولَ الله، فما تأمُرُنا! قال: تُؤدُّونَ الحَقَّ الَّذي عليكم، وتسألونَ الله الذي لَكُم»[1] [متفق عليه].

«والأَثَرَةُ» الانفرادُ بالشَّيء عمَّن لهُ فيهِ حَقٌّ.

٥٢ ـ وعن أبي يحيى أُسيدِ بنِ حضير ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً من الأنصار قال: يا رسولَ الله، ألا تَستَعمِلُني كما استَعْمَلتَ فلانًا؟ فقال: «إنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدي أَثَرَةً، فاصْبِرُوا حتَّى تَلْقَوْني عَلَى الحَوْضِ»[2] [متفق عليه].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «سترون بعدي أمورًا تنكرونها» رقم (٧٠٥٢)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، رقم(١٨٤٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «سترون بعدي أمورًا تنكرونها» رقم (٧٠٥٧)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب الأمر بالصبر عند ظلم =

«وأُسَيْدٌ» بضم الهمزة. «وحُضَيْرٌ» بحاءٍ مُهمَلَةٍ مضمومةٍ وضادٍ معجمةٍ مفتوحةٍ، والله أعلم.

الشرح

هذان الحديثان: حديثُ عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وحديثُ أُسيد بن حُضير ـ رضي الله عنه ـ ذكرهما المؤلف في باب الصبر لأنهما يدلان على ذلك.

أما حديثُ عبدالله بن مسعود فأخبر ـ رضي الله عنه ـ أن النبيَّ ﷺ قال: «إنها ستكونُ بعْدي أثَرَة» والأثَرَة يعني: الاستئثار بالشيء عمَّن له فيه حقٌّ.

يريدُ بذلك ﷺ أنه سيستولي على المسلمينَ وُلاةٌ يستأثرون بأموالِ المسلمينَ يَصرفونَها كما شاؤوا ويمنعونَ المسلمين حقَّهم فيها.

وهذه أَثَرةٌ وظلمٌ من الولاة، أنْ يستأثروا بالأموالِ التي للمسلمين فيها الحقّ، وَيَستأْثِروا بها لأنفسهم عن المسلمين. ولكن قالوا: ما تأمرنا؟

قال: «تُؤَدُّونَ الحَقَّ الَّذي عَلَيكُم» يعني: لا يمنعكم استئثارهم بالمالِ عليكم أن تمنعوا ما يجبُ عليكم نحوهم من السَّمْعِ والطاعة وعدمِ الإثارةِ وعدمِ التشويشِ عليهم، بل اصبروا واسمعوا وأطيعوا ولا تنازعوهم الأمر الذي أعطاهم الله «وتسْألون الله الَّذي لَكُم» أي: اسْأَلُوا الحقَّ الَّذي لَكُم من الله، أي: اسألوا الله أن يهديهم حتى يؤدُّوكم الحقَّ الذي عليهم لكم، وهذا من حكمةِ النبيِّ ﷺ؛ فإنه ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ علمَ أن النُّفوسَ

= الولاة واستئثارهم، رقم (١٨٤٥).

شحيحة، وأنَّها لن تصبرَ على من يَستأثرُ عليهم بحقوقهم، ولكنَّه ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ أرشدَ إلى أمرٍ قد يكون فيه الخير، وذلك بأن نؤدِّيَ ما علينا نحوهم من السَّمعِ والطَّاعةِ وعدمِ مُنازعةِ الأمرِ وغيرِ ذلك، ونسألَ الله الذي لنا، وذلك إذا قلنا: اللهم اهدهمْ حتى يُعطونا حَقَّنا، كان في هذا خيرٌ من جهتين.

وفيه دليل على نبوَّةِ الرسولِ ﷺ؛ لأنه أخبرَ بأمرٍ وَقع، فإنَّ الخلفاءَ والأمراءَ منذ عهدٍ بعيد كانوا يستأثرون بالمال، فنجدهم يأكلونَ إسرافًا، وَيشربون إسرافًا، ويلبسون إسرافًا، ويسكنون ويركبون إسرافًا، وقد استأثروا بمال الناس لمصالح أنفسهم الخاصَّة، ولكنَّ هذا لا يعني أن ننزعَ يدًا من طاعةٍ، أو أن نُنابِذَهُم، بل نسألُ الله الذي لنا، ونقومُ بالحقِّ الذي علينا.

وفيه ـ أيضًا ـ استعمالُ الحكمةِ في الأمورِ التي قد تقتضي الإثارة، فإنَّه لا شكَّ أنَّ استئثارَ الوُلاةِ بالمالِ دون الرَّعيَّةِ يوجبُ أن تثورَ الرَّعيَّةُ وتطالبَ بحقِّها، ولكنَّ الرسولَ ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ أمرَ بالصَّبرِ على هذا، وأن نقومَ بما يجبُ علينا، ونسألَ الله الذي لنا.

أمَّا حديثُ أُسيد بن حضير ـ رضي الله عنه ـ فهو كحديثِ عبدالله بن مسعود أخبرَ النبيُّ ﷺ **«إنها سَتكون أَثَرة»** ولكنَّه قال: **«اصبِرُوا حتى تلْقَوْني على الحوض»**.

يعني: اصبروا ولا تنابذوا الولاةَ أمرهم حتى تلقوني على الحوض، يعني أنَّكم إذا صبرتم فإنَّ من جزاءِ الله لكم على صبركم أن يسقيَكم من

حوضه، حوضِ النبيِّ ﷺ، اللَّهُمَّ اجعلنا جميعًا ممن يرده ويشربُ منه.

هذا الحوضُ الذي يكونُ في يومِ القيامةِ في مكانٍ وزمانٍ أحوَجَ ما يكون الناس إليه؛ لأنه في ذلك المكان وفي ذلك الزمانِ، في يوم الآخرة، يَحصُل على الناس من الهمِّ والغمِّ والكربِ والعَرَقِ والحَرِّ ما يجعلهم في أشدِّ الضرورة إلى الماء، فيَرِدونَ حوضَ النبيِّ ﷺ، حوضٌ عظيمٌ طولهُ شهرٌ وعرضهُ شهر، يصبُّ عليه ميزابان من الكوثر، وهو نهرٌ في الجنَّةِ أُعطِيَهُ النبيُّ ﷺ، يصبَّانِ عليه ماءً، أشدُّ بياضًا من اللبن، وأحلَى من العسل، وأطيب من رائحة المسك، وفيه أوانٍ كنجومِ السَّماء في اللمَعَان والحُسْنِ والكَثْرة، من شَرِبَ منه شَرْبَةً وَاحِدةً لم يظمأ بعدها أبدًا. اللَّهم اجعلنا مِمَّن يشرب منه.

فأرشدَهُ النبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى أن يصبروا ولو وجدوا الأَثَرة، فإنَّ صبرهم على ظُلمِ الولاةِ من أسبابِ الورودِ على الحوضِ والشُّربِ منه.

في هذين الحديثين: حثٌّ على الصَّبرِ على استئثارِ ولاةِ الأمورِ في حقوقِ الرَّعية، ولكن يجب أن نَعلَم أنَّ الناسَ كما يكونون يُوَلَّى عليهم، إذا أساؤوا فيما بينهم وبين الله فإنَّ الله يُسَلِّط عليهم ولاتهم، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، فإذا صلحت الرعيَّةُ يَسَّر الله لهم ولاةً صَالحين، وإذا كانوا بالعكس كان الأمرُ بالعكس.

ـ ويُذْكَرُ أن رجلاً من الخوارجِ جاء إلى عليِّ بن أبي طالب ـ رضي الله

عنه ـ وقال له: يا عليّ، ما بالُ النَّاس انتقضوا عليك ولم ينتقضوا على أبي بكر وعمر؟

فقال له: إنَّ رجالَ أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ أنا وأمثالي، أمَّا أنا فكان رجالي أنت وأمثالك، أي: ممن لا خير فيه؛ فصار سببًا في تَسلُّطِ الناس وتفرُّقهم على عليٍّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وخروجهم عليه، حتى قتلوه رضي الله عنه.

ـ ويُذكرُ أن أحدَ ملوكِ بني أُميَّة سَمعَ مقالَة الناس فيه، فجمع أشرافَ الناس وَوُجَهَاءهم وكَلَّمهم ـ وأظُنُّه عبدالملك بنَ مروان ـ وقال لهم: أيُّها الناس، أتريدون أن نكون لكم مثل أبي بكر وعمر؟

قالوا: نعم! قال إذا كنتم تُريدون ذلك فكونوا لنا مِثل رِجال أبي بكر وعمر!! فالله سبحانه وتعالى حَكِيمٌ، يُوَلِّي على الناسِ من يَكونُ بحسب أعمالهم، إن أساؤوا فإنَّه يُسَاءُ إليهم، وإن أحسنوا أُحْسِنَ إليهم.

ولكن مع ذلك لا شكَّ أن صلاحَ الرَّاعي هو الأصل، وأنه إذا صَلُحَ الرَّاعي صَلُحتِ الرعية، لأن الراعيَ له سُلطةٌ يستطيعُ أن يُعَدِّل مَنْ مالَ، وأن يُؤدِّب مَنْ عالَ وجَار. والله الموفِّق.

* * *

٥٣ ـ وعن أبي إبراهيم عبد الله بن أبي أوفَى – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لَقِيَ فيها العدوَّ، انْتظَرَ حتى إذا مالَتِ الشمس، ثمَّ قامَ فيهم فقال: «يا أيُّها النَّاسُ، لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسألوا

الله العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُم فَاصْبِروا، وَاعْلَمُوا أنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيوفِ».
ثم قال النبيُّ ﷺ: «اللَّهمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحابِ، وَهَازِمَ الأحْزابِ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرنَا عَلَيهِمْ»[1] [متفق عليه].

الشرح

قال المؤلفُ ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن عبدالله بن أبي أوفى ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النبيَّ ﷺ كان في بعضِ غزواته، فانتظرَ حتى مالتِ الشمس، أي: زالت الشمس، وذلك من أجل أن تُقبِلَ البُرُودةُ ويَكثُرَ الظِّلُّ وَيَنشَطَ النَّاس، فانتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم خطيبًا.

وكان ﷺ يخطب النَّاس خُطبًا دائمةً ثابتةً كخطبةِ يومِ الجمعة، وخُطَبًا عارضةً إذا دَعَتِ الحَاجَةُ إليها قامَ فخطبَ ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهذه كثيرةٌ جدًا، فقال في جملة ما قال: «لا تتمنَّوا لقاء العَدُوِّ».

أي: لا ينبغي للإنسانِ أن يتمنَّى لِقَاءَ العَدُوِّ ويقول: اللَّهُمَّ ألقِني عَدُوِّي!

«وَاسْألُوا الله العافية» قل: اللَّهم عافنا.

«فإذا لقيتموهم» وابتُليتم بذلك «فاصبروا»، هذا هو الشَّاهدُ من الحديث، أي: اصبروا على مُقَاتَلَتِهم واستَعِينُوا بالله عزَّ وجلَّ، وقاتلوا لتكونَ كلمةُ الله هي العُليا.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس، رقم (٢٩٦٥، ٢٩٦٦)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو، والأمر بالصبر عند اللقاء، رقم (١٧٤٢).

«واعلمُوا أن الجنةَ تحت ظِلالِ السُيوف» نسألُ الله من فضله!

فالجنَّةُ تحت ظلالِ السُيوفِ التي يحملها المجاهدُ في سبيل الله؛ لأن المجاهدَ في سبيل الله إذا قُتِلَ صارَ من أهلِ الجنَّةِ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١].

والشهيدُ إذا قتل في سبيل الله فإنه لا يحسُّ بالطَّعنة أو بالضَّربة، كأنها ليست بشيء، ما يحسُّ إلا أن روحه تخرج من الدُّنيا إلى نعيم دائم أبدًا، نسألك اللهمَّ من فضلك.

ولهذا قال الرسول ﷺ: «واعْلَمُوا أنَّ الجنةَ تَحتَ ظِلاَل السُيوف».

وكان من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أنس بنُ النضر، قال: «إنِّي لأجدُ ريحَ الجنَّة دون أُحد»[١].

انظُر كيف فتحَ الله مشامَّهُ حتَّى شمَّ ريحَ الجنَّةِ حقيقةً دُون أحد، ثم قاتلَ حتى قتل ـ رضي الله عنه ـ فوُجِدَ فيه بضعٌ وثمانونَ ضربةً ما بين سيف، ورمح، وسهم، وغير ذلك؛ فقُتل شهيدًا رضي الله عنه؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «واعلموا أنَّ الجنةَ تحت ظلالِ السُيوف».

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أُحد، رقم (٤٠٤٨)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم(١٩٠٣).

ثم قال عليه الصلاةُ والسلام: «اللَّهم مُنْزِل الكتاب، ومُجرِيَ السَّحاب، وهازمَ الأحزاب، اهْزِمْهُم وانْصُرنا عليهم» وهذا دُعاءٌ ينبغي للمجاهدِ أن يدعوَ به إذا لقيَ العدو.

فهنا توسَّل النبيُّ ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ بالآياتِ الشَّرعيةِ والآياتِ الكونية.

توسَّلَ بإنزالِ الكتابِ وهو القرآنُ الكريم، أو يشملُ كلَّ كتاب، ويكونُ المراد به الجنس، أي: منزلَ الكتبِ على محمد وعلى غيره.

«ومُجرِيَ السَّحاب»: هذه آية كونية، فالسَّحاب المُسَخَّر بين السماء والأرض لا يُجريه إلاَّ الله عزَّ وجلَّ، لو اجتمعت الأمم كلها بجميع آلاتها ومُعدَّاتها على أن تجري هذا السحاب أو أن تصرف وجهه ما استطاعتْ إلى ذلك سبيلاً، وإنما يُجريهِ مَنْ إذا أرادَ شيئًا قال له كُنْ فيكون.

«وَهَازِمَ الأحزاب»: فإنَّ الله عزَّ وجلَّ وحدَهُ هو الذي يهزمُ الأحزاب.

ومن ذلك: أن الله هَزَمَ الأحزابَ في غزوةِ الأحزاب، والتي قد تجمَّعَ فيها أكثرُ من عَشرةِ آلافِ مُقاتلٍ حول المدينةِ ليُقاتلوا الرسولَ عليه الصلاة والسلام، ولكنَّ الله تعالى هزمهم ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]، فأرسلَ عليهم ريحًا وجنودًا زلزلتْ بهم وكَفأتْ قدورهم وأسقطتْ خيامهم، وصارَ لا يستقرُّ لهم قرار، ريحٌ شديدةٌ باردةٌ شرقيَّةٌ حتى ما بقوا وانصرفوا.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، فالله عزَّ وجلَّ هو هَازِمُ الأحزاب، ليستْ

قوَّةُ الإنسانِ هي التي تهزم، بل القوَّةُ سببٌ قد تنفعُ وقد لا تنفع، لكننا مأمورون بفعل السَّبب المباح، لكن الهازمَ حقيقةً هو الله عزَّ وجلَّ.

ففي هذا الحديث عِدَّة فوائد:

منها: أن لا يتمنَّى الإنسانُ لِقَاء العدو، وهذا غير تَمنِّي الشهادة! تمنِّي الشَّهادة جائز وليس منهيًّا عنه، بل قد يكون مأمورًا به، أما تمنِّي لقاءَ العدوّ، فلا تتمنّاه؛ لأن الرسول ﷺ قال: «لا تتمنَّوا لقاءَ العدوّ».

ومنها: أن يسأل الإنسانُ الله العافية، لأنَّ العافيةَ والسَّلامةَ لا يعدلها شيء، فلا تتمنَّ الحروبَ ولا المقاتلة، واسألِ الله العافيةَ والنَّصرَ لدينه، ولكن إذا لقيتَ العدوَّ، فاصبر.

ومنها: أن الإنسان إذا لقيَ العدوَّ فإن الواجبَ عليه أن يصبر، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٥، ٤٦].

ومنها: أنَّه ينبغي لأميرِ الجيشِ أو السَّريَّةِ أن يَرفِق بهم، وأنْ لا يَبْدأ القتالَ إلاَّ في الوقت المناسب، سواء كان مناسبًا من النَّاحيةِ اليوميَّةِ أو من الناحيةِ الفصليَّة. فمثلاً في أيام الصَّيفِ لا ينبغي أن يتحرَّى القتالَ فيه؛ لأن فيه مَشقَّة.

وفي أيَّامِ البردِ الشَّديدِ لا يتحرَّ ذلك أيضًا؛ لأن في ذلك مَشقَّة، لكن إذا أمكنَ أن يكون بين بين، بأن يكونَ في الربيعِ أو في الخريف، فهذا أحسنُ ما يكون.

ومنها ـ أيضاً ـ أنَّه ينبغي للإنسان أنْ يَدعو بهذا الدُّعاء «**اللَّهُمَّ مُنزِلَ الكِتَاب، ومُجريَ السَّحاب، وهازِم الأحزاب، اهزِمهُم وانصرنا عليهم**».

ومنها: الدُّعاءُ على الأعداء بالهزيمة؛ لأنهم أعداؤكَ وأعداءُ الله، فإنَّ الكافر ليس عدُوًّا لك وحْدَك، بل هو عَدُوٌّ لك ولِربِّكَ ولأنبيائهِ ولملائكتِه ولِرُسُلِه ولكلِّ مؤمن. فالكافرُ عَدُوٌّ لكلِّ مؤمن، وعَدُوٌّ لكلِّ رسول، وعدوٌّ لكلِّ نبيّ، وعدوٌّ لكلِّ مَلَك، فهو عدوّ، فينبغي لك أن تسألَ الله دائمًا أن يخذلَ الأعداءَ من الكفَّار، وأن يهزمهم، وأن ينصرنا عليهم. والله الموفِّق.

* * *

٤ـ بابُ الصِّدق

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [محمد: ٢١].

الشرح

قال المؤلِّفُ رحمه الله تعالى: باب الصِّدْق.

الصدق: معناه مُطابقةُ الخبرِ للواقعِ، هذا في الأصل.

ويكونُ في الإخبار، فإذا أخبرت بشيء وكان خبرك مطابقًا للواقع قيل: إنَّه صِدق، مثلُ أن تقولَ عن هذا اليوم: اليومُ يومُ الأحد، فهذا خبرٌ صِدْق؛ لأن اليومَ يومُ الأحد.

وإذا قلت: اليومُ يومُ الاثنين، فهذا خبر كذب.

فالخبر إنْ طابق الواقع فهو صدق، وإن خالف الواقع فهو كذب. وكما يكون الصِّدق في الأقوال يكون أيضًا في الأفعال.

فالصدق في الأفعال: هو أن يكون الإنسان باطنه موافقًا لظاهره، بحيث إذا عمل عملاً يكون موافقًا لما في قلبه.

فالمُرَائي مثلاً ليس بصادقٍ؛ لأنَّه يُظهر للنَّاس أنه من العابدينَ وليس كذلك.

والمُشركُ مع الله ليس بصادق؛ لأنه يُظهرُ أنه مُوَحِّدٌ وليس كذلك.

والمنافق ليس بصادق، لأنه يُظهرُ الإيمانَ وليس بمؤمن.

والمبتدعُ ليس بصادق، لأنه يُظهِرُ الاتِّباعَ للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وليس بمُتَّبِع.

المهمُّ أن الصدقَ مُطَابقةُ الخبرِ للواقع، وهو من سماتِ المؤمنين، وعكسهُ الكذب، وهو من سماتِ المنافقين، نعوذ بالله.

ثم ذكرَ آياتٍ في ذلك:

فقال: وقولُ الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

هذه الآيةُ نزلتْ بعد ذكرِ قصَّةِ الثلاثةِ الذين خُلِّفوا، وقد تخلَّفوا عن غزوةِ تبوك، ومنهم: كعب بن مالك، وقد تقدَّم حديثه.

وكان هؤلاء الثلاثة حين رجع النبيُّ ﷺ من غزوة تبوك، وكانوا قد تخلَّفوا عنها بلا عذر، وأخبروا النبيَّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأنهم لا عذرَ لهم، فخلفهم، أي: تركهم.

فمعنى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ أيْ: تُركُوا، فلم يُبتَّ في شأنهم؛ لأن المنافقينَ لمَّا قدم الرسول ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ من غزوةِ تبوك جاؤوا إليه يعتذرونَ إليه ويحلفون بالله إنهم مَعْذُورون، وفيهم أنزلَ الله هذه الآية ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦].

أمَّا هؤلاءِ الثلاثةُ فصدقوا الرسول عليه الصَّلاة والسلام، وأخبروهُ

بالصدق بأنَّهم تخلَّفوا بلا عُذر.

فأرجأهم النبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ خمسينَ ليلة، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ﴾ [التوبة: ١١٨]، ثمَّ أنزل الله توبتَهُ عليهم.

ثم قال بعد ذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]، فأمرَ الله تعالى المؤمنين بأن يتَّقوا الله، وأن يكونوا مع الصَّادقينَ لا مَعَ الكاذبين.

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، هذه في جملةِ الآيةِ الطَّويلةِ التي ذكرها الله في سورة الأحزاب، وهي: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ إلى أنْ قال: ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ﴾ إلى أن قال ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

فذكرَ الله الصَّادقينَ والصادقاتِ في مقامِ الثَّناء، وفي بيانِ ما لهم من الأجرِ العَظيم.

وقال تعالى: ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ أي: لو عَامَلوا الله بالصدقِ لكان خيرًا لهم، ولكن عاملوا الله بالكذبِ فنافقوا وأظهروا خلافَ ما في قلوبهم، وعاملوا النبيَّ ﷺ بالكذب، فأظهروا أنهم مُتَّبِعونَ له وهم مخالفونَ له. فلو صَدَقوا الله بقلوبهم وأعمالهم وأقوالهم لكان خيرًا لهم، ولكنهم كذبوا الله فكان شَرًّا لهم.

وقال الله: ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٢٤] فقال: ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾.

فدلَّ ذلك على أن الصِّدقَ أمرهُ عظيم، وأنه محلٌّ للجزاءِ من الله سبحانه وتعالى.

إذنْ علينا أن نصدق، وعلينا أن نكونَ صادقين، وعلينا أن نكونَ صُرحاء، وعلينا أن لا نخفي الأمر عن غيرنا مُداهَنة أو مراءاةً.

كثيرٌ من الناسِ إذا حُدِّث عن شيءٍ فَعَلَهُ وكان لا يرضيهِ كذبَ وقال: ما فعلت.

لماذا؟ لا تستحِ من الخَلْقِ وتبارِزُ الخالِقَ بالكذب؟! قُلِ الصِّدقَ ولا يُهمَّنَّك أحد، وأنت إذا عَوَّدت نفسك الصِّدق فإنك في المستقبل سوف تُصلح حالك، أما إذا أخبرتَ بالكذبِ وصرت تكتم عن الناس وتكذب عليهم، فإنك سوف تستمرُّ في غيِّك، ولكن إذا صدقت فإنك سوف تُعَدِّلُ مَسيركَ ومنهاجك.

فعليك بالصدقِ فيما لك وفيما عَلَيك؛ حتى تكونَ مع الصادقين الَّذين أمركَ الله أن تكونَ معهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

* * *

٥٤ ـ عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الصِّدْقَ يَهْدي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يَهْدي إلى الجَنَّة، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْد الله صِدِّيقًا، وإنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلى الفُجُور، وإن الفُجُورَ يَهْدِي إلى

النَّار، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حتَّى يُكتَبَ عندَ الله كَذَّابًا»(١) **[متفق عليه].**

الشرح

هذا البابُ عقدَهُ المؤلفُ ـ رحمه الله ـ للصدق فقال: باب الصدق، وذكرَ آياتٍ سبقَ الكلامُ عليها، أمّا الأحاديثُ فقال: عن عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – أن النبيَّ ﷺ قال: **«عَلَيْكُمْ بالصِّدْق، فإن الصِّدْقَ يَهْدي إلى البِرِّ، وإن البِرَّ يَهْدي إلى الجنَّة. . .»**

قوله: **عليكم بالصِّدق»**. . . أي: الزموا الصدق، والصِّدق: مُطابقةُ الخبرِ للواقع، يعني: أن تخبر بشيءٍ فيكونَ الخبرُ مطابقًا للواقع، مثالُ ذلك: إذا قلتَ لمن سألك: أيُّ يومٍ هذا؟ فقلت: اليومَ يومُ الأربعاء (وهو يومُ الأربعاءِ فعلاً) فهذا صدق، ولو قلت: يومُ الثلاثاءِ لكان كذبًا، فالصدق مطابقة الخبر للواقع، وقد سبقَ في حديثِ كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ وصَاحِبيهِ ما يدلُّ على فضيلةِ الصِّدقِ وحُسْنِ عاقبته، وأنَّ الصَّادقَ هو الذي له العاقبة، والكاذبَ هو الذي يكونُ عمله هباءً. ولهذا يُذكرَ أنَّ بعضَ العامَّةِ قال: إنَّ الكَذِب يُنَجِّي، فقال لهُ أخُوه: الصدقُ أنْجىٰ وأنْجىٰ. وهذا صحيح.

واعلمْ أنَّ الخبرَ يكونُ باللِّسانِ ويكون بالأركان.

أما باللِّسان فهو القول، وأما بالأركانِ فهو الفعل، ولكنْ كيف يكونُ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ رقم(٦٠٩٤)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم(٢٦٠٧).

الكذبُ بالفعل؟! إذا فعلَ الإنسانُ خلافَ ما يُبْطِن فهذا قد كذب بفعله، فالمنافق مثلاً كاذبٌ لأنَّه يُظهرُ للنَّاسِ أنه مؤمن، يُصَلِّي مع الناس ويصوم مع الناس، ويتصدَّق ولكنه بخيل. وربما يحجُّ، فمن رأى أفْعالَهُ حكمَ عليه بالصَّلاح، ولكنَّ هذه الأفعالَ لا تُنبىءُ عمّا في الباطن، فهي كذب.

ولهذا نقول: الصِّدقُ يكونُ باللِّسان ويكونُ بالأركان. فمتى طابقَ الخبرُ الواقعَ فهو صِدْقٌ باللِّسان، ومتى طابقتْ أعمالُ الجوارحِ مَا في القلب فهي صِدْقٌ بالأفعال.

ثم بيَّن النبي ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ عندما أمرَ بالصِّدق ـ عاقبتَهُ فقال: «إنَّ الصدقَ يَهْدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهْدي إلى الجَنَّة».

البرُّ كَثْرةُ الخير، ومنه من أسماءِ الله: «البَرُّ» أي كثيرُ الخيرِ والإحسانِ عزَّ وجلَّ.

فالبرُّ يعني كثرةَ الخير، وهو من نتائجِ الصِّدق، وقوله: «وإنَّ البرَّ يَهْدي إلى الجَنَّة» فصاحبُ البرِّ ـ نسألُ الله أن يجعلنا وإيّاكم منهم ـ يَهْديهِ برُّه إلى الجنَّة، والجنَّةُ غايةُ كل مطلب، ولهذا يُؤمرُ الإنسانُ أن يسألَ الله الجنَّةَ ويستعيذَ به من النَّار ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقوله: «إن الرَّجُل لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتبَ عند الله صِدِّيقًا» وفي رواية: «ولا يزالُ الرَّجلُ يصْدُق ويتَحرَّى الصِّدْقَ حتَّى يُكْتبَ عندَ الله صدِّيقًا».

والصدِّيق في المرتبة الثَّانية من مراتبِ الخَلْق من الذين أنعم الله عليهم كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم

مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ ﴾ [النساء: ٦٩]، فالرجلُ الذي يتحرَّى الصدقَ يُكتبُ عند الله صِدِّيقًا، ومعلومٌ أن الصِّديقيةَ درجةٌ عظيمةٌ لا ينالها إلا أفذاذٌ من الناس، وتكونُ في الرِّجال وتكونُ في النِّساء، قال الله تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة: ٧٥].

وأفضلُ الصِّدِّيقين على الإطلاقِ أصدقهم، وهو أبوبكرٍ رضي الله عنه: عبدالله بن عثمان بن أبي قُحافة، الذي استجابَ للنَّبيِّ ﷺ حين دعاهُ إلى الإسلام، ولم يحصلْ عنده أيّ ترَدُّدٍ وأيُّ توقف، بمجرَّد مَا دَعاه الرسول ﷺ إلى الإسلام أسْلَمَ، وصدّقَ النبيَّ ﷺ حين كذَّبهُ قومه، وصدَّقه حين تحدَّث عن الإسراءِ والمعراجِ وكذَّبهُ الناسُ وقالوا: كيف تذهبُ يا محمَّدُ من مكةَ إلى بيتِ المقدسِ وترجعُ في ليلةٍ واحدة ثم تقول: إنك صعدت إلى السَّماء؟ هذا لا يمكن. ثم ذهبوا إلى أبي بكر وقالوا لهُ: أما تَسْمَعُ ما يقول صاحبك؟ قال: ماذا قال؟ قالوا: إنَّه قال كذا وكذا! قال: «إنْ كانَ قدْ قالَ ذلك فقد صَدق»، فمنذ ذلك اليوم سُمِّي الصِّديق، رضيَ الله عنه.

وأما الكذب، قال النبيُّ ﷺ «وإيَّاكم والكذب».

«إيَّاكم» للتحذير، أي: احذروا الكذب، والكذب هو الإخبار بما يُخَالفُ الواقع، سواء كان ذلك بالقولِ أو بالفعل.

فإذا قال لكَ قائل: ما اليوم؟ فقلت: اليومَ يومُ الخميس، أو يومُ الثلاثاء (وهو يومُ الأربعاء) فهذا كذب؛ لأنه لا يُطابقُ الواقع؛ لأن اليومَ يومُ الأربعاء.

والمنافقُ كاذب؛ لأنَّ ظاهرَهُ يدلُّ على أنَّه مسلمٌ وهو كافر، فهو كاذبٌ بفعله.

وقوله: «**وإنَّ الكذبَ يَهْدي إلى الفُجور**» الفجور: الخروجُ عن طاعةِ الله؛ لأن الإنسانَ يفسقُ ويتعدَّى طورَهُ ويخرجُ عن طاعةِ الله إلى معصيته، وأعظمُ الفجورِ الكفرُ - والعياذُ بالله -، فإن الكَفَرةَ فَجَرة، كما قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ۝٧ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ۝٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٩ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [المطففين: ٧ - ١١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ [الانفطار: ١٤].

فالكذبُ يهدي إلى الفُجور، والفجورُ يهدي إلى النار نعوذ بالله منها.

وقوله: «**وإنَّ الرَّجُل لَيَكذِب**» وفي لفظ: «**لا يزالُ الرَّجلُ يكْذِبُ ويتحرَّى الكَذِب حتى يُكتب عند الله كَذَّابًا**»[1]، والكذبُ من الأمورِ المحرَّمة، بل قال بعضُ العلماء: إنَّه من كبائرِ الذُّنوب؛ لأنَّ الرسول ﷺ توعَّده بأنَّه يُكتبُ عند الله كذَّابًا.

ومن أعظمِ الكذب: ما يفعلهُ بعضُ الناس اليوم، يأتي بالمَقَالةِ كاذبًا يعلم أنها كذب، لكنْ من أَجْل أن يُضحكَ الناس، وقد جاء في الحديثِ الوعيدُ على هذا، فقال الرسولُ عليه الصلاة والسلام: «**ويْلٌ للذي يَحدِّثُ**

---

(١) لفظ مسلم، كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم (٢٦٠٧).

فَيَكذبُ ليُضْحِكَ به القوم، ويلٌ لهُ، ويلٌ له»[١]، وهذا وعِيدٌ على أمْرٍ سَهُلَ عند كثير من الناس.

فالكذب كلُّه حرام، وكلُّه يَهدي إلى الفجور، ولا يُسْتثنى منه شيء.

وَرَدَ في الحديث[٢]، أنَّه يُستثنى من ذلك ثلاثةُ أشياء: في الحرب، والإصلاحِ بين الناس، وحَديثِ المرأةِ زَوجها وحديثه إيَّاها.

ولكنَّ بعضَ أهلِ العلمِ قال: إنَّ المرادَ بالكذب في هذا الحديثِ التَّوريةُ وليس الكذبَ الصريح.

وقال: التَّورية قد تُسَمَّى كذبًا، كما في حديثِ أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبيَّ ﷺ قال: «**لم يكذبْ إبراهيمُ إلا ثلاثَ كذبات: ثنتينِ منهُنَّ في ذاتِ الله تعالى: قوله**: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، **وقوله**: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] **وواحدةٌ في شأن سارة**...» الحديث[٣]، وهو لم يكذب، وإنما ورَّى توريةً هو فيها صادق.

وسواء كان هذا أو هذا؛ فإن الكذبَ لا يجوزُ إلاَّ في هذه الثلاثِ على

---

(١) أخرجه أبوداود، كتاب الأدب، باب في التشديد في الكذب، رقم(٤٩٩٠)، وقال: هذا حديث حسن.

(٢) وهو جزء من حديث أم كلثوم بنت عقبة قالت: ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث: الحربُ، والإصلاحُ بين الناس؛ وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها». أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الكذب وبيان ما يباح منه، رقم(٢٦٠٥).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ رقم(٣٣٥٧، ٣٣٥٨)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ، رقم(٢٣٧١).

رأي كثيرٍ من أهلِ العلم، وبعضُ العلماءِ يقول: الكذبُ لا يجوزُ مطلقًا: لا مزحًا، ولا جِدًا، ولا إذا تضمَّنَ أكلَ مالٍ أو لا.

وأشدُّ شيءٍ من الكَذبِ أن يكذب ويحلف ليأكلَ أموال النَّاسِ بالباطل، مثلُ أن يُدَّعى عليه بحقٍّ ثابتٍ فيُنكر ويقول: والله مَا لكَ عليَّ حق، أو يَدَّعي ما ليس له فيقول: لي عندك كذا وكذا، وهو كاذب، فهذا إذا حَلَفَ على دعواهُ وكذب؛ فإن ذلك هو اليمينُ الغَموسُ التي تغمسُ صاحبها في الإثم، ثم تغمسهُ في النَّار والعياذُ بالله.

وثبت عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمين صَبْرٍ يقْتَطعُ بها مَالَ امْرِىءٍ مُسلمٍ هُو فيها فاجرٌ؛ لقيَ الله وهُو علَيْه غضْبان**»[1]، فالحاصلُ أن الكذب حرام، ولا يجوزُ للإنسان أن يكذبَ مطلقًا، لا هازلاً ولا جادًّا، إلا في المسائلِ الثَّلاث، على خلافٍ بين العلماءِ في معنى الحديث السَّابق.

* * *

٥٥ ـ عن أبي مُحمَّدٍ الحسنِ بن عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنهما، قال: حَفِظْتُ مِنْ رسولِ الله ﷺ: «دَعْ ما يَرِيْبُك إلى مَا لا يَريبُك؛ فإنَّ الصِّدْقَ طُمَأنينَةٌ، والكَذِبَ ريبَةٌ»[2] رواه الترمذي وقال: حديثٌ صحيحٌ.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ رقم(٤٥٤٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، رقم(١٣٨).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب رقم(٦٠)، رقم(٢٥١٨)، والنسائي، كتاب الأشربة، باب الحث على ترك الشبهات، رقم(٥٧١١)، وأحمد (١/ ٢٠٠)، وقال =

قولُهُ: «يَرِيبُكَ» هو بفتحِ الياءِ وضمِّها؛ ومعناهُ: اترُكْ ما تَشُكُّ في حِلِّه، واعْدِلْ إلَى مَا لا تَشُكُّ فيه.

الشرح

قوله: «دع» أي: اترك. «ما يَرِيبُكَ» بفتحِ الياء، أي: تَشُكُّ فيه ولا تطمئِنَّ إليه. «إلى مَا لاَ يَرِيبُكَ» أي: إلى الشَّيءِ الذي لا ريبَ فيه.

وهذا الحديث من أحاديث الأربعين النَّووية، وهو حديثٌ جامعٌ مهمّ، وهو بابٌ عظيمٌ من أبوابِ الوَرَعِ والاحتياط.

وقد سلكَ أهلُ العلمِ ـ رحمهم الله ـ في أبوابِ الفقهِ هذا المَسْلكَ، وهو الأخذُ بجانبِ الاحتياط، وذكروا لذلك أشياءَ كثيرة.

منها: إنسانٌ أصابَ ثوبَهُ نجاسة، ولا يدري هل هي في مقدَّمِ الثوبِ أو في مؤخَّره، إن غسلَ المقدَّم صار عنده ريبةٌ لاحتمالِ أنْ تكُون في مُؤخَّر الثَّوب، وإن غَسَلَ المؤخرَ صار عنده ريبةٌ لاحتمالِ أن تكونَ في مقدَّم الثَّوب! فما هو الاحتياط؟

الاحتياطُ أن يغسلَ مقدَّمه ومؤخَّره، حتى تزُولَ ريبتهُ ويَطْمئنّ.

ومنها: لو شكَّ الإنسانَ في صلاته: هلْ صَلَّى ركعتينِ أو ثلاثَ ركعات، ولم يترجَّحْ عنده شيء؟ فهنا، إن أخذَ بركعتينِ صارَ عنده ريبةٌ فلَعَلَّه نقص، وإنْ أخذ بالثَّلاثِ صارَ عنده ريبة، فلعلَّه لم ينقص، لكن يبقى قلقًا؛ فهنا يعملُ بما لا ريبةَ فيه فيعملُ بالأقلّ، فإذا شَكَّ هل هي ثلاثٌ أو

= الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

أربع، فليجعلها ثلاثًا، وهكذا.

فهذا الحديثُ أصلٌ من أصولِ الفِقه، أن الشَّيءَ الذي تَشُكُّ فيه اترُكْهُ إلى شيءٍ لا شَكَّ فيه.

ثُمَّ إن فيه تربية نفسيَّة، وهي أن الإنسانَ يكونُ في طُمأنينةٍ ليس في قلق، لأنَّ كثيرًا من الناس إذا أخذَ ما يشكُّ فيه يكونُ عنده قلقٌ إذا كان حيَّ القلب، فهو دائمًا يفكر: لعلي فعلت، لعلي فعلت.. لعلي تركت، فإذا قطعَ الشكَّ باليقين زالَ عنه ذلك.

قال النبيُّ ﷺ: «**فإنَّ الصِّدقَ طُمَأْنينَة**» وهذا وجهُ الشَّاهدِ من هذا الحديثِ لهذا الباب (باب الصدق).

فالصِّدقُ طمأنينة، لا يندمُ صاحبه أبدًا، ولا يقول: ليتني وليتني؛ لأن الصِّدق مَنْجاة، والصَّادقون يُنَجِّيهُم الله بصدقهم، وتجدُ الصَّادقَ دائمًا مطمئنًّا؛ لأنه لا يتأسَّفُ على شيءٍ حصل أو شيءٍ يَحْصُل في المستقبل؛ لأنه قد صدق، و«مَنْ صَدَق نجا».

أما الكذب، فبيَّن النبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنَّه ريبة، ولهذا تجدُ أوَّلَ من يرتابُ في الكاذبِ نفسه، فيرتابُ الكاذب: هل يصدِّقهُ الناسُ أو لا يُصدِّقونه؟

ولهذا تجدُ الكاذبَ إذا أخبركَ بالخبرِ قام يحلفُ بالله أنَّه صدق؛ لئلا يُرتابَ في خبره، مع أنَّه مَحَلُّ ريبة.

تجدُ المنافقين مثلاً يحلفونَ بالله ما قالوا: ولكنَّهم في ريبة، قال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ﴾

[التوبة: ٧٤].

فالكذبُ لا شكَّ أنَّه ريبةٌ وقلقٌ للإنسان، ويَرْتابُ الإنسان: هل عَلِمَ الناس بكَذِبه أم لم يعلموا؟ فلا يزالُ في شكٍّ واضطرابٍ.

فنأخذُ من هذا الحديث أنَّه يجب على الإنسانِ أن يَدَعَ الكذبَ إلى الصِّدق؛ لأنَّ الكذبَ ريبة، والصِّدقُ طمأنينة، وقد قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «دعْ مَا يَرِيبُكَ إلى ما لا يَرِيبُكَ»: والله الموفِّق.

* * *

٥٦ ـ عن أبي سُفيانَ صَخْرِ بن حَرْب ـ رضي الله عنه ـ في حديثهِ الطويلِ في قصَّةِ هِرَقْل، قال هِرَقْلُ: فماذا يَأمُرُكم ـ يعني النبيَّ ﷺ ـ قال أبو سفيان: قلتُ: يقول: «اعْبُدوا الله وَحْدَهُ ولا تُشْرِكوا به شيئًا، واتْرُكُوا ما يَقُولُ آباؤكُمْ، ويأمُرنا بالصَّلاة، والصِّدْق، والعَفَاف، والصِّلَة»[1] [متفق عليه].

الشرح

قال المؤلفُ ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أبي سفيانَ صخرِ بن حرب ـ رضي الله عنه ـ وكان أبوسفيان مُشْركًا لم يُسلمْ إلاَّ متأخِّرًا فيما بين صلحِ الحديبيَّة وفتحِ مكة. وصلحُ الحديبيَّةِ كان في السَّنةِ السادسةِ من الهجرة، وفتَح مكةَ كان في السَّنة الثامنة من الهجرة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم(٧)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، رقم(١٧٧٣).

قدَم أبوسفيان ومعه جماعةٌ من قريشٍ إلى هِرَقْلَ في الشَّام، وهِرَقْلُ كان ملكَ النصارى في ذلك الوقت، وكان قد قرأ في التَّوراة والإنجيل وعرفَ الكتبَ السَّابقة، وكان مَلِكًا ذكيًا، فلمّا سمعَ بأبي سفيان ومن مَعَه وهم قادمون من الحجازِ دَعَا بهم، وجعل يسألهم عن حالِ النبيِّ ﷺ وعن نَسَبِهِ، وعن أصْحابه، وعن توْقيرهم له، وعن وفائهِ ﷺ وكلما ذكرَ شيئًا أخبروهُ عرفَ أنه النبيُّ الذي أخبرتْ به الكتُب السَّابقة، ولكنَّه - والعياذُ بالله- شحَّ بمُلْكهِ فلم يسلمْ للحكمة التي أرادها الله عزَّ وجلَّ.

لكن سألَ أبا سفيان عمَّا كان يأمرهم به النبيُّ ﷺ فأخبرَ بأنه يأمرهم أن يَعْبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، فلا يعبدوا غيرَ الله، لا مَلِكًا ولا رَسُولاً، ولا شجرًا ولا حجرًا، ولا شَمْسًا ولا قمرًا، ولا غيرَ ذلك، فالعبادةُ لله وحده، وهذا الذي جاء به الرسولُ ﷺ قد جاءتْ به الرُّسلُ كلُّهم، جاؤوا بهذا التوحيدِ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، أي: اعبدوا الله واجتنبوا الشرك.

هذه دعوةُ الرسل، فجاءَ النبيُّ ﷺ بما جاءتْ به الأنبياءُ من قبله بعبادةِ الله وحدَهُ لا شريكَ له.

ويقول: «اتْرُكُوا مَا كان عليه آباؤكُم» انظرْ كيف الصَّدعُ بالحقّ! كلُّ ما كان عليه آباؤهم من عبادةِ الأصنامِ أمرهم النبيُّ ﷺ بتركه.

وأما ما كان عليه آباؤهم من الأخلاق الفَاضلة؛ فإنَّه لم يأمرهم بتركه.

كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ فقال سبحانه مكذِّبًا لهم: ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ [الأعراف: ٢٨].

فالحاصلُ أن الرَّسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمرَ أمَّتَهُ الذين باشرَ دعوتهم أن يَدَعوا ما كان عليه آباؤهم من الإشراكِ بالله.

وقوله: «وكانَ يأمُرنا بالصلاة» الصَّلاةُ صِلَةٌ بين العبدِ وبين ربه، وهي آكدُ أركانِ الإسلام بعد الشَّهادتين، وبها يتميَّزُ المؤمنُ من الكافر، فهي العهدُ الذي بيننا وبين المشركينَ والكافرين، كما قال النبيُّ عليه الصلاةُ والسلام: «**العهدُ الذي بيْنَنَا وبيْنَهُم الصَّلاة، فَمَن تَرَكَهَا فَقَد كَفَر**»[1] أي: كفر كفرًا مُخْرجًا عن الملة؛ لأنَّ الرسولِ عليه الصلاة والسلام قال: «**العهدُ الذي بيننا وبينهم الصَّلاة**»، هذا حدٌّ فاصلٌ بين المؤمنين وبين الكافرين.

ولقد أبعدَ النَّجعة من قال من العلماء: إنَّ المرادَ بالكفرِ هنا الكفرُ الأصغرُ، كالذي في قوله ﷺ: «**اثْنَتَان في النَّاس هُمَا بِهِمْ كُفْر**»[2]؛ لأنه من تدبَّرَ الحديثَ علمَ أن هذا تأويلٌ خاطىء، وأن الصَّوابَ المتعيِّنَ أن المراد بالكفر هنا الكفر الأكبر المخرج عن الملَّة؛ لأن الفاصلَ بين شيئين، بين

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، رقم(٢٦٢١)، والنسائي، كتاب الصلاة، باب الحكم في تارك الصلاة، رقم(٤٦٣)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة، رقم(١٠٧٩)، وأحمد في المسند (٣٤٦/٥، ٣٥٥). وقال الترمذي: حسن صحيح. وصححه الحاكم والذهبي، وقال الألباني: وهو كما قالوا. انظر المشكاة رقم(٥٧٤) هامش رقم(٥).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب اطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة على الميت، رقم(٦٧).

الإيمانِ والكفر، لابدَّ أن يُمَيِّزَ أحَدَهما من الآخر، وإلا لما صَحَّ أن يكونَ فاصلاً، كالحدودِ التي بين أرْضين إحداهما لِزَيْد والأخرى لعمرو، فإنَّ هذه الحدودَ فاصلةٌ لا تُدخِلُ أرضَ زيدٍ في أرض عمرو، ولا أرضَ عمرو في أرض زيد. وكذلك الصَّلاةُ حَدٌّ فاصل، مَنْ كان خارجًا منها فليس داخلاً فيما وراءها.

إذًا الصلاةُ من بين سائرِ الأعمال إذا تركها الإنسانُ فهو كافر، لو ترك الإنسانُ صيامَ رمضان وصارَ يأكلُ ويَشْربُ بالنَّهار ولا يبالي لم نقلْ إنه كافر. لكن لو ترك الصَّلاةَ قلنا إنه كافر، ولو ترك الزَّكاة وصار لا يزكِّي، يجمعُ الأموالَ ولا يزكِّي، لم نقلْ إنه كافر، لكنْ لو تركَ الصَّلاةَ قلنا إنه كافر. ولو لم يَحُجَّ مع قدرتهِ على الحجِّ لم نقلْ إنه كافر، لكن لو تركَ الصَّلاة قلنا إنه كافر.

قال عبد الله بن شقيق رحمه الله، وهو من التابعين، وهو مشهور: «كان أصْحابُ محمَّدٍ ﷺ لا يَرَوْنَ شيئًا مِن الأعمالِ تركُه كُفرٌ غيرَ الصَّلاة»[1].

إذًا الصلاةُ التي كان الرسولُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ يأمرُ بها، إذا تركها الإنسانُ فهو كما لو تركَ التَّوحيد، أي: يكونُ كافرًا مشركًا والعياذُ بالله. وإلى هذا يُشيرُ حديثُ جابرٍ الذي رواهُ مسلمٌ عن جابرٍ عن النبيِّ ﷺ

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ماجاء في ترك الصلاة، رقم(٢٦٢٢)، قال الألباني: وإسناده صحيح. انظر المشكاة رقم(٥٧٩) هامش رقم(٢).

أنه قال: «**بَيْنَ الرجلِ وبينَ الشركِ والكفرِ تَرْكُ الصَّلاة**»[1].

وقوله: «**وكان يأمُرنا بالصِّدق**» وهذا هو الشَّاهدُ من الحديث، كان النبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ يأمرُ أُمَّتَهُ بالصدق، وهذا كقولهِ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

والصدقُ خُلُقٌ فاضل، ينقسمُ إلى قسمين:

صدقٌ مع الله، وصدقٌ مع عبادِ الله، وكلاهما من الأخلاقِ الفاضلة. وضِدُّ الصِّدق الكذب، وهو الإخبار بخلاف الواقع، والكذب خُلقٌ ذميمٌ من أخلاقِ المنافقين، كما قال الرسولُ عليه الصلاةُ والسلام: «**آيةُ المنافقِ ثَلاَثٌ**» وَذَكر منها: «**إذَا حدَّث كَذَبَ**» وبعضُ الناس ـ والعياذُ بالله ـ مُبْتَلى بهذا المرض، فلا يستأنسُ ولا يَنْشَرِحُ صَدْرُه إلاَّ بالكذب، يكذبُ دائمًا، إنْ حدَّثكَ بحديثٍ إذا هو كاذب، إنْ جلسَ في المجلسِ جعل يَفْتَعِلُ الأفاعيلَ ليُضحكَ بها الناس، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**ويلٌ لمن حدَّثَ فكذبَ ليُضحِكَ به القوم.. ويلٌ له، ثمَّ ويلٌ له، ثمَّ ويلٌ له**» ثلاث مرات.

وقوله: «**العفاف**» أي: العِفَّة، والعِفَّة نوعان: عفَّةٌ عن شهوةِ الفَرْج، وعِفَّةٌ عن شهوةِ البطن.

أمَّا العِفَّةُ الأولى: فهي أن يبتعدَ الإنسانُ عمَّا حرمَ عليه من الزِّنىٰ ووسائله وذرائعه؛ لأن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، رقم(٨٢).

وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وأوْجَبَ على الزَّاني أن يُجْلَدَ مائةَ جلدة، ويُطْردَ عن البلدِ سَنَة كاملةً إن كان لم يتزوَّجْ من قبل، أما إذا كان قد تزوَّجَ وجامعَ زوجتَهُ وزَنَىٰ بعد ذلك فإنَّه يُرْجَمُ رجمًا بالحجارةِ حتى يموت، كلُّ هذا رَدْعًا للناسِ عن أن يَقَعوا في هذه الفاحشة؛ لأنها تُفْسدُ الأخلاقَ والأديانَ والأنساب، وتوجبُ أمْرَاضًا عظيمةً ظهرتْ آثارُها في هذا الزمنِ لمّا كَثُرَتْ فاحشةُ الزنى والعياذُ بالله.

ومَنَع الله كلَّ ما يُوصِّل إلى الزنا ويكون ذريعةً له، فَمَنَع المرأةَ أن تخرجَ متبرِّجةً فقال: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فأفضلُ مكانٍ للمرأةِ أن تبقى في بيتها ولا تخرجَ إلا إذا دعتِ الحاجةُ أو الضَّرورةُ إلى ذلك، فلتخرجْ كما أمرها الرسولُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ تَفِلَة، أي: غير مُتَطيِّبةٍ ولا متبرِّجة[1].

كذلك أمرَ باحتجابِ المرأةِ ـ إذا خرجَت ـ عن كلِّ رجلٍ ليس من محارمها، والحجابُ الشَّرعيُّ هو أن تُغَطِّيَ المرأةُ جميعَ ما يكونُ النَّظرُ إليه ذريعةً إلى الفاحشة، وأهمُّهُ الوجه، فإنَّ الوَجْهَ يجبُ حَجْبُهُ عن الرِّجالِ الأجانبِ أكثرَ مما يجبُ حَجْب الرَّأسِ وحجبُ الذِّراعِ وحَجْبُ القدم. ولا

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، ولكن ليخرجن وهن تفلات». أخرجه أبوداود، كتاب الصلاة، باب ما جاء في خروج النساء إلى المسجد، رقم(٥٦٥)، والإمام أحمد في المسند (٢/٤٣٨، ٤٧٥، ٥٢٨) وصححه الألباني في الإرواء رقم(٥١٥).

عبرةَ بقولِ من يقول: إنّه يجوزُ كَشْفُ الوجه؛ لأنَّ قولَهُ هذا فيه شيءٌ من التّناقض.

كيف يجوز للمرأة أن تكشف وجهها، ويجبُ عليها عند هذا القائل أن تَسْتُرَ قدميها؟! أيُّهما أعظمُ فتنةً وأيُّهما أقربُ إلى الزِّنىٰ: أن تكشف المرأة وجهها أو تكشف قدميها؟ كلُّ إنسانٍ عاقلٍ يفهم ما يقول، يقول: إن الأقربَ إلى الزِّنىٰ والفتنةِ أن تكشفَ عن وجهها.

ومن ذلك أيضًا: ألاَّ تخرجَ المرأةُ مُتَطَيِّبة، فإنْ خرجتْ مُتَطَيِّبةً فقد أتتْ بوسيلةِ الفتنةِ منها وبها، فيفتتنُ الناسُ بها، وهي تفتتنُ أيضًا حيث تمشي في الأسواقِ وهي متطيِّبة. نسأل الله العافية.

ولا يجوز لأحدٍ أن يمكِّنَ أهله من ذلك أبداً، وعليه أن يتفقَّدهم، سواء كانت الزوجة أو البنت، أو الأخت، أو الأمّ، أو غير ذلك، لا يجوزُ لأحدٍ أن يمكِّنَ أهلَهُ من الخروجِ على غيرِ الوجهِ الشرعيّ.

أمّا النّوع الثّاني من العفاف: فهو العفَافُ عن شهوةِ البَطن، أي: عمّا في أيدي النّاس، كما قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، يعني: من التعفُّفِ عن سؤال الناس، بحيث لا يسألُ الإنسانُ أحدًا شيئًا؛ لأنَّ السُّؤال مَذَلَّة، والسَّائل يدُه دُنيا، سُفلى، والمعطي يده عُلْيَا، فلا يجوزُ أن تسألَ أحدًا، إلاَّ ما لابُدّ منْه، كما لو كان الإنسانُ مضطرًا أو محتاجًا حاجةً شبهَ ضَرُورية، فَحينئذٍ لا بأسَ أن يسأل. أمّا بدون حاجةٍ ملحّةٍ أو ضرورةٍ فإن السُّؤال محرَّم، وقد وردتْ أحاديثُ في التّحذيرِ منه، حتى أخبرَ النّبيُّ ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ أن السائلَ يأتي

يومَ القيامةِ وما في وجههِ مُزْعَةُ لَحْم ـ والعياذُ بالله ـ قد ظهرَ منه العَظْمُ أمام الناسِ في هذا المقامِ العظيمِ المَشْهود.

ثم إنَّ الصَّحابةَ ـ رضي الله عنهم ـ بَايَعُوا النَّبيَّ ﷺ على أن لا يسألوا النَّاس شيئًا، حتى كان سَوْطُ أحَدِهم يَسْقُطُ من على راحلتهِ ولا يقولُ لأحد: ناولني السَّوط، بل ينزلُ ويأخذُ السَّوط.

والإنسانُ الذي أكرمه الله بالغنى والتَّعفُّفِ لا يعرفُ قدرَ السؤالِ إلا إذا ذُلَّ أمام المخلوق، كيف تَمُدُّ يدَكَ إلى مخلوقٍ وتقولُ له أعْطني وأنت مثله؟ «**وإذا سألْتَ فاسْأل الله، وإذَا اسْتَعنْتَ فاستَعِنْ بالله**».

أما الخامس، قوله: «الصِّلة».

والصِّلةُ أن تَصلَ ما أمرَ الله به أن يُوصلَ من الأقاربِ الأدْنَىٰ فالأدنَىٰ، وأعْلاَهم الوالدان، فإنَّ صلةَ الوالدين بِرٌّ وصِلة. والأقاربُ لهم من الصِّلةِ بقدْرِ ما لهم من القرب، فأخُوكَ أوكدُ صلةً من عمِّك، وعَمُّكَ أشدُّ صِلَةً من عَمِّ أبيك، وعلى هذا فَقِس الأدنى فالأدنى.

والصِّلةُ جاءتْ في الكتاب والسُّنة غيرَ مُقَيَّدة، وكُلُّ ما جاءَ في الكتابِ والسُّنةِ غيرُ مقيَّد فإنه يحملُ على العُرْف، فما جرى العرفُ على أنَّه صلةٌ فهو صلة، وهذا يختلف باختلاف الأشخاصِ والأحوالِ والأزمانِ والأماكن. مثلاً إذا كان قريبكَ مُسْتَغنيًا عنك وصَحِيح البدن وتسمع عنه أنَّه لا يحتاج إلى شيء، فهذا صلته لو تحدَّدتْ بشهرٍ أو شهرٍ ونصفٍ وما أشبهَ ذلك فإنَّ هذه صلةٌ بعرفنا، وذلك لأن الناس ـ والحمدُ لله ـ قد استغنىٰ بعضهم عن بعض، وكلُّ واحدٍ منهم لا يجدُ على الآخر، لكنْ لو كان هذا

الرَّجلُ قريبًا جدًّا كالأب، والأمّ، والأخ، والعمّ؛ فإنه يحتاجُ إلى صِلَةٍ أكثر، وكذلك لو كان فقيرًا فإنه يحتاجُ إلى صِلةٍ أكثر، وكذلك لو مرضَ فإنَّه يحتاجُ إلى صلةٍ أكثر. وهكذا.

المُهِمّ أن الصَّلة لمّا جاءتْ في القرآن غير مُقَيَّدةٍ فإنَّه يُتَّبَعُ في ذلك العُرف، ويختلفُ هذا باختلافِ الأمورِ التي ذكرنا: القرب، وحال الشخص، والزمان، والمكان، وما جرتِ العادةُ بأنه صِلَةٌ فهو صلة؛ وما جرتِ العادةُ بأنه قطيعةٌ فهو قطيعة.

وقد وردتِ النُّصوصُ الكثيرةُ في فضلِ صِلَةِ الرَّحمِ والتحذيرِ من قطيعتها.

* * *

٥٧ ـ عن أبي ثابت، وقيل: أبي سعيد، وقيل: أبي الوليد سهلِ بن حُنَيْف، وهو بدريٌّ، رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ سَأَلَ الله تعالى الشَّهادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ الله مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وإنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِه»[(١)] [رواه مسلم].

الشرح

هذا الحديثُ ذكره المؤلفُ ـ رحمه الله ـ في بابِ الصدق، والشاهدُ منه قوله: «مَنْ سَأَلَ الله تعالى الشهادةَ بصِدْقٍ». والشهادةُ مرتبةٌ عاليةٌ بعد الصدِّيقيَّة، كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى، رقم(١٩٠٩).

أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]، وهي أنواع كثيرة:

منها: الشهادةُ بأحكامِ الله عزَّ وجلَّ على عبادِ الله، وهذه شهادةُ العلماءِ التي قال الله فيها: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨].

وقد ذهبَ كثيرٌ من العلماء في تفسير قوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ إلى أنهم العلماء ولا شكَّ أنَّ العلماءَ شُهَداء، فيشهدون بأن الله تعالى أرْسَلَ رسوله محمدًا ﷺ بالهُدَى ودينِ الحقّ، ويَشْهَدُون على الأمَّةِ بأنَّها بلغت شريعةَ الله، ويشهدون في أحكامِ الله: هذا حلالٌ، وهذا حَرَام، وهذا واجب، وهذا مستحبّ، وهذا مكروه. ولا يعرفُ هذا إلاَّ أهْلُ العلم؛ لذلك كانوا شهداء.

ومن الشهداء أيضًا: من يُصَابُ بالطَّعن والبَطن والحَرق والغرق: المطعونُ والمبطونُ والحريقُ والغريقُ وما أشبههم.

ومن الشهداء: الذين قُتلوا في سبيل الله.

ومن الشُّهداء: الذين يُقْتلون دون أمْوالهم ودون أنفسهم، كما قال النَّبيُّ - عليه الصلاة والسلام - حينما سأله رجل وقال: «أرَأيْتَ يا رسولَ الله إن جاءني رجلٌ يَطْلبُ مَالي - أي عنوة - قال: «لا تعْطِه مالَكَ، قال: أرأيْتَ إن قاتلني؟ قال قاتِله، قال أرأيت إن قَتَلْتُه؟ قال: هو في النَّار - لأنَّه معتدٍ ظالم - قال: أرأيتَ إنْ قتلني؟ قال: فَأنْتَ شَهِيدٌ قال: أرأيتَ إن قتلتُهُ؟

قال: هو في النار»[١].

وقال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «مَنْ قُتِلَ دُوْنَ دمهَ فهو شهيدٌ، ومن قُتِلَ دون أهلهِ فهو شهيدٌ، ومنْ قُتِلَ دون مَالِهِ فهو شَهِيْد»[٢].

ومن الشُّهداء أيضًا: من قُتِلَ ظُلْمًا، كأنْ يعتديَ عليه إنسانٌ فيقتله غِيْلة ـ ظلمًا ـ فهذا أيضًا شهيد.

ولكنَّ أعلى الشُّهداءِ هم الذين يُقتلون في سبيلِ الله؛ كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١]، هؤلاء الشهداءُ في الآية هم: الذين قاتلوا لتكونَ كلمةُ الله هي العُلْيا، فما قاتلوا لحظوظِ أنفسهم، وما قَاتَلُوا لأموالهم، وإنما قاتلُوا لتكونَ كلمةُ الله هي العُلْيَا، كما قال ذلك النبيُّ ـ عليه الصَّلاة والسلام ـ حين سُئلَ عن الرَّجل يُقاتلُ شَجَاعةً ويُقاتِلُ حَمِيَّة ويُقاتلُ لِيُرى مكانهُ، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ قال: «مَنْ قَاتَلَ لِتكُوْنَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيا فَهُو في سَبِيْلِ الله»[٣].

هذا الميزانُ ميزانٌ عَدْل، لا يخيسُ ميزانٌ وَضَعه النبيُّ ﷺ يَزِنُ الإنسانُ بهِ عمله.

---

(١) تقدم تخريجه ص (٦٧).
(٢) تقدم تخريجه ص (٧٠).
(٣) تقدم تخريجه ص (٣٤).

فمن قاتلَ لهذه الكلمةِ فهو في سبيل الله، إن قُتلتَ فأنتَ شهيد، وإن غَنمت فأنت سَعيد، كما قال الله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ إمّا الشَّهادةُ وإمّا الظَّفرُ والنَّصر. ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢]، أي: إمّا أن الله يعذبكم، ويقينا شرَّكم، كما فعلَ الله تعالى بالأحزابِ الذين تجمَّعُوا على المدينةِ يُريدون قتالَ الرَّسول عليه الصلاةُ والسلام، فأرسلَ الله عليهم ريحًا وجنودًا وألقى في قلوبهم الرُّعب، ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ كما حَصَل في بدر، فإنَّ الله عذَّب المشركينَ بأيدي الرَّسولِ ﷺ وأصحابه، هذا الذي يقاتلُ لتكونَ كلمةُ الله هي العليا هو الشهيد.

فإذا سأل الإنسانُ ربَّه وقال: اللَّهمَّ إنِّي أسألُك الشَّهادة في سَبِيلك - ولا تكونُ الشهادةُ إلا بالقتال؛ لتكون كلمةُ الله هي العليا - فإنَّ الله تعالى إذَا عَلِمَ منه صِدْقَ القَولِ والنِّيَّةِ أنزله مَنَازلَ الشُّهداء، وإن ماتَ على فِرَاشِه.

بقيَ علينا الذي يُقاتلُ دفاعًا عن بلده: هل هو في سبيلِ الله أو لا؟

نقول: إن كنتَ تُقاتلُ عن بلدِكَ لأنها بلدٌ إسْلاميٌّ فتريدُ أن تَحْميها من أجل أنَّها بَلَدٌ إسلاميٌّ فهذا في سبيل الله، لأنَّك قاتلت لتكونَ كلمةُ الله هي العُليا.

إما إذا قاتلتَ من أجلِ أنَّها وَطَن فقط فهذا لَيْس في سبيل الله؛ لأنَّ الميزانَ الذي وَضَعَهُ النبيُّ - عليه الصَّلاةُ والسَّلام - لا ينْطَبِق عليه من قاتلَ لتكونَ كلمةُ الله هي العُليَا فهو في سبيلِ الله، وما سوى ذلك فليس في سبيل الله، ولهذا يجبُ أن نصحِّحَ للإنسان نيَّته في القتالِ للدفاع عن بلده، بأن

ينوي بذلك بأن يقاتلَ عن هذا البلد لأنه بلدٌ إسلاميٌّ فيريدُ أن يحفظَ الإسلامَ الذي فيه، وبهذا يكونُ إذا قُتِلَ شهيدًا له أجرُ الشهداء، وإذا غنمَ صارَ سعيدًا وربحِ، إما ربحَ الدنيا وإمَّا ربحَ الآخرة، وقد تقدَّم الكلامُ على هذه المسألة. والله الموفِّق.

* * *

٥٨ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «غَزَا نَبِيٌّ مَنَ الأنْبِيَاءِ ـ صَلواتُ الله وسلامُهُ عَلَيْهم ـ فَقالَ لقَوْمِهِ: لا يَتْبَعَنِّي رجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرأةٍ وهُوَ يُريدُ أنْ يَبْنِيَ بِهَا ولَمَّا يَبْن بِهَا، وَلاَ أحَدٌ بَنَىٰ بُيُوتًا لَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، ولاَ أحدٌ اشْترى غنمًا أو خَلِفاتٍ وهو يَنْتَظِرُ أوْلادَهَا. فَغزَا، فَدَنَا مِنَ القَرْيَةِ صَلاَةَ العَصْرِ أوْ قَرِيبًا مِنْ ذٰلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْس: إنَّكِ مَأمُورَةٌ وأنَا مأمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلينَا، فَحُبِسَتْ حَتَّى فتَحَ الله عَلَيْهِ، فَجَمَعَ الغَنَائِم، فَجَاءتْ ـ يعْني النَّار ـ لتاكُلَهَا فَلَمْ تَطْعَمْهَا، فقَالَ: إنَّ فِيكُمْ غُلُولاً، فَلْيُبَايعْني من كلِّ قَبيلةٍ رَجُلٌ، فلَزِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بيَدِهِ، فقَال: فيكُم الغُلُول، فَلْيُبَايِعْني قَبيلَتُك، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ أوْ ثَلاثةٍ بيدِه، فقَالَ: فيكُم الغُلُولُ. فَجَاؤُوا بِرَأسٍ مِثْلِ رأسِ بَقَرَةٍ مِنَ الذَّهبِ، فَوَضَعَهَا فَجَاءَتِ النَّارُ فاكَلَتْهَا، فلَم تَحِلَّ الغَنَائِمُ لأحَدٍ قَبْلَنَا، ثُمَّ أحَلَّ الله لَنَا الغَنَائِمَ لَمَّا رأىٰ ضَعْفَنَا وعَجْزَنَا فَاحَلَّها لَنَا»[1] [متفق عليه].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فرض الخمس، باب قول النبي ﷺ: **أحلت لكم الغنائم»** رقم(٣١٢٤)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تحليل الغنائم لهذه الأمة خاصة، رقم(١٧٤٧).

«الخَلِفَاتُ» بفتحِ الخاءِ المعجمةِ وكسرِ اللام: جَمْعُ خَلِفَةٍ، وهِيَ النَّاقَةُ الحامِلُ.

الشرح

هذا الحديثُ الذي نقله المؤلفُ فيه آياتٌ عظيمة، فإن النبيَّ ﷺ حدَّث عن نبيٍّ من الأنبياءِ - عليهم الصلاة والسَّلام - أنَّه غَزَا قَوْمًا أُمِرَ بجهادهم، لكنه - عليه الصلاة السَّلام - مَنَعَ كلَّ إنسانٍ عَقَد على امرأةٍ ولم يدخلْ بها، وكلَّ إنسانٍ بنىٰ بَيتًا ولم يرفعْ سقفه، وكلَّ إنسانٍ اشترى غنمًا أو خَلِفاتٍ وهو ينتظرُ أولادها. وذلك لأنَّ هؤلاء يكونونَ مشغولينَ بما أهمَّهم، فالرجلُ المتزوِّجُ مشغولٌ بزوجتهِ التي لم يدخلْ بها، فهو في شوقٍ إليها، وكذلك الرجلُ الذي رفعَ بيتًا ولم يرفعْ سقفه، هو أيضًا مشتغلٌ بهذا البيتِ الذي يريدُ أن يسكنه هو وأهله، وكذلك صاحبُ الخَلِفات والغنمِ مشغولٌ بها ينتظرُ أولادها.

والجهادُ ينبغي أن يكونَ الإنسان فيه متفرِّغًا، ليس له هَمٌّ إلا الجهاد، ولهذا قال الله سبحانه: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾ [الشرح: ٧]، أي: إذا فرغتَ من شُؤون الدُّنيا بحيث لا تنشغلُ بها فانصبْ للعبادة.

وقال النبيُّ عليه الصلاةُ والسلام: **«لا صلاةَ بحضرةِ الطعام، ولا هو يدافعهُ الأخبثان»**[1].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام...، رقم(٥٦٠).

فدلَّ على أنه يَنْبغي للإنسان إذا أرادَ طاعةً أن يُفرِّغ قلبَهُ وبَدَنَهُ لها، حتَّى يأتيَها وهو مُشتاقٌ إليها، وحتَّى يُؤدِّيَها على مهلٍ وطُمأنينةٍ وانشراحِ صَدْر.

ثم إنَّه غَزَا، فنزلَ بالقومِ بعد صلاةِ العصر، وقد أقبلَ الليلُ، وخافَ إن أظلمَ اللَّيل أن لا يكون هناك انتصار، فجعلَ يخاطب الشَّمس يقول: أنتِ مأمُورةٌ وأنا مأمُور. لكنَّ أمرَ الشمسِ أمرٌ كَوْنيٌّ وأمّا أمْره فأمرٌ شَرْعي.

فهو مأمورٌ بالجهادِ والشَّمسُ مأمورةٌ أن تسيرَ حيث أمرها الله عزَّ وجلَّ، قال الله: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨]، منذ خلقها الله عزَّ وجلَّ وهي سائرةٌ حيث أُمِرَت لا تتقدَّمُ ولا تتأخّر. ولا تنزلُ ولا ترتفع.

قال: «اللهم فاحْبِسْهَا عَنَّا» فحبسَ الله الشَّمسَ ولم تَغِبْ في وقتها، حتى غزا هذا النبيُّ وغَنِمَ غَنَائم كثيرة، ولما غَنِمَ الغَنَائمَ وكانت الغنائمُ في الأُممِ السَّابقةِ لا تَحِلُّ للغُزاة، بل حِلُّ الغنائمِ من خصائصِ هذه الأمَّةِ ولله الحمد، أما الأممُ السَّابقةُ فكانوا يجمعونَ الغنائمَ فتنزلُ عليها نَارٌ من السَّماءِ فتُحرقها، فجُمعتِ الغنائمُ فلم تَنْزلِ النَّارُ ولم تأكلها، فقال هذا النبيُّ: فيكم الغُلول.

ثم أمرَ من كلِّ قبيلةٍ أن يتقدَّمَ واحدٌ يبايعهُ على أنَّه لا غُلول، فلمّا بايعوه على أنه لا غُلولَ لزقتْ يدُ أحدٍ منهم بيدِ النبيِّ عليه الصلاةُ والسلام، فلمّا لزقتْ قال: فيكم الغُلول ـ أي: القبيلة هذه ـ ثم أمرَ بأن يبايعه كلُّ واحدٍ على حِدةٍ من هذه القبيلة، فلزقتْ يدُ رجلينِ أو ثلاثةٍ منهم، فقال:

فيكم الغُلول. فجاؤوا به. والغلولُ هو السَّرقةُ من الغنيمة، بأن تُخفيَ شيئًا منها، فإذا هم قد أخفَوْا مثلَ رَأسِ الثَّورِ من الذَّهب، فلمّا جيءَ به ووُضِعَ مع الغنائمِ أكلتْها النَّار - سبحان الله - وهذه من آياتِ الله عزَّ وجلَّ.

ففي هذا الحديثِ دليلٌ على فوائدَ عديدة:

منها: أن الجهادَ مشروعٌ في الأممِ السَّابقةِ كما هو مشروعٌ في هذه الأُمَّة، وقد دلَّ على هذا كتابُ الله في قوله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وكذلك قصَّةُ طالوتَ وجالوتَ وداودَ - عليه الصلاة والسَّلام - في سُورةِ البقرة، الآيات: ٢٤٦ - ٢٥٢.

وفيها أيضًا من الفوائد: دليلٌ على عَظمةِ الله عزَّ وجلَّ، وأنَّه هو مُدَبِّرُ الكونِ، وأنه - سبحانه وتعالى - يُجري الأُمورَ على غيرِ طَبَائِعها، إمَّا لتأييدِ الرَّسولِ، وإمَّا لدفع شَرٍّ عنه، وإمَّا لمصلحةٍ في الإسلام.

المُهِمُّ أن آياتِ الأنبياءِ فيها تأييدٌ لَهُم بأيِّ وجهٍ كانت. وذلك لأن الشمسَ حَسَبَ طبيعتها التي خلقها الله عليها تجري دائمًا ولا تقفُ ولا تتقدَّمُ ولا تتأخَّرُ إلا بأمْرِ الله، لكنَّ الله هنا أمرها أن تنحبسَ، فطالَ وقتُ ما بين صلاةِ العصرِ إلى الغروب، حتى فتحَ الله على يد النبيِّ ﷺ.

وفي هذا رَدٌّ على أهلِ الطَّبيعةِ الذين يَقُولون إن الأفلاكَ لا تتغيرُ؟! سبحان الله من الذي خلقَ الأفلاك؟ الله عزَّ وجلّ، فالذي خلقها قادرٌ على تغييرها، ولكنْ هم يرونَ أن هذه الأفلاكَ تجري بِحَسَب الطبيعةِ ولا أحدَ يتصرَّفُ فيها والعياذُ بالله؛ لأنهم يُنكرون الخالق.

وقد دلَّتِ الأدِلَّة من الكتابِ والسُّنةِ على أن الأفلاكَ تتغيَّرُ بأمرِ الله؛ فهذا النبيُّ دعا الله ووقفتِ الشَّمس، ومحمَّدٌ رسولُ الله ﷺ طلبَ منه المشركون أن يُرِيَهم آيةً تدلُّ على صِدْقهِ فأشارَ ﷺ إلى القمر فانشَقَّ شِقَّتين وهُم يُشاهدون، شقَّةٌ على الصفا وشقَّةٌ على المروة.

وفي هذا يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ [القمر: ١، ٢].

قالوا: هذا محمَّدٌ سَحَرنا والقمرُ لم يَنْشقّ، بل محمَّدٌ سَحَرنا، أفسَدَ نظرنا وعُيوننا؛ لأن الكافرَ ـ والعياذُ بالله ـ الذي حقَّتْ عليه كلمةُ الله لا يؤمن، كما قال الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. نسأل الله لنا ولكم العافية، وأن يهديَ قلوبنا.

القلوبُ بين أصبعينِ من أصابع الرحمنِ يُقَلِّبها كيف يشاء، ويصرفها كيف يشاء. فالذي حقَّتْ عليه كلمةُ العذابِ لا يؤمنُ أبدًا ولو جئْتَهُ بكلِّ آية، ولهذا طلبوا من الرسولِ ﷺ آية، وأراهم هذه الآية العجيبةَ، التي لا يقدرُ أحدٌ عليها، وقالوا: ﴿سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ [القمر: ٢، ٣].

وفي هذا الحديث من الفوائد: بيانُ نعمةِ الله على هذه الأمَّة، حيث أحلَّ لها المغانم التي تغنَمها من الكفّار ـ وكانت حَرامًا على من سَبقنا ـ لأنَّ هذه الغنائمَ فيها خيرٌ كثيرٌ على الأمَّةِ الإسلاميَّةِ، تُساعدها على الجهادِ وتُعينها عليه.

فهم يغْنمون من الكفّار أموالاً يقاتلونهم بها مرَّة أخرى، وهذا من فضل الله، كما قال النبيَّ ﷺ: **«أُعْطِيتُ خَمْسًا لم يُعطَهُنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي. . . وذكر منها: وأحِلَّت لي الغنائم ولم تَحِلَّ لأحدٍ قبلي»**(١).

وفي الحديث أيضًا من آياتِ الله أن الذين غلُّوا لَزِقتْ أيديهم بأيدي النَّبي، وهذا خلافُ العادة، ولكنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير؛ لأنَّ العَادةَ إذا صافحتِ اليدُ يدًا أخرى أنها تنطلق، ولكنَّ الذين غلُّوا لم تنطلقْ أيديهم، أمسكوا بيد النبيّ، فهذه علامة، فالنبيُّ لا يعلمُ الغيب.

ومن فوائدِ الحديث: أن الأنبياءَ لا يعلمون الغَيب ـ وهو واضح ـ إلا ما أطْلَعَهُم الله عليه، أما هم فلا يعلمون الغيب.

وشواهد هذا كثيرةٌ فيما جَرى لنبيِّنا محمَّدٍ عليه الصلاةُ والسلام، حيث يَخْفَىٰ عليه أشياءُ كثيرة، كما قال الله: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]، أمَّا هو فلا يعلمُ الغيب.

وأصحابهُ ـ رضي الله عنهم ـ يكونون معه يخفون عليه، فكان معه ذاتَ يومٍ أبوهريرة ـ رضي الله عنه ـ وكان عليه جنابة، فانخنسَ ليغتسل، فقال له عندما رَجَع من غُسْل الجنابة: **«أين كُنْت يا أباهريرة؟»**(٢)، إذًا فالرسولُ ـ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا» رقم(٤٣٨)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم(٥٢١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الغسل، باب الجنب يخرج ويمشي في السوق وغيره، رقم(٢٨٥)، ومسلم، كتاب الحيض، باب الدليل على أن المسلم لا ينجس، =

عليه الصلاة والسلام ـ لا يعلمُ الغيب، ولا أحدٌ من الخلقِ يعلمُ الغيب، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

وفي هذا الحديث أيضًا دليلٌ على قدرة الله من جهةِ أن هذه النارَ لا يُدرىٰ من أين جَاءَت، بل تنزلُ من السَّماء، لا هي من أشجارِ الأرضِ، ولا من حَطَبِ الأرض، بل من السماء، يأمرها الله فَتَنْزِلُ فتأكلُ هذه الغنيمة التي جُمعت. والله الموفِّق.

* * *

٥٩ ـ عن أبي خالدٍ حكيم بن حِزام، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ ما لم يَتَفَرَّقا، فإن صَدَقا وبيَّنا بُورِك لَهُما في بَيْعِهِمَا، وإن كَذَبا وكَتَما مُحِقَتْ بركَةُ بَيْعِهِما»[1] [متفق عليه].

الشرح

«البيِّعان» أي: البائعُ والمشتري، وأُطلق عليهما اسمُ البَيع من باب التَّغليب، كما يقال: القمران: للشمس والقمر، والعُمَران: لأبي بكر وعمر، فالبيِّعان يعني: البائعَ والمشتري.

وقوله: «بالخيار» أي: كلٌّ منهما يختارُ ما يريدُ ما لم يتفرّقا، أي:

= رقم(٣٧١).

(١) أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب ما يمحق الكذب والكتمان في البيع، رقم(٢٠٨٢)، ومسلم، كتاب البيوع، باب الصدق في البيع والبيان، رقم(١٥٣٢).

ماداما في مكانِ العقد لم يتفرَّقا فإنهما بالخيار.

ومثاله: رجلٌ باع على آخر سيارة بعشرة آلاف، فما داما في مكانِ العقد ولم يتفرَّقا فهما بالخيار، إن شاءَ البائعُ فَسَخَ البيع، وإن شاءَ المشتري فسخَ البيع، وذلك من نعمة الله - سبحانه وتعالى - وتوسيعه على العباد، لأن الإنسان إذا كانت السِّلعةُ عند غيره صارتْ غاليةً في نفسه يحبُّ أن يَحْصُل عليها بكلِّ وسيلة، فإذا حَصُلتْ له فربما تَزُول رغبتهُ عنها لأنه أدركها، فجعلَ الشارعُ له الخيارَ لأجلِ أن يَتَرَوَّى ويتزوَّدَ بالتأنِّي والنَّظر.

فما دام الرَّجلان - البائعُ والمشتري - لم يتفرّقا فهما بالخيار وإنْ طالَ الوقت، حتى لو بقيا عشرَ ساعات، فلو باعَ عليه السلعةَ في أوَّلِ النهارِ وبقيا مصطحبين إلى الظهرِ فهما بالخيار؛ لعمومِ قوله ﷺ: «**مَا لَم يَتَفَرّقا**» وفي حديثِ ابن عمر: «**أو يُخَيِّر أحَدُهُما الآخَرَ**»[(١)] أي: أو يقولُ أحدُهما للآخر: الخيارُ لك وحدك، فحينئذٍ يكونُ الخيارُ له وحده، والثَّاني لا خيارَ له. أو يقولا جميعًا: لا خيار بيننا.

فالصُّور أربع:

١ - إمَّا أن يثبتَ الخيارُ لهما، وذلك عند البيع المُطلق الذي ليس فيه شرط، يكون الخيارُ لهما - للبائع والمشتري - وكلٌّ منهما له الحقُّ أن

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب إذا خير أحدهما صاحبه بعد البيع فقد وجب البيع، رقم(٢١١٢)، ومسلم، كتاب البيوع، باب ثبوت خيار المجلس للمتبايعين، رقم(١٥٣١).

يفسخَ العقد.

٢ ـ وإمَّا أن يتبايعا على أن لا يكونَ الخيارُ لواحدٍ منهما، وحينئذٍ يلزمُ البيعُ لمجرَّدِ العقدِ ولا خيارَ لأحد.

٣ ـ وإما أن يتبايعا أن الخيارَ للبائعِ وحْدَهُ دون المشتري، وهنا يكونُ الخيارُ للبائع، والمشتري لا خيارَ له.

٤ ـ وإمَّا أن يَتَبَايعا على أن الخيار للمشتري والبائعُ لا خِيارَ له، وحينئذٍ يكونُ الخيار للمُشْتَري، وليس للبائع خيار. وذلك لأنَّ الخيارَ حقٌّ للبائع والمُشْتَري فإذا رَضِينا بإسقاطه أو رَضِيَ أحدهما دون الآخر، فالحقُّ لهما لا يعْدُوهما، وقد قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «**المسلمون على شروطِهم إلاَّ شَرْطًا حرَّم حَلالاً أو أحلَّ حرامًا**»[١].

وقولُ النبيِّ عليه الصلاةُ والسلام: «**مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا**» لم يبيِّن التَّفرق، ولكنَّ المرادَ التَّفرقُ بالبدن، يعني ما لم يتفرَّقْ أحدهما عن الآخر، فإنْ تفرَّقا بَطُلَ الخيارُ ولَزِمَ البيع.

قال النبيُّ ﷺ: «**فَإِنْ صَدَقَا وبيَّنَا بُورِكَ لَهُما في بيْعِهما**» وهذا هو الشاهدُ من الحديثِ في الباب؛ لأن البابَ بابُ الصدق.

قوله: «**فَإِنْ صَدَقَا وَبيَّنَا بُورِكَ في بيعهما**». «**إن صدقا**» فيما يَصِفانِ السِّلعةَ به من الصِّفات المرغوبة، «**وبيَّنَا**» فيما يَصِفانِ به السلعةَ من

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الأحكام، باب ما ذكر عند رسول الله ﷺ في الصلح بين الناس، رقم(١٣٥٢)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

الصفاتِ المكروهة. فمثلاً لو باعَ عليه هذه السيَّارةَ وقال: هذه السيَّارةُ جديدةٌ صُنعُ عامِ كذا، ونظيفة وفيها كذا وكذا، ويمْدحُها بما ليس فيها، نقول: هذا كذبٌ فيما قال. وإذا باعَهُ السيَّارةَ وفيها عَيْبٌ ولم يخبرْهُ بالعيبِ نقول: هذا كتمَ ولم يبيِّن. والبركةُ في الصدِّقِ والبيان. فالفرقُ بين الصدقِ والبيانِ أن الصدقَ فيما يكونُ مرغوبًا من الصِّفات، والبيانُ فيما يكونُ مَكْروهًا من الصِّفات، فكتمانُ العيبِ هذا ضدُّ البيان، ووصفُ السِّلعةِ بما ليس فيها هذا ضدُّ الصِّدق.

ومثالٌ آخر: باعَ عليه شاةً ويقول: هذه الشاةُ لبنها كثير، وفيها كذا وكذا في اللبنِ وهو يكذب، فهذا ضِدُّ الصدق؛ لأنه وصفَ السلعةَ بصفاتٍ مطلوبةٍ مرغوبة، أما لو باعَ عليه الشاةَ وفيها مرضٌ غيرُ بيِّنٍ لكنَّهُ كَتَمه، نقول: هذا لم يبيِّن. وإذا وصفها بما ليس فيها من الصِّفاتِ المطلوبةِ فهذا قد كذب ولم يَصْدُق، فالبيانُ إذًا للصفاتِ المكروهة، والصدقُ للصفاتِ المطلوبة، إذا وصفها بما ليس فيها من الصفاتِ المطلوبةِ فهذا قد كذبَ ولم يَصْدق، وإذا كتمَ ما فيها من الصفاتِ المكروهةِ فهذا كتم ولم يبيِّن.

ومن هذا ما يفعلهُ بعضُ النَّاس الآن ـ نسألُ الله العافية ـ يجعلُ الطَّيِّبَ من المالِ فوق والرَّديءَ أسْفل، فهذا لم يُبيِّنْ ولم يَصْدُقْ أيضًا، لم يُبيِّنْ لأنه ما بَيَّن التَّمرَ المعيبَ، ولم يصدقْ لأنه أظهرَ التمرَ بمظهرٍ طيِّبٍ وليس كذلك.

ومن هذا ما يفعلهُ بعضُ الذين يبيعونَ السيارات، يبيعونها في المعارض، والبائع يعلم علم اليقين أن فيها عيبًا، لكن يكتمهُ ويقول

للمشتري: أبصرْ بكل عيبٍ فيها، فيبصرُ المشتري. لكن لو عيَّنَ له العيبَ وحدَّدهُ له ما اشتراها، وإنَّما يلبِّسونَ على الناس ويقولون لهم: فيها كلُّ عيبٍ ولم أبعْ إليكَ إلا الإطاراتِ أو مصابيحَ الإنارة، وهو يكذب ويدري أن فيها عيبًا لكن لا يخبر المشتري، وهذا حرامٌ على الدلاّل (صاحبِ المعرض) وصاحبِ السيارة، فعليهما أن يبيِّنا للمشتري ويقولا له: فيها العيب كذا وكذا ويخبرانهِ في الشراء.

أما إذا كان لا يعلم العيب فلا بأس أن يبيعها، ويشترطُ أنه بريءٌ من كلِّ عيب.

* * *

٥- بَابُ المُراقَبة

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩]، وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، والآيات في البَاب كثيرةٌ مَعْلُومَةٌ.

الشرح

لمَّا ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ باب الصِّدق، وذَكَرَ الآيات والأحاديث الوَارِدة في ذلك أعْقَبَ هذا بباب المُرَاقبة. المراقبة لها وجهان:

الوجه الأوَّل: أن تُراقب الله عزَّ وجلَّ.

والوجه الثاني: أنَّ الله تعالى رَقِيبٌ عليك كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢].

أمَّا مُرَاقبتك لله فأنْ تعلمَ أنَّ الله ـ تعالى ـ يعلمُ كُلَّ ما تقومُ به من أقوالٍ وأفعال واعتقادات، كما قال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٧ ـ ٢١٩]، يراكَ حينَ تقومُ، أي: في اللَّيل حين يقوم الإنسان في مكان خالٍ لا يطَّلع عليه أحدٌ، فالله سبحانه وتعالى يراهُ. حتى ولو كان في أعظم ظُلمة وأحْلَكِ ظلمة؛ فإن الله تعالى يراه.

وقوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩﴾ أي: وأنت تتقلَّب في الَّذين

يسجدون لله في هذه الساعة، يعني تقلُّبكَ فيهم، أي: معهم، فإنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ يَرَى الإنسان حينَ قيامه وحينَ سجوده.

وَذَكَرَ القيام والسجود؛ لأنَّ القيام في الصَّلاة أشرفُ من السُّجود بذكره، والسُّجود أفضل من القيام بهيئته.

أما كونُ القيام أفضل من السُّجودِ بذِكرِهِ؟ فلأنَّ الذِّكر المَشْرُوع في القيام هو قراءةُ القرآن، والقرآن أفضل الكلام.

أما السُّجودُ فهو أشْرَفُ من القيام بهيئته؛ لأنَّ الإنسان السَّاجدَ أقْرَبُ ما يكونُ من ربِّه عزَّ وجل، كما ثَبتَ ذلك عن النبي ﷺ أنه قال: «**أقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِن رَبِّهِ وَهُو سَاجد**»[1].

ولهذا أُمِرْنَا أن نُكثِر من الدُّعاء في السُّجود، كذلك من مراقبتك لله؛ أن تعلم أنَّ اللهَ يَسْمعك، فأيُّ قولٍ تقولُه؛ فإنَّ الله ـ تعالى ـ يسمعك؛ كما قال الله: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠]، بلى: يعني نسمعُ ذلك.

ومع هذا فإنَّ الذي تتكلَّم به ـ خيرًا كان أم شرًّا، مُعْلنًا أم مُسِرًّا ـ فإنَّه يُكتب لك أو عليك؛ كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨]، فراقب هذا الأمرَ، وإياكَ أنْ تُخرجَ من لسانك قولاً تحاسَب عليه يوم القيامة، اجعل دائمًا لسانك يقول الحقَّ أو يَصْمُتُ؛ كما قال النبي عليه الصَّلاة والسلام: «**مَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ وبِاليومِ الآخر،**

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم(٤٨٢).

فَلْيَقُل خَيْرًا أوْ لِيَصْمُتْ»(١) .

الثالثُ : أن تُراقب اللهَ في سِرِّكَ وفي قلبك ، انظر ماذا في قلبك مِنَ الشِّركِ بالله والرِّياء ، والانحرافات ، والحقد على المؤمنين ، وبغضاءَ ، وكراهيةٍ ، ومحبَّةٍ للكافرين ، وما أشبهَ ذلكَ من الأشْياء التي لا يرضاها الله عزَّ وجلَّ ؟

راقب قلبك ، تَفَقَّدهُ دائمًا ؛ فإنَّ الله يقول : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ [ق : ١٦]، قَبل أن ينطِقَ به .

فراقب الله في هذه المواضع الثَّلاثِة ، في فِعلكَ ، وفي قولك ، وفي سريرتك ، وفي قلبك ، حتى تَتِم لك المُرَاقبة ، ولهذا لمَّا سُئِل النبي ﷺ عن الإحسان قال : «أن تَعْبُدَ اللهَ كأنَّكَ تَرَاهُ فإنْ لَمْ تكُنْ تَرَاهُ فإنَّه يرَاكَ» .

اعبد الله كأنَّك تراهُ ، كأنك تُشَاهِدُه رَأْيَ عَيْن ، فإنْ لَم تكن تراه فانزِل إلى المرتبةِ الثَّانية : «فإنَّه يَراك» .

فالأوَّلُ : عبادةُ رغبةٍ وطمع ؛ أن تعبد الله كأنك تراه ، **والثاني** : عِبادة رَهْبَةٍ وخَوف ، ولهذا قال : «فإنْ لم تكُنْ تَرَاهُ فإنَّه يرَاك» .

فلابُدَّ أن تراقبَ ربَّك ، وأنْ تعلم أنَّ الله رقيب عليك ، أيُّ شيءٍ تقوله ، أو تفعله ، أو تضمِرُه في سرِّكَ فالله تعالى عليم به ، وقد ذكر المؤلِّف ـ رحمه الله ـ من الآيات ما يدُلُّ على هذا ، فبدأ بالآية التي ذكرناها ؛ وهيَ قولُه ـ تعالى ـ لنبيه محمدٍ ﷺ : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ

---

(١) تقدّم تخريجه ص (٢٧٧).

تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠].

الآية الثانية التي ساقها المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب المراقبة: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، الضمير ﴿هُوَ﴾ يعودُ على الله، أي: الله سبحانه مع عبادِهِ أينما كانوا: في برٍّ، أو بحرٍ، أو جوٍّ، أو في ظلمةٍ، أو في ضياء. وفي أيِّ حالٍ هو معكم أينما كنتم. وهذا يدلُّ على كمالِ إحاطتهِ عزَّ وجلَّ بنا علمًا وقُدْرةً وسلطانًا وتدْبيرًا وغيرَ ذلك.

ولا نعني أنَّه سبحانه وتعالى معنا في نفسِ المكانِ الذي نحن فيه؛ لأنَّ الله فوق كل شيء، كما قال الله تعالى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨] وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، إلى غير ذلك من الآياتِ الكثيرةِ الدَّالةِ على أنَّه فوق كل شيء، لكنَّه عزَّ وجلَّ ليس كمثلهِ شيءٌ في جميعِ نُعُوته وصِفاته، هو عليّ في دُنُوِّه، قريبٌ في علوِّه جلَّ وعلا، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ولكن يجبُ أن نعلمَ أنَّه ليس في الأرض، لأننا لو توهمنا هذا، لكان فيه إبطالٌ لعلوِّ الله سبحانه وتعالى. وأيضًا فإنَّ الله سبحانه لا يَسَعَه شيءٌ من مخلوقاته: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الكرسيُّ مُحيطٌ بالسَّماواتِ والأرضِ كلِّها، والكُرسِيُّ هو موضعُ قدمي الرحمٰن عزَّ وجلَّ، والعرشُ أعظمُ وأعْظم، كما جاء في الحديث: «إن السَّمواتِ السَّبعَ والأرضينَ السبعَ بالنِّسبةِ للكرسيِّ كحَلَقَةٍ أُلْقِيَت في

فَلاَةٍ من الأرْض».

حلقةٌ كحلقةِ المِغْفَر صَغِيرةٌ أُلقِيَتْ في فَلاةٍ من الأرض، أي مكان مُتَّسع، نسبةُ هذه الحلقةِ إلى الأرضِ الفلاةِ ليستْ بشيء.

قال: «وإنَّ فَضْلَ العرشِ على الكُرْسيِّ كَفَضْلِ الفَلاَةِ عَلَى هَذِه الحَلَقَة»[1]، فما بالكَ بالخالقِ جلَّ وعلا!، الخالقُ ـ سبحانه وتعالى ـ لا يمكنُ أن يكونَ في الأرض، لأنَّه ـ سبحانه وتعالى ـ أعْظمُ من أن يُحيطَ به شيءٌ من مخلوقاته ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

واعلمْ أنَّ المعيَّةَ التي أضافها الله إلى نفْسِه تنقسمُ بحسب السياقِ والقرائن. فتارةً يكون مُقْتَضَاها الإحاطةَ بالخلق عِلْمًا وقُدرة وسُلطانًا وتدبيرًا وغيرَ ذلك، مثلَ هذه الآية: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، ومثلَ قولِهِ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

وتارةً يكونُ المُرادُ بها التَّهديدَ والإنذار، كما في قولِهِ تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]، فإن هذا تهديدٌ وإنذارٌ لهم أن يُبيِّتُوا ما لا يَرْضَىٰ من القول يكتمونه عن الناس، يَظُنُّون أن الله لا يعلم،

(١) الحديث ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره(١/ ٣٣٢) وعزاه لأبي بكر بن مردويه. وأخرجه أيضًا ابن جرير الطبري في تفسيره (٣/ ١٢)، والحديث صححه الشيخ الألباني لطرقه. انظر السلسلة الصحيحة رقم(١٠٩).

والله ـ سبحانه ـ عليمٌ بكلِّ شيء.

وتارةً يُرَادُ بها النَّصرُ والتَّأييدُ والتَّثبيتُ وما أشْبه ذلك، مثل قولهِ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]، وكما في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ [محمد: ٣٥]، والآياتُ في هذا كثيرة.

وهذا القسمُ الثَّالثُ من أقسام المَعِيَّةِ تارةً يَضافُ إلى المخلوقِ بالوصف، وتارة يُضافُ إلى المخلوقِ بالعين.

فقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]، هذا مُضَافٌ إلى المخلوقِ بالوَصْف، فأيُّ إنسانٍ يكونُ كذلك فالله مَعَه.

وتارةً يكونُ مُضافًا إلى المخلوقِ بعينِ الشَّخص، مثلَ قولهِ تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ﴾ [التوبة: ٤٠]، فهذا مُضافٌ إلى الشخصِ بعينه، وهي للرَّسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وهما في الغَار، لما قال أبوبكر للرَّسول ﷺ: يا رسول الله، لو نظرَ أحدهم إلى قَدَمَيْهِ لأبْصَرنا؛ لأنَّ قريشًا كانت تطلبُ الرسول ﷺ وأبا بكر ـ رضي الله عنه ـ بكل جدّ! ما من جَبل إلاَّ صَعِدَتْ عليه، وما من وادٍ إلاَّ هَبَطَتْ فيه، وما من فلاةٍ إلاَّ بحثت، وجعلتْ لمن يأتي بالرَّسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأبي بكر مائتي بعير، مائةً للرسول، ومائةً لأبي بكر. وتعبَ الناس وهم يطلبونهما، ولكنَّ الله معهما. حتى وقفوا على الغار، يقول أبوبكر: لو نَظَرَ أحَدُهم إلى قَدَميه لأبْصَرنا، فيقول له الرسول عليه

الصلاة والسلام: «**لا تحزنْ إنَّ الله مَعَنا، فما ظنُّكَ باثنين الله ثالثهما؟**»

والله ظنُّنا أن لا يغلبهما أحدٌ، ولا يقدر عليهما أحدٌ. وفعلاً هذا الذي حَصَلَ؛ ما رأوهما مع عدمِ المانع، فلم يكنْ هناك عشٌّ كما يقولون ولا حمامةٌ وقعتْ على الغار، ولا شجرةٌ نبَتَتْ على فمِ الغار، ما كان إلا عناية الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الله معهما.

وكما في قوله ـ سبحانه ـ لموسى وهارون، لمّا أمر الله موسى وأرسله إلى فرعون هو وهارون: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٥، ٤٦].

الله أكبر: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ إذا كان الله مَعَهُمَا هَل يُمْكن أن يضرَّهما فرعونُ وجنوده؟ لا يمكن، فهذه معيَّةٌ خاصَّةٌ مقيَّدةٌ بالعين: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

المهمُّ أنه يجب علينا أن نُؤمِن بأنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ مع الخلق، لكنه فوق عرشه ولا يُسَامِيه أحَدٌ في صفاته، ولا يدانيه أحد في صفاته، ولا يمكن أن تُوردَ على ذهنكَ أو على غيركَ كيف يكون الله معنا وهو في السَّماء؟

نقول: الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يُقَاسُ بخلقه، مع أنَّ العلوَّ والمعيَّة لا منافاةَ بينهما حتى في المخلوق. فلو سألنا سائلٌ: أين مَوْضعُ القمر؟ لقلنا: في السماء، كما قال الله: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦]، وإذا قال: أين مَوْضع النَّجم؟ قُلْنا في السماء، واللغة العربية يقول المتكلِّمُون فيها: ما زلنا نسيرُ والقمرُ معنا، وما زلنا نسيرُ والنَّجمُ معنا! مع أن القمرَ في السَّماء

والنَّجمَ في السَّماء، لكن هو معنا؛ لأنَّه ما غَاب عنا. فالله ـ تعالى ـ وهو على عَرْشِهِ ـ سبحانه ـ فَوق جميعِ الخلق.

وتقتضي هذه الآية بالنِّسبةِ للأمر المَسْلَكي المنهجي بأنك إذا آمَنْتَ بأنَّ الله معك، فإنك تتَّقيه وتُرَاقِبُه؛ لأنَّه لا يخفى عليه ـ عزَّ وجلَّ ـ حالك مَهْما كنت، لو كنت في بيتٍ مُظْلم ليس فيه أحد ولا حَوْلَك أحدٌ فإن الله تعالى معك، لكن ليس في نفس المكان، وإنما محيطٌ بك ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يخفى عليه شيءٌ من أمرك. فتراقبُ الله، وتخافُ الله، وتقومُ بِطَاعَتِه، وتترك مَنَاهِيه. والله الموفق. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ . . . ﴾

الآية الثالثة التي ساقها المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب المراقبة قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: ٥]، ﴿ شَىْءٌ ﴾ نكرة في سياق النَّفي في قوله: ﴿ لَا يَخْفَىٰ ﴾ فتعمُّ كُلَّ شَيءٍ، فكلُّ شيءٍ لا يخفى على الله في الأرض ولا في السَّماء، وقد فصَّل الله هذا في قوله تبارك وتعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

قالَ العلماءُ: إذا كانت الأوْراقُ السَّاقطةُ يعلمُها؛ فكَيفَ بالأوْراق النَّاميةِ التي يُنْبتُها ويَخْلُقُها؛ فهوَ بها أعْلمُ عزَّ وجلَّ.

أما قولُهُ: ﴿ وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ ﴾. ﴿ حَبَّةٍ ﴾: نكرة في سياق النفي المؤكَّد بِمنْ. إذًا يشمَلُ كُلَّ ورقة صغيرة كانت أو كبيرة.

ولْنفرِضْ أنَّ حبَّةً صغيرةً مُنْغَمِسَةً في طين البحر، فَهي في خَمْس

ظُلمات:

الظُّلمة الأولى: ظلمةُ الطين المنغمِسَة فيه.

الثانية: ظُلمةُ الماء في البحر.

الثالثة: ظُلمة الليل.

الرابعة: ظُلمة السَّحاب المتراكم.

الخامسة: ظُلمة المطر النَّازِل.

خمسُ ظُلُمات فوق هذه الحبَّة الصغيرة؛ والله عزَّ وجلَّ يعلمها.

وقوله: ﴿ وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾.

مكتوبٌ، مبيَّنٌ، بيِّن، ظاهرٌ، معلُومٌ عِند رب العالمين عزَّ وجلَّ.

إذًا مَنْ كان هذا سعَةُ عِلمه فعلَى المؤمنِ أن يُراقِبَ الله سبحانه وتعالى، وأن يخشاه في السرِّ كما يخشاه في العَلانية، بل الموفَّقُ الذي يَجْعَلُ خَشيةَ الله في السرِّ أعْظَم وأقْوى من خشيته في العلانية؛ لأنَّ خشيةَ الله في السرِّ أقوىٰ في الإخلاص؛ لأنه ليس عندك أحد؛ لأنَّ خشيةَ الله في العَلانية ربَّما يقع في قَلْبِك الرِّياءُ ومُراءَاةُ النَّاس.

فاحرصْ ـ يا أخي المسلم ـ على مُراقبة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأن تقوم بطاعتهِ امتثالاً لأمره واجتنابًا لِنَهيه، ونسألُ الله العونَ على ذلك؛ لأنَّ الله إذا لم يُعِنَّا، فإنَّنا مَخْذُولون؛ كما قال تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥].

فإذا وُفِّق العبدُ للهدايةِ والاستعانةِ في إطارِ الشَّريعةِ فهذا هُو الذي أنعم الله عليه.

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٥، ٦]، لابُدَّ أن تكون العبادةُ في نفسِ هذا الصِّراط المستقيم، وإلا كانت ضَرَرًا على العبد. فهذه ثلاثة أُمور، هي منهج الذين أنعمَ الله عليهم، ولهذا قال ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

الآية الرابعة التي ذكرها المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب المراقبة: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٤]، وهذه الآيةُ ختمَ الله بها ما ذَكره من عُقوبةِ عادٍ ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ٧- ١٤]، فبيَّن ـ عزَّ وجلَّ ـ أنَّه بالمرصادِ لكلِّ طاغية، وأن كلَّ طاغيةٍ فإنَّ الله تعالى يَقْصمُ ظهره ويبيدهُ ولا يبقي له باقية.

فعادٌ إرم ذات العماد، ذات البيوتِ العَظيمةِ المبنيَّةِ على العمد القويَّة، أعْطاهم الله قوَّةً شديدة، فاسْتكْبَروا في الأرض وقالوا: مَنْ أشدُّ مِنَّا قوة؟! فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥]، فبيَّن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنه هو أشدُّ منهم قوَّة، واستدلَّ لذلك بدليلٍ عقلي، وهو أنَّ الله هو الذي خَلَقهم، ولهذا قال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ ﴾ ولم يقل: «أو لم يَرَوا أنَّ الله هو أشدُّ منهم قوة» قال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ ﴾؛ لأنه من المعلوم بالعقل علمًا ضروريًا أن الخالقَ أقوى من المخلوق، فالذي خلقهم هو أشدُّ منهم قوَّة: ﴿ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا

يَجۡحَدُونَ ﴾، [فصلت: ١٥]، فأصابهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالقَحْطِ الشَّديد، وأمْسَكتِ السَّماء ماءها فجعلوا يَسْتَسْقُون، أي: ينتظرون أن الله يُغيثهم، فأرسلَ الله عليهم الرِّيح العَقيم في صباح يومٍ من الأيام، أقبلت ريحٌ عظيمةٌ تحملُ من الرِّمال والأتربة ما صَار كأنه سحابٌ مركوم.

﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، حكمة من الله عزَّ وجلَّ، لم تأتهم الرِّيح هكذا، وإنما جاءتهم وهم يُؤَمِّلون أنَّها غيثٌ ليكونَ وقعها أشدَّ، شيءٌ أقبل فظنوه ريحًا تسقيهم فإذا هو ريحٌ تُدَمِّرهم، فكونُ العذابِ يأتي في حالٍ يَتأَمَّلُ فيها الإنسانُ كَشْفَ الضّرر يكونُ أعظمَ وأعظم.

مثل ما لو مَنَّيت شخصًا بدراهم ثم سحبتها منه صار أشَدَّ وأعْظَم: ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ ﴾ [الأحقاف: ٢٤]؛ لأنهم كانوا يتحدَّون نبيَّهم، يقولون: إن كان عندك عذابٌ فأتِ به إن كنتَ صادقًا، فجاءتهم ﴿ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ ﴾ والعياذُ بالله!! هاجتْ عليهم سَبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيام، لأنها بدأتْ من الصباح وانتهتْ بالغروب، فصارت سبعَ ليالٍ وثمانية أيامٍ حُسومًا مَتَتابعةً قاطعةً لِدَابرهم تحسمهم حَسْمًا، حتى إنها تحمل الواحد منهم إلى عنان السمَّاء، ثم تَرْمي به، فَصَارُوا كأنَّهم أعجازُ نخلٍ خَاوية، أي: مثل أصولِ النَّخلِ الخاويةِ ملتوينَ على ظهورهم ـ والعياذ بالله ـ كهيئةِ السُّجود؛ لأنهم يريدون أن يتخلَّصوا من هذه الرِّيح بعد أن تحملهم وتضربُ بهم الأرض، ولكن لم ينفعهم هذا.

قال الله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت : ١٦]، والعياذُ بالله .

أمّا ﴿ثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر : ٩]، فهم أيضًا عندهم عتوٌّ وطغيانٌ وتحدٍّ لنبيِّهم، حتى قالوا له : ﴿ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ﴾ [هود: ٦٢]، أي كنا نَرْجُوك ونظنُّكَ عاقلاً، أمَّا الآن فأنت سَفيه؛ لأنه ما من رسول أُرسل إلا قال له قومه : ساحرٌ أوْ مجنون، كما قال الله : ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات : ٥٢].

فأنظرهُم ثلاثة أيّام : ﴿ فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، فلمَّا تمَّتِ الثلاثة ـ والعياذ بالله ـ ارتجفتْ بهم الأرض، وصيحَ بهم؛ فأصْبَحُوا كَهشيم المحتظر، أي : مثل سَعَفِ النخلِ إذا طالتْ عليه المدَّةُ صار كأنَّه هشيمٌ محترقٌ من الشَّمس والهواء، صاروا كهشيمِ المحتظرِ وماتوا عن آخرهم .

أما فرعون ـ وما أدراك ما فرعون ـ فهو ذلك الرَّجل الجبّارُ المتكبِّر، الذي طغىٰ وأنكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وقال لموسىٰ : ما ربُّ العالمين؟ وقال لقومه : ما لكم من إله غيري!! نعوذُ بالله، وقال لهامان وزيره : ﴿ ابْنِ لِي صَرْحًا﴾ يعني : بناءً عاليًا ﴿ لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ يقوله تهكُّمًا ـ والعياذُ بالله ـ ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر : ٣٦، ٣٧].

وكذبَ في قوله: وإنِّي لأظُنُّه كاذبًا؛ لأنه يعلم أنَّه صادق، كما قال الله تعالى في مُناظرته مع موسى، قال له موسى: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ يا فرعون ﴿ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، ما أنكر، ما قال: ما علمت! بل سكت، والسكوتُ في مقامِ التَّحدي والمناظرةِ يدلُّ على الانقطاعِ وعدمِ الجواب.

وقال الله تعالى عنه وعن قومه: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤].

فهم ـ والعياذ بالله، فرعون وجنوده ـ يعلمون أن مُوسىٰ صادِق، لكنهم مُسْتكْبرونَ جَاحِدُون. ماذا حصل لهم؟

حصل لهم ـ والعياذُ بالله ـ هزائم، أعظمها الهزيمةُ التي حَصَلت للسَّحرة!

جمعَ جميعَ السحَّرةِ في بلادهِ باتفاقٍ مع موسىٰ ـ عليه الصلاة والسَّلام ـ وموسى هو الذي عيَّنَ الموعدَ أمام فرعون، مع أنَّ موسى أمام فرعون يعتبرُ ضعيفًا لولا أنَّ الله نَصرَهُ وأيَّده.

قال لهم موسى: ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه: ٥٩]، يومُ الزينة يومُ العيد، لأنَّ الناس يتزيَّنون فيه ويلبسون الزينة. وقوله: ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ﴾ يُجمع. ﴿ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ لا في اللَّيل في الخفاء. فجمعَ فرعون جميع من عنده من عظماءِ السحرة وكبرائهم، واجتمعوا بموسىٰ ـ عليه الصَّلاة والسلام ـ وألقُوا حِبَالهم وعصيَّهم. الحبالُ معروفة، والعصا معروفة، ألقوها في الأرض فصارت الأرض كلها ثَعَابين ـ حيَّات ـ تمشي،

أرهبت الناسَ كلَّهم، حتى موسى أوجَفَ في نَفْسِهِ خِيفَةً! فأيّدهُ الله وقال له: ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ ﴾ [طه: ٦٨، ٦٩].

فألقى ما في يمينه وهي العصا، عصا واحدة فقط؛ فإذا هي تلقف ما يأفكون، كلُّ الحبال والعِصيّ أكلتها هذه العصا، سبحان الله العظيم! وأنت تعجب: أين ذهبت العصا؟ ليست كبيرة حتى تأكل كل هذا، لكن الله عزَّ وجلَّ على كلِّ شيء قدير، فالتهمتِ الحبالَ والعِصيّ، وكان السَّحرةُ أعْلمَ النَّاسِ بالسحرِ بلا شكّ، فعرفوا أن الذي حصلَ لموسى وعصاه ليس بسحر، وأنه آيةٌ من آياتِ الله عزَّ وجلَّ، فأُلقي السَّحرة سَاجدين.

وانظرْ إلى كلمة ﴿أُلْقِيَ﴾ كأن هذا السُّجود جاء اندفاعًا بلا شُعور، ما قال: سجدوا! ألقوا سَاجِدين، كأنهم من شدَّةِ مَا رَأوا اندفعوا بدون شُعورٍ ولا اختيار؛ حتى سجدوا مؤمنين بالله ورسوله.

﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ فتوعدهم فرعون واتَّهمهم وهو الذي جاء بهم، فقال: ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ [طه: ٧١]، سبحان الله! علمهم السّحر وأنت الذي أتيت بهم؟! سبحان الله! لكنَّ المكابرةَ تجعلُ المرءَ يتكلَّم بلا عقل.

قال: ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾ أقطعُ اليدَ اليمنى والرجلَ اليسرى. ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ٧١]، ما الذي قالوا له؟

﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ما يمكنُ أن نقدِّمكَ على ما رأينا من البيِّنات! أنت كذَّاب لست بربّ، الرَّبُّ ربُّ موسىٰ وهارون.

﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ ﴾ [طه: ٧٢]، انظرْ إلى الإيمانِ إذا دخلَ القلوب! رَخُصَتْ عليهم الدُّنيا كلُّها ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ ﴾ أي: افعلْ ما تريد ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ إذا قضيتَ علينا أن نفارقَ الدنيا. ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ ﴾ لأنه قد أكرههم لكي يأتوا ويقابلوا موسىٰ ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه: ٧٣]، فالإيمانُ إذا دخلَ القلب، واليقينُ إذا دخلَ القلبَ لا يفتته شيء، وإلاَّ فإنَّ السحرةَ جُنودَ فرعون، كانوا في أوَّل النَّهار سَحَرة كفرة، وفي آخر النَّهار مؤمنين بَرَرَة، يتحدَّون فرعونَ لما دخل في قلبهم من الإيمان، فهذه هزيمةٌ نكْراءُ لفرعون، لكنْ مع ذلك ما زَال في طُغْيانه.

وفي النهايةِ جمعَ الناسَ على أنه سيقضي على مُوسىٰ. فخرج موسىٰ في قومه هربًا منه مُتَّجهًا بأمر الله إلى البحر الأحْمر ويسمى «بحر القُلْزُم» متجهًا إليه مشرقًا، فتكون مصر خَلْفه غربًا، فلما وصلَ إلى البحرِ وإذا فرعونُ بجنوده العَظيمةِ وجَحافلِهِ القويّةِ خلفهم والبحر أمامهم، ﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ البحرُ أمَامَنا وفرعونُ وجنودُه خلفنا، أين نفرّ؟ ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢]، اللهُمَّ صلِّ وسلِّم عليه، هكذا يقينُ الرُّسل ـ عليهم الصَّلاةُ والسَّلام ـ في المقاماتِ الحرجةِ الصَّعبة، تجد عندهم من اليقينِ ما يجعلُ الأمرَ العَسيرَ ـ بل الذي يظنُّ أنّه متعذِّر ـ أمرًا يسيرًا سهلاً ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ فلما فوَّضَ الأمرَ إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ أوحى الله إليه: أن اضرِبْ بعصاكَ البحر الأحمر. فضربَ البحر بِعَصاهُ ضربةً واحدةً فانفلقَ البحر اثني عشر طريقًا؛ لأن بني إسرائيل كانوا

اثنتي عشرة قبيلة، اثني عشر سِبْطًا، والسبْطُ بمعنى القبيلةِ عند العرب.

فضربه، وبلحظة يبس ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧]، فعبرَ مُوسىٰ بقومه في أمنٍ وأمان، الماءُ بين هذه الطُّرقِ مثلُ الجبال كأنَّه جبلٌ واقف، الماءُ جوهرٌ سيَّال، لكنه بأمر الله صارَ واقِفًا كالجِبَال.

حتى إن بعضَ العلماء قال: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل في كل طَوْدٍ من هذه المياه، جَعَل فيها فرجًا حتى ينظرَ بنو إسرائيلَ بعضُهم إلى بعض؛ لئلا يظنُّوا أن أصحابهم قد غرقوا وهلكوا، من أجل أن يطمئنوا.

فلمَّا انتهىٰ موسىٰ وقومه خارجين دخل فرعون وقومه، فلمّا تكاملوا أمر الله البحرَ أن يعودَ على حاله فانطبَقَ عليهم، وكان بنو إسرائيل من شدَّةِ خوفهم من فرعونَ وقعَ في نفوسهم أنَّ فرعونَ لم يغرق، فأظهرَ الله جَسَدَ فِرْعون على سطحِ الماء، قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢]، حتى يشاهدوه بأعينهم، واطمأنُّوا أن الرَّجل قد هلك.

فتأمل هؤلاء الأُممَ الثّلاثَ الذين هُم في غايةِ الطُّغيان، كيف أخذهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وكان لهم بالمِرْصاد، وكيف أهلكوا بمثل ما يفتخرون به.

فقومُ عاد قالوا: من أشدُّ منَّا قُوَّة؛ فأُهلكوا بالرِّيح، وهي أصلاً لطيفة وسهلة.

وقومُ صالح: أُهلكوا بالرَّجفةِ والصَّيحة.

وفرعون أُهلك بالماءِ والغَرق، وكان يفتخرُ بالماء، يقول لقومه: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ

﴿هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ يعني: موسى ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٣]، فأغرقه الله تعالى بالماء.

فهذه جملة ما تشير إليه هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

الآية الخامسة: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، يعلمُ يعني الله عزَّ وجلَّ ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ وخائنةُ الأعينِ خيانتها. فالخائنةُ هنا مصدر كالعاقبة والعافية وما أشبهها.

ويجوزُ أن تكونَ اسمَ فاعلٍ على أنَّها مْنْ خَانَ يَخُونُ؛ فيكون من بابِ إضافةِ الصِّفةِ إلى مَوْصُوفها.

على كلِّ حالٍ هذه مسألة نحوية ما تهمُّ هنا، المهمُّ أن للأعينِ خيانة، وذلك أن الإنسانَ ينظرُ إلى الشيءِ ولا تظنُّ أنه ينظرُ إليه نظرًا محرمًا، ولكن الله عزَّ وجلَّ يعلم أنَّه ينظرُ نظرًا محرَّمًا.

كذلك ينظرُ إلى الشَّخصِ نظرَ كراهية، والشخصُ المنظورُ لا يدري أنَّ هذا نظرُ كراهية، ولكنَّ الله تعالى يعلمُ أنَّه ينظرُ نظرَ كراهية، كذلك ينظرُ الشَّخصُ إلى شيءٍ محرَّمٍ ولا يدري الإنسانُ الذي يرى هذا النَّاظرَ أنه ينظرُ إلى الشيءِ نظرَ إنكارٍ أو نظرَ رضا، ولكنَّ الله سبحانه هو يعلمُ ذلك، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ يعلمُ خائنةَ الأعين.

ويعلمُ أيضًا ما تخفي الصُّدور أي: القلوب؛ لأنَّ القلوبَ في الصُّدور، والقلوبُ هي التي يكونُ بها العقل، ويكونُ بها الفهم، ويكونُ

بها التدبير، كما قال الله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

سبحان الله! كأنَّ هذه الآيةَ تنزلُ على حالِ النَّاس اليوم، بل حالِ الناسِ في القديم. يعني: هل العقلُ في الدِّماغ أو العقلُ في القلب؟

هذه مسألةٌ أشكلتْ على كثيرٍ من النُّظارِ الذين ينظرونَ إلى الأُمورِ نظرةً ماديَّة لا يرجعونَ فيها إلى قولِ الله تعالى وقولِ رَسُوله ﷺ.

وإلا فالحقيقةُ أنَّ الأمرَ فيها واضح أنَّ العقلَ في القلب، وأنَّ القلبَ في الصَّدر ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾، وقال: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، ولم يقل: القلوبُ التي في الأدْمِغَة. قال ﴿ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾، فالأمرُ فيه واضحٌ جدًّا أن العقلَ يكونُ في القلب، ويؤيِّدُ هذا قولُ النبيِّ ﷺ: **«ألاَ وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَة إذَا صَلُحت صَلُحَ الجَسَدُ كُلُّه، وَإذا فَسَدَت فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّه، ألا وَهِي القَلْب»**(١).

فما بالكَ بأمر شهدَ به كتابُ الله، والله تعالى هو الخالقُ العالمُ بكلِّ شيء، وشهدتْ به سُنَّةُ الرسول ﷺ!

إنَّ الواجبَ علينا إزاء ذلك أن نطرحَ كلَّ قولٍ يُخَالفُ كتابَ الله تعالى

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم(٥٢)، مسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم(١٥٩٩).

وسنةَ رسولهِ ﷺ وأن نجعلهُ تحت أقدامنا، وأن لا نَرْفَعَ به رأسًا.

إذاً: القلب هو محلُّ العَقْل ولا شكّ، ولكنَّ الدِّماغَ محلُّ التَّصَوُّر، ثم إذا تصوَّرها وجهَّزها بعث بها إلى القلب، ثمَّ القلبُ يأمرُ أوْ يَنهىٰ، فكأنَّ الدِّماغ (سكرتير) يجهِّزُ الأشياءَ ثم يدفعها إلى القلب، ثم القلبُ يوجِّه، يأمرُ أو ينهى، وهذا ليس بغريب ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وفي هذا الجسمِ أشياءُ غريبةٌ تَحارُ فيها العُقُول، فليس بغريبٍ أن الله - سبحانه وتعالى - يجعلُ التصوُّرَ في الرأس، فيتصوَّر الدماغ وينظِّمُ الأشياء، حتى إذا لم يبقَ إلا الأوامرُ أرسلها إلى القلب، ثم القلبُ يحرِّك، يأمرُ أو ينهي.

لأن النبيَّ - عليه الصلاة والسَّلام - قال: «**إذا صَلُحَتْ صَلُحَ الجَسَدُ**» فلولا أن الأمرَ للقلبِ ما كان إذا صَلح صَلح الجسد، وإذا فَسَدَت فَسَدَ الجَسَد كُلُّه.

إذًا: فالقلوبُ هي محلُّ العقلِ والتدبيرِ للشَّخص، ولكن لا شكَّ أنَّ لها اتِّصالاً بالدماغ، ولهذا إذا اختلَّ الدِّماغُ فسدَ التَّفكيرُ وفسدَ العقل! فهذا مرتبطٌ بهذا، لكنَّ العقلَ المدبِّرَ في القلب، والقلبَ في الصَّدر ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

* * *

٦٠ - وأمّا الأحاديثُ، فالأوَّل: عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ - رضيَ الله عنه - قال: «بَيْنَما نَحْنُ جُلوسٌ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ ذاتَ يَوْمٍ، إذْ طَلَعَ عَلَيْنا رَجُلٌ شَديدُ بَياضِ الثياب، شَديدُ سَوادِ الشَّعَرِ، لا يُرَى عليهِ أَثَرُ السَّفَرِ، ولا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَد، حتَّى جَلَسَ إلى النبيِّ ﷺ فأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إلى رُكْبَتَيْه، ووَضَعَ كفَّيْهِ علىٰ فَخِذَيْه، وقال: يا مُحَمَّدُ أَخْبِرْني عنِ الإسْلام، فقالَ رَسولُ الله ﷺ: الإسْلامُ أنْ تَشْهَدَ أنْ لا إلهَ إلا الله وأنَّ محمَّدًا رَسُولُ الله، وتُقِيْمَ الصَّلاة، وتُؤْتِي الزَّكاة، وتَصُوْمَ رَمَضَان، وتَحُجَّ البَيْتَ إنِ اسْتَطَعْتَ إليه سَبيلاً. قال: صَدَقْت. فعَجِبْنا يَسْألهُ ويُصَدِّقهُ! قال: فأخْبِرْني عنِ الإيْمَان. قال: أنْ تُؤْمِنَ بالله، ومَلائكَتهِ، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخِر، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّه. قال: صدَقْتَ. قال: فأخْبِرْني عن الإحْسَان. قال: أنْ تَعْبُدَ الله كأنَّكَ تَراه، فإنْ لم تَكُنْ تَراهُ فإنَّهُ يَرَاك. قال: فأخْبِرْني عنِ السَّاعَة. قال: ما المَسْؤوْلُ عَنْها بأعْلَمَ مِنَ السَّائل. قال: فأخْبِرْني عن أمَاراتها. قال: أنْ تَلِدَ الأمَةُ رَبَّتَها، وأنْ تَرىٰ الحُفَاةَ العُراةَ العالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ يَتَطاولونَ في البُنيَانِ. ثمَّ انْطلَق، فلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثمَّ قال: يا عُمَرُ أتَدْري مَنِ السائل؟ قلتُ: الله ورَسُولهُ أعلمُ. قال: فإنَّهُ جِبْرِيْلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِيْنَكُم»(١) [رواه مسلم].

ومعنى: «تلدُ الأمَةُ ربَّتها» أي: سيِّدتَها، ومعناهُ: أنْ تكْثُرَ السَّراري

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان وأشراط الساعة، رقم(٨).

حتى تَلِدَ الأمَةُ السرِيَّةُ بِنْتًا لسيِّدها، وبنتُ السَّيِّدِ في معنى السَّيِّد، وقيل غيرُ ذلك. «والعالة»: الفُقراءُ. وقوله: «مليًا» أي: زَمَنًا طويلاً، وكان ذلك ثلاثًا.

الشرح

ذكرَ المؤلفُ ـ رحمه الله ـ حديثَ عمرَ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ هذا الحديثَ العظيم، الذي قال فيه النبيُّ ﷺ لعمر في آخره: «**أتدري من السائل**» قال: الله ورسولُه أعلم. قال: «**فإنَّهُ جبريلُ أتاكُمْ يعلِّمكم دينكم**».

إذًا دينُنَا في هذا الحديث؛ لأنه مشتملٌ على كلِّ الدِّين، على الإسلام، والإيمان، والإحسان.

قوله: «**بينما**» هذه ظرفٌ تدلُّ على المفاجأة، ولهذا تأتي بعدها «**إذ**» المفيدةُ للمفاجأة، وكان الصَّحابةُ ـ رضيَ الله عنهم ـ يجلسونَ عند النبيِّ ﷺ كثيرًا، لأن الرسول ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ لا يغيبُ عن أصْحابه أو أهله:

ـ إمَّا في البيت: في شؤون بيته ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ يَحْلِبُ الشَّاة ويُرَقِّع الثَّوب ويخصفُ النَّعل.

ـ وإمّا مع أصحابهِ في المسجد، وإمّا ذاهبًا إلى عيادةِ مريضٍ، أوْ زيارةِ قريب، أو غيرِ ذلك من الأمور التي لا يمضي منها لحظةٌ إلا وهو في طاعة الله عليه الصلاةُ والسلام، قد حفظَ الوقت، وليس مثلنا نُضَيِّعُ الأوقات. والغَريبُ أنَّ أغلى شيءٍ عند الإنسان هو الوقت، وهو أرخصُ شيءٍ عند الإنسان، قال الله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩

﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، حتى لا يضيعَ عليَّ الوقت. ما يقول: لعلِّي أتمتَّعُ في المال، أو أتمتَّعُ بالزوجة، أو أتمتَّعُ في المركوب، أو أتمتَّعُ في القُصور، بل يقول: لعلي أعملُ صالحًا فيما تركت.

مضى عليَّ الوقت وما استفدتُ منه، فالوقتُ هو أغلى شيء، لكن هو أرْخَصُ شيء عندنا الآن، نُمضي أوقاتًا كثيرةً بغير فائدة، بل نُمضي أوقاتًا كثيرة فيما يَضُر، ولستُ أتحدَّثُ عن رجلٍ واحد، بل عن عموم المُسْلمين. اليوم ـ مع الأسفِ الشديد ـ أنَّهم في سهوٍ ولهوٍ وغفلة، لَيْسُوا جَادِّينَ في أُمورِ دينهم، أكثرهم في غفلةٍ وفي تَرَفٍ، ينظرون ما يترفُ به أبدانهم وإن أتلفوا أديانهم. فالرَّسول ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ كان دائمًا في المَصَالحِ الخاصَّةِ أو العامَّة، عليه الصلاةُ والسلام.

فبينما الصَّحابةُ عنده جُلوس، إذ طلع عليهم رجل «**شَديدُ بياضِ الثِّياب، شديدُ سوادِ الشَّعر، لا يُرى عليه أثرُ السَّفر، ولا يعرفه منَّا أحد**» وهذا غريب! ليس مُسافرًا حتى نقولَ إنَّه غريبٌ عن البلد، ولا يُعرفُ فنقولَ إنَّه من أهلِ البلد.

فتعجَّبوا منه، ثم هذا الرجلُ الذي جاء نظيفًا: شديدَ بَيَاضِ الثِّياب، شديدَ سوادِ الشَّعر، أي: شابٌّ لا يُرى عليه أثرُ السَّفر، لأن المسافر ـ لا سيَّما في ذلك الوقت ـ يكون أشْعثَ أغبر؛ لأنهم يمشون على الإبل، أو على الأقدام، والأرضُ غير مُسَفْلَتة، كلُّها غبار، لكن هذا لا يُرى عليه أثرُ السفر، ولا يعرفهُ منّا أحد، فهو غريبٌ ليس بغريب!

حتى جاء وجلس إلى النبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ وهذا الرَّجل هو جبريلُ ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ أحدُ الملائكةِ العظام، بل هو أفضلُ الملائكةِ فيما نعلم؛ لشرفِ عمله؛ لأنه يقومُ بِحَمْلِ الوَحْي من الله إلى الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلام، فهو مَلَكٌ عظيم، رآه النبيُّ ﷺ على صُورته التي خُلِقَ عليها مرَّتين: مرَّةً في الأرض، ومرةً في السَّماء.

ـ مرَّة في الأرضِ وهو في غارِ حِراء، رآهُ وله ستُّمائةِ جناح، قد سدَّ الأُفق ـ كلَّ الأفق ـ أمامَ الرسول ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ لا يرى السماءَ من فوق، لأن هذا المَلَكَ قد سدَّ الأفق؛ لأن له ستَّمائةِ جناح.

سبحان الله!! لأنَّ الله يقول في الملائكة: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر: ١]، لهم أجنحةٌ يطيرون بها طيرانًا سريعًا.

ـ والمرَّةَ الثانيةَ عند سِدْرَةِ المنتهى. قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٤ ـ ٩].

هذا في الأرض، دنا جبريلُ من فوق فتدلَّى، أي: قرب إلى محمد ﷺ فأوحى إلى عبدهِ ـ الرَّسول عليه الصلاةُ والسلام ـ ما أوحاهُ من وحي الله الذي حمَّلَهُ إيَّاه.

أمَّا الثَّانية: فقال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾ [النجم: ١٣، ١٤]، فهذا جبريل. ولكنَّ الله جعلَ للملائكةِ قدرةً على أن يتشكَّلوا بغير أشكالهم الأصلية، فها هو قد جاء في صورةِ هذا الرَّجل.

قوله: «**حتَّى جلسَ إلى النبيِّ ﷺ فأسندَ رُكبتيْه إلى رُكْبتيه**» أي أسندَ

ركبتي جبريلَ إلى ركبتي النبيِّ ﷺ: «ووضع كفَّيه على فَخذَيه» قال العلماء: وضعَ كفَّيْهِ على فَخِذَي نفسه، لا على فَخِذَي النبيِّ ﷺ، وذلك من كمالِ الأدب في جلسةِ المتعلِّم أمام المعلِّم، بأنْ يجلسَ بأدبٍ واستعدادٍ لما يسمعُ، واستماعٍ لما يُقالُ من الحديث.

جلس هذه الجِلْسَةَ ثم قال: «يا مُحمّد أخبرني عن الإسلام» - ولم يقل: يا رسولَ الله أخبرني- كصنيعِ أهلِ الباديةِ الأعراب؛ لأن الأعرابَ إذا جاؤوا إلى النبي ﷺ يقولون: يا محمد.

أما الذين سَمِعُوا أدبَ الله عزَّ وجلَّ لهم فإنهم لا يقولون: يا محمَّد، وإنَّما يَقُولون: يا رسول الله، لأن الله تعالى قال في كتابه: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ﴾ [النور: ٦٣]، وهذا يشملُ دعاءه عند النداء باسمه، ويشملُ دُعَاءَهُ إذا أَمَرَ أوْ نهى، فلا نجعلُ أمْره كأمْر الناس: إنْ شئنا امتثلنا وإنْ شئْنا تَرَكْنا، ولا نجعلُ نهيَهُ كنهي النَّاسِ: إن شئنا تركنا وإن شئنا فعلنا.

كذلك عندما ندعوه، لا ندعوه كدعاءِ بعضِنا بعضًا فنقول: يا فلان يا فلان، مثلما تنادي صاحبك، وإنما تقول: يا رسولَ الله، لكنَّ الأعرابَ- لبعدهم عن العلمِ وجهلِ أكثرهم ـ إذا جاؤوا يُنَادونه باسمه، فيقولون: يا محمَّد.

قال: «أخبرني عن الإسلام» أي: ما هو الإسلام؟ فقال النبي ﷺ: «أن تشْهد أنْ لا إله إلا الله وأن مُحمَّدًا رسولُ الله».

هذا الركن الأول: تشهدُ بلسانك نُطْقًا، وبقلبِكَ إقْرارًا: أنْ لا إله إلا

الله، يعني: لا معْبود بحقٍّ إلا الله سُبحانه وتعالى.

وألوهيةُ الله فرعٌ عن رُبُوبيته؛ لأن من تألَّهَ لله فقد أقرَّ بالربوبية، إذ إن المعبودَ لابدَّ أن يكونَ ربًّا، ولابدَّ أن يكونَ أيضًا كاملَ الصِّفات، ولهذا تجدُ الذين ينكرونَ صفاتِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عندهم نقصٌ عظيم في العُبُودية، لأنهم يعبدون من لا شيء.

فالرَّبُّ لابدَّ أن يكونَ كاملَ الصِّفات، حتى يُعْبَدَ بمقتضى هذه الصِّفات، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، «ادعوه» أي: تعبَّدو له وتوسَّلُوا بأسمائِه إلى مطلوبكم. فالدعاءُ هنا يشمل دُعاءَ المسألةِ ودُعاءَ العبادة.

المهمُّ أنَّه قال: «أن تشهد أنْ لا إله إلا الله»، فلا إله من الخَلْق، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ولا نبيٌّ مُرْسل، ولا شَمسٌ، ولا قَمر ولا شَجرٌ ولا حَجَر، ولا برٌّ ولا بَحر، ولا وَليٌّ ولا صدِّيق ولا شهيد، لا إله إلا الله وحده.

وهذه الكلمةُ أرسلَ الله بها جميعَ الرسل، فقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، أي: ابتعدوا عن الشرك.

فهذه الكلمةُ إذا حقَّقها الإنسان وقالها من قلبهِ ملتزمًا بما تقتضيهِ من الإيمانِ والعمل الصالح، فإنّه يدخلُ الجنةَ بها، قال النبي ﷺ: «من كانَ آخِرَ كَلامِهِ مِن الدُّنيا لا إلهَ إلاّ الله دَخَلَ

الجنَّة»(١)، جعلنا الله وإيَّاكم منهم.

وقوله: «وأنَّ محمدًا رسولُ الله» أي: تشهدُ بأن محمَّد بن عبدالله الهاشميَّ القرشيَّ العَربيَّ رَسُولُ الله، ولم يذكرْ مَنْ سِواهُ من الرُّسل؛ لأنه نسخَ جميعَ الأديان كلُّ ما جاء به الرسولُ ﷺ فإنه ناسخٌ لما قبله من الأديان.

فكلُّ الأديانِ باطلةٌ ببعثهِ الرَّسولِ عليه الصلاة والسلام، فدينُ اليهودِ باطل، ودينُ النَّصارى باطلٌ غير مقبول عند الله؛ لقولِ الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

يتعبونَ في عبادتهم التي ابتدعوها تعبًا عظيمًا، وينصبونَ نَصبًا عظيمًا، وكلُّ هذا هباءٌ لا ينفعهم بشيء، لن يُقْبلَ منهم.

وقوله: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فلو رَبِحُوا في الدُّنيا ما ربحوا في الآخرة؛ لأن أديانهم باطلة، فالذين يدَّعون الآن من النَّصارى أنَّهم ينتسبون إلى عيسى بن مريم ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ هم كاذبون، والمسيحُ بريء منهم، ولو جاء المسيحُ لقاتلهم، وسينزلُ في آخر الزَّمان ولا يقبلُ إلاَّ الإسلام. فيكسرُ الصَّليب، ويقتلُ الخنزير، ويَضَعُ الجزيةَ فلا يقبلها من أحد، لا يقبلُ إلاَّ الإسلام.

وقوله: «وأنَّ محمَّدًا رسول الله» أي: إلى الخلق كافَّة، كما قال الله:

---

(١) أخرجه أبوداود، كتاب الجنائز، باب في التلقين، رقم(٣١١٦)، والإمام أحمد في المسند(٥/ ٢٤٧)، والحاكم في المستدرك(١/ ٣٥)، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١]، للعالمين كلِّهم.

وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فهو رسولٌ إلى جميع الخلق.

وقد أقسم ﷺ: **«أنَّه لا يَسْمَعُ بي أحدٌ من هذه الأمَّةِ يهوديٌّ ولا نصرانيّ، ثم يموتُ ولم يؤمنْ بالذي أُرسلت به؛ إلاَّ كان من أصحابِ النار»**[1].

ولذلك نحن نؤمنُ ونعتقدُ بأن جميعَ النَّصارى واليَهُودِ وغيرهم من الكَفَرة كلَّهم من أصحاب النَّار، لأن هذه شهادةُ النَّبيِّ عليه الصلاة والسَّلام، والجنَّة حرامٌ عليهم؛ لأنهم كفرةٌ أعداءٌ للهِ تعالى ولرسلهِ عليهم الصلاة والسلام، أعداءٌ لإبراهيم، ولنُوح، ولمحمَّد، ولموسى، ولعيسىٰ، ولجميعِ الرُّسلِ عليهم الصلاةُ والسلام.

وقوله: «أنْ تشهد أن لا إله إلا الله» مع قوله: «وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله» هذان جمعا شَرْطَي العبادة، وهُما: الإخلاصُ لله، والمُتابَعةُ لِرَسُول الله ﷺ؛ لأن من قال: لا إله إلا الله أخلصَ لله، ومن شهدَ أنَّ محمَّدًا رسولُ الله

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، رقم(١٥٣).

اتَّبعَ رسولَ الله ولم يتَّبعْ سواه.

ولهذا عُدَّ هذان رُكنًا واحدًا من أركان الإسلام؛ لأنهما يعودان إلى شيء واحد، وهو تصحيحُ العبادات؛ لأنَّ العباداتِ لا تَصِحُّ إلاَّ بمقتضى هاتين الشَّهادتين: شهادةِ أن لا إله إلا الله التي يكونُ بها الإخلاص، وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله التي يكون بها الاتِّباع.

وقوله: «وأن محمَّدًا رسولُ الله» يجبُ أن تشهدَ بلسانك، مقرًّا بقلبك، أن محمَّدًا رسولُ الله، أرسله إلى العالمين جميعًا رحمةً بالعالمين، كما قال الله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وأن تؤمنَ بأنه خاتمُ النبيِّين، كما قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فلا نبيَّ بعده، ومن ادّعى النبوَّةَ بعده فهو كافرٌ كاذب، ومن صدَّقه فهو كافر.

ويَلْزَمُ من هذه الشَّهادة أن تتَّبعَهُ في شَريعتهِ وفي سُنَّته، وأن لا تبتدعَ في دينهِ ما ليس منه، ولهذا نقول: إن أصحابَ البدعِ الذين يبتدعونَ في شريعةِ الرَّسول ﷺ ما ليس منها إنهم لم يُحَقِّقُوا شهادةَ: أن محمَّدًا رسولُ الله! حتى وإن قالوا إننا نُحبُّه ونُعَظِّمه، فإنهم لو أحبُّوه تمامَ المحبةِ وعظَّموهُ تمامَ التَّعظيم ما تقدَّموا بين يَدَيه، ولا أدْخَلوا في شريعته مَا ليس منها.

فالبدعةُ مضمونها حقيقةُ القدحِ برسولِ الله ﷺ كأنَّما يقولُ هذا المبتدع: إن الرسول ﷺ لم يكملِ الدِّينَ ولا الشَّريعة؛ لأن هناك دينًا وشَريعةً ما جاء بها!

ثم في البدعةِ محذورٌ آخر، وهو عظيمٌ جدًّا، وهو أنه يتضمَّنُ تكذيبَ

قول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]؛ لأن الله تعالى إذا كان أكملَ الدين، فمعناه أنه لا دينَ بعدما جاء به الرسولُ عليه الصلاةُ والسلام، وهؤلاء المبتدعون شرعوا في دينِ الله ما ليس منه، من تَسْبيحاتٍ وتَهْليلاتٍ وحركاتٍ وغيرِ ذلك، فهم في الحقيقةِ مُكَذِّبون لمضمونِ قولهِ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

وكذلك قادحونَ برسولِ الله ﷺ مُتَّهمونَ إيَّاه بأنَّه لم يكملِ الشَريعةَ للبشر، وحاشاهُ من ذلك.

ومن تمامِ شهادةِ أنَّ محمَّدًا رسولُ الله أن تُصدِّقَهُ فيما أَخْبرَ به، فكلُّ ما صحَّ عنه وجبَ عليك أن تُصدِّق به، وأن لا تعارضَ هذا بعقلِكَ وتقديراتِكَ وتَصوُّراتك؛ لأنك لو لم تؤمنْ إلاَّ بما صَدَّق به عقلك لم تكنْ مؤمنًا حقيقة، بل مُتَّبعًا لِهَواكَ لا آخذًا بُهداك، والذي يؤمنُ بالرَّسول ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ حقًّا يقول فيما صَحَّ عنه من الأخبار: سَمِعنا وآمنَّا وصدَّقنا.

أما أن يقول: كيف كذا؟ كيف يكون كذا؟ فهذا غيرُ مؤمنٍ حقيقة، ولذلك يُخشى على أولئك القوم الذين يُحَكِّمُون عقولهم فيما أخبر به الرسولُ عليه الصلاة والسلام؛ لأنهم إن كانوا لا يقبلون إلاَّ بما شهدت به عُقُولهم ـ وعُقُولهم لا شكَّ أنَّها قاصرة ـ فإنَّهم لم يؤمنوا حقًّا برسولِ الله ﷺ ولم يشهدوا أنه رسولُ الله ﷺ على وجهِ الحقيقة، عندهم من ضعفِ هذه الشَّهادةِ بمقدارِ ما عندهم من التَّشكُّكِ فيما أخبرَ به.

كذلك من تحقيقِ شهادةِ «أنَّ محمَّدًا رسولُ الله» أنْ لا تَغْلُوَ فيه فتُنْزِلَه بِمَنْزِلةٍ أكبرَ من المنزلةِ التي أنزلَهُ الله إيَّاها، مثل أولئك الذين يعتقدون أن

الرسول ﷺ يكشف الضرّ، حتى إنهم عند قبره يسألون النبيَّ ﷺ مباشرةً أن يكشفَ الضرَّ عنهم، وأن يجلبَ النَّفعَ لهم. هذا غُلُوٌّ في الرَّسول ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ وشِرْكٌ بالله عزَّ وجل!! لا يقدرُ أحدٌ على ذلك إلاَّ الله سبحانه وتعالى.

والنَّبيُّ ﷺ بعده مَوْته لا يملكُ لِنَفْسِهِ شيئًا أبدًا.

حتى الصَّحابة لمّا أصابهم القَحْط في زمن أميرِ المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ واسْتَسقوا في مسجدِ الرَّسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما جاؤوا إلى القبرِ يسألون الرَّسول أو يقولون ادعُ الله لنا أو اشفعْ لنا عندالله حتى ينزل الغيث. قال عمر يدعو الله: «اللهم إنا كنا نتوسَّلُ إليك بنبيِّنا ﷺ فتسقينا، وإنا نتوسَّلُ إليك بعَمِّ نبيِّنا فاسْقِنا»[(١)]، ثم أمرَ العباسَ أن يقومَ ويدعوَ الله تعالى بإنزالِ الغيث.

لماذا؟ لأنَّ النبي ﷺ مَيِّتٌ لا عَمَلَ لهُ بعد موته، هو الذي قال: «**إذا ماتَ الإنسانُ انْقطعَ عنه عملهُ إلاَّ مِنْ ثَلاثةٍ: إلاَّ من صدقةٍ جاريةٍ، أو عِلْمٍ يُنتفعُ به، أو ولدٍ صالح يدعُو لهُ**»[(٢)].

فالنبيُّ ﷺ بنفسه لا يملك شيئًا، لا يملك أن يدعوَ لك وهو في قبرِهِ أبدًا. فمن أنزلَهُ فوق مَنْزِلَتِهِ التي أَنْزَلَهُ الله فإنَّه لم يحقِّقْ شهادةَ «أن محمَّدًا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، رقم(١٠١٠).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم(١٦٣١).

رسولُ الله» بل شهدَ أن مُحمّدًا ربٌّ مع الله نعُوذُ بالله؛ لأن معنى كونه رسولاً أنه عبْدٌ لا يُعْبَدُ ورسولٌ لا يُكَذَّب، نحن في صلاتنا كلَّ يومٍ نقول: «أشهد أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسوله».

فهو عبدٌ كغيرهِ من العبادِ مَرْبُوب، والله هو المعبودُ عزَّ وجلَّ وهو الربُّ.

إذًا نقولُ لهؤلاء الذين نجدهم يغلونَ برسولِ الله ﷺ ويُنزلونه فوق منزلتهِ التي أنزله الله، نقول لهم: إنكم لم تحقِّقوا لا شهادةَ أنْ لا إله إلا الله، ولا شهادةَ أنَّ محمَّدًا رسول الله.

فالمهمُّ أن هاتين الشَّهادتين عليهما مدارٌ عظيم، كلُّ الإسلامِ فهو عليهما.

لذلك لو أراد الإنسانُ أن يتكلَّمَ على ما يتعلَّقُ بهما مَنْطوقًا ومفهومًا ومَضْمونًا وإشارةً لاستغرقَ أيامًا!، ولكنْ نحن أشرنا إشارةً إلى ما يتعلَّق بهما، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا وإيَّاكم ممن يحقِّقهما عقيدةً، وقولاً، وفعلاً!

الركن الثاني: إقام الصَّلاة:

الصلاةُ سُمِّيتْ صلاةً لأنها صِلَةٌ بين العبْدِ وبين الله، فإنَّ الإنسانَ إذا قام يُصلِّي فإنه يناجي ربَّهُ ويحاوره، كما ثبت ذلك في الحديثِ الصحيح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ أن الله سبحانه وتعالى قال: **«قسمت الصَّلاةَ بيني وبيْن عبْدِي نِصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الله تعالى: حَمِدَني عبدي، وإذا قال:**

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ قال مجّدني عبدي، فإذا قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قال الله: هذا لِعبْدي ولِعبدي ما سأل»(١).

فتأملْ مُحَاوَرَةً ومُنَاجاةً بين الإنسانِ وبين ربِّه، ومع ذلك فالكثيرُ منّا في هذه المُناجاةِ مُعْرِضٌ بقلبه، تجدهُ يتجوَّلُ يمينًا وشمالاً، مع أنه يُناجِي مَنْ يعلمُ ما في الصُّدور عزَّ وجل. وهذا من جهلنا وغفلتنا.

فالواجبُ علينا ـ ونسأل الله أن يُعِينَنَا عليه ـ أن تكونَ قُلُوبُنا حاضرةً في حالِ الصَّلاة حتى تبرأ ذمَّتنا وحتى ننتفع بها؛ لأن الفوائدَ المترتِّبة على الصلاةِ إنما تكون على صلاة كاملة، ولهذا كلنا يقرأ قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ومع ذلك يأتي الإنسان ويُصلِّي فلا يجدُ في قلبه إنكارًا لمنكر، أو عرفًا لمعروفٍ زائدًا عما سبق حين دخولهِ في الصلاة. يعني لا يتحرَّكُ القلبُ ولا يَسْتَفيدُ، لأنَّ الصَّلاة نَاقِصة، هذه الصلاةُ هي أعظمُ أركانِ الإسلامِ بعد الشَّهادتين.

وقد فرضها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على نبيِّه محمَّدٍ ﷺ بدون وَاسطةٍ من الله إلى الرسول، وفرضها عليه في أعلى مكانٍ وَصَلَهُ بَشَر، وفَرَضَها عليه في

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم(٣٩٥).

أشرفِ ليْلةٍ كانت لرسولِ الله ﷺ وهي ليلة المعراج، وفَرَضَها عليه خمسينَ صلاةً في اليومِ والليلة، فهذه أربعةُ أمور:

أولاً: لمَ يكنْ فَرْضُها كفرضِ الزكاةِ والصِّيام والحجّ، بل هو من الله تعالى مُبَاشرةً إلى الرَّسول عليه الصلاة والسلام.

ثانيًا: من ناحيةِ المكانِ فهو في أعلى مكانٍ وَصَلَ إليه البَشر، تُفْرضُ على النبيِّ ﷺ وهو في الأرض.

ثالثًا: من ناحيةِ الزَّمانِ في أشرفِ ليلةٍ كانتْ لرسولِ الله ﷺ وهي ليلةُ المعراج.

رابعًا: في الكمِّية: لم تُفْرَضْ صلاةٌ واحدة، بل خمسونَ صلاة، مما يَدُلُّ على محبَّةِ الله لها، وأنه يحبُّ من عبدهِ أن يكونَ دائمًا مشغولاً بها.

ولكنَّ الله جعلَ لكلِّ شيءٍ سببًا، لما نزلَ الرَّسولُ - عليه الصلاة والسلام - مُسَلِّمًا لأمرِ الله قانعًا بفريضةِ الله، ومرَّ بموسى - عليه الصلاةُ والسلام - وسأله موسىٰ: ماذا فرضَ الله على أُمَّتك؟ قال: «**خمسين صلاةً في اليوم والليلة**»، قال: إنَّ أمَّتكَ لا تُطيق ذلك، إنَّني جرَّبت الناسَ قبلك وعالجتُ بني إسرائيل أشَدَّ المعالجة، اذهبْ إلى ربِّكَ واسأله أن يخفِّفَ عن أمتك![1]، فذهب إلى الله، وجعل يتردَّدُ بين موسى - عليه الصلاة والسلام - وبين الله - عزَّ وجلَّ - حتى جعلها الله خمسًا، لكنَّ الله بمنِّهِ وكرمه -

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم، رقم(٣٢٠٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات، رقم(١٦٣).

وله الحمدُ والفضل ـ قال: هي خمسٌ بالفعل، وخمسونَ في الميزان، وليس هذا من بابِ قبيلِ الحَسَنة بعشرِ أمْثالها، بل من باب قبيلِ الفعلِ الواحدِ يجزىءُ عن خمسينَ فعلاً، فهذه خمسُ صلواتٍ عن خَمْسينَ صلاة. فكأنَّما صلينا خمسينَ صلاة، كلُّ صلاةِ الحَسَنةُ بعشرِ أمثالها؛ لأنه لو كان هذا من بابِ مُضَاعفةِ الحَسَناتِ لم يكنْ هناك فَرْقٌ بين الصَّلواتِ وغيرها، لكن هذه خاصَّة، صلِّ خمسًا كأنَّما صليت خمسين صلاة، قال: هي خمسٌ في الفعلِ وخمسونَ في الميزان، وهذا يدلُّ على عِظَمِ هذه الصلوات، ولهذا فرضها الله ـ سبحانه وتعالى ـ على عبادهِ في اليومِ والليلةِ خمسَ مرّاتٍ لابدَّ منها. لابد أن تكون مع الله خَمْس مَرَّات تُناجيه في اليومِ والليلة.

لو أنَّ أحدًا من الناس حَصَلَ لَهُ مُقَابلةٌ بينه وبين الملكِ خمسَ مرَّاتٍ باليومِ لعُدَّ ذلك من مناقبه ولفرحَ بذلك وقال: كلَّ يومٍ أجالسُ الملكَ خمسَ مرات!

فأنت تناجي مَلِكَ الملوك ـ عزَّ وجلَّ ـ في اليومِ خمسَ مرَّاتٍ على الأقلّ، فلماذا لا تفرحُ بهذا؟ احْمدِ الله على هذه النِّعمةِ وأقمِ الصلاة.

وقولُ النبيِّ ﷺ: «وتقيمَ الصَّلاة» يعني: تأتي بها قويمةً تامَّةً بِشُرُوطها وأرْكَانِها وواجباتها.

فمن أهمِّ شُروطها: الوقت: لقولِ الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣].

وإذا كانتِ الصلواتُ خَمْسًا فأوقاتُها خمسةٌ لغير أهلِ الأعذار، وثلاثةٌ

لأهلِ الأعذارِ الذين يجوزُ لهم الجمع، فالظهرُ والعصرُ يكونُ وقتاهُمَا وَقْتًا واحدًا إذا جازَ الجمع، والمغربُ والعِشاءُ يكونُ وَقْتَاهُما وقتًا واحدًا إذا جاز الجمعُ. هذان وقتان. والفجرُ وقتٌ واحد، ولهذا فَصلها الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، ولم يقلْ: لدلوكِ الشمسِ إلى طلوعِ الفجر! بل قال: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ وغسقُ الليلِ يكونُ عند مُنْتَصَفه، لأَن أشدَّ ما يكونُ ظلمةً في الليلِ منتصفُ الليل، لأنَّ منتصفَ الليل هو أبعدُ ما تكونُ الشمس عن النقطة التي فيها هذا المنتصف، ولهذا كان القولُ الرَّاجحُ أن الأوقاتَ خمسةٌ كما يلي:

١ ـ الفجرُ من طلوعِ الفجر الثَّاني ـ وهو البياضُ المعترضُ في الأفق ـ إلى أن تطلعَ الشمس.

وهنا أنبِّه فأقول: إن تقويمَ أمِّ القُرى فيه تقديمُ خَمْسِ دقائقَ في أذانِ الفجرِ على مدارِ السَّنة، فالذي يُصَلِّي أوّلَ ما يؤذِّنُ يعتبرُ أنَّه صلَّىٰ قبل الوقت، وهذا شيءٌ اختبرناهُ في الحسابِ الفلكيّ، واختبرناه أيضًا في الرؤية.

فلذلك لا يُعتمدُ هذا بالنِّسبةِ لأذانِ الفجر؛ لأنه مُقدَّم، وهذه مسألةٌ خطيرةٌ جدًّا، لو تكبِّرُ للإحرامِ فقط قبل أن يدخلَ الوقتُ ما صحَّتْ صلاتك وما صارتْ فريضة. وقد حدثني أناسٌ كثيرونَ ممَّن يعيشون في البرِّ وليس حَوْلهم أنوار، أنهم لا يشاهدون الفجرَ إلاَّ بعد هذا التقويمِ بثلثِ ساعة، أي: عشرينَ دقيقة أو ربع ساعة أحيانًا، لكن التَّقاويمَ الأخرى الفلكيَّةَ التي

بالحسابَ بَيْنَها وبين هذا التَّقويم خمْسُ دقائق.

على كلِّ حال: وقتُ صلاةِ الفجر من طلوعِ الفجرِ الثَّاني ـ وهو البياضُ المعترض ـ إلى طلوعِ الشَّمس.

٢ ـ الظهرُ من زَوَالِ الشمسِ إلى أن يصيرَ ظلُّ كلِّ شيءٍ مثله، لكن بعد أن تخصمَ ظلَّ الزوال؛ لأن الشمسَ خصوصًا في أيَّام الشتاءِ يكونُ لها ظلٌّ نحو الشَّمال، هذا ليس بعبرة، بل العبرةُ أنك تنظرُ إلى الظلِّ ما دام ينقصُ فالشَّمسُ لم تَزُل، فإذا بدأ يزيدُ أدْنَىٰ زيادةٍ فإنَّ الشَّمسَ قد زالت، فاجعلْ علامةً على ابتداءِ زيادةِ الظِّل: فإذا صارَ ظلُّ الشيءِ كطولهِ خرجَ وقتُ الظهرِ ودخلَ وقتُ العصر.

٣ ـ ووقتُ العصرِ إلى أن تَصْفرَّ الشَّمسُ والضَّرورةُ إلى غُروبها.

٤ ـ ووقتُ المغربِ من غروبِ الشمسِ إلى مغيبِ الشفقِ الأحمر، وهو يختلف، أحيانًا يكونُ بين الغروبِ وبين مغيبِ الشَّفقِ ساعةٌ وربع، وأحيانًا يكونُ ساعةً واثنتين وثلاثينَ دقيقة، ولذلك وقتُ العِشاءِ عند النَّاس الآن لا بأس به، واحدة ونصف (١,٣٠) غروبي.

٥ ـ وقتُ العِشاءِ من خروج وقت المغرب إلى منتصف الليل. بمعنى أنك تقدِّرُ ما بين غروب الشمس وطُلوع الفجر ثم تنصفه. فالنصف هو مُنتهى صَلاة العشاء. ويترتَّبُ على هذا فائدةٌ عظيمة:

لو طَهُرتِ المرأةُ من الحيضِ في الثُّلثِ الأخيرِ من اللَّيل فليس عليها صلاة العشاء ولا المغرب؛ لأنها طَهُرَتْ بعد الوقت.

وقد ثبتَ في صحيح مسلمٍ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص أن النبيَّ ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ قال: «**وقْتُ العِشاء إلى نِصْف اللَّيل**»[(١)].

وليس عن رسولِ الله ﷺ حديثٌ يدُلُّ على أن وقتَ العشاءِ يمتدُّ إلى طلوع الفجر أبدًا، ولهذا فإن القولُ الراجحُ إلى نصفِ الليل، والآيةُ الكريمةُ تدلُّ على هذا، لأنه فَصلَ الفجرَ عن الأوقاتِ الأربعة ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ أي: زوالها ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ جمعَ الله بينها لأنها ليس بينها فاصل، فمن ساعة خروج الظهر يدخلُ العصر، ومن ساعة خروج العصر يدخلُ المغرب، ومن ساعة خروج المغرب يدخلُ العِشاء، أمّا الفجرُ فقال: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٨]، فالفجرُ لا تتصلُ بصلاةٍ لا قبلها ولا بعدها، لأن بينها وبين الظهرِ نصفُ النهارِ الأوَّل، وبَيْنها وبين صلاةِ العِشاءِ نصفُ اللَّيلِ الآخر.

واعلمْ أنَّ الصَّلاةَ قبل دخولِ الوقتِ لا تُقْبلُ حتَّى لو كبَّرَ المصلي تكبيرة الإحرامِ ثمَّ دخل الوقت بعد التكبيرة مباشرة، فإنها لا تقبل على أنها فريضة؛ لأن الشيءَ الموقَّتَ بوقتٍ لا يصحُّ قبل وقته، كما لو أراد الإنسان أن يَصُومَ قبل رمضانَ ولو بيومٍ واحد فإنه لا يجزئهُ عن رمضان، كذلك لو كبَّرَ تكبيرةَ الإحرامِ قبل دخولَ الوقتَ فإنَّ الصلاة لا تُقبلُ منه على أنها فريضة، لكنْ إنْ كان جاهلاً لا يَدْري صارتْ نافلة ووجبَ عليه إعادتها

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب أوقات الصلوات الخمس، رقم(٦١٢).

فريضة. أمّا إذا صلاَّها بعد الوقت فلا يَخْلو مِنْ حالين:

أ ـ إمّا أن يكون مَعْذُورًا بجهل، أو نِسيان، أو نوم، فهذا تُقْبلُ منه.

ـ **الجهل**: مثلُ أن لا يَعْرفَ أن الوقتَ قد دخلَ وقد خرج، فهذا لا شيء عليه، فإنه يُصَلِّي الصَّلاةَ متى علم وتُقْبل منه؛ لأنه معذور.

ـ **والنسيان**: مثلُ أن يكونَ الإنسانُ اشتغلَ بشُغلٍ عظيمٍ أشغله وألهاهُ حتى خرجَ الوقت، فإنَّ هذا يُصَلِّيها ولو بعد خروجِ الوقت، والنَّومُ كذلك، فلو أن شخصًا نامَ على أنَّه سيقومُ عند الأذان، ولكن صار نومهُ ثقيلاً فلم يَسمَعِ الأذان، ولم يسمعِ المنبِّهَ الذي وَضَعهُ عند رأسِهِ حتى خرج الوقت، فإنَّه يصلي إذا استيقظ، لقولِ الرسول عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ نامَ عن صلاةٍ أوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّها إذَا ذَكَرَها، لا كفَّارة لَهَا إلاَّ ذلك**»[1].

ب ـ **فأما الحالةُ الثَّانية**: فأنْ يُؤخِّرَ الصَّلاةَ عن وقتها عمدًا بدون عذر، فاتَّفقَ العلماءُ على أنَّه آثمٌ وعَاصٍ لله تعالى ورسولهِ ﷺ.

وقال بعضُ العلماء: إنَّه يكفرُ بذلك كُفرًا مخرجًا عن المِلَّة، نسألُ الله العافية!، فالعلماء متفقون على أنه إذا أخَّرَ الصلاةَ عن وقتها بلا عُذْرٍ فإنه آثمٌ عاصٍ، ولكن منهم من قال إنه يكفر، ولكن الجمهور ـ وهو الصحيح ـ أنه لا يكفر، ولكن اختلفوا فيما لو صلاَّها في هذه الحال، يعني: بعد أن أخْرَجَها عن وقتها عَمْدًا بلا عذر ثم صلىٰ، فمنهم من قال: إنها تُقبل ـ أي

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب من نسي صلاة فليصل إذا ذكرها، رقم(٥٩٧)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة، رقم(٦٨٤).

صلاته ـ لأنَّه عاد إلى رشدِهِ وصوابه؛ ولأنه إذا كان الناسي تقبل منه الصَّلاةُ بعد الوقتِ فالمتعمّد كذلك. ولكنَّ القولَ الصَّحيحَ الذي تُؤَيِّدهُ الأدِلَّة أنَّها لا تُقْبَلُ منه إذا أخَّرها عن وقتها عَمْدًا ولو صلَّى ألفَ مرَّة، وذلك لقولِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام: «**من عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْه أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[1]، يعني مردودٌ غيرُ مقبولٍ عند الله، وإذا كان مردودًا فلن يُقْبلَ، وهذا الذي أَخْرجَ الصَّلاة عمدًا عن وقتها إذا صلاَّها فقد صلاَّها على غير أمر الله ورسوله، فلا تُقبل مُنه.

وأما المعذورُ فهو معذور؛ ولهذا أمرَهُ الشَّارعُ أن يُصَلِّيَها إذا زالَ عُذْره، أمَّا مَنْ ليس بمعذورٍ فإنَّه لو بقيَ يصلي كلَّ دهرِهِ فإنها لا تُقبلُ منه هذه الصلاةُ التي أخرجها عن وقتِها بلا عُذر، ولكنْ عليه أن يتوبَ إلى الله ويستقيم، ويكثرَ من العملِ الصَّالحِ والاستغفارِ «**ومَنْ تَابَ تابَ الله عَلَيهِ**».

الشَّرطُ الثَّاني من إقامِ الصلاة: الطَّهارة، فإنه لا تُقبل صلاةٌ بغيرِ طُهور. قال النبيُّ عليه الصلاةُ والسلام: «**لا تُقبلُ صلاةُ أَحَدِكُم إذَا أَحْدَثَ حَتَّى يتوضأ**»[2]. فلابدَّ أن يقومَ الإنْسانُ بالطَّهارةِ على الوجْهِ الَّذي أُمِرَ به؛ فإن أحدثَ حدثًا أصغرَ مثلَ: البولِ والغائطِ والرِّيحِ والنَّومِ وأكلِ لحمِ الإبل، فإنَّه يتوضأ.

---

(١) تقدم تخريجه ص (١٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب لا تقبل صلاة بغير طهور، رقم(١٣٥)، ومسلم، كتاب الطهارة، باب الطهارة للصلاة، رقم(٢٢٥).

وفروضُ الوُضوءِ كما يلي:

غسلُ الوجه، واليدينِ إلى المرفقين، ومَسْحُ الرَّأس، وغسلُ الرجلين إلى الكعبين، كما أمر الله بذلك في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ [المائدة: ٦].

ومن الرأس: الأذنان، ومن الوجه: المَضْمَضةُ والاسْتِنْشَاقُ في الفمِ والأنف، فلابدَّ في الوضوءِ من تطهيرِ هذه الأعضاءِ الأربعة، غسلٌ في ثلاثةٍ ومسحٌ في واحد.

وأما الاستنجاء، أو الاستجمار: فهو إزالةُ النجاسة، ولا علاقةَ له بالوضوء، فلو أن الإنسان بالَ أو تَغَوَّط واسْتَنْجَىٰ ثم ذهب لشغله، ثم دخل الوقت؛ فإنه يتوضأ بتطهيرهِ الأعضاءَ الأربعة، ولا حاجةَ إلى أن يستنجي، لأن الاستنجاءَ إزالةُ نجاسةٍ، متى أُزِيلتْ فإنه لا يُعَادُ الغسلُ مَرَّةً ثانية، إلا إذا رجعتْ مرة ثانية.

والصحيح: أنه لو نسيَ أن يستجمرَ استجمارًا شرعيًّا ثم توضأ، فإنَّ وضوءه صحيح؛ لأنه ليس هُناك عِلاقةٌ بين الاستنجاء وبين الوضوء.

أما إذا كان مُحْدِثًا حَدَثًا أكبر مثلَ الجنابةِ فعليه أن يَغْتَسل، فيعمِّمُ جميعَ بدنه بالماء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾ [المائدة: ٦]، ومن ذلك: المضمضةُ والاستنشاق؛ لأنهما دَاخِلان في الوجه، فيجبُ تطهيرهما كما يجبُ تَطْهيرُ الجبهةِ وَالخَدِّ واللِّحية.

والغسلُ الواجبُ الذي يكفي أن تعُمَّ جميعَ بدنك بالماء، سواء بدأتَ

بالرَّأس أو بالصَّدرِ أو بالظَّهرِ أو بأسفلِ البَدَن، أو انغمستَ في بِرْكةٍ وخَرَجتَ منها بنيَّة الغسل.

والوضوءُ في الغسلِ سُنَّة وليس بواجبٍ، ويُسَنُّ أن يتوضَّأ قبل أن يغتسل، وإذا اغتسلَ فلا حاجة إلى الوضوءِ مَرَّة ثانية؛ لأنه لم يثبتْ عن النبيِّ -عليه الصلاةُ والسلام- أنه توضأ بعد اغتساله.

فإذا لم يجدِ الماء، أو كان مريضًا يَخْشَىٰ من استعمال الماء، أو كان بردٌ شديدٌ وليس عنده ما يُسَخِّن به الماء، فإنه يتيمَّم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة: ٦].

فبيَّن الله حالَ السَّفرِ والمرضِ أنَّه يَتَيَمَّمُ فيهما إذا لم يَجدِ المَاءَ في السَّفر.

أمَّا خوفُ البردِ فَدَلِيلُه قِصَّةُ عمرو بن العاص رضي الله عنه: «أنَّ النبي ﷺ بعثه في سريَّةٍ فأجنب، فتيمَّم وصلَّى بأصحابهِ إمامًا. فلمَّا رجعوا إلى النبيِّ ﷺ قال له: **يا عمرو، صَلَّيتَ بأصْحَابِكَ وأنتَ جُنُب؟** قال: نعم يا رسولَ الله! ذكرتُ قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]، وخفتُ البَرد فتَيَمَّمتُ صعيدًا طيبًا فصلَّيت»[١].

فأقَرَّهُ النبيُّ ﷺ على ذلك ولم يَأمُره بالإعادة؛ لأن مَنْ خافَ الضَّررَ كمن فيه الضَّرر، لكن بشرطِ أن يكون الخوفُ غالبًا أوْ قاطِعًا، أمَّا مُجرَّد

---

(١) أخرجه أبوداود موصولاً، كتاب الطهارة، باب إذا خاف الجنب البرد أيتيمم؟ رقم(٣٣٤)، قال الحافظ في الفتح (١/ ٥٤١): وإسناده قويٌّ.

الوَهمِ فهذا ليس بشيء.

واعلمْ أنَّ طهارةَ التَّيمُّمِ تقومُ مقامَ طهارةِ الماء، ولا تنتقضُ إلا بما تنتقضُ به طهارةُ الماء، أو بزوال العُذرِ المبيح للتيمم، فمن تيمَّمَ لعدم وجودِ الماءِ ثم وجده فإنَّه لابدَّ أن يتطهَّرَ بالماء، لأن الله تعالى إنما جعل التَّرابَ طهارةً إذا عُدِمَ الماء. وفي الحديثِ الذي أخرجَهُ أهلُ السُّنن عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**الصَّعيدُ الطَّيِّبُ وضُوءُ المُسْلم - أو قال طهُور المسلم - وإنْ لم يجدِ الماءَ عَشْرَ سِنين، فإذا وجدَ الماءَ فليمسَّه بشرَتُه فإنَّ ذلك خيرٌ**»[1].

وفي صحيح البخاري من حديث عمران بن حصين الطَّويل، في قصَّةِ الرجلِ الذي اعتزلَ فلم يصلِّ مع النبيِّ ﷺ فسأله فقال: «**ما منعكَ أن تُصلِّيَ معَنا؟** قال: أصابتني جَنابَة ولا ماء، فقال: **عليك بالصَّعيدِ فإنه يكْفيك. ثم حَضَر الماء فأعطى النبيُّ ﷺ هذا الرجلَ مَاءً وقال: أفْرِغْهُ على نفْسك**» أي: اغتسل به. فدلَّ هذا على أنَّه إذا وُجِدَ الماءُ بَطُلَ التَّيمُّم، وهذه - ولله الحمد - قاعدةٌ حتى عند العامَّة، يقولون: «إذا حضر الماءُ بَطُلَ التَّيمم».

أما إذا لم يحضرِ الماءُ ولم يَزُلِ العذر، فإنه يقومُ مقامَ طهارةِ الماءِ ولا يبطلُ بخروج الوقت، فلو تيمَّمَ الإنسانُ وهو مُسافرٌ وليس عنده ماء وتيمَّمَ

---

(١) أخرجه أبوداود، كتاب الطَّهارة، باب الجنب يتيمم، رقم(٣٣٢، ٣٣٣)، والترمذي، كتاب الطهارة، باب ما جاء في التيمم للجنب إذا لم يجد الماء، رقم(١٢٤)، وقال: حسن صحيح، والإمام أحمد في المسند(٥/١٤٦، ١٤٧، ١٥٥، ١٨٠)، وصحَّحه الألباني كما في صحيح الجامع رقم(١٦٦٦).

لصلاةِ الظُّهر مثلاً، وبَقِيَ لم يُحْدِثْ إلى العشاءِ فإنه لا يَلْزَمَهُ إعادةُ التيمم؛ لأنَّ التيمُّمَ لا يبطلُ بخروجِ الوقت؛ لأنه طهارةٌ شرعية، كما قال الله في القرآن الكريم: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، فبيَّنَ الله أن طهارة التيمُّمِ طهارة. وقال الرسولُ ﷺ: «**جُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مَسْجِدًا وطَهُورًا**»[١]، بفتح الطاء، أي أنها تطهِّر: «**فأيما رَجُلٍ من أمَّتي أدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فليصلِّ**». وفي حديث آخر: «**فعِنْدَهُ مَسْجدهُ وطَهُوره**»[٢]. يعني: فليتطهَّرْ وليصلِّ.

هذا من الأشياءِ المهمَّةِ في إقامةِ الصَّلاة: المحافظةُ على الطَّهارة.

واعلمْ أنَّ من المحافظةِ على الطهارة: إزالةُ النَّجاسة من ثوبِكَ وبدنك، ومُصَلَّاكَ الذي تُصَلِّي عليه. فلابدَّ من الطهارةِ في هذه المواضع الثلاث: البدن، والثوب، والمُصَلَّى.

١ ـ أما الثوب فدليله: أن النبيَّ ﷺ أمرَ النساء اللاتي يُصَلِّينَ في ثِيابهن وهنَّ يَحِضْنَ بهذه الثِّياب أن تُزيلَ المرأةُ الدَّمَ الذي أصابها من الحيضِ من ثوبها، تحكُّه بظُفْرها ثم تقرصهُ بأصبعيها الإبهامِ والسَّبَّابة ثم تغسله[٣]، ولمّا صلَّى ذات يومٍ بأصحابهِ وعليه نعالهُ خَلَعَ نعليهِ فخلعَ النَّاسُ نعالهم،

---

(١) تقدم تخريجه ص (٣١٨).

(٢) هذه الرواية أخرجها الإمام أحمد في المسند(٥/ ٢٤٨).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الحيض، باب غسل دم المحيض، رقم(٣٠٧)، ومسلم، كتاب الطَّهارة، باب نجاسة الدَّم وكيفية غسله، رقم(٢٩١).

فلما سلَّم سألهم لماذا خلعوا نعالهم!؟ قالوا: رأيناكَ خلعت نعليك فخلعنا نعالنا، فقال: «**إن جبريلَ أتاني فأخبرَني أنَّ فيهما قَذرًا**»[(١)]، فدلَّ هذا على أنه لابدَّ من اجتناب النَّجاسةِ في الملبوس.

٢ ـ أما المكان: فدليلهُ أنَّ أعرابيًّا جاء فَبال في طائفةٍ من المسجد، أي: في طرفٍ من مسجدِ النبيِّ ﷺ لكنه أعرابيّ ـ والأعرابُ الغالبُ عليهم الجهل ـ فصاحَ به النَّاس وزجروه، ولكن الرسول ﷺ بحكمته نهاهم وقال: اتركوه. فلما قَضىٰ بَوْلَهُ دعاهُ النبيُّ ﷺ وقال له: «**إنَّ هذه المساجِدَ لا تَصلُحُ لشيءٍ من هذا البولِ ولا القذر، إنما هي لذِكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، والصَّلاةِ، وقراءةِ القرآن**»[(٢)]، فقال الأعرابي: «اللَّهُمَّ ارحمني ومحمَّدًا ولا تَرْحَمْ معنا أحدًا»؛ لأن الصحابةَ زجروه، وأما النبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ فكلَّمَهُ بلطف، فظنَّ أن الرَّحمةَ ضيِّقةٌ لا تتَّسعُ للجميع، وقال: «اللهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا».

ويُذكر أن الرسول ﷺ قال له: «**لقد حجَّرْتَ واسعًا يا أخا العرب**»[(٣)]، وأمر النبيُّ ـ عليه الصلاة والسَّلام ـ أن يُصَبَّ على البولِ ذَنُوبٌ من ماء، مثلُ الدلو، لَتَطْهُر الأرض.

---

(١) أخرجه أبوداود، كتاب الصَّلاة، باب الصلاة في النعل، رقم(٦٥٠)، والإمام أحمد في المسند (٣/ ٢٠، ٩٢).

(٢) هذه الرواية عند مسلم، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، رقم(٢٨٥).

(٣) دعاء الأعرابي وردّ النبي ﷺ أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم(٦٠١٠).

٣ - **وأما طهارةُ البدن**: فقد ثبتَ في الصَّحيحين من حديثِ عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - أن الرسول ﷺ مرَّ بقبرينِ فقال: «**إنَّهما ليُعذَّبَانِ وما يُعَذَّبانِ في كَبيرٍ، أمّا أحدُهُما فكان لا يستترُ من بوله، وفي رواية: لا يستبرىءُ من البولِ، وأمَّا الآخرُ فكان يمشي بالنَّميمة**»(١) والعياذ بالله.

فدل هذا: على أنه لابدَّ من التَّنَزُّهِ من البول. وهكذا بقيَّةُ النجاسات، ولكن لو فُرِضَ أن الإنسانَ في البرِّ وتنجَّسَ ثوبه وليس معه مَا يَغْسلهُ به، فهل يتيمَّمُ من أجلِ صلاتِهِ في هذا الثوب؟

لا يتيمَّم، وكذلك لو أصابَ بدنَهُ نجاسةُ رجلهِ أو يدهِ أو سَاقهِ أو ذراعهِ وهو في البرِّ وليس عنده ما يغسله؛ فإنَّه لا يتيمَّم؛ لأنَّ التيمُّمَ إنما هو في طهارةِ الحدثِ فقط، أمّا النجاسةُ فلا يتيمَّمُ لها، لأن النجاسةَ عينٌ قَذِرةٌ تطهيرُها بإزالتها إنْ أمكنَ فذاك، وإن لم يمكنْ تبقى حتى يمكنَ إزالتُها. والله اعلم.

أحكامُ المسحِ على الخُفَّين والجبيرة:

سبق أن الطهارة تتعلّقُ بأربعة أعضاء من البدن، وهي: الوجه، واليدان، والرأس، والرِّجْلان. فأمّا الوجهُ فيُغسل، وأمّا اليدان فتُغسلان، وأمّا الرأسُ فيُمسح، وأمّا الرِّجلان فتُغسلانِ أو تُمسحان. اثنان يُغسلان، وواحدٌ يُمسح، وواحدٌ يُغسلُ أو يُمسح!

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب من الكبائر أنه لا يستتر من بوله، رقم(٢١٦)، ومسلم، كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم(٢٩٢).

أمّا الوجهُ فلا يمكنُ أن يُمْسَحَ إلا إذا كان هناك جبيرة، أي: لزقةٌ على جرحٍ وما أشبهَ ذلك.

فلو أنَّ إنسانًا غطَّى وجهَهُ بشيءٍ من سَموم الشَمْسِ أوْ غيره فإنه لا يمسحُ عليه، بل يُزيلُ الغطاءَ ويغسلُ الوجه. إلاَّ إذا كان هناك ضرورةٌ فإنَّه يَمْسحُ ما غطَّى به وجهَهُ على سبيلِ البدل من الغَسل.

وأمَّا اليدانِ فكذلك لا تُمسحان، بل لابُدَّ من غسلهما إلا إذا كان هناك ضرورة؛ مثلُ أن يكونَ فيهما حساسيةٌ يضرُّها الماء وجعلَ عليهما لُفافة، أو لبسَ قُفَّازَيْنِ من أجلِ أن لا يأتيهما الماء، فلا بأس أن يمسحَ مسحَ جبيرةٍ للضرورة.

ـ وأمَّا الرأس فيُمسح، وطهارتُه أخفُّ من غيره، ولهذا لو كان على رأس المرأةِ حِنَّاء مُلَبَّد عليه، أو لبدَ المحرمُ رأسَهُ في حالِ إحرامه كما فعلَ النبيُّ ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ فإنه يمسحُ هذا الملبَّدَ ولا حاجةَ إلى أن يُزيله.

ـ أمَّا الرِّجْلان فتُغسلان وتُمسحان، ولهذا جاء القرآنُ الكريم على وجهين في قراءةِ قوله تعالى: «وأرْجلَكم» بالفتح والكسر. ففي قراءة ﴿وأرجلَكم﴾ وفي قراءة ﴿وأرجلِكم﴾.

أمَّا قراءة الكسر ﴿أرْجُلِكم﴾ فهي عطفًا على قوله: ﴿وامْسَحُوا برُؤُوسِكم﴾، أي: وامسحوا بأرجلكم.

وأمَّا النصبُ ﴿وَأرْجلَكم﴾ فهي عطفًا على قولهِ تعالى: ﴿اغْسِلُوا وُجُوهَكُم﴾ يعني: واغسلوا أرجلكم.

ولكن متى تُمْسَح الرِّجْل؟

تُمسحُ الرِّجلُ إذا لبس عَلَيها الإنسان جَوَاربَ أو خُفَّين.

الجوارب: ما كان من القطنِ أو الصوفِ أو نحوه.

والخُفَّان: ما كان من الجلدِ أو شبهه، فإنَّه يمسحُ عليهما، لكن بشروطٍ أربعة:

الشرطُ الأول: الطَّهارة: أي: طهارةُ الخُفَّين أو الجوربَيْن، فلو كانا من جلدٍ نجس فإنَّه لا يصحُّ المسحُ عليهما؛ لأن النَّجسَ خبيثٌ لا يتطهَّرُ مهما مسحْتَهُ وغسلته.

أما إذا كانتا متنجستين، فمن المعلومِ أن الإنسانَ لا يصلي فيهما، فلا يمسح عليهما.

الشرطُ الثاني: أنْ يَلْبَسهما على طهارةٍ بالماء:

فإن لبسهما على تيمُّمٍ فإنَّه لا يمسحُ عليهما. فلو أن شخصًا مُسَافِرًا لبس الجواربَ على طهارةِ تيمُّمٍ ثمَّ قدمَ البلدَ فإنَّه لا يمسحُ عليهما؛ لأنَّه لبسهما على طهارةِ تيمُّم، وطهارةُ التيمُّمِ إنما تتعلقُ بالوجهِ والكفَّين، ولا علاقةَ لها بالرِّجلين.

وعلى هذا يكونُ الشَّرطُ مأخوذًا من قولِ النبيِّ ﷺ للمغيرة بن شعبة: «**إنِّي أدْخَلتهمَا طَاهِرَتَيْن**»[١].

الشرطُ الثالث: أن يكونا في الحدَث الأصغر: أي: في الوضوء، أما

---

(١) تقدم تخريجه ص (١١٠).

الغُسلُ فلا تُمسحُ فيه الخُفَّان ولا الجوارب، بل لابدَّ من خلعهما وغسلِ الرجلين، فلو كان على الإنسانِ جَنَابَةٌ فإنه لا يمكنُ أنْ يمسحَ على خفيه.

الشرطُ الرَّابع: أن يكونَ في المدَّةِ المحدَّدةِ شرعًا: وهي يومٌ وليلةٌ للمقيم، وثلاثةُ أيّامٍ للمسافر، تبتدىء من أوَّلِ مرَّةٍ مَسْحٍ بعد الحَدَث، أمَّا مَا قبل المَسْحِ الأوَّلِ فلا يُحسبُ من المدَّة.

فلو فُرِضَ أنَّ شخصًا لَبِسهَا على طهارةٍ في صباحِ اليومِ الثلاثاء، وبقيَ إلى أن صَلَّى العِشاء في طهارته، ثمَّ نامَ في ليلةِ الأربعاء، ولمّا قامَ لصلاةِ الفجرِ مسح، فيوم الثلاثاء: لا يُحْسب عليه؛ لأنَّه قبل المَسْح، بل يُحسبُ عليه من فجرَ يومِ الأربعاء، لأن حديثَ عليٍّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: **«جعلَ رسولُ الله ﷺ ثلاثةَ أيَّامٍ ولياليهنَّ للمسافر، ويومًا وليلةً للمُقيم»**[١].

وقال صفوان بن عسال: «كان رسُولُ اللهِ ﷺ يأمرُنا إذا كنَّا سَفْرًا ألا نَنْزِعَ خِفافَنا ثلاثةَ أيَّامٍ ولياليهنَّ إلا مِنْ جنابةٍ، ولكنْ مِنْ غَائطٍ وَبَولٍ ونَوْمٍ»[٢]، فالعبرةُ بالمسحِ لا باللبس، ولا بالحدَثِ بعد اللبس.

فيُتمُّ المقيمُ يومًا وليلة، أي: أربعًا وعشرينَ ساعة، ويتمُّ المُسافر

---

(١) تقدم تخريجه ص (١١٣).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب الطهارة، باب المسح على الخفين للمسافر والمقيم، رقم(٩٦)، وقال: حسن صحيح، والنسائي، كتاب الطهارة، باب التوقيت في المسح على الخفين للمسافر، رقم(١٢٧)، وابن ماجه، كتاب الطهارة، باب الوضوء من النوم، رقم(٤٧٨)، وصحَّحه ابن خزيمة رقم(١٩٦).

ثلاثةَ أيّامٍ بلياليهنَّ، أي: اثنتين وسبعينَ ساعة؛ فإنْ مسحَ الإنسانُ وهو مقيمٌ وسافرَ قبلَ أن تتمَّ المدَّة، فإنَّه يتمِّمُ مَسْحَ مُسَافرٍ ثلاثةَ أيَّام.

مثلاً: لو لبسَ اليوم لصلاة الفجر ومَسَح لصلاة الظُّهر، ثم سافر بعد الظهر، فإنَّه يتمِّمُ ثلاثةَ أيّام، يمسحُ ثلاثة أيَّام، ولو كان بالعكس: مَسْحَ وهو مُسافرٌ ثمَّ أقام، فإنه يتمِّمُ مَسْحَ مُقِيم؛ لأنَّ العبرةَ بالنِّهاية لا بالبداية، العبرةُ في السفرِ أو الإقامةِ بالنهايةِ لا بالبداية.

وهذا هو الذي رجعَ إليه الإمامُ أحمد ـ رحمه الله ـ وكان بالأوَّلِ يقول: إنَّ الإنسانَ إذا مسحَ مقيمًا ثم سافرَ أتمَّ مسحَ مُقيم، ولكنه رجعَ عن هذه الرِّواية وقال: إنه يتمِّمُ مَسْحَ مُسَافر. ولا تستغربْ أن العالِمَ يرجع عن قوله؛ لأنَّ الحقَّ يجبُ أن يُتَّبع، فمتى تبيَّنَ للإنسانِ الحقُّ وجبَ عليه اتِّباعه، فالإمامُ أحمدُ ـ رحمه الله ـ أحيانًا يُروىٰ عنه في المسألة الواحدة أكثر من أربعة أقوالٍ أو خمسةٍ إلى سبعةِ أقوالٍ في مسألةٍ واحدة. وهو رجل واحد، أحيانًا يصرِّحُ بأنَّه رَجَعَ وأحيانًا لا يصرِّح، إنْ صرَّح بَأنَّه رجع عن قوله الأوَّلِ فإنَّه لا يجوزُ أن يُنسبَ إليه القولُ الأوَّلُ الذي رجعَ عنه، ولا يجوزُ أن يُنسبَ له إلا مقيَّدًا، فيُقَال: قالِ به أوَّلاً ثمَّ رجع، أما إذا لم يصرِّحْ بالرُّجوعِ فإنه يجبُ أن تُحسبَ الأقوالُ كلُّها عنه، فيُقال: له قولان، أو له ثلاثةُ أقوال، أو أربعةُ أقوال.

والإمامُ أحمد تكثرُ الرِّواية عنه، لأنَّه أثَرِيٌّ يأخذُ بالآثار، والذي يأخذُ بالآثار ليس تأتيه الآثار دُفْعَة واحدة حتى يُحيط بها مرّةً واحدةً ويَسْتَقِرَّ علىٰ قول منها، لكنَّ الآثارَ تتجدَّد، يُنقلُ له حديثٌ اليوم، ويُنقلُ له حديثٌ في

اليومِ الثَّاني، وهكذا.

واعلمْ أنَّ الإنسانَ إذا تمَّتِ المدَّةُ وهو على طهارةٍ فإنه لا تنتقضُ طهارته، لكن لو انتقضتْ فلابدَّ من خلعِ الخُفَّينِ وغسلِ القدمين، لكنَّ مجرَّدَ تمامِ المدَّةِ لا ينقضُ الوضوء.

كذلكَ أيضًا إذا خَلعهما بعد المسح وهو على طهارة، فإنها لا تنتقضُ طهارته، بل يبقى على طهارته، فإذا أرادَ أن يتوضَّأ فلابدَّ من أن يغسلَ قدميه بعد أنْ نزع.

والقاعدةُ في هذا حتى لا تشتبه: أنه متى نُزِعَ الممسوحُ فإنه لا يُعاد ليُمسح، بل لابدَّ من غسلِ الرِّجْلِ ثم إعادتهِ إذا أرادَ الوضوء.

الشَّرطُ الثَّالث: استقبالُ القِبْلة:

فاستقبالُ القبلةِ شرْطٌ من شُرُوط الصَّلاةِ لا تصحُّ الصَّلاة إلا به، لأن الله تعالى أمرَ به وكرَّر الأمرَ به. قال تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ [البقرة: ١٥٠]، أي: جهته.

وكان النبيُّ ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ أوَّلَ مَا قَدِمَ المدينةِ كان يصلي إلى بيت المقدس، فيجعلُ الكعبةَ خلفَ ظهرهِ والشام قِبَلَ وجهه، ولكنه بعد ذلك ترقَّب أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يشرع له خلافَ ذلك، فجعل يقلِّبُ وجهَهُ في السماء ينتظرُ متى ينزلُ عليه جبريلُ بالوحي في استقبال بيت الله الحرام، كما قال الله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ ﴾ [البقرة: ١٤٤]، فأمره الله ـ

عزَّ وجلَّ - أن يستقبلَ المسجدَ الحرام، أي: جهته. إلا أنه يُستثنى من ذلك ثلاثُ مسائل:

المسألةُ الأولى: إذا كان عاجزًا كمريض وَجْهُهُ إلى غيرِ القِبْلة، ولا يستطيعُ أن يَتَوجَّه إلى القبلة، فإن استقبالَ القبلةِ يسقطُ عنه في هذه الحال؛ لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقولِ النبيِّ ﷺ: «**إذا أمَرْتُكم بشيء فأتوا مِنْه مَا اسْتَطَعْتُم**»[١].

المسألةُ الثانية: إذا كان في شِدَّةِ الخوف، كإنسانٍ هَاربٍ من عدوّ، أو هاربٍ من سبع، أو هاربٍ من نار، أو هاربٍ من وادٍ يغرقه! المهمُّ أنه في شدَّةِ خوف، فهنا يُصَلِّي حيث كان وجهه. ودليلُ ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩]، فإنَّ قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ عامٌّ يشمل أيَّ خوف.

وقوله: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ على أنَّ أيَّ ذكر تركهُ الإنسانُ من أجلِ الخوفِ فلا حرجَ عليه فيه، ومن ذلك استقبالُ القبلة.

ويدلُّ عليه أيضًا: ما سبقَ من الآيتينِ الكريمتينِ والحديثِ النبويِّ في أن الوجوبَ مُعلَّق بالاستطاعة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ رقم(٧٢٨٨)، ومسلم، كتاب الحج، باب فرض الحج مرَّة في العمر، رقم(١٣٣٧).

المسألةُ الثالثة: في النَّافلةِ في السَّفر، سواء كان على طائرةٍ، أو على سيَّارة، أو على بعير، فإنَّه يُصَلِّي حيث كان وجههُ في صلاةِ النفل، مثلِ الوترِ وصلاةِ الليلِ والضُّحى وما أشبهَ ذلك.

والمسافرُ ينبغي له أن يتنفَّلَ بجميع النَّوافلِ كالمقيمِ سواءً إلا في الرواتب، كراتبة الظُّهر والمغرب والعشاء، فالسُّنة تركها، وماعدا ذلك من النوافل فإنه باقٍ على مشروعيَّته للمسافر، كما هو مشروعٌ للمقيم.

فإذا أرادَ أن يتنفَّل وهو مُسَافرٌ على طائرته، أو على سيارته، أو على بعيره، أو على حماره، فليتنفَّلْ حيث كان وجهه، لأن ذلك هو الثابتُ في الصحيحين عن رسول الله ﷺ[1].

فهذه ثلاث مسائل لا يجب فيها استقبال القبلة!

أما الجاهلُ فيجبُ عليه أن يستقبل القبلة، لكن إذا اجتهدَ وتحرَّى ثم تبيَّنَ له الخطأ بعد الاجتهاد، فإنه لا إعادةَ عليه، ولا نقولُ إنه يسقطُ عنه الاستقبال، بل يجبُ عليه الاستقبالُ ويتحرَّى بقدر استطاعته، فإذا تحرَّى بقدرِ استطاعتهِ ثم تبيَّنُ له الخطأ؛ فإنه لا يُعيدُ صلاته، ودليلُ ذلك أن الصَّحابةَ الذين لم يعلموا بتحويلِ القبلةِ إلى الكعبة، كانوا يُصَلُّون ذات يومٍ صلاةَ الفجرِ في مسجدِ قباء، فجاءهم رجلٌ فقال: إن النبيَّ ﷺ أُنزلَ عليه قرآنٌ وأُمِرَ أن يستقبلَ الكعبة فاستقبلوها؛ فاستداروا، بعد أن كانت الكعبةُ

---

(١) انظر صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، رقم(٤٠٠)، وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافر، باب جواز صلاة النافلة على الدابَّة في السفر حيث توجهت، رقم(٧٠٠، ٧٠١).

وراءهم جعلوها أمامهم، فاستداروا وبقوا في صَلاَتهم وهذا في عهد النبيِّ ﷺ ولم يكنْ إنكارٌ له، فيكون ذلك مشروعًا، فإذا أخطأ الإنسانُ في القبلةِ جَاهِلاً فإنَّه ليس عليه إعادة، ولكنْ إذا تبيَّنَ له ولو في أثناء الصَّلاةِ وجبَ عليه أن يستقيمَ إلى القبلة، فلو فُرِضَ أن إنسانًا شرعَ يصلي إلى غيرِ القبلة يظنُّ أنها القبلة، فجاءهُ إنسانٌ وقال له: القبلةُ عن يمينك أو يسارك، وجبَ عليه أن يستديرَ على اليمينِ أو على اليسارِ دون أن يستأنفَ الصلاة؛ لأنه في الأوَّلِ كان عن اجتهادٍ وعن وجه شرعيٍّ فلا يبطل. فاستقبالُ القبلةِ شرطٌ من شروطِ الصلاةِ لا تصِحُّ الصَّلاةُ إلاَّ به، إلا في المواضعِ الثَّلاثة التي ذكرناها، وإلا إذا أخطأ الإنسانُ بعد الاجتهادِ والتَحَرِّي.

وهنا مسألة: يجبُ على من نزلَ على شخصٍ ضيفًا وأرادَ أن يَتَنَفَّل أن يسألَ صاحبَ البيتِ عن القبلة، فإذا أخبره اتَّجه إليها؛ لأنَّ بعضَ الناسِ تأخذه العزَّةُ بالإثم، ويمنعهُ الحياء ـ وهو حياءٌ في غير محلِّه ـ عن السُّؤالِ عن القبلة.

فبعض الناسِ يستحي من السؤالِ حتى لا يقولَ الناسُ لا يعرف! لا يَضُرُّ، فليقولوا ما يقولونه، بل اسألْ عن القبلةِ حتى يخبركَ صاحبُ البيت. وأحيانًا بعضُ الناس تأخذُه العِزَّة بالإثم أو الحياء، ويتَّجهُ بناءً على ظنّه إلى جهةٍ ما يتبيَّن له أنها ليستِ القبلة، وفي هذه الحال يجب عليه أن يعيد الصلاة؛ لأنه استند إلى غير مستندٍ شرعيّ.

والمستندُ إلى غير مستندٍ شَرْعيٍّ لا تُقبلُ عبادته؛ لقول النبيِّ ﷺ: «مَنْ

عَمِلَ عَملاً ليْسَ عليه أمْرُنا فَهُو رَد»[١].

الشرطُ الرابع: النيَّة:

فإنَّ الصَّلاةَ لا تَصِحُ إلاَّ بنيّة؛ لقولِ النبيّ ﷺ: «إنَّما الأعمالُ بالنيَّات، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى» الحديث[٢].

وقد دلَّتِ الآياتُ الكريمةُ على اعتبارِ النِّيَّةِ في العبادات، مثلُ قولهِ تعالى في وصفِ النبيِّ ﷺ وأصحابه: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، والآياتُ في هذا كثيرة، وقال: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، فالنِّيَّةُ شَرْطٌ من شُروطِ صحَّةِ الصَّلاة، لا تصحُّ الصلاةُ إلا بها، وهي ـ في الحقيقةِ ـ ليستْ بالأمرِ الصَّعب، كلُّ إنسانٍ عاقلٍ مختارٍ يفعلُ فعلاً فإنه قد نواه. فلا تحتاجُ إلى تعبٍ ولا على نُطْقٍ محلُّها القلب: «إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّات»؛ ولأنَّ النبيَّ ﷺ لم ينطقْ بالنِّية، ولا أمَرَ أُمَّته بالنُّطقِ بها، ولا فعلها أحدٌ من أصحابهِ فأقرَّهُ على ذلك، فالنطقُ بالنِّيةِ بدعة، هذا هو القولُ الراجح، لأنَّك كأنما تشاهدُ الرَّسول ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ وأصحابَهُ يصلونَ ليس فيهم أحدٌ نطقَ قال: اللهم إني نويتُ أن أصلي.

وما أظرفَ قصَّةً ذكرها لي بعضُ الناس ـ عليه رحمة الله ـ قال لي: إنَّ

---

(١) تقدم تخريجه ص (١٩).

(٢) تقدم تخريجه ص (١٦).

شخصًا في المسجد الحرام - قديمًا - أراد أن يصلي، فأقيمتِ الصَّلاةُ فقال: اللهم إنِّي نويتُ أن أصلي الظهر أربع ركعاتٍ لله تعالى خلف إمامِ المسجدِ الحرام.

لمّا أرادَ أن يكبِّر قال له الرجلُ إلى جواره: اصبرْ بقيَ عليك! قال: ما الباقي؟ قال له: قلْ في اليومِ الفُلاني وفي التَّاريخِ الفلاني من الشَّهر والسَّنة حتى لا تضيع، هذه وثيقة. فتعجَّبَ الرَّجل! والحقيقةُ أنه محلُّ التَّعجُّب، هل أنت تُعْلِمُ الله - عزَّ وجلَّ - بما تريد؟ الله يعلمُ ما تُوسْوسُ به نفسك.

هل تُعْلِمُ الله بعددِ الركعاتِ والأوقات؟ لا داعيَ له، الله يعلمُ هذا. فالنيَّةُ محلُّها القلب.

ولكنْ كما نعلمُ أنَّ الصَّلواتِ تنقسمُ إلى أقسام: نفلٍ مطلق، ونفلٍ معيَّن، وفريضة.

الفرائضُ خمس: الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء.

إذا جئتَ إلى المسجدِ في وقتِ الفجر، فماذا تريدُ أن تصلي؟ أتريدُ أن تصليَ المغرب؟! لا، بل الفجر. جئتَ وكبَّرتَ وأنت ناوٍ الصلاة، لكن غابَ عن ذهنكَ أنها الفجر.

وهناك مسألة: إذا جئتَ وكَبَّرت، وغابَ عن ذهنك أيُّ صلاةٍ هي، وهذا يقعُ كثيرًا، لاسيَّما إذا جاءَ بسرعةٍ يخشى أن تفوتَهُ الرَّكعة، فمثلاً جئت وحضرتَ وكبَّرتَ لكنَّكَ لم تستحضرْ أنك تريدُ الفجر. فهنا لا حاجةَ، ووقوعُ هذه الصَّلاةِ في وقتها دليلٌ على أنَّه إنَّما أردتَ هذه الصَّلاة. ولهذا لو سألكَ أيُّ واحدٍ: هل أردتَ الظُّهرَ أو العصرَ أو المغربَ أو

العشاء؟ لقلت: أبدًا، ما أردتُ إلا الفجر.

إذًا لا حاجةَ إلى أن أنويَ أنَّها الفجر، صَحيحٌ أنني إن نويتها الفجرَ أكمل، لكنْ أحيانًا يغيبُ عن الذهن التعيين، فنقول: يعيِّنها الوقت.

إذًا الفرائضُ يكونُ تعيينها على وجهين:

الوجهُ الأول: أن يعيِّنها بعينها بقلبه أنَّه نَوَىٰ الظهر مثلاً، وهذا واضح.

الوجهُ الثَّاني: الوقت، فما دمتَ تصلي الصَّلاةَ في هذا الوقت فهي هي الصَّلاة.

هذا الوجهُ الثَّاني إنما يكونُ في الصلاةِ المؤدّاةِ في وقتها، أمَّا لو فُرِضَ أن علىٰ إنسانٍ صلواتٍ مقضيَّةً، كما لو نام يومًا كاملاً عن الظُّهرِ والعصرِ والمغرب، فهنا إذا أرادَ أن يقضيَ لابدَّ أن يعيِّنها بعينها، لأنه لا وقت لها.

* النوافلُ المعيَّنة، مثلُ الوترِ وركعتي الضُّحىٰ والرَّواتب للصلواتِ الخمس، فهذه لابد أن تعيِّنها بالاسم، لكن بالقلبِ لا باللِّسان، فإذا أردتَ أن تُصَلِّيَ الوترَ مثلاً وكبَّرتَ ولكن ما نويتَ الوتر، وفي أثناءِ الصَّلاةِ نويتها الوتر، فهذا لا يصحُّ؛ لأن الوترَ نفلٌ معيَّن، والنَّوافلُ المعيَّنةُ لابدَّ أن تُعَيَّن بِعَيْنِها.

أما النَّوافلُ المطلقةُ فلا تحتاجُ إلى نيَّةٍ إلا نيَّةَ الصَّلاة؛ فإنه لابدَّ منها، مثلُ إنسانٍ في الضُّحى توضأ وأرادَ أن يصليَ ما شاء الله، نقول: تكفي نيَّةُ الصَّلاة. وذلك لأنها صلاةٌ غيرُ مُعَيَّنة.

* إذا أرادَ الإنسانُ أن ينتقلَ في أثناءِ الصلاةِ من نيَّةٍ إلى نيَّة، هل هذا

ممكن؟

نظر، الانتقال من مُعَيَّن إلى معيَّن، أو من مطلقٍ إلى معيَّنٍ لا يصحُّ.

مثال المطلق: إنسانٌ قامَ يصلِّي صلاةً نافلةً مطلقة، وفي أثناء الصَّلاةِ ذكرَ أنه لم يصلِّ راتبةَ الفجر، فنواها لراتبةِ الفجر.

نقول: لا تصحُّ لراتبةِ الفجر؛ لأنه انتقالٌ من مطلقٍ إلى معيَّن، والمعيَّنُ لابدَّ أن تنويَهُ من أوَّله، فراتبةُ الفجرِ من التَّكبيرِ إلى التَّسليم.

ومثالُ معيَّنٍ إلى معيَّن: رجل قامَ يُصَلِّي العصر، وفي أثناء صلاتهِ ذكر أنَّه لم يصلِّ الظهر، أو أنَّه صلاَّها بغيرِ وضوء، فقال: الآن نويتُها للظُّهر، فهل تصحُّ للظهر أم لا؟ هنا لا تصحُّ للظُّهر؛ لأنَّه من معيَّنٍ إلى معيَّن، ولا تصحُّ أيضًا صلاةُ العصر التي ابتدأ؛ لأنَّه قطعها بانتقالهِ إلى الظهر. إذًا لا تصحُّ ظهرًا ولا عصرًا، فهي لا تصحُّ عصرًا لأنه قطعها، ولا ظهرًا لأنه لم يبتدئها ظهرًا، وصلاةُ الظهرِ من تكبيرةِ الإحرامِ إلى السلام.

أما الانتقالُ من معيَّنٍ إلى مطلقٍ فإنَّه يصحُّ ولا بأس، مثلُ إنسانٍ شرعَ في صلاة الفَريضة، ثمَّ لمّا شرعَ ذكرَ أنه على مِيعادٍ لا يمكنهُ أن يتأخَّرَ فيه، فنواها نفلاً، فإنَّها تصحُّ إذا كان الوقت مُتَّسعًا ولم يفوِّت الجماعة.

هذان شرطان: الشَّرطُ الأول: إذا كان الوقتُ مُتَّسعًا، والثاني: إذا لم يفوِّت الجماعة. فمثلاً إذا كان في صلاةِ جماعةٍ فلا يمكنُ أن يُحَوِّلها إلى نفلٍ مطلق؛ لأنَّ هذا يَستلزمُ أن يَدَعَ صلاةَ الجماعة.

إذا كان الوقتُ ضيِّقًا فلا يصحُّ أن يحوِّلها إلى نفلٍ مطلق؛ لأن صلاة

الفريضة إذا ضاق وقتها لا يتحمَّلُ الوقتُ سواها، لكنَّ الوقتَ في سعةٍ والجماعةُ قد فاتته، نقول: لا بأس أن تحوِّلها إلى نفلٍ مطلقٍ وتسلِّمَ من ركعتين وتذهبَ إلى وعدك، ثمَّ بعد ذلك تعودُ إلى فريضتك، فصار الانتقالُ ثلاثًا:

١ ـ **من مطلقٍ إلى معيَّن**: لا يصحُّ المعيَّنُ ويبقى المطلقُ صحيحًا.

٢ ـ **من مُعَيَّن إلى مُعيَّن**: يبطلُ الأول ولا ينعقدُ الثاني.

٣ ـ **من مُعَيَّن إلى مُطلق**: يصحُّ ويبقى المعيَّن عليه.

نيَّةُ الإمامةِ والائتمام:

الجماعةُ تحتاجُ إلى إمَامٍ ومأمُوم، وأقلُّها اثنان: إمام ومأموم. وكلما كان أكثرَ فهو أحبُّ إلى الله، ولابدَّ من نيَّةِ المأموم والائتمام، وهذا شيءٌ متَّفقٌ عليه، يعني إذا دخلتَ في جماعةٍ فلابدَّ أن تَنْويَ الائتمامَ بإمامك الذي دخلتَ معه.

ولكنْ ـ كما قلنا ـ النِّيَّةُ لا تحتاجُ إلى كبيرِ عمل، لأنَّ مَنْ أتى إلى المسجدَ فإنه قد نوى أن يأتمَّ، ومَنْ قال لشخص: صلِّ بي، فإنه قد نوى أن يأتمَّ.

أما الإمام فقد اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ هل يجب أن ينْوي أن يكونَ إمَامًا أوْ لا يجب؟!

فقال بعضُ أهلِ العلم: لابدَّ أن يَنْويَ أنَّه الإمام، وعلى هذا فلو جاء رجلان ووجَدَا رجُلاً يُصَلِّي ونويا أن يكون الرجلُ إمامًا لهما، فصفَّا خلفَهُ وهو لا يدري بهما، لكن هما نويا أنه إمامٌ لهما وصارا يتابعانه، فمن قال

إنَّه لابدَّ للإمام أن يَنْويَ الإمامة قال: إن صلاةَ الرَّجلينِ لا تصحّ، وذلك لأنَّ الإمامَ لم يَنْوِ الإمامة.

ومن قال إنَّه لا يشترطُ أن ينويَ الإمامُ الإمامة قال: إن صلاةَ هذين الرجلينِ صحيحة، لأنهما ائتمّا به.

فالأوّل: هو المشهورُ من مذهبِ الإمامِ أحمدَ رحمه الله.

والثاني: هو مذهبُ الإمام مالك رحمه الله، واستدلَّ بأنَّ النبيَّ ﷺ صلىٰ ذات ليلةٍ في رمضانَ وحده، فدخلَ أُناسٌ المسجدَ فصلُّوا خلفه، والنبيُّ ﷺ كان أوّل ما دَخل الصَّلاة لم يَنْوِ أن يكونَ إمامًا. واستدلُّوا كذلك بأنَّ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بات عند النبيِّ ﷺ ذاتَ ليلة، فلما قامَ النبيُّ ﷺ يُصَلِّي من اللَّيل قامَ يُصَلِّي وحده، فقامَ ابنُ عباسٍ فتوضَّأ ودخلَ معه في الصَّلاة[١].

ولكنْ لا شكَّ أن هذا الثَّاني ليس فيه دلالة؛ لأن النبيَّ ﷺ نَوَى الإمامة، لكن نواها في أثناءِ الصَّلاة، ولا بأس بأن ينويَها في أثناءِ الصلاة.

وعلى كلِّ حالٍ الاحتياطُ في هذه المسألةِ أن نقول: إنَّه إذا جاء رجلان إلى شخصٍ يُصَلِّي فلينبِّهَاه على أنَّه إمامٌ لهما، فإنْ سكتَ فقد أقرَّهما، وإن رفضَ وأشارَ بيده أن لا تصلِّيا خلفي فلا يصلِّيا خلفه. هذا هو الأحوطُ والأولى.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه من الليل رقم(٦٣١٦)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم(٧٦٣).

ثانيًا: هل يُشترطُ أن تَتَسَاوَىٰ صلاةُ الإمامِ مع صلاةِ المأمومِ في جنسِ المَشْرُوعيَّة؟

بمعنى: هل يَصِحُّ أن يُصَلي الفريضة خلف من يصلي النافلة، أو أن يُصلِّي النافلةَ خلفَ من يصلي الفريضة؟ نظرُ في هذا:

أمّا الإنسانُ الذي يُصَلِّي نافلةً خلف من يُصلِّي فريضةً فلا بأس بهذا؛ لأن السُّنةَ قد دلَّتْ على ذلك، فإن الرسول ﷺ انفتلَ من صلاةِ الفجرِ ذاتَ يومٍ في مسجدِ الخيف بِمِنَى، فوجدَ رَجُلين لم يُصلِّيا، فقال: **ما منعكما أن تصليا في القوم؟** قالا: يا رسول الله صلينا في رِحالنا ـ يحتملُ أنَّهما صَلَّيا في رِحَالِهما لظنِّهما أنَّهما لا يدركانِ صلاةَ الجماعة، أو لغيرِ ذلك من الأسباب ـ فقال: «**إذا صلَّيتما في رحالكُما ثم أتيتما مسجدَ جَمَاعةٍ فَصَلِّيا معهم، فإنها لكما نافلة**»[١].

«فإنَّها» أي: الثانية، لأن الأولىٰ حصلتْ بها الفريضةُ وانتهتْ وبَرِئَتِ الذِّمَّة.

إذًا إذا كان المأمومُ هو الذي يُصَلِّي النافلةَ والإمامُ هو الذي يُصَلِّي الفريضةَ فلا بأس بذلك، كما دلَّت عليه هذه السُّنة.

---

(١) أخرجه أبوداود، كتاب الصلاة، باب فيمن صلَّى في منزله ثم أدرك الجماعة يصلِّي معهم، رقم(٥٧٥)، والترمذي، كتاب الصلاة، باب ما جاء في الرجل يصلِّي وحده ثم يدرك الجماعة، رقم(٢١٩)، وقال: حسن صحيح، والنسائي، كتاب الإمامة، باب إعادة الفجر مع الجماعة لمن صلى وحده، رقم(٨٥٨)، والإمام أحمد في المسند (٤/ ١٦٠، ١٦١).

أمَّا العكس: إذا كان الإمامُ يصلي النَّافلةَ والمأمومُ يُصَلِّي الفريضة، وأقْرَبُ مثال لذلك في أيَّام رمضانَ، إذا دخلَ الإنسانُ وقد فاتتهُ صلاةُ العشاء ووجدَ النَّاس يُصَلُّونَ صلاةَ التراويح، فهل يدخلُ معهم بنيَّةِ العشاء أو يصلي الفريضةَ وحده ثم يصلي التراويح؟

هذا محلُّ خلافٍ بين العلماء، فمنهم من قال: لا يَصِحُّ أن يصليَ الفريضةَ خلف النافلة، لأنَّ الفريضةَ أعلى، ولا يمكنُ أن تكونَ صلاةُ المأمومِ أعلىٰ من صلاةِ الإمام.

ومنهم من قال: بل يَصِحُّ أن يصليَ الفريضةَ خلفَ النَّافلة؛ لأن السُّنَّة وردتْ بذلك، وهي أن معاذَ بنَ جبلٍ - رضي الله عنه - كان يصلي مع النبيِّ ﷺ صلاةَ العشاء، ثم يذهبُ إلى قومهِ فيُصَلِّي بهم تلك الصلاة.

فهي له نافلةٌ ولهم فريضة، ولم يُنكرْ عليه النبيُّ ﷺ.

فإنْ قال قائل: لعل النبيَّ ﷺ لم يعلم؟

فالجوابُ عن ذلك أن نقول: إن كان قد علم فقد تمَّ الاستدلال؛ لأن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قد شُكِيَ إلى الرَّسول - عليه الصلاةُ والسلام - في كونه يُطوِّلُ صلاةَ العشاء، فالظَّاهرُ - والله أعلم - أنَّ النبيَّ ﷺ أُخبرَ بكلِّ القضيَّةِ وبكلِّ القصَّة.

وإذا قُدِّرَ أن رسولَ الله ﷺ لم يَعْلمْ أنَّ معاذًا معه، ثمَّ يذهبُ إلى قومهِ ويصلي بهم، فإن ربَّ الرسولِ ﷺ قد علم، وهو الله جلَّ وعلا، لا يخفى عليه شيءٌ في الأرضِ ولا في السماء، وإذا كان الله قد علمَ ولم يُنزلْ على نبيِّهِ إنكارًا لهذا العملِ دلَّ ذلك على جوازه؛ لأن الله تعالى لا يقرُّ عبادَهُ على

شيءٍ غيرِ مَشْروعٍ لهم إطلاقًا. فتمَّ الاستدلالُ حينئذٍ على كلٍّ تقدير.

إذًا فالصَّحيحُ أنه يجوزُ أن يصليَ الإنسانُ صلاةَ الفريضةِ خلف مَنْ يصلي صلاةَ النَّافلة، والقياسُ الذي ذُكِرَ استدلالاً على المنع قياسٌ في مُقابلةِ النَّص فيكونُ مطروحًا فاسدًا لا يُعتبر. إذن إذا أتيتَ في أيّامِ رمضانَ والنَّاسُ يصلون صلاةَ التَّراويحِ ولم تصلِّ العِشاءَ فادخلْ معهم بنيَّةِ صلاةِ العشاء، ثمَّ إنْ كنتَ قد دخلتَ في أوَّل ركعة، فإذا سلَّمَ الإمامُ فصلِّ ركعتينِ لتتمَّ الأرْبع، وإنْ كنتَ دخلتَ في الثانيةِ فصلِّ إذا سلَّم الإمام ثلاثَ ركعات؛ لأنك صلَّيْتَ مع الإمامِ ركعة، وبقيَ عليك ثلاثُ ركعات.

وهذا منصُوصُ الإمام أحمدَ ـ رحمه الله تعالى ـ مع أن مذهبَهُ خلافُ ذلك، لكن مَنْصُوصهُ الذي نَصَّ عليه هو شخصيًّا أن هذا جائز.

إذن تَلَخَّصَ الآن:

من صلَّىٰ فريضةً خلف من يصلي فريضة فجائز.

من صلَّىٰ فريصةً خلف من يصلي نافلة فيها خلاف.

من صلَّىٰ نافلةً خلف من يصلي فريضةً جائزٌ قولاً واحدًا.

المسألةُ الثالثة: في جنسِ الصلاة، هل يُشترطُ أن تتَّفقَ صلاةُ الإمامِ والمأمومِ في نوعِ الصلاة؟ أي: ظُهرٌ مع ظهر، وعَصْرٌ مع عَصْر، وهكذا، أم لا؟

جـ: في هذا أيضًا خلاف، فمن العلماء من قال: يجبُ أن تتَّفقَ الصَّلاتان، فَيُصلِّي الظُّهرَ خلف من يُصَلِّي الظهر، ويُصَلِّي العصرَ خلف من يُصَلِّي العصر، ويصلي المغربَ خلف من يُصلِّي المغرب، ويصلي العشاءَ

خلف من يصلي العشاء، ويصلي الفجرَ خلف من يُصَلِّي الفجر، وهكذا؛ لأن النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّما جُعِلَ الإمَامُ لِيُؤتَمَّ به فلا تختلفوا عليه**»[١].

ومن العلماءِ من قال: لا يُشْتَرط، فيجوزُ أن تُصَلِّي العَصْرَ خلف من يُصلِّي الظُّهر، أو الظُّهرَ خلف من يصلي العصر، أو العصرَ خلف من يُصَلِّي العشاء؛ لأن الائتمامَ في هذه الحالِ لا يتأثَّر، وإذا جاز أن يصليَ الفريضةَ خلف النَّافلةِ مع اختلافِ الحكم، فكذلك اختلافُ الاسم لا يضرُّ، وهذا القول أصحُّ. فإذا قال قائل: حضرتُ لصلاةِ العشاءِ بعد أن أُذِّن، ولما أُقيمتِ الصلاةُ تذكَّرتُ أنني صَلَّيتُ الظُّهرَ بغير وضوء، فكيف أصلي الظهرَ خلف من يصلي العشاء؟

نقولُ له: ادخلْ مع الإمامِ وصلِّ الظُّهر، أنت نيَّتكَ الظُّهرُ والإمامُ نيَّتُهُ العِشاءُ ولا يضرّ، «**إنما الأعمالُ بالنِّيَّات وإنَّما لِكلِّ امْرئ ما نَوَىٰ**» وأمّا قولُ النبيِّ ﷺ: «**إنَّما جُعِلَ الإمام لِيُؤتَمَّ به فَلاَ تَخْتَلِفُوا عليه**»، فليس معناه فلا تختلفوا عليه في النِّية، لأنه فَصَّلَ وبيَّنَ فقال: «**فإذا كبَّرَ فَكَبِّروا، وإذا سجدَ فاسْجُدوا، وإذا رَفَعَ فارْفَعوا**»[٢] أي: تابعوهُ ولا تسبقوهُ، وكلامُ الرسولِ ﷺ يفسِّرُ بعضهُ بعضًا.

وهذا البحثُ يفرَّعُ عليه بَحْثٌ آخر: إذا اتَّفقتِ الصَّلاتانِ في العَدَد والهيئة فلا إشكال في هذا، مثلُ ظُهرٍ خلف عصر. العَدَدُ واحدٌ والهيئةُ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب إنما جعل الإمام ليؤتم به، رقم(٦٨٩)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب ائتمام المأموم بالإمام، رقم(٤١١).
(٢) جزء من الحديث السابق.

واحدة، هذا لا إشكالَ فيه.

لكن إذا اختلفتِ الصَّلاتانِ، بأن كانت صلاةُ المأمومِ ركعتين والإمامِ أربعًا، أو بالعكس، أو المأمومِ ثلاثًا والإمامِ أربعًا، أو بالعكس.

فنقول: إن كانتْ صلاةُ المأمومِ أكثرَ فلا إشكال، مثلُ رجلٍ دخلَ المسجدَ يُصلِّي المغرب، ولمّا أقيمت الصَّلاة ذكر أنَّه صلَّى العصرَ بلا وضوء، فهنا صارَ عليه صلاةُ العصر.

نقول: ادْخُلْ مع الإمامِ بنيَّةِ صلاةِ العصر، وإذا سلَّم الإمامُ فإنك تأتي بواحدةٍ لتتمَّ لك الأربع. وهذا لا إشكالَ فيه.

أمّا إذا كانتْ صلاةُ الإمامِ أكثرَ من صلاةِ المَأمُومِ فهذا نقول: إنْ دخلَ المأمومُ في الرَّكعةِ الثانية فما بعدها فلا إشكال، وإن دخل في الركعةِ الأولى فحينئذٍ يأتي الإشْكَال، ولْنُمثّل: إذا جئتَ والإمامُ يُصَلِّي العشاء، وهذا يقع كثيرًا في أيّام الجمع. يأتي الإنسانُ من البيتِ والمسجدُ جامعٌ للمطرِ وما أشبهَ ذلك، فإذا جاء وجدهم يُصَلُّون العشاء، لكن وجدهم يصلون في الركعتينِ الأخيرتين، نقول: ادخلْ معهم بنيَّةِ المغرب، صلِّ الركعتين، وإذا سلَّمَ الإمامُ تأتي بركعةٍ ولا إشكال.

وإذا جئتَ ووجدتهم يُصَلُّون العشاءَ الآخرةَ لكنهم في الرَّكعةِ الثانية، نقول: ادخل معهم بنيَّةِ المغربِ وسلِّمْ مع الإمامِ ولا يَضُرُّ، لأنَّك ما زِدت ولا نقصت، هذا أيضًا لا إشكال فيه، وعند بعض الناس فيه إشكال:

يقول: إذا دخلتَ معه في الركعةِ الثانية ثمَّ جلستَ في الركعةِ التي هي للإمامِ الثانية، وهي لك الأولى، فتكونُ جلستَ في الأولى للتَّشهُد.

نقول: هذا لا يضرُّ، ألَسْتَ إذا دَخَلْتَ مع الإمامِ في صلاةِ الظهرِ في الركعةِ الثانيةِ فالإمامُ سَوف يَجْلِس للتَّشهُّدِ وهي لك الأولىٰ؟ هذا نفسه ولا إشكال، وإنَّما الإشكالُ إذا جئتَ إلى المسجدِ ووجدتهم يُصَلُّونَ العِشاء وهم في الركعةِ الأولى ودَخَلْتَ معهم في الركعة الأولى، حينئذٍ ستصلِّي ثلاثًا مع الإمامِ والإمامُ سيقومُ للرَّابعة، فماذا تصنع؟

إنْ قمتَ معه زدتَ ركعةً، صليتَ أربعًا والمغربُ ثلاثٌ لا أربع، وإنْ جلستَ تخلَّفْتَ عن الإمامِ، فماذا تصنع؟

نقول: اجلس، وإذا كنتَ تريد أن تجمعَ فانوِ مفارقةَ الإمامَ واقرأ التَّحيات وسلِّم، ثم ادخلْ مع الإمام فيما بقيَ من صلاةِ العشاء، لأنَّك يمكنُ أن تدركه.

أما إذا كنت لا تَنوي الجَمْع، أو مِمَّن لا يَحِقُّ لهُ الجمعُ، فإنَّك في هذه الحالِ مخيَّر، إن شئتَ فاجلسْ للتَّشهُّدِ وانتظرِ الإمامَ حتى يُكملَ الرَّكعةَ ويتشهَّدَ وتُسَلِّم مَعَهُ، وإن شئت فانْوِ الانفرادَ وتشهَّدْ وسلِّم.

هذا الذي ذكرناه هو القولُ الرَّاجح، وهو اختيارُ شيخِ الإسلامِ ابن تيمية -رحمه الله-.

ونيَّةُ الانفرادِ هنا للضَّرورة، لأنَّ الإنسانَ لا يمكنُ أن يزيدَ في المغربِ على ثلاث، فالجلوسُ لضرورةٍ شرعيَّة، ولا بأسَ بهذا.

وممَّا يدخل في قوله: «**وتُقِيمَ الصَّلاة**» أركانُ الصَّلاة، والأركانُ هي الأعمالُ القوليَّةُ أو الفعليَّةُ التي لا تصحُّ الصلاةُ إلا بها، ولا تقومُ إلا بها.

فمن ذلك: تكبيرةُ الإحرام: أن يقولَ الإنسانُ عند الدُّخولِ في

الصَّلاة: «الله أكبر» لا يمكنُ أن تنعقدَ الصَّلاةُ إلاَّ بذلك، فلو نَسيَ الإنسانُ تكبيرةَ الإحرام، جاءَ ووقفَ في الصفِّ ثمَّ نسي وشرع في القراءة وصلى فصلاته غير صحيحةٍ وغير منعقدةٍ إطلاقًا؛ لأن تكبيرة الإحرام لا تنعقد الصَّلاة إلا بها، قال النبيُّ ﷺ لرجلٍ علَّمَهُ كيف يصلي، قال: «**إذَا قُمْتَ إلى الصَّلاةِ فأسبغِ الوضُوء، ثم استَقْبِلِ القِبْلَة فكبِّرْ**»[1] فلابدَّ من التَّكبير، وكان النبيُّ ﷺ مداومًا على ذلك.

ومن ذلك أيضاً: قراءةُ الفاتحة: فإنَّ قراءةَ الفَاتحةِ ركنٌ لا تصحُّ الصلاةُ إلا به؛ لقولهِ تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وهذا أمر. وقد بيَّن النبي ﷺ هذا المُبْهمَ في قوله: ﴿ما تيسَّر﴾ وأن هذا هو الفاتحة، فقال ﷺ: «**لا صلاةَ لِمَنْ لم يقرأْ بفاتحةِ الكِتاب**»[2].

وقال: «**مَنْ صَلَّى صَلاَةً لم يقرأْ فيها بأُمِّ القُرْآنِ فَهي خِدَاج**»[3] أي: فاسدةٌ غيرُ صحيحة.

فقراءةُ الفاتحة رُكْنٌ على كلِّ مُصَلٍّ: الإمامِ، والمأمومِ، والمنفردِ؛ لأن النُّصوصَ الواردةَ في ذلك عامَّةٌ لم تَستثنِ شيئًا، وإذا لم يستثنِ الله تعالى ورسولهُ شيئًا فإن الواجبَ الحكمُ بالعموم؛ لأنَّه لو كان هناك مُستثنى

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب من ردَّ فقال: عليك السلام، رقم(٦٢٥١)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم(٣٩٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم(٧٥٦)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم(٣٩٤).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم(٣٩٥).

لَبيَّنَهُ الله ورسوله، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

ولم يَرِد عن النبيِّ ﷺ حديثٌ صحيحٌ صريحٌ في سقوطِ الفاتحةِ عن المأموم، لا في السِّريَّة والجَهْريَّة، لكنَّ الفرقَ بين السريَّة والجهريَّة، أنَّ الجهريَّةَ لا تقرأ فيها إلا الفاتحةَ، وتسكتُ وتسْمعُ لِقَراءةِ إمامك.

أمَّا السِّريَّةُ فتقرأ الفاتحةَ وغيرَها حتى يركع الإمام، لكن دلَّت السُّنة على أنَّه يُستثنىٰ من ذلك ما إذا جاء الإنسانُ والإمامُ رَاكعٌ، فإنَّه إذا جاء والإمام راكع تسقط عنه قراءة الفاتحة، ودليلُ ذلك ما أخرجه البخاريُّ عن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ أنه دخل والنبيُّ ﷺ راكعٌ في المسجد، فأسْرَعَ وَرَكَع قبل أن يَدْخُل في الصَّفِّ، ثمَّ دَخَل في الصَّفِّ، فلمَّا سلَّم النبيُّ ﷺ قال: «**أيُّكمُ الذي ركعَ دون الصفِّ ثم مشى إلى الصف؟!**» قال أبُو بكرة: أنا يا رسولَ الله! قال: «**زادَكَ الله حِرْصًا ولا تَعُد**»[1]؛ لأنَّ النبي ﷺ علمَ أن الذي دفعَ أبابكرةَ لِسُرْعَتِهِ والركوعِ قبل بأن يَصِلَ إلى الصَّفِّ هو الحِرصُ على إدراكِ الركعة، فقال له: «**زادكَ الله حِرْصًا ولا تَعُدْ**» أي: لا تَعُدْ لمثلِ هذا العملِ فتركعَ قبل الدُّخولِ في الصَّفِّ وتُسرع، قال النبيُّ ﷺ: «**إذا أتيتُمُ الصَّلاةَ فعليكُمْ بالسَّكينة، فما أدركتُمْ فصلُّوا، وما فاتكم فأتِمُّوا**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب إذا رَكَعَ دون الصف رقم(٧٨٣)، وأبوداود، كتاب الصلاة، باب الرجل يركع دون الصف، رقم(٦٨٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب قول الرجل فاتتنا الصلاة، رقم(٩٠٨)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، رقم(٦٠٣).

ولم يأمرْهُ النبيُّ ﷺ بقضاءِ الركعةِ التي أسْرعَ لإدراكها، ولو كان لم يدركها لأمرَهُ النبيُّ ﷺ بقضائها؛ لأن النبيَّ ﷺ لا يمكنُ أن يُؤخِّرَ البيَان عن وقتِ الحاجة؛ لأنه مُبلِّغ، والمُبَلِّغُ يُبَلِّغُ متى احْتِيجَ إلى التَّبليغ، فإذا كان الرسولُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يقلْ له إنك لم تدركِ الركعةَ عُلِمَ أنَّه قد أدركها، وفي هذه الحالِ تسقطُ عنه الفاتحة. وهناك تعليلٌ أيضًا مع الدَّليل، وهو أن الفاتحةَ إنما تجبُ مع القيام، والقيامُ في هذه الحالِ قد سقطَ من أجلِ مُتَابَعةِ الإمام، فإذا سَقَطَ القيام سَقَطَ الذكر الوَاجِب فيه.

فصارَ الدَّليلُ والتَّعليلُ يدلاَّن على أنَّ من جَاء والإمامُ رَاكعٌ فإنَّه يكبِّرُ تكبيرة الإحرام وهو قائم ولا يقرأ، بل يَرْكَع، لكنْ إنْ كبَّرَ للركوعِ مرَّة ثانية فهو أفضل، وإن لم يكبِّرْ فلا حرج، وتكفيهِ التَّكبيرةُ الأولى.

ويجبُ أن يقرأ الإنسانُ الفاتحةَ وهو قائم، وأمَّا ما يفعله بعض النَّاس إذا قام الإمام للركعة الثَّانية مثلاً، تجدهُ يجلسُ ولا يقومُ مع الإمامِ وهو يقرأ الفَاتحة، فتجدهُ يجلسُ إلى أن يصل نصف الفاتحة، ثم يقوم وهو قادرٌ على القيام:

نقولُ لهذا الرجل: إن قراءتك للفاتحة غير صحيحة؛ لأن الفاتحةَ يجبُ أنْ تُقرأ في حالِ القيام، وأنت قادرٌ على القيامِ وقد قرأت بعضها وأنت قاعد، فلا تَصِحُّ هذه القراءة.

أمَّا ما زادَ على الفاتحةِ فهو سُنَّةٌ في الركعة الأُولى والثَّانية، وأمّا في الركعةِ الثَّالثةِ في المغرب، أو في الثالثةِ والرابعةِ في الظهرِ والعصرِ والعشاءِ فليس بسُنَّة، فالسُّنَّةُ الاقتصارُ فيما بعد الركعتين على الفاتحة، وإن قرأ

أحيانًا في العصرِ والظهرِ شيئًا زائدًا على الفاتحةِ فلا بأس به، لكنَّ الأصلَ الاقتصارُ على الفاتحةِ في الركعتينِ اللَّتينِ بعد التَّشهُّدِ الأولِ إن كانت رُباعيَّة، أوْ الركعةِ الثَّالثةِ إن كانتْ ثلاثيَّة.

ومن أركانِ الصَّلاة: الركوع، وهو الانحناءُ تعظيمًا لله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّك تستحضرُ أنَّك واقفٌ بين يدي الله، فَتَنْحَنِي تعظيمًا له عزَّ وجلَّ، ولهذا قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «**أمَّا الرُّكوع فَعَظِّموا فيه الرَّبَّ عزَّ وجلَّ**»[1]، أي: قُولوا سبحان ربِّيَ العظيم؛ لأن الركوع تعظيمٌ بالفعل، وقول: «سبحانَ ربِّيَ العظيمِ» تعظيمٌ بالقول، فيجتمعُ التعظيمانِ بالإضافةِ إلى التعظيمِ الأصليِّ وهو تعظيمُ القلب لله؛ لأنك لا تنحني هكذا إلا لله تعظيمًا له، فيجتمعُ في الركوعِ ثلاثةُ تعظيمات:

١ ـ تعظيمُ القلب.

٢ ـ تعظيمُ الجوارح.

٣ ـ تعظيمُ اللسان.

فالقلبُ: تستشعرُ أنك ركعتَ تعظيمًا لله، واللِّسانُ: تقول سبحانَ ربِّيَ العظيم، والجوارحُ: تُحني ظهرك.

والواجبُ في الركوعِ الانحناءُ بحيث يتمكَّنُ الإنسانُ من مَسِّ رُكْبتيه بيديه. فالانحناءُ اليَسيرُ لا ينفع، فلابُدَّ من أن تَهْصِرَ ظهرك حتى تتمكَّنَ من

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الرُّكوع والسُّجود، رقم(٤٧٩).

مَسِّ ركبتيكَ بيديك .

وقال بعض العلماء: إنَّ الواجبَ أن يكونَ إلى الركوعِ التَّامِّ أقربَ منه إلى القيامِ التَّامّ والمؤدى مُتَقَارب. المهم أنَّه لابدَّ من هَصْرِ الظهر.

وممّا ينبغي في الركوعِ أن يكونَ الإنسانُ مُسْتَوي الظهرِ لا مُحْدَوْدِبًا، وأن يكون رأسهُ مُحَاذِيًا لظهره، وأن يضعَ يديهِ على ركبتيه مُفَرَّجتي الأصَابع، وأن يجافيَ عَضُدَيْهِ عن جنبيه، ويقول سبحان ربيَ العظيم، يكرِّرها ويقول: «**سبحانك اللَّهُمَّ ربَّنا وبحمدك، اللهم اغْفِرْ لي**»[١]، ويقول: «**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ربُّ الملائكةِ والرُّوح**»[٢].

ومن أركانِ الصلاة: السُّجود، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾ [الحج: ٧٧]، وقال النبيُّ ﷺ: «**أُمِرْتُ أنْ نَسْجُدَ على سَبْعَةِ أعظُم: على الجبهةِ ـ وأشارَ بيدهِ إلى أنْفه ـ واليَدَيْن، والرُّكبتين، وأطرافِ القَدَمين**»[٣]، فالسُّجودُ لابُدَّ منه؛ لأنَّه ركنٌ لا تتمُّ الصَّلاةُ إلاَّ به.

ويقولُ في سجوده: «سبحان ربِّي الأعْلى». وتأمَّل الحكمةَ أنَّك في الركوعِ تقول: «سُبحان ربِّيَ العظيم» لأنَّ الهيئةَ هيئةُ تعظيم، وفي السُّجودِ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب الدعاء في الركوع، رقم(٨١٧)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم(٤٨٤).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم(٤٨٧).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب السجود على الأنف، رقم (٨١٢)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب أعضاء السجود، رقم(٣٩٠ [٢٣٠]).

تقول: «سبحان ربِّيَ الأعلى» لأن الهيئةَ هيئةُ نزول.

فالإنسانُ نَزَّلَ أعلى ما في جسده ـ وهو الوجه ـ إلى أسفلِ ما في جسده ـ وهو القدمين ـ فترى في السُّجودِ أن الجبهةَ والقدمين في مكانٍ واحدٍ، وهذا غايةُ ما يكونُ من التَّنزيه؛ ولهذا تقول: «سبحان ربيَ الأعلى» أي أُنَزِّه ربِّيَ الأعلى الذي هو فوق كلِّ شيءٍ عن كلِّ سُفْلٍ ونُزول. أمَّا أنا فمنزلٌ رأسي وأشرفَ أعضائي إلى محلِّ القدمينِ ومداسِها، فتقول: «سبحان ربيَ الأعلى» تكرِّرها ما شاء الله، ثلاثًا أو أكثرَ حسبَ الحال، وتقول: «**سبحانك اللهُمَّ ربنا وبحمدكَ اللهُمَّ اغْفِرْ لي**»[1]، وتقول: «**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ المَلائِكَة والرُّوح**»[2] وتُكثِرُ من الدعاءِ بما شئتَ من أمورِ الدِّينِ ومن أمورِ الدُّنيا؛ لأن النبيَّ ﷺ يقول: «**وأمَّا السُّجودُ فاجْتَهِدُوا في الدُّعاء، فقَمِنٌ أن يُستجابَ لكم**»[3]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**أقْرَبُ ما يكونُ العبْدُ من ربِّه وهو ساجد**»[4]، فأكثِرْ من الدعاءِ بما شئت، من سؤالِ الجنَّة، والتَّعَوُّذِ من النار، وسؤالِ علمٍ نافع، وعملٍ صالح، وإيمانٍ راسِخ، وهكذا. وسؤالِ بيتٍ جميل، وامرأةٍ صالحة، وَوَلَد صالح، وسيَّارة، وما شئتَ من خيرِ الدِّينِ والدُّنيا؛ لأن الدُّعاءَ عبادةٌ ولو في أمورِ الدُّنيا، قال

---

(١) تقدم تخريجه برقم(٣٩٣).
(٢) تقدم تخريجه برقم(٣٩٣).
(٣) تقدم تخريجه ص (٣٩٢).
(٤) تقدم تخريجه ص (٣٢٥).

الله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وفي هذه الأيّامِ العصيبة(١) ينبغي أن نُطيل السُّجود، وأن نكثر من الدعاء بأن يأخذ الله على أيدي الظَّالمين المعتدين، ونُلحَّ ولا نَسْتبطىءَ الإجابة؛ لأن الله حكيمٌ قد لا يُجيبُ الدَّعوةَ بأوَّلِ مرَّةٍ أو ثانيةٍ أو ثالثة، من أجلِ أن يعرفَ النَّاسُ شدَّةَ افتقارهم إلى الله فيزدادوا دعاءً، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أحكمُ الحاكمين، حكمته بالغةٌ لا نستطيع أن نَصل إلى معرفتها، ولكن علينا أن نفعلَ ما أُمِرْنا به من كثرةِ الدُّعاء.

ويسجدُ الإنسانُ بعد الرَّفعِ من الرُّكوع، ويسجد على ركبتيهِ أولاً ثم كَفَّيْه، ثمَّ جبهتِهِ وأنفه، ولا يسجدُ على اليدينِ أوّلاً؛ لأن النبيَّ ﷺ نهى عن ذلك فقال: «**إذا سَجَدَ أحَدُكُم فَلا يَبْرُكْ بُرُوكَ البَعير**»(٢)، وبُروكُ البعير يكون على اليدين أوَّلاً كما هو مُشاهَد، كلُّ من شاهد البعير إذا بركتْ يجدُ أنها تقدِّمُ يديها، فلا تُقدِّم اليدين، والرَّسولُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ نهى عن ذلك؛ لأن تشبُّهَ بني آدمَ بالحيوانِ ـ ولا سيَّما في الصلاة ـ أمرٌ غيرُ مرغوبٍ فيه.

---

(١) يشير فضيلة الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ إلى أيام حرب الخليج الثانية ١٤١١هـ.

(٢) أخرجه أبوداود، كتاب الصلاة، باب كيف يضع ركبتيه قبل يديه، رقم(٨٤٠)، والترمذي، كتاب الصلاة، باب آخر منه، رقم(٢٦٩)، وقال: غريب. والنسائي، كتاب التطبيق، باب أول ما يصل إلى الأرض من الإنسان في سجوده، رقم(١٠٩١)، وأحمد في المسند(٢/ ٣٨١)، وصحّحه الألباني كما في صحيح الجامع رقم(٥٩٥).

ولم يذكر الله تعالى تشبيه بني آدم بالحيوان إلاَّ في مقام الذَّمّ. استمعْ إلى قولِ الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٥]، وقال النبيُّ ﷺ: «**العائدُ في هِبتِه كالْكَلْبِ يقيءُ ثُمَّ يعُودُ في قَيْئِه**»[١]، وقال ﷺ: «**الذي يتكلَّمُ يومَ الجُمعةِ والإمامُ يَخْطُبُ كمَثلِ الحِمارِ يَحْملُ أسْفَارًا**»[٢].

فأنتَ تَرَى أن تشبيه بني آدم بالحيوان لم يكنْ إلاَّ في مقام الذَّمّ؛ ولهذا نَهى المُصَلِّيَ أن يبرك كما يبرك البعير فيقدِّم يديه! بل قدِّم الركبتين إلا إذا كان هناك عُذْر، كرجُلٍ كبيرٍ يشقُّ عليه أن يُنزلَ الركبتين أوَّلاً، فلا حرج، أو إنسانٍ مريض، أو إنسانٍ في ركبتيه أذىً، وما أشْبه ذلك.

ولابدَّ أن يكونَ السُّجودُ على الأعضاءِ السبعة: الجبهة، والأنفُ تبَعٌ لها، والكفَّيْن، والركبتين، وأطْرافِ القدمين. فهذه سبعةٌ أمرنا أن نسجد

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الهبة، باب هبة الرجل لامرأته والمرأة لزوجها، رقم(٢٦٢٢)، ومسلم، كتاب الهبات، باب تحريم الرجوع في الصدقة والهبة بعد القبض، رقم(١٦٢٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد(١/ ٢٣٠) وذكره المنذري في الترغيب بصيغة التمريض إشارة إلى ضعفه (١/ ٥٠٥). وضَعَّفَ الألباني إسناده لوجود مجالد بن سعيد. انظر المشكاة رقم(١٣٩٧).

عليها كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام، والَّذي أمرنا ربُّنا ـ عزَّ وجلَّ ـ فنقول: سمعًا وطاعةً، ونسْجدُ على الأعضاءِ السَّبعةِ في جميع السجود، فما دمنا ساجدينَ فلا يجوزُ أن نرفعَ شيئًا من هذه الأعضاء، بل لابدَّ أن تبقى هذه الأعضاءُ ما دُمنا ساجدين.

وفي حالِ السُّجودِ ينبغي للإنسانِ أن يضُمَّ قدَميهِ بعضَهما إلى بعضٍ ولا يَفْرِج.

أما الركبتانِ فلم يَرِدْ فيهما شيء، فتبقى على ما هي عليه على الطبيعة. وأما اليدانِ فتكونانِ على حذوِ المنكبين، أي: الكتفين، أو تقدِّمهما قليلاً حتى تسجدَ بينهما، فلها صفتان: الصفةُ الأولى: أن تردَّها حتى تكونَ على حذاء الكتف، والصفةُ الثانية: أن تقدِّمها قليلاً حتى تكون على حذاءِ الجبهة، كلتاهما وردتا عن الرَّسول عليه الصلاة والسلام.

وينبغي أن تُجافي عَضُدَيْكَ عن جنبيك، وأن ترفعَ ظهرك. إلاَّ إذا كنتَ في الصَّفِّ وخفتَ أن يتأذَّى جارُكَ من مجافاةِ العَضُدَيْنِ فلا تُؤذِ جارك؛ لأنه لا ينبغي أن تفعلَ سُنَّةً يتأذَّى بها أخوكَ المسلمُ وتشوِّشَ عليه.

وقد رأيتُ بعض الأخوة الذين يُحبُّون أن يُطبِّقوا السنة يمتدُّونَ في حال السجود امتدادًا طويلاً، حتى تكادُ تقولُ إنهم منبطحون، وهذا لا شكَّ أنه خلافُ السُّنة، وهو بدعة. بل السنَّةُ أن ترفعَ ظهركَ وأن تعلوَ فيه.

وهذه الصِّفةُ التي أشرتُ إليها من بعض الإخوةِ كما أنها خلافُ السنَّةِ ففيها إرهاقٌ عظيمٌ للبدن، لأن التحمُّلَ في هذه الحال يكون على الجبهة والأنف، وتجدُ الإنسانَ يضجرُ من إطالةِ السُّجود.

ففيها مخالفةُ السُّنةِ وتعذيبُ البدن؛ فلهذا ينبغي إذا رأيتم أحدًا يسجدُ على هذه الكيفيَّةِ أن تُرشِدُوه إلى الحقّ، وتقولوا له: هذا ليس بِسُنَّة.

وينبغي في حالِ السُّجودِ أيضًا أن يكونَ الإنسانُ خاشعًا لله ـ عزَّ وجلَّ ـ مستحضرًا علوَّ الله سبحانه وتعالى؛ لأنَّك سوف تقول: سُبحان ربِّيَ الأعلى، أي تنزيهًا له بعلوِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ عن كلِّ سُفْلٍ ونُزول، ونحن نعتقدُ بأن الله عالٍ بذاتِهِ فوق جميع مخلوقاته، كما قال الله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وإثباتُ علوِّ الله في القرآنِ والسُّنةِ أكثرُ من أن يُحْصَر.

والإنسانُ إذا دعا يرفع يديه إلى السَّماء إلى الله عزَّ وجلَّ، وفي السماء فوق كل شيء، وقد ذكر الله أنه اسْتوى على عرشه في سبعِ آياتٍ من القرآن، والعَرشُ أعلى المخلوقات، والله فوق العرشِ جلَّ وعلا.

ومن أركانِ الصَّلاة: الطّمأنينة، أي: الاستقرارُ والسُّكون في أركان الصَّلاة، فيطمئنُّ في القيامِ، وفي الرُّكوع، وفي القيام بعد الرُّكوع، وفي السُّجود، وفي الجلوس بين السَّجدتين، وفي بقيَّةِ أركان الصلاة، وذلك لما أخرج الشيخان ـ البخاريُّ ومسلم ـ من حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه[(١)] أنَّ رجلاً جَاءَ فدخلَ المسجدَ فصلى، ثمَّ سلَّمَ على النبيِّ ﷺ فَرَدَّ عليه السَّلام وقال: «**ارْجِع فصَلِّ فإنَّكَ لم تُصَلِّ**» يعني: لم تصلِّ صلاةً تُجزئك. فرجعَ الرَّجلُ فصلى، ثمَّ جاءَ فسلَّم على النبيِّ ﷺ فردَّ عليه

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب أمر النبي ﷺ الذي لا يتم ركوعه بالإعادة، رقم(٧٩٣)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم(٣٩٧).

وقال: «ارْجِعْ فَصَلِّ فإنَّكَ لم تُصَلِّ» فرجعَ وصلَّى ولكنْ كصلاتهِ الأولى، ثم جاء إلى النبي ﷺ وسلَّم عليه، فردَّ عليه وقال: «ارجعْ فَصَلِّ فإنَّكَ لم تُصَلِّ» فقال: والذي بعثكَ بالحقِّ لا أحسِنُ غيرَ هذا فعلِّمْني.

وهذه هي الفائدةُ من كون النبيِّ ﷺ لم يُعلِّمْهُ لأوَّلِ مرَّة، بل ردَّدَهُ حتى صلَّى ثلاثَ مرَّات؛ من أجل أن يكون متشوِّقًا للعلم، مُشْتَاقًا إليه، حتى يأتيَهُ العلمُ ويكون كالمطر النازل على أرض يابسة تقبل الماء، ولهذا أقسم بأنه لا يحسن غير هذا، وطلبَ من النبيِّ ﷺ أن يعلِّمه. ومن المعلومِ أن النبيَّ ﷺ سوف يعلِّمه، لكنْ فرقٌ بين المطلوب والمجلوب، إذا كان هو الذي طلب أن يعلم صار أشَدَّ تمسُّكًا وحفظًا لما يُلقى إليه.

وتأمَّلْ قَسَمَهُ بالذي بعث النبيَّ ﷺ بالحقّ. فقال: «والذي بَعَثَك بالحَقِّ» وما قال «والله!» لأجلِ أن يكونَ معترفًا غايةَ الاعتراف بأنَّ ما يقوله النبي ﷺ حقٌّ.

فقال له النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «إذا قُمْتَ إلى الصلاةِ فأسبغِ الوضوء» أي: توضَّأ وضوءًا كاملاً، «ثم استقبلِ القِبْلَةَ فَكَبِّرْ» أي: قل: الله أكبر، وهذه تكبيرةُ الإحرامِ. «ثم اقْرأ ما تَيَسَّرَ معكَ من القرآن» وقد بيَّنتِ السنَّةُ أنه لابدَّ من قراءةِ الفاتحة. «ثم اركعْ حتى تطمئنَّ راكعًا» أي: لا تسرِعْ، بل اطمئنَّ واستقرَّ. «ثم ارْفَع حتى تطمئنَّ قائمًا» أي: إذا رفعتَ من الركوع اطمئنَّ كما كنتَ في الركوع، ولهذا من السُّنةِ أن يكونَ الركوع والقيامُ بعد الركوعِ متساويينِ أو متقاربين. «ثُمَّ اسْجُد حَتَّى تطْمَئِنَّ ساجدًا» أي: تطمئنَّ وتستقرّ. «ثم ارْفَعْ حتى تطمئنَّ جالسًا» وهذه الجلسةُ بين

السجدتين. «**ثم اسْجُدْ حتى تطمئنَّ ساجدًا**» هذا هو السجودُ الثاني. قال: «**ثم افْعلْ ذلك في صلاتِكَ كُلِّها**» أي: افعلْ هذه الأركان: القيامَ، والركوعَ، والرفعَ منه، والسُّجودَ، والجلوسَ بين السَّجدتين، والسَّجدةَ الثَّانية، في جميعِ الصَّلاة.

الشاهدُ من هذا قوله: «**حتى تطمئنّ**»، وقولهُ فيما قبل: «**إنَّك لمْ تُصَلِّ**» فدلَّ هذا على أنه من لا يطمئنُّ في صلاتهِ فلا صلاةَ له.

ولا فرقَ في هذا بين الركوع والقيام بعد الركوع، والسُّجود والجلوس بين السجدتين، كلُّها لابدَّ أن يطمئنَّ الإنسانُ فيها.

قال بعض العلماء: والطُّمأنينةُ أن يستقرَّ بقدرِ ما يقولُ الذِّكْرَ الواجبَ في الركن، ففي الركوعِ بقدرِ ما تقول: «سبحان ربِّي العظيم» وفي السجود كذلك، بقدر ما تقول: «سبحان ربِّيَ الأعلى»، وفي الجلوسِ بين السجدتينِ بقدرِ ما تقول: «ربِّ اغفرْلي»، في القيامِ بعد الركوعِ بقدرِ ما تقول: «ربنا ولك الحمد»، وهكذا. ولكن الذي يظهرُ من السنَّةِ أن الطُّمأنينةَ أمرٌ فوق ذلك؛ لأن كونَ الطمأنينةِ بمقدارِ أن تقول «سبحان ربِّيَ العظيم» في الركوعِ لا يظهرُ لها أثر؛ لأنَّ الإنسانَ إذا قال: الله أكبر، سبحان ربِّيَ العظيم، ثمَّ يرفعُ، أين الطُّمأنينة؟

فالظاهرُ أنَّه لابدَّ من استقرارٍ بحيث يُقال: هذا الرجلُ مُطمئنّ.

وعجبًا لابنِ آدمَ كيف يلعبُ به الشَّيطان!! هو واقفٌ بين يدي الله - عزَّ وجلَّ - يناجي الله ويتقرَّب إليه بكلامهِ وبالثناءِ عليه وبالدعاء، ثم كأنَّهُ ملحوقٌ في صلاته، كأنَّ عدوًّا لاحقٌ له، فتراه يهرب من الصلاة، لماذا؟

أنت لو وقفتَ بين يدي مَلكٍ من مُلوكِ الدُّنيا يناجيك ويخاطبك، لو بقيت معه سَاعتينِ تكلِّمهُ لوجدتَ ذلك سهلاً، تقفُ على قدميك، ولا تنتقلُ من ركوع إلى سجودٍ وإلى جلوس، وتفرحُ أن هذا الملكَ يكلِّمك ولو جلسَ معك مدة طويلة، فكيف وأنت تناجي ربَّكَ الذي خلقك، ورزقك، وأمدَّك، وأعدَّك، تناجيه وتهربُ هذا الهروب؟!

لكنَّ الشيطانَ عدوٌّ للإنسان، والعاقلُ الحازمُ المؤمنُ هو الذي يَتَّخذُ الشيطانَ عدوًّا، كما قال الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

فالواجبُ على الإنسانِ أن يطْمئنَّ في صلاتهِ طمأنينةً تظهرُ عليه في جميعِ أفعالِ الصَّلاة، وكذلك أقوالها.

مسألة: ما حكمُ مَنْ لم يُقِم الصَّلاة؟

الجوابُ عن ذلك أن نقول: أمَّا من لم يُقمها على وجْهِ الكمال، يعني أنَّه أخلَّ ببعضِ الأشياءِ المُكَمِّلَة للصَّلاة، فإن هذا محرومٌ من الأجر الذي يحصل له بإكمال الصَّلاة، لكنه ليس بآثم، فمثلاً: لو اقتصر على «سبحان ربِّيَ العظيم» في الركوع مع الطمأنينة لكان كافيًا، لكنَّهُ محرومٌ من زيادة الأجر في التَّسبيح.

وأمَّا مَنْ لم يُقِمْهَا أصْلاً، يعني أنَّه تركها بالكُلِّية، فهذا كافرٌ مُرْتَدٌّ عن الإسلام كُفرًا مُخرجًا عن الملَّة، يخرجُ من عِدَادِ المسلمينَ في الدنيا، ويكونُ في عِدادِ الكافرين في الآخرة، أخبر النبيُّ ﷺ أنه يُحْشَرُ مع فرعونَ، وهامان، وقارُون، وأُبيِّ بن خلف، وهؤلاءِ رؤوسُ الكفَرةِ يُحشرُ معهم.

والعياذُ بالله .

أمّا في الدُّنيا فإنه كافرٌ مرتدٌّ يجبُ على وليِّ الأمرِ أن يدعوَهُ للصَّلاة، فإن صلَّى فذاك، وإنْ لم يصلِّ قتله قتل رِدَّةٍ والعياذ بالله، وإذا قُتِلَ قَتْلَ ردَّةٍ حُملَ في سيَّارةٍ بعيدًا عن البلد، وحُفِرَ له حفرةٌ ورُمِسَ فيها حتى لا يتأذَّى الناسُ برائحتهِ ولا يتأذَّى أهلهُ وأصحابهُ بِمُشاهَدَتِه، فلا حرمةَ له لو أُبقيَ على ظهرِ الأرضِ هكذا، ولهذا لا نُغَسِّلُهُ، ولا نُكفِّنهُ، ولا نُصَلِّي عليه، ولا نُدْنيهِ من مساجدِ المسلمينَ للصَّلاةِ عليه؛ لأنه كافرٌ مرتدٌّ.

فإذا قال قائل: ما هذا الكلام؟ أهذا جُزافٌ أم تَحَامُلٌ أم عَاطفة؟

قلنا: ليس جُزَافًا، ولا تحاملاً، ولا عاطفة، ولكنَّنا نقولهُ بمقتضى دلالة كلام الله تعالى وكلام رسُوله ﷺ، وكلام أصْحاب رَسُولهِ رضيَ الله عنهم.

أمّا كلامُ الله: فقد قال الله تعالى في سورةِ التوبة عن المشركين: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ وإنْ لم يكُن؟ فليس إخوانًا لنا في الدِّين، وإذا لم يكونوا إخوانًا لنا في الدين فهُم كفرة؛ لأن كلَّ مؤمنٍ ولو كان عاصِيًا أكبرَ معصيةٍ لكنَّها لا تُخرجُ من الإسلامِ فهو أخٌ لنا، إذا اقتتلتْ طائفتانِ من المؤمنينَ فمن المعلوم أنَّ قتالَ المسلمِ كفر، لكنْ لا يُخرجُ من المِلَّة؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**سِبابُ المسلمِ فُسُوق وقِتَالُهُ كُفْر**»[1]، ومع ذلك فإن هذا المُقاتل لأخيه أخٌ لنا، ولا يخرجُ من دائرةِ

(١) تقدم تخريجه ص (٦٨).

الإيمان، لقولِ الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠].

إذًا الطَّائِفتَانِ المقتتلتانِ إخوةٌ لنا مع أنها معصيةٌ عظيمة.

فإذا قال الله في المشركين: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِۗ﴾ [التوبة: ١١]، إذًا إذا لم يقوموا بهذه الأعمالِ فليسوا بإخوةٍ لنا، هذا من القرآن.

أما من السُّنة: فاستمعْ إلى ما رواه مسلمٌ في صحيحه عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ أن الرسول ﷺ قال: «**بين الرَّجُلِ وبيْن الشِّرْكِ والكُفْرِ تَرْكُ الصلاة**»(١)، والبَيْنِيَّةُ تقتضي التمييزَ والتَّفريق، وأن كلَّ واحدٍ غيرُ الآخر، «**بين الرَّجُل وبين الشِّركِ والكُفْرِ تَرْكُ الصلاة**» فإذا تركها صارَ غيرَ مسلم، صار مشركًا أو كافرًا.

وما رواهُ أهلُ السُّننِ عن بُريدة بن الحُصيب ـ رضي الله عنه ـ أن النبيَّ ﷺ قال: «**العَهْدُ الذي بيْنَنا وبينهم الصَّلاةُ، فمن تَرَكَهَا فَقَدْ كفَر**»(٢)، العهدُ الذي بيننا وبين الكفَّار أي: الشيءُ الفاصلُ الذي بيننا وبينهم الصَّلاة، فمن تركها فقد كفر، صار منهم وليس منا.

---

(١) تقدم تخريجه ص (٣٠٥).
(٢) تقدم تخريجه ص (٣٠٣).

وهذا نصٌّ في الموضوع!

أمّا ما قاله الصحابةُ رضي الله عنهم: فاستمعْ إلى ما قالهُ عبد الله بن شقيق ـ وهو من التابعينَ المشهورين ـ قال رحمه الله: «كان أصحابُ محمَّدٍ ﷺ لا يَرَوْنَ شيئًا من الأعمالِ تركهُ كُفْرٌ غيرَ الصلاة»[١].

وقد نقلَ إجماعَ الصَّحابةِ على كفرِ تاركِ الصلاةِ إسحاقُ بن رَاهَوَيْه الإمامُ المشهور رحمه الله، وبعضُ أهلِ العلم.

وإذا قُدِّر أن فيهم من خالف فإنَّ جمهورهم ـ أهْلَ الفتوى منهم ـ يقولون إنَّه كافر.

هذه أدلَّةٌ من كلامِ الله تعالى وكلام رسوله ﷺ وكلام الصَّحابة رضي الله عنهم. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وناهيك به: «لا حظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة» ولا نافيةٌ للجنس، تنفي الكثيرَ والقليل، والذي لا حظَّ له لا قليلٌ ولا كثيرٌ في الإسلامِ مَا هُو إلا كفر، إذنْ فمن تركَ الصلاةَ فهو كافر.

ويترتَّب على تركِ الصلاةِ أمورٌ دنيوية وأمورٌ أخروية:

الأمور الدنيوية:

أولاً: أنَّه يُدعى إلى الصلاة، فإنْ صلَّى وإلاَّ قُتِلَ، وهذا واجبٌ على ولاةِ الأمورِ وجوبًا، وهم إذا فرَّطوا في هذا فسوف يسألهم الله تعالى إذا

---

(١) تقدم تخريجه ص (٣٠٤).

وقفوا بين يديه؛ لأن كلَّ مُسْلمٍ ارْتَدَّ عن الإسلامِ فإنه يُدعى إليه، فإن رَجَع وإلا قُتِلَ.

قال الرسول ﷺ: «من بدَّل دينه فاقْتُلُوه»(١).

ثانيًا: لا يُزَوَّجُ إذا خطب، وإن زُوِّجَ فالعقدُ باطِل، والمرأةُ لا تحلُّ له أن يطأها، وهو يطأ أجْنَبيةً والعِياذُ بالله، لأن العقدَ غيرُ صحيح؛ لقولهِ تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠].

ثالثًا: أنَّه لا وِلاية لهُ على أولاده، ولا على أخواته، ولا على أحَدٍ من الناس؛ لأنَّ الكافرَ لا يمكنُ أن يكونَ وليًّا على مُسْلمٍ أبدًا، حتى بِنْتُه لا يُزوِّجها.

لو فرضنا واحدًا بعدما تزوَّجَ، وكبرَ وصارَ له بنات، صارَ لا يصلي والعياذُ بالله؛ فإنه لا يمكنُ أن يزوِّجَ بنته.

ولكن إذا قال قائل: هذا مُشكل، يوجدُ أناسٌ عندهم بناتٌ وهم لا يصلون، كيف نعمل؟

نقولُ: في مثلِ هذه الحالِ إذا كان لا يمكنُ التخلُّصُ من أن يعقدَ النكاحَ للبناتِ فإن الزوجَ يجعلُ أخاها أو عمَّها مثلاً أو أحدًا من عَصباتها الأقرب فالأقرب، حَسَب تَرْتيبِ الولاية، يعقدُ له بالسرِّ عن أبيها حتى

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب استتابة المرتدين، باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم، رقم(٦٩٢٢).

يتزوَّجَ امرأةً بعقدٍ صحيح، أما عقدُ أبيها لها وهو مرتدٌّ كافرٌ فلا يصحّ، ولو يعقدُ ألفَ مرَّةٍ فليس بشيء.

رابعًا: لو تركَ الصلاةَ في أثناءِ زواجهِ انفسخَ نكاحه، ومثاله: رجلٌ تزوَّجَ امرأةً وهي تصلِّي وهو يُصلِّي، وبعد ذلك ترك الصلاة، فإننا نقول: يجبُ التفريقُ بينه وبين المرأةِ وجوبًا حتى يصلِّي، فإذا فرَّقنا بينهما واعتدَّتْ فإنه لا يمكنُ أن يرجعَ إليها، أما قبل انتهاءِ العِدَّة، فإنه إذا أسلمَ ورجعَ إلى الإسلامِ وصلَّى فهي زوجته، أمّا إذا انتهتِ العِدَّة فقد انفصلتْ منه، ولا تحلُّ لهُ إلا بعقدٍ جديدٍ على قولِ جمهورِ أهلِ العلم، وبعضهم يقول: إنها إذا انتهتْ من العِدَّةِ ملكتْ نفسها، ولكن لو أسلمَ وأرادتْ أن ترجعَ إليه فلا بأس بدون عقد، وهذا القول هو الراجح؛ لدلالةِ السنَّةِ عليه، لكنَّ فائدة العِدَّةِ هو أنها قبل العِدَّة إذا أسلم لا خيار لها، وأما بعد العِدَّةِ فلها الخيارُ إذا أسلم، إنْ شاءتْ رجعتْ إليه، وإن شاءتْ لم ترجع.

خامسًا: ومن ذلك أيضًا أنه لا ولاية له على أحدٍ ممَّن يتولاَّهُ لو كان مسلمًا؛ لأن من شرط الولاية العدالة، والكافر ليس بعدل، فلا يكون تارك الصلاة وليًا على أحدٍ من عبادِ الله المسلمينَ أبدًا، حتى لو كانت ابنتهُ فإنه لا يزوِّجها؛ لأنه ليس له ولايةٌ عليها.

سادسًا: ومن ذلك أيضًا أنه لا يُغسل، ولا يكفن، ولا يُصلَّى عليه، ولا يُدفنُ مع المسلمين، وإنما يُخْرَجُ به إلى البرِّ ويُحفرُ له حفرةٌ يُرمسُ فيها رمسًا لا قبرًا؛ لأنه ليس له حرمة.

ولا يحلُّ لأحدٍ يموتُ عنده شخصٌ وهو يعرفُ أنه لا يُصَلِّي أن يُغسِّلهُ أو يكفِّنهُ أو يقدِّمهُ للمسلمين يصلُّون عليه؛ لأنه يكون بذلك غاشًّا للمسلمين، فإن الله تعالى قال لنبيِّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ في حقِّ المنافقين، وهم كفار لكنهم يظهرون الإسلام، قال: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٨٤]، فدلَّ هذا على أن الكفرَ مانعٌ من الصلاة، ومن القيام على القبرِ بعد الدفن.

وقال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣].

ويسألُ بعضُ الناس عن الرجلِ المتَّهمِ بتركِ الصلاةِ يقدَّمُ للصلاةِ عليه بعد مَوته وأنْت شَاكٌّ هل هو يُصلِّي أوْ لا؟

فنقول: إذا كان هذا الشكُّ مبنيًّا على أصلٍ فإنكَ إذا أردت أن تدعو له تقول: «اللَّهم إنْ كان مؤمنًا فاغفر له وارحمه» فتقيِّدهُ، وبهذا تسْلَمُ من شرِّه.

وأمّا الأمورُ الأخرويَّةُ المترتِّبةُ على تركِ الصلاةِ فمنها:

١ ـ العذابُ الدائمُ في قبره، كما يُعَذَّبُ الكافرُ أو أشدُّ.

٢ ـ أنه يُحْشَرُ يومَ القيامةِ مع فرعونَ وهامانَ وقارونَ وأبيِّ بن خلف.

٣ ـ أنه يدخلُ النارَ فيُخلدُ فيها أبدَ الآبدين.

وذهبَ بعضُ العلماء إلى أنه لا يكفر كفرًا مُخرجًا عن الملَّة، واستدلُّوا ببعضِ النصوص، ولكنَّ هذه النصوص لا تخرج عن أحوالٍ خمسة:

١ ـ إمّا أنّه ليس فيها دلالةٌ أصلاً على هذه المسألة، مثلَ قولِ بعضهم: إن هذا يعارضهُ قولُ الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ومن جملتهِ تاركُ الصلاة.

فنقول: إنَّ تاركَ الصلاةِ في ظاهرِ حديثِ جابرٍ الذي رواه مسلمٌ أنّه مُشْرك وإنْ كان لا يسجدُ للصَّنم، لكنه مُتَّبعٌ لِهَواه، وقد قال الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ثم على فرضِ أن مفهومَ الآيةِ أنَّ ما دون الشِّرك تحت المَشيئة، فإن هذا المفهومَ خُصَّ بالأحاديثِ الدَّالَّةِ على أن تاركَ الصَّلاةِ كافر، وإذا كان المنطوقُ ـ وهو أقْوى دِلالةً من المفهوم ـ يخصَّصُ عُمومُه بما دلَّ على التَّخصيص، فما بالُكَ بالمفهوم؟

٢ ـ أو استدلُّوا بأحاديثَ مُقَيَّدةٍ بما لا يمكنُ لمن اتَّصفَ به أن يَدَعَ الصَّلاة. مثل قولِ النبيِّ ﷺ: «**إن الله قد حرَّمَ على النارِ مَنْ قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجْه الله**»[1]، فإن قوله: «**يبتغي بذلك وجهَ الله**» تمنعُ منعًا باتًّا أنْ يَدَعَ الإنسانُ الصلاةَ؛ لأنَّ مَنْ قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجْه الله، فلابدَّ أن يعملَ عملاً لما يبتغيه وهو وجْهُ الله.

وأعظمُ عملٍ يَحْصُل به رضا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هو الصلاة. فهذا الحديثُ ليس فيه دليلٌ على أن تاركَ الصلاةِ لا يكفر؛ لأنَّه مُقَيَّدٌ بقيدٍ يمتنعُ معه غايةَ الامتناعِ أنْ يَدَعَ الإنسانُ الصّلاة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت، رقم(٤٢٥).

٣ ـ أو مقيَّدٌ بحالٍ يعذرُ فيها من تَرْكِ الصَّلاة، مثلُ حديثِ حذيفة الذي أخرجه بعض أهل السُّنن في قومٍ لا يعرفون من الإسلامِ إلا قولَ لا إله إلا الله، وهذا في وقتِ اندراس الإسلام[1]، وصار لا يعلمُ عن شيءٍ منه إلا قولَ لا إله إلا الله فإنها تنجيهم من النَّار؛ لأنهم مَعْذُورون بعدمِ العلم بفَرائضِ الإسلام، ونحن نقول بهذا، لو أن قَومًا في باديةٍ بعيدونَ عن المدن، وبعيدون عن العلم، لا يفهمون من الإسلام إلاَّ «لا إله إلا الله» وماتوا على ذلك فليسوا كُفَّارًا.

٤ ـ واستدلُّوا بأحاديثَ عامَّة، وهذه الأحاديثُ من قواعدِ أصول الفقه أن العامَّ يُخَصَّصُ بالخاصّ، فالأحاديثُ العامَّةُ الدَّالَّةُ على أنَّ مَنْ قال لا إله إلا الله فهو في الجنَّة، وما أشبه ذلك، نقول: هذه مقيَّدةٌ أو مخصوصةٌ بأحاديثِ كفرِ تاركِ الصلاة.

---

(١) نصُّ الحديث عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدْرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب، حتى لا يُدرى ما صيام ولا صلاة ولا نُسُك ولا صدقة. وليسري على كتاب الله عزَّ وجلَّ في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس: الشيخ الكبير، والعجوز، يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلا الله، فنحن نقولها. فقال له صلة؛ ما تغني عنهم لا إله إلا الله، وهم لا يدرون ما صلاة، ولا صيام، ولا نسك، ولا صدقة. فأعرض عنه حذيفة.. ثم ردَّها عليه ثلاثًا. كلَّ ذلك يعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه الثالثة فقال: يا صلة! تنجيهم من النار.. ثلاثًا» أخرجه ابن ماجه، باب ذهاب القرآن والعلم، رقم(٤٠٤٩)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٤٧٣)، وقال: صحيح (٣/ ٢٥٤): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

٥ ـ واستدلُّوا بأحاديثَ ضعيفة لا تُقَاوِمُ الأحاديث الصَّحيحة الدَّالَّةَ على كفر تارك الصَّلاة، فضلاً عن أن تُعَارِضها، فهي لا تعارضُ ولا تقاومُ الأحاديث الدالَّة على كفر تارك الصلاة.

ثم إن بعضهم لمّا لم يتيسَّرْ له إقامةُ الدَّليل على أن تارك الصلاة لا يكفرُ قال: إنَّه يحمل قوله ﷺ: «**بين الرَّجُلِ وبين الشِّركِ والكُفْرِ تَرْكُ الصلاة**»[1]، على الكفرِ الأصغرِ والشركِ الأصْغر، فيكونُ بمعنى قولِ ابن عباس رضي الله عنهما: «كُفرٌ دون كفر» فيقال: ما الذي يوجبُ لنا أن نحملَ الحديثَ على ذلك، لأنَّ الكفرَ إذا أُطلقَ ولم يُوجد له معارضٌ فهو الكفرُ الحقيقيُّ الأكبر.

كيف وقد قال الرسولُ عليه الصَّلاة والسلام: «**بين الرَّجُلِ وبيَنَ الكُفْرِ والشِّرك**»، فجعل هنا حدًّا فاصلاً «بَيْن» والبينيَّةُ تقتضي أن المتباينينِ منفصلانِ بعضُهما عن بعض، وأن المُرادَ بالكفرِ الكفرُ الأكبر.

وحينئذٍ تكونُ أدلَّةُ القولِ بكفر تَارِكِ الصَّلاة مُوجِبةً لا مُعَارِضَ لها ولا مقاوِمَ لها، والواجبُ على العبد المؤمن إذا دلَّ كتابُ الله وسنَّةُ رسوله ﷺ على حكمٍ من الأحكامِ أن يقولَ به؛ لأنَّنا نحنُ لسنا بمشرِّعين، بل المُشَرِّعُ الله، ما قاله تعالى وقاله رسوله ﷺ فهو الشَّرع، نأخذُ به ونحكمُ بمقتضاه، ونؤمنُ به سواءٌ وافقَ أهواءنا أم خالفها، فلابدَّ أن نأخذَ بما دلَّ عليه الشَّرع.

---

(١) تقدم تخريجه ص (٣٠٥).

واعلمْ أن كلَّ خلافٍ يقع بين الأمَّةِ إذا كان الحامل عليه حسن القصد مع بذل الجهد في التحرّي، فإن صاحبه لا يلام عليه ولا يُضلَّل، لأنه مجتهد، وقد قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «**إذا حَكَمَ الحَاكِم فاجْتَهَدَ فأخطأ، ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرانِ، وإذا حَكَمَ فاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فله أَجْرٌ**»[1].

وليس من حقِّ الإنسانِ أن يقدح في أخيه إذا خالفه في الرأي بمقتضى الدَّليل عِنده.

أمَّا من عاندَ وأصرَّ بعد قيامِ الحجَّةِ عليه فهذا هو الذي يُلام.

وبهذا التَّقريرِ نعرفُ أنَّه يجبُ الحذرُ التَّامُّ من التَّهاونِ بالصلاة، وأنَّه يجبُ على من رأى شخصًا مُتهاونًا فيها أن يَنْصحَهُ بعزيمةٍ وَجِدّ، لَعَلَّ الله أن يهديَهُ على يدهِ فينالَ بذلك خيرًا كثيرًا.

وقوله: «إيتاء الزكاة»:

إيتاء بمعنى إعطاء، وإتْيان بمعنى مَجيء، وأتى بمعنى جَاء، وآتى بمعنى أعطى.

فإيتاءُ الزكاةِ يعني إعطاءها لمن عَيَّنَ الله سبحانه أن يُعْطَوا إيَّاها، والزكاةُ مأخُوذةٌ من الزَّكاء، وهو الطهارةُ والنَّماء؛ لأن المزكِّي يطهِّرُ نفسَهُ من البخل، وينمِّي مالَهُ بالزكاة، قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم(٧٣٥٢)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم(١٧١٦).

﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

والزكاة تعريفها: نَصِيبٌ مُقَدَّرٌ شرعًا من مالٍ مخصوصٍ لطائفةٍ مخصوصةٍ.

«نَصيب من مالٍ» وليس كلَّ المال، بل أموالٌ مُعَيَّنَةٌ بيَّنها الرَّسولُ عليه الصلاة والسَّلام، وبعضُها مُبَيَّنٌ في القرآن.

وليس كلُّ هذه الأجناسِ من المالِ تجبُ فيه الزكاة، بل لابدَّ من شُروط.

والزكاةُ جزءٌ بَسيط يؤدِّي بها الإنسانُ رُكْنًا من أركانِ الإسلام، يُطَهِّر بها نفسَهُ من البخلِ والرَّذيلة، ويُطهِّرُ بها صفحاتِ كتابهِ من الخطايا، كما قال النبيُّ ﷺ: «**الصَّدَقَةُ تُطفىءُ الخطيئةَ كما يُطفىءُ الماءُ النَّارَ**»[١]، وأفضلُ الصَّدقاتِ الزَّكاة، فدِرْهمٌ تخرجه في زكاتك أفضل من درهمٍ تخرجه تطوُّعًا؛ لأن الله تعالى قال في الحديث القدسي: «**وما تَقرَّبَ إليَّ عبْدي بشيءٍ أَحَبَّ إليَّ ممَّا افْتَرَضتُه عليه**»[٢]، وركعْةٌ من صلاةٍ مفروضةٍ أفضلُ من ركعةٍ من صلاةٍ تطوُّع، فالفرائض أفضل من التطوُّع.

ففي الزكاة تكْفيرُ الخطايا، وفيها الإحسان إلى الخَلْق؛ لأنَّ المزكي يحسن إلى المدفوع إليه الزَّكاة فيدخل في عِدَاد المحسنين الذين يدخلون

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم(٢٦١٦)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم(٣٩٧٣)، والإمام أحمد (٥/٢٤٨) وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم(٦٥٠٢).

في محبَّةِ الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وفي الزكاةِ أيضًا: تأليفٌ بين النَّاس؛ لأنَّ الفُقَراءَ إذا أعطاهم الأغنياءُ من الزكاةِ، ذهب ما في نُفُوسهم من الحقدِ على الأغنياء، أمّا إذا منعهم الأغنياءُ ولم يتفضَّلوا عليهم بشيءٍ صار في نفوسهم أحْقادٌ على الأغنياء.

وفي الزكاةِ أيضًا إغْناءٌ للفقراءِ عن التَّسلُّط؛ لأنَّ الفقيرَ إذا قدَّرَ أن الغنيَّ لا يُعْطيهِ شيئًا فإنه يُخشىٰ منه أن يتسلَّط وأن يكسر الأبواب ويَنْهب الأموال؛ لأنه لابدَّ أن يعيش، لابدَّ أن يأكلَ ويشرب، فإذا كان لا يُعطىٰ شيئًا فإن الجوع والعَطش والعُري يدفعه على أن يتسلَّط على الناس بالسَّرقة والنّهب وغير ذلك.

وفي الزكاة أيضًا: جلبٌ للخيرات من السَّماء، فإنه قد وردَ في الحديث: «**ما مَنَعَ قومٌ زكاةَ أموالِهم إلاَّ مُنِعُوا القَطْرَ من السَّماء**»[1].

فإذا أدَّى النَّاسُ زكاةَ أموالهم أنزل الله لهم بركات من السَّماء والأرض، وحَصَل في هذا نُزُول المطر ونباتُ الأرْض وشِبعُ المواشي وسَقيُ النَّاس بهذا الماء الذي ينزل من السماء، وغيرُ ذلك من المصالحِ الكثيرة.

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب العقوبات، رقم(٤٠١٩)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٥٤٠)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: صحيح. وقال البوصيري في الزوائد(٣/ ٢٤٦): هذا حديث صالح العمل به. وحسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم(١٠٦).

وفي الزكاةِ أيضًا: إعانةٌ للمجاهدينَ في سبيلِ الله؛ لأنَّ من أصنافِ الزكاةِ الجهادَ في سبيل الله، كما قال الله: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

وفي الزكاةِ تحريرُ الرقيقِ من الرِّق، فإن الإنسانَ يجوزُ له أن يَشْتَري عبدًا مملوكًا من الزكاةِ فيُعْتِقه؛ لأن الله قال: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾.

وفي الزكاة أيضًا: فَكُّ الذِّممِ من الدِّيون. كم من إنسانٍ ابتُلي بتراكم الديونِ عليه فتؤدَّى عنه من الزكاة، فيحصلُ في هذا خيرٌ كثير، فِكاكٌ لِذِمَّتهِ وَرَدُّ حَقٍّ لمنْ له الحقّ.

وفي الزكاةِ أيضاً: إعانة المُسافرين الذين تَنْقَطع بهم السُّبل، فيضيع ماله الذي أتى به معه ولا يجد ما يُوَصِّله إلى بلده، فهذا يُعطى من الزكاة ما يُوصلهُ إلى بَلَده ولو كان غنيًّا في بلده.

المهمُّ أن الزكاة فيها مَصَالحُ كثيرة، ولهذا صارتْ رُكْنًا من أركانِ الإسلامِ.

واختلفَ العلماءُ فيما لو تَهاونَ الإنسانُ بها: هل يَكْفُر كما يَكْفُر بالتَّهاونِ بالصَّلاةِ أو لا؟

والصَّحيحُ أنَّه لا يَكفُر، ودليلُ ذلك ما رواه مسلمٌ عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبيَّ ﷺ قال: **«ما من صاحبِ ذَهَبٍ ولا فضَّةٍ لا يُؤدِّي منها حقَّها إلاَّ إذا كان يومُ القيامةِ صُفِّحَتْ له صفائحُ من نارٍ فأُحْمِيَ عليها في نارِ جهنَّم، فيُكْوَىٰ بها جَنْبُهُ وجبينهُ وظهرُه، كلَّما بَرَدَتْ أُعيدَتْ في يومٍ كان مقدارهُ خمسينَ ألفَ سنة، حتى يُقْضَى بيْنَ العبادِ فيُرى سبيله: إمَّا إلى**

الجنَّة، وإمَّا إلى النار»[١]، فإن هذا الحديثَ يدلُّ على أنَّه لا يكفر، لأنه لو كان كافرًا بتركِ الزكاةِ لم يَكُنْ له سَبيلٌ إلى الجنَّة، والحديثُ يقول: «**ثم يُرى سَبيله: إمَّا إلى الجنَّة وإمَّا إلى النَّار**».

وعن الإمام أحمدَ ـ رحمه الله ـ روايةٌ أنَّه يَكْفُر إذا بخلَ بالزكاة، قال: لأنها رُكْنٌ من أركانِ الإسْلام، وإذَا فاتَ رُكنٌ من أرْكانِ البَيْتِ سَقَطَ البَيْتُ.

ولكنَّ الصحيحَ أنه: لا يكفُر، إلا أنَّه على خطرٍ عظيمٍ ـ والعياذُ بالله ـ وفيه هذا الوعيدُ الشَّديد.

مسألة في الأموالِ الزَّكوية: لأنَّ الأموال ليستْ كلُّها فيها زكاة، بل منها ما فيه الزكاة ومنها ما لا زكاة فيه، فالزكاة واجبةٌ في أمور:

أوَّلاً: الذهبُ والفضَّة: فتجبُ الزكاة فيهما على أيِّ حالٍ كانا، سواء كانتْ نُقودًا كالدَّراهم والدَّنانير، أو تِبْرًا كالقِطَع من الذَّهب والفضَّة، أو حُليًّا يُلبسُ أو يُستعار، أو غيرُ ذلك. فهذا المعدنُ ـ وهو الذهبُ والفضَّة ـ فيه الزكاةُ على كلِّ حال، لكنْ بشرط أن يبلغ النِّصاب لمدَّةِ سنةٍ كاملة.

والنِّصابُ من الذَّهب: خمسةٌ وثمانونَ جرامًا، والنِّصابُ من الفِضَّة سِتةٌ وخمسونَ ريالاً سُعوديًا، وهي خمسُ مائةٍ وخمسةٌ وتسعونَ جرامًا(٥٩٥).

فمن عنده من الذَّهبِ أو الفضَّةِ هذا المقدارُ مَلَكَ النِّصاب، فإذا استمرَّ ذلك إلى تمامِ السَّنة ففيه الزكاةُ، وإنْ نقصَ فلا زكاةَ فيه.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم(٩٨٧).

لو كان عنده ثمانونَ جرامًا فلا زكاةَ عليه، أو كان عنده خَمْسُ مائةٍ وتسعونَ جرامًا (٥٩٠) من الفِضَّةِ فلا زكاةَ عليه.

واختلفَ العلماء: هل يُكمَلُ نِصاب الذَّهب بالفضَّة أو لا؟

يعني لو ملكَ نصفَ نِصابٍ من الذَّهب ونصف نصاب من الفضَّة، فهل يُكْمِلُ بعضَها ببعض ونقول إنه ملك نصابًا فتجبُ عليها الزكاةُ أو لا؟

الصَّحيحُ أنه لا يكمل الذَّهب من الفضَّة، ولا الفضَّةَ من الذهب، فكلُّ واحدٍ مستقلٌّ بنفسه، كما أنَّه لا يكمل البُرَّ من الشعير، أو الشعيرَ من البُرِّ، فكذلك لا يُكملُ الذهبَ بالفضَّة، ولا الفضَّةَ بالذهب، فلو كان عند الإنسانِ نصفُ نِصابٍ من الذهب، ونصفُ نِصابٍ من الفضَّة، فلا زكاة عليه.

ويَلْحَقُ بالذهبِ والفضَّةِ ما جَرَى مَجْرَى الذَّهبِ والفِضَّة، وهي العملةُ النقديَّة، من وَرَقٍ أو نُحاسٍ أو غيرِه، فإنَّ هذه فيها الزكاةُ إذا بلغتْ نِصابًا بأحدِ النقدين، بالذهبِ أو بالفضَّة، فإنْ لم تبلغْ فلا زكاة.

فمثلاً: إذا كان عند الإنسان ثلاثُمائةٍ من الرِّيالاتِ الورقيَّة، لكنها لا تبلغُ نصابًا من الفضَّة، فلا زكاة عليه، لأن هذه مربوطةٌ بالفِضَّة.

وأما الجواهرُ الثَّمينةُ من غير الذَّهب والفِضَّة، مثلُ اللؤلؤ والمَرْجان والمعادنِ الأخرى، كالألماسِ وشَبَهِه، فهذه ليس فيها زكاةٌ ولو كَثُرَ ما عند الإنسانِ منها، إلا ما أعَدَّهُ للتِّجارة، فما أعَدَّهُ للتجارةِ ففيه الزكاةُ من أي صِنفٍ كان، أمّا ما لا يعدُّ للتجارةِ فلا زكاة فيه، إلا الذهب والفضة.

الصنفُ الثاني مما تجب فيه الزكاة: بهيمةُ الأنعام، وهي الإبلُ والبقرُ

والغنم، ففيها الزكاة، لكن بشرطِ أن تبلغَ نصابًا، وأقلُّ نصابٍ في الإبلِ خمس، وَأَقَلُّ نِصابٍ في البقرِ ثَلاثون، وأقلُّ نصابٍ في الغنمِ أربعون.

والبهيمةُ لَيْسَتْ كغيرها من الأموالِ إذا بلغتِ النِّصاب، فما زادَ فبحسابه، لا بل هي مرتَّبة.

ففي أربعينَ من الغنمِ شَاةٌ أيضًا حتى تبلغَ مائةً وإحدى وعِشْرين (١٢١) فيكونُ فيها شاتان.

فالوقصُ ما بين النِّصابينِ ليس فيه زكاة، فمن أربعينَ إلى مائةٍ وعشرينَ كلُّها ليس فيها إلاَّ شاةٌ واحدة. ومن مائةٍ وإحدى وعِشرين إلى مائتين فيه شاتان. وفي مائتين وواحدة(٢٠١) ثلاثُ شِياه، وفي ثلاثمائة: ثلاثُ شياه، وفي ثلاثمائةٍ وتسعٍ وتسعينَ ثلاثُ شياه، وفي أربعمائةٍ: أربعُ شِياه.

وكذلك الإبل: من أربعٍ وعشرينَ فأقلَّ زكاتُها من الغنمِ على كلِّ خمسٍ شاةٌ، ومن الخمسِ وعشرينَ فما فوق زكاتُها من الإبل، لكنها بأسنانٍ مختلفة.

وبهيمةُ الأنعامِ يُشترطُ لُوجُوبِ الزكاةِ فيها أن تبلغَ النِّصاب، وأن تكونَ سائمة، والسَّائمةُ الراعيةُ التي ترعى في البرِّ ولا تعْلف، إمّا السنةَ كلَّها وإمَّا أكثرَ السنة.

فإذا كان عند الإنسانِ أربَعُونَ شاة تسرح وترعى كلَّ السَّنةِ ففيها زكاة، وإذا كانتْ تسرحُ وتَرْعى ثمانيةَ أشْهرٍ ففيها الزكاة، ومثلُها سبعةَ أشهر، وإذا كانت ستَّةَ أشهرٍ ترعى وستَّةَ أشهرٍ تعلفُ فليس فيها زكاة، وإذا كانتْ خمسةَ أشهرٍ ترعى وسبعةَ أشهرٍ تعلفُ فليس فيها زكاة، وإذا كانتْ تعلفُ

كلَّ السنة فليس فيها زكاة؛ لأنه يشترطُ أن تكونَ سائمة، إما السنةَ كلَّها أو أكثرَها.

ولكن إذا كان الإنسانُ مُتَاجرًا في الغنم مثلاً وليس يُبقيها للتَّنميةِ والنسل، وإنَّما يشتري البهيمةَ اليومَ ويبيعُها غدًا يطلبُ الربح، فهذا عليه الزكاة، ولو لم يكنْ عنده إلاَّ واحدة إذا بلغتْ نصابًا في الفضة؛ لأنَّ عروضَ التِّجارة فيها الزكاةُ بكلِّ حال، ونصابُها مقدَّرٌ بنصابِ الذهب أو الفضَّة، والغالبُ أن الأحظَّ للفقراءِ هو الفضةُ في زماننا؛ لأن الذهبَ غالٍ.

الثَّالثُ من الأموال الزكوية: الخارجُ من الأرضِ من حُبُوبٍ وثمارٍ، مثلِ التَّمر، والبُرِّ، والأرُزِّ، والشعيرِ، وما أشبهها. وهذا لابدَّ فيه من بلوغِ النِّصاب وهو ثلاثمائةِ صاعٍ بصاعِ النبيِّ ﷺ. ويعرفهُ الذين يأخذون الزكاةَ من الفلاَّحين.

فإذا كان عند الإنسان نخلٌ يُثْمر، وبلغتْ ثماره نصابًا وجب عليه الزكاة، ويجب عليه أن يخرج من متوسِّطِ الثمر، لا من الطيِّبِ فيُظلم، ولا من الرَّديء فيَظلم، وإنما يكونُ من الوسط.

وإذا باع الإنسانُ ثمرَهُ فإنه يزكِّي من الثمن، ومقدارُ الزكاةِ في الخارجِ من الأرضِ العُشر، إن كان يَشْرب سيحًا بدون مكائن أو مَوَاتيرَ فإنَّ فيه العُشر كاملاً، واحدٌ من عشرة. فإذا كان عنده مثلاً عشرةُ آلافِ كيلو فالواجب عليه ألف كيلو.

أمَّا إذا كان يستخرج الماء بوسيلة، كالمواتيرِ والمكائنِ وشبهها، فإن عليه نِصف العشر، ففي عشرة آلاف كيلو خمسمائة فقط، وذلك لأن الذي

يُسقى بمؤونةٍ يغرمُ فيه الفلاحُ أكثرَ من الذي يُسقى بلا مؤونة.

فكان من حكمةِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ورحمتهِ أن خفَّفَ الزكاةَ على هذا الذي يسقيهِ بالمؤونةِ والتعب.

أما الرابعُ من أصناف الزكاة فهو عُروضُ التجارة: وعُروضُ التجارة: كلُّ ما أعدَّه الإنسان للتجارة، من عقاراتٍ وأقمشةٍ وأواني وسيَّاراتٍ وغيرها، فليس لها شيءٌ معيَّن، فكلُّ ما عرضته للتجارةِ، يعني ملكتَهُ من أجلِ أن تنتظرَ فيه الكسب؛ فإنه عروضُ تجارةٍ يجبُ عليك أن تزكيه.

ومقدارُ الزكاة فيه ربع العُشر كالذَّهب والفِضَّة، أي: واحدٌ في الأربعين. وفي المائة اثنان ونصف.

وإذا كان لديكَ مالٌ وأرَدت أن تعرف مقدار الزكاة فالمسألةُ سهلة، أُقسِّمُ المالَ على أرْبعين والخارجُ بالقسمةِ هو الزكاة.

فإذا كان عند الإنسان أرْبعون ألْفًا من الدَّراهم، فزكاتها ألفُ درهم، وفي مائةٍ وعشرينَ ألفِ ريالٍ ثلاثةُ آلافِ ريال، وهلمَّ جرًّا، المهمُّ إذا أردت حساب زكاتك من المال فاقسم المال على أربعينَ، فالخارجُ بالقسمةِ هو الزكاة.

وسمي عُروضُ التِّجارة عُروضًا؛ لأنه ليس بثابت، بل يعرض ويزول، فكلُّ شيءٍ يعرضُ ويزولُ يُسَمَّى عَرَضًا، كما قال الله تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ [النساء: ٩٤].

والأموالُ التِّجاريَّةُ هكذا عند التُّجار، يشتري الإنسانُ السِّلعةَ لا يريدُ عينها، وإنما يريد ما وراءها من كَسْب، ولهذا تجده يشتريها في الصباح

وتكسبه في آخرِ النهارِ فيبيعها، فعروضُ التجارةِ إذن كلُّ ما أعدَّهُ الإنسانُ للاتِّجارِ ففيه زكاة.

وكيفيَّةُ زكاةِ العُروضِ أنَّه إذا جاء وقت الزكاة في مالك تقوِّمُ كلَّ ما عندك من هذه العُروضِ وتُخرجُ رُبْعَ عُشرِ قيمتها، حتى وإن كنتَ لم تشترِها إلا أخيرًا.

مثالُ ذلك: إنسانٌ تحلُّ زكاتهُ في شهر رجب، واشترى سِلْعةً في شهر ربيع، فنقول له: إذا جاء شهرُ رجب فقدِّرْ قيمتَها بما تساوي وأخرجْ زكاتَها.

فإذا قال: إنها لم تتمَّ عندي سنة؟ قلنا: لا عبرة في عُروضِ التِّجارة بالسَّنة! عروضُ التجارةِ مبنيَّةٌ على القيمة، والقيمةُ لها سنةٌ عندك، فتقدِّرها بما تُساوي وقتَ الوجوب، سواءٌ كانت أكثرَ ممَّا اشتريتَها به أم أقلَّ.

فإذا قُدِّرَ أنكَ اشْتَريتها بعشرةِ آلافِ ريال(١٠٠٠٠) وكانتْ عند وجوبِ الزكاةِ تساوي ثمانيةَ آلافِ ريال(٨٠٠٠) فالزكاةُ على ثمانية. وإذا اشتريتَها بثمانيةٍ وكانتْ تساوي عند وجوبِ الزكاةِ عشرة، فالزكاةُ على العشرة. وإذا كنتَ لا تَدْري هل تكسبُ أو لا تكسبُ فالمعتبرُ رأسُ المال، فاعتبرْ رأسَ المال.

مصارف الزكاة:

تُصرفُ الزكاةُ إلى الذين عيَّنهم الله بحكمته، فقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ﴾أي: لابدَّ أن

تكونَ الزكاة في هذه الأصناف ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

فالفقراءُ والمساكين: هم الذين لا يجدونَ كفايتهم وكفايةَ عوائلهم لمدَّةِ سنة.

مِثاله: رَجُلٌ موظَّفٌ براتبٍ شهريٍّ قَدْرُه أرْبعةُ آلافِ ريال، لكنْ عنده عائلةٌ يَصْرفُ ستَّةَ آلافِ ريال، فهذا يكونُ فقيرًا؛ لأنه لا يجدُ ما يكفيه.

فنعطيهِ أرْبعةً وعشرينَ ألفًا من الزكاةِ من أجلِ أن نُكملَ نفقته.

ورجلٌ آخرُ رَاتبهُ ستَّةُ آلافٍ في الشهر، لكنه عنده عائلةٌ كبيرة، والمؤنةُ شديدةٌ لا يكفيهِ إلا اثنا عشرَ ألفًا، فنعطيهِ من الزكاة اثنينِ وسبعينَ ألفًا. يقولُ العلماء: نعطيه ما يكفيهِ لمدَّةِ سنة. ولا نُعْطيهِ أكثرَ من كفايةِ سَنَة، لأنَّه على مدارِ السَّنةِ تأتي زكاةٌ جديدةٌ تَسُدُّ حاجته، فلهذا قدَّرها العلماءُ بالسَّنة.

فإذا قال قائل: أيُّهما أشدُّ حاجة: الفقيرُ أو المسكين؟

قال العلماء: إنما يبدأ بالأهمِّ فالأهمّ، والله تعالى قد بدأ بالفقير، فيكون الفقيرُ أشدَّ حاجةً من المسكين.

الثالث: العاملونَ عليها: أي: الذين وَلأَهمْ رئيسُ الدَولةِ أمْر الزكاةِ يأخذونها من أهلها ويُنفقونها في مُسْتحقِّها، فيعطيهم رئيسُ الدَّولةِ مقدارَ أجرتهم ولو كانوا أغنياء؛ لأنهم يستحقُّونها بالعملِ لا بالحاجة.

فإذا قال وليُّ الأمر: هؤلاء الواحدُ منهم إذا عملَ بالشَّهرِ فراتبهُ ألفُ ريال، فنعطيهم على ألفِ ريالٍ من الزكاة؛ وذلك لأنهم يتصرَّفونَ في الزكاة لمصلحةِ الزّكاةِ فأُعْطُوا منها. لكن إذا أحبَّ وليُّ الأمرِ أن يُعطيهم من

بيتِ مالِ المسلمينَ المالَ العامَّ ليوفِّرَ الزكاةَ لمستحقِّيها فلا بأس.

الرابع: المؤلَّفةُ قلوبهم: وهم الذين يؤلَّفون على الإسلام، يكونُ رجلٌ آمنَ حديثًا ويحتاج أن نقوِّيَ إيمانه، فنعطيه من الزكاة من أجل أن يألف الإسلام ويحبَّ المسلمينَ ويَتَقَوَّى، ويعرف أن دين الإسلام دينُ صِلةٍ وَدينُ رَابطة.

ثانيًا: ومن التَّأْليفِ أن نُعطيَ شخصًا للتَّخَلُّصِ من شرِّه؛ حتى يزولَ ما في قلبه من الحقد على المسلمين والعداوة.

واختلفَ العلماء: هل يُشترطُ في المؤلَّفةِ قلوبهم أن يكونَ لهم سِيادةٌ وشَرَفٌ في قومهم أو لا يشترط؟

والصَّحيح أنَّه لا يشترط، حتى لو أعطيتَ فردًا من الناسِ لتؤلِّفَهُ على الإسلامِ كفى.

أمّا إذا أعطيتَ فردًا من الناس من أجلِ أن تدفعَ شرَّه فهذا لا يجوز؛ لأنَّ الواحدَ من الناسِ ترفعهُ إلى وُلاَةِ الأمورِ ويأخذونَ حقَّكَ منه.

الخامس: ﴿وفي الرِّقاب﴾: ذكرَ العلماءُ أنها تشمل ثلاثة أنواع:

النوعُ الأول: أن تَشْتري عبدًا فتُعتقه.

النوعُ الثَّاني: أن تُساعدَ مكاتبًا في مكاتبته، والمكاتبُ هو العبدُ الذي اشترى نفسه من سيِّده.

الثالث: أن تفكَّ بها أسيرًا مُسْلِمًا عند الكفَّارِ أو عند غيرهم، حتى لو اختُطِفَ مسلمٌ عند أناسٍ ظلمةٍ ولم يَفكوه إلا بفداءٍ من الزكاةِ فلا بأس.

السَّادس: قوله: ﴿**والغارمين**﴾: والغارم: هو الذي يكونُ في ذِمَّتهِ

دَيْنٌ لا يستطيعُ وَفَاءه، أو يكونُ في ذمَّتهِ دَيْنٌ لمصلحةٍ عامَّةٍ وإن كان يستطيعُ وفاءه، ولهذا قال العلماء: إن الغُرْمَ نوعان:

النَّوعُ الأول: الغارمُ لغيره.

والثَّاني: الغارمُ لنفسه.

الغَارمُ لغيرهِ: هو الذي يَغْرمُ مالاً لإصلاحِ ذاتَ البين، مثلَ أن يكونَ بين قبيلتينِ نزاعٌ ومُشَاجرةٌ ومخاصمةٌ ومُعَاداةٌ وبغضاء، فيقومُ رجلٌ من أهلِ الخيرِ فيُصلحُ بين القَبيلتين على مالٍ يَلْتَزِم به في ذِمَّته، فهنا يكونُ غارمًا لكن ليس لنفسه، بل لمصلحةٍ عامَّةٍ، وهي الإصلاحُ بين هاتينِ القبيلتين.

قال العلماء: فيُعطىٰ هذا الرجلُ ما يُوفِّي به الغُرْمَ وإنْ كان غنيًّا؛ لأن هذا ليس لنفسه، بل لمصلحةِ الغير.

فلو قدِّرَ أنَّ رجلاً عنده مائةُ ألفِ ريال فأصلحَ بين قبيلتينِ بعشرةِ آلافِ ريالٍ يستطيعُ أن يوفِّيَها من ماله، لكن نقولُ لا يلزمه، بل نُعْطيهِ من الزكاةِ ما يدفعُ به هذا الغُرْم؛ لأنَّ ذلك لمصلحةِ الغير؛ ولأن هذا يفتحُ بابَ الإصلاحِ للنَّاس؛ لأنَّنا لو لم نُعِنْ هذا الرجلَ ونُعْطِهِ ما غَرِم؛ لتكاسلَ الناسُ عن الإصلاحِ بين الفئاتِ المتناحرةِ أو المُتَعاديَة، فإذا أعطينا من غَرِمَ صارَ في هذا تنشيطٌ له.

أما النَّوع الثَّاني: فهو الغَارمُ لنفسه، مثلُ رجلٍ استأجرَ بيتًا بخمسةِ آلافِ ريالٍ وليس عنده ما يدفع به الإجار.

هو نفسهُ في أكْلِهِ وشُربهِ ولباسهِ ليس محتاجًا، لكنْ يحتاجُ إلى وفاءِ الدَّين الذي لزمَهُ بالاستئجارِ للبيت، فنعطي هذا الرجلَ أُجرةَ البيتِ من

الزكاة؛ لأنَّه من الغارمين.

كذلك إنسانٌ أُصيبَ بجائحةٍ اجتاحتْ ماله، مثلِ الحريقِ أو الغرقِ أو ما أشبهَ ذلك، وقد لحقه في هذا دَيْنٌ، فنعطيهِ ما يُسَدِّدُ دينه، لأنه غيرُ قادرٍ على الوفاء.

هذا النَّوعُ من الغُرْمِ يشترط فيه أن يكون الغَارم عاجزًا عن وفاء الدَّين، فإنْ كان قادرًا، فإنه لا يعطى، ولكن هلْ يجوزُ أن يذهبَ الإنسانُ لمن له الدَّين ويقولَ له: هذا الطَّلبُ الذي لك على فلان خذهُ، ويَنْويهِ من الزكاة؟

الجواب: نعم يَجُوز، وليس بِشَرطٍ أن تعطي الغَارمَ ليعطيَ الدَّائن، بل لو ذهبتَ للطالبِ منذ أوَّلِ الأمرِ وقلتَ له: يا فلان بلغني أنك تطلب من فلان عشرة آلاف ريال، قال نعم، وأثبت ذلك، فتعطيهِ إيَّاها، ولا حاجة لإخبار المَدين، وذلك لأنَّ المقصودَ هو إبراءُ الذمَّة، وهو حاصلٌ سواءٌ أخبرتَهُ أم لم تخبره. وتأمَّلِ التَّعبيرَ في الآية: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ كلُّ هذه الثلاثُ معطوفةٌ على قوله: ﴿للفقراء﴾ باللام ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ ولم يقلْ وللرقاب، بل قال ﴿في﴾ الدَّالةُ على الظَّرفية، يعني أنك إذا صرفتَ الزكاة في هذه الجهاتِ يجوزُ وإنْ لم تعطِ صاحبها.

﴿والغارمين﴾ معطوفةٌ على ﴿وفي الرقاب﴾ فيه من مدخولِ في، أي: وفي الغارمين، فلا حاجة لأنَّ تملِّكَ الغارمَ ليعطيَ الدائن، بل يكفي أن تذهبَ وتُعطيَ الدائنَ ليبرىءَ المَدين.

فإذا قال قائل: هل الأحسنُ أن أذهب إلى الدَّائنِ وأُوَفِّيَهُ، أو أُعطيَ

الغَريمَ لكي يوفِّي بنفسه؟

نقول: في هذا تَفْصيل:

إذا كنتَ تخشى أنّك لو أعطيتَ الغَريم لم يُوفِ، بل أكلَ الدَّراهم وترك الدَّين على ما هو عليه فهنا لا تُعطِ الغريم، بل أعْطِ الدَّائن؛ لأنك لو أعطيتَ الغارمَ سيُنفقُ الأموال في أمور غير مهمَّةٍ وتركَ الدَّين، وبعضُ الناس لا يهتمُّون بالدَّين الذي عليهم، فإذا كنت تعلمُ أن المَدينَ (الغارمَ) لو أعطيتَهُ لأفسدَ المال وبقيتْ ذمَّتهُ مشغولة، فلا تُعطهِ وأعطِ الدائن، أمّا إذا كان الغَريمُ صاحبَ عَقْلٍ وَدِين، ولا يمكنُ أن يَرْضى ببقاءِ ذِمَّتهِ مَشْغولة، ويغلبُ على ظنِّي كثيرًا أنني إذا أعطيته سوف يذهب فورًا إلى الدَّائن ويقضي من دَيْنه، فَهُنا نُعْطي الغَريم، نقول: خذْ هذه الدَّراهمَ أوفِ بها عن نفْسك؛ لأنَّ هذا أسْترُ له وأحسن، ولكنْ يجبُ علينا إذا كنا نُوَزِّعُ الزكاةَ أن نَحْذَرَ من حيلةِ بعضِ النَّاس!

بعضُ النَّاس يقدِّمُ لك كَشفًا بالدَّين الذي عليه، وتُوفي ما شاءَ الله أن تُوفي، وبعد سنةٍ يقدِّمُ لك نفس الكشف ولا يخصمُ الذي أوفى عنه، فانتبه لهذا؛ لأنَّ بعض الناس ـ والعياذُ بالله ـ لا يهمُّهُ حلالٌ أم حرام، المهمُّ اكتسابُ المال، فيأتي بالقائمةِ الأولى التي قد قضى نصفها ويعرضها عليك، فانتبه لذلك.

وقد قُدِّمَ لنا من هذا النوعِ أشياء، وذهبنا نسلِّمُ الدائنَ بناءً على الكشفِ الذي قدَّم، فقال الدائن: إنه قد أوفاني. وهذه مشكلة، لكنَّ الإنسان يتحرَّز، وهو إذا اتَّقى الله ما استطاع، ثم تبيَّنَ فيما بعدُ أن الذي أخذَ الزكاةَ

ليس أهلاً لها فإن ذمَّتهُ تبرأ، وهذه من نعمة الله. يعني لو أعطيتَ زكاتك شخصًا ثُمَّ تبيَّنَ لك أنه ليس من أهلِ الزكاةِ رغمَ أنك اجتهدتَ فلا شيء عليك، وزكاتُكَ مقبولة.

السَّابع قوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

والجهادُ في سبيلِ الله هو القتالُ لتكونَ كلمةُ الله هي العليا، هكذا حدَّدهُ النبيُّ ﷺ حينما سُئلَ عن الرجلِ يقاتلُ شَجاعَة، ويُقَاتِل حَمِيَّة، ويُقَاتِل لِيُرَى مَكَانهُ، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ قال: «**مَنْ قاتلَ لتكونَ كلمةُ الله هي العُليا فهو في سبيلِ الله**»[1]، وهذه كلمةٌ جامعةٌ مانعة. وقد تقدَّمَ الكلامُ على هذا[2].

تنبيه: يجوزُ قَتْلُ المُسْلمِ الظَّالمِ في الحربِ وإن كان مُسلِمًا.

فإذا قال قائل: وإن كان مُكْرهًا؟

الجوابُ: أنَّ شيخَ الإسلام ابنَ تيميَّةٍ ـ رحمه الله ـ قال: إذا قاتلَ المُسْلِمونَ مع التَّتارِ فإنهم يُقَاتَلونَ وإنْ كانوا مُسلِمين، ولو كانوا مُكْرَهينَ.

فإن كانوا صادِقينَ بأنّهم مُكْرهونَ فإنَّ لهم أجرَ الشَّهيد؛ لأنهم قُتِلوا ظُلمًا من الذي أكرههم، لأن الظُّلمَ على الذي أكرههم.

وإن كانوا غيرَ صَادقين، بل هم مُخْتَارون طائعونَ، فهذا ما أصابهم

---

(١) تقدم تخريجه ص (٣٤).
(٢) انظر ص (٣٤).

وهم الَّذين جرُّوه على أنفسهم. وقد قال ـ رحمه الله ـ في تعليلِ ذلك: إنَّه لا يعلمُ المُكرَهُ من غير المُكرَه؛ لأنَّ ذلك محلُّهُ القلب، فالاختيار والكراهة محلُّها القلب، فلا يُعلمُ المكرَهُ من غيره، فيُقتلُ المُكرَهُ دفاعًا عن الحقِّ وحِسابهُ علَى الله.

نعم، لو فُرِضَ أنه أُسِرَ وهو مُسْلمٌ حقيقةً فإنَّه لا يجوزُ قتله، أمَّا في ميدانِ القتالِ فإنَّه يُقتل.

وقد ذكرها رحمه الله في الفتاوى في كتاب الجهاد ج(٢٨) ص(٥٤٤ ـ ٥٥٣).

وقوله سبحانه تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يشملُ إعطاءَ الزَّكاةِ للمجاهدينَ أنفسهم، وشِراءَ الأسلحة لهم.

فَشِراءُ الأسْلحةِ من الزَّكاةِ جائزٌ من أجلِ الجهادِ في سبيلِ الله.

قال أهلُ العلم: ومن ذلك: أن يتفرَّغَ شخصٌ لطلبِ العلمِ وهو قادرٌ على التكسُّب، لكنَّه تفرَّغَ من أجلِ أن يَطْلُبَ العلم، فإنه يُعْطَىٰ من الزكاةِ مقدارَ حاجته؛ لأنَّ طلبَ العلمِ جهادٌ في سبيلِ الله. أمّا مَنْ تفرَّغَ للعبادةِ فلا يُعطىٰ من الزكاة، بل يُقالُ اكتسب. وبهذا عرفنا شرف العلم على العِبادة.

فلو جاءَنَا رَجُلان أحدهما ديِّنٌ طيِّبٌ ويقول: أنا أسْتطيع أن أتكسَّبَ لكنْ أحبُّ أن أتفرَّغَ للعبادةِ من الصَّلاةِ والصِّيامِ والذكرِ وقراءةِ القرآن فأعطوني من الزّكاةِ واكفوني العمل! نقول: لا نعطيكَ بل اكتسب.

وجاءَ رجلٌ آخرُ قال: أنا أريدُ أن أتفرَّغَ لَطَلب العلم وأنا قادرٌ على التَّكَسُّب، لكن إنْ ذهبتُ أتكسَّبُ لم أطلبِ العلمَ فأعطوني ما يكفيني من

أجلِ أن أتفرَّغَ لطلبِ العلم، قلنا: نُعْطيكَ ما يكفيكَ لطلبِ العلم، وهذا دليلٌ على شرفِ العلم وطلبه.

الثَّامن: ﴿ابنُ السبيل﴾: وهو الصنفُ الثامنُ من أصنافِ أهلِ الزكاة.

وابنُ السَّبيل هو المسافر الذي انقطع به السَّفر ونَفِدتْ نَفَقَتُه، فلم يكنْ معه ما يُوصلهُ إلى بلده، فإنَّه يُعْطى من الزّكاةِ ما يُوصلهُ إلى بلده.

وليس هذا من باب الفُقَراءِ والمَسَاكين؛ لأنه غنيٌّ في بلده، لكن قصرتْ به النَّفقةُ في أثناء السَّفر، فيُعطى ما يُوصلهُ إلى بلده ولو كان غنيًّا.

وسُمِّي ابنَ سَبيل لمصاحبته للسَّفر، كما يُقالُ ابن الماء في طير الماء الذي يألف الماء فيقعُ عليه.

هؤلاءِ ثمانيةُ أصنافٍ لا يجوز صَرْف الزَّكاة في غيرهم، فلا يجوز أن تصرف الزكاةُ في بناءِ المَسَاجد، ولا في إصلاحِ الطُّرق، ولا في بناءِ المَدَارس، ولا غيرها طرقِ الخير؛ لأن الله ذكر هذه الأصناف بصيغةٍ محصورة فقال: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ . . . ﴾ [التوبة: ٦٠]، و﴿إنما﴾ تُفيدُ الحَصْر، وهو إثباتُ الحكمِ في المذكور ونفيهُ عَمَّا سواه، ولو قلنا بجوازِ صَرْف الزكاة في جميع وجوه الخير لفاتتْ فائدةُ الحصر، ولكنَّ بناء المساجد وإصلاح الطُّرق وبناء المدارس وما أشبهها تفعل من طرقٍ أخرى، من طرقِ البرِّ والصدقات والتَّبرعات.

هذا هو الرُّكنُ الثَّالثُ من أركانِ الإسلام الذي ذكرهُ النبيُّ ﷺ لجبريلَ ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ في حديثهِ الطَّويل!

أمَّا الرابع فقد قال: «وَصَومُ رمضان»:

ورمضانُ شهرٌ بين شعبانَ وشوّال، وسُمِّيَ رمضانُ بهذا الاسم، قيل: لأنه عند أوَّلِ تسميةِ الشُّهورِ صادفَ أنَّه كان في شدَّةِ الرَّمضاءِ والحرِّ فسُمِّيَ رمضان.

وقيل: لأنَّه تُطْفأ به حرارةُ الذُّنوب؛ لأن الذُّنوبَ حارَّة: و«**مَنْ صامَ رمضانَ إيمانًا واحْتِساباً غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبه**»[1]، والمهمُّ أن هذا الشَّهرَ معلومٌ للمسلمين، ذكره الله ـ سبحانه وتعالى ـ باسمهِ في كتابه فقال: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ولم يذكرِ الله اسمًا لشهرٍ من الشُّهورِ سوى هذا الشهر.

وصيامُ رمضان ركنٌ من أركان الإسلام لا يتمُّ الإسلامُ إلاَّ به، ولكنه لا يجبُ إلا على من تمَّتْ فيه الشُّروط الآتية:

أن يكونَ مُسْلمًا، وأن يكونَ بالغًا، وعاقلاً، قادرًا، مقيمًا، سَالِمًا من الموانع. هذه ستَّةُ شُروط.

ـ فإن كان صغيرًا لم يجبْ عليه الصَّوم، إن كان مجنونًا لم يجبْ عليه الصَّوم، إن كان كافرًا لم يجبْ عليه الصَّوم، إن كان عاجزًا فعلى قسمين:

أ ـ إن كان عجزه يُرجى زَوَاله كالمرض الطَّارِئِ أُفْطِرَ، ثمَّ قضى أيَّامًا بعددِ ما أُفطر.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتسابًا من الإيمان، رقم(٣٨)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح، رقم(٧٦٠).

ب ـ وإن كان عجزًا لا يُرجى زَوَالُه كالكِبَرِ والأمراضِ التي لا يُرجىٰ بَرْؤها فإنه يُطْعِمُ عن كلِّ يوم مِسكينًا.

ـ و«مقيمًا» ضدُّهُ المسافر، فالمسافرُ ليس عليه صوم، ولكنه يقضي من أيام أُخَر.

ـ «سَالمًا من الموانعِ» احْترازًا من الحائضِ والنُّفَسَاء، فإنَّهما لا يجبُ عليهما الصَّوم، بل ولا يجوزُ أن تصوما، ولكنهما تقضيان.

وصومُ رمضانَ يكونُ بعددِ أيَّامه، إمَّا تسعةً وعشرين، وإمَّا ثلاثين، حسبَ رؤيةِ الهلال؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«إذا رأيْتُموهُ فَصُومُوا، وإذا رأيتُموه فأفطِرُوا، فإنْ غُمَّ عليكم فأكملوا العِدَّة ثلاثين»**[(١)] عدَّةَ شعبانَ إن كان في أوَّل الشهر، وعدَّةَ رمضانَ إن كان في آخرِ الشَّهر.

الركن الخامس: «حج البيت»:

وهو بيتُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ أي: قَصْدُه لأداءِ المَنَاسكِ التي بيَّنها الله سبحانه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ.

فحجُّ البيت أحدُ أركانِ الإسلام، ومِنْ حجِّ البيتِ العمرةُ، فإنَّ النبيَّ ﷺ سمَّاها حجًّا أصغر. ولكن له شروطٌ، منها البلوغ، والعقل،

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال والفطر لرؤية الهلال، رقم(١٠٨١)، وأخرج نحوه البخاري بلفظ: **«صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غُمّي عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين»**، البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ: **«إذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا»**. رقم(١٩٠٩).

والإسلام، والحُرية، والاستطاعة، خمسةُ شروط! فإذا اخْتَلَّ شَرْطٌ واحدٌ منها فإنَّه لا يجب.

ولكنَّ العجز عن الحجِّ إن كان بالمالِ فإنَّه لا يجبُ عليه، لا بنفسهِ ولا بنائبه.

وإن كان بالبدن: فإن كان عجزًا يُرجىٰ زَوَاله انتظر حتى يُعافيه الله ويَزول المانع، وإن كان لا يُرجى زوالهُ كالكِبَر، فإنَّه يلزمه أن يُنيب عنه من يأتي بالحج، لأنَّ امرأةً سألتِ النبيَّ ﷺ فقالت: «إنَّ أبي أدْرَكَتْهُ فريضةُ الله على عَبادِهِ شيخًا لا يثبتُ على الراحلة، أفأحجُّ عَنه» قال: «نعم»[1].

فأقرَّها النبيُّ ﷺ. على أنها سمَّتْ هذا فريضةً مع أنَّه لا يستطيع، لكنه قادرٌ بماله، فقال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «حُجِّي عنه»!

هذه خمسةُ أركانٍ هي أركانُ الإسلام: شهادةُ أن لا إله إلا الله وأن محمّدًا رسول الله، وإقامُ الصلاة، وإيتاءُ الزكاة، وصومُ رمضان، وحجُّ بيتِ الله الحرام.

فقال جبريل للنبيِّ ﷺ لمَّا أخْبَره بذلك، قال له: «صَدَقْتَ». قال عمر: «فعجبنا له يسأله ويصدِّقه»؛ لأن الذي يصدِّقُ الشخصَ بقولهِ يعني أنَّ عنده علمًا من ذلك. فعجبنا كيف يسأله ثم يقول صدقت. والسَّائلُ إذا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب وجوب الحج وفضله، رقم(١٥١٣)، ومسلم، كتاب الحج، باب الحج على العاجز لزمانة وهرم ونحوهما أو للموت، رقم(١٣٣٤، ١٣٣٥).

أُجيبَ يقولُ فهمت، لا يقولُ صَدَقت، لكن جبريل ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ عنده عِلْمٌ من هذا، ولهذا قال: «صَدَقت».

وقوله: «أخبرني عن الإيمان»:

الإيمانُ مَحَلُّهُ القلب، والإسلامُ محلُّه الجوارح، ولهذا نقول: الإسلامُ عملٌ ظاهريّ، والإيمانُ أمرٌ باطنيّ، فهو في القلب.

فالإيمان: هو اعتقادُ الإنسانِ للشَّيءِ اعتقادًا جَازمًا به لا يتطرَّقُ إليه الشَّكُّ ولا الاحتمال، بل يُؤمنُ به كما يُؤمنُ بالشَّمسِ في رابعةِ النهارِ لا يُمترىٰ فيه، فهو إقرارٌ جازمٌ لا يلحقهُ شكٌّ مُوجب لقبول ما جاءَ في شرعِ الله، والإذعانِ له إذعانًا تامًّا. فقال له: «**الإيمانُ أن تُؤمِنَ بالله، ومَلائِكَتِه، وكُتُبِه، ورُسُله، واليَومِ الآخِر، وتُؤمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّه**» هذه ستَّةُ أركانٍ هي أركانُ الإيمان:

قوله: «أنْ تُؤمنَ بالله»:

أي: تؤمنَ بأنَّ الله سبحانه مَوْجودٌ، حيٌّ، عَليم، قَادرٌ، وأنَّه سبحانه وتعالى ربُّ العالمين، لا رَبَّ سِواه، وأنَّ له المُلْكَ المُطْلق، وله الحمدُ المطلق، وإليه يرجعُ الأمرُ كُلُّه، وأنه سبحانه هو المستحقُّ للعبادةِ لا يستحقُّها أحدٌ سواه، سبحانه وتعالى، وأنَّه هو الذي عليه التُّكلان، ومنه النَّصر والتَّوفيق، وأنَّه مُتَّصفٌ بكلِّ صفاتِ الكمالِ على وجهٍ لا يُماثلُ صِفَاتِ المخلوقين؛ لأنَّه سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

إذًا تؤمنُ بوجودِ الله، وبربوبيته، وأُلُوهيته، وأسمائهِ وصفاته، لابدَّ

من هذا، فمن أنكرَ وجودَ الله فهو كافر، ـ العياذ بالله ـ مُخَلَّدٌ في النَّار، ومن تَرَدَّدَ في ذلك أوْ شَكَّ فهو كافر؛ لأنَّه لابدَّ في الإيمانِ من الجزمِ بأن الله حيٌّ، عليمٌ، قادر، موجود. ومن شكَّ في ربوبيته فإنَّه كافر.

ومن أشْرَكَ معه أحدًا في رُبُوبيته فهو كافر، فمن قال إنَّ الأولياءَ يُدَبِّرُونَ الكونَ ولهم تَصَرُّفٌ في الكونِ فدعاهم واسْتَغَاثَ بهم واسْتَنْصَرَ بهم فإنَّه كافرٌ والعياذ بالله؛ لأنَّه لم يؤمنْ بالله.

ومن صرفَ شيئًا من أنواعِ العبادةِ لغيرِ الله فهو كافر، لأنَّه لم يُؤْمنْ بانفرادهِ بالألوهية.

فمن سجدَ للشَّمسِ أو للقمر، أو للشَّجر، أو للنَّهر، أو للبحر، أو للجبال، أو للمَلِك، أو لنبيٍّ من الأنبياء، أوْ لوليٍّ من الأولياء، فهو كافرٌ كفرًا مُخرِجًا عن الملَّة؛ لأنَّه أشركَ بالله معه غيره.

وكذلك من أنكرَ على وجهِ التكذيبِ شيئًا مِمَّا وَصَفَ الله به نفسَهُ فإنَّهُ كافر؛ لأنَّه مُكَذِّبٌ لله تعالى ورسولهِ ﷺ.

فإذا أنكرَ صفةً من صفاتِ الله على وجهِ التكْذيب فهو كافر؛ لتكذيبهِ لما جاءَ في الكتابِ والسنة. فإذا قال مثلاً: إن الله لم يستوِ على العرشِ ولا ينزلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا فهو كافر.

وإذا أنكرها على وجهِ التَّأويل فإنَّه يُنظر: هل تأويلهُ سائغٌ يمكنُ أن يكون محلاً للاجتهاد أو لا، فإنْ كان سَائغًا فإنه لا يكفر، لكنه يفسق؛ لخروجهِ عن منهجِ أهل السُّنةِ والجماعة.

وأما إذا كان ليس له مسوّغ، فإن إنكارَ التَّأويلِ الذي لا مسوّغَ له

كإنكارِ التكذيب؛ فيكون أيضًا كافرًا ـ والعياذُ بالله ـ .

وإذا آمنتَ بالله على الوجهِ الصحيح، فإنك سوف تقومُ بطاعتهِ ممتثلاً أمرَهُ مجتنبًا نهيه؛ لأن الذي يؤمنُ بالله على الوجهِ الصَّحيحِ لابدَّ أن يقعَ في قلبه تعظيمُ الله على الإطلاق، ولابُدَّ أن يقع في قلبهِ محبَّةُ الله على الإطلاق، فإذا أحبَّ الله حُبًّا مطلقًا لا يُساويهِ أيُّ حبّ، وإذا عَظَّمَ الله تعظيمًا مطلقًا لا يساويهِ أيُّ تعظيم، فإنه بذلك يقومُ بأوامرِ الله وينتهي عمَّا نهى الله عنه.

كذلك يجبُ عليك ـ من جملةِ الإيمانِ بالله ـ أن تؤمنَ بأن الله فوقَ كلِّ شيء، على عرشهِ استوى، والعرشُ فوق المخلوقاتِ كلِّها، وهو أعظمُ المخلوقاتِ التي نعلمها؛ لأنه جاءَ في الأثر: «**إنَّ السَّمَوَاتِ السَّبعَ والأرَضينَ السَّبعَ بالنَّسبةِ للكُرسيِّ كحَلَقَة أُلقيتْ في فَلاَةٍ من الأرْض**»[1].

السمواتُ السبعُ على سعتها والأرَضين السبعُ بالنسبةِ للكرسيِّ كحلقةٍ بالنسبةِ للأرض.

ألقِ حلقةً من حلق المِغْفَرِ في فلاةٍ من الأرض وانظرْ نِسْبةَ هذه الحلقة بالنِّسبة للفلاة ماذا تكون؟

لا شيء! ما هذه الحلقةُ بالنسبة للفلاة؟ ليستْ بشيءٍ. وفي بقيَّةِ الأثر: «**وإنَّ فضلَ العَرْشِ على الكرسيِّ كفضلِ الفلاةِ على هذه الحلقة**».

إذًا الكرسيُّ بالنِّسبةِ للعرشِ كحلقةٍ أُلقيتْ في فلاةٍ من الأرض. فانظرْ

---

(١) تقدم تخريجه ص (٣٣٠).

إلى عِظَمِ هذا العرش، ولهذا وصَفَه الله بالعظيم، كما قال: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وقال: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]، فوصفَهُ الله بالمجدِ والعظمة، وكذلك بالكرم.

فهذا العرشُ استوى الله تعالى فَوْقَه، فالله فَوْقَ العرش، والعرشُ فوق جميع المخلوقات، والكرسيُّ ـ وهو صغيرٌ بالنسبةِ للعرش ـ وَسِعَ السمَّاواتِ والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فيجب عليكَ أن تؤمنَ بأن الله تعالى فوق كلِّ شيء، وأن جميعَ الأشياء ليستْ بالنِّسبةِ إلى الله شيئًا، فالله تعالى أعْظَمُ وأجَلُّ من أن يحيطَ به العقلُ أو الفكر، بل حتى البصرُ إذا رأى الله ـ والله سبحانه وتعالى يراهُ المؤمنونَ في الجنَّة ـ لا يمكن أن يدركوهُ أو يحيطوا به، كما قال الله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فشأنُ الله أعْظَمُ شأنٍ وأجلُّ شأن، فلابدَّ أن تؤمنَ بالله ـ سبحانه وتعالى ـ على هذا الوَجهِ العَظيمِ حتَّى يوجبَ لكَ أن تعبدَهُ حَقَّ عبادته.

ومن الإيمانِ بالله: أن تؤمنَ بأنَّ الله تعالى قد أحاط بكلِّ شيءٍ علمًا، وأنَّه يعلمُ خائنةَ الأعيُنِ ومَا تُخْفي الصُّدور، ويعلمُ ما في السمَّاواتِ وما في الأرْضِ من قليلٍ وكثير، وجليلٍ ودقيق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

وكذلك تؤمنُ بأن الله تعالى على كلِّ شيء قدير، وأنَّه إذا أرادَ شيئًا فإنَّما يقولُ له كنْ فيكون، مهما كان هذا الأمر. وانظرْ إلى بَعْثِ النَّاسِ وخَلْقِ النَّاس، الناسُ ملايين لا يُحصيهم إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وقد قال الله

تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان: ٢٨]، كلُّ الخلائقِ خَلْقُهم وبَعْثُهم كنفسٍ واحدة.

وقال الله عزَّ وجلَّ في البعث: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤].

وترى شيئًا من آياتِ الله في حياتِكَ اليوميّة، فإنَّ الإنسانَ إذا نامَ فقد توفَّاهُ الله، كما قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ﴾ [الأنعام: ٦٠]، لكنَّها ليستْ وفاةً تامَّةً تُفَارِقُ فيه الرُّوحُ الجسدَ مفارقةً تامَّة، لكن مفارقة لها نوعُ اتِّصالٍ بالبدن، ثم يبعثُ الله النائمَ من نومهِ فيحسُّ بأنَّه قد حيي حياةً جديدة، وكان أثرُ هذا يظهرُ قبل أن توجدَ هذه الأنوار الكهربائيَّة، لمّا كان الناسُ إذا غشيهم الليل أحسُّوا بالظُّلمةِ وأحَسُّوا بالوحشة وأحسُّوا بالسُّكون، فإذا انبلج الصُّبح أحَسُّوا بالإسفار، والنُّور والانشراح، فيجدون لَذَّةً لإدْبَارِ الليلِ وإقبالِ النهار.

أمّا اليومَ فقد أصبحتِ اللَّيالي كأنَّها النَّهار، فلا نجدُ اللذَّةَ التي كنّا نجدها من قبل، ولكنْ مع ذلك يحسُّ الإنسانُ بأنه إذا استيقظ من نَومهِ فكأنَّما استيقظَ إلى حياةٍ جديدة، وهذه من رحمةِ الله وحكمته.

وكذلك نؤمنُ بأن الله سَميعٌ بَصيرٌ، يَسْمَعُ كلَّ ما نقولُ وإنْ كان خفيًّا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقال الله عزَّ وجل: ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧]، أي: أخفى من السِّر، وهو ما يُكِنُّهُ الإنسانُ في نفسه، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ [ق: ١٦]، أي: ما تُحدِّثُ به

نفسهُ يعلمهُ الله وإن كان لم يظهرْ للعباد.

وهو ـ عزَّ وجلَّ ـ بَصيرٌ، يُبصرُ دَبيبَ النَّملِ الأسودِ على الصَّخرةِ السَّوداء في ظلمةِ اللَّيل، لا يخفى عليه.

فإذا آمنتَ بعلمِ الله، وقُدْرته، وسَمعه، وبصره؛ أَوْجبَ لك ذلك أن تراعيَ ربَّك ـ عزَّ وجلَّ ـ وأن لا تُسمعهُ إلاَّ ما يرضى به، وأن لا تفعلَ إلا ما يرضى به، لأنك إنْ تكلَّمتَ سمعك، وإن فعلتَ رآكَ الله، فأنت تخشى ربَّكَ، وتخافُ من ربِّك أن يَراك حيث نهاكَ، أو يَفقدكَ حيث أمَرَك، وكذلك تخشى من ربِّكَ أن تُسمعه ما لا يرضاه، وأن تسكتَ عمَّا أمركَ به.

كذلك إذا آمنتَ بتمامِ قدرةِ الله فإنَّك تسألهُ كلَّ ما تريدهُ ممَّا لا يكونُ فيه اعتداءٌ في الدعاء. ولا تقلْ إن هذا بعيد، وإن هذا شيءٌ لا يمكن! كلُّ شيءٍ ممكنٌ على قدرةِ الله.

فها هو موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لمّا وصلَ إلى البحرِ الأحمرِ هَاربًا من فرعون وقومه، أمره الله أن يضرب البحر بعصاه، فَضَرَبَه، فانفلقَ اثني عشر طريقًا، كان الماءُ بين هذه الطرقِ كالجبال. وفي لحظةٍ يبسَ البحرُ وصاروا يمشونَ عليه كأنما يمشونَ على صحراءَ لم يُصبْها الماءُ أبدًا بقدرةِ الله سبحانه وتعالىٰ.

ويُذكرُ أن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ لمّا كان يفتحُ بلادَ فَارسَ ووصلَ إلى دِجلة ـ النَّهرِ المعروفِ في العراق ـ عَبَرَ الفُرْسُ النهرَ مشرِّقينَ وكسروا الجسورَ وأغرقوا السُّفنَ لئلا يعبرَ إليهم المسلمون، فاستشارَ ـ رضي الله عنه ـ الصَّحابةَ، وفي النهايةِ قرَّروا أن يعبروا النَّهر، فعَبروا النهرَ

يمشون على سطحِ الماءِ بخيلهم وإبلهم ورَجِلهم لم يمسُّهم سوء!

فمن الذي أمسك هذا النهر حتى صار كالصَّفاء، كالحجرِ يسيرُ عليه الجندُ من غيرِ أن يغرقوا؟ إنه هو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الذي على كلِّ شيء قدير.

وكذلك جرى للعلاء بن الحضرمي ـ رضي الله عنه ـ حينما غزا البحرين واعترضَ لهم البحر، دعا الله ـ سبحانه وتعالى ـ فعَبروا على سطح الماءِ من غير أن يَمَسَّهم سُوء.

وآياتُ الله كثيرة، فكلُّ ما أخبرَ الله به في كتابهِ أو أخبرَ به رسولهُ ـ عليه الصَّلاةُ والسَّلام ـ أو شاهدَهُ النَّاسُ من خوارقِ العَاداتِ فإنَّ الإيمانَ به من الإيمانِ بالله؛ لأنه إيمانٌ بقدرةِ الله سبحانه وتعالى.

ومن الإيمانِ بالله ـ سبحانه وتعالى ـ أن تعلمَ أنَّه يراك، فإنْ لم تكنْ تَرَاه فإنَّه يراك، أن تعبد الله كأنك تراه، فإنْ لم تكنْ تراه فإنَّه يراك. وهذه مسألةٌ يغفلُ عنها كثيرٌ من الناس، تجدهُ يتعبَّدُ لله وكأنَّ العبادة أمرٌ عاديٌّ يفعلهُ على سبيلِ العادة، لا يفعلها كأنَّه يُشاهدُ ربَّه عزَّ وجلَّ، وهذا نقصٌ في الإيمانِ ونقصٌ في العمل.

ومن الإيمان بالله: أن تؤمنَ بأن الحُكْمَ لله العليِّ الكبير!

الحكمُ الكونيُّ والشَّرعيُّ كُلُّه لله لا حاكمَ إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ وبيدهِ كلُّ شيء، كما قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

فكم من مَلِكٍ سُلِبَ مُلْكُهُ بين عَشِيَّةٍ وضُحَاها، وكم من إنسانٍ عَاديٍّ

صَار مَلِكًا بين عشيَّةٍ وضحاها؛ لأنَّ الأمرَ بيدِ الله. وكم من إنسانٍ عزيزٍ يرى أنَّه غالبٌ لكلِّ أحد، فيكونُ أذلَّ عبادِ الله بين عَشِيَّةٍ وضحاها! وكم من إنسانٍ ذليلٍ يكون عزيزًا بين عَشِيَّة وضُحاها؛ لأن المُلْكَ والحُكْمَ لله سبحانه وتعالى.

وكذلك الحكمُ الشَّرعيُّ لله، ليس لأحدٍ، فالله تعالىٰ هو الذي يُحَلِّل ويُحَرِّم ويُوجب، وليس أحدٌ من الخَلْقِ له الفصلُ في ذلك. فالإيجابُ والتحليلُ والتحريمُ لله؛ ولهذا نهى الله عبادَهُ أن يَصِفُوا شيئًا بالحلالِ والحرام بدون إذن، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧].

فالحاصلُ أن الإيمان بالله بابُه واسعٌ جدًّا، ولو ذهب الإنسان يتكلَّم عليه لبقيَ أيّامًا كثيرة، ولكنَّ الإشارةَ تُغني عن طَويلِ العِبارة.

وقوله ﷺ: «وملائِكَتِهِ»:

والملائكة: هم عالَمٌ غَيْبيّ، خلقهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ من نُور، وجعلَ لهم أعمالاً خاصَّة، كلٌّ منهم يعمل بما أَمَرَهُ الله به، وقد قال الله في ملائكةِ النَّار: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، فهم ليس عندهم اسْتِكبارٌ عن الأمرِ ولا عَجْزٌ عنه، يفعلون مَا أُمِرُوا به ويَقْدِرُون عليه، بخلافِ البَشَر، فالبشرُ قد يستكبرونَ عن الأمر، وقد يعجزونَ عنهُ، أمَّا الملائكةُ فخُلقوا لِتَنفِيذِ أمرِ الله، سواءٌ في العباداتِ المُتَعَلِّقَةِ بهم أو في مصالحِ الخلق.

فمثلاً جبريلُ عليه الصلاةُ والسلام - أشرفُ الملائكة - مُوَكَّلٌ بِالوَحي، يَنْزِلُ به من الله عَلَى رُسُلِهِ وأنبيائه، فهو مُوَكَّلٌ بأشْرفِ شيءٍ ينتفعُ به الخَلْقُ والعباد، وهو ذو قوّة، أمينٌ مُطَاعٌ بين الملائكة، ولهذا كان أشرف الملائكة.

كما أنَّ محمدًا ﷺ أشْرف الرُّسل قال الله سبحانه وتعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النجم: ٥-٧]، يعني علَّمَ النبيَّ ﷺ القرآن ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ أي ذو القوى الشَّديدةِ وهو جبريل، ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي ذُو هَيئَةٍ حَسَنة ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ أي: كَمُلَ وعَلاَ ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

وقال عزَّ وجل: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي: جبريل ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢١].

ومن هؤلاء أيضًا من وُكِّلوا بمصالحِ الخلقِ من جهةٍ أخرى في حياةِ الأرضِ والنبات، مثلِ مِيكَائيل - عليه الصلاةُ والسلام - فإن ميكائيلَ مُوَكَّلٌ بالقَطْر - المطر - والنبات، وفيهما حياةُ الأبدان، حياةُ الناسِ وحياةُ البهائم.

فالأوَّلُ جبريلُ مُوَكَّلٌ بما فيه حياةُ القلوبِ وهو الوحي وميكائيل مُوَكَّل بما فيه حياةُ الأبدانِ وهو القَطْرُ والنبات.

ومنهم إسرافيل - عليه الصلاةُ والسلام - وهو أحدُ حَمَلةِ العرشِ العظام، وهو مُوَكَّلٌ بالنَّفخِ في الصُّور، وهو قَرْنٌ عظيمٌ دائرتُه كما بين السَّماء والأرض، ينفخُ فيه إسرافيل.

فإذا سمعه الناسُ سَمِعُوا صوتًا لا عهدَ لهم به، صوتًا مزعجًا، فيفزعون ثم يُصْعَقون، أي يموتون من شدَّةِ هذا الصَّوت، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ

أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، تَتطايرُ الأرواحُ من هذا القَرْن، من هذا الصور، ثم ترجعُ كلُّ روحٍ إلى بدنها الذي تعمره في الدُّنيا، لا تخطئهُ شعرة بأمر الله عزَّ وجل. فكلُّ هؤلاء الثَّلاثةِ مُوكَّلون بما فيه الحياة!

فجبريلُ مُوكَّل بما فيه حياة القلوب، وميكائيلُ بما فيه من حياةِ النَّباتِ والأرض، وإسرافيلُ بما فيه حياةُ الأبدان.

ولهذا كان النَّبيُّ ﷺ يُثْني على الله بربوبيته لهؤلاء الملائكةِ الثَّلاثةِ في افتتاحِ صلاةِ الليل، فكان يقول في افتتاحِ صلاةِ الليل بدل «**سبحانك اللَّهُمَّ وبِحَمْدِكَ**»[1]، يقول: «**اللَّهمَّ رَبَّ جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطرَ السماواتِ والأرض، عالمَ الغيبِ والشَّهادة، أنتَ تَحْكُمُ بينَ عِبادِكَ فيما كانوا فيه يختلفون، اهدِني لما اخْتُلِفَ فيه من الحقِّ بإذنك، إنَّكَ تَهْدي مَنْ تَشاءُ إلى صراطٍ مُسْتقيم**»[2].

ومنهم من وُكِّلَ بقبض الأرواح وهو مَلَكُ الموت، وله أعوانٌ يُساعدونه على ذلك، وينزلونَ بالكفنِ والحَنوطِ للرُّوحِ التي تخرجُ من الجسدِ إنْ كان من أهلِ الإيمان ـ جَعَلنا الله منهم ـ فإنهم ينزلونَ بكفنٍ من

---

(١) أخرجه أبوداود، كتاب الصلاة، باب من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك، رقم(٧٧٦)، والترمذي، كتاب الصلاة، باب ما يقول عند افتتاح الصلاة، رقم(٢٤٣)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، باب افتتاح الصلاة، وصححه العلامة أحمد شاكر في حاشيته على سنن الترمذي (٢/ ١١).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧٠).

الجنَّةِ وحَنُوطٍ من الجنَّة، وإن كانوا من أهل النيرانِ نزلوا بحنوطٍ من النَّارِ وكَفَنٍ من النار، ثمَّ يجلسون عند المُحْتَضَرِ الذي حضرَ أجلهُ ويُخرجونَ روحَهُ حتى تبلغَ الحلقوم، فإذا بلغتِ الحلقومَ استلَّها مَلَكُ الموتِ ثمَّ أعطاهم إيَّاها فوضعوها في الحَنوط والكفن، فالملائكةُ تكفنُ وتحنطُ الرَّوح، والبشرُ يكفنون ويحنطونَ البدن، فانظرْ إلى عناية الله بالآدمي، ملائكةٌ يكفنون روحه، وبشرٌ يكفنون بدنه؛ ولهذا قال الله عزَّ وجل: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١]، لا يفرِّطون في حِفْظِها: ولا يفرطون فيها.

ومَلَكُ الموتِ أعطاه الله تعالى قدرةً على قبضِ الأرواح في مَشَارقِ الأرضِ ومَغَاربها، يَقْبِضُها ولو ماتوا في لحظةٍ واحدة، لو فُرِضَ أن جماعةً أصابهم حادثٌ وماتوا في آنٍ واحد، فإنَّ مَلَكِ الموتِ يقبضُ أرواحهم في آنٍ واحد.

ولا تستغربْ؛ لأنَّ الملائكةَ لا يُقَاسُون بالبشر، لأنَّ الله أعطاهم قدرةً عظيمة أشدَّ من الجِنِّ. فالجِنُّ أقوى من البَشَر، والملائكةُ أقوىٰ من الجنّ. وانظرْ إلى قصَّةِ سليمان ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ حيث قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ عفريتٌ يعني قويٌّ شديد ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ [النمل: ٣٨، ٣٩]، ومكانُ العرشِ في اليمن، وسُليمانُ في الشَّام، مَسيرةُ شهرٍ بينهما، ومع ذلك قال له: ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ وكان سُليمانُ عادةً يقومُ من مقامهِ في سَاعةٍ معيَّنة، فـ ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ

﴿ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]، والثَّاني أسرعُ من الأوَّل، أي: مُدَّة بَصرك ما تردُّهُ إلا وقد جاءك ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ حالاً رآه ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ قال العلماء: إن هذا الذي عنده علمٌ من الكتاب دعَا الله باسمهِ الأعظم، فحملتِ الملائكةُ العَرشَ من اليمنِ إلى الشَّامِ في هذه اللَحظة. إذًا فالملائكةُ أقْوىٰ من الجن.

فلا تَسْتغربْ أن يموت النَّاس في مشارقِ الأرضِ ومغاربها وأن يقبضَ أرْواحَهم مَلَكٌ واحدٌ، كما قال الله: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١].

فإذا قال الله لهذا المَلَكِ اقبضْ روحَ كلِّ مَنْ مات، هل يمكنُ أن يقول لا؟ لا يمكن! لأنهم لا يَعْصُون الله ما أمرهم، ولهذا لمّا قال الله للقلمِ اكتبْ ما هو كائنٌ إلى يومِ القيامة، والقلمُ جَمادٌ، كتبَ ما هو كائنٌ إلى يومِ القيامة، فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ إذا أمرَ بأمرٍ لا يمكنُ أن يعصي إلاَّ المَرَدةُ من الجنِّ أو من بني آدم، أما الملائكةُ فلا يَعْصُون الله؟! وهؤلاء أربعةٌ من الملائكة.

والمَلَكُ الخامسُ مالِك، المُوكَّلُ بالنَّار، وهو خازنُها، وقد ذكرهُ الله في قولهِ عن أهلِ النار: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، يعني: ليُمِتْنا ويُهْلِكْنا ويُرِحْنا ممّا نحن فيه! قال: إنكم ماكثون!

السَّادس: خازنُ الجنَّة: وَوَرَدَ في بعضِ الآثار أن اسمه (رضوان) وهذا وُكِّل بالجنَّة كما أنَّ مالكًا وُكِّلَ بالنَّار.

فمَنْ عَلِمْنا اسمَهُ من الملائكةِ آمنّا به باسمه، ومَنْ لم نعلمْ باسمه آمنّا به على سبيلِ الإجمال، آمنّا بعملِهِ الذي نعلمهُ وبوصفهِ وبكلِّ ما جاء به الكتابُ والسُّنةُ من أوْصافِ هؤلاء الملائكة.

مسألة: قلنا إن الملائكةَ عَالَمٌ غيبيٌّ، فهل يمكنُ أن يُرَوا؟

الجواب: نعم قد يُرَوْنَ، إمَّا على صورتهم التي خُلقوا عليها، وإمَّا على صورة مَنْ أرادَ الله أن يكونَ على صورته!

فجبريلُ رآه النبيُّ ﷺ على صُورتهِ التي خلقَهُ الله عليها في موضعين، في الأرض وفي السماءِ: في الأرضِ عند غارِ حِراءَ قربَ مكة، وفي السماءِ عند سِدْرةِ المُنتهى، كما قال الله ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣، ١٤].

رآهُ وله سِتُّمائةِ جناحٍ قد سَدَّ الأفق، أي: ملأ الأفقَ كلَّه وله ستُّمائةِ جناح، ولا يعلمُ قدرةَ الأجنحةِ إلا الله عزَّ وجل، لكنْ إذا كان الشَّيءُ عاليًا وسدَّ الأفقَ فمعناه أنه واسعٌ جدًّا.

هذا الذي رآهُ النبيُّ ﷺ على صورتهِ مرتين، أحيانًا يأتيهِ بُصورةِ إنسانٍ كما في حديث عمر - رضي الله عنه - الذي معنا في قصَّةِ جبريل، فقد جاءه بصورةِ رجلٍ شديدِ سوادِ الشَّعر، شديدِ بياضِ الثياب، لا يُرَىٰ عليه أَثَرُ السَّفر، ولا يعرفهُ الصَّحابة، والله على كلِّ شيءٍ قدير، قد أعطاهم الله سبحانه وتعالى ذلك أن يَتَصوَّروا بِصُورِ البَشَر، إمّا باختيارهم وإمّا بإرادةِ

الله، الله يأمرهم أن يكونوا على هذه الصُّورةِ فالله أعلم.

إنَّما هذه حالُ الملائكةِ ـ عليهم الصَّلاةُ والسَّلام ـ وتفاصيلُ ما وردَ فيهم مذكورٌ في كتابِ الله تعالى وفي سُنَّةِ رسولِ الله ﷺ، لكن علينا أن نؤمن بهؤلاء الملائكة وأنَّهم أقْوياء أشدَّاء، قال الله لهم في غزوةِ بدر: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، فكانوا يقاتلونَ مع الصَّحابة في بدر، فيُرىٰ الكافرُ يسقطُ مضروبًا بالسَّيفِ على رأسه ولا يدري من الذي قتله، والذي قتلهُ هم الملائكة؛ لأن الله قال لهم: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فعلينا أن نؤمنَ بهم، مَنْ عَلِمْنَاهُ بِعَيْنِه آمنّا به بِعَيْنِهِ، وإلاَّ فبالإجمال. وأن نُؤمنَ بمن جاء عنهم من عباداتٍ وأعْمالٍ على وِفْق ما جاء في الكتابِ والسُّنة، والإيمانُ بهم أحدُ أركانِ الإيمانِ السِّتة، ومن أنكرَهُم، أو كذَّبَ بهم، أوقال: إنَّهم لا وُجُود لهم، أو قال: إنَّهم هم قوى الخير، والشياطين هم قُوى الشَّر؛ فقد كفر كفرًا مُخْرجًا عنِ الملَّة؛ لأنه مكَذِّبٌ لله تعالى ورسولهِ ﷺ وإجماع المسلمين.

وقد ضلَّ قومٌ غايةَ الضَّلالِ حيث أنكروا أن يكونَ هُناك ملائكةٌ ـ والعياذ بالله ـ وقالوا: إنَّ الملائكةَ عبارةٌ عن قُوى الخيرِ وليس هناك شيءٌ يُسمَّى عالَمُ الملائكة.

وهؤلاء إنْ قالوا ذلك مُتَأوِّلين فإنَّ الواجبَ أن نبيِّنَ لهم أن هذا تأويلٌ باطل، بل تحريف، وإن قالوهُ غيرَ متأوِّلينَ فإنهم كفار؛ لأنهم مُكَذِّبون لما

جاء به الكتابُ والسُّنةُ وأجمعتْ عليه الأمَّةُ من وجودِ الملائكة، والله قادرٌ على أن يخلقَ عَالمًا كاملاً لا يحسُّ به البشرُ عن طريقِ حَواسِّهم المُعْتادة، فها هم الجنُّ مَوْجُودونَ ولا إشكالَ في وجودهم، ومع ذلك لا تدركهم حَوَاسُّنا الظَّاهرةُ كما تُدْرِكُ الأشياء الظَّاهرة. ولله تعالى في خَلْقهِ شُؤون.

وقوله: «وَكُتُبِهِ» وهو الركنُ الثالث، والكتبُ جمعُ كتاب، والمرادُ به الكتابُ الذي أنْزَلَهُ الله على الرُّسل. فكلُّ رسولٍ له كتاب، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]، وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

لكنْ من الكتبِ ما لا نعلمهُ ومنها ما نعلمه!

فالتَّوراة، وهي الكتابُ الذي أنزله الله على مُوسى ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ معلوم، والإنجيلُ، وهو الكتابُ الذي أنزلهُ الله على عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ معلوم، وصُحفُ إبراهيمَ ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ مذكورةٌ في القرآن، وَزَبُور داوُد ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ مذكورٌ في القرآن، وصُحفُ موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ إن كانتْ غيرَ التَّوراةِ مذكورةٌ في القرآنِ أيضًا.

فما ذكر الله اسمه في القرآن وجب الإيمانُ به بِعَيْنه واسمهِ، وما لم يذكرْ فإنَّه يؤمنُ به إجمالاً.

فنؤمنُ بأن الله أنزلَ على مُوسٰى ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ كتابًا هو التَّوراة، وعلى عيسٰى كتابًا هو الإنجيل، وعلى داودَ ـ عليه الصلاة والسلام ـ كتابًا هو

الزَّبور، وعلى إبراهيم ـ عليه الصَّلاةُ والسَّلام ـ صحفًا، هكذا نقول.

ولا يعني ذلك أن ما وُجِدَ عند النَّصارى اليومَ هو الذي نزلَ على عيسٰى؛ لأن الأناجيل الموجودة في أيدي النَّصارى اليومَ محرَّفةٌ ومغيَّرةٌ ومُبَدَّلة، لَعِبَ بها قساوسةُ النَّصارى فزادوا فيها ونقصوا وحرَّفوا، ولهذا تجدُها تنقسمُ إلى أربعةِ أقسامٍ أوْ خمسة، ومع ذلك فإن الكتاب الذي نزل على عيسى كتابٌ واحد، لكنَّ الله تعالى إنَّما تكَفَّل بحفظ الكتابِ الكريم الذي نزل على محمَّدٍ ﷺ؛ لأنَّه لا نبيَّ بَعْدَهُ، يبيِّنُ للناسِ ما هو الصَّحيح، وما هو المحرَّف. أمَّا الكتبُ السابقةُ فإنها لم تَخْلُ من التحريف؛ لأنه سيبعثُ أنبياءُ يُبيِّنُونَ فيها الحقَّ ويُبيِّنُون فيها المحرَّف، وهذا هو السِّرُّ في أنَّ الله تكفَّلَ بحفظِ القرآنِ دُون غيره من الكتب، من أجل أن يعلم الناس حَاجتهم إلى الأنبياء إذا وجدوا الكتبَ محرَّفة، فتأتي الأنبياءُ وتبيِّنُ الحقّ.

فالمهمُّ أن نُؤمنَ بأن الكتاب الذي نزلَ على النَّبيِّ المعيَّنِ حقٌّ من عند الله، لا على أن الكتابَ الذي في أيدي أتباعهِ اليومَ هو الكتابُ الذي نزل، بل قطعًا إنَّه مُحرَّفٌ ومُغَيَّرٌ ومُبَدَّل.

ومن الإيمانِ بالكتبِ أن تؤمن بأن كلَّ خبرٍ جاءَ فيها فهو حقّ، كما أن كلَّ خبرٍ في القرآن فهو حقّ، لأن الأخبار التي جاءتْ في الكتبِ التي نَزَلتْ على الأنبياء من عند الله، وكلُّ خبرٍ من عند الله فهو حقٌّ. وكذلك تؤمنُ بأنَّ كلَّ حكمٍ فيها صحيحٌ من عند الله فهو حقٌّ، يعني كلُّ حكمٍ لم يُحَرَّفْ ولم يُغَيَّرْ فهو حقّ؛ لأنَّ جميعَ أحكامِ الله التي ألزمَ الله بها عباده كلَّها حقَ. لكنْ هل هي بَقيتْ إلى الآن غيرَ محرَّفة؟ هذا السُّؤالُ بيَّنا الجوابَ عليه بأنها غيرُ

مأمونة، بل مغيَّرةٌ ومحرَّفةٌ ومبدَّلة.

ولكن هل علينا أن نعملَ بالأحكامِ التي جاءتْ بها الكتبُ السَّابقة؟

نقول: أمّا ما قصَّهُ الله علينا من هذه الكتب، فإننا نعملُ به ما لم يَرِدْ شَرْعُنا بخلافه.

مثالهُ قولهُ تعالى عن التَّوراة: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، هذه مكتوبةٌ في التوراةِ ونقلها الله -عزَّ وجلَّ- لنا في القرآن، لكنَّ الله -عزَّ وجلَّ- لم يقصَّها علينا إلا من أجلِ أن نعتبرَ ونعملَ بها، كما قال الله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]، وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فما قصَّهُ الله علينا وما نقله لنا من الكتبِ السابقةِ فهو شرعٌ لنا؛ لأن الله لم يذكرْهُ عَبَثاً، إلاَّ إذا وَرَدَ شَرْعنا بخلافه، فإذا وردَ شرعُنا بخلافهِ صارَ ناسخًا لها. كما أن من الآياتِ الشرعيَّةِ النازلةِ في شرعنا ما يكونُ منسُوخًا بآياتٍ أخرى، فكذلك ما ذكرَهُ الله عن الكتب السَّابقة نقلاً فإنه قد ينسخُ بهذه الشَّريعة.

أمَّا ما جاء في كتبهم هم فإنَّنا لا نُصدِّقهُ ولا نُكذِّبه، كما أمر بذلك النبيُّ -عليه الصلاةُ والسلام- فيما إذا حدَّثنا بنو إسرائيل أن لا نُصَدِّقهم ولا نكذِّبهم؛ لأنَّنا ربَّما نُصدِّقهم بالباطلِ وربَّما نُكذِّبهم بحقّ، فنقول: آمنّا بالله وما أُنزِلَ إلينا وما أُنزِلَ إليكم، ولا نُصَدِّقهم ولا نكذِّبهم إذا كان لم يَشْهدْ

شرعُنا بصحَّته ولا بكَذبه. فإنْ شهدَ بصحَّتهِ أو بِكذبهِ عملنا ما تقتضيهِ هذه الشَّهادة، إنْ شهدَ بصحَّتهِ صدقناه، وإن شهدَ بكذبه كذبناه.

ومن ذلك ما يُنسبُ في أخبارِ بني إسرائيلَ إلى أخبارِ بعضِ الأنبياء ـ عليهم الصلاةُ والسلام ـ كما ذُكر عن داود أنّه أعجبتْهُ امرأةُ رَجُلٍ من جُنده فأحبَّها وطلبَ من الجنديِّ أن يذهب إلى العدوِّ ويقاتلَ لعلَّه يُقْتَلُ فيأخذَ امرأته من بَعْده!

وأنَّه أرسلَ الجنديَّ فبعثَ الله إليه جماعةً من الملائكةِ يختصمونَ إليه فقال أحد الخصمين: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِى بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص: ٢٣، ٢٤]، قالوا: فهذا مَثَلٌ ضَرَبهُ الله لِداودَ حيث كان عنده من النِّساء ما يبلغُ تسعًا وتسعينَ امرأة، فحاول أن يأخذَ امرأةَ هذا الجنديِّ ليُكملَ بها المائة!

فهذه القِصَّة كذبٌ واضح[١]، لأنَّ داودَ ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ نبيٌّ من الأنبياء، ولا يمكنُ أن يتحيَّلَ هذه الحِيلَة، بل لو أنّه غيرُ نبيٍّ ما فعلَ هذا وهو عاقلٌ فكيف وهو نبيّ؟!

فمثلُ هذه القصَّةِ التي جَاءَتْ عن بني إسرائيلَ نقولُ إنها كذب؛ لأنها

---

(١) انظر كلام الحافظ ابن كثير حول عدم ثبوت هذه القصة في تفسيره عند تفسيره لهذه الآية.

لا تليقُ بالنبيِّ، ولا تليق بأيٍّ عاقل، فضلاً عن الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلام.

الخلاصة: أن ما جاءَ في كتبهم ينقسمُ إلى قسمينِ رئيسيَّين:

أولاً: ما قصَّهُ الله علينا في القرآن أو قصَّهُ علينا رسولُ الله ﷺ فهذا مقبولٌ صحيح.

والثاني: مانقلوه هم، فهذا لا يخلو من ثلاثِ حالات:

الحالة الأولى: أن يشهدَ شرعُنا بكذبه، فيجبُ علينا أن نكذِّبهُ ونردَّه.

والثانية: ما شَهِدَ شرعُنا بصدْقهِ فنُصَدِّقُه ونقبلهُ لشهادةِ شرعنا به.

والثَّالث: ما ليس هذا ولا هذا، فيجبُ علينا أن نتوقَّف؛ لأنهم لا يُؤمَنون، ويَحْصُلُ في خبرهم الكذبُ والتغييرُ والزِّيادةُ والنَّقص.

قوله: «ورُسُله» هذا هو الركنُ الرابع.

الرُّسلُ هم البشرُ الذين أرسهلم الله سبحانه وتعالى إلى الخَلْقِ وجعلهم واسطةً بينه وبين عبادهِ في تَبْليغ شَرَائِعه، وهم بشرٌ خُلقوا من أبٍ وأمّ، إلا عيسى ابن مريمَ ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ فإن الله خَلَقَهُ من أمٍّ بلا أب.

أرسلهم الله سبحانه وتعالى رَحْمَةً بالعبادِ وإقامةً للحجَّةِ عليهم، كما قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ ﴾ إلى قوله: ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾ [النساء: ١٦٣ ـ ١٦٥].

وهم عددٌ كثيرٌ، أوَّلهم نُوحٌ وآخرهم محمَّدٌ ﷺ ودليلٌ ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ ﴾ وقد صحَّ

في الصَّحيحينِ وغيرهما في حديثِ الشفاعة: «أن النَّاسَ يومَ القيامةِ يأتُون إلى نوحٍ فيقولون له: يا نوح، أنت أوَّلُ الرُّسلِ إلى أهلِ الأرض»[١].

أمَّا دليلُ كونِ النبيِّ ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ آخرَ الرُّسل فهو قولهُ تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: «أنا خاتَمُ النبيِّين»[٢]. فعلينا أن نُؤمنَ بأن جميعَ الرسلِ الذين أرسلهم الله صادقونَ فيما بلَّغوا به عن الله وفي رِسَالتهم.

ـ علينا أن نؤمنَ بأسْماءِ مَنْ عُيِّنتْ أسماؤهم لنا ومن لم تُعَيَّنْ أسماؤهم لنا، فإننا نؤمنُ بهم على سبيل الإجمال.

ـ علينا أيضًا أن نؤمنَ أنَّ ما من أمَّةٍ إلا أرسلَ الله إليها رسولاً لتقومَ عليهم الحُجَّة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وعلينا أن نُصَدِّقَ بكل ما أخبرتْ به الرُّسلُ إذا صحَّ عنهم من جهةِ النَّقل

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله عزَّ وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ رقم(٦٥٦٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم(١٩٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ، رقم(٣٥٣٥)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين، رقم(٢٢٨٦). وفي لفظ عند مسلم رقم(٢٢٨٧): «جئت فختمت الأنبياء».

ونعلمَ أنَّه حَقٌّ.

وعلينا أن نتَّبعَ خاتمهم محمَّدًا ﷺ؛ لأنه هو الذي فرضَ علينا اتِّباعه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فأمرنا الله تعالى باتِّباعه. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، أمَّا ما سواهُ من الرُسلِ فإننا نتَّبعهم إذا وردَ شرعُنا بالأمر باتِّباعهم، مثلُ قولهِ عليه الصلاة والسلام: «**أفضلُ الصَّلاةِ صَلاةُ أخي داوُد، كان ينامُ نصفَ اللَّيلِ ويقُومُ ثُلُثَهُ وينَامُ سُدُسَه، وأفضلُ الصِّيامِ صيامُ أخي داود، كان يصومُ يومًا ويُفْطِرُ يومًا**»(١)، فهذا حكايةٌ لتعبُّدِ داودَ وتهجُّدهِ في الليل، وكذلك صيامه؛ من أجلِ أن نتَّبعهُ فيه.

أمَّا إذا لم يَرِدْ شَرْعُنا بالأمْرِ باتِّباعهِ فقد اختلفَ العلماءُ - رحمهم اللهُ - هل شرع مَنْ قبلنا شَرْعٌ لنا مَا لَم يَرِدْ شَرْعُنا بالأمرِ بخلافه، أو أنَّه ليس بشرعٍ لنا حتى يَرِدَ شرعُنا بالأمرِ باتِّباعه؟

والصَّحيحُ أن شَرْعَ مَنْ قبلنا شَرْعٌ لنا إذا لم يَرِدْ شرعُنا بخلافه؛ لأنَّه تعالى لما ذكَر الأنبياءَ والرُّسلَ قال لنبيِّه ﷺ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فأمرَ الله نبيَّه محمَّدًا ﷺ أن يقتديَ بهدي

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التهجد، باب من نام عند السحر، رقم(١١٣١)، ومسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به...، رقم(١١٥٩).

مَنْ سبَقه .

وقال الله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف : ١١١]، وهذه آخرُ سورةُ يوسفَ التي قصَّ الله تعالى علينا قصَّتَهُ مُطوَّلةً من أجل أن نعتبرَ بما فيها .

ولهذا أخذَ العلماءُ ـ رحمهم الله ـ من سورةِ يوسفَ فوائدَ كثيرة ، في أحكامٍ شرعيَّةٍ في القضاءِ وغيره، وأخذوا منها : العَمَلَ بالقرائنِ عند الحكم ؛ لقوله تعالى : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف : ٢٦ ، ٢٧]، فقالوا : هذه قرينة ؛ لأنَّه إذا كان القميصُ قُدَّ من قُبلٍ فالرَّجلُ هو الذي طلبها فقدَّتْ قميصه، وإذا كان مِنْ دُبُر ـ من الخلف ـ فهي التي طلبتْهُ وجَرَّتْ قميصَهُ حتى انقدَّ، فهذه قرينةٌ ثبتَ بها الحكم، والعلماءُ اعتمدوا هذه القرينةَ وإن كان في السُّنةِ ما يدلُّ على الحكمِ بالقرائنِ في غيرِ هذه المسألة .

لكنَّ القولَ الراجحَ في «شَرْعِ مَنْ قبلنا أنه شرعٌ لنا ما لم يَرِدْ شَرْعُنا بخلافه»، وللرُّسُل ـ عليهم الصلاةُ والسلام ـ علينا : أن نحبَّهم، وأن نعظِّمهمْ بما يستحقُّون، وأن نشهدَ بأنهم في الطَّبقةِ العليا من طبقاتِ أهلِ الخيرِ والصَّلاح ، كما قال الله : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء : ٦٩].

أما الركنُ الخامسُ فهُو : «الإيمانُ باليومِ الآخِرِ» .

واليومُ الآخِر: هو يومُ القيامة، وسُمِّيَ يومُ القيامةِ باليومِ الآخِرِ لأنَّه لا يومَ بعده. فالإنسانُ له مراحلُ أربع: مرحلةٌ في بطنِ أمِّه، ومرحلةٌ في الدنيا، ومرحلةٌ في البرزخ، ومرحلةٌ يومِ القيامة، وهي آخرُ المراحل، ولهذا سُمِّيَ اليومَ الآخر، يسكنُ فيه النَّاس، إمَّا في الجنَّة نسْألُ الله أنْ يجعلنا منهم، وإمّا في النَّار ـ والعياذ بالله ـ فهذا هو المصير.

والإيمانُ باليومِ الآخرِ يدخلُ فيه، كما قال شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ ـ رحمه الله ـ في كتابِ «العقيدةِ الواسطيَّة» وهو كتاب مختصرٌ في عقيدة أهل السُّنة والجماعة، من أحْسنِ ما كتبه شيخُ الإسلام ـ رحمهُ الله ـ في جمعهِ ووضوحهِ وعدمِ الاستطراداتِ الكثيرة.

يقول رحمه الله: «يَدْخُلُ في الإيمان باليوم الآخر الإيمانُ بكلِّ ما أخبرَ به النبيُّ ﷺ مِمَّا يكونُ بعد الموت»[1].

ـ **فمن ذلك: فتنةُ القبر**: إذا دُفِنَ الميِّتُ أتاهُ مَلَكانِ يُجْلِسَانهِ ويَسْألانهِ ثَلاثةَ أسئلة، يقولان: مَنْ ربُّك؟ مَا دِينك؟ من نَبيُّك!؟

فيثبِّتُ الله الذين آمنوا بالقولِ الثابت ـ أسألُ الله أن يجعلني وإيّاكم منهم ـ فيقول المؤمن: ربِّيَ الله، وديني الإسلام، ونبيِّي محمَّد، فينادي منادٍ من السَّماءِ أنْ صَدقَ عبدي فأفرشوهُ من الجنَّةِ وألْبِسُوهُ من الجنَّة وافتحوا له بابًا إلى الجنة. ويُفْسحُ له في قبرهِ مدُّ البَصَر ويأتيهِ من الجنَّة من رَوْحها، ويشاهدُ فيها ما يشاهدُ من النعيم.

---

(١) العقيدة الواسطية ص(١٠).

وأما المنافق ـ والعياذُ بالله ـ أو الكافر، فيقول: هَاه هَاه.. لا أدري، سمعتُ الناسَ يقولونَ شيئًا فقلته، لأن الإيمانَ لم يصلْ إلى قلبه، وإنَّما هو بلسانهِ فقط، فهو يسمعُ ولا يدري ما المعنى، ولا يُفْتَحُ عليه في قبره. هذه فتنةٌ عظيمةٌ جدًّا، ولهذا أمرنا النبيُّ ـ عليه الصَّلاةُ والسلام ـ أن نستعيذَ بالله منها في كلِّ صلاة «**اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ من عذابِ القبر، وعذابِ النار**»(١).

ـ ومن ذلك أيضًا أن نؤمن بنعيمِ القبر وعذابِ القبر.

نعيمُ القبرِ لمن يستحقُّ النَّعيمَ من المؤمنين، وعذابُ القبرِ لمن يستحقُّ العذاب، وقد جاءَ ذلك في القرآنِ والسُّنة، وأجمع عليه أهلُ السُّنةِ والجماعة.

ـ ففي كتاب الله يقولُ تبارك وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣١، ٣٢]، [أي: عند الوفاة].

ويقول الله سبحانه وتعالى في آخرِ سورةِ الواقعة: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]، يقولُ هذا في ذكرِ حالِ المحتضر إذا جاءَهُ الموت. إذا كان من المقرَّبينَ فَلَهُ رَوْحٌ وَرَيحَانٌ وجَنَّةُ نَعِيمٍ في نفسِ اليوم.

أمّا عذابُ القبر فاستمعْ إلى قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ

---

(١) أخرج ذلك البخاري، كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم(٨٣٢)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة، رقم(٥٨٩).

﴿ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾ أي: سَكَرَاتِ الموت ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ﴾ مادِّينَ أيديَهم لهذا المحتضر من الكفار ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ وكأنهم شَحِيحونَ بأنفسهم؛ لأنها تُبَشَّر - والعياذُ بالله - بالعذاب، فتهربُ في البدنِ وتتفرَّقُ ويشحُّ بها الإنسان، فيقال: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]، أي: اليومَ يومُ موتهم عند احتضارهم.

وقال الله سبحانه في آلِ فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ فقال: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ﴾ هذا قبل قيامِ الساعة ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾. ولكن يجبُ علينا أن نعلمَ أن هذا النعيم والعذاب أمرٌ غيبيٌّ لا نطَّلعُ عليه، لأننا لو اطَّلعنا عليه ما دَفَنَّا أمواتَنا، لأن الإنسان لا يمكن أن يُقَدِّم مَيِّتَه لعذابٍ يسمعه، يفزع؛ لأن الكافرَ أو المنافقَ إذا عجزَ عن الإجابةِ يُضْرَبُ بمرزبةٍ - قطعةٍ من الحديدِ مثلِ المطرقة - من حديد، فيصيحُ صيحةً يسمعها كلُّ شيءٍ إلاَّ الإنسان قال النبيُّ ﷺ: «**ولو سمعها الإنْسَانُ لَصعِق**».

وقال النبيُّ ﷺ: «**لَوْلاَ أن تَدافَنوا لدعوتُ الله أنْ يُسمعكمْ عَذَابَ القبر**»[1]، ولكنْ من نعمةِ الله أنَّنا لا نعلمُ به حسًّا، بل نؤمنُ به غيبًا ولا

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر رقم(٢٨٦٧).

ندركه حسًّا.

كذلك لو كان عذابُ القبرِ شهادةً وحسًّا لكان فيه فضيحة! إذا مررتَ بقبرِ إنسانٍ وسمعته يُعَذَّبُ ويصيحُ ففيه فضيحةٌ له.

ثالثًا: ولو أنَّه شهادة يُحَسُّ لكان هذا قلقًا على أهلِهِ وذويه، فلا ينامونَ في اللَّيلِ وهم يسمعونَ صاحبهمْ يصيحُ ليلاً ونهارًا من العذاب، لكنْ من رحمةِ الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن الله جعلَهُ غيبًا لا يُعْلَمُ عنه، فلا يأتي شخصٌ ويقول: إننا لو حفرنا القبرَ بعد يومين لم نجد أثرًا للعذاب؟

نقول: لأنَّ هذا أمرٌ غيبيّ، على أن الله تعالى قد يُطلعُ على هذا الغيبِ مَنْ شاء من عباده، فربَّما يَطَّلعُ عليه، فقد ثبتَ في الصَّحيحينِ من حديثِ ابن عباس رضي الله عنهما: «**أن النبيَّ ﷺ مَرَّ بقبْرينِ في المدينةِ وقال: إنّهما ليُعذَّبان وما يُعذَّبان في كبير، أمّا أحدُهما فكان لا يستنزِهُ من البول، وأمّا الآخرُ فكان يَمْشي بالنَّميمة**»[1]، فأطْلَعَ الله نبيَّهُ على هذينِ القبرينِ أنَّهما يُعذَّبان.

فالحاصلُ أنه يجبُ علينا أن نؤمن بفتنة القبر، وهي سؤالُ الملَكينِ عن ربِّهِ ودينهِ ونبيِّه، وأن نؤمنَ بنعيمِ القبرِ أو عذابه.

ـ وممَّا يدخلُ في الإيمانِ باليومِ الآخر: أن يؤمنَ الإنسانُ بما يكونُ في نفسِ اليوم الآخر، وذلك أنَّه إذا نُفِخَ في الصُّورِ النفخةُ الثَّانيةُ قام الناس في قُبورهم لله ربِّ العالمينَ حفاةً ليس عليهم نِعال، وعُراةً ليس عليهم ثياب،

---

(١) تقدم تخريجه ص(٣٦٨).

وغُرْلاً ليسوا مختونين، وبُهْمًا ليس معهم مال، كلُّ الناس حتى الأنبياء والرسل يُبْعَثُون هكذا، كما قال الله تعالى ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، فكما أن الإنسانَ يخرجُ من بطنِ أمِّهِ هكذا عاريًا غيرَ منتعل، غير مختون، ليس معه مال، فكذلك يخرجُ من بطنِ الأرضِ يومَ القيامةِ على هذه الصِّفة، يقومون لربِّ العالمين الرِّجالُ والنساءُ، والصِّغارُ والكبارُ، والكفّارُ والمؤمنون، كُلُّهم على هذا الوصفِ حُفَاةً غُرْلاً بُهْمًا، ولا ينظر بعضهم إلى بعض، لأنه قد دهاهم من الأمر ما يشغلهم عن نظرِ بعضِهم إلى بعض، فالأمرُ أعظمُ من أن ينظرَ بعضُ الناسِ إلى بعض.

ربَّما تكونُ المرأةُ إلى جنبِ الرَّجُل ولا ينظرُ إليها ولا تنظرُ إليه، كما قال الله عزَّ وجل: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٣-٣٧].

ومن الإيمانِ باليومِ الآخر: أن تُؤمنَ بأنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ يبسطُ هذه الأرضَ ويمُدُّهَا كما يُمَدُّ الأديمُ أي الجلد، لأنَّ أرضنا اليوم كرةٌ مُسْتَديرةٌ منبعجةٌ بعضَ الشيءِ من الجنوبِ والشَّمال، لكنَّها مُستديرةٌ كما يفيدهُ قوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ [الانشقاق: ١ ـ ٣]، معناه أنها لا تُمَدُّ إلا إذا انشقَّتِ السَّماء، وذلك يومَ القيامة، فتُبْسَطُ الأرض كما يُبْسَطُ الجلدُ المدبوغ، ليس فيها أوديةٌ ولا أشجارٌ ولا بناءٌ ولا جِبال، يَذَرُها الربُّ ـ عزَّ وجلَّ ـ قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عِوجًا ولا أَمْتًا، يُحْشر النَّاسُ عليها على الوَصف المذكور آنفًا، وتُطوىٰ السَّماواتُ، يطويها الرَّبُّ ـ عزَّ وجلَّ ـ بيمينه، وتُدنى الشَّمسُ من

الخَلْقِ حتى تكون فوق رُؤوسهم بقدرِ ميل، إمَّا مسافةً وإمَّا ميلَ المكحلة وأيًا كان فهي قريبةٌ من الرؤوس، لكننا نؤمنُ بأنَّ من الناس من يَسْلَمُ من حرِّها، وهم الذين يُظلُّهم الله في ظِلِّهِ يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه، ومنهم السَّبعةُ الذين ذكرهم الرَّسولُ في نسقٍ واحد، فقال عليه الصلاة والسلام: «**سبعةٌ يُظِلُّهمُ الله في ظلِّه يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه: إمَامٌ عادل، وشابٌّ نَشَأ في طاعةِ الله، ورجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في المساجد، ورجُلانِ تَحَاباَّ في الله، اجتَمعا عليه وتفرَّقا عليه، ورجُلٌ دعتْهُ امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجَمَالٍ فقال: إنِّي أخَافُ الله، ورجُلٌ تَصَدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلمَ شمالُهُ ما تُنفقُ يمينه، ورَجُلٌ ذَكَرَ الله خاليًا ففاضتْ عيناه**»[(١)].

١ـ **الإمامُ العادل**: هو الذي عدل في رعيَّته، ولا عدلَ أقومَ ولا أوجب من أن يحكِّمَ فيهم شريعةَ الله، هذا رأس العدل، لأنَّ الله يقول: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، فمن حكمَ شعبَهُ بغير شريعة الله فإنه ما عدل، بل هو كافرٌ والعياذُ بالله، لأن الله قال: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

فإذا وَضَعَ هذا الحاكمُ قوانينَ تخالفُ الشريعةَ وهو يَعلم أنها تخالفُ الشَّريعة، ولكنَّهُ عَدَلَ عنها وقال: أنا لا أعدلُ عن القانون، فإنه كافرٌ ولو صلَّى، ولو تصدَّق، ولو صام، ولو حَجَّ، ولو ذكرَ الله تعالى، ولو شهدَ للرسول ـ عليه الصلاةُ والسَّلام ـ بالرِّسالة، فإنه كافرٌ مخلَّدٌ في نارِ جهنَّمَ

---

(١) تقدم تخريجه ص (٨٢).

يومَ القيامة.

ولا يجوزُ أن يتولَّى على شعبٍ مُسلمٍ إذا قَدرَ الشعبُ على إزَاحتهِ عن الحكم. فأهمُّ العَدل في الإمام أن يحكم في الناس بشريعةِ الله.

ومن العدل أن يُسوِّيَ بين الفقير والغنيّ، وبين العدوِّ والوليّ، وبين القريب والبعيد، حتى العدو يسوِّي بينه وبين الوليِّ في مسألة الحكم، حتَّى إنَّ العلماء رحمهم الله قالوا: لو دخل على القاضي رَجُلان أحدهما كافرٌ والثَّاني مسلم، حرمَ عليه أن يُميِّزَ المسلم بشيء، فيدخلان جميعًا ويجلسان جميعًا، ويتحدَّثُ القاضي إليهما جميعًا، فلا يتحدَّثُ لواحدٍ دون الآخر، ولا يَبَشُّ في وجهِ المسلمِ ويُكَشِّرُ في وجه الكافر! وهما في مقامِ الحكم، بل يجبُ أن يُسَوِّيَ بينهما، مع أن الكافرَ لا شكَّ أنه ليس كالمسلم ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]، لكنْ في باب الحكم الناسُ سواء.

ومن العدل: أن يقيم الحدود التي فرضها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على كلِّ أحد، حتى على أولادهِ وذُرِّيته، فإن النبيَّ ﷺ وهو أعدلُ الأئمة، لما شُفعَ إليه في امرأةٍ من بني مخزوم أمرَ النبي ﷺ بقطعِ يَدها، فشفعَ إليه أُسامة ـ رضي الله عنه ـ فيها، فقال له: «**أتشفعُ في حَدٍّ من حُدُود الله**»؟! أنكرَ عليه.

ثم قامَ النبيُّ ﷺ فخطب النَّاس، فحمدَ الله وأثنى عليه ثمَّ قال: «**أما بعد.. فإنَّما أهلكَ الذين قَبْلَكُم أنهم كانوا إذا سَرَقَ فيهمُ الشَّريفُ تركوه، وإذا سَرَقَ فيهم الضَّعيفُ أقاموا عليه الحدّ! وايمُ الله** ـ أي أحْلفُ بالله ـ **لو أنَّ**

فَاطمةَ بنتَ محمَّدٍ سَرَقت لَقَطَعْتُ يَدَها»[١] صلى الله عليه وسلم، فاطمةُ بنتُ محمَّدٍ أشْرفُ النِّساء! سيِّدةُ نسَاءِ أهلِ الجنَّة، بنتُ أفضلِ البشر، لو سَرقتْ لقطعَ يدَها وهو أبوها. وتأمَّلْ «لَقَطَعْتُ يَدَهَا» ولم يقلْ لأمرتُ بقطعِ يدها! فظاهرهُ أنه هو الذي يباشرُ قطعها لو سرقت. هذا العدلُ، وبهذا قامتِ السَّماوات والأرض.

ومن عَدْلِ الإمامِ أن يُوَلِّيَ المناصب من هو أهلٌ لها في دينهِ وفي قُوَّته، فيكونُ أمينًا وقَويًّا، أهْلاً للأمرِ الذي وُلِّي عليه.

وأركانُ الولايةِ اثنان: القوَّة، والأمانة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ لسليمان: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ أي: بعرش بلقيس ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩]، فمن العدلِ أن لا يولِّيَ أحدًا منصبًا إلا وهو أهْلٌ له في قوَّتهِ وفي أمانته، فإنْ ولَّى مَنْ ليس أهلاً ويوجدُ مَنْ هو خيرٌ منه فليس بعادل.

فالنبيُّ ﷺ جعل الإمامَ العَادلَ من السبعةِ الذين يُظِلُّهم الله في ظِلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه، وجعلَهُ أوَّلَ هؤلاء السَّبعة، لأن العدلَ في الرَّعيَّةِ صعبٌ جدًّا، فإذا وفِّقَ المرءُ الذي يُولِّيهِ الله على عبادهِ للعدلِ نالَ في هذا خيرًا كثيرًا، وانتفعتِ الأُمَّة في عَصْرهِ ومن بعده أيضًا؛ لأنَّه يكون قدوةً صالحة، فهذا ممن يظلُّهم الله في ظلِّهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب رقم(٥٤)، رقم(٣٤٧٥)، ومسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره، رقم(١٦٨٨).

ثانيًا: «شابٌّ نَشأ في طاعةِ الله»:

الشَّابُّ ما بين الخمسَ عشرةَ سنةً إلى الثلاثين. ولا شكَّ أن يكونَ للشَّابِّ اتِّجاهاتٌ وأفكارٌ، ولا يستقرُّ على شيء، لأنَّه شابٌّ غضٌّ، كلُّ شيءٍ يجذبه، وكلُّ شيءٍ يختطفه، ولهذا أمرَ الرَّسولُ ﷺ في الحربِ أن تُقتلَ شيوخُ المقاتلين المشركين ويستبقىٰ شبابُهم، لأن الشَّبابَ إذا عُرِضَ عليهم الإسلامُ ربَّما يُسلمون. فالشَّابُّ لمّا كان في سنِّ الشَّبابِ يكونُ له أفكارٌ وأهواءٌ واتجاهاتٌ فِكريَّةٌ وخُلقيَّةٌ وسُلوكيَّة، صار الذي يمنُّ الله عليه وينشأ في طاعتهِ من الذين يُظلُّهم الله في ظِلِّه يومَ لا ظل إلاَّ ظلُّه.

وطاعةُ الله هي امتثالُ أمرِ الله واجتنابُ نهيه، ولا امتثالَ للأمرِ واجتنابَ للنَّهي إلا بمعرفةِ أن هذا أمرٌ وهذا نهي، إذن لا بدَّ من سَبقِ العلم، فيكونُ هذا الشَّابُّ طالبًا للعلمِ، ممتثلاً للأمر، مجتنبًا للنَّهي.

الثَّالث: «رجُلٌ قَلْبُهُ معلَّقٌ بالمساجد»: أي يحبُّ المَسَاجد.

وهل المقصودُ أماكنُ السجود؟ أي أنَّه يحبُّ كثرةَ الصَّلاة، أو المقصود المَسَاجدُ المخصوصة؟ يحتمل هذا وهذا. هذا رجلٌ دائمًا قلبه مُعَلَّقٌ بالمساجد، وهو مَشْغُولٌ في أماكنِ الصلاة، وفي الصَّلاة. إذا انتهى من صلاةٍ انتظرَ الأخرى، وهكذا.

وهنا فرقٌ بين قولِ الإنسان: «اللَّهم أرحْني بالصَّلاة»، و«اللهم أرِحْني من الصَّلاة».

أرِحْني بالصَّلاة: هذا خير، أي اجعلِ الصلاةَ راحةً لقلبي. وأرِحني من الصَّلاة: أي: فُكَّني عنها. أعوذُ بالله! فهذا الرجلُ قلبهُ معلَّقٌ بالمساجدِ

دائمًا، وهو مشغولٌ بأماكن الصلاة وبالصلاة، إذا انتهى من صلاةٍ انتظرَ الأخرى، وهكذا.

الرابع: «رجُلان تحابّا في الله، اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه» أي: أحبَّ بعضهما بعضًا لا لشيءٍ سوى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فليس بينهما قرابةٌ ولا صِلةٌ ماليَّة، وليس بينهما صَدَاقة طبيعيَّة، إنَّما أحبَّهُ في الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأنه رآهُ عابدًا لله مُسْتقيمًا على شَرْعه فأحبَّه، وإذا كان قريبًا أوْ صديقًا وما أشْبه ذلك فلا مانع أن يحبَّه من وجهين: من جهةِ القرابةِ والصداقة، ومن الجهةِ الإيمانية.

فهذان تحابّا في الله وَصَارا كالأخوين؛ لما بينهما من الرَّابطةِ الشَّرعيَّة الدِّينيَّة، وهي عبادةُ الله سبحانه وتعالى.

«اجتمعا عليه» في الدُّنيا «وتفرَّقا عليه» أي: لم يفرِّقْ بينهما إلا الموت، يحبُّهُ إلى أن مات، هذان يظلُّهما الله في ظلِّهِ يوم لا ظلَّ إلاَّ ظلُّه، ويكونانِ يومَ القيامةِ على محبَّتهما وعلى خلَّتهما، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، تبقى الصداقةُ بينهما في الدنيا والآخرة. اللَّهُمَّ إنا نسألك من فضلك.

الخامس: «وَرَجلٌ دَعتْهُ امرأةٌ ذاتُ مَنْصِبٍ وجمالٍ فقال: إنِّي أخاف الله»: رجلٌ قادرٌ على الجماع، دعَتْهُ امرأةٌ ليجامعها بالزِّنا ـ والعياذ بالله ـ ذاتُ مَنْصبٍ وجمال، أي أنها من حمائلَ معروفة، ليستْ من سَقْطِ النِّساء بل من الحمائل المعروفة، وهي جميلة، دَعَتْهُ إلى نفسها في مكانٍ خالٍ لا يطَّلعُ عليهما أحد، وهو فيه شهوة، ويحبُّ النِّساء، لكنه قال: إني أخاف

الله! لم يمنعْهُ من فعلِ هذا إلا خوفُ الله عزَّ وجل!

فانظرْ إلى هذا الرَّجل! المقتضى موجود؛ لأنَّه قادرٌ على الجماع، والمرأةُ جميلة، وهي ذاتُ منصب، والمكانُ خال.

لكن مَنَعَهُ مانعٌ أقوى من هذا المقتضى، وهو خوفُ الله، قال: «إنِّي أخافُ الله» ما قال: إني لا أشتهي النِّساء، وما قال: لستِ بجميلة، وما قال: أنتِ من أسافلِ النِّساء، وما قال: إن حولنا أحدًا، قال: «إني أخافُ الله» فهذا مِمَّنْ يُظِلُّه الله في ظِلِّهِ يوم لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ.

وانظرْ إلى يوسفَ بنِ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم الصلاة والسَّلام ـ عشقتهُ امرأةُ العزيزِ ملكِ مصر، وكانت امرأةَ مَلِكٍ على حالٍ من الجمالِ والدّلال. غلَّقتِ الأبوابَ بينهما وبين النَّاس: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ يعني تدعوهُ إلى نفسها، وكان رجلاً شابًا، وبمقتضى الطَّبعيةِ البشرية هَمَّ بها وهمَّتْ به، ولكن رأى برهانَ ربِّه ووقعَ في قلبهِ خوفُ الله فامتنع، فهدَّدتهُ بالسجن فقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٣، ٣٥]، وسُجِنَ في ذاتِ الله وامتنع عن الزِّنا مع قوَّةِ أسبابه، لكنه رأى برهانَ ربِّهِ فخافَ الله.

السادس: «ورجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فَأَخْفاها حتَّى لا تعلمَ شِمَالُه ما تُنفقُ يمينه»: وهذا فيه كمالُ الإخلاص، يُخلصُ لله، لا يريدُ من الناس أن يطَّلعوا على عملٍ من أعماله، بل يريدُ أن يكونَ بينه وبين ربِّه فقط. ولا

يريدُ أن يظهرَ للنَّاس بمظهرِ المنَّةِ على أحد؛ لأنَّ الذي يعطي أمامَ الناس تكونُ له مِنَّةٌ على مَنْ أعطاه. فهو يُخفي الصَّدقةَ حتى لا تعلمَ شماله ما تُنفقُ يمينه، أي: من شدَّةِ إخفائهِ لو أمكنَ أنْ لا تعلمَ يدهُ الشمالُ ما أنفقتْ يدهُ اليمينُ لفعل، فهذا مخلصٌ غايةَ الإخلاص وهو بعيدٌ عن المَنِّ بالصدقة، يظلُّهُ الله في ظلِّهِ يوم لا ظلَّ إلاَّ ظلُّه، ولكنْ لاحظْ أن إخفاءَ الصدقة أفضل ـ بلا شكٍّ ـ إلا أنَّه ربما يعرضُ لهذا الأفضل ما يجعله مفضولاً، مثلَ أن يكون في إظهار الصَّدقة تشجيعٌ للنَّاس على الصَّدقة، فهنا قد يكونُ إظهارُ الصَّدقةِ أفضل، ولهذا امتدح الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذين ينفقونَ سِرًّا وعَلانيةً على حسبِ ما تقتضيهِ المصلحة.

فالحالُ لا تخلو من ثلاثِ مراتب: إمّا أن يكونَ السرُّ أنفع، أو الإظهارُ أنْفع، فإنْ تَساوى الأمرانِ فالسرُّ أنفع.

السَّابع: «رجُلٌ ذكرَ الله خاليًا ففاضتْ عيناه» ذكر الله بلسانه وبقلبه، ليس عنده أحدٌ يُرائيهِ بهذا الذِّكر، خاليًا من الدُّنيا كُلِّها، قلبهُ معلَّقٌ باللهِ عزَّ وجلّ.

فلمَّا ذكرَ الله بلسانه وبقلبه، وتذكَّرَ عظمةَ الرَّبِّ ـ عزَّ وجلَّ ـ اشتاقَ إلى الله ففاضتْ عيناه. فهذا أيضًا ممن يُظِلُّهم الله في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلُّه.

هذه الأعمالُ السَّبعة قد يوفَّقُ الإنسانُ فيحصلُ على واحدٍ منها أو اثنينِ أو ثلاثةٍ أو أربعةٍ أو خمسةٍ أو ستةٍ أو سبعةٍ، هذا ممكن، ولا يناقض بعضه بعضًا، فقد يوفَّقُ الإنسانُ فيأخذُ من كلٍّ واحدةٍ من هذه بنصيب، كما أخبرَ الرَّسولُ عليه الصلاة والسلام: **«أن للجنَّةِ أبْوابًا، من كان من أهلِ**

الصلاةِ دُعِيَ من بابِ الصلاة، ومن كان من أهلِ الصدَّقةِ دُعيَ من بابِ الصَّدقة، ومن كان من أهلِ الجهادِ دُعِيَ من باب أهْلِ الجهاد، ومن كان من أهلِ الصِّيامِ دُعِيَ من بابِ الرَّيان» ذكرَ أربعة!

فقال أبو بكر: يا رسولَ الله، مَا عَلى من دُعِي من واحدٍ من هذه الأبوابِ من ضرورة ـ أي: الذي يُدعى من بابٍ واحدٍ سهل ـ فهل يدعى أحدٌ من هذه الأبوابِ كلها؟ قال: **«نعم، وأرجو أنْ تكونَ منهم يا أبابكر»**[(١)] نسألُ الله من فضله. وهذا يعني أن أبا بكر يُدعى من كلِّ الأبواب؛ لأنَّه صَاحبُ صَلاَة، وصَدقةٍ، وجهادٍ، وصيام، فكلُّ مسائلِ الخير قد أخذَ منها بنصيب. رضيَ الله عنه وأرْضاه، وألحقنا به في جنَّاتِ النعيم.

وهنا مسألةٌ أحِبُّ أن أنبِّهَ عليها، وهي أن بعض الطلبة يَظُنُّونَ أن المراد بالظِّلِّ **«في ظلِّهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه»** أنَّه ظلُّ الرَّبِّ ـ عزَّ وجلَّ ـ وهذا ظَنٌّ خاطىءٌ جدًّا، لا يظنُّه إلا رجلٌ جَاهل، وذلك أن من المعلومِ أن الناسَ في الأرض، وأن الظلَّ هذا يكونُ عن الشَّمس، فلو قُدِّرَ أن المرادَ به ظِلُّ الرَّبِّ ـ سبحانه وتعالى ـ لَزِمَ من هذا أن تكونَ الشَّمسُ فوق الله، ليكونَ حائلاً بينها وبين الناس، وهذا شيءٌ مُسْتحيلٌ ولا يمكن؛ لأن الله ـ سبحانه ـ قد ثبتَ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصَّحابة، باب قول النبي ﷺ: **لو كنت متخذًا خليلاً...»** رقم(٣٦٦٦)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب من جمع الصدقة وأعمال البر، رقم(١٠٢٧).

له العُلوُّ المطلقُ من جميع الجهات، ولكنَّ المرادَ ظلٌّ يخلقهُ الله في ذلك اليوم يظلُّ مَنْ يستحقُّون أَن يُظِلَّهم الله في ظِلِّه، وإنَّما أضافَهُ الله إلى نفسه لأنَّه في ذلك اليوم لا يستطيع أحدٌ أن يُظَلِّلَ بفعل مخلوق، فليس هناك بناءٌ ولا شيءٌ يُوضَعُ على الرؤوس، إنما يكونُ الظلُّ ما خلقهُ الله لعبادهِ في ذلك اليوم؛ فلهذا أضافَهُ الله إلى نفسهِ لاختصاصهِ به[(١)].

ومما يكونُ في ذلك اليوم: نَشْرُ الدَّواوين أي: صَحَائف الأعمالِ التي كُتبتْ على المرءِ في حياته، وذلك لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وكَّلَ بِكُلِّ إنسانٍ مَلَكين: أحدهما عن اليمين، والثاني عن الشِّمال، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٦ـ١٨].

هذان المَلَكان الكريمانِ يكتبانِ كلَّ ما يعملهُ المرءُ من قولٍ أو فِعل، أمّا ما يحدِّثُ به نفسَهُ فإنَّه لا يكتب عليه، لأن النبيَّ ﷺ قال: «**إن الله تجاوزَ لأُمَّتي ما حدَّثتْ به أنْفُسَها مَا لَم تَعْملْ أوْ تتكلَّمْ به**»[(٢)].

لكنَّ القولَ والفعلَ يُكْتبُ على الإنسان، كاتبُ الحسنات على اليمين وكاتبُ السيِّئاتِ على الشِّمال، فيكتبانِ كلَّ ما أُمرا بكتابته، فإذا كان يوم القيامة أُلزم كلُّ إنسانٍ هذا الكتابَ في عنقه، كما قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ

---

(١) انظر شرح العقيدة الواسطية لفضيلة الشيخ المؤلف رحمه الله تعالى ص(٤٩٧) ط (دار الثريا).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيًا في الأيمان، رقم(٦٦٦٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر، رقم(١٢٧).

إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣]، ويُخْرَجُ له هذا الكتابُ فيقال: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، فيقرأه له، ويتبيَّن كُلُّ ما عنده.

هذا الكتابُ المنشورُ مِنَ النَّاسِ مَنْ يأخذهُ بيمينه، ومِنَ الناسِ مَنْ يأخذهُ بشمالهِ من وراءِ ظهره.

أمّا من يأخذهُ بيمينه ـ أسأل الله أن يجعلنا منهم ـ فإنَّه يقولُ للنَّاس ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩]، يُريهم إيَّاهُ فَرِحًا ومسرورًا بما أنعمَ الله به عليه.

وأمّا من أُوتي كتابَهُ بشمالهِ فيقولُ حزنًا وغمًّا وهمًّا ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥].

ومما يجبُ الإيمانُ به في ذلك اليوم: أن تؤمن بالحساب، بأن الله تعالى يحاسبُ الخلائق، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]، فيحاسِبُ الله الخلائق، ولكنَّ حساب المؤمن حسابٌ يسيرٌ ليس فيه مناقشة، يخلو الله تعالى بعبده المؤمن ويَضع عليه سِتْرَه، ويُقَرِّرُهُ بذُنوبه، يقول: أتذكرُ كذَا، أتذكرُ كذَا؟ حتَّى يقول: نعم، ويُقِرُّ بذلك كُلِّه، فيقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له: «**إني قد سترْتُها عليكَ في الدنيا، وأنا أغْفرها لك اليوم**»[1]، وما أكثرَ الذنوبَ التي

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى =

سَتَرَها الله علينا! فإذا كان الإنسانُ مؤمنًا قال الله له: «**فإنِّي قد سترتُها عليكَ في الدُّنيا، وإني أغفرها لكَ اليوم**» الخ.

أمّا الكافر ـ والعياذُ بالله ـ فإنَّه يُفْضَحُ ويُخْزى، ويُنادَى على رؤوسِ الأشهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

وممّا يجبُ الإيمانُ به ممّا يكون في يومِ القيامة: **الحوضُ الموروُدُ** لنبيِّنا محمَّدٍ ﷺ وهو حوضٌ يُصبُّ عليه ميزابانِ من الكوثر، وهو النَّهرُ الذي أُعْطِيَهُ النبيُّ ﷺ في الجنَّة، كما قال الله تعالى ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، فيصُبُّ منه ميزابانِ على الحوضِ الذي يكونُ في عَرصَاتِ يومِ القيامة.

وصفهُ النبيُّ ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ بأنَّ ماءهُ أشدُّ بياضًا من اللبن، وأَحْلَى من العَسَل، وأطيبُ من رائحة المِسْك، وأن آنيتَهُ كنجومِ السَّماء، وأن طُوله شهرٌ وعرضه شهر، وأنَّ من شرب منه مرَّةً واحدةً فإنه لا يظمأ بعدها أبدًا[1].

هذا الحوضُ يَرِدُهُ المؤمنون من أُمَّةِ النبيِّ ﷺ ـ أسألُ الله أن يُوردني وإيَّاكم إيَّاه ـ يَرِدهُ المؤمنونَ يَشْربون منه، وأمّا من لم يؤمنْ بالرسولِ ـ عليه

= ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ رقم(٢٤٤١)، ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كَثُرَ قتله، رقم(٢٧٦٨).

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب في الحوض، رقم(٦٥٧٩)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته، رقم(٢٢٩٢).

الصلاة والسلام ـ فإنَّه يُطْرَدُ عنه ولا يشربُ منه، نسأل الله العافية.

وهذا الحوضُ الذي جعله الله للنبيِّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو أعظمُ حِيَاض الأنبياء، ولكلِّ نبيٍّ حوضٌ يَردهُ المؤمنونَ من أمَّته، لكنَّها لا تُنسبُ إلى حوض الرسول ﷺ لأنَّ هذه الأمَّةَ يمثِّلونَ ثُلُثي أهل الجنَّة، فلا جرم أن يكون حَوْض النبيِّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ أَعْظَمَ الحِياض وأكبرها وأوْسَعَها وأَعْظَمها وأشملها.

وممّا يجب الإيمان به أيضًا في ذلك اليوم: **الإيمان بالصِّراط**. والصراطُ جسرٌ مَنْصُوبٌ على جهنَّم، وهو أدقُّ من الشَّعر وأحَدُّ من السَّيف، يَمُرُّ الناسُ عليه على قدرِ أعمالهم، من كان مُسَارعًا في الخيرات في الدنيا كان سريعًا في المشي على هذا الصِّراط، ومن كان مَتَباطئًا كان مُتباطِئًا، ومن كان قد خَلَطَ عملاً صالحًا وآخر سيِّئًا ولم يَعْفُ الله عنه فإنَّه ربَّما يكردس في النار والعياذ بالله!

يختلف النَّاس في المَشْي عليه، فمنهم من يمرُّ كلمحِ البَصَر، ومنهم من يمرُّ كالبرق، ومنهم من يمرُّ كالرِّيح، ومنهم من يمرُّ كالفَرس الجواد، ومنهم من يمرُّ كركاب الإبل، ومنهم من يمشي، ومنهم من يَزْحَف، ومنهم من يُلقى في جهنم.

وهذا الصِّراطُ لا يمرُّ عليه إلا المؤمنونَ فقط، أمَّا الكافرون فإنهم لا يمرُّون عليه، وذلك لأنهم يُساقُون في عَرَصَاتِ القيامةِ إلى النارِ مباشرة، نسألُ الله العافية.

فإذا عبروا على الصِّراط وقفوا على قنطرةٍ بين الجنَّةِ والنار، فيُقتصُّ

من بعضهم لبعض، وهذا القِصاصُ غير القِصاصِ الذي يكون في عرصات يوم القيامة، هذا القِصَاص ـ والله أعلم ـ يرادُ به أن تتخلَّى القلوبُ من الأضغانِ والأحقادِ والغلّ، حتى يدخلوا الجنَّةَ وهم على أكملِ حال، وذلك أن الإنسان وإن اقتُصَّ له ممَّن اعتدى عليه فلابدَّ أن يبقى في قلبه شيءٌ من الغلِّ والحقدِ على الذي اعتدى عليه، ولكنَّ أهلَ الجنَّةِ لا يدخلون الجنَّةَ حتى يُقْتَصَّ لهم اقتصاصًا كاملاً، فيدخلونها على أحسنِ وجه، فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دخولِ الجنَّة، ولكن لا يُفتحُ بابُ الجنَّةِ لأحدٍ قبل الرسول ﷺ ولهذا يشفعُ هو بنفسهِ لأهلِ الجنَّةِ أن يدخلوا الجنَّة، كما أنه شفعَ للخلائقِ أن يُقضىٰ بينهم ويَستَريحوا من الهَوْل والكَرْبِ والغمِّ الذي أصابهم في عرصاتِ القيامة، وهاتانِ الشفاعتانِ خاصَّتان برسول الله ﷺ. أعني الشفاعةَ في أهل الموقف حتى يُقضى بينهم، والشفاعةَ في أهلِ الجنَّةِ حتى يدخلوا الجنَّة، فيكونُ له ـ صلى الله عليه وسلم ـ شفاعتان: إحداهما في نجاة الناس من الكروب والهموم، والثانيةُ في حصول مطلوبهم، وهو فتحُ بابِ الجنَّةِ فيُفتح.

فأوَّلُ من يدخل الجنَّةَ من النَّاس رسولُ الله ﷺ قبل كلِّ الناس، وأوَّلُ من يدخلها من الأمم أمَّةُ النبيِّ ﷺ، أمَّا أهلُ النَّار ـ والعياذ بالله ـ فيُساقونَ إلى النارِ زُمرًا، ويدخلونها أمَّةً بعد أُمَّة، ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ والعياذُ بالله. الثَّانيةُ تَلْعنُ الأُولى وهكذا، ويتبرَّأ بعضُهم من بعض، نسأل الله العافية. فإذا أتوْا إلى النَّار وجدوا أبوابها مفتوحة، حتى يُبْغتوا بعذابها

والعياذ بالله، فيدخلونها ويُخلَّدُ فيها الكفّارُ أبد الآبدين، إلى أبدٍ لا مُنتهى لهُ، كما قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[الأحزاب: ٦٤ـ٦٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]!! فهذه ثلاثُ آياتٍ من كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كلُّها فيها التصريحُ بأن أهل النار خالدون فيها أبدًا، ولا قولَ لأحدٍ بعد كلامِ الله عزَّ وجلَّ.

كما أن أهلَ الجنَّةِ خالدون فيها أبدًا.

فإن قال قائل: إن الله تعالى قال في سورة هود: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٦ ـ ١٠٨]، ففي أهلِ الجنَّةِ قال: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ يعني غير مقطوع، بل هو دائم. وفي أهلِ النارِ قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، فهل هذا يعني أن أهلَ النارِ ينقطعُ عنهم العذاب؟

فالجواب: نقولُ لا، ولكن لمّا كان أهلُ الجنَّةِ يتقلَّبونَ بنعمةِ الله بيَّنَ

الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن عطاءهم لا ينقطع، أمّا أهلُ النار فلمّا كانوا يتقلَّبونَ بعدلِ الله قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ فلا معقِّبَ لحكمه وقد أراد أن يكون أهلُ النّار في النار، فهو يفعلُ ما يريد. هذا هو الفرقُ بين أهلِ النارِ وأهلِ الجنَّة، فأهلُ الجنَّةِ عطاؤهم غيرُ مجذوذ، وأمّا أهلُ النار فإنهم يتقلَّبون بعدلِ الله، والله سبحانه وتعالى فعَّالٌ لما يريد. هذا الكلام فيما تيسَّر مما يتعلَّقُ بالإيمان باليوم الآخر.

وقوله: «وأنْ تؤمنَ بالقَدَرِ خيرِه وشرِّه» هذا الركنُ السادس.

والقَدَر: هو تقدير الله ـ سبحانه وتعالى ـ لِما يكونُ إلى يومِ القيامة، وذلك أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلقَ القلمَ فقال له اكتب! قال: ربِّي وما أكتب؟ قال: اكتبْ ما هو كائن؟ فجرى في تلك السَّاعة بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة[(١)]، فما أصاب الإنسان لم يكنْ ليخطئه، وما أخطأه لم يكنْ ليصيبه، وقد ذكرَ الله هذا في كتابه إجمالاً فقال: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢]، من قبل أن نبرأها أي: من قبل أن نخلقها، أي: من قبلِ أن نخلقَ الأرض، ومن قبلِ أن نخلقَ أنفسكم، ومن قبلِ أن نخلقَ المصيبة.

فإنَّ الله كتبَ هذا من قبل خَلْقِ السَّماواتِ والأرضِ بخمسينَ ألف سنة.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء في الرضا بالقضاء، رقم (٢١٥٥)، وأبوداود، كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠).

قال أهل العلم: ولابدَّ للإيمان بالقدر من أن تؤمنَ بكلِّ مَرَاتبهِ الأربع:

المرتبةُ الأولى: أن تؤمن بأنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليمٌ بكلِّ شيء، وهذا كثيرٌ في الكتابِ العظيم، يذكر الله عموم علمه بكلِّ شيء، كما قال الله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، ولقوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

المرتبةُ الثانية: أن تؤمنَ بأن الله تعالى كتب مقاديرَ كلِّ شيءٍ إلى قيام السَّاعة، كتبه قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، فكلُّ شيءٍ كائنٌ فإنه مكتوبٌ قد انتُهيَ منه، جفَّتِ الأقلامُ وطُويت الصُّحف، فما أصابك لم يكنْ ليُخطئك، وما أخْطَأك لم يكنْ ليصيبك، فإذا أصابكَ شيءٌ لا تقلْ لو فعلتُ كذا ما أصابني؛ لأن هذا شيءٌ مكتوبٌ لابدَّ أن يقعَ كما كتب سبحانه وتعالى، فلا مَفَرَّ منه مهما عملت، فالأمرُ سيكونُ على ما وقعَ لا يتغيَّرُ أبدًا، لأنَّ هذا أمرٌ قد كُتب.

فإن قالَ قائل: ألم يكنْ قد جاءَ في الحديث: «**من أحبَّ أنْ يُبْسَطَ لَهُ في رِزْقِه، ويُنْسأَ لَهُ في أثَرِه، فلْيَصِل رَحِمَه**»[1]؟.

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق لصلة الرحم، رقم(٥٩٨٦)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم(٢٥٥٧).

فالجواب: بلىٰ قد جاء هذا، ولكنَّ الإنسانَ الذي قد بُسط له في رزقه ونُسِىءَ لَهُ في أثره من أجل الصِّلة، قد كُتِبَ أنَّه سَيَصلُ رَحِمه، وأنه سيُبْسَطُ له في الرزق، وأنَّه سَيُنسأُ له في الأثر، لابدَّ أن يكونَ الأمرُ هكذا، ولكنَّ الرسولَ - عليه الصَّلاةُ والسَّلام - قال: «**مَنْ أحَبَّ أن يُبْسَطَ له في رزقِهِ وينسأَ له في أَثَره**» الحديث، من أجلِ أن نُبادر ونُسَارع إلى صلة الرَّحم، وإلا فهو مكتوبٌ أن الرجل سوف يصل رحمه ويحصل له هذا الثواب، أو أنه لن يصل رحمه ويحرم من هذا الثواب، أمرٌ منته، لكن أخبرنا الرسول - عليه الصلاة والسلام - بهذا من أجل أن نحرِصَ على صلةِ الرَّحِم.

واعلمْ أن الكتابةَ في اللَّوحِ المحفوظِ يعقبها كتاباتٌ أُخَر.

منه: أن الجنينَ في بطنِ أمِّهِ إذا تمَّ له أربعةُ أشهرٍ أرسلَ الله إليه ملَكًا موكلاً بالأرحام فنيفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكَتْبِ رزقه، وأجله، وعمله، وشَقيٌّ أم سَعيد، فيكتبُ ذلك، وهذه الكتابةُ غيرُ الكتابةِ في اللوحِ المحفوظ، هذه كتابةٌ في مقتبلِ عمرِ الإنسان، ولهذا يسمِّيها العلماء: الكتابة العُمرية، يعني نسبةً للعُمر.

كذلك: هناك كتابةٌ أخرى تكونُ في كلِّ سنة، وهي في ليلةِ القدر، فإن ليلةَ القدر يكتبُ الله فيها ما يكونُ في تلك السنةِ، كما قال الله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان: ٣، ٤]، «**يُفْرَق**» أي: يُبيَّن ويفصَّل؛ ولهذا سُمِّيتْ ليلةَ القدر.

المرتبةُ الثَّالثةُ للإيمان بالقدر: أن تؤمن بأن كلَّ شيءٍ فهو بمشيئةِ الله، لا يخرج عن مَشِيئتِهِ شيء، ولا فرق بين أن يكونَ هذا الواقعُ مما يختصُّ الله به، كإنزالِ المطرِ وإحياءِ الموتى وما أشبهَ ذلك، أو ممَّا يعملهُ الخَلْقُ، كالصَّلاةِ والصِّيام وما أشبهها، فكلُّ هذا بمشيئةِ الله. قال الله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فبيَّنَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنا أنه لا مشيئةَ لنا إلا بمشيئةِ الله، وأن أفعالنا واقعةٌ بمشيئةِ الله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ ولكن كلَّ شيءٍ فإنه واقعٌ بمشيئةِ الله، فلا يكون في ملكه ما لا يشاءُ أبدًا، ولهذا أجمع المسلمون على هذه الكلمةِ العظيمة: «ما شاء الله كان وما لم يشأْ لَمْ يَكُن».

وأما المرتبةُ الرَّابعة: فهي الإيمانُ بأن كلَّ شيءٍ مخلوقٌ لله؛ لقولِ الله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] فكلُّ شيءٍ واقعٌ فإنَّه مخلوقٌ لله عزَّ وجلَّ، فالإنسانُ مخلوقٌ لله وعمله مخلوقٌ لله، قال الله عن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو يُخاطبُ قومه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، ففعلُ العبد مخلوقٌ لله، لكن المباشر للفعل هو العبدُ وليس الله، لكن الله هو الذي خلق هذا الفعل ففعله العبد،

فهو منسوبٌ لله خَلْقًا ومنسوبٌ إلى العبدِ كَسْبًا وفعلاً، فالفاعلُ هو العبدُ والكاسبُ هو العبد، والخالقُ هو الله.

فكلُّ شيء ممّا يحدثُ فإنَّه مخلوقٌ لله ـ عزَّ وجلَّ ـ لكن ما كان من صِفات الله فليس بمخلوق، فالقرآنُ مثلاً أنْزَله الله على محمَّد ﷺ لكنه ليس بمخلوق، لأنَّ القرآنَ كلامُ الله، وكلامُ الله صفةٌ من صفاتهِ ـ سبحانه ـ ليستْ بمخلوقة.

هذه مراتبُ أربعٌ للإيمان بالقَدر! يجبُ أن تؤمنَ بها كلِّها، وإلا فإنك لم تؤمنْ بالقدر.

وفائدةُ الإيمانِ بالقَدر عَظيمةٌ جدًّا؛ لأن الإنسان إذا علم أن الشيء لابدَّ أن يقعَ كما أمر الله استراح، فإذا أُصيب بضراءَ صَبَر وقال هذا من عند الله، وإن أصيب بسرَّاء شكر وقال هذا من عند الله، وقد ثبت عن النبيِّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: «**عجبًا لأمرِ المؤمنِ إنَّ أمْرَهُ كُلَّه خير، إنْ أصابتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فكانَ خيرًا له، وإن أصابَتْه ضرَّاءُ صَبرَ فكان خيرًا له**»[1].

لأن المؤمنَ يؤمنُ أن كلَّ شيءٍ بقضاء الله، فيكون دائمًا في سرور، ودائمًا في انشراح؛ لأنه يعلمُ أن ما أصابه فإنَّه من الله: إن كان ضرَّاءَ صبر وانتظر الفرج من الله وَلَجأ إلى الله تعالى في كشف هذه الضرَّاء، وإن كان سَرَّاء شَكرَ وحمدَ الله وعلمَ أن ذلك لم يكنْ بحولهِ ولا قوَّته ولكنْ بفضلٍ من الله ورحمة.

---

(١) تقدم تخريجه ص (١٩٧).

وقوله عليه الصلاة والسلام: «خيرِهِ وشرِّه»:

الخيرُ ما ينتفعُ به الإنسانُ ويُلائمه، من عِلمٍ نَافعٍ، ومَالٍ واسعٍ طيِّب، وصحَّة، وأهلٍ وبنينَ وما أشْبهَ ذلك.

والشرُّ ضدُّ ذلك، من الجهلِ والفَقْرِ والمرضِ وفُقْدانِ الأهل والأولاد ومَا أشبهَ هذا.

كلُّ هذا من الله سبحانه وتعالى، الخيرُ والشرُّ، فإن الله سبحانه يقدِّرُ الخيرَ لحكمةٍ ويقدِّر الشرَّ لحكمة، كما قال الله عزَّ وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فإذا علمَ الله أن من الخيرِ والحكمةِ أن يقدِّرَ الشرَّ قَدَّرهُ لِما يترتَّب عليه من المَصالح العظيمة، كقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

فإذا قال قائل: كيف تجمع بين قول النبيِّ عليه الصلاة والسلام: **«وأنْ تؤمنَ بالقدَرِ خيرِهِ وشرِّه»** وقولهِ ﷺ: **«الشرُّ لَيْسَ إلَيْكَ»**(١)، فنفى أن يكونَ الشرُّ إليه؟

فالجواب على هذا أن نقول: إن الشرَّ المحضَ لا يكونُ بفعل الله أبدًا، فالشرُّ المحض الذي ليس فيه خيرٌ لا حَالاً ولا مآلاً لا يمكنُ أن يوجد في فعل الله أبدًا، هذا من وجه، لأنه حتى الشَّرُّ الذي قدَّرهُ الله شرًّا لابدَّ أن

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم(٧٧١).

يكونَ له عاقبةٌ حميدة، ويكونُ شرًّا على قومٍ وخيرًا على آخرين.

أرأيتَ لو أنزل الله المطرَ مطرًا كثيرًا فأغرَقَ زرْعَ إنسان، لكنه نفعَ الأرضَ وانتفعتْ به أُمَّة، لكان هذا خيرًا بالنسبةِ لمن انتفعَ به، شرًّا بالنسبةِ لمن تضرَّرَ به، فهو خيرٌ من وجهٍ وشرٌّ من وجه.

ثانيًا: حتَّى الشَّرُّ الذي يُقدِّرهُ الله على الإنسان هو خيرٌ في الحقيقة؛ لأنَّه إذا صبرَ واحتسبَ الأجرَ من الله نال بذلك أجرًا أكثر بأضعاف مضاعفةٍ ممّا نالَهُ من الشَّر، وربَّما يكونُ سببًا للاستقامةِ ومعرفةِ قدر نعمةِ الله على العبدِ فتكونُ العاقبةُ حميدة.

ولهذا ذُكِرَ عن بعضِ العابدات أنَّها أصيبتْ في أصبعها أو يدها فانجرحت فصبرتْ وشكرتِ الله على هذا وقالت: «إن حَلاوةَ أجْرِها أنْسَتْني مرَارةَ صبْرِها»!

ثم نقول: إن الشرَّ في الحقيقةِ ليس في فعلِ الله نفسه، بل في مفعولاته، فالمفعولاتُ هي التي فيها خيرٌ وشرّ، أمَّا الفعلُ نفسه فهو خير، ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾[الفلق: ١، ٢]، أي: من شرِّ الذي خلقه الله، فالشرُّ إنما يكونُ في المفعولات لا في الفعلِ نفسه، أما فعلُ الله فهو خير.

ويَدُلُّكَ لهذا أنَّه لو كان عندكَ مريضٌ وقيلَ إنَّ من شفائهِ أن تكويَهُ بالنار، فكويْتَهُ بالنَّار، فالنَّارُ مُؤلمةٌ بلا شكّ، لكن فِعْلُكَ هذا ليس بشرّ، بل هو خيرٌ للمريض، لأنَّك إنما تنتظر عاقبة حميدة بهذا الكيّ، كذلك فِعْلُ الله للأشياءِ المكروهةِ والأشياءِ التي فيها شرّ، هي بالنسبةِ لفعلهِ وإيجادهِ خير،

لأنه يترتَّب عليها خيرٌ كثير.

فإنْ قال قائل: كيف تجمعُ بين هذا وبين قولهِ تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

فالجوابُ أن نقول: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ يعني من فضله، هو الذي منَّ عليكَ بها أوَّلاً وآخرًا ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أي: أنتَ سببها، وإلا فالذي قدَّرها هو الله، لكن أنتَ السبب، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وخلاصةُ الكلام: أن كلَّ شيءٍ واقعٌ فإنه بقدر الله، سواءٌ كان خيرًا أم شرًّا.

ثم قال عمرُ ـ رضي الله عنه ـ فيما نقله عن جبريل ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ قال للنبيِّ ﷺ: «أخبرني عن الإحْسان؟ قال: أن تعبدَ الله كأنَّكَ تراهُ، فإن لمْ تكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ».

الإحسان: ضدُّ الإساءة، والمرادُ بالإحسان هنا إحسانُ العَمل، فبيَّنَ النبيُّ ـ عليه الصلاةُ والسَّلام ـ أن الإحسانَ أن تعبدَ الله كأنَّكَ تراه، يعني: تُصَلِّي وكأنَّك ترى الله عزَّ وجلَّ، وتزكِّي وكأنَّك تَراه، وتَصُومُ وكأنَّك تراه، وتحجُّ وكأنَّك تراه، تتوضَّأ وكأنَّك تراه، وهكذا بقيَّةُ الأعمال.

وكونُ الإنسانِ يعبدُ الله كأنَّه يَراهُ دليلٌ على الإخلاصِ لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعلى إتقانِ العملِ في متابعةِ الرسول ﷺ لأنَّ كلَّ مَنْ عَبَد الله على هذا الوصْف فلابدَّ أن يقع في قلبه من محبَّةِ الله وتعظيمهِ ما يَحْمله على إتقانِ

العملِ وإحكامِه.

«فإنْ لَمْ تكُن تَرَاهُ فَإنَّهُ يَرَاكَ» أي: فإنْ لم تعبدِ الله على هذا الوصفِ فاعبدْهُ على سبيلِ المراقبةِ والخوف «فإنه يرَاك» ومعلومٌ أن عبادة الله على وجه الطَّلبِ أكملُ من عبادته على وجه الهرب!

فها هنا مرتبتان:

المرتبةُ الأولى: أن تعبد الله كأنَّك تراه، وهذه مرتبة الطَّلب.

والثَّانية: أن تعبد الله وأنت تعلم أنه يراك، وهذه مرتبةُ الهرب، وكلتاهما مرتبتان عظيمتان، لكن الأولى أكملُ وأفضل.

ثم قال جبريل: «**أخبرني عن السَّاعة**»، أي: عن قيام السَّاعة التي يُبْعَثُ فيها الناس ويُجازَوْنَ فيها على أعمالهم، فقال النبي ﷺ: «**ما المسؤولُ عنها بأعلمَ من السَّائل**»، المسْؤُول عنها: يعني نفسَهُ عليه الصلاةُ والسلام، بأعلمَ من السَّائل: يعني جبريل، يعني: أنك إذا كنت يا جبريل تجهلها، فأنا كذلك أجهلها. فهذانِ رَسُولانِ كريمانِ أحدهما رَسُولٌ مَلَكيّ، والثَّاني رسُولٌ بشريّ، وهما أكمل الرُّسل، ومع ذلك فكلٌّ منهما ينفي أن يكون له علمٌ بالسَّاعة؛ لأنَّ علم السَّاعةِ عند من بيده إقامتها عزَّ وجلَّ، وهو الله تبارك وتعالى، كما قال الله في آياتٍ متعدِّدة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، فعلمها عندالله، فمن ادَّعى علمَ السَّاعةِ فإنه كاذب، ومن أين له أن يعلمَ ورسولُ الله ﷺ لا يعلم، وجبريلُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يعلم، وهما أفضلُ الرسل.

ولكن السَّاعة لها أَمارات، كما قال الله تعالى: ﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ﴾ [محمد: ١٨]، أي: علاماتها. ولهذا لما أخبر النبيُّ ﷺ جبريلَ أنَّه لا علمَ له بذلك قال: «فأخْبرني عن أَماراتها» أي: علاماتِها الدَّالَّةِ على قُربها.

فقال: «أن تلِدَ الأمَةُ رَبَّتَها، وأن ترىٰ الحُفَاةَ العُرَاةَ العالَة رِعاءَ الشاءِ يَتطَاوَلُون في البُنيان».

الأول: «أن تَلِدَ الأمَةُ ربتَّها» يعني: أن تكونَ الأمةُ المملوكةُ تتطوَّرُ بها الحالُ حتى تكونَ ربَّةً للمماليكِ الآخرين، وهو كنايةٌ عن كثرةِ الأموال.

وكذلك الثَّاني: «وأن تَرَى الحُفَاةَ العُرَاة العَالَةَ رِعاءَ الشاءِ يَتَطَاوَلُون في البُنيان» الحُفاةُ: الذين ليس لهم نِعال من الفقر، والعُراةُ: ليس لهم كسوة من الفقر، العَالة: الفقراءُ. يتطاولون في البنيان: يعني أنهم لا يلبثون إلا أن يكونوا أغنياء يتطاولون في البنيان حسًّا ومعنى، يتطاولون في البنيان حسًّا بأن يرفعوا بنيانهم إلى السَّماء، ويتطاولون فيها معنى بأن يحسِّنوها ويزيِّنوها ويُدخلوا عليها كلَّ ما يكونُ من مُكَمِّلاتها، لأن لديهم وفرةً من المال.

وكلُّ هذا وقع، وهناك أماراتٌ أخرى وعلاماتٌ أخرى ذكرها أهل العلم في باب الملاحم والفِتَنِ وأشْراطِ السَّاعةِ وهي كثيرة.

ثمَّ انطلق جبريلُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولبثوا ما شاء الله أن يلبثوا، ثمَّ قال النبيُّ ﷺ لعمرَ رضي الله عنه: «أتدري من السائل؟ قال: الله ورسولهُ أعلم!» قال: «فإنه جبريلُ أتاكمْ يعلِّمكمْ دينكم».

وفي هذا الحديث من الفوائد:

١ ـ **إلقاءُ المَسائلِ على الطَّلبةِ ليمتحنهم**، كما أَلْقَى النبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ المسألةَ على عمرَ رضي الله عنه.

٢ ـ **وفيه أيضًا: جوازُ قولِ الإنسان**: الله ورسولهُ أعلم، ولا يلزمهُ أن يقول: الله ثمَّ رسولهُ أعلم؛ لأن علمَ الشَّريعةِ الذي يصلُ إلى النبيِّ ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ من علم الله، فعلم الرسولِ من علمِ الله ـ سبحانه وتعالى ـ فَصَحَّ أن يُقَال: الله ورسولهُ أعلم، كما قال الله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [التوبة: ٥٩]، ولم يقلْ: ثمَّ رسوله؛ لأن الإيتاءَ هنا إيتاءٌ شرعيّ، وإيتاءُ النبيِّ ﷺ الشرعيُّ من إيتاءِ الله.

فالمسائلُ الشَّرعيَّةُ يجوزُ أن تقول: الله ورسوله، بدون (ثمَّ) أَمَّا المسائل الكونيَّةُ، كالمشيئةِ وما أشبهها، فلا تقال: الله ورسوله، بل: الله ثمَّ رسوله، ولهذا لما قال رجلٌ للنبيِّ ﷺ: ما شاءَ الله وشئت. قال: «**أجعلتني لله ندًّا، بل ما شاءَ الله وحده**»[١]،

٣ ـ **وفي هذا دليلٌ على أنَّ السائلَ إذا سألَ عن شيءٍ يَعْلَمهُ من أجل أن ينتفع الحاضرون** فإنَّه يكونُ معلِّمًا لهم؛ لأن الذي أجاب: النبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ وجبريل سائل لم يعلِّمِ الناس، لكن كان سببًا في هذا الجواب الذي ينتفعُ به الناس.

فقال بعض العلماء: إنَّه ينبغي لطالبِ العلمِ إذا جلسَ مع عالم في مَجْلس أن يسأل عن المسائل التي تَهمُّ الحَاضرينَ وإن كان يعلمُ حُكمها،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (المسند ١/ ٢١٤).

من أجل أن ينفع الحاضرينَ ويكون معلِّمًا لهم .

٤ ـ وفي هذا دليلٌ على بركةِ العلم، وأن العلمَ ينتفعُ به السائلُ والمجيبُ، كما قال هنا: «يُعَلِّمُكم دِينَكُم».

٥ ـ وفيه أيضًا دليلٌ أن هذا الحديثَ حديثٌ عظيمٌ يشتملُ على الدِّينِ كُلِّه، ولهذا قال: «**يعلِّمكم دينكم**» لأنَّه مشتملٌ على أصولِ العقائدِ وأصولِ الأعمال.

أصولُ العقائد وأصولُ الأعمال هي أركانُ الإسلامِ الخمسةُ. والله الموفِّق.

* * *

٦١ ـ الثَّاني: عن أبي ذرٍّ جُنْدبِ بنِ جُنادة، وأبي عبدالرحمن مُعَاذِ بن جبل، رضيَ الله عنهما، عن رسولِ الله ﷺ قال: «اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ، وأتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَة تَمْحُهَا، وخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[1] رواه الترمذيُّ وقال: حديثٌ حسنٌ.

الشرح

هذا الحديثُ من أحاديثِ الأربعين النوويَّةِ للمؤلِّفِ رحمه الله، وفيه أن النَّبي ﷺ أوصىٰ بثلاث وصايا عظيمة:

(١) أخرجه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس، رقم(١٩٨٧)، والإمام أحمد في المسند (٥/ ١٥٣، ١٥٨، ٢٢٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٤)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وقال الترمذي: حسن صحيح.

الوصيَّةُ الأولى: قال: «**اتَّقِ الله حيثُما كُنت**» وتقوى الله هي اجتناب المحارم وفعلُ الأَوَامر، هذه هي التَّقوى! أن تفعلَ ما أمركَ الله به إخلاصًا لله، واتِّباعًا لرسولِ الله ﷺ، وأن تتركَ ما نهى الله عنه امتثالاً لنهي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وتنزُّهًا عن محارمِ الله، فتقومُ بما أوجبَ الله عليك في أعظمِ أركانِ الإسلامِ بعد الشهادتينِ وهي الصلاة، فتأتي بها كاملةً بشروطها وأركانها وواجباتها وتكملها بالمكملات، فمن أخلَّ بشيءٍ من شُروطِ الصَّلاة أو وَاجباتها أو أركانها فإنَّه لم يتَّقِ الله، بل نَقَصَ من تقواهُ بقدرِ ما تركَ ما أمرَ الله به في صلاته، وفي الزكاة تقوى الله فيها أن تُحصيَ جميعَ أموالِكَ التي فيها الزكاةُ وتُخرجَ زكاتكَ طيِّبةً بها نفسُكَ من غير بُخلٍ ولا تقتيرٍ ولا تأخير، فمن لم يفعلْ فإنه لم يتَّقِ الله.

وفي الصيامِ تأتي بالصَّومِ كما أُمرت، مجتنبًا فيه اللَّغوَ والرَّفثَ والصَّخَبَ والغيبةَ والنميمةَ، وغيرَ ذلك ممّا ينقصُ الصَّومَ ويُزيلُ روحَ الصَّوم ومعناهُ الحقيقيَّ، وهو الصَّومُ عما حرَّمَ الله عزَّ وجلَّ. وهكذا بقيَّةُ الواجباتِ تقومُ بها طاعةً لله، وامتثالاً لأمره، وإخلاصًا له، واتِّباعًا لرسوله، وكذلك في المنهيّات تتركُ ما نَهَى الله عنه، امتثالاً لنهي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حيث نهاك فانتهِ.

الوصيَّةُ الثانية: «**أتبعِ السَّيِّئةَ الحَسَنةَ تَمْحُها**» أي: إذا عملتَ سيِّئةً فأتبعها بحَسَنةٍ، فإنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيِّئات، ومن الحسنات بعد السيِّئات أن تتوبَ إلى الله من السيِّئات، فإنَّ التوبة من أفضل الحَسَنات، كما قال الله عزَّ وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقال الله

تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ النور: ٣١].

وكذلك الأعمالُ الصَّالحةُ تكفِّرُ السيِّئات، كما قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «**الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، والجُمُعَةُ إلى الجُمُعَة، ورَمَضَانُ إلى رمضان، مُكفِّراتٌ ما بينهنَّ إذا اجْتَنَبَ الكبائر**»[(١)]. وقال: «**العُمْرَةُ إلى العُمْرَةِ كفَّارةٌ لِمَا بيْنهما**»[(٢)] فالحسناتُ يُذْهِبْنَ السيِّئات.

الوصيَّةُ الثَّالثة: «خالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَن»!

الوصيَّان الأُوْليتانِ في مُعَاملةِ الخالق، والثَّالثةُ في مُعَامَلةِ الخَلْق، أنْ تُعاملهم بخُلُقٍ حسنٍ تُحْمَدُ عليه ولا تُذَمُّ فيه، وذلك بِطَلاقةِ الوجهِ، وصِدقِ القول، وحُسْنِ المخاطبة، وغير ذلك من الأخلاق الحَسَنة.

وقد جاءتِ النُّصوصُ الكثيرةُ في فضل الخُلقِ الحسن، حتى قال النَّبيُّ عليه الصلاة والسلام: «**أكْمَلُ المُؤْمنينَ إيمانًا أحْسَنُهم خُلُقًا**»[(٣)]، وأخبر أن أوْلَى النَّاسِ به ﷺ وأقربهم منه منزلةً يومَ القيامة أحاسنهم أخلاقًا[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان...، رقم(٢٣٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب العمرة، باب وجوب العمرة وفضلها، رقم(١٧٧٣)، ومسلم، كتاب الحج، باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، رقم(١٣٤٩).

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه، رقم(٢٦١٢)، والإمام أحمد في المسند(٦/ ٤٧) من حديث عائشة، وقال الترمذي: حديث صحيح، وأخرجه أبوداود، كتاب الأدب، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، رقم(٤٦٨٢)، والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح الجامع رقم(١٢٣٠، ١٢٣١، ١٢٣٢).

(٤) رواه الترمذي، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل، رقم(٦٠٣٥).

فالأخلاق الحسنةُ مع كونها مَسْلَكًا حَسَنًا في المجتمع ويكونُ صاحبها محبوبًا إلى الناسِ فيها أجرٌ عظيمٌ ينالهُ الإنسانُ يوم القيامة.

فاحفظْ هذه الوصايا الثلاثَ من النبيِّ ﷺ اتَّقِ الله حيثُما كنت، وأتبع السيِّئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالقِ الناسِ بخُلُقٍ حسن. والله الموفِّقَ.

* * *

٦٢ ـ الثَّالث: عن ابنِ عبّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال: كنتُ خَلْفَ النبيِّ ﷺ يومًا فقال: «يَا غُلاَمُ، إنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احفَظِ الله يَحْفَظْكَ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إذا سألتَ فاسْألِ الله، وإذَا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ بالله، واعْلَمْ: أنَّ الأمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلى أنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وإنِ اجْتَمَعُوا عَلى أنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إلاَّ بِشَيْءٍ قَد كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ؛ رُفِعَتِ الأقْلامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُف»[1]. رواهُ الترمذيُّ وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وفي روايةِ غيرِ الترمذي: «احْفَظِ الله تَجِدْهُ أمَامَكَ، تَعَرَّفْ إلى الله في الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، واعْلَمَ أنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصيبَكَ، وَمَا أصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخطِئَكَ، واعْلَمْ أنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وأنَّ الفَرجَ مَعَ الكَرْبِ، وأنَّ مَعَ العُسرِ يُسْرًا».

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب رقم(٥٩)، رقم(٢٥١٦)، والإمام أحمد في المسند (١/ ٢٩٣) وقال الترمذي: حسن صحيح.

الشرح

قوله: «كنتُ خلفَ النبيِّ ﷺ» أي راكبًا معه.

قوله: «فقال لي يا غُلام... احفظِ الله يحفَظْكَ» قال له: يا غلام، لأنَّ ابنَ عبّاسٍ - رضي الله عنهما - كان صغيرًا فإن النبيَّ ﷺ توفِّي وهو قد ناهزَ الاحتلام، يعني من الخامسةَ عشرةَ إلى السادسةَ عشرةَ أو أقلّ. فكان راكبًا خلف الرسول ﷺ فوجَّهَ إليه النبيُّ ﷺ هذا النِّداء: «يا غُلام، احفظِ الله يحفَظْكَ» كلمةٌ جليلةٌ عظيمة، احفظِ الله، وذلك بحفظِ شرعهِ ودينه، بأنْ تمتثلَ لأوَامِره وتَجتنبَ نَوَاهيَهُ، وكذلك بأن تتعلَّم من دينهِ ومن شريعتهِ - سبحانه وتعالى - ما تقومُ به عباداتَك ومعاملاتَك، وتدعو به إلى الله - عزَّ وجلَّ - لأنَّ كل هذا من حفظِ الله، فالله - سبحانه وتعالى - نفسهُ ليس بحاجةٍ إلى أحدٍ حتى يحفظ، ولكنَّ المرادَ حفظُ دينه وشَريعته، كما قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد: ٧]، وليس المعنى: تنصرونَ ذاتَ الله؛ لأنَّ الله - سبحانه وتعالى - غنيٌّ عن كلِّ أحد، ولهذا قال في آيةٍ أخرى: ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ [محمد: ٤]، ولا يُعجزونه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [فاطر: ٤٤].

إذًا: «احْفَظِ الله يَحْفَظْك» جملةٌ تدلُّ على أن الإنسانَ كلَّما حفظَ دينَ الله حفظَهُ الله تعالى في بدنه، وحفظه في ماله وأهْلِه، وفي دينه، وهذه أهمُّ الأشياء، أن يحفظكَ الله في دينِكَ، وهو أن يُسَلِّمكَ من الزَّيغ والضَّلال، لأنَّ الإنسان كلَّما اهتدى زادَهُ الله هدى، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٧]، وكلَّما ضلَّ - والعياذُ بالله - فإنَّه

يزدادُ ضلالاً، كما جاء في الحديث: «إنَّ العبد إذَا أَخْطَأَ خطِيئَةً نُكِتَتْ في قلبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاء، فإن هو نَزَعَ واستَغْفَرَ وتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ»[١] وإنْ أذنب ثانيةً انضمَّ إليها نكتةٌ ثانيةٌ وثالثةٌ ورابعة، حتى يُطْبَعَ على قلبه. نسألُ الله العافية.

إذًا: يحفظُكَ في دِينكَ وفي بدنِكَ ومَالِكَ وأهلك، وأهمُّها حفظُ الدِّين، نسأل الله تعالى أن يحفظَ علينا وعليكم ديننا.

وقوله: «احْفَظِ الله تَجِدْهُ تُجاهَكَ».

وفي لفظُ آخر: «تَجِدْهُ أمامَكَ». احفظِ الله أيضًا بحفظِ شريعته، بالقيام بأمره واجتناب نهيه تجدْهُ تجاهَكَ وأمامك، ومَعناهما وَاحِد، يعني تجد الله أمامَك يَدُلُّك على كلِّ خير ويَذُودُ عنك كلَّ شرّ، وَلاَ سيَّما إذا حفظتَ الله بالاستعانةِ به، فإنَّ الإنسانَ إذا استعانَ بالله وتوكَّلَ على الله كان الله حَسْبَه، أي كَافِيَه، وَمَن كان الله حسبَهُ فإنه لا يحتاج إلى أحدٍ بعد الله. قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، أي: وحَسْبَ من اتَّبعك من المؤمنين. ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٢]، فإذا كان الله حَسْبَ الإنسان، أي كافِيَهُ، فإنَّه لن ينالَهُ سوء، ولهذا قال: «احفظِ الله تجِدْهُ تُجَاهَك» أو «تجدْهُ أمامك»! والمرادُ بحفظِهِ حفظُ شريعته، ولاسيَّما بالتوكُّلِ عليه والاستعانة به.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة ويل للمطففين، رقم(٣٣٣٤)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، رقم(٤٢٤٤)، والإمام أحمد في المسند (٢/ ٢٩٧). وقال الترمذي: حسن صحيح.

ثم قال له: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله» أي لا تعتمدْ على أحدٍ مخلوق، إذا سألتَ فاسألِ الله.

مثلاً: إنسانٌ فقيرٌ ليس عنده مال، يسأل الله يقول: اللّهم ارزقني، اللَّهُمَّ هَيِّءْ لي رِزْقًا. فيأتيه الرِّزقُ من حيث لا يحتسب.

لكنْ لو سأل الناس فربَّما يُعطونه أو يمنعونه، ولهذا جاء في الحديث: «**لأنْ يَأْخُذَ أحدُكُم حَبْلَهُ فيَحتطِبَ على ظهرِهِ، خيرٌ لَهُ مِن أن يَأتيَ رَجُلاً، أَعطَاهُ أو مَنَعَهُ**»[1].

فكذلك أنت، إذا سألتَ فاسألِ الله، قل: «اللهم ارزُقني» «اللهم أغنني بفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاك» وما أشبهَ ذلك من الكلماتِ التي تتَّجهُ بها إلى الله عزَّ وجل.

وقوله: «إذا اسْتعنْتَ فاسْتَعِنْ بالله» الاستعانةُ طلبُ العَون، فلا تطلب العَون من أيِّ إنسانٍ إلا للضَّرورة القُصْوى، ومع ذلك إذا اضطُرِرْتَ إلى الاستعانةِ بالمخلوقِ فاجعلْ ذلك وَسيلةً وسبَبًا لا ركنًا تعتمدُ عليه! اجعلِ الرُّكن الأصيل هو الله عزَّ وجلَّ، إذا سألتَ فاسألِ الله، وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله.

وفي هاتينِ الجملتينِ دليلٌ على أنَّه من نقْصِ التوحيدِ أن الإنسان يسألُ غيرَ الله، ولهذا تُكْره المسألة لغيرِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في قليل أو كثير. لا تسألْ إلا الله عزَّ وجلَّ، ولا تستعنْ إلا بالله.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، رقم(١٤٧٠).

والله سبحانه إذا أراد عونك يَسَّرَ لَكَ العَون، سواءٌ كَان بأسْبابٍ معلومةٍ أو بأسبابٍ غير معلومة.

قد يُعينُك الله بسببٍ غير معلومٍ لك، فيدفعُ عنك من الشرِّ ما لا طاقة لأحدٍ به، وقد يُعينُكَ الله على يدِ أحدٍ من الخَلْقِ يُسخِّرهُ لكَ ويُذَلِّلهُ لك حتى يُعينك، ولكنْ مع ذلك لا يجوز لك ـ إذا أعانكَ الله على يد أحد ـ أن تنسى المُسَبِّب وهو الله عزَّ وجلَّ، كما يفعله بعض الجهلة الآن من تعلقهم بالسبب وضعف اعتمادهم على الله سبحانه وتعالى لما حصل عون ظاهر من دول كافرة، وما علموا أن الكفرة هم أعداء لهم إلى يوم القيامة سواء أعانوهم أم لا؟.

بل النَّافعُ الضَّارُّ هو الله عزَّ وجلَّ وهذا من تسخيره ـ سبحانه وتعالى ـ لعبادهِ المؤمنين، كما جاء في الحديث: «إن الله لَيُؤَيِّدُ هذا الدِّينَ بالرَّجلِ الفَاجر»[(١)].

فيجبُ علينا أن لا ننسى فضل الله الذي سخَّرهم لنا، ويجبُ علينا أن ننبِّهَ العامَّة، إذا سمعنا أحدًا يَرْكَنُ إليهم ويقولُ هم الَّذين نصرونا مائةً بالمائة، وهمُ الأوَّلُ والآخِر، فيجبُ علينا أن نبيِّنَ لهم أنْ هذا خللٌ في التوحيد. والله أعلم.

وقوله: «واعلَمْ أنَّ الأُمَّةَ لو اجْتَمَعَتْ عَلَى أن يَنْفَعُوكَ بِشيءٍ لَم يَنْفَعُوكَ إلاَّ بشيءٍ قد كتبهُ الله لك».

فبيَّنَ النبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ في هذه الجملةِ أن الأمَّةَ لو

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب القدر، باب العمل بالخواتيم، رقم(٦٦٠٦) ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان تحريم قتل الإنسان نفسه...، رقم(١١١).

اجتمعتْ كلُّها على أن ينفعوكَ بشيءٍ لم ينفعوكَ إلاَّ بشيءٍ قد كتبهُ الله لك!

فإذا وقعَ منهم نفعٌ لَكَ فاعلمْ أنَّه من الله، لأنه هو الذي كتبهُ، فلم يقلِ النبيُّ ﷺ: لو اجتمعتْ على أن ينفعُوكَ بشيءٍ لم ينفعوك. بل قال: «**لم يَنْفَعُوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَد كَتَبَهُ الله لَك**».

فالناسُ بلا شكٍّ ينفعُ بعضُهم بعضًا، ويُعين بعضهم بعضًا، ويُساعد بعضهم بعضًا، لكنَّ كلَّ هذا ممَّا كتبهُ الله للإنسان، فالفضلُ لله فيه أوَّلاً عزَّ وجلَّ، هو الذي سخَّر لَكَ مَنْ ينفعكَ ويُحسنُ إليكَ ويُزيلُ كُربتك، وكذلك بالعكس، لو اجتمعوا على أن يَضُرُّوكَ بشيءٍ لم يضرُّوك إلا بشيءٍ قد كتبهُ الله عليك.

والإيمانُ بهذا يَسْتَلْزِمُ أن يكونَ الإنسانُ مُتَعَلِّقًا بربِّهِ ومتَّكلاً عليه لا يهتمُّ بأحد؛ لأنَّه يعلمُ أنهم لو اجتمعَ كلُّ الخلقِ على أن يضرُّوهُ بشيءٍ لم يضرُّوهُ إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليه.

وحينئذٍ يعلِّقُ رجاءَهُ بالله ويَعْتَصِمُ به، ولا يُهِمُّهُ الخَلْقُ ولو اجتمعوا عليه، ولهذا نجدُ الناسَ في سَلفِ هذه الأُمَّة لمّا اعتمدوا على الله وتوكَّلوا عليه لم يَضُرَّهم كيدُ الكائدين ولا حَسَدُ الحاسدين: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

ثمَّ قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**رُفِعتِ الأقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحف**» يعني أن ما كتبهُ الله فقد انتهى، والصُّحفُ جفَّتْ من المداد، ولم يبقَ مراجعة. فما أصابكَ لم يكنْ ليُخطئك، كما في اللَّفظ الثاني: «**وما أخْطَأَكَ لَم يَكُنْ لِيُصِيبك**».

وفي اللفظِ الثاني قال عليه الصلاة والسلام: «واعلمْ أنَّ النَّصرَ مع الصَّبر، وأن الفَرَجَ مَعَ الكَرْب، وأن مع العُسْرِ يُسْرًا».

يعني: اعلمْ عِلمَ يقينٍ أن النصرَ مع الصبر، فإذا صبرتَ وفعلتَ ما أمركَ الله به من وسائلِ النَّصرِ فإن الله تعالى ينصرك.

والصَّبرُ هنا يشْملُ الصَّبرَ على طَاعَةِ الله، وعن معصيته، وعلى أقْدارِهِ المؤلمة، لأن العدوَّ يُصيبُ الإنسانَ من كلِّ جهة، فقد يشعر الإنسان أنَّه لن يُطيق عدوَّهُ فيستحسر ويدع الجهاد، وقد يَشرع في الجهاد ولكن إذا أصابه الأذى استحسرَ وتوقَّف، وقد يستمرُّ ولكنه يُصيبه الألم من عدوِّه، فهذا أيضًا يجبُ أن يصبرَ عليه.

قال الله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤]، فإذا صبرَ الإنسانُ وصابرَ ورَابَطَ فإن الله سُبحانه وتعالى ينصره.

وقوله: «واعلمْ أنَّ الفرجَ مع الكرب».

كلما اكترَبتِ الأمورُ وضَاقَتْ فإنَّ الفرجَ قريب، لأنَّ الله -عزَّ وجلَّ- يقول في كتابه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]، فكلَّما اشتدَّتِ الأمورُ فانتظرِ الفرجَ من الله سبحانه وتعالى.

وقوله: «وأن معَ العُسْرِ يُسْرا» فكلُّ عُسْرٍ فبعده يُسر، بل إن العُسْرَ

مَحْفوفٌ بيُسرين، يُسْرٌ سابقٌ ويُسْرٌ لاحِق. قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]، وقال ابنَ عبَّاس - رضي الله عنهما -: «لن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْن».

فهذا الحديثُ الذي أوصى به النبيُّ ﷺ عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - ينبغي للإنسان أن يكون على ذِكْرٍ له دائمًا، وأن يعتمدَ على هذه الوصايا النافعةِ التي أوصى بها النبيُّ ﷺ ابنَ عمِّه عبدَالله بنَ عبَّاس - رضي الله عنهما - والله الموفِّق.

* * *

٦٣ - الرَّابعُ: عن أنسٍ - رضيَ الله عنه - قال: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أعْمَالاً هِيَ أَدَقُّ في أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ، كُنَّا نَعُدُّها عَلَى عهدِ رسول الله ﷺ مِنَ المُوبِقَات»[(١)] رواه البخاري وقال: «المُوْبقات» المُهْلكاتُ.

الشرح

أنسُ بنُ مالك - رضيَ الله عنه - من المعمَّرين، فبقي بعد النبيِّ ﷺ حوالي تسعين سنة. فتغيَّرتِ الأمورُ في عهده - رضيَ الله عنه - واختلفتْ أحوال الناس، وصاروا يتهاونَون في بعضِ الأمورِ العظيمةِ في عهدِ الصحابة رضي الله عنهم.

مثلُ صلاةِ الجماعة، فقد كان الصَّحابة - رضي الله عنهم - لا يتخلَّفُ أحدٌ عنها إلا منافقٌ أو مريضٌ معذور، ولكنَّ الناسَ تَهَاوَنُوا بها ولم يكونوا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من محفرات الذنوب، رقم(٦٤٩٢).

على مَا كان عليه الصحابةُ ـ رضي الله عنهم ـ في عهدِ النبيِّ ﷺ. بل إنَّ الناسَ في عهدنا صاروا يتهاونون بالصَّلاة نفسها لا بصلاة الجماعة فقط، فلا يَصلُّون، أو يُصَلُّونَ ويتركون، أو يُوخِّرونَ الصَّلاة عن وقتها، كلُّ هذه أعمالٌ يَسيرةٌ عند بعضِ النَّاس، لكنَّها في عهد النبيِّ ﷺ والصَّحابةِ ـ رضي الله عنهم ـ كانت تُعَدُّ من المُوبِقَات.

وكذلك **أيضًا الغشُّ** في عهد النبيِّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «**مَنْ غَشَّ فَلَيسَ مني**»(١).

لكن انظرْ إلى الناس اليوم تجدْ أن الغشَّ عندهم أهونُ من كثيرٍ من الأشياء، بل إن بعضَهم ـ والعياذُ بالله ـ يَعُدُّ الغشَّ من الشَّطارةِ في البيعِ والشراءِ والعقود، ويرى أن هذا من باب الحِذْقِ والذَّكاءِ والدَّهاء ـ نسألُ الله العافية ـ مع أن النبيَّ ﷺ تبَرَّأ من الإنسان الذي يغشُّ الناس.

ومن ذلك الكذب: والكذب من الأشياء العظيمة في عهد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فيرونَهُ من المُوبقات، لكنَّ كثيرًا من الناس يَعُدُّه أمرًا هيِّنًا، فتجدهُ يكذبُ ولا يُبالي بالكذب، مع أن النبيَّ ﷺ قال: «**لا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِب وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله كَذَّابًا**»(٢).

وربَّما يكذبُ في أمورٍ أخطرَ فيجحدُ ما يجبُ عليه للناس، أو يدَّعي ما

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ «من غشنا فليس منا» رقم(١٠٢).

(٢) تقدم تخريجه ص (٢٩٣).

ليس له ويحاكمهم عند القاضي ويحلفُ على ذلك؛ فيكون ـ والعياذُ بالله ـ ممَّن يَلْقى الله وهو عليه غَضْبان. إلى غير ذلك من المَسَائِلِ الكثيرة التي يعدُّها الصحابةُ من المُهلكات، ولكنَّ الناسَ اختلفوا فصارتْ في أعينهم أدَقَّ من الشَّعر، وذلك لأنَّه كلما قويَ الإيمانُ عَظُمَتِ المَعْصيةُ عند الإنسان، وكلَّما ضَعُفَ الإيمان خفَّت المعصية في قلب الإنسان ورآها أمرًا هيِّنًا، يتهاونُ ويتكاسلُ عن الواجبِ ولا يبالي، لأنَّه ضعيف الإيمان.

* * *

٦٤ ـ الخَامس: عن أبي هريرةَ ـ رضيَ الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله تَعَالَىٰ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ الله تَعَالَىٰ أن يَأْتِيَ المؤمِنُ مَا حَرَّم الله عَلَيه»[1] متفق عليه.

والغَيْرَةُ: بفتحِ الغَيْن، وأصلها: الأنَفَة.

الشرح

قال المؤلِّفُ ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: إن النبيَّ ﷺ قال: **«إنَّ الله تَعَالىٰ يَغَار، وغَيْرَةُ الله تعالىٰ أنْ يَأتي المَرْءُ مَا حَرَّمَ الله»**.

قوله: «مَحَارِمُه» أي: محارم الله.

والغَيْرةُ صفةٌ حقيقيَّةٌ ثابتةٌ لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولكنها ليستْ كغَيْرتنا، بَل

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب الغيرة، رقم(٥٢٢٣)، ومسلم، كتاب التوبة، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، رقم(٢٧٦١).

هي أعظمُ وأجلُّ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ بحكمتهِ أوجبَ على العبادِ أشياءَ، وحرَّمَ عليهم أشياء، وأحَلَّ لهم أشياء.

فما أوْجَبَهُ عليهم فهو خَيْرٌ لهم في دينهم ودنياهم، وفي حاضرهم ومستقبلهم، وما حَرَّمه عليهم فإنَّه شرٌّ لهم في دينهم ودنياهم، وحاضرهم ومستقبلهم، فإذا حرَّمَ الله على عبادهِ أشياءَ فإنَّه ـ عزَّ وجلَّ ـ يَغارُ أن يأتيَ الإنسانُ محارمه، وكيف يأتي الإنسانُ محارمَ ربِّهِ والله ـ سبحانه وتعالى ـ إنَّما حرَّمها من أجلِ مصلحةِ العبد، أمَّا الله ـ سبحانه وتعالى ـ فلا يضرُّه أن يعصيَ الإنسانُ ربَّه، لكنْ يغارُ كيف يعلمُ الإنسانُ أن الله سُبحانه حكيم، ورحيم، ولا يحرِّمُ على عبادهِ شيئًا بُخْلاً منه عليهم به، ولكنْ من أجلِ مَصْلحتهم، ثمَّ يأتي العبدُ فيتقدَّمُ فيعصي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولاسيَّما في الزنا ـ نسألُ الله العافية ـ فإنه ثبتَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**ما أحَدٌ أغْيَرُ من الله أن يَزنيَ عَبْدُه أو تَزْنيَ أمَتُه**»(١) لأنَّ الزِّنا فَاحشة، والزِّنى طريقٌ سافلٌ سيِّء، ومن ثَمَّ حرَّمَ الله على عباده الزِّنا وجميع وسائله، كما قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، فإذا زنى العبد ـ والعِياذُ بالله ـ فإن الله يَغَارُ غَيْرةً أشدَّ وأعظمَ من غَيْرتهِ على ما دُونه من المحارم.

وكذلك أيضًا ـ ومن باب أولى وأشدّ ـ اللواط، وهو إتيانُ الذكر، فإنَّ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب الغيرة، رقم(٥٢٢١)، ومسلم، كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف، رقم(٩٠١).

هذا أعظمُ وأعظم؛ ولهذا جعله الله تعالى أشدَّ في الفُحشِ من الزِّنا. فقال لوط لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

قال هنا: ﴿الفاحشة﴾ وفي الزِّنا قال: ﴿فاحشة﴾ أي: فاحشةً من الفواحش، أما اللِّواطُ فجعلَهُ الفاحشةَ العظمى نسألُ الله العافية.

وكذلك أيضًا السَّرقةُ وشُربُ الخمرِ وكلُّ المحارم يَغارُ الله منها، لكنَّ بعضَ المحارمِ تكونُ أشدَّ غيرةً من بعض، حَسَب الجُرْم، وحسبَ المضارِّ التي تترتَّبُ على ذلك.

وفي هذا الحديث: إثباتُ الغَيْرةِ لله تعالى، وسبيلُ أهلِ السُّنةِ والجماعةِ فيه وفي غيرهِ من آيات الصفاتِ وأحاديثِ الصِّفاتِ أنهم يُثبتونها لله ـ سبحانه وتعالى ـ على الوجهِ اللاَّئقِ به، يقولون: إن الله يَغارُ لكنْ ليستْ كغَيْرةِ المخلوق، وإن الله يفرحُ ولكن ليس كفرحِ المخلوق، وإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ له من الصِّفاتِ الكاملةِ ما يليقُ به، ولا تُشبهُ صفاتِ المخلوقين ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. والله الموفق.

* * *

٦٥ ـ السَّادسُ: عن أبي هريرة ـ رضيَ الله عنه ـ أنَّه سَمِعَ النبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ ثلاثةً مِنْ بَنِي إسْرَائيلَ: أَبْرَصَ، وأقْرَعَ، وأعْمَىٰ، أَرَادَ الله أنْ يَبْتَلِيهُمْ، فَبَعَثَ إلَيْهِمْ مَلَكًا، فأتَى الأبْرَصَ فَقَالَ: أيُّ شَيءٍ أحَبُّ إلَيْكَ؟ قالَ: لَونٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، ويَذْهَبُ عنِّي الَّذي قَدْ قَذِرَني النَّاسُ؛ فَمَسَحهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، وأُعْطِيَ لَوْنًا حسنًا. قال: فأيُّ المالِ أحَبُّ إلَيْكَ؟ قالَ:

الإبلُ - أوْ قَالَ البَقَرُ - شكَّ الرَّاوي - فأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، فَقَالَ: بَارَكَ الله لَكَ فِيهَا.

فأَتَى الأَقْرَعَ فَقَالَ: أيُّ شَيءٍ أحَبُّ إلَيْكَ؟ قَالَ: شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي هذَا الذي قَذِرني النَّاسُ، فَمسحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ، وأُعْطِيَ شَعْرًا حسنًا. قال: فأيُّ المَالِ أَحَبُّ إلَيكَ؟ قالَ: البَقَرُ، فأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً، وقَالَ: بَارَكَ الله لَكَ فِيها.

فأَتَى الأعْمَى فقَالَ: أيُّ شَيءٍ أحَبُّ إلَيْكَ؟ قَالَ: أنْ يَرُدَّ الله إلَيَّ بَصَري فأُبْصِرَ النَّاس. فَمَسَحَهُ، فَرَدَّ الله إلَيهِ بَصَرَهُ. قال: فأيُّ المَالِ أحَبُّ إلَيكَ؟ قَالَ: الغَنَمُ، فأُعطِيَ شاةً والدًا. فأُنْتِجَ هذانِ، ووَلَّدَ هذا، فَكَانَ لِهَذَا وادٍ مِنَ الإبِلِ، ولهذَا وَادٍ مِنَ البَقَرِ، ولِهَذَا وادٍ مَنَ الغَنَمِ.

ثُمَّ إنَّهُ أتَى الأبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وهَيئتِهِ، فقال: رَجُلٌ مِسْكِينٌ قَدِ انْقَطَعتْ بيَ الحِبَالُ في سَفَري، فلا بلاغَ لِيَ اليَوْمَ إلاَّ باللهِ ثُمَّ بكَ، أسْألُكَ بالَّذي أعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ، والجِلْدَ الحَسَنَ، والمَالَ، بَعِيرًا أتَبَلَّغُ بِهِ في سَفَرِي. فقالَ: الحُقُوقُ كَثِيرَةٌ. فقالَ: كأنِّي أعْرِفُكَ، ألَمْ تَكُنْ أبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فقيرًا فأعْطَاكَ اللهُ؟! فَقَالَ: إنَّما وَرِثْتُ هَذَا المَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، فقالَ: إنْ كُنْتَ كاذبًا في دَعْوَاكَ فَصَيَّرَكَ الله إلَى ما كُنْتَ.

وأَتَى الأقْرعَ فِي صُورَتِهِ وهيئَتِهِ، فقالَ لهُ مِثْلَ ما قال لِهَذا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مثلَ ما ردَّ هذا، فقالَ: إنْ كُنْتَ كاذِبًا فَصَيَّرَكَ الله إلى ما كنتَ.

وأتَىٰ الأعْمَى فِي صُورتِهِ وهَيئَتِهِ فقال: رَجُلٌ مِسْكينٌ وابنُ سَبيل، انْقَطَعَتْ بيَ الحِبالُ في سَفري، فلا بَلاغَ ليَ اليومَ إلا باللهِ ثمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بالَّذي رَدَّ عَليكَ بَصَرَكَ، شَاةً أَتَبَلَّغُ بها في سَفَري. فقال: قد كُنْتُ أعْمَىٰ فَرَدَّ

الله إلَيَّ بَصَري، فَخُذْ ما شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ، فوالله لا أجْهَدُكَ اليَومَ بِشيءٍ أخذْتَهُ لله عزَّ وجلَّ. فقال: أمْسِكْ مالَكَ فإنَّما ابْتُليتُمْ، فَقَدْ رُضِيَ عنك، وسُخِطَ عَلَىٰ صَاحِبَيْكَ»[1] متفقٌ عليه.

والنَّاقةُ العشَرَاءُ» بضمِّ العين وفتحِ الشين وبالمدِّ: هِيَ الحامِلُ. قولُهُ: «أُنْتِجَ» وفي رواية «فَنَتَجَ» معْنَاهُ: تولَّى نِتاجَهَا، والناتِجُ للناقةِ كالقابلةِ للمرأةِ. وقوله: «ولَّدَ هذا» هو بتشديدِ الَّلام: أي: تولَّى ولادتها، وهو بمعنى أُنْتِجَ في الناقة. فالمُوَلِّدُ، والناتجُ، والقابلةُ بمعنًى، لكنْ هذا للحيوانِ وذاكَ لغيره. قوله: «انْقَطَعَتْ بيَ الحِبالُ» هو بالحاءِ المُهملةِ والباءِ الموحَّدة: أي الأسبابُ. وقوله: «لا أجْهَدُكَ» معنَاهُ: لا أشقُّ عليْكَ في رَدِّ شَيءٍ تأخُذُهُ أو تطلُبُهُ من مالي. وفي روايةِ البخاري «لا أحْمَدُكَ» بالحاءِ المُهملةِ والميمِ، ومعناهُ: لا أحْمَدُكَ بِتَرْكِ شيءٍ تحتاجُ إليه، كما قالوا: ليس على طُولِ الحياةِ نَدَمٌ، أيْ على فواتِ طُولها.

الشرح

قوله: «ثلاثةٌ من بني إسرائيل» إسرائيلُ هو إسحاقُ بنُ إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أخو إسماعيل، ومن ذرِّية إسرائيلَ موسى وهارون وعيسى وجميع بني إسرائيل، كلُّهم من ذرِّية إسحاق عليه الصلاة والسلام.

وإسماعيلُ أخو إسحاق، فهم والعرب أبناء عمّ، وقد جاءتْ أخبارٌ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل، رقم(٣٤٦٤)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، رقم(٢٩٦٤).

كثيرةٌ عن بني إسرائيل، وهي ثلاثةُ أقسام:

الأوّل: ما جاء في القرآن. **والثاني**: ما جاء في صحيح السُّنة. **والثَّالث**: ما جاء عن أحبارهم وعن علمائهم.

فأمّا الأوّلُ والثاني فلا شكَّ في أنّه حقٌّ، ولا شكَّ في قبوله، مثلُ قولهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

ومن السنَّةِ مثل هذا الحديث الذي رواه أبوهريرة عن النبيِّ ﷺ.

وأمّا ما رُوِيَ عنهم عن أحبارهم وعلمائهم فإنه ينقسمُ إلى ثلاثة أقسام:

الأوّل: ما شَهِدَ الشَّرعُ ببطلانه، فهذا باطلٌ يجبُ ردُّه، وهذا يقعُ كثيرًا فيما يُنقلُ من الإسرائيليّات في تفسير القرآن، فإنه يُنقلُ في تفسيرِ القرآن كثيرٌ من الأخبار الإسرائيليّةِ التي يشهدُ الشرعُ ببطلانها.

والثاني: **ما شَهِدَ الشَّرعُ بصدقه**، فهذا يُقبل، لا لأنّه من أخبارِ بني إسرائيل، ولكن لأنَّ الشَّرعَ شَهِدَ بصدقهِ وأنه حقّ.

والثالث: **ما لم يكنْ في الشَّرعِ تصْديقهُ ولا تكذيبه**، فهذا يُتوقَّفُ فيه، لا يُصدَّقون ولا يُكذَّبون؛ لأننا إنْ صدَّقناهم فقد يكون باطلاً، فنكون قد صدقناهم بباطل، وإن كذَّبناهم فقد يكون حَقًّا، فقد كذَّبناهم بحقٍّ؛ ولهذا نتوقَّفُ فيه، ولكن مع ذلك لا حرجَ من التحديثِ به فيما ينفعُ في ترغيبٍ أو ترهيب.

ذكر النبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ في هذا الحديث أنَّ ثلاثةً من بني

إسرائيل ابتلاهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بعاهات في أبدانهم، أحدهم أبرص، والثاني أقرعُ ليس على رأسهِ شعر، والثالثُ أعمى لا يُبصر. فأراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يَبْتَلِيَهُم ويَخْتَبِرَهُم، لأن الله سبحانه يتبلي العبد بما شاء، ليبْلُوه هل يصبر أو يَضجر إذا كان ابتلاه بضرّاء، وهل يشكرُ أو يقترُ إذا كان قد ابتلاه بسرّاء.

فبعثَ الله إليهم ملكًا من الملائكة وأتاهم يسألهم: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليهم؟ فبدأ بالأبْرَص فقال: «أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك؟ قال: لونٌ حَسن وجِلدٌ حَسَن ويذهبُ عني الذي قَذِرني الناسُ به» لأن أهمَّ شيءٍ عند الإنسان أن يكون مُعافَى من العاهات، ولاسيَّما العَاهات المكروهة عند الناس. فمسحَهُ المَلَك فبرأ بإذنِ الله، وزَالَ عَنْه البَرص، وأُعطيَ لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا.

ثمَّ قال له: «أيُّ المَالِ أحبُّ إليك؟ قال: الإبل ـ أو قال ـ البقر!».

والظَّاهرُ أنه قال: الإبل؛ لأنَّه في قِصَّة الأقرع أُعطيَ البقر، فأعطاهُ ناقةٌ عُشَراء، وقال له: باركَ الله لك فيها. فذهبَ عنه الفقر، وذَهَبَ عَنْه العَيبُ البَدَنيّ، ودَعَا له المَلَكُ بأن يُبارِكَ الله له في هذه النَّاقة.

ثم أتى الأقرعَ وقال: «أيُّ شيءٍ أحبُّ إلَيْك؟ قال: شَعْرٌ حَسَن، ويَذهبُ عني الذي قَذِرني الناس».

فمسحه، فأُعطِيَ شعْرًا حَسَنًا. وقيل له: «أيُّ المال أحبُّ إليك؟ قال: البقَر، فأُعطيَ بقَرَةً حَامِلاً، وقال له: باركَ الله لكَ فيها

أمّا الأعمى فجاءَهُ المَلَكُ فقال له: «أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك؟ قال: أن يَرُدَّ

الله عليَّ بصري فأبْصِرَ به الناس»، وتأمَّلْ قولَ الأعمى هذا؛ فإنه لم يسألْ إلا بَصرًا يُبْصِرُ به الناسَ فقط، أمَّا الأبرصُ والأقرع فإن كل واحدٍ منهما تمنَّى شيئًا أكبرَ من الحاجة؛ لأن الأبرصَ قال: جلدًا حسنًا ولونًا حسنًا، وذاك قال: شعرًا حسنًا، فليس مجرَّدَ جلدٍ أو شعرٍ أو لون، بل تمنَّيا شيئًا أكبر، أمَّا هذا فإن عنده زهدًا؛ لذا لم يسألْ إلا بصرًا يُبْصرُ به الناسَ فقط.

ثم سأله: «أيُّ المالِ أحبُّ إليك؟ قال: الغنم» وهذا أيضًا من زهده، فلم يتمنَّ الإبلَ ولا البقر، بل الغنم، ونِسْبَةُ الغنمِ للبقرِ والإبلِ قَلِيلة، فأعطاهُ شاةً والدًا وقال: باركَ الله لك فيها.

فباركَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ للأوَّل في إبله، وللثاني في بقره، وللثَّالث في غنمه، وصارَ لكلٍّ واحدٍ منهما وادٍ مما أُعطي، للأوَّلِ وادٍ من الإبل، وللثاني وادٍ من البقر، وللثالث وادٍ من الغنم.

ثم إنَّ هذا الملَكَ أتى الأبرصَ في صورتهِ وهيئته، صورتهِ البدنيَّةِ، وهيئتهِ الرثَّة، ولباسه لباس الفقير، وقال له: «رجلٌ مسكينٌ قد انقطعتْ بيَ الحبالُ في سَفَري فلا بَلاغَ لي اليومَ إلاَّ بالله ثمَّ بك».

فتوسَّلَ إليه بذكر حاله أنَّه فقير، وأنَّه ابنُ سبيلٍ أي مسافر، وأن الحبالَ أي الأسباب التي توصلهُ إلى أهله قد انقطعتْ به، وأنَّه لا بلاغَ له إلا بالله ثمَّ به.

وقال له: «أسألُكَ بالذي أعطاكَ اللَّوْنَ الحَسَنَ والجِلْدَ الحَسَن والمالَ، بعيرًا أتبلَّغُ به في سَفَري» لكنه قال: «**الحقوقُ كثيرة**». وبَخِلَ بذلك، مع أنَّ له وادِيًا من الإبل، لكنه قال: الحقوقُ كثيرة، وهو فيما يظهر ـ والله أعلم ـ

أنه لا يؤدِّي شيئًا منها، لأنَّ هذا من أحقِّ ما يكون؛ لأنَّه مسافرٌ وفقيرٌ وانقطعتْ به الحبال، ومن أحقِّ ما يكونُ استحقاقًا للمال، ومع ذلك اعتذرَ له! فذكَّرهُ بما كان عليه من قبل فقال له: «كأنِّي أعْرِفُك، ألم تكنْ أبْرَصَ يَقْذَرُكَ الناسُ، فقيرًا فأعطاكَ الله» أي أعطاكَ المالَ وأعطاكَ اللون الحسنَ والجلدَ الحسن، ولكنَّه قال والعياذُ بالله: «إنَّما وَرِثْتُ هَذَا المَالَ كَابرًا عن كابرٍ» وأنكرَ نعمةَ الله.

فقال له المَلَكُ: «إن كُنتَ كَاذِباً فصيَّرَكَ الله إلى ما كُنت» أي: إنْ كنتَ كاذبًا فيما تقول فصيَّرك الله إلى ما كنت من الفقر والبرص. والذي يظهرُ أن الله استجاب دعاء الملك وإنْ كان دعاءً مشروطًا، لكنَّه كان كاذبًا بلا شكٍّ، فإذا تحقَّقَ الشَّرط تحقَّقَ المَشْرُوط.

وأتىٰ الأقرعَ فقال له مثلما قال للأبرص، وردَّ عليه مثلما ردَّ عليه الأبرص، فقال: «إن كنتَ كاذباً فصيَّركَ الله إلى ما كنت».

وأتى الأعمى وذكَّرهُ بنعمةِ الله عليه: «فقال: قد كنتُ أعْمى فَرَدَّ الله إليَّ بَصَري» فأقرَّ بنعمةِ الله عليه «فَخُذْ ما شئتْ ودَعْ ما شئت، فوالله ما أجْهَدُكَ اليوم بشيءٍ أخذْته لله عزَّ وجلَّ».

أي: لا أمنعُكَ ولا أشقُّ عليك بالمنعِ بشيءٍ أخذته لله عزَّ وجلَّ. فانظرْ إلى الشكر والاعتراف بالنعمة.

فقال له المَلَك: «أمْسِك مالك، فإنما ابتُليتم، فقد رضيَ الله عنك وسَخِطَ على صَاحبيك». وهذا يدلُّ على أن القصَّةَ كانتْ مشهورة بين الناس، ولهذا قال: «سَخِطَ على صَاحبيك»، فأمسكَ مالَهُ وبقي قد أنعَم الله

عليه بالبصر، وأمَّا الآخرانِ فإن الظاهرَ أن الله ردَّهما إلى ما كانا عليه من الفقرِ والعاهةِ والعياذُ بالله.

وفي هذا دليلٌ على أنَّ شكر نعمةِ الله على العبد من أسباب بقاءِ النعم وزيادتها، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

وفي قِصَّتهم آياتٌ من آيات الله عزَّ وجل:

منها: اثباتُ الملائكة، والملائكةُ عالَمٌ غيبيٌّ خلقهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من نُور، وجعلَ لهم قُوَّةً في تنفيذ أمر الله، وجعل لهم إرادةً في طاعة الله، فهم لا يعصونَ الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمَرُون.

ومنها: أن الملائكة قد يَكونونَ على صورة بني آدم، فإنَّ الملك أتى لهؤلاء الثلاثة بصورة إنسان.

ومنها أيضًا: أنهم ـ أي الملائكة ـ يتكيَّفون بصورة الشَّخص المعيَّن، كما جاءَ إلى الأبرصِ والأقرعِ والأعمى في المرَّةِ الثَّانية بصورتهِ وهيئته.

ومنها أيضًا: أنه يجوزُ الاختبار للإنسان في أنْ يأتي الشخص على هيئةٍ معيَّنةٍ ليختبرَهُ؛ فإن هذا الملك جاء على صورة الإنسان المحتاج المصاب بالعاهة ليرقَّ له هؤلاء الثلاثة، مع أن الملَكَ فيما يبدو ـ والعلم عند الله ـ لا يُصابُ في الأصلِ بالعاهات، ولكنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعلهم يأتونَ على هذه الصورة من أجل الاختبار.

ومنها: أن الملك مسح الأقرع والأبرص والأعمى مسحةً واحدةً فأزالَ الله عيبهم بهذه المسحة، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا أراد شيئًا قال

له كنْ فيكون، ولو شاء الله لأذهبَ عنهم العاهةَ بدون هذا الملك، ولكنَّ الله جعلَ هذا سببًا للابتلاءِ والامتحان.

ومنها: أن الله قد يباركُ للإنسانِ بالمالِ حتى ينتجَ منه الشيءُ الكثير، فإن هؤلاء النفرَ الثَّلاثةَ صار لواحدٍ وادٍ من الإبل، وللثاني وادٍ من البقر، وللثالث وادٍ من الغنم، وهذا من بركةِ الله عزَّ وجلَّ.

وقد دعا الملَكُ لكلٍّ واحدٍ منهم بالبركة.

ومنها: تفاوتُ بني آدم في شكرِ نعمةِ الله ونفعِ عبادِ الله، فإن الأبرصَ والأقرعَ وقد أعطاهمُ الله المال الأهمَّ والأكبر، ولكنْ جحدا نعمة الله، قالا: إنَّما ورثنا هذا المال كابرًا عن كابر، وهم كَذَبةٌ في ذلك، فإنهم كانوا فقراء وأعطاهم الله المال، لكنهم ـ والعياذ بالله ـ جحدوا نعمة الله وقالوا: هذا من آبائنا وأجدادنا.

أمّا الأعمى فإنه شكر نعمة الله واعترف لله بالفضل، ولذلك وُفِّقَ وهداه الله وقال للملك: «خُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ ما شِئْتَ».

ومنها أيضًا: إثباتُ الرضا والسُّخط لله سبحانه وتعالى، أي أنه يرضى على من شاء ويسخط على من شاء، وهما من الصفاتِ التي يجبُ أن نُثبتها لربِّنا سبحانه وتعالى؛ لأنَّه وصفَ نفسَهُ بها.

ففي القرآن الكريم: الرضا: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وفي القرآن الكريم: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [المائدة: ٨٠]، وفي القرآن العظيم الغضب: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء: ٩٣]، وهذه الصِّفات وأمثالها يُؤمن بها أهل السُّنة

والجماعة بأنها ثابتةٌ لله على وجه الحقيقة، لكنها لا تشبه صفات المخلوقين، كما أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يُشْبِهُ المخلوقين، فكذلك صفاتهُ لا تُشْبِه صفاتِ المخلوقين.

ومن فوائدِ هذا الحديث: أنَّ في بني إسْرائيل من العجب والآيات ما جعل النبيَّ ﷺ ينقلُ لنا من أخبارهم حتى نتَّعظ. ومثل هذا الحديث قصَّةُ النفر الثلاثة الذين لجأوا إلى غارٍ فانطبقتْ عليهم صخرةٌ من الجبل فسَدَّتْ عليهم الغَار وعَجَزوا عن زحزحتها، وتوسَّلَ كلٌّ واحدٍ منهم إلى الله تعالى بصالح عمله.

فالنبيُّ ـ عليه الصَّلاةُ والسلام ـ يَقُصُّ علينا من أنباءِ بني إسرائيلَ ما يكونُ فيه الموعظةُ والعِبرة، فعلينا أن نأخذ من هذا الحديث عبرةً بأن الإنسانَ إذا شكرَ نعمة الله، واعترفَ لله بالفضلِ، وأدَّى ما يجب عليه في ماله، فإن ذلك من أسباب البقاء والبركة في ماله. والله الموفِّق.

* * *

٦٦ ـ السَّابعُ: عن أبي يَعْلَى شدَّادِ بن أَوْسٍ ـ رضيَ الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ قال: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، والعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وتَمَنَّى عَلَى الله»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب رقم(٥٩)، رقم(٢٤٥٩)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، رقم(٤٢٦٠)، والإمام أحمد (٤/ ١٢٤) وقال الترمذي: حديث حسن، وصححه الحاكم في المستدرك(١/ ٥٧)، وقال: حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، قال الذهبي: لا والله! أبو بكر واهٍ. =

رواه الترمذيُّ وقال: حديثٌ حسنٌ.

قال الترمذيُّ وغيرُهُ من العلماء: معنى : «دَانَ نَفْسَه» أي: حَاسَبَهَا.

الشرح

قوله: «الكَيِّس» معناه الإنسان الحازم الذي يغتنمُ الفُرَصَ ويتَّخذ لنفسه الحَيْطَةَ حتى لا تفوتَ عليه الأيّامُ واللَّيالي فيضيع.

وقوله: «مَنْ دَانَ نفَسُه» أي: مَنْ حاسبها ونظر ماذا فعل من المأمورات وماذا ترك من المنهيّات: هل قام بما أُمِرَ به، وهل ترك ما نُهي عنه، فإذا رأى من نفسه تفريطًا في الواجب استدركه إذا أَمكن استداركه، وقام به أو بدله، وإذا رأى من نفسه انتهاكًا لمحرَّمٍ أقلعَ عنه وندم وتاب واستغفر.

وقوله: «عَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْت» يعني عمل للآخرة؛ لأن كلَّ ما بعد الموتِ فإنه من الآخرة، وهذا هو الحقُّ والحزم، أنَّ الإنسانَ يعمل لما بعد الموت؛ لأنَّه في هذه الدنيا مارٌّ بها مرورًا، والمآلُ هو ما بعد الموت، فإذا فرَّطَ ومضتْ عليه الأيَّامُ وأضاعها في غيرِ ما ينفعهُ في الآخرة فَليس بِكَيِّس، الكَيِّس هو الذي يعمل لما بعد الموت، والعاجز من أَتْبَعَ نفسه هواها وصار لا يهتمُّ إلا بأمور الدنيا، فَيَتْبِعُ نفسَهُ هواها في التفريطِ في الأوامر، ويتبعُ نفسَهُ هواها في فعلِ النَّواهي، ثمَّ يَتمنَّى على الله الأمانيَّ فيقول: الله غفورٌ رحيم، وسوف أتوبُ إلى الله في المستقبل، وسوف أُصْلِحُ من حالي إذا كَبرت، وما أشبهه من الأمانيِّ الكاذبةِ التي يُمليها الشَّيطانُ عليه، فربما

= وضعفه الألباني كما في ضعيف الجامع رقم(٤٣٠٥).

يدركها وربما لا يدركها .

ففي هذا الحديث: الحثُّ على انتهازِ الفُرَص، وعلى أن لا يضيِّعَ الإنسانُ من وقتهِ فرصةً إلا فيما يرضي الله - عزَّ وجلَّ - وأن يَدَعَ الكسل والتهاون والتمنِّي، فإن التمنِّي لا يفيدُ شيئًا، كما قال الحسن البصريُّ رحمه الله : «ليس الإيمانُ بالتمني ولا بالتحلِّي، ولكنَّ الإيمانَ ما وقَرَ في القلبِ وصدَّقتْهُ الأعمال» .

فعلينا أيها الإخوةُ أن ننتهزَ الفرصةَ في كلِّ ما يُقَرِّبُ إلى الله من فعلِ الأوامرِ واجتنابِ النَّواهي، حتى إذا قَدِمنا على الله كنا على أكمل ما يكونُ من حال .

نسأل الله أن يُعيننا وإياكم على ذكرهِ وشكرهِ وحُسنِ عبادته .

* * *

٦٧ - الثَّامن: عن أبي هريرة - رضيَ الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إسْلاَمِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ»[1] حديثٌ حسنٌ رواهُ الترمذيُّ وغيره.

الشرح

إسلام المرء هو استسلامهُ لله - عزَّ وجلَّ - ظاهرًا وباطنًا. فأمّا باطنًا فاستسلامُ العبدِ لربِّه بإصلاح عقيدتهِ وإصلاحِ قلبه، وذلك بأن يكونَ مؤمنًا بكلِّ ما يجبُ الإيمانُ به على ما سبقَ في حديثِ جبريل .

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب رقم(١١)، رقم(٢٣١٨)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم(٣٩٧٦) وحسنه النووي كما في الفتن.

وأمّا الاستسلامُ ظاهرًا فهو إصْلاحُ عَمَلِهِ الظَّاهر، كأقوالِهِ بلسانه وأفعاله بجوارحه. والناس يختلفون في الإسلام اختلافًا ظاهرًا كثيرًا، كما أن الناسَ يختلفونَ في أشكالهم وصورهم، منهم الطويلُ ومنهم القصير، ومنهم الضخمُ ومنهم مَنْ دون ذلك، ومنهم القبيحُ ومنهم الجميل، فيختلفونَ اختلافًا ظاهرًا.

فكذلك أيضًا يختلفونَ في إسلامهم لله - عزَّ وجلَّ - حتى قال الله في كتابه: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].

وإذا كان الناس يختلفون في الإسلام، فإن ممّا يزيدُ في حُسن إسلامِ المرء أن يَدَعَ ما لا يَعْنيه ولا يُهمُّه لا في دينهِ ولا في دنياه. فالإنسانُ المسلم إذا أراد أن يجعل إسلامه حَسنًا فليَدَعْ ما لا يعْنِيه، فالشيءُ الذي لا يُهمُّه يتركه.

فمثلاً: إذا كان هناك عملٌ وتَردَّدْتَ هل تفعلُ أو لا تفعل؟ انظرْ هل هو من الأمورِ الهامَّةِ في دِينكَ ودنياكَ فافعله، وإلا فاتركه، والسَّلامةُ أسلم.

كذلك أيضًا لا تتدخَّلْ في شؤونِ النَّاسِ إذا كان هذا لا يهمُّك، وهذا خلافُ ما يفعلهُ بعض الناس اليوم، من حرصه على اطِّلاعه على أعراض الناس وأحوالهم، ويجد اثنين يتكلَّمان فيحاول أن يتقرَّب منهما حتى يسمع ما يقولان، ويجد شخصًا جاء من جهةٍ من الجهات فتراه يبحث، وربَّما يبادر الشخص نفسه ويقول له: من أين جئت؟ وماذا قال لك فلان؟ وماذا قلتَ له؟ وما أشبه ذلك في أمورٍ لا تَعْنيه ولا تُهمُّه.

فالأمورُ التي لا تعنيك اتركْها، فإنَّ هذا من حُسْن إسلامك، وهو أيضًا

فيه راحةٌ للإنسان، فكونُ الإنسانِ لا يهمُّهُ إلاَّ نفسهُ هذا هو الرَّاحة، أما الذي يتتبَّعُ أحوالَ النَّاس ماذا قيل؟ وماذا حدث لهم؟ . . . فإنه سوف يتعب تعبًا عظيمًا، ويُفوِّتُ على نفسه خيرًا كثيرًا، مع أنه لا يستفيد شيئًا، فاجعلْ دأبك دأب نفسك، وهمَّكَ همَّ نفسك، وانظرْ إلى ما ينفعك فافعلْهُ، والذي لا ينفعك اتركه، وليس من حُسْنِ إسلامك أن تبحث عن أشياء لا تُهمُّك.

ولو أننا مشينا على هذا وصار الإنسانُ دأبهُ دأبَ نفسهِ ولا ينظرُ إلا إلى فعله، لحصَّلَ خيرًا كثيرًا.

أمَّا بعض الناس تجده مشغولاً بشؤونِ غيره فيما لا فائدة له فيه، فيضيِّعُ أوقاته ويشغل قلبه ويشتِّتْ فكره، وتضيعُ عليه مصالحُ كثيرة.

وتجدُ الرَّجل الدؤوبَ الذي ليس له همٌّ إلاَّ نفسهُ وما يعنيه، تجده ينتج ويثمر ويُحصِّل، ويكون في راحةٍ فكريَّةٍ وقلبيَّةٍ وبدنيَّةٍ، ولذا يعدُّ هذا الحديث من جوامع كَلِمِ النبيِّ ﷺ فإذا أردت شيئًا فعلاً أو تركًا انظرْ هل يهمُّك أو لا؟! إن كان لا يُهمُّك اتركْهُ ولا تتعرَّضْ له واسترحْ منه، وأرِحْ قلبك وفكرك وعقلك وبدنك؛ وإن كان يُهمُّكَ فاشتغلْ به بحسبه، فعلى كلِّ حالٍ كلُّ إنسانٍ عاقلٍ كما جاءَ في الحديث السابق: «**الكَيِّس من دَانَ نَفْسَهُ وعَمِلَ لما بَعد المَوت**».

فكلُّ إنسانٍ عاقلٍ يَحْرِصُ على أن يعملَ لما بعد الموت، ويُحاسبَ نفسه على أعمالها. والله الموفِّق.

* * *

التَّاسع: عن عمرَ - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «لا يُسْأَلُ الرَّجُلُ فيمَ ضَرَبَ امْرأتَهُ» رواه أبوداود وغيره[1].

---

(١) رواه الإمام أحمد (١/ ٢٠) وأبوداود، كتاب النكاح، باب في ضرب النساء، رقم(٢١٤٧) وابن ماجه، كتاب النكاح، باب ضرب النساء، رقم(١٩٨٦) وضعفه الألباني في الإرواء، رقم(٢٠٣٤).

الشرح

تساهلَ المؤلِّفُ ـ رحمه الله ـ في هذا الحديث حيث قال: «رواه أبوداود وغيره»؛ لأنَّ الغير يشمل جميع من خرَّجَ الأحاديث، وإنْ كان مثل هذه الصيغة لا يذكر الأعلى، فمثلاً إذا قيل: «رواه أبوداود وغيره» فيعني ذلك أنه لم يروه البخاريُّ ولا مسلمٌ ولا مَنْ هو أعلى من أبي داود، وإنما رواه أبوداود وغيرهُ ممَّن هو دونه.

ومعنى الحديث: أن الرجل المتَّقي لله ـ عزَّ وجلَّ ـ الذي انتهى به الأمرُ إلى آخر المراتب الثلاث التي أشار الله إليها في قوله ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤]، فالضربُ آخرُ المراتب، فقد يضرب الرجل زوجته على أمرٍ يُستحيا من ذكره، فإذا عُلِمَ تقوى الرجل لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وضرب امرأتهُ فإنَّه لا يسأل، هذا إن صحَّ الحديث، ولكنَّ الحديث ضعيف. أما من كان سيِّءَ العشْرةِ فهذا يُسأل فيمَ ضرب امرأته؛ لأنه ليس عنده من تقوى الله تعالى ما يردعُه عن ظلمها وضربها، حيث لا تستحقُّ أن تُضرب. والله الموفِّق[1].

---

(١) هذا الحديث لم يعلق عليه فضيلة الشيخ - رحمه الله تعالى- في الجامع أثناء قراءة كتاب «رياض الصالحين» لهذا عرض الشيخ فهد بن ناصر السليمان - جزاه الله خيرًا - على فضيلته - رحمه الله تعالى - أن يشرح هذا الحديث لخفاء معناه على كثير من الناس فأملى عليه - رحمه الله تعالى- ما هو مدون أعلاه، وذلك من فضل الله تعالى.

٦ـ بَابُ التقوى

التَّقوى اسمٌ مأخوذ من الوقاية؛ وهو أن يتخذ الإنسان ما يَقِيه من عذاب الله. والذي يقيك من عذاب الله هو فعلُ أوامر الله، واجتناب نواهيه؛ فإن هذا هو الذي يقي من عذاب الله عزَّ وجلَّ، أن تأخذ أوامر الله وأن تترك ما نهى عنه.

واعلم أن التقوىٰ أحيانًا تقترن بالبرِّ، فيقال بر وتقوى كما في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

وتارةً تُذكر وحدها، فإذا قُرِنت بالبرِّ صارَ البرُّ فعلَ الأوامر، والتقوى تركَ النواهي. وإذا أُفْردت صارت شاملة؛ تعم فعل الأوامر واجتناب النَّواهي، وقَد ذكر الله ـ تعالى ـ في كتابه أنَّ الجنة أُعِدَّت للمتقين، فأهلُ التقوى هم أهل الجنة ـ جعلنا الله منهم ـ ولذلك يجب على الإنسان أن يتَّقي الله عزَّ وجلَّ؛ امتثالاً لأمره وطَلبًا لثوابه والنَّجاة من عقابه. ثمَّ ذكر المؤلف آيات متعددة فقال رحمه الله:

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وهذه الآية مبينة للمراد من الأولى. وقال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، والآياتُ في الأمْر بالتقوى كَثيرةٌ مَعْلومةٌ، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]، والآياتُ في الباب كثيرةٌ معلُومةٌ.

الشرح

قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ فوجَّه الأمر إلى المؤمنين؛ لأنَّ المؤمن يحمله إيمانه على تقوى الله.

وقوله: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ وحقّ التقوىٰ مفسرًا بما عقبه المؤلف من قوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ بعد هذه الآية أي: أنَّ معنى قوله: ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ أن تتقيَ الله ما استطعت؛ لأنَّ الله لا يكلِّفُ نفسًا إلا وُسعها.

وهذه الآية ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ ليست آيةً يقصد بها التهاون بتقوىٰ الله؛ وإنما يُقْصَد بها الحَثُّ على التقوى بقدر المُستطاع؛ أي: لا تدَّخر وسعًا في تقوى الله، ولكنَّ اللهَ لا يكلف الإنسان شيئًا لا يستطيعه، كما قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ويُستفاد من قوله: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا لم يستطع أن يقوم بأمر الله على وجه الكمال؛ فإنَّه يأتي منه بما قدر عليه، ومن ذلك قول النبي ﷺ لعمران بن حصين: «**صلِّ قَائِمًا فإنْ لَمْ تَستطع فَقَاعِدًا، فإنْ لَم تَسْتَطِع فَعلى جَنْب**»(١)، فرتَّب النبيُّ ﷺ الصَّلاة بحسب الاستطاعة، وبأنْ يُصَلِّي قائمًا، فإن لم يستطع فقاعدًا، فإن لم يستطع فعلى جنب، وهكذا أيضًا بقيَّةُ الأوامر، ومثله الصَّوم، إذا لم يستطع الإنسان أنْ يصوم في رمضان؛ فإنَّه يؤخِّرُهُ ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب تقصير الصلاة، باب إذا لم يطق قاعدًا صلَّى على جنب، رقم(١١١٧).

﴿أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وفي الحج أيضًا: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، فإذا لم تستطع الوصول إلى البيت فلا حجَّ عليك، لكن إن كنت قادرًا بمالك دُون بدنك؛ وَجَبَ عليك أن تقيم من يحج ويعتمر عنك، فالحاصل أنَّ التَّقوى كغيرها مَنُوطةٌ بالاستطاعة، فمن لم يستطع شيئًا من أوامر الله فإنَّه يَعْدل على ما يَسْتطيع، ومن اضطرَّ إلى شيء من محارم الله؛ حَلَّ له ما ينتفع به في دفع الضَّرورة، لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]، حتى إنَّ الرَّجل لو اضطر إلى أكل لحم المَيتة، أو أكل لحم الخنزير، أو أكل لحم الحِمار، أو غير ذلك من المحرَّمات؛ فإنَّه يجوز له أنْ يأكل منه ما تَنْدَفع به ضرورته، فهذه هي تقوى الله؛ أن تفعل أوامره ما استطعت وتجتنب نواهيه ما استطعت.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾

فأمر الله تعالى بأمرين؛ بتقوى الله، وأن يقولَ الإنسان قولاً سديدًا؛ أي صوابًا. وقد سبق الكلام على التَّقوىٰ، وأنها فعل أوامر الله واجتنابُ نواهيه.

أمَّا القولُ السَّديد؛ فهو القول الصَّواب وهو يشملُ كلَّ قول فيه خيرٌ سواءٌ كان من ذكر الله، أو من طلب العلم، أو من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو من الكلام الحَسَن الذي يستجلب به الإنسان مودة النَّاس

ومحبتهم، أو غير ذلك، ويجمعهُ قولُ النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِالله واليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُل خَيْرًا أو لِيَصْمت»[١]، وضدُّ ذلك القولُ غيرُ السَّديد؛ وهو القولُ الذي ليس بِصَواب، بل خطأٌ إما في مَوْضوعه وإما في محله:

أما في موضوعه: بأن يكون كلامًا فاحشًا يشتمل على السَّب، والشَّتم، والغيبة، والنَّميمة، وما أشبه ذلك. أو في محلِّه: أي أن يكون هذا القول في نفسه هو خَير، لكن كونه يقال في هذا المكان ليس بخير؛ لأنَّ لكل مقام مقالاً، فإذا قلت كلامًا هو في نفسه ليس بشرٍّ، لكنهُ يسبب شرًّا إذا قلتَهُ في هذا المحلِّ فلا تَقُلْهُ؛ لأنَّ هذا ليس بقولٍ سديد، ففي هذا الموضوع لا يكون قولاً سديدًا، بل خطأً، وإن كان ليس حرامًا بذاته.

فمثلاً؛ لو فُرِض أنَّ شخصًا رأى إنسانًا على مُنكر، ونهاه عن المنكر، لكن نهاه في حال لا ينبغي أن يقول له فيها شيئًا، أو أغلظَ له في القول، أو ما أشْبَهه، لعُدَّ هذا قولاً غير سَديد.

فإذا اتقى الإنسانُ ربَّه، وقال قولاً سَديدًا؛ حَصَل على فائدتين: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ فبالتقوى صلاح الأعمال ومغفرة الذُّنوب، وبالقولِ السَّديد صلاحُ الأعمال ومغفرة الذُّنوب. وعُلم من هذه الآية أنَّ من لم يتَّق الله ويقل قولاً سديدًا؛ فإنَّه حَرِيٌّ بأن لا يُصلح الله لَهُ أعماله، ولا يغفر له ذنبه، ففيه الحثُّ على تقوى الله وبيان فوائدها.

وقال تعالى ـ وهي الآية الرابعة ـ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢﴾

---

(١) تقدم تخريجه ص (٢٧٧).

﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ يتق الله بِفِعْلِ ما أمر الله به، ويترك ما نَهَىٰ عنه. يَجعل لهُ مَخْرجًا من كلِّ ضيق، فكلَّما ضاق عليه الشَّيء وهو مُتَّقٍ لله - عزَّ وجلَّ - جَعَلَ لَهُ مخرجًا، سواء كَانَ في معيشة، أو في أموال، أو في أولاد، أو في مجتمع، أو غير ذلك. متى كنت مُتَّقيًا الله فَثِق أنَّ الله سيجعل لك مخرجًا من كل ضيق، واعتمد ذلك؛ لأنَّه قول من يقول للشَّيء كن فيكون ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾.

وما أكثرَ الذين اتقوا اللهَ فجعل لهم مخرجًا، ومن ذلك قصة الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار، فنزلت صخرة على باب الغار فَسَدته، فأرادوا أن يُزيحوها فعجزوا، فتوسَّل كل واحد منهم بصالح عمله إلى الله عزَّ وجلَّ، ففرَّج الله عزَّ وجل عنهم وزالَت الصخرة[١] وجعل الله لهم مخرجًا.

والأمثلة على هذا كثيرةٌ! وقوله: ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ هذا أيضًا فائدة عظيمة؛ أنَّ الله يَرْزُقك من حيث لا تحتسب، فمثلاً لو فرضنا أنَّ رجلاً يكتسب المال من طريق محرَّم؛ كطريق الغش أو الرِّبا وما أشبه ذلك، ونُصِحَ في هذا وتركه لله؛ فإنَّ الله سيجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب، ولكن لا تتعجَّل، ولا تَظُنَّ أنَّ الأمر إذا تأخر فلن يكون، ولكن قد يَبتلي الله العبدَ فيؤخِّر عنه الثَّواب؛ ليختبره هل يرجع إلى الذنب أم لا، فمثلاً إذا كنت تتعامل بالرِّبا، وَوَعَظك من يَعِظُكَ من الناس، وتركت ذلك، ولكنك بقيت شهرًا أو شهرين ما وجدت ربحًا؛ فلا تيأس،

---

(١) تقدم تخريجه ص (٧٩).

ولا تقل أين الرِّزق من حيث لا احتسب، بل انتظر، وثق بوعد الله وصدِّق به، وستجده، ولا تتعجل؛ ولهذا جاء في الحديث: «**يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُم - أي إذا دَعَا - مَا لَم يَعْجَل**، قالوا: كيف يعجل يا رسول الله؟ قال: **يَقُوْلُ دعوتُ فلم يُسْتَجَب لي**»[1]، فاصبر، واترك ما حرَّم الله عليك، وانتظر الفرج والرِّزق من حيث لا تحتسب.

الآية الخامسة قولُه تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

هذه ثلاثُ فوائد عظيمة:

الفائدةُ الأولى: ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي يَجعلْ لكم ما تُفَرِّقُون به بين الحق والباطل، وبين الضَّار والنَّافع، وهذا يدخُلُ فيه العلم؛ بحيثُ يفتح الله على الإنسان من العلوم ما لا يَفْتَحُها لغيره، فإنَّ التقوى يَحْصُل بها زيادة الهُدَىٰ، وزيادة العلم، وزيادة الحفظ، ولهذا يُذكر عن الشافعي رحمه الله أنه قال:

شَكَــوتُ إلـــى وَكِيـــعٍ سُـــوءَ حِفْظِـــي
فَــأَرْشَــدَنِــي إلـــى تَـــرْكِ المَعَـــاصِـــي
وَقَــــالَ اعْلَـــم بِـــأَنَّ العِلْـــمَ نُـــورٌ
وَنُـــورُ الله لاَ يُـــؤْتَـــاهُ عَـــاصِـــي

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل، رقم(٦٣٤٠)، مسلم، كتاب الذكر، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل، رقم(٢٧٣٥).

ولا شك أنَّ الإنسان كلما ازداد علمًا؛ ازْدادَ مَعْرِفة، وازداد فُرقانًا بين الحق والباطل، وبين الضَّار والنَّافع، وكذلك يدخلُ فيه ما يفتح الله على الإنسان من الفَهْم؛ لأنَّ التقوى سببٌ لقوة الفهم، وقوة الفهم يَحصُل بها زيادةُ العلم، فإنَّك ترى الرَّجلين يحفظان آية من كتاب الله، يستطيع أحدُهُما أن يستخرج منها ثلاثة أحكام مثلاً، ويستطيع الأخرُ أن يستخرج أربعة، أو خمسة، أو عشرة، أو أكثر من هذا بحسب ما آتاه الله من الفهم.

فالتقوى سببٌ لزيادة الفَهم، ويدخل في ذلك أيضًا الفراسة؛ أنَّ الله يعطى المُتَّقي فراسة يميِّز بها حتى بين الناسَ، فبمجرد ما يرى الإنسان يَعْرف أنَّه كاذب أو صادق، أو أنه برٌّ أو فاجر، حتى إنَّه ربما يحكم على الشخص وهو لم يُعَاشره ولم يعرف عنه شيئًا؛ بسبب ما أعطاه الله من الفراسة.

ويدخل في ذلك أيضًا: مَا يحصل للمُتَّقين من الكَرَامات التي لا تحصل لغيرهم، ومن ذلك: ما حصل لكثير من الصَّحابة والتابعين رضي الله عنهم، فكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ذاتَ يوم يخطب على المنبر في المدينة، فَسَمِعُوه يقول في أثناء الخطبة: «يا ساريةَ الجبل، يا ساريةَ الجبل»[(١)]، فتعجَّبوا من يخاطب وكيف يقول هذا الكلام في أثناء الخطبة، فإذا الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد كشف له عن سرية في العراق كان

---

(١) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في منهاج السنة وعزاه لابن وهب، وحسَّنه الحافظ ابن حجر -رحمه الله- في كتابه الإصابة (٣/٢) في ترجمة سارية.

قائدها سَارية بن زنَيم، وكان العدوّ قد حصرهم، فكشف الله لعمر عن هذه السَّرية، كأنما يشاهدها رُأى عين، فقال لقائدها: «يا سارية الجبل» أي: تحصَّن بالجبلِ، فسمِعَهُ سَارية وهو القائد، وهو في العراق، ثم اعتصم بالجبل.

هذه من التقوى؛ لأنَّ كرامات الأولياء كلها جزاءٌ لهم على تقواهم لله عزَّ وجلَّ. فالمهمُّ أنَّ من آثار التَّقوى أن الله ـ تعالى ـ يجعل للمتقين فُرقانًا يفرق به بين الحق والباطل، وبين البر والفاجر، وبين أشياء كثيرة لا تحصل إلاَّ للمتقي.

الفائدة الثَّانية: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ وتكفيرُ السَّيِّئات يكون بالأعمال الصالحة، فإنَّ الأعمال الصالحة تكفر الأعمال السَّيئة كما قال النبي ﷺ: «**الصَّلَواتُ الخَمْسُ والجُمُعةُ إلى الجُمُعة ورَمَضان إلى رَمَضَان كفَّارةٌ لِمَا بيْنهما ما اجْتُنبت الكبائر**»[(١)].

وقال النبي ﷺ: «**العمرةُ إلى العُمرة كفَّارةٌ لِما بيْنَهما**»[(٢)]، فالكفارة تكونَ بالأعمال الصَّالحة، وهذا يعني أنَّ الإنسان إذا اتقى الله سهَّل له الأعمال الصالحة التي يُكَفِّر الله بها عنه.

الفائدة الثالثة: قولُه: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ﴾ بأن يُيَسِّركم للاستغفار والتوبة؛ فإنَّ هذا من نعمة الله على العبد أن يُيَسِّره للاستغفار والتَّوبة.

---

(١) تقدم تخريجه ص (٤٨٦).

(٢) تقدم تخريجه ص (٤٨٦).

ومِن البلاء للعبد، أن يظنَّ أنَّ ما كان عليه من الذُّنوب ليس بذنب، فيصرُّ عليه والعياذ بالله، كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، فكثيرٌ من الناس لا يُقلعُ عن الذَّنب؛ لأنَّه زُين له ـ والعياذ بالله ـ فألِفَهُ وصَعُبَ عليه أن ينتشل نفسه منه، لكن إذا كان مُتَّقِيًّا لله ـ عزَّ وجلَّ ـ سهل الله له الإقلاع عن الذُّنوب حتى يغفر له، وربما يغفر الله له بسبب تقواه، فتكون تقواه مُكَفِّرة لسيئاته، كما حصل لأهل بدر رضي الله عنهم، «**فإنَّ الله اطَّلع عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»(١)، فتقعُ الذُّنوب منهم مغفورة لما حَصَل لَهم فيها؛ أي في الغزوة من الأجر العظيم.

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩]، أي: صاحب الفضل العظيم الذي لا يَعْدِلُه شيءٌ ولا يوازيه شيء، فإذا كان الله موصوفًا بهذه الصفة؛ فاطلب الفضل منه سبحانه وتعالى، وذلك بتقواه والرجوع إليه. والله أعلم.

* * *

٦٩ ـ وأما الأحاديثُ فالأوَّلُ: عَنْ أبي هُريرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قِيْلَ: يَا رسُولَ الله، مَنْ أكْرمُ النَّاسِ؟ قَالَ: «أتْقَاهُم» فَقَالُوْا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «فَيُوسُفُ نَبيُّ اللهِ ابن نَبيِّ اللهِ ابنِ نَبِي الله ابن خَلِيلِ الله» قَالُوا: ليسَ عَنْ هَذا نَسْأَلُكَ، قَالَ «فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَب تَسْأَلُونِي؟ خِيَارُهُمْ في الجَاهِلِيَّةِ

---

(١) تقدم تخريجه ص (١٣١).

خِيَارُهُمْ في الإسْلامِ إذَا فَقُهُوا»[1]. متفق عليه.

و«فَقُهُوا» بِضَمِّ القاف على المشهور، وحكي كسرُها، أي: عَلِمُوا أحكام الشرع.

الشرح

قولُهُ: مَنْ أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم» يعني أنَّ أكرم الناس أتقاهم لله عزَّ وجلَّ وهذا الجواب مُطَابِقٌ تمامًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ لا ينظرُ إلى الناس من حيثُ النسب، ولا من حيث الحسب، ولا من حيثُ المالُ، ولا من حيث الجمالُ، وإنَّما ينظر سبحانه إلى الأعمال، فأكرم الناس عنده أتقاهم له؛ ولهذا يَمُدُّ أهل التَّقوى بما يَمُدُّهم به من الكرامات الظاهرة أو الباطنة؛ لأنهم هُمْ أكرم خلقه عنده، ففي هذا حَثٌّ على تقوى الله عزَّ وجلَّ؛ وأنَّه كلما كان الإنسان أتقى لله فهو أكرم عنده، ولكنَّ الصَّحابة لا يُريدون بهذا السُّؤالِ الأكرمَ عند الله!

«قالوا: لسْنَا عَنْ هذا نَسْأَلُك» ثمَّ ذكر لهم أنَّ أكرمَ الخلقِ يوسفُ ابنُ نبيِّ الله ابن نبيِّ الله ابنِ خليل الله، فهو يوسف بنُ يعقوب بن اسحاق بنِ إبراهيم، فإنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان نبيًّا من سلالةِ الأنبياء، فكان من أكرمِ الخلق.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ۝١٢٥﴾، رقم(٣٣٥٣)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل يوسف ﷺ، رقم(٢٣٧٨).

«قالوا: لَسْنَا عن هذا نسألك، قال: فعن معادن العرب تَسْأَلُوني؟»
معادنُ العرب يعني أصولَهم وأنسابَهُم! «خيارهم في الجاهلية خِيارُهُم في الإسلام إذا فَقُهُوا» يعني أنَّ أكرم الناس من حيث النَّسب والمعادن والأُصول، هُمُ الخيارُ في الجاهلية، لكن بشرطِ إذا فقهوا.

فمثلاً بنو هاشم من المعروفِ هم خيار قُريش، فيكونون هم خيارهم في الإسلام، لكنْ بِشَرْط أن يفقُهُوا في دين الله، وأن يتعلَّموا من دين الله، فإنْ لم يكونوا فُقهاءَ فإنهم ـ وإن كانوا من خيار العرب معدنًا ـ فإنَّهم ليسوا أكرم الخلق عند الله، وليسوا خيار الخلق.

ففي هذا دليلٌ على أنَّ الإنسان يُشَرَّفُ بنسبه، لكن بشرط أنْ يكون لديه فِقهٌ في دينه، ولا شك أنَّ النَّسب له أثر؛ ولهذا كان بنو هاشم أطيبَ الناس وأشرفَهُمْ نَسَبًا، ومِن ثَمَّ كان منهم رسول الله ﷺ الذي هو أشرف الخلق ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فلولا أنَّ هذا البطن من بني آدم أشرفُ البطون؛ ما كان فيه النبي ﷺ فلا يُبعث الرسول ﷺ إلا في أشرف البطون وأعلى الأنساب، والشاهدُ من هذا الحديث قول الرسول ﷺ إنَّ أَكْرَمَ الخَلْقِ أَتْقَاهُمْ لِلَّه.

فإذا كنت تريد أن تكُون كَرِيمًا عند الله وذا منزلة عنده؛ فعليك بالتَّقوى، فكلما كان الإنسان لله أتقى كان عنده أكْرَم. أسأل الله أن يجعلني وإيَّاكم من المُتَّقين.

* * *

٧٠ ـ الثاني : عَنْ أَبِيْ سَعِيْدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إنَّ الدُّنْيَا حُلْوةٌ خَضِرَةٌ، وإنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفكُمْ فِيهَا فينظر كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فاتَّقُوا الدُّنْيَا واتَّقُوا النِّساء، فإنَّ أوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إسْرائِيلَ كَانَتْ فِي النِّساء»[1] **رواه مسلم.**

الشرح

هذا الحديثُ سَاقَهُ المؤلف ـ رحمه الله ـ لما فيه من أمر النبي ﷺ بالتقوى، بعد أنْ ذكر حال الدُّنيا فقال: **«إنَّ الدُّنيا حُلْوة خَضِرَة»** حُلوةٌ في المَذَاق خَضِرة في المرأى، والشَّيءُ إذا كان خضرًا حلوًا فإنَّ العَيْنَ تطلبه أولاً، ثم تطلبه النفس ثانيًا، والشَّيءُ إذا اجتمع فيه طلبُ العينِ وطلبُ النَّفس؛ فإنَّه يُوشِكُ للإنسان أن يقع فيه.

فالدُّنيا حلوة في مذاقها، خَضِرَةٌ في مَرْآها، فيغترُّ الإنسان بها وينهمكُ فيها ويجعلُها أكبرَ همه، ولكن النبي ﷺ بيَّن أنَّ الله ـ تعالى ـ مستخلفنا فيها فينظر كيف نعمل، فقال: **«إن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظرُ كيف تعملون»** هل تقومون بطاعته، وتنهون النفس عن الهَوى، وتقومون بما أوجب الله عليكم، ولا تغترون بالدنيا، أو أنَّ الأمر بالعكس؟

ولهذا قال: **«فاتقوا الدُّنيا»** أي: قُوموا بما أمركم به، واتركوا ما نهاكم عنه، ولا تغرَّنكم حلاوة الدُّنيا ونضرتها. كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب أكثر أهل الجنة الفقراء...، رقم(٢٧٤٢).

ثمَّ قال: «**فَاتَّقُوا الدُّنْيا واتَّقُوا النِّسَاء**» اتقوا النساء؛ أي: احذروهن، وهذا يشمل الحذر من المرأة في كيدها مع زوجها، ويشمل أيضًا الحذر من النساء وفتنتهن؛ ولهذا قال: «**فإنَّ أوَّل فِتْنَةَ بَنِيْ إِسْرَائيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاء**».

فافْتَتَنُوا في النِّساء، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا ـ والعياذ بالله ـ ولذلك نجدُ أعداءَنا وأعداءَ ديننا ـ أعداءَ شريعة الله عزَّ وجلَّ ـ يُرَكِّزون اليوم على مسألة النِّساء، وتبرجهن، واختلاطهن بالرِّجال، ومُشاركتهن للرِّجال في الأعمال؛ حتى يصبح النَّاس كأنهم الحمير؛ لا يهمهم إلا بطونهم وفروجهم والعياذ بالله، وتصبح النِّساء وكأنهن دُمَى؛ أي صُور، لا يهتم الناس إلا بشكل المرأة، كيف يُزَيِّنُونها، وكيف يُجَمِّلُونها، وكيف يأتون لها بالمُجَمِّلات والمُحَسِّنَات، وما يتعلق بالشعر، وما يتعلق بالجلد، ونتف الشَّعر، والسَّاق، والذراع، والوجه، وكل شيء، حتى يجعلوا أكبر همِّ النِّساء أن تكون المرأة كالصورة من البلاستيك. لا يَهُمُّها عبادة ولا يَهُمُّها أولاد.

ثم إنَّ أعداءنا ـ أعداء دين الله، وأعداء شريعته، وأعداء الحياء ـ يُريدون أن يُقْحِمُوا المرأة في وظائف الرِّجال؛ حتى يُضَيِّقوا على الرِّجال الخِناق، ويجعلوا الشَّباب يَتَسَكَّعُون في الأسواق، لَيْسَ لهم شُغل، ويحصل من فراغهم هذا شرٌّ كبير وفتنةٌ عظيمة؛ لأنَّ الشباب والفراغ والغنى من أعظم المفاسد كما قيل:

إنَّ الشَّبَــــــاب والفَـــــــرَاغَ والجِـــــــده
مَفْسَـــــــدَةٌ للمَـــــــرْء أيُّ مَفْسَـــــــده

فهم يقحمون النِّساء الآن بالوظائف الرِّجالية ويَدَعُون الشَّباب، ليفسد الشِّباب وليفسد النِّساء. أتدرون ماذا يحدث؟

يحدث بتوظيفهنَّ مع الرجال مَفْسدةُ الاختلاط، ومفسدة الزِّنا والفاحشة، سواء في زِنى العين، أو زنى اللِّسان، أو زنى اليد، أو زنى الفرج، كلُّ ذلك محتمل إذا كانت المرأة مع الرجل في الوظيفة.

وما أكثرَ الفسادَ في البلاد التي يتوظَّفُ الرِّجال فِيها مع النِّساء. ثمَّ إنَّ المرأة إذا وُظِّفَت؛ فإنَّها سَوْفَ تَنْعَزِل عن بَيْتها، وعن زوجها، وتصبح الأسرة مُتفكِّكَةً، ثمَّ إنَّها إذا وُظِّفت سوف يحتاج البيت إلى خادم، وحينئذٍ نَسْتجلب نساء العالم من كل مكان، وعلى كلِّ دين، وعلى كل خُلق، ولو كان الدِّين على غيرِ دين الإسلام، ولو كان الخُلُق خُلُقًا فاسدًا، نستجلب النِّساءِ لِيَكُنَّ خَدَمًا في البيوت، ونجعل نساءنا تعمل في محل رجالنا، فنعطِّلُ رجالَنا ونُشغِلُ نساءنا، وهذا أيضًا فيه مفسدة عظيمة وهي تفكك الأسرة؛ لأنَّ الطِّفل إذا نشأ وليس أمامه إلا الخادم؛ نَسِيَ أُمَّه ونسِيَ أباهُ، وفقد الطفلَ تَعَلقهُ بهما. ففسدت البيوت، وتشتت الأسر، وحصل في ذلك من المفاسد مالا يعلمه إلا الله.

ولا شكَّ أن أعداءنا وأذناب أعدائنا ـ لأنَّه يُوجدُ فينا أذناب لهؤلاء الأعداء، درسوا عندهم وتلطَّخوا بأفكارهم السيئة، ولا أقول إنهم غسلوا أدمغتهم، بل أقول إنهم لَوَّثُوا أدمغتهم بهذه الأفكار الخبيثة المعارضةِ لدين الإسلام ـ قد يقولون: إنَّ هذا لا يعارض العَقِيدة، بل نقول إنَّه يهدم العقيدة، ليس مُعَارضة العقيدة بأن يقول الإنسان بأنَّ الله له شريك، أو أنَّ

الله ليس موجودًا وما أشْبهه فحسب، بل هذه المعاصي تهدِمُ العقيدة هدمًا؛ لأنَّ الإنسان يبقى ويكون كأنه ثَوْر أو حمار، لا يهتمُّ بالعقيدةِ ولا بالعبادة؛ لأنَّه متعلِّقٌ بالدنيا وزخارفها وبالنساء، وقد جاء في الحديث الصحيح: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَال من النِّساء»[(١)].

ولهذا يجب علينا نحن ـ ونحن ـ والحمد لله ـ أُمَّة مُسْلِمة ـ أنْ نُعارض هذه الأفكار، وأن نقِفَ ضِدَّها في كل مكان وفي كل مُناسبة، علمًا بأنه يوجد عندنا قومٌ ـ لا كَثَّرهم الله ولا أنالَهُم مَقْصُودهم ـ يريدون هذا الأمر، ويريدون الفتنة والشرّ لهذا البلد المسلم المُسَالم المُحَافظ؛ لأنهم يعلمون أنَّ آخر مَعْقل للمسلمين هو هذه البلاد؛ التي تشمل مُقدسات المسلمين، وقِبلة المسلمين؛ ليفسدوها حتى تفسد الأمة الإسلامية كلها، فكل الأمة الإسلامية ينظرون إلى هذه البلاد ماذا تفعل، فإذا انهدم الحياء والدِّين في هذه البلاد فَسَلامٌ عليهم، وَسَلامٌ على الدِّين والحياء.

لهذا أقول: يا إخواني، يجبُ علينا شَبابًا، وكُهولاً، وشيوخًا، وعلماء، ومتعلمين، أن نعارض هذه الأفكار، وأن نقيم الناس كلهم ضدها، حتى لا تسري فينا سَرَيان النَّار في الهشيم فتحرقنا، نسال الله تعالى أن يجعل كيدَ هؤلاء الذين يُدَبِّرُون مثل هذه الأمور في نُحورهم، وأن لا يُبلِّغهم مَنَالهم، وأن يَكْبِتَهم بِرجالٍ صَالحين حتى تخمد فتنتهم، إنه جواد كريم.

---

(١) تقدم تخريجه ص (٩٥).

٧١ ـ الثَّالثُ: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ يَقُوْلُ: «اللَّهُمَّ إنِّي أسْألُكَ الهُدَى والتُّقَىٰ والعَفَافَ والغِنَى»(١) **رواه مسلم.**

الشرح

من الأحاديث التي أوردها المصنف ـ رحمه الله ـ في باب التقوى هذا الحديث: أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام كان يدعو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بهذا الدَّعاء: «**اللَّهُمَّ إنِّي أسْألُكَ الهُدَى والتُّقَىٰ والعفَافَ والغِنَىٰ**».

«**الهدى**» هنا بمعنى العلم، والنبي ﷺ مُحتاج إلى العلم كغيره من الناس؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى قال له: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وقال الله له: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، فهو عليه الصلاة والسَّلام مُحْتَاجٌ إلى العلم، فيسألُ اللهَ الهُدى.

والهُدى إذا ذُكر وحده يشمل العلم والتَّوفيق للحق، أمَّا إذا قُرِن معه ما يدلُّ على التَّوفيق للحق فإنَّه يُفَسَّر بمعنى العِلم؛ لأنَّ الأصل في اللغة العربية أنَّ العطف يقتضي المغايرة، فيكونُ الهدى له معنًى، وما بعدهُ مما يدلُّ على التَّوفيق له معنىً آخر.

وأمَّا قوله: «**والتُّقى**» فالمراد بالتقى هنا: تقوى الله عزَّ وجلَّ، فسأل

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شرِّ ما لم يعمل، رقم(٢٧٢١).

النَّبيُّ ﷺ ربَّهُ التُّقى أي: أن يُوفِّقه إلى تقوى الله؛ لأنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هو الذي بيده مَقَاليد كل شيء، فإذا وُكِل العَبْدُ إلى نفسه ضَاعَ ولم يحصل على شيء، فإذا وفَّقَهُ الله عزَّ وجلَّ، ورزقه التُّقى؛ صار مستقيمًا على تقوى الله عزَّ وجلَّ.

وأما قوله: «العَفَاف» فالمرادُ به أن يَمُنَّ الله عليه بالعفاف والعفة عن كل ما حرَّم الله عليه، فيكون عطفه على التقوى من باب عطف الخاص على العام؛ إن خصَّصنا العَفَاف بالعَفَاف عن شيء مُعَيَّن، وإلا فهو من باب عطف المُتَرادِفَين.

فالعفافُ: أن يعف عن كل ما حرَّم الله عليه فيما يتعلق بجميع المحارم التي حرَّمها الله عزَّ وجلَّ.

وأما «الغِنى» فالمرادُ به الغِنى عمَّا سِوى الله؛ أي: الغنى عن الخَلْق، بحيثُ لا يفتقر الإنسان إلى أحدٍ سوى ربِّهِ عزَّ وجلَّ.

والإنسانُ إذا وفَّقه الله ومنَّ عليه بالاستغناء عن الخَلْقِ؛ صار عزيزَ النَّفس غيرَ ذَليل؛ لأنَّ الحاجة إلى الخَلْقِ ذُلٌّ ومَهَانة، والحاجة إلى الله تعالى عِزٌّ وعبادة، فهو عليه الصَّلاة والسلام يسأل الله عزَّ وجلَّ الغنى.

فينبغي لنا أن نقتديَ بالرسول عليه الصلاة والسلام في هذا الدعاء، وأن نسأل الله الهُدَى والتُّقى والعَفَافَ والغِنى.

وفي هذا الحديث دليلٌ على أنَّ النبي ﷺ لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضَرًّا، وأن الذي يملك ذلك هو الله.

وفيه دليل أيضًا على إبطال من تعلَّقُوا بالأولياء والصَّالحين في جَلْب

المنافع ودفع المَضار، كما يفعل بعض الجُهَّال الذين يدعون الرسول عليه الصلاة والسلام إذا كانوا عند قبره، أوْ يدعون من يزعمونهم أولياء من دون الله، فإنَّ هؤلاء ضَالُّون في دينهم، سُفَهاءُ في عقولهم؛ لأنَّ هؤلاء المدعوين هم بأنفسهم لا يملكون لأنفسهم شيئًا، قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقال له: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال له: ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ [الجن: ٢١، ٢٢].

فالإنسان يجبُ أنْ يعلَمَ أنَّ البشر مهما أوتوا من الوَجَاهة عند الله عزَّ وجل، ومن المنزلة والمرتبة عندالله؛ فإنهم ليسوا بمستحقين أن يُدْعَوْا من دون الله، بل إنَّهم ـ أعني من لهم جاهٌ عند الله من الأنبياء والصالحين ـ يتبرَّؤون تبرُّؤاً تامًّا ممن يدعونهم من دون الله عزَّ وجلَّ. قال عيسى عليه الصلاة والسلام لما قال له الله: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾ [المائدة: ١١٦]، ليس من حق عيسى ولا غيره أن يقول للناس اتخذوني إلهًا من دون الله: ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

فالحاصلُ أنَّ ما نسمع عن بعض جُهَّال المسلمين في بعض الأقطار الإسلامية، الذين يأتون إلى قبور من يزعمونهم أولياء، فيدعون هؤلاء الأولياء؛ فإنَّ هذا العملَ سَفَهٌ في العَقْل، وضَلَالٌ في الدِّين. وهؤلاء لن

ينفعوا أحدًا أبدًا، فهم جُثَثٌ هامدة، هم بأنفسهم لا يستطيعون الحراك فكيف يتحركون لغيرهم، والله الموفق.

* * *

٧٢ ـ الرَّابعُ: عَنْ أَبِيْ طَرِيْفٍ عَدِيِّ بنِ حَاتمٍ الطَّائِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقُوْلُ: «مَنْ حَلَفَ عَلَي يَمِين ثُمَّ رَأى أَتْقَى لله مِنْهَا فَلْيَأتِ التَّقْوَىٰ»[1] رواه مسلم.

الشرح

اليمين هي الحَلِفُ بالله عزَّ وجلَّ، أو باسم من أسمائه، أو صفة من صفاته، ولا يجوز الحَلِفُ بغيرِ الله؛ لا بالنبي ﷺ، ولا بجبريلَ عليه الصلاة والسلام، ولا بأيِّ أحد من الخلق؛ لقول النبي ﷺ: **«مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِف بالله أوْ لِيَصْمُت»**[2]. وقال: **«مَنْ حَلَف بِغَيرِ الله فَقَد كَفَر أوْ أشْرَكَ»**[3].

فمن حَلَفَ بغير الله فهو آثمٌ، ولا يمينَ عليه؛ لأنَّها يمينٌ غيرُ منعقِدة؛

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الأيمان، باب ندب من حَلَفَ يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها..، رقم(١٦٥١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم، رقم(٦٦٤٦) ومسلم، كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله، رقم(١٦٤٦).

(٣) أخرجه أبوداود، كتاب الأيمان والنذور، باب كراهية الحلف بالآباء، رقم(٣٢٥١)، والترمذي، كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء أنَّ من حلف بغير الله فقد أشرك، رقم(١٥٣٥)، والإمام أحمد في المسند (٢/٨٦، ٨٧)، الحاكم في المستدرك (١/١٨) وصحَّحه على شرطهما وأقره الذهبي.

لقول النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيهِ أمْرُنا فَهُو رَدٌّ»[١].

ولا ينبغي للإنسان أن يُكْثر من اليمين، فإنَّ هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، على رأي بعض المُفَسِّرين، قالوا: واحفظوا أيمانكم: أي لا تُكثروا الحَلِفَ بالله، وإذا حَلَفت فينبغي أن تُقيِّد اليمين بالمشيئة؛ فتقولَ: والله إن شاء الله، لتستفيد بذلك فائدتين عظيمتين:

الفائدة الأولى: أن يتيَسر لك ما حَلَفْتَ عليه.

والفائدة الثانية: أنَّك لو حنثتَ فلا كفَّارة عليك، فمن حلف على يمين وقال إن شاء الله لم يحنث، ولو خالف ما حلف عليه، ولكنَّ اليمينَ التي توجب الكفارة هي اليمين على شيء مستقبل، أمَّا اليمينُ على شيء ماضٍ فلا كفارة فيها، ولكن إن كان الحالف كاذبًا فهو آثم، وإن كان صادقًا فلا شيء عليه، ومثال هذا لو قال قائل: والله ما فعلت كذا!

فهنا ليس عليه كفارة صِدْقٍ أوْ كَذِب، لكن إن كان صادقًا أنه لم يفعله فهو سَالِم من الإثم، وإن كان كاذِبًا بأن كان قد فعله فهو آثِمٌ.

وأما اليمين التي فيها الكفارة فهي اليمين على شيء مُسْتقبل، فإذا حلفت على شيء مستقبل فقلتَ: والله لا أفعل كذا، فهنا نقولُ: إن فعلتهُ فعليك الكَفَّارة، وإن لم تفعله فلا كفَّارة عليك، والله لا أفعلُ كذا، فهذه يمين

(١) تقدم تخريجه ص (١٩).

منعقدة، فإن فَعَلته وَجَبَتْ عليك الكفارة، وإن لم تفعله فلا كفَّارة عليك، ولكن: هل الأفضلُ أن أفعل ما حلفت على تركه، أو الأفضلُ أن لا أفعل؟

في هذا الحديثِ بيَّن النبي عليه الصلاة والسلام: أنك إذا حلفت على يمينٍ، ورأيت غيرَهَا أتقى لله منها، فكفر عن يمينك، وأْتِ الذي هو أتقى.

فإذا قال قائل: واللهِ لا أُكلِّم فلانًا، وهو مسلم، فإنَّ الأتقى لله أن تكلمه؛ لأنَّ هجرَ المسلم حَرَام، فكلِّمْهُ وكفِّر عن يمينك؛ لأنَّ هذا أتقى لله ولو قُلْتَ: والله لا أزور قريبي، فهنا نقولُ: زيارةُ القريب صلة رحم، وصلةُ الرَّحمِ واجبةٌ، فَصِلْ قريبك، وكفر عن يمينك؛ لأنَّ النبي عليه الصلاة والسَّلام يقول: **«فَرَأى غَيْرَها خيرًا منها فَلْيُكَفِّر عَن يَمِينه فلْيأتِ الذِي هُو خير»**[1] وعلى هذا فقس.

والخلاصة أن نقول: اليمين على شَيء ماض لا يُبحَثُ فيها عن الكفارة؛ لأنَّه ليس فيها الكفارة، لكن إما أن يكونَ الحالفُ سالِمًا أو يكونَ آثمًا. فإن كان كاذبًا فهو آثم، وإن كان صادقًا فهو سالم.

واليمينُ على المستقبلِ هي التي فيها الكفارة، فإذا حلَف الإنسان على شيء مستقبلٍ وخالف ما حَلَف عليه؛ وجَبَتْ عليه الكفارة، إلا أن يُقرِنَ يمينه بمشيئة الله، فيقولَ إن شاءَ اللهُ، فهذا لا كفارة عليه ولو خَالَفَ. والله الموفق.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الأيمان، باب ندب من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها...، رقم(١٦٥١).

٧٣ ـ الخامسُ : عَنْ أبي أُمَامَةَ صُدَيِّ بنِ عَجْلاَنَ البَاهِلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: سَمِعْتُ رَسُوْل الله ﷺ يَخْطُبُ في حَجَّة الوداعِ فَقَالَ: «اتَّقُوا اللهَ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وأدُّوا زَكَاةَ أمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا أُمَرَاءَكُمْ، تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ»[1] رَوَاه التِّرمذيُّ، فِي آخِرِ كتابِ الصَّلاةِ وَقالَ: حَدِيْثٌ حَسَنٌ صَحِيْحٌ».

الشرح

كانت خُطَب الرسول عليه الصلاة والسلام على قسمين: خُطَب راتبةٌ وخُطَب عارِضة.

فأما الراتبة: فهي خطبةٌ في الجُمَع والأعياد، فإنه ﷺ كان يخطب الناس في كل جمعة وفي كل عيد، واختلف العُلَماء ـ رحمهم الله ـ في خطبة صلاة الكُسوف، هل هي راتبة أو عارضة، وسبب اختلافهم: أنَّ الكسوف لم يقع في عهد النبي ﷺ إلا مرة واحدة، ولمَّا صلى قام فخطب الناس عليه الصلاة والسلام، فذهب بعض العُلَماء إلى أنها من الخطب الرَّاتبة، وقالَ: إنَّ الأصلَ أنَّ ما شَرَعهُ النبي ﷺ فهو ثابت مستقر، ولم يقع الكسوفُ مرة أخرى فيترُكَ النبيُّ ﷺ الخطبةَ؛ حتى نقولَ إنها من الخُطَب العارضة.

وقال بعضُ العلماء: بل هي من الخُطَب العارضة؛ التي إن كان لها ما

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الصلاة، باب منه، رقم(٦١٦)، والإمام أحمد في المسند (٥/ ٢٥١)، الحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط مسلم ولا نعرف له علة ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وقال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

يدعو إليها خُطِبَ وإلاَّ فلا، ولكن الأقربَ أنها من الخُطَب الرَّاتبة، وأنه يُسَنُّ للإنسان إذا صلَّى صلاةَ الكسوفِ أن يقوم فيخطبَ الناسَ ويذكِّرهُم ويُخَوِّفَهم كما فعل النبي ﷺ.

أما الخطب العَارضةُ فهي التي يخطبها عند الحاجة إليها، مثل خطبتهِ ﷺ حينما اشترط أهل بَريرَة ـ وهي جارية اشترتها عائشة رضي الله عنها ـ فاشترط أهلها أن يكون الولاءُ لهم، ولكنَّ عائشة ـ رضي الله عنها ـ لم تقبل بذلك، فأخبرت النبي ﷺ فقال: «**خُذِيْها فَأَعْتِقِيْهَا، وَاشْتَرِطِيْ لَهُمُ الوَلاَءَ، ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ النَّاسَ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الوَلاَءَ لِمَنْ أَعْتَق**»[(١)].

وكذلكَ خطبتهُ حينما شَفع أُسامةُ بن زيد ـ رضي الله عنه ـ في المرأة المخزوميّة؛ التي كانت تستعير المَتَاع فَتَجْحَدُهُ، فأمر النبي ﷺ أن تُقْطع يدُها، فأهمَّ قريشًا شأنها، فطلبوا مَنْ يَشْفَعُ لها إلى رسول الله ﷺ، فطلبوا من أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ أن يَشْفَعَ، فَشَفَع، ولكنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «**أَتَشْفَعُ فِيْ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ الله**» ثُمَّ قَالَ: «**فَخَطَبَ النَّاسَ وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ الذي أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلنا أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَق فيهم الشَّرِيفُ تَرَكُوْه، وإِذَا سَرَقَ فِيْهِمُ الوَضِيْعُ أَقَامُوْا عَلَيْهِ الحَدَّ**»[(٢)].

وفي حجَّة الوداع خطب النبي ﷺ يوم عرفة، وخطب يومَ النَّحرِ، ووَعَظَ النَّاس وذَكَّرهم، وهذه خطبة من الخطب الرَّواتب التي يُسَنُّ لقائد

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المكاتب، باب استعانة المكاتب وسؤاله الناس، رقم(٢٥٦٣)، ومسلم، كتاب العتق، باب «إنما الولاء لمن أعتق»، رقم(١٥٠٤).

(٢) تقدم تخريجه ص (٤٦١).

الحَجِيج أن يَخْطب النَّاس كما خطبهم النبي ﷺ.

وكان من جملة ما ذَكَرَ في خطبته في حجَّة الوداع، أنه قال: «يا أيُّها الناسُ اتَّقُوا رَبَّكم» وهذه كَقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]، فأمر الرسول ﷺ الناسَ جميعًا أن يتَّقوا ربهم الذي خلقهم، وأمدَّهم بِنعَمه، وأعدَّهم لقبول رسالاته، فأمرهم أن يتَّقوا الله.

وقوله: «وصَلُّوا خَمْسَكُم» أي: صلُّوا الصلوات الخمس التي فرضها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على رسوله ﷺ.

وقوله: «وصُومُوا شَهْرَكُم» أي: شهر رمضان.

وقوله: «وأدُّوا زَكَاةَ أمْوَالِكم» أي: أعطُوها مستحقِّيها ولا تبخلوا بها.

وقوله: «وأطِيعُوا أُمرَاءَكم» أي: من جعلهم الله أمراء عليكم، وهذا يشمل أمراء المناطق والبلدان، ويشمل الأمير العام: أي أمير الدَّولة كُلّها، فإنَّ الواجبَ على الرعية طاعتهم في غير معصية الله، أما في معصية الله فلا تجوز طاعتهم ولو أمروا بذلك؛ لأنَّ طاعة المخلوق لا تُقدَّم على طاعة الخالق جلَّ وعلا، ولهذا قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].

فعطف طاعة ولاة الأمور عَلى طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ وهذا يدل على أنها تابعة، لأنَّ المعطوفَ تابعٌ للمعطوفِ عليه لا مُسْتقل، ولهذا تجدُ أنَّ الله جلَّ وعلا قال: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، فأتى بالفعل ليتبين بذلك أنَّ طاعة النبي ﷺ طاعة مُسْتقلة أي: تجب طاعته استقلالاً كما تجب طاعة الله؛ ومع هذا فإن طاعته من طاعة الله واجبة، فإنَّ النبيَّ ﷺ

لا يأمر إلا بما يُرضي اللهَ، أما غيره من وُلاَة الأمور فإنَّهم قد يأمرون بغير ما يرضي الله؛ ولهذا جعل طاعتهم تَابعة لطاعة الله ورسوله.

ولا يجوز للإنسان أن يَعْصِيَ وُلاَة الأُمور في غير معصية الله ويقول إنَّ هذا ليس بدين؛ لأنَّ بعض الجُهَّال؛ إذا نظم ولاة الأمور أنْظمة لا تُخَالف الشَّرع، قالَ: لا يلزمني أن أقوم بهذه الأنظمة؛ لأنَّها لَيْسَت بشرع؛ لأنها لا توجد في كتاب الله تعالى، ولا في سنة رسوله ﷺ، وهذا من جهله، بل نقولُ: إنَّ امتثال هذه الأنظمة موجود في كتاب الله، وموجود في سُنَّة الرسول عليه الصلاة والسلام، قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ وَوَردَ عن النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام في أحاديث كثيرة أنَّه أَمَرَ بطاعة وُلاَةِ الأمور، ومنها هذا الحديثُ، فطاعة وُلاة الأمور فيما ينظمونه مما لا يخالف أمر الله تعالى ورسوله ﷺ مما أمر الله به ورسوله ﷺ.

ولو كُنَّا لا نُطيع وُلاَة الأمورِ إلا بما أَمَرَ الله تعالى به ورسوله ﷺ لم يكن للأمر بطاعتهم فائدة؛ لأنَّ طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ مأمور بها، سواء أمر بها ولاةُ الأمور أَمْ لم يأمُرُوا بها، فهذه الأمور التي أوْصى بها النبي ﷺ في حجة الوداع: تقوى الله، والصلوات الخمس، والزكاة، والصيام، وطاعة ولاة الأمور؛ هذه من الأمور الهامة التي يجب على الإنسان أن يَعْتَني بها، وأنْ يمتثِلَ أمر رَسُول الله ﷺ فيها، والله أعلم.

* * *

٧ـ باب اليقين والتوكُّل

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، والآياتُ في الأمرِ بالتَّوكُّلِ كثيرةٌ مَعْلُومَةٌ.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، أي: كافِيهِ.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، والآيات في فضل التَّوكُّل كثيرةٌ معروفةٌ.

الشرح

جمع المؤلفُ بين اليقين والتَّوكل؛ لأنَّ التوكُّل ثمرة من ثمرات اليقين، فاليقينُ هو قُوَّة الإيمان والثباتُ، حتى كأنَّ الإنسانَ يرى بعينه ما أخبر الله به ورسولُه من شِدَّة يقينه، فاليقين هو ثَبَات وإيمانٌ ليس معه شَكٌّ بوجهٍ من الوجوه، فَيَرى الغائبُ الذي أخبر اللهُ ـ تعالى ـ عنه ورسوله ﷺ كأنَّه حاضر بين يدَيه، وهو أعلى درجات الإيمان!

هذا اليقين يثمر ثمرات جليلة؛ منها التَّوكل على الله عزَّ وجلَّ؛ والتَّوكل على الله اعتمادُ الإنسان على ربِّه ـ عزَّ وجل ـ في ظاهره وباطنه، في جلب المنافع ودَفع المَضار: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

ففي هاتين المرتبتين ـ اليقين والتوكُّل ـ يحصلُ للإنسان مقصوده في الدنيا والآخرة، ويستريح ويعيش مطمئنًا سعيدًا؛ لأنَّه موقنٌ بكل ما أخبر الله به ورسوله ومُتوكِّل على الله عزَّ وجلَّ.

ثمَّ ذكر المؤلف آيات في هذا الباب، منها قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

الأحزاب: طوائف من قبائل مُتعددة تألَّبُوا على رسول الله ﷺ واجتمعوا على حربه، وتجمَّعَ نحو عشرة آلاف مقاتل من قريش وغيرهم، وحاصروا المدينة؛ ليقضوا على النبي ﷺ، وحصل في هذه الغزوة أزمة عظيمة على أصحاب الرسول ﷺ قال الله تبارك وتعالى في وَصْفِها: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ من شدة الخوف ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ الظُّنون البعيدة ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

فانقسَمَ النَّاس في هذه الأزمة العصيبة العظيمة إلى قسمين؛ بيَّنهما الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في هذه الآيات قال: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

القسم الأول: قال الله عنهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ المنافقون الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، والذين في قلوبهم مرض من المؤمنين وعندهم نقص في يقينهم،

قالوا: ما وَعَدنَا اللهُ ورسوله إلاَّ غُرورًا، قالوا: كيف يقول محمد إنَّه سيفتح كِسْرى وَقَيصر وصَنعاء، وهو الآن محاصَرٌ مِن هؤلاء الناس. كيف يمكن هذا؟ فقالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾.

أما القسم الثاني: المؤمنون، قال الله عنهم: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ وانظر إلى الفرق بين الطائفتين، هؤلاء لمَّا رأوا الأحزاب، ورأوا هذه الشِّدة؛ علموا أنَّه سيعقبها نصر وفرج، وقالوا: هذا ما وَعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، فسيكون النصر وستُفْتَحُ ممالك قيصر وكِسْرى واليمن، وهكذا كان ولله الحمد.

والشَّاهد قوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ وهذا غاية اليقين؛ أن يكون الإنسان عند الشَّدائد، وعند الكرب؛ ثابتًا مؤمنًا مُوقنًا، عكسَ من كان توكُّلُهُ ويقينه ضعيفًا؛ فإنه عند المصائب والكرب ربما ينقلب على وَجهه، كما قال الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي على طَرف ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

كثيرٌ من الناس مادام في عافية فهو مطمئن، ولكن إذا ابتُلي ـ والعِياذ بالله ـ انقلب على وجهه، فرُبَّما يَصِل إلى حَدِّ الرِّدة والكفر، ويعترضَ على الله بالقضاء والقدر، ويَكْرَه تقدير الله، وبالتَّالي يكره الله والعياذ بالله؛ لأنَّه كان في الأول لم يصبه أذًى ولا فتنة، ولكنه في الثَّاني أصابته الفتنةُ فانقلبَ على وجهه.

وفي هذه الآيات وأشبَاهها دليلٌ على أنَّه ينبغي للإنسان أن يخاف، ويوجل، ويخشى من زيغ القلب، ويَسْألَ الله دائمًا الثَّبات، فإنه ما من قَلْب من قلوب بني آدم إلاَّ وهو بين أصبعين من أصابع الرحمٰن، يقلِّبه كيف يشاء؛ إن شاء أقَامه، وإن شاء أزَاغَه والعياذ بالله.

فنسأل الله مُقَلِّب القُلُوب أن يُثَبِت قلوبنا على طاعته، وأن يرزقنا الاستقامةَ على دينه والثَّبات عليه.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

هذه الآية نزلت في الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ حيثُ حَصَل عليهم ما حصل في غزوة أُحُد، مما أصابهم من القَرْح والجُروح والشُّهداء، فقيل لهم: إن أبا سفيان كان قد عزمَ على الكرَّة عليكم، وجمع لكم الناس، فندبهُمُ النبي عليه الصلاة والسلام إلى مُلاقاته ومقابلته؛ فاستجابوا لله والرسول من بعد مَا أصابهم القَرح، وأُصيبوا بهذه النَّكبة العظيمة، فقُتِل منهم سبعون رجُلاً استشهدوا في سبيل الله، وحَصَل للنبي ﷺ ولِغَيره من صحابته ـ رضي الله عنهم ـ ما حصل، ومع هذا استجابوا لله وللرسول.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٢، ١٧٣]، يعني أنَّ أبا سفيان ومن معه ممن بقي من كُبراء قريش جمعوا للنبي ﷺ يريدون استئصاله، ولكن يأبى الله إلاَّ أن يتم نُوره.

قيل للصَّحابة: اخشوا هؤلاء، ولكنهم ازدادوا إيمانًا؛ لأنَّ المؤمن

كُلَّما اشتدت به الأزمات ازداد إيمانًا بالله؛ لأنَّه يؤمن بأنَّ النَّصر مع الصَّبر، وأنَّ الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا؛ ولهذا زادهم إيمانًا هذا القول وقالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ ﴿حَسْبُنَا﴾ أي كافينا في مهمّاتِنا وملَمَّاتنا ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ إنه نِعْمَ الكافي جل وعلا؛ فإنَّه نعم المولى ونعم النصير.

ولكنه إنَّما يكون ناصرًا لمن انتصر به واستنصر به، فإنَّه ـ عزَّ وجلَّ ـ أكرمُ الأكرمين وأجود الأجْودين، فإذا اتَّجه الإنسانُ إليه في أموره؛ أعانَهُ وسَاعَدَهُ وتولاَّه، ولكنَّ البلاء من بني آدم، حيثُ يكونُ الإعراضُ كثيرًا في الإنسان، ويعتمد على الأمور الماديِّة دون الأمور المعنوية.

قال تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ ذهبوا لكنهم لم يجدوا كيدًا، وأبوسفيان ومَنْ معه ولّوا على أَدبارهم، ولم يَكرُّوا على الرسول ﷺ، فكتِبَتْ للصَّحابة -رضي الله عنهم- غزوة من غير قتال. كُتِبتْ هذه الرجعة غزوة من غير قتال، قال الله تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

ثمَّ قال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أي: يخوفكم أنتم أولياءه، أي: يُلْقي في قلوبكم الخوفَ من أوليائه، فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين.

فالشَّيطانُ يأتي إلى المؤمن، يقولُ: احذر أن تتكلم في فلان؛ لأنَّه ربما يَسجنك، وربما يفعل كذا وكذا، فيخوِّفك، ولكن المؤمن لا يمكن

أن يخاف أولياء الشيطان؛ لأنَّ الله قال: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ بالنسبة للحق [النساء: ٧٦].

فعلى الإنسان أن لا يخاف في اللهِ لَوْمَة لائم، وأن لا يخاف إلا الله، ولكن يجب أن يكون سَيْرُهُ على هدىً من الله عزَّ وجلَّ! فإذا كان سيره على هدى من الله؛ فلا يخافنَّ أحدًا.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وهوالله عزَّ وجلَّ، اعتمِدْ عليه في أمورك كلِّها؛ دقيقها وجليلها؛ لأنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إذا لم ييسِّر لك الأمر لم يتيسَّر لك، ومن أسباب تَيسيره؛ أن تتوكل عليه، لاسيما إذا داهمتك الأمور، وكثرت الهُموم، وازدادت الخطوب. فإنه لا ملجأ لك إلا الله عزَّ وجلَّ، فعليك بالتَّوكل عليه والاعتماد عليه حتى يكفيك.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ دليلٌ على امتناع الموت على الرَّب عزَّ وجلَّ، قال الله تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمٰن: ٢٦، ٢٧]، فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يموت لكمال حياته؛ فإنَّه هو الأوَّل الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء، ثُمَّ إنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا ينام أيضًا؛ لكمال حَياته وقَيُّومِيَّته قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أمَّا الإنس والجِنّ فإنهم ينامون ويموتون، وأمَّا الرَّب ـ عزَّ وجلَّ ـ فإنَّه لا ينام؛ لأنَّه غنيٌّ عن النَّوم، أما البشر فإنهم في حاجة إلى النوم؛ لأنَّ الأبدان تتعب وتسأم وتَمَل، والنَّومُ راحة عمَّا مَضَى من التَّعب، وتجديد نشاط عمَّا

يستقبل من العمل، وأما الله سبحانه وتعالى فلا تأخذهُ سنة ولا نوم.

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣]، أي: كافِيه. فإذا توكَّلت على الله كفاك كلَّ شيء، وإذا توكل على غير الله وكلك الله عليه، ولكنك تُخذلُ ولا تتحقق لك أمورك.

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

قوله: ﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ ﴾ أي: إذا ذُكِرَتْ عَظَمتهُ وجلاله وسُلطانه؛ خافت القلوب، ووجلت، وتأثَّر الإنسان، حتى إنَّ بعض السَّلف إذا تُليت عليه آيات الخوف يمرض أيامًا حتى يعودَهُ الناس، أما نحن فقلوبنا قاسية، نسأل الله أن يلينها، فإنه تتلى علينا آيات الخوف وتمر وكأنها شراب بارد، فلا نتأثَّرَ بذلك ولا نتعظ إلا من رحم الله. نسأل الله العافية.

لكنَّ المؤمن: هو الذي إذا ذُكر الله وجل قلبه وخاف.

كان بعض السَّلف إذا قيل له: اتق الله ارتعدَ، حتى يسقط ما في يده.

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ إذا سمِعُوا كلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ازدادوا إيمانًا من وجهين:

الوجه الأول: التَّصديق بما أخبر الله به من أمور الغيب الماضية والمستقبلة.

الوجه الثاني: القُبول والإذعان لأحكام الله، فيمتثِلُون ما أمر الله به، فيزداد بذلك إيمانهم وينتهون عما نهى الله عنه؛ تقربًا إليه وخَوفًا منه،

فيزداد إيمانهم، فهم إذا تليت عليهم آياته ازدادوا إيمانًا من هذين الوجهين.

وهكذا إذا رأيتَ مِن نفسك أنّك كُلَّما تلوت القرآن ازددت إيمانًا؛ فإن هذا من علامات التوفيق.

أمَّا إذا كنت تقرأُ القرآن ولا تتأثر به؛ فعليك بمُداوَاة نفسك، لا أقول أن تذهب إلى المُسْتَشفى؛ لتأخذ جرعة من حُبوب أو مِياه أو غيرها، ولكن عليك بِمُدَاوَاة القلب؛ فإنَّ القلب إذا لم ينتفع بالقرآن ولم يتعظ به؛ فإنه قلب قاسٍ مريض، نسال الله العافية.

فأنتَ يا أخي طبيبُ نفسك، لا تذهبْ إلى الناس. اقرأ القرآن، فإن رأيت أنك تتأثر به إيمانًا وتصديقًا وامتثالاً فهنيئًا لك، فأنت مؤمن، وإلاَّ فعَليك بالدَّواء، داوِ نفسك من قبل أن يأتيك موت لا حياة بعده، وهو موت القلب. أما موتُ الجسد فبعدَهُ حياة، وبعدَهُ بعث وجزاء وحساب.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ على ربهم فقط يتوكلون! أي: يفوّضون أمورهم كلَّها إلى مالكهم ومدبرهم خاصة، لا إلى أحد سواه، كما يدلُّ عليه تقديم المعمول على عامله، والجملة معطوفة على الصِّلة. إشارةً إلى الاختصاص والحصر، وأنَّهم لا يتوكلون إلا على الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ غيرَ الله إذا توكلت عليه؛ فإنما توكلت على شخص مثلكَ، ولا يحرص على منفعتك كما تحرص أنت على مَنفعة نفسك. ولكن اعتمِدْ على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في أمور دينك ودنياك.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

يقيمون الصَّلاة: يأتون بها مستقيمة بواجباتها وشروطها وأركانها، ويكملونها بمكمِّلاتها، ومِن ذلك أن يُصَلُّوها في أوقاتها، ومن ذلك أن يصلُّوها مع المُسْلمين في مَسَاجدهم؛ لأنَّ صلاة الجماعة كان لا يتخلف عنها إلا منافق أو معذور، قال ابنُ مسعود رضي الله عنه: «لَقَدْ رَأَيتُنا ـ يعني مع الرَّسول عليه الصلاة والسلام ـ وما يَتَخَلَّفُ عنها ـ أي عن الصلاة ـ إلا منافقٌ معلومٌ النِّفاق أو مريض، ولقد كانَ الرَّجل يُؤْتَى به يُهادَى بين الرَّجُلين، يعني مريض ويحمله رجلان اثنان، حتى يُقام في الصَّف»[1] لا يثنيهم عن الحضورِ إلى المساجد حتى المرضُ رضيَ الله عنهم.

أما كثير من الناس اليوم، فإنَّهم على العَكس من ذلك، فتَراهم يتَكَاسلون ويتأخرون عن صلاة الجماعة.

ولهذا لو قارنت بين الصَّلوات النَّهارية وصلاة الفجر؛ لرأيت فرقًا بينًا؛ لأنَّ الناس يلحقهم الكسل في صلاة الفجر من نوم، ولا يهتمون بها كثيرًا.

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: ينفقون أموالهم في مرضاةِ الله، وحسب أوامر الله، وفي المحل المناسب.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ ﴾ حقًّا: توكيدٌ للجملة التي قبلها؛ أي: أحق ذلك حقًّا.

﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم بمنِّه وكرمه؛

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب صلاة الجماعة مِن سنن الهدى، رقم(٦٥٤).

إنه جواد كريم.

وأمّا الأحاديثُ:

* * *

٧٤ ـ فالأوَّلُ: عَن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْت النَّبيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْط، والنَّبيَّ ومَعَهُ الرَّجُل والرَّجُلانِ، والنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ إذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فظَنَنْتُ أنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُه، وَلَكِنِ انْظُرْ إلَى الأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فإذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إلىٰ الأُفُق الآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُم سَبْعُون أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّة بِغَيرِ حِسَاب وَلا عَذَاب» ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَل منزله، فَخَاض النَّاسُ في أولئك الَّذِين يَدْخُلُون الجَنَّة بِغيرِ حِسَابٍ ولا عَذاب، فقال بعضُهم: فَلَعَلَّهُم الذين صَحِبُوا رَسُوْلَ الله ﷺ، وقال بعضُهم: فَلَعَلَّهُم الذين وُلِدُوا فِي الإسلامِ، فلم يُشْرِكُوا بالله شيئًا ـ وذَكَروا أشْيَاءَ ـ فخرجَ عليهمْ رسولُ اللهِ ﷺ فقَال: «مَا الَّذي تَخُوضُوْنَ فِيْه؟» فَأَخْبَرُوهُ فقال: «هُمُ الَّذينَ لاَ يَرْقُونَ، وَلاَ يَسْتَرْقُونَ وَلا يَتَطيَّرونَ، وَعَلَى ربِّهِمْ يتَوكَّلُون» فقامَ عُكَّاشَةُ بنُ محصنٍ فقال: ادعُ الله أَنْ يَجْعَلَني منهم، فقال: «أَنْتَ مِنْهُمْ» ثُمَّ قام رَجُلٌ آخرُ فَقال: ادْعُ الله أنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُم فَقَالَ: «سَبَقَك بِهَا عُكَّاشة»[1] مُتَّفَقٌ عليه.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، رقم(٦٥٤١)، مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم(٢٢٠).

«الرُّهَيْطُ» بِضَمِّ الرَّاء: تَصْغِيْرُ رَهْطٍ، وَهُمْ دُوْنَ عَشَرَةِ أَنْفُس. «وَالأُفُقُ»: النَّاحِيَةُ وَالجَانِبُ. «وعُكَّاشَةُ» بِضَمِّ العَينِ وتشديد الكافِ وبتخفيفِها والتَّشديدُ أفصحُ.

الشرح

بعدما ساق المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ الآيات، ذكر هذا الحديث العظيم، الذي أخبرَ فيه النبيُّ ﷺ أنَّ الأمَمَ عُرِضت عليه؛ أي: أُرِيَ الأُمَمَ عليه الصلاةُ والسَّلام وأنبياءَهم.

يقولُ: «فَرأيتُ النبيَّ ومَعَه الرُّهيط» أي: معه الرَّهطُ القليل؛ ما بين الثلاثة إلى العشرة.

«والنبيَّ ومَعَه الرجلُ والرجلان، والنبيَّ وَلَيسَ مَعَهُ أَحَدٌ» أي: أنَّ الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسَّلام ـ ليْسوا كلهم قد أطاعهم قومُهم، بل بعضهم لم يطِعْهُ أحدٌ من قومهم، وبعضُهُم أطاعه الرَّهط، وبعضهم أطاعه الرجل والرجلان، وانظر أَنَّ نوحًا عليه الصلاة والسلام مَكَثَ في قومه ألفَ سنة إلاَّ خمسين عامًا؛ يُذَكِّرُهُم بالله، ويدعوهم إلى الله، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠]، كلُّ هذه المدة ولم يَلْق منهم قبولاً، بل ولا سَلِمَ من شرِّهم، قال نوح: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح: ٧]، وكانوا يمرون به ويسخرون منه.

يقول: «رُفِعَ لِيْ سَوَادٌ» أي: بَشَرٌ كَثِيْرٌ فِيهم جَهْمَةٌ مِنْ كثرتهم «فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِيْ فَقِيْلَ لي هَذَا مُوسَى وَقَومُه» لأنَّ موسى من أكثر الأنبياء أتباعًا،

بُعث في بني إسرائيل، وأنزل الله عليه التَّوراة التي هي أُمُّ الكتب الإسرائيلية..

قال: «ثمَّ قيلَ لي انظر! فَنَظَرْتُ إلى الأُفُقِ فإذا سَوَادٌ عظيم - وفي لفظٍ: قَدْ سَدَّ الأُفُقَ - فقيل: انظر الأُفُقَ الثاني! فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ فَإِذَا سَوَادٌ عظيم، فَقِيْلَ لي هذه أُمَّتك» فالرسولُ ﷺ أكثرُ الأنبياء تابعًا، لأنَّه منذُ بُعِثَ إلى يوم القيامة والناسُ يتَّبعونه، صلوات الله وسلامه عليه، فكان أكثرَ الأنبياءِ تَابِعًا، قَدْ مَلأ أتباعه ما بين الأفقين.

«وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسَاب ولا عذاب» أي: مع هذه الأمة سبعون ألفًا يدخلون الجنة، لا يحاسبون، ولا يعذبون، من الموقف إلى الجنة بدون حساب ولا عذاب! اللهم اجعلنا منهم.

وقد ورد أنَّ مع كل واحد من السَّبعين الأَلْفِ سَبْعين ألفًا أيضًا[١].

«ثمَّ نهضَ فَدَخَلَ منزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسُ في أولئك... قَال بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُم الذين صَحِبُوا رَسُولَ الله ﷺ - يَعْنِيْ لعلهم الصحابة رضي الله عنهم -، وقال آخرون: «لعلَّهم الذين وُلِدُوا في الإسلام، فلم يشركوا بالله شيئًا وذكروا أشياء» وكُلٌّ أتى بما يظن، فخرج عليهم النَّبي ﷺ فسَألهم عمَّا يخوضون فيه فأخبروه فقال ﷺ «هُمُ الَّذينَ لا يَرْقُوْنَ وَلا يسْترقون وَلا يَكْتَوُونَ وَلاَ يَتَطيَّرونَ وَعَلى رَبِّهم يَتوكَّلُون» هذا لفظُ مسلم وفيه: «لاَ يَرْقُوْنَ».

والمؤلِّف رحمه الله قال: إنَّه متفق عليه، وكان ينبغي أن يبين أن هذا اللفظَ لفظُ مسلم فقط دون رواية البخاري، وذلك أن قوله: «لا يرقون»

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/٤١٨، ٤١٩).

كلمةٌ غير صحيحة، ولا تصِحُّ عن النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لأن معنى «لا يرقون» أي لا يقرؤون على المرضى، وهذا باطل، فإن الرسول ﷺ كان يرقي المرضى.

وأيضًا القراءة على المرضى إحسانٌ، فكيف يكون انتفاؤها سببًا لدخول الجنة بغير حساب ولا عذاب.

فالمهم أنَّ هذه اللَّفظة لفظة شاذة، وخطأ لا يجوز اعتمادها، والصَّوابُ: «هُمُ الذينَ لا يسْتَرْقُون» أي: لا يَطْلبون من أحد أن يقرأ عليهم إذا أصابهم شيء؛ لأنهم معتمدون على الله؛ ولأنَّ الطلب فيه شيء من الذلِّ؛ لأنَّه سؤالُ الغَير، فرُبَّما تحرجه ولا يريد أن يقرأ، وربما إذا قرأ عليك لا يبرأُ المرض فتتهمه، وما أشبه ذلك، لهذا قال لا يسترقون.

قوله: «ولا يكْتَوُون» يعني: لا يطلبون من أحدٍ أن يكويهم إذا مرِضوا؛ لأنَّ الكَيَّ عذابٌ بالنار، لا يُلجأ إليه إلاَّ عند الحاجة.

وقولُه: «ولا يَتَطَيَّرُون» يعني: لا يتشاءمون لا بمَرْئيٍّ، ولا بمَسموع، ولا بمشموم، ولا بمذُوق؛ يعني لا يتطيرون أبدًا.

وَقَد كان العربُ في الجاهلية يتطيرون، فإذا طارَ الطير وذهب نحو اليسار تشاءَموا، وإذا رجع تشاءموا، وإذا تقدم نحو الأمام صار لهم نظرٌ آخر، وكذلك نحو اليمين وهكذا.

والطِّيَرة محرَّمة، لا يجوز لأحد أن يتطير لا بطيور، ولا بأيام، ولا بشهور، ولا بغيرها، وتطيَّر العرب فيما سبق بشهر شوَّال إذا تزوج الإنسان فيه، ويقولون: إنَّ الإنسان إذا تزوج في شهر شوَّال لم يوفَّق، فكانت

عائشة رضي الله عنها تقول: «سبحان الله، إنَّ النبي ﷺ تزوَّجها في شوَّال، ودخل بها في شوَّال، وكانت أحبَّ نسائه إليه» كيف يُقال إن الذي يتزوج في شَوَّال لا يوفَّق.

وكانوا يتشَاءَمُون بيوم الأربعاء، ويوم الأربعاء يوم كأيام الأسبوعِ ليس فيه تشاؤم.

وكان بعضُهم يتشاءَمُ بالوجوه، إذا رأى وجهًا يُنْكِرُهُ تشاءَمَ، حتى إن بعضهم إذا فَتَحَ دُكَّانه، وكان أوّل من يأتيه رجلٌ أعورُ أو أعمى، أغلق دكانه، وقال اليوم لا رِزق فيه.

والتَّشاؤمُ، كما أنه شِرك أصغر، فهو حَسْرةٌ على الإنسان، فيتألم من كلِّ شيء يراه، لكن لو اعتمد على الله وترك هذه الخرافات؛ لسلم، ولصار عَيشُهُ صافيًا سعيدًا.

أمَّا قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فمعناه: أنَّهم يعتمدون على الله وحده في كلِّ شيء، لا يعتمدون على غيره؛ لأنَّه جلَّ وعلا قال في كتابه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، ومن كان الله حسْبَه فقد كُفِيَ كُلَّ شيء.

هذا الحديث العظيم فيه صفاتُ من يدخلِ الجنة بلا حساب ولا عذاب. فهذه أربعُ صفات: لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيَّرون، وعلى ربهم يتوكلون. والشاهدُ للباب قولُه ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾.

فَقَام عُكَّاشة بن مِحصن رَضي الله عنه، فقال: يا رسول الله «**ادْعُ الله أن يجعلني منهم**»، بادَرَ إلى الخيرِ وَسَبق إليه، فقال النبي ﷺ: «**أَنْتَ مِنْهُمْ**»

ولهذا نحن نَشهدُ الآن بأنَّ عُكَّاشة بن مِحصن ـ رضي الله عنه ـ يدخلُ الجنةَ بلا حساب ولا عذاب؛ لأن الرَّسول عليه الصلاة والسلام قال له: «**أَنْتَ مِنْهُم**».

«**فقام رجلٌ آخر فقال: ادعُ الله أنْ يجعلني منهم! قال: سَبقَك بِها عكّاشة**» فردَّه النبيُّ عليه الصلاة والسلام، لكنه ردٌّ لطيف، لم يقُل لست منهم، بل قال: «**سَبقَكَ بِهَا عكّاشة**» واختلفَ العُلماء لماذا قال النبي ﷺ له: «**سَبقَكَ بِهَا عُكَّاشة**».

فقيل: لأنَّه كان يعلمُ بأن هذا الذي قال ادعُ الله أن يجعلني منهم منافقٌ، والمنافقُ لا يدخل الجنة، فضلاً عن كونه يدخلها بغير حساب ولا عذاب.

وقال بعض العلماء: بل قال ذلك من أجل أن لا ينفتح الباب؛ فيقومَ من لا يستحق أن يدخلَ الجنة بغير حساب ولا عذاب، ويقولَ ادعُ الله أن يجعلني.

وعلى كلِّ حال، فنحنُ لا نعلم عِلمًا يقينًا بأن الرسول ﷺ لم يدعُ الله له إلا لسبب معيَّن، فالله أعلم.

لكننا نستفيد من هذا فائدةً؛ وهو الرَّدُّ الجميلُ مِن رسول الله ﷺ؛ لأنَّ قوله: «**سَبقَكَ بِها عُكَّاشة**» لا يجرحه ولا يُحْزنه، وسبحان الله، صارت هذه مثلاً إلى يومنا هذا، كُلَّما طلب الإنسان شيئًا قد سُبِق به قيل: سبقَكَ بها عكاشة.

أورد بعض العلماء إشكالاً على هذا الحديث، وقال: إذا اضطرَّ

الإنسان إلى القراءة؛ أي إلى أن يطلُبَ من أحد أن يقرأ عليه؛ مثل أن يصاب بعين، أو بسحر، أو أُصيب بجِنّ واضطرَّ، هلْ إذا ذَهبَ يطلب من يقرأُ عليه، يخرجُ من استحقاق دخول الجنة بغير حساب ولا عذاب؟

فقال بعض العلماء: نَعَمْ هذا ظاهر الحديث، وليعتمد على الله وليتصبر ويسأل الله العافية.

وقال بعض العلماء: بل إنَّ هذا فيمن استرَقَى قبل أن يصَاب، أي: بأن قال: اقرأْ عَليَّ أن لا تصيبني العين، أو أن لا يصيبني السِّحر أو الجن أو الحُمَّى، فيكونُ هذا من باب طلب الرقية لأمرٍ متوقَّع لا واقع، وكذلك الكيُّ.

فإذا قال إنسانٌ: الذين يكْوون غيرهم هل يُحرمون من هذا؟

الجواب: لا! لأنَّ الرسول ﷺ يقول: «**ولا يَكْتَوُون**» أي: لا يطلبون من يكوِيهم، ولم يقل ولا يكوون، وهو عليه الصلاة والسلام قد كوى أكحَلَ سعد بن معاذٍ رضي الله عنه، فسعدُ بن معاذ الأوسي الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ أُصِيبَ يومَ الخندق في أَكحله فانفجَر الدَّمُ، والأكحل إذا انفجر دمه قضى على الإنسانِ، فَكَواه ﷺ في العِرقِ حتى وقف الدَّمُ، والنبي ﷺ هو أولُ من يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب.

فالذين يكوُونَ مُحسِنُونَ، والذين يقرؤون على الناس محسنون، ولكنَّ الكلام على الذين يستَرْقُون؛ أي يطلبون من يقرأُ عليهم، أو

يكتوون؛ أي: من يطلبون من يكويهم، والله الموفق.

* * *

٧٦ ـ الثَّالثُ: عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قَال: «حَسْبُنا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلِ، قَالَهَا إبْرَاهِيْمُ ﷺ حِيْنَ أُلقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِيْنَ قَالُوا: إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إيْمَانًا وَقَالُوْا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيْل»[1] رَوَاه البُخَارِيُّ.

وَفِيْ روايةٍ لَهُ عن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كانَ آخِرَ قوْلِ إبراهيمَ ﷺ حينَ أُلقِي في النَّار: «حسبي الله ونعمَ الوكيل».

الشرح

وإبراهيم ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ هما خليلان لله عزَّ وجلَّ. قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[2] [النساء: ١٢٥]، وقال النبي ﷺ: «إنَّ الله قد اتَّخَذَنِي خَلِيْلاً كَمَا اتَّخَذَ إبْرَاهِيمَ خلِيلاً» والخليل: معناه الحبيبُ الذي بلغت محبته الغاية، ولا نعلم أنَّ أحدًا وُصف بهذا الوصف إلا محمدًا ﷺ وإبراهيم، فهما الخليلان.

وإنَّك تسمع أحيانًا يقول بعض الناس: إبراهيم خليلُ الله، ومحمد حبيب الله، وموسى كَلِيم الله.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾، رقم(٤٥٦٣، ٤٥٦٤).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور...، رقم(٥٣٢).

والذي يقول: إنَّ محمدًا حبيب الله في كلامه نظر؛ لأنَّ الخُلَّة أبلَغُ من المحبة، فإذا قال: محمد حبيب الله، فهذا فيه نوعُ نقصٍ من حقِّ الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لأنَّ أحبابَ الله كثيرون، فالمؤمنون يُحبهم الله، والمحسنون والمقسطون يحبهم الله، والأحباب كثيرون لله.

لكن الخُلَّة لا نَعلمُ أنها ثبتت إلا لِمحمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وعلى هذا فنقول: الصَّوابُ أن يقال: إبراهيم خليل الله، ومحمد خليل الله، وموسى كليم الله عليهم الصلاة والسلام.

على أنَّ محمدًا ﷺ قد كلَّمه الله ـ سبحانه وتعالى ـ كلامًا بدون واسطة، حيث عرج به إلى السَّماوات السَّبع.

هذه الكلمةُ: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيمُ حينما أُلقيَ في النار، وذلك أنَّ إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام دعا قومَه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأبَوْا، وأَصَرُّوا على الكفر والشِّرك.

فقام ذات يوم على أصنامهم فكسَّرها، وجعلهم جُذاذًا، إلا كبيرًا لهم، فلما رجَعُوا وجدوا آلهتهم قد كُسِّرت، فانتقموا ـ والعياذ بالله ـ لأنفسهم.

فقالوا ماذا نصنع بإبراهيم؟ ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ﴾ انتصارًا لآلهتهم ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ فأوقدوا نارًا عظيمة جدًّا، ثمَّ رموا إبراهيم في هذه النار. ويقال إنهم لِعظَم النار لم يتمكَّنوا من القُربِ منها، وأنَّهم رموا إبراهيم فيها بالمنجنيق من بُعْد، فلمَّا رموه قال: «حسبُنا الله ونعم الوكيلُ» فما الذي حدث؟

قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، بردًا: ضدُّ حر، وسلامًا: ضدُّ هلاكًا؛ لأنَّ النَّار حارّة ومحرقة مهْلِكة، فأمَر الله هذه النَّار أن تكون برْدًا وسلامًا عليه، فكانت بردًا وسلامًا.

والمُفسِّرون بعضُهُم ينقُلُ عن بني إسرائيلَ في هذه القصَّة، أن الله لمَّا قال: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ صارتْ جميعُ نيران الدُّنيا بردًا!

وهذا ليس بصحيح؛ لأنَّ الله وجَّه الخطاب إلى نارٍ معينة ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا﴾ وعلماء النحوِ يقولون إنَّهُ إذا جاء التركيب على هذا الوجه، صار نكرةً مقصودة، أي: لا يشمَلُ كلَّ نار، بل هو للنار التي ألقي فيها إبراهيم فقط، وهذا هو الصحيح، وبقية نيران الدنيا بقيت على ما هي عليه.

وقال العلماء أيضًا: ولمَّا قال الله: ﴿كُونِى بَرْدًا﴾ قرنَ ذلك بقوله: ﴿وَسَلَـٰمًا﴾ لأنّه لو اكتفى بقوله: ﴿بَرْدًا﴾ لكانت بردًا حتى تهلِكهُ؛ لأنَّ كل شيء يمتثِلُ لأمرِ الله عزَّ وجلَّ، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ فماذا قالتا: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا﴾ منقادين لأمر الله عزَّ وجلَّ.

أما الخليل الثاني الذي قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ فهو النبيُّ ﷺ وأصحابه، حين رجعوا من أُحُد، قيل لهم: إنَّ الناس قد جمعوا لكم، يريدون أن يأتوا إلى المدينة ويقضوا عليكم فقالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

فينبغي لكلِّ إنسان رأى من النَّاس جمْعًا له، أو عدْوانا عليه؛ أن يقول: «حسبُنا الله ونعمَ الوكيل»، فإذا قال هكذا كفَاه الله شرَّهم، كما كفى إبراهيمَ ومحمدًا عليهما الصلاة والسلام، فاجعل هذه الكلمةَ دائمًا على بالِكَ، إذا رأيت من النَّاس عدوانًا عليك فقل: «حسبُنا الله ونعم الوكيلُ» يكفك الله عزَّ وجلَّ شرَّهم وهمَّهم. والله الموفق.

* * *

٧٩ ـ السَّادسُ: عَنْ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُوْلَ الله ﷺ يقولُ: «لوْ أنَّكُمْ تَتَوكَّلُونَ علَى الله حقَّ توَكُّلِهِ لَرَزقَكُمْ كمَا يَرْزُقُ الطَّيرَ، تغدُوا خِمَاصًا وترُوحُ بِطَانًا»[1] رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَال: «حديثٌ حَسَنٌ».

مَعْنَاهُ: تَذْهَبُ أوَّلَ النَّهارِ خِمَاصًا: أَيْ: ضَامِرَةَ البُطُونِ منَ الجُوعِ، وَتَرْجِعُ آخرَ النَّهارِ بِطَانًا: أَيْ: مُمْتَلِئَةَ البُطُونِ.

الشرح

يقول النبي عليه الصلاة والسلام حاثًا أمته على التوكّل «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توَكُّله**» أي: توكُّلاً حقيقيًا، تعتمدون على اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ اعتمادًا تامًّا في طلب رزقكم وفي غيره «**لَرَزَقَكُم كمَا يرزُقُ الطَّيرَ**»

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، بابٌ في التوكل على الله، رقم(٢٣٤٤)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، رقم(٤١٦٤)، والإمام أحمد في المسند (١/ ٣٠، ٥٢)، والحاكم في المستدرَك (٤/ ٣١٨) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وسكت عنه الذهبي في التلخيص. وصحّحه الألباني كما في صحيح الجامع رقم(٥٢٥٤).

الطَّير رزقُها على الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّها طيور ليس لها مالك، فتطير في الجو، وتغدوا إلى أوكارها، وتستجلب رزق الله عزَّ وجلَّ. «تَغْدُوا خِمَاصًا» تغدو: أي تذهب أوَّل النهار؛ لأنَّ الغدوة هي أول النهار. وخماصًا يعني: جائعة كما قال الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]، مخمصة: يعني مجاعة.

«تغدو خماصًا» يعني جائعة؛ ليس في بطونها شيء، لكنَّها متوكِّلة على ربها عزَّ وجلَّ.

«وتروحُ» أي ترجِعُ في آخر النهار؛ لأنَّ الرَّواح هو آخر النهار.

«بِطَانًا» أي ممتلئة البطون؛ من رزق الله عزَّ وجلَّ. ففي هذا دليلٌ على مسائل:

أولاً: أنَّه ينبغي للإنسان أن يعتمد على الله ـ تعالى ـ حقَّ الاعتماد.

ثانيًا: أنَّه ما مِن دابة في الأرض إلا على الله رزقها، حتى الطَّير في جوِّ السَّماء، لا يمسكه في جوِّ السماء إلاَّ الله، ولا يرزقه إلاَّ الله عزَّ وجلَّ.

كُلُّ دابة في الأرض؛ من أصغرِ ما يكون كالذَّر، أو أكبرِ ما يكون؛ كالفيلة وأشباهها، فإنَّ على الله رزقَها، كما قال الله: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]، ولقد ضَلَّ ضلالاً مُبينًا مَنْ أساءَ الظَّن بربِّه؛ فقالَ لا تُكثروا الأولاد، تُضَيِّقُ عليكُم الأرزاق! كذبوا وربِّ العرش، فإذا أكثرُوا من الأولاد أكثرَ اللهُ مِن رزقهم؛ لأنه ما من دابّة في الأرض إلاَّ على الله رزقها، فرزق أولادك وأطفالك على الله عزَّ وجلَّ؛ هو الذي يفتح لكَ أبواب الرِّزق من أجل أن تنفق عليهم، لكن كثيرٌ

من الناس عندهم سوء ظن بالله، ويعتمدون على الأمور المادية المنظورة، ولا ينظرون إلى المدَى البعيد، وإلى قدرة الله عزَّ وجلَّ، وأنَّه هو الذي يرزق ولو كثُر الأولاد.

أكثِر من الأولاد تكثُر لك الأرزاق، هذا هو الصَّحيح.

وفي هذا دليلٌ ـ أيضًا ـ على أنَّ الإنسان إذا توكل على الله حق التَّوكل فلْيَفعل الأسباب. ولقد ضلَّ من قال لا أفعلُ السَّبب، وأنا متوكِّل؛ فهذا غير صحيح، المتوكِّلُ: هو الذي يفعل الأسبابَ معتمدًا على الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «كَمَا يَرْزُق الطَّيرَ تَغْدُو خِمَاصًا» تذهب لتطلُبَ الرِّزق، ليستْ الطُّيورُ تبقى في أوكارها، ولكنها تغدو وتطلب الرزق.

فأنت إذا توكلتَ على الله حقَّ التَّوكل؛ فلابد أن تفعل الأسباب التي شرعها الله لك من طلب الرِّزق من وجهٍ حلال بالزِّراعة، أو بالتِّجارة، بأيِّ شيءٍ من أسباب الرِّزق، اطلُبِ الرِّزق معتمدًا على الله؛ ييسِّر اللهُ لك الرِّزق.

ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ الطُّيورَ وغيرَها من مخلوفات الله تعرفُ الله؛ كما قال الله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، يعني: ما مِن شيء إلا يسبِّح بحمد الله ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾.

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ [الحج: ١٨].

فالطُّيورُ تعرف خالقها عزَّ وجلَّ، وتطيرُ تطلبُ الرِّزق بما جبلها اللهُ عليه من الفطرة التي تهتدي بها إلى مصَالِحها، وتغدو إلى أوكارها في آخر النَّهار بطونها ملأى، وهكذا دوَاليكَ في كل يوم، والله عزَّ وجلَّ يرزقها ويُيَسِّر لها الرِّزق.

وانظر إلى حكمةِ الله، كيف تغدو هذه الطُّيور إلى محلات بعيدة، وتهتدي بالرُّجوع إلى أماكنها، لا تخطئها؛ لأنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أعطى كل شيء خَلَقه ثم هدَى. والله الموفق.

* * *

٨٠ ـ السَّابعُ: عَنْ أَبِيْ عِمَارَةَ البَراءِ بنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «يَا فُلان، إذَا أَوَيْتَ إلَى فِرَاشِكَ فقُل: اللَّهُمَّ أسْلَمْتُ نَفْسِي إليكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِيْ إلَيْك، وفَوَّضْتُ أمْرِيْ إلَيكَ، وَألَجَأتُ ظَهْرِيْ إلَيْك، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إلَيكَ، لاَ مَلْجَأ ولاَ مَنْجَى مِنْكَ إلاَّ إلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذي أنْزَلتَ، وَبنَبِيِّكَ الذِيْ أرْسَلْتَ، فَإنَّكَ إنْ مِتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ مِتَّ عَلَى الفِطْرَةِ، وَإنْ أَصْبَحْتَ أَصَبْتَ خَيْرًا»[1] مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَفِيْ رِوَايَةٍ فِيْ الصَّحِيْحَيْنِ[2] عَنْ البَرَاءِ قَالَ: قَالَ لِيْ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ «إذَا أتَيْتَ مَضْجِعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوْءَكَ للصَّلاةِ، ثُمَّ اضطَجِعْ علَى شِقِّكَ الأيمَنِ وَقُلْ: وَذَكَرَ نَحْوَهُ، ثُمَّ قَالَ: وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُوْلُ».

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا نام، رقم(٦٣١٣، ٦٣١٥)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم(٢٧١٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب فضل من مات على الوضوء، رقم(٢٤٧)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم(٢٧١٠).

الشرح

ثمَّ ذكر المؤلف ـ في باب اليقين والتوكُّل ـ حديثَ البراءِ بن عازب رضي الله عنهما، حيثُ أوصاهُ النبيُّ ﷺ أن يقولَ عند نومه؛ إذا أوى إلى فِرَاشه؛ أن يقولَ هذا الذِّكر؛ الَّذي يتضمَّنُ تفويض الإنسانِ أمرَه إلى ربِّه، وأنَّه مُعتمد على الله في ظاهره وباطنه، مفوِّضٌ أمره إليه.

وفيه أنَّ النبي ﷺ أمَره أن يضطجع على الجنْبِ الأيمن؛ لأن ذلك هو الأفضل، وقد ذكر الأطباء أنَّ النومَ على الجنب الأيمن أفضل للبدن، وأصحُّ من النَّوم على الجنب الأيسر.

وذكر أيضًا بعض أرباب السُّلوك والاستقامة، أنَّه أقربُ في استيقاظ الإنسان؛ لأنَّ بالنَّوم على الجنب الأيسر ينَامُ القلب، ولا يستيقظ بسرعة، بخلاف النَّومِ على الجنب الأيمن؛ فإنه يبقى القلبُ متعلِّقًا، ويكون أقل عمقًا في منامه فيستيقظ بسرعة.

وفي هذا الحديث: أنَّ النبيَّ ﷺ أمره أن يجعلهن آخر ما يقول، مع أنَّ هناك ذكرًا بل أذكارًا عند النَّوم تقال غير هذه، مثلاً: التَّسبيحُ، والتَّحميد، والتَّكبير، فإنَّه ينبغي للإنسان إذا نام على فراشه أن يقول: سبحانَ الله ثلاثًا وثلاثين، والحمدُ لله ثلاثًا وثلاثين، والله أكبرُ أربعًا وثلاثين، هذا من الذِّكرِ، لكن حديث البراء ـ رضي الله عنه ـ يدلُّ على أنَّ ما أوصاه الرَّسول ﷺ به أن يجعلهن آخر ما يقُول.

وقد أعاد البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ هذا الحديثَ على النبيِّ ﷺ؛ ليتقنه، فقال: **«آمنتُ بِكِتَابِكَ الَّذي أنزلْتَ وَرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»**

فردَّ عليه النبيُّ عليه الصلاة والسلام، وقالَ قُل: «ونَبِيّكَ الَّذي أرْسَلْتَ» ولا تقل: «ورسولك الَّذي أرسَلت».

قال أهلُ العلم: وذلك لأنَّ الرسولَ يكون من البشرِ ويكونُ من الملائكة، كما قال الله عن جبريلَ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠]، وأمَّا النبيُّ ﷺ فلا يكونُ إلا من البشر.

فإذا قال: «وَرَسُولِكَ الَّذي أَرْسَلْتَ» فإنَّ اللفظَ صَالح؛ لأنَّ يكون المرادُ به جبريلُ عليه الصلاة والسلام، لكن إذا قال: «وَنبيّك الذي أرسَلت» اختصَّ بمحمدٍ ﷺ، هذا من وجه. ومن وجه آخر: أنَّه إذا قال: «وَرَسُوْلَكَ الذِي أَرْسَلْتَ» فإنَّ دلالة هذا اللَّفظِ على النُّبوَّةِ من بابِ دلالةِ الالتزام، وأما إذا قال: «نبيك» فإنَّه يدُلُّ على النبوة دلالة مطابقةٍ، ومعلومٌ أنَّ دَلاَلة المطابقةِ أقوى من دلالة الالتزام.

الشَّاهدُ من هذا الحديث قولُه: «وفَوّضْتُ أَمْرِيْ إِلَيْكَ» وقوله: «لا ملْجَأ وَلا مَنْجَا مِنْكَ إلاَّ إليْكَ» فإنَّ التوكُّلَ: تفويضُ الإنسان أمرَهُ إلى ربِّه، وأنه لا يلجأُ ولا يطلب منجا من الله إلاَّ إلى الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه إذا أراد اللهُ بقوم سُوءًا فلا مرَدَّ له، فإذا أراد الله بالإنسانِ شيئًا فلا مرَدَّ لهُ إلا الله عزَّ وجلَّ؛ يعني: إلا أن تلجأ إلى ربِّك ـ سبحانه وتعالى ـ بالرُّجوع إليه.

فينبغي للإنسان إذا أراد النَّوم أن ينام على جنبه الأيمن، وأن يقول هذا الذِّكر، وأن يجعلَهُ آخِرَ ما يقولُ. والله الموفق.

* * *

٨١ ـ الثَّامنُ: عَنْ أَبِيْ بَكْرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَبْدِاللهِ بنِ عثمان بن عَامِرِ بنِ عُمَرَ بنِ كَعْبِ بنِ سَعْدِ بن تيم بن مُرَّةَ بنِ كعب بنِ لُؤَيِّ بن غالب القُرشيّ التَّيميّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ وَهُوَ وَأَبُوْهُ وَأُمُّهُ صَحَابَةٌ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ـ قَالَ: نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ المُشْرِكِيْنَ وَنَحْنُ فِي الغَارِ وهُم على رؤوسِنا فَقُلْتُ: يا رَسُوْلَ الله لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا. فَقَالَ: «ما ظَنُّكَ يَا أَبَابَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثالِثُهُما»(١) متفق عليه.

الشرح

قوله: «مَا ظَنُّكَ يا أَبَابكْرٍ باثْنَينِ اللهُ ثالِثُهُمَا» أي: ما ظنُّك، هل أحدٌ يقدر عليهما أو ينالُهما بِسوء؟

وهذه القِصَّة كانت حينما هاجرَ النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، وذلك أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا جهَرَ بالدعوة، ودعَا الناسَ، وتبعوه، وخاف المشركون، وقاموا ضد دعوته، وضايقوه، وآذوه بالقول وبالفعل، فأذن الله له بالهجرة من مكة إلى المدينة، فهاجر عليه الصَّلاة والسلام على رأسِ ثلاث عشرة سنة من مبعثه، هاجَرَ مِنْ مكة إلى المدينةِ ولم يصحَبْهُ إلا أبُوبَكرٍ رضي الله عنه، والدَّليل، والخادم، فهاجر بأمرِ الله، وصحِبَهُ أبوبكرٍ رضي الله عنه.

ولمَّا سمع المشركون بخروجه من مكَّة؛ جعلوا لمن جاء به مئتي

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ...﴾، رقم(٤٦٦٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم(٢٣٨١).

بعير، ولِمن جاء بأبي بكر مائة بعير، وصار الناس يطلبون الرَّجلين في الجبال، وفي الأوديةِ وفي المغارات، وفي كل مكان، حتى وقفوا على الغار الذي فيه النبي ﷺ وأبوبكر؛ وهو غار ثور الذي اختفيا فيه ثلاثَ ليالٍ؛ حتى يبرد عنهما الطلب، فقال أبوبكر رضي الله عنه: يا رسول الله، لو نظر أحدهم إلى قدميه لأبصَرَنا؛ لأننا في الغار تحته، فقال: «مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهما» وَفي كتاب الله أنَّه قال له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فيكونُ قال الأمرين كلاهما، أي: قال: «ما ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا» وقال ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

فقوله: «ما ظنُّكَ باثنين الله ثالِثُهما» يعني: هل أحدٌ يقدر عليهما بأذية أو غير ذلك؟

والجوابُ: لا أحدَ يقدر؛ لأنَّه لا مانع لِمَا أعْطَى الله ولا معْطي لما منعَ، ولا مذِلَّ لمن أعزَّ ولا معِزّ لمَن أذلَّ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وفي هذه القصَّة: دليلٌ على كمال توكُّل النبي ﷺ على ربه، وأنَّه معتمد عليه، ومفوض إليه أمره، وهذا هو الشَّاهد من وضعِ هذا الحديث في باب اليقين والتوكل.

وفيه دليل على أنَّ قصَّةَ نسج العنكبوت غيرُ صحيحة، فما يوجد في بعض التَّواريخ؛ أنَّ العنكبوت نَسَجَتْ على باب الغار، وأنَّه نبت فيه شجرة، وأنه كان على غصنها حمامة، وأن المُشركين لما جاءوا إلى الغار

قالوا هذا ليس فيه أحد؛ فهذه الحمامة على غُصن شجرة على بابه، وهذه العنكبوت قد عشَّشَت على بابه، كل هذا لا صحَّة له؛ لأنَّ الذي مَنَعَ المشركين من رؤية النبي ﷺ وصاحبه أبي بكر ليست أمورًا حسِّية ـ تكون لهما ولغيرهما ـ بل هي أُمورٌ معنوية، وآية من آيات الله عزَّ وجلَّ، حجب اللهُ أبصارَ المشركين عن رؤية الرَّسول عليه الصلاة والسلام، وصاحبِهِ أبي بكر رضي الله عنه، أما لو كان أمور حسية؛ مثلَ العنكبوت التي نسجت، والحمامة، والشجرة، فكلها أمور حسية، كلٌّ يختفي بها عن غيره، لكنَّ الأمرَ آية من آيات الله عزَّ وجلَّ، فالحاصلُ أنَّ ما يُذكَرُ في كتبِ التاريخ في هذا لا صحة له؛ بل الحقُّ الذي لا شكَّ فيه؛ أنَّ الله ـ تعالى ـ أعمى أعْيُنَ المشركين عن رؤية النبي ﷺ وصاحبه ـ رضي الله عنه ـ في الغار. والله الموفق.

* * *

٨٢ ـ التَّاسِعُ: عَنْ أُمِّ المُؤْمِنِيْنَ أُمِّ سَلَمَةَ، وَاسْمُهَا هِنْدُ بِنْتُ أَبِيْ أُمَيَّةَ حُذَيْفَةَ المَخْزُومِيَّة، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ قَالَ: «بِسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوْذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَو أَظلِمَ أَوْ أُظْلَم، أَوْ أَجْهَلَ أو يُجْهَلَ علَيَّ»[1] حَدِيْثٌ صَحِيْحٌ رَوَاهُ

---

(١) أخرجه أبوداود، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا خرج من بيته، رقم(٥٠٩٤)، والترمذي، كتاب الدعوات، باب منه، رقم(٣٤٢٧)، وابن ماجه، كتاب الدعاء، باب ما يدعو به إذا خرج من بيته، رقم(٣٨٨٤)، والنسائي، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من الضلال، رقم(٥٤٨٦)، والإمام أحمد في المسند (٦/٣٠٦، ٣١٨، ٣٢٢)، قال الترمذي: حسن صحيح. وصحَّحه الألباني كما في صحيح الجامع رقم(٤٧٠٨).

أَبُوداوُد، وَالتِّرْمِذِيّ وَغَيْرُهُمَا بِأَسَانِيْدَ صَحِيْحَةٍ. قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيْثٌ حَسَنٌ صَحِيْحٌ وَهَذَا لَفْظُ أَبِيْ دَاوُدَ.

٨٣ ـ العَاشِرُ: عَنْ أَنَس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ ـ يَعْنِي إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ ـ: بِسْمِ اللهِ تَوَكلتُ عَلَى اللهِ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهِ، يُقَالُ لَهُ: هُدِيْتَ وكُفِيْتَ وَوُقِيْتَ، وتَنَحَّى عَنْه الشَّيطَانُ»[1] رَوَاهُ أَبُودَاوُد وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُم. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيْثٌ حَسَنٌ، زَادَ أَبُودَاوُدَ: «فَيَقُوْلُ: ـ يَعْنِيْ الشَّيْطَانَ ـ لِشَيْطَانٍ آخَرَ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟».

الشرح

الشاهد من هذا الحديث قوله: «بِاسمِ اللهِ توَكَّلتُ عَلَى الله» فإنَّ في هذا دليلاً على أنَّ الإنسان ينبغي له إذا خرَج من بيته؛ أنْ يقولَ هذا الذِّكر؛ الذي منهُ التَّوكُلُ على الله والاعتصام به؛ لأنَّ الإنسانَ إذا خرج من بيته فهو عُرْضَةٌ لأنْ يصيبه شيءٌ، أو يعتدي عليه حيوانٌ؛ من عَقرب أو حيَّة أو ما أشبه ذلك، فيقولَ: «بِسمِ اللهِ تَوكَّلتُ علَى الله» وَسَبَقَ لنا أنَّ التوكلَ على الله، والاعتماد عليه مع الثقة به وحسن الظن.

وقولُهُ: «اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ أن أَضِل» أي: أَضِل في نفسي.

---

(١) أخرجه أبوداود، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا خرج من بيته، رقم(٥٠٩٥)، والترمذي، كتاب الدعوات، باب ما جاء ما يقول إذا خرج من بيته، رقم(٣٤٢٦)، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب. وصحَّحه الألباني كما في صحيح الجامع، رقم(٦٤١٩).

«أوْ أُضَل» أي: يضلني أحد. «أوْ أَزِلَّ» من الزلل: وهو الخطأُ. «أوْ أُزَل» أي: أحدٌ يتوصل لفعلِ الخطأ يصدر مني.

«أوْ أَظْلِم» أي أظلِمَ غيري. «أوْ أُظلَم» يَظْلِمُني غيري.

«أو أَجْهَلَ» أَسْفَهُ. «أوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ» يسفهُ عليَّ أحدٌ، ويَعْتدي علي أحد.

فهذا الذكر ينبغي أن يقوله الإنسان إذا خرج من بيته؛ لما فيه من اللُجوء إلى الله سبحانه وتعالى والاعتصام به. والله الموفق.

* * *

٨ـ باب الاستقامة

قال الله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ـ٣٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤].

الشرح

الاستقامةُ: هي أن يَثْبت الإنسان على شريعةِ الله ـ سبحانه وتعالى ـ كما أمرَ الله، ويتقدّمها الإخلاص لله عزَّ وجلَّ.

ثمَّ ذَكرَ المؤلف عدَّة آيات في هذا، فذكر قولَ الله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ الخطابُ هنا للنبيِّ ﷺ والخطاب المُوجَّه للرَّسول ﷺ يكون له ولأمته، إلا إذا قام دليلٌ على أنّه خاصٌّ به؛ فإنّه يختصُّ به، وأما إذا لم يقمِ الدَّليل على أنه خاصٌ به؛ فإنه له وللأمة.

فمما دل الدليل على أنّه خاص به قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ١ـ٣]، فإنَّ هذا خاصٌّ بالنَّبي ﷺ.

ومثلَ قولـه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾

[الحجر: ٨٧]، هذا أيضًا خاصٌّ بالرسول ﷺ.

وأما إذا لم يقُم الدَّليل على أن الخطاب للخصوصية؛ فهو له ولأمته، وعلى هذه القاعدة يكون قوله: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ عامًّا له ولأُمَّته، كلُّ واحد يجب عليه أن يستقيم كما أمر، فلا يبدِّلْ في دين الله، ولا يزيد فيه ولا ينقص؛ ولهذا قال في آية أخرى: ﴿ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [الشورى: ١٥].

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ... ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٣].

﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ أي: خالِقُنا ومالكُنا ومدبِّرُ أمورنا، فنحنُ نخلص له، ﴿ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ على ذلك؛ أي: على قولهم ربُّنا الله، فقاموا بشريعة الله.

هؤلاء الذين اتَّصفوا بهذين الوصفين: ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ مَلَكًا بَعْدَ مَلَك ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ يعني: أنَّ الملائكة تتنزل عليهم بأمر الله في كل موطن مخوف، ولا سيما عند الموت؛ يقولون لهم: ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ لا تخافوا: فيما تستقبلون من أُمُوركم، ولا تحزنوا على ما مضَى من أُموركم، ﴿ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ والبُشرى هي الإخبار بما يسُرُّ، ولا شكَّ أنَّ الإنسانَ يسُرُّه أن يكون من أهل الجنة، أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم، ﴿ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ لأنَّ كلَّ من قال ربِّي الله، واستقام على دين الله؛ فإنَّه من أهل الجنة، ويقولون لهم أيضًا: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ فالملائكةُ أولياء للذين قالوا ربُّنا الله ثم

استقاموا في الحياة الدُّنيا، تسددهم وتساعدهم وتعينهم، وكذلك في الآخرة تتلقاهم الملائكة يوم البعث والحساب ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيبشروهم بالخيرِ في مقامِ الخَوف والشِّدة.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ «لَكُمْ فِيْهَا» أي: في الآخرة ما تشتهي أنفسكم، وذلك في نعيم الجنة؛ لأنَّ الجنة فيها ما تشتَهيه الأنفس وتلذُّ الأعْينُ.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي: تطلبون، بل لهم فوق ذلك: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، لهم زيادة على ما يدعونه ويطلبونه ويتمنَّونه.

﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ يعني: أنَّ الجنة نزُلٌ لهم وضيافة من غفور رحيم.

﴿غَفُوْرٍ﴾ غفر لهم سيِّئاتهم ﴿رَحِيْمٍ﴾ بهم، رفع لهم درجاتهم، هذا جزاءُ الذين يقولون ربنا الله ثم يستقيمون.

وفي هَذا دليل على أهمية الاستقامة على دين الله، بأن يكون الإنسان ثابتًا لا يزيدُ، ولا ينقص، ولا يبدِّل، ولا يغير، فأمَّا من غلا في دين الله، أو جَفَا عنه، أو بدَّل فإنه لم يكن مستقيمًا على شريعة الله عزَّ وجلَّ، والاستقامة لابُدَّ لها من الاعتدال في كلِّ شيء؛ حتى يكونَ الإنسان مستقيمًا على شريعة الله عزَّ وجلَّ.

* * *

٨٥ ـ وَعَنْ أَبِيْ عَمْرٍو، وَقِيْلَ: أَبِيْ عَمْرَةَ سُفْيَانَ بنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُوْلَ اللهِ قُلْ لِيَ فِي الإِسْلامِ قَوْلاً لاَ أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ؟ قَالَ: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ»(١) رَوَاه مُسْلِم.

الشرح

قولُه: «قُلْ لِيْ فِي الإِسْلاَمِ قَوْلاً لاَ أَسْأَلُ عَنهُ أَحَدًا غَيْرَكَ» أي: قل لي قولاً لا أسأل عنه أحدًا غيركَ؛ فيكونُ فصلاً وحاسِمًا، ولا يحتاج إلى سؤال أحد، فقال له النبي ﷺ: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ».

فقوله عليه الصلاة والسلام: «قُلْ: آمنْتُ» ليس المرادُ بذلك مجردُ القول باللِّسان، فإنَّ من الناس من يقولُ: آمنتُ بالله وباليوم الآخر، وما هم بمؤمنين.

ولكنَّ المرادَ بذلك قولُ القلب واللِّسان أيضًا.

أي: أن يقول الإنسان بلسانه، بعد أن يُقِرَّ ذلك في قلبه، ويعتقِده اعتقادًا جازمًا لا شكَّ فيه، لأنَّه لا يكفي الإيمان بالقلب، ولا الإيمان باللِّسان، لابد من الإيمان بالقلب واللِّسان، ولهذا كان النبي عليه الصلاة والسلام ـ يقول وهو يدعو النَّاس إلى الإسلام ـ يقول: «يَا أَيُّهَا النَّاس قُولُوا لاَ إِلهَ إلاَّ الله تُفْلِحوا»(٢) فَقَالَ: «قُوْلُوا» أي: بألسِنتكم. كما أنَّه لابد من القول بالقلب.

وقولُه: «آمَنْتُ بِالله» يشمل الإيمان بوجود الله عزَّ وجلَّ، وبِرُبُوبيته، وبألوهيته، وبأسمائه وصفاته، وبأحكامه، وبأخباره، وكُلِّ ما يأتي من

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، رقم(٣٨).

(٢) أخرجه ابن خزيمة، رقم(١٥٩)، والبيهقي (١/٧٦)، والحاكم في المستدرك (٢/٦١٢) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال الذهبي: صحيح.

قبَلِه ـ عزَّ وجلَّ ـ تؤمن به، فإذا آمنت بذلك فاستقم على دين الله، ولا تحد عنه لا يمينًا ولا شمالاً، لا تقصر ولا تزد.

فاستقِم على الدين، واستقِم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ وذلك بالإخلاصِ لله عزَّ وجلَّ، والمُتابعةِ لرسوله ﷺ، واستقم على الصَّلاة، وعلى الزكاة، والصِّيام والحج، وعلى جميع شريعة الله.

وقوله: «قُلْ آمَنْتُ بِالله ثُمَّ» دليلٌ على أنَّ الاستقامة لا تكون إلا بعد الإيمان، وأنَّ من شرط الأعمال الصالحة؛ أي: مِنْ شرط صحتها وقبولها أن تكون مبنيةً على الإيمان، فلو أنَّ الإنسان عمل بظاهره على ما ينبغي، ولكنَّ باطنه خرابٌ، وفي شكٍّ، أو في اضطراب، أو في إنكار وتكذيب؛ فإنَّ ذلك لا ينفعُهُ؛ ولهذا اتفق العلماء ـ رحمهم الله ـ على أنَّ مِنْ شُروطِ صِحَّةِ العبادةِ وقبولها؛ أن يكون الإنسان مُؤمنًا بالله؛ أي: معترِفًا به، وبجميع ما جاء من قِبله تبارك وتعالى.

ويُستفاد من هذا الحديث: أنَّه ينبغي للإنسان ـ إذا قام بعملٍ ـ أن يَشْعُر بأنَّه قام به لله، وأنَّه يقوم به بالله، وأنَّه يقوم به في الله، لأنَّه لا يستقيم على دين الله إلاَّ بعد الإيمان بالله عزَّ وجلَّ.

فَيَشْعرُ بأنَّه يقوم به لله؛ أي مُخلصًا، وبالله؛ أي مستعينًا، وفي الله؛ أي متبعًا لِشَرْعه، وهذه مُسْتَفَادة من قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ فالأول: قيامٌ لله، والثاني: قيامٌ به، والثالث: قيامٌ فيه؛ أيْ: في شرعه؛ ولهذا نقولُ: إنَّ المراد بالصِّراط المستقيم ـ في الآية الكريمة ـ هو شرعُ الله عزَّ وجلَّ

الموصلُ إليه. والله الموفق.

* * *

٨٦ ـ وَعَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «قَارِبُوا وَسَدِّدُوا، وَاعْلَمُوا أنَّه لَنْ يَنْجُوَ أحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِه» قَالُوْا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُوْلَ اللهِ؟ قَالَ: «وَلاَ أَنَا إلاَّ أنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْه وَفَضْلٍ»[١] رَوَاهُ مُسْلم.

وَ«المُقارَبة» القصْدُ الَّذي لا غُلُوَّ فيه ولا تقصير. و«السَّدادُ»: الاستقامةُ والإصابةُ، و«يَتَغَمَّدني» يُلْبِسَنِي وَيَسْتُرَنِي.

قَالَ العُلْمَاءَ: مَعْنَى الاسْتِقَامَةِ: لُزُوْمُ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى؛ قَالُوا: وَهِيَ مِنْ جَوَامِعِ الكَلِمِ، وَهِيَ نِظَامُ الأمُورِ، وَبِاللهِ التَّوْفِيْقُ.

الشرح

هذا الحديث يَدلُّ على أنَّ الاستقامة على حسب الاستطاعة، وهو قول النبي ﷺ «قَارِبُوا وَسَدِّدُوا» أي: قاربوا ما أمرتم به، واحرصوا على أن تقرُبوا منه بِقدر المُسْتَطَاع.

وقوله: «سَدِّدُوا» أي: سدِّدُوا على الإصابة؛ أي: احْرِصُوا على أن تكون أعمالكم مُصيبةً للحق بقدر المُسْتطاع؛ وذلك لأنَّ الإنسان مهما بلغ من التقوى؛ فإنه لابُدَّ أن يخطىءَ، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «كُلُّ بَنِيْ آدَمَ خَطَّاءٌ، وخَيْرُ الخَطَّائيْنَ التوَّابون»[٢]، وقال عليه الصَّلاة

(١) أخرجه مسلم، كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم(٢٨١٦).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة، رقم(٢٤٩٩)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب =

والسَّلام: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُوْنَ فَيَسْتَغْفِرُوْنَ اللهَ فَيَغْفِرِ لَهم»(١).

فالإنسانُ مأمورٌ أن يُقارب ويُسدد بقدر ما يستطيع.

ثم قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «واعْلَمُوا أنَّه لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنكُمْ بِعَمَلِه» أي: لن ينجوَ من النَّارِ بعمله. وذلكَ لأنَّ العملَ لا يبلغُ مَا يجِبُ لله ـ عزَّ وجلَّ ـ منَ الشُّكر، وما يجِبُ له على عباده من الحقوق، ولكن يتغمد الله ـ سبحانه وتعالى ـ العبدَ برحمته فيغفرُ لهُ.

فلمَّا قال «لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنكُمْ بِعَمَلِهِ» قالوا له: ولا أنتَ؟! قال: «وَلاَ أَنَا» حتى النبيُّ عليه الصلاة والسلام لن ينجو بعمله «إلا أن يتغمدني الله برحمة منه».

فدلَّ ذلك على أنَّ الإنسانَ مهما بلغ من المرتبة والولاية؛ فإنه لن ينجوَ بعمَله، حتى النبيُّ عليه الصَّلاة والسلام، لو لا أنَّ الله مَنَّ عليهِ بأنْ غفر له ذنبه ما تقدم منه وما تأخر، ما أنْجاه عمله.

فإنْ قال قائل: هناك نُصُوص من الكتاب والسُّنة تدلُّ على أن العمل الصَّالحَ ينجي من النَّارِ ويُدخلُ الجنة؛ مثل قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، فكيفَ يُجمعُ بين هذا وبين الحديث السابق؟

= ذكر التوبة، رقم(٤٢٥١)، وأحمد في المسند (١٩٨/٣). قال الترمذي: غريب. وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم(٤٥١٥).

(١) أخرجه مسلم، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار والتوبة، رقم(٢٧٤٩).

والجواب عن ذلك: أن يُقال: يُجمع بينهما بأن المنفيَّ دخولُ الإنسانِ الجنةَ بالعملِ في المقابلة، أمَّا المُثبَتُ: فهو أنَّ العمل سبب وليس عوضًا.

فالعمل ـ لا شكَّ ـ أنَّه سَبَب لدخول الجنَّة والنَّجاة من النَّار، لكنهُ ليس هو العوض، وليس وحده الذي يدخل به الإنسانُ الجنة، ولكنْ فَضْلُ اللهِ ورحمته هما السَّبب في دخول الجنة، وهما اللذان يوصلان الإنسانَ إلى الجنة وينجيانه من النار.

وفي هذا الحديث من الفوائد: أنَّ الإنسان لا يعجب بعمله، مهما عملت من الأعمال الصالحة لا تُعْجَبْ بعملك، فعملُكَ قليل بالنسبة لحق الله عليك.

وفيه أيضًا من الفوائد: أنَّه ينبغي على الإنسان أن يُكثر من ذكر الله دائمًا، ومن السُّؤال بأن يتغمَّده الله برحمته، فأكثِر من ذلك، وقل دائمًا: «اللَّهم تغمدني برحمةٍ منك وفضل» لأنَّ عَملك لن يوصلك إلى مرضاة الله؛ إلاَّ برحمة الله عزَّ وجلَّ.

وفيه دليلٌ على حِرص الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ على العلم؛ ولهذا لمَّا قال: «لنْ يَنْجُو أَحَدٌ مِنكُمْ بِعَمَلِهِ» استفصلوا؛ هل هذا العمومُ شامِل له أم لا؟ فبيَّن لهم ﷺ أنَّه شامل له.

ومِن تدبَّر أحوال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ مع النبي ﷺ. وُجد أنَّهم أحْرَصُ الناس على العلم، وأنهم لا يتركون شيئًا يحتاجون إليه في أُمُور دينهم ودُنياهم إلا ابتدروه وسألوا عنه. والله الموفق.

* * *

٩ـ باب التفكُّر في عظيم مخلوقاتِ الله تعالى وفناء الدنيا وأهوال الآخرة وسائر أمورهما وتقصير النفس وتهذيبها وحملها على الاستقامة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾ [سبأ: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ۝٢٠ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢١]، وقال تعالى: ﴿۞أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾ [محمد: ١٠]، والآيات في الباب كثيرةٌ.

ومن الأحاديث الحديثِ السَّابق: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَه».

الشرح

التَّفكُّر: هو أنَّ الإنسان يُعملُ فكره في الأمر، حتى يصل فيه إلى نتيجة، وقد أمرَ الله ـ تعالى ـ به ـ أي بالتفكر ـ وحثَّ عليه في كتابه، لِمَا يتوصل إليه الإنسان به من المَطَالب العَالية والإيمان واليقين.

قال الله تعالى: ﴿۞قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ قل يا محمد للناس جميعًا: مَا أَعِظُكُمْ إلاَّ بواحدة؛ أي: ما أقدِّم لكم موعظة إلا بواحدة فقط،

إذا قمتم بها أدركتم المطلوب، ونجوتم من المرهوب؛ وهي: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾.

﴿تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ أي: مخلصين له، فتقومون بطاعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على الوجه الذي أُمِرْتم به، مخلصين له، ثم بعد ذلك تتفكَّروا، فإذا فعلتم ذلك فهذه موعظة؛ وأيُّ مَوْعِظة.

وفي هذه الآية إشارةٌ إلى أنَّه ينبغي للإنسان إذا قام لله بعمل؛ أن يتفكَّر ماذا فعل في هذا العمل: هل قام به على الوَجْه المطلوب، وهل قصَّر، وهل زَادَ، وماذا حصَلَ لَهُ من هذا العمل من طهارة القلب، وزكَاءِ النَّفس، وغير ذلك.

لا يَكُن كالذي يُؤدِّي أعماله الصَّالحة وكأنها عَادَات يَفعلها كلَّ يوم، بل تُفكِّر، ماذا حصل لك من هذه العِبَادة، وماذا أثَّرَتْ على قلبك وعلى استقامتك.

ولَنضْرِب لهذا مثلاً بالصَّلاة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فلنفكِّر، هل نحن إذا صلَّينا زِدْنا طاقةً وقوةً ونشاطًا على الأعمال الصَّالحة، حتى تكون الصَّلاة مُعِينَةً لنا؟

الواقع أن هذا لا يكون إلاَّ نادرًا باعتبار الإنسان نفسه، ونادرًا باعتبار أفراد الناس، فانظر ماذا حدث لك من الصلاة، هل صارت مُعينةً لك على طاعة الله تعالى، وعلى المصائب، وعلى غيرها.

كما يُذْكرُ عن النَّبي عليه الصَّلاةُ والسَّلام «أنَّه كَانَ إذَا حَزَبَهُ أمْرٌ فَزِعَ إلى

الصَّلاة»[1]، أيْ: إذا أهمَّه وأغَمَّه فَزِعَ إلى الصَّلاة.

كذلك قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فانظر في صلاتك، هل أنت إذا صلَّيت وجدت في نفسك كراهةً للفحشاء، وكراهة المنكر، وكراهة المعاصي، أو أنَّ الصَّلاة لا تفيدك في هذا؟

إذا عرفْتَ هذه الأمور؛ عَرَفْتَ نتائج هذه الأعمال الصَّالحة، وكنت مُتَّعِظًا بما وَعَظَك به النَّبي ﷺ.

ومثالٌ آخر في الزكاة، وهي: المالُ الواجبُ في الأموال الزَّكوية؛ يصرفه الإنسانُ في الجهات التي أمر الله بها، وقد بيَّن الله فوائدها، وقد قال الله لرسوله ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، فإذا أدَّيْتَ الزكاة فانظر هل طَهَّرَتْكَ هذه الزكاة من الأخلاق الرَّذيلة، هل طهرتك من الذُّنوب، وهل زكَّت مَالك؟ هل زكَّت نفسك؟!

كثيرٌ من الناس يُؤَدِّي الزَّكاة وكأنها غُرْمٌ، يُؤَدِّيه وهو كَارِهٌ ـ نسأل الله العافية ـ يؤديها وهو لا يشْعر بأنها تطهِّره، ولا بأنها تُزَكِّي نفسَهُ. وعلى هذا بقية الأعمال، قم لله ثمَّ تفكر ماذا حصل.

فهذه موعظةٌ عظيمة إذا اتَّعَظ الإنسان بها؛ نَفَعَتْهُ وصَلحت أحْوالُه، نَسْأل الله أن يُصلحَ لنا الأعمال والأحوال.

ثمَّ ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ

---

(١) تقدم تخريجه ص (١٨١).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ . . . ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

هذه الآيةُ هي أولُ الآيات العَشر التي كان النبي ﷺ يقرؤها كلما استيقظ من صلاة الليل[١].

فينبغي للإنسان إذا استيقظ من صلاة اللَّيل أن يقرأ من هذه الآية إلى آخر سورة آل عمران: (العشر الأخيرة من سورة آل عمران).

قوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني في خلقهما من حيثُ الحَجْمُ، والكبرُ، والعظمةُ، وغيرُ ذلك مما أَوْدَعَ الله فيهما. في هذا الخلق آيات، ففي النُّجوم آيةٌ من آيات الله، وفي الشَّمس آية من آيات الله، وكذا القمر، آيات من آيات الله، وكذا الأشجار والبحار والأنهار، وفي كلِّ ما خَلَقَ الله في السَّماوات والأرض آياتٌ عظيمة، تَدُلُّ على كمال وحدانيته جلَّ وعلا، وعلى كمال قدرته، وعَلى كَمال رَحْمَته، وعلى كمال حِكمتِه، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وجَمَعَ السَّمواتِ وأَفْرَدَ الأرضَ؛ لأنَّ السَّماوات سَبْع كما ذكره الله في عِدَّة آيات ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦].

أما الأرضُ، فإنَّ الله تعالى لم يذكرها في القرآن إلاَّ مُفْردة، لأنَّ المرادَ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾، رقم(٤٥٦٩)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم(٧٦٣).

بها الجِنْسُ الشَّاملُ لجميع الأرضين، وقد أشار الله في سورة الطلاق إلى أن الأرْضين سبْع، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، أي: مثلُهُنَّ في العدد، وليس مثلهن في الخلقة والعِظم، بل السَّماوات أعظمُ من الأرض بكثير، لكنهن مثل السَّماوات في العدد، وقد جاءت السنة صريحة في ذلك؛ مثل قول النبي عليه الصلاة والسلام: «من اقْتَطع شِبرًا مِن الأرْضِ ظُلْمًا طوَّقَهُ اللهُ إياهُ يَوْمَ القِيامة مِن سَبْعِ أرَضِيْن»(١).

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ يكون من وُجوهٍ متعددة:

أولًا: من جِهَة أنَّ اللَّيلَ مُظْلم والنَّهارَ مُضيء، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

ثانيًا: اختلافُهُما في الطُّول والقِصر، أحيانًا يَطُول اللَّيل، وأحْيانًا يَطول النَّهار، وأحيانًا يَتَساوَيان، كما قال الله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١]، أي: يُدخِلُ هذا في هذا مرّة فيأخذ منه، وهذا في هذا مرة فيأخذ منه، هذا من اختلاف الليل والنهار.

ثالثًا: ومن اختلاف الليل والنهار اختلافُهُما في الحَرِّ والبُرودة، تارةً يكون الجوُّ باردًا، وتارة حارًّا.

رابعًا: ومن اختلافهما أيضًا، الخصب والجَدْب، تارة تكون الدُّنيا

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين، رقم(٣١٩٨)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم(١٦١٠).

جدبًا وقَحْطًا وسنينَ، وتارةً تكونُ خصبةً وَرَبِيعًا ورَخاءً.

خامسًا: ومن اختلافِ الليل والنهار اختلافُهُما في الحرب والسِّلم، تارة تكون حَرْبًا، وتارة تكون سِلْمًا، وتارة تكون عِزًا، وتارة تكون ذِلَّة، كما قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ومَنْ تأمل اختلافَ اللَّيل والنَّهار وَجَدَ فيهما من آيات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ما يَبْهر العُقُول.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَآيَٰتٍ﴾ أي: علاماتٍ واضحاتٍ على وَحْدانية الله، وكمال قدرته وعزته وعلمه ورحمته، وغير ذلك من آياته.

وقوله: ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: لأصحاب الألبابِ، والألبابُ جمع لُبّ: وهو العقل، وأُولوا الألباب: هُم أصحاب العُقول. وذلك لأنَّ العقل لُبٌّ، والإنسانُ بلا عقل قُشورٌ بلا لب، فالأصلُ في الإنسان هو العقل؛ فلهذا سُميَ لُبًّا، وأما إنسانٌ بلا عقل فإنَّه قُشور.

ولكن ما المراد بالعقل؟ هل المراد بالعقل الذَّكاء؟

الجواب: لا، الذَّكاء شيء والعقل شيء آخر، رُبَّ ذَكِي نَابغ في ذَكَائِهِ لكنه مجنون في تصرفاته، فالعقل في الحقيقة هو ما يَعْقل صاحبه عن سُوء التَّصرف، هذا العقل. وإن لم يكن ذكيًا، فإذا منَّ الله على الإنسانِ بالذِّكاء والعقل تمت عليه النِّعمة، وقد يكون الإنسان ذكيًا وليس بعاقل، أو عاقلاً وليس بذكي.

جميعُ الكفار ـ وإن كانوا أذكياء ـ فإنَّهم ليسوا عُقَلاءَ، كما قال الله: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

كل إنسان يتصرَّف تَصَرُّفًا سيئًا فليس بعاقل، فأولوا الألباب هم أُولُو العُقول الذين يتفكَّرون في خلق السَّموات والأرض، وينظرون في الآيات، ويعتبرون بها، ويَسْتَدِلُّونَ بها على من هي آيات له، هؤلاء هم أصحاب العُقول، وهم أصْحاب الألباب، فاحرص يا أخي على أن تتفكَّر في خلق السَّموات والأرض، وأن تتدبَّر ما فيهما من الآيات، وكذلك في الأيام والليالي، وكيف تتغير الأحوالُ، وكيف تنقلب من حالٍ إلى حالٍ، وكلُّ ذلك بيد الله عزَّ وجلَّ، وكل ذلك من آياته.

ثم قال تعالى، في وصف أولي الألباب ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩١]، أي: يذكرون الله في كلِّ حال؛ قيامًا وقعودًا وعلى جُنوبهم.

وذِكْرُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ نوعان: نوعٌ مطلَقٌ في كل وقت، وهو الذي يُشرَعُ للإنسان دائمًا، أوْصَىٰ النبي ﷺ رجلاً قال له: إنَّ شَرَائع الإسلام كثُرت عليَّ، وإني كبير فأوصِني. فقال: «**لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ الله**»[1].

وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ كانَ النبيُّ ﷺ يذكر الله على كل أحْيانه؛ أي في كل حينٍ، فَذِكْرُ الله هنا مُطْلَق لا يتقيّد بعدد، بل هو إلى

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الذكر، رقم(٣٣٧٥)، وابن ماجه، كتاب الأدب، باب فضل الذكر، رقم(٣٧٩٣)، وأحمد في المسند (٤/١٨٨، ١٩٠)، والحاكم في المستدرك (١/٣٩٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال الذهبي: صحيح.

الإنسانِ على حسب نشاطه.

والنَّوعُ الثاني: ذكرٌ مُقَيَّد بعدد، أو في حال من الأحوال، وهو كثير: منها أذكار الصلوات في الرُّكوع، والسُّجود، وبعد السَّلام، وأذكارُ الدُّخول للمنزل، والخروج مِنْهُ، وأذكارُ الدخول للمسجد والخروج منه، وأذكار النوم والاستيقاظ وأذكارُ الركوب على الدَّابة، وأشياء كثيرة شرعها الله - عزَّ وجلَّ - لعباده؛ من أجل أن يكونوا دَائِمًا على ذكر الله عزَّ وجلَّ، فالمهمُّ أنَّ الله شَرَعَ لِعبَاده من الأذكَار ما يجعلُهُم إذا حافظوا عليها يذكرون الله؛ قيامًا وقُعُودًا وعلى جنوبهم.

واعلَمْ أنَّ الذِّكر أيضًا يكون على وجهين: ذكرٌ تامٌّ: وهو ما تواطأَ عليه القلب واللِّسان.

وذِكرٌ ناقصٌ: وهو ما كان باللِّسانِ مع غفلة القلب، وأكثرُ الناس - نسأل الله أن يُعَامِلْنا جميعاً بِعفوه - عندهم ذكر الله باللسان مع غفلة القلب، فتجده يذكُرُ الله وقلبه يذهبُ يمينًا وشمالاً؛ في دكانه وسَيَّارته وفي بَيْعِه وشِرَائه.

لكن هو مأجور على كلِّ حال، ولكنَّ الذِّكر التَّامَ هو الذي يكون ذكرًا لله باللِّسان وبالقلب. يعني أنك تذكرُ الله بلسانك، وتذكر الله بقلبك، فأحيانًا يكون الذِّكر بالقلب أنْفعَ للعبد من الذكر المجرَّد، إذا تفكَّر الإنسانُ في نفسه وقلبه؛ في آيات الله الكونية والشَّرعية، بقدر ما يستطيع؛ حَصَلَ على خير كثير.

قال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقولونَ: ﴿رَبَّنَا مَا

خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ يتفكرون في خلق السَّماوات والأرض، لماذا خُلِقت؟ وكيف خُلِقت؟ وما أشْبَه ذلك، ثمَّ يقولون بقلوبهم وألسنتهم ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ أي: لابد أن يكون لِخلقِ السماوات والأرض غايةٌ محمودةٌ؛ يُحمَدُ الربُّ عليها عزَّ وجلَّ، ليس خلقُ السَّماوات والأرض باطلاً؛ خُلِقَتْ ليوجد النَّاس يأكلون ويشربون ويتمتعون كما تتمتع الأنعام! لا، بل هي مخلوقةٌ لغرض عظيم.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ فالذين يظنون خلق السموات والأرض باطلاً؛ هم أصحاب النَّار، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص: ٢٧].

فكلُّ من ظنَّ أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ خَلَق هذه الخليقة لتوجَدَ وتَفْنى فقط ـ بدون أن يكون هناك غاية ومَرْجع ـ فإنَّه من الذين كفروا ﴿ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾.

فالنَّاسُ لابد أن يَمُوتوا، ولابد أن يُحاسبوا، ولابد أن يُبعثوا، ولابد أن يؤُولوا إلى دارين لا ثالث لهما؛ إمَّا الجنة وإما إلى النار، نسألُ الله أن يجعلنا وإيَّاكم من أهل الجنة، وأن يُعيذنا من النَّار.

وقوله: ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ أي: تنزيهًا لك أن تخلُقَ هذه السَّماوات والأرض باطلاً.

﴿ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ فيتوسلون إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بما يثنون عليه من صفات الكمال؛ أن يقيهم عذاب النَّار، والوقاية من عذاب النار تكون بأمرين:

الأمرُ الأولُ: أن يَعْصِمك الله من الذُّنوب؛ لأنَّ الذنوب هي سببُ دخول النار.

الأمر الثاني: أن يمنَّ الله عليك إذا عصيت بالتَّوبة والإقلاع؛ لأنَّ الإنسان بشر لابد أن يعصي، ولكنَّ بابَ التَّوبة مفتوح ولله الحمد، قال الله: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: ٥٣].

مهما عَمِلتَ من المعاصي، إذا رجعت إلى الله، وتُبْتَ؛ تاب الله عليك، ولكن إن كانت المعصية تتعلَّق بآدمي؛ فلابد من الاستبراء من حقه، إمَّا بوفائه أوْ باستحلاله منه؛ لأنَّه حق آدمي لا يغفر، فحق الله يغفره مهما عظم، وحق الآدمي لابدَّ أنْ تستبرأ منه إما بإبراء أو أداء، بخلاف حقّ الله.

ومع هذا، لو فُرض أنكَ لم تُدْرِك صَاحِبك ولم تعرفه، أو لم تتمكن من وفائها، لأنها دَرَاهمُ كثيرة، وليس عندك وفاءٌ، وعَلِمَ الله من نِيَّتِك أنك صَادِق في توبتك؛ فإن الله يتحمل عنك يوم القيامة ويرضي صاحبك.

وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧، ٢٠].

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾ هذا من باب الحَث على النَّظر في هذه الأمور الأربعة:

الأول: ﴿ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ فتتأملُ كيف خلقها الله على هذا الجسم الكبير؛ المتحمل لحمل الأثقال، كما قال تعالى: ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ﴾ [النحل: ٧].

هذه الإبل الكبيرة الأجسام القوية؛ ذَلَّلها الله لعباده؛ حتى كان الصَّبيُّ يقودها إلى ما يُريد، مع أنها لو عتت ما اسْتَطاع الناسُ أن يدركوها، ولهذا كان من المَشْروع أن يقول الإنسان إذا اسْتَوَىٰ على ظهرها راكبًا ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾ [الزخرف: ١٣]، أي: مُطِيقين؛ لأنَّ قرين الإنسان مَن كان على مِثْله وعلى شاكلته، فمعنى المقرن يعني المطيق، أي لسنا مُطِيقين لها لولا أن سخَّرها الله عزَّ وجلَّ، سخرها الله لعباده؛ فمنها ركوبهم ومنها يأكلون، منها ما يُركب ويُحمل عليه، ويكون ممرنا على ذلك، ومنها ما يؤكل: يأكله الناس وينتفعون به، وكذلك أيضًا: ولهم فيها منافع ومشارب: فيتخذون من جُلُودها بيوتًا، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين، إلى غير ذلك من الآيات العظيمة التي تحملها هذه الإبل.

الثاني: ﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ هذه السَّماء العظيمة، رفعها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ رفعًا عظيمًا باهرًا لا يستطيع أن يَناله أحد من الخلق، حتى الجنُّ على قوتهم يقولون: ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ [الجن: ٩]، ويقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وفي هذه السَّموات العظيمة، كيف رَفعها الله تعالى بغير عَمَد؟ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ﴾ [الرعد: ٢]، أي: ترونها مرفوعة بغير عمد فاعتبروا بها.

وفي هذه السَّموات من آيات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الشَّيءُ الكثير، فهي

رُفعت هذا الرَّفعَ العظيم، وفيما بينها وبين الأرض آيات عظيمة من الأفلاك، والنُّجوم، والشمس، والقمر، والرياح، والسحب، وغير ذلك من آيات الله.

الثالثُ: ﴿وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ﴾ هذه الجبال الصُّم العظيمة الكبيرة، لو أنَّ الخلق اجتمعوا كلهم بقواهم ما كونوا مثلها.

الآن تجد المُعِدات الكبيرة إذا أرَادُوا أن يَرْدِمُوا شيئًا لا يردمون إلا شيئًا، يسيرًا مع المشقة الشديدة.

هذه الجبال الصُّم يجب أن نتفكَّر فيها؛ كيف نَصَبَها الله عزَّ وجلَّ؟

نَصَبَها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على حكمة عظيمة؛ لأنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ يجعل في هذه الجبال التي نصبها مصالح عظيمة وكبيرة، منها أنها رَوَاسِيَ ترْسِي الأرض وتمسكها عن الاضطراب، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ [لقمان: ١٠]، أي أن تضطرب، فلولا أنَّ الله رسَاها بهذه الجبال؛ لكانت مضطربة كالسَّفينة على ظهر الماء في شدة الأمواج، ولكنَّ الله جَعَلَها بهذه الجبال سَاكنةً قارة، لا تضطرب ولا تميد بأهلها.

هذه الجبال أيضًا تقي من رياح شديدة عاصفة في بعض الأماكن، وتقي أيضًا من بُرُودة عظيمة تأتي من ناحية القطب، وتقي أيضًا من حرارة شَدِيدة.

وكذلك في سفوحِها آيةٌ من آيات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من النَّبات، والأوْدية، والمعادن شيءٌ عظيمٌ كثيرٌ، فلهذا قال: ﴿وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ﴾.

الرابع: ﴿وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ فجعلها الله سطحًا، وسَخَّرها للعباد، وجعلها ذلولاً مُذلَّلة، بحيث لم تكن تربتها ليِّنة جدًّا لا يستقرون

عليها، ولا صَلْبة جدًّا لا ينتفعون منها، بل جعلها ـ سبحانه وتعالى ـ رخوة مسطحة مَبْسُوطة، حتى ينتفع الناس على سطحها بما يَسَّر الله ـ سبحانه وتعالى ـ لهم من الأسْباب النَّافعة.

وهذه الأرْض المسطحة هي أيضًا كروية؛ أي أنها شبهُ الكرة، مُسْتَديرة من كل جانب، إلا أنَّها مفلطَحَةٌ من النَّاحية الشمالية والجنوبية؛ من ناحية القطبين الشمالي والجنوبي.

ولذلكَ لو أنَّ أحدًا من الناس ركَب طَائرةً متجهًا إلى المغرب ـ على خط مستقيم ـ لكان يخرُجُ إلى المكان الذي أقلعت منه الطائرة، وهذا يدلُّ على أنها مُسْتديرة؛ لأنَّ الإنسان يَصِلُ طرَفَهَا بطرَفِهَا.

ويدلُّ على هذا قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١ ـ ٤]، وهذا يكون يومَ القيامة، فقوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾ يدلُّ على أنها الآن ليست مَمْدُودة، لكنها مَسْطُوحة؛ يعني أنَّها كالسَّطح؛ لأنها لكبر جرمها لا يتبين فيها الانحناء الذي يكون في الكُرة، فهذه الأشياء الأربعة: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ يَحُثُّنا الله عزَّ وجلَّ بالنَّظر فيها بعين البَصَر، وعين البصيرة؛ بعين البصر الذي هو الإدراك الحسيّ ويمين البصيرة التي هي الإدراك العقلي، حتى نستدلَّ بها على ما تدلُّ عليه من آيات الله من قُدْرةٍ وَعِلْم وَرَحمة وحكمة وغير ذلك.

وقولُه: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾ ولم يكمل المؤلف الآية،

لأنَّ هذا وَرَدَ في عِدَّة آيات من كتاب الله، ففي عِدَّةِ آيات يَحُثُّ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ عباده إلى أن يَسيروا في الأرض؛ فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم.

ومنها قوله تعالى في سورة القتال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠]، فأمَرَ الله بالسَّير والسير ينقسم إلى قسمين.

سيرٌ بالقدم، وسَيْرٌ بالقَلْب.

١ ـ **أمَّا السَّير بالقدم**: بأن يَسير الإنسان في الأرض على أقدامه، أو على راحلته، مِن بعيرٍ أو سَيَّارة، أو طائرة، أو غيرها، حتى ينظرَ ماذا حصل للكافرين، وماذا كانت حال الكافرين.

٢ـ **وأمَّا السَّير بالقلب**: فهذا يكونُ بالتأمل وبالتَّفكر فيما نُقِل من أخبارهم.

وأصح كتاب، وأصْدَق كتاب، وأنفع كتاب، نقَلَ أخبار الأوَّلين كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

والقرآنُ مملوءٌ من أخبار الأولين المكذبين للرسل، والمُؤَيَّدين للرسل، وبيَّن الله عاقبة هؤلاء وهؤلاء.

ولهذا ينبغي للإنسان أن يَقْرأ الآيات التي فيها أخبارُ من سبق، وأن يسأل عن معناها ويستفسر؛ حتى يكون على بصيرة من الأمر، وكذلك أيضًا ما جاءت به السُّنة من أخبار الماضين؛ فإنها جاءت بالأحاديث الكثيرة النَّافعة، وهي إذا صَحَّت عن النبي عليه الصلاة والسلام؛ فإنها

أصدقُ منقولٍ من الأخبار.

ثم بعد ذلك ما نقله المُؤَرِّخون، ولكنْ يجب أن تكون مما نقله المؤرخون على حذر؛ لأنَّ غالب كتب التَّاريخ ليس لها أصل وليس لها إسناد. وإنما هي أخبارٌ تتناقل بين النَّاس، فيجب الحذر كلَّ الحذر منها، وأن يحرِصَ الإنسانُ على أن يتتبعها بِرِفق، ثمَّ هذه الأخبار الواردة في غير الكتاب والسُّنة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسمُ الأول: ما شَهِد شَرعُنا ببطلانه؛ فهذا يجب رده وبيان خطئه وكذبه حتى يكون النَّاس منه على بَصيرة.

القسم الثاني: ما أيده القرآن والسُّنة؛ فهذا يُقبل بِشَهادة القرآن والسُّنة له بالصَّحة.

القسم الثَّالث: ما لم يؤيِّدْهُ القرآن ولا السُّنة: فهذا يُتوقَّف فيه؛ لأنَّ الأُممَ السَّابقةَ ليس بيننا وبينهم إسناد مُتَّصل حتى يمكن أن نعرف صحة ما نقل عنهم. ولكنه يُنقل، وتكون أخبارًا إسرائيلية، ينظر فيها، ولكن يتوقَّف فيها، فلا تقبل ولا ترد هذا هو العدل.

ثمَّ أشار المؤلف ـ رحمه الله ـ إلى الحديث السَّابق، وهو قول النبي ﷺ: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْت، والعَاجِزُ مَن أتبع نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى الله الأمَانيّ»[1].

الكَيِّس: هو الحازم الفِطن المنتبه المنتهز للفُرَص، هو الذي يَدِين نفسه؛ أي يُحاسبها، فينظر ماذا أهمل من الوَاجِب، وماذا فعل من المحرم،

---

(١) تقدم تخريجه ص (٥٠٧).

وماذا أتى به من الوَاجب، وماذا اجتنبَ من المحرَّم؛ حتى يصلح نفسه.

أما العاجزُ: فهو الذي يتبع نفسَهُ هواها، فما هوَتْ نفسُهُ أخذ به، وما كرهت نفسه لم يأخذ به، سواء وافق شرع الله أم لا.

هذا هو العَاجز، وما أكثر العاجزين اليومَ، الذين يتبعون أنفسهم هواها، ولا يُبَالون بمخالفة الكتاب والسُّنة، ولا يهتمون بهذا، نسأل الله لنا ولهم الهداية.

وقوله: «وتمنَّىٰ علَى الله الأماني» يعني: يقول سَيُغفر لي، وسوف أستقيم فيما بعد، وسوف أقومُ بالوَاجب فيما بعد، وسَوف أترك هذا فيما بعد، أو يقولُ: الله يهديني، وإذا نصحتَهُ قال: اسأل الله لي الهداية، وما أشبه ذلك؛ هذا عاجز.

والكَيِّس: هو الذي يعمل بحزم وجِدٍّ، ويُحاسب نفسه، ويكون عنده قوة في أمر الله، وفي دين الله، وفي شرع الله، حتَّى يتمكَّن من ضَبْط نفسه، وإلا فإنَّ الله يقول في كتابه: عن زوجة العزيز ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ﴾ [يوسف: ٥٣]، نسأل الله أن يرحمنا وإيَّاكم برحمته، ويُعيننا وإياكم على ذكره وشكره وحُسْن عبادته.

* * *

تم بحمد الله تعالى

المجلد الأول

ويليه بمشيئة الله عز وجل

المجلد الثاني



فهرس الأحاديث الواردة في الكتاب



شرح رياض الصالحين

فهرس الموضوعات